

تاريخ الكتابة التاريخية

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى المر بارنز

ترجمة

د. محمد عبد الرحمن بيج

مراجعة

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الأول



المهنة العامة لخدمة المكتبات

١٩٦٦

تصدير

بقلم: دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور
أستاذ كرسي التاريخ بكلية الآداب
جامعة القاهرة

انقضت أزمنة كان ينظر فيها إلى التاريخ على أنه مجرد قصص يراد به المتعة حيناً والعظة أحياناً ، واندثرت عصور اعتبر فيها كل من خاض في أحداث التاريخ مؤرخاً . وهانحن نعيش في زمن نرى فيه التاريخ علماً له قوانينه وقواعده ومنهجه التي لا يعياها إلا المؤرخ المصقول الذي يجمع بين الحاسة التاريخية المرهفة والوعي العلمي المتين .

حقيقة إننا كثيراً ما نصادف أناساً يخوضون في التاريخ على غير أساس سوى التقاط بعض المعلومات التاريخية والتظاهر بعرضها رغبة في التعالم ، ولكن ما أكثر الأدعياء في كل علم وفن ، وما أخطر هؤلاء الأدعياء على كل علم وفن .

وإذا كان التاريخ هو محور العلوم الانسانية كلها ، لأنه هو الذي يوضح كيف نشأ الانسان ويتبع تطوره على مدى الأيام والعصور وجهوده في تسخير الطبيعة لخدمته والخطوات التي بنى بها حضارته لبنة بعد أخرى وكيف كان ينهض بعد كبوة ويكبو بعد نهضة إذا كانت هذه بعض أوجه التاريخ ، فإن هذا كله كفيل بأن يجعل من التاريخ علم دراسة وتحقيق وتحليل ومقارنة ونقد ، بحيث لا يكون كل من يحاول الكتابة في التاريخ أو كل من يروي قصة من قصص الماضي مؤرخاً .

والحق إن التاريخ يعمل في محيط أصعب من المحيط الذي يعمل فيه أى علم معروف ، مما يجعل مهمة المؤرخ الأمين تفوق في صعوبتها مهمة أى عالم آخر . فعالم الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء أو الجيولوجيا أو الطب عليه أن يجرى تجاربه ويثبت مشاهداته ويقارن ويعمل ليصل إلى النتيجة التي يرضى عنها . أما المؤرخ الحق فعليه - علاوة على ما سبق - أن يغربل الحقائق ويصفىها وينقيها ويميز بين ما هو واقعي وما هو مدسوس . فليس كل ما هو منقوش على الآثار أو مدون في بطون المخطوطات حقيقة خالصة وإنما فيه الحقيق وفيه المزيف ، ومنه الصادق ومنه الكاذب . هنا تكمن الصعوبة التي تواجه المؤرخ الحق ، إذ عليه أن يجمع المعلومات والوثائق المتباينة عن الحدث الواحد ، ويسجل الملاحظات المختلفة عن كل حدث أو واقعة ، ثم يسلك طريقا شاقا من الفحص والنقد والمقارنة ، مجردا نفسه تجريدا تاما عن الهوى - حتى يصل إلى ما يؤمن بأنه اليقين .

على أن التاريخ لم يصل إلى هذه الدرجة من الدقة العلمية والتقيد بأصول البحث إلا بعد أن مر التاريخ نفسه بأدوار طويلة ، تبلغ في قدمها قدم الإنسان نفسه على ظهر الأرض ، الأمر الذي يثير نوعا من التساؤل حول تاريخ التدوين التاريخي أو تاريخ علم التاريخ . ومع النهضة الحديثة التي يشهدها العالم ظهرت عدة مؤلفات باللغات الأوربية تعالج تاريخ فن التدوين التاريخي وكيف تشكلت الكتابة التاريخية في كل عصر من العصور بطابع معين خاص ، أو بعبارة أخرى توضح ما أسهم به كل عصر وكل مدرسة في تطور الكتابة التاريخية . وبكل أسف ظلت المكتبة العربية حتى اليوم خلوا تماما - أى كتاب أو بحث في هذا الموضوع ، مما يشكل فراغا واضحا في هذه المكتبة يجب أن نعترف به لتلافيه .

وهكذا جاء اختيار هذا الكتاب - الذي تقدمه اليوم للقارئ في مشروع المكتبة العربية - للترجمة اختيار موفقا ، لأنه سيسد فراغا ملموسا في تلك المكتبة ، وخاصة أنه من خيرة الكتب وأحدثها في موضوعه . أما مؤلف الكتاب فهو الأستاذ هارى إلمر بارترز - أحد المرموقين في حقل الدراسات التاريخية ، امتاز كتابه بأنه موسوعه في تاريخ تدوين التاريخ ، وهو موضوع لا يستطيع أن يوفيه حقه من البحث أى مؤرخ عادى وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية أول مرة سنة ١٩٣٧ ثم أعيد طبعه مرتين الأولى سنة ١٩٣٨ والثانية سنة ١٩٦٣ . والطبعة الأخيرة مزيدة ومنقحة ، وهي التي قام الدكتور محمد برج بيلل جهدا كبيرا في ترجمتها إلى اللغة العربية .

ولا أريد في هذا التصدير أن أنحوض في موضوع الكتاب ونخطته ، فقد شرح المؤلف ذلك بالتفصيل في المقيمتين اللتين كتبهما لكتابه ، حسبما يرى القارئ في الصفحات التالية . على أنه ينبغي أن أشير إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية لم تكن بالمهمة السهلة لطول الحقبة التي عالجها ، وكثرة المصطلحات والأسماء التي ترددت فيه ، والتي تسخل في كافة فروع علم التاريخ بل في معظم فروع المعرفة الإنسانية . ولا أنكر أنني أشفقت على نفسي ووقتي من مهمة مراجعة هذا الكتاب ، إذ رغم الجهد الكبير الذي بذله فيه المترجم ، فإن مسئولية المراجعة الأمنية تقتضى دائما من المراجع أن يسير مع المؤلف الأوربي ومع المترجم العربي كلمة كلمة^١ ليطمئن إلى تأدية المعنى الذي أراده المؤلف بدقة وأمانة ، وذلك في أسلوب يتقبله القارئ العربي ويفهمه في غير صعوبة . ولكنه للإيمان بأهمية موضوع الكتاب وحاجة المكتبة العربية إليه هو الذي جعلني أضحي بما ضحيت به من جهد ووقت في مراجعته ، إلى جانب الجهد المرموق الذي بذله المترجم في ترجمته .

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من خدمة المكتبة العربية والقارئ العربي .

مقدمة لطبعة دوفر (١٩٦٣)

صدرت هذه الطبعة الجديدة من كتاب «تاريخ الكتابة التاريخية» تلبية لرجاء الكثيرين، وطلبهم ؛ من أساتذة التاريخ بالجامعات الذين أقرّوا أن هذا الكتاب هو الوحيد الذى يحوى عرضاً كاملاً لصناعة كتابة التاريخ فى مجلد واحد . وأوضح لى هؤلاء الأساتذة ؛ أن الحاجة ماسة لاستخدام هذا الكتاب مرشداً ومدخلاً لمن يتابع دراسة مناهج الكتابة التاريخية والأسلوب التاريخى على مر العصور . وأنه لاغنى عنه بأى حال فى تحقيق هذه الأغراض — وكان أن ازداد الطلب على هذا الكتاب زيادة كبيرة ؛ بعد أن نفذ فى السنوات العشرة الأخيرة — حتى استطعت أن ألبي رغبة القراء بفضل مساعدة السيد هيوارد سيركر مدير مؤسسة دوفر للطباعة .

وأرى لزماً على من باب المصارحة وتوضيح الأمور ؛ أن أبين ماهية هذه الطبعة المنقحة . ذلك أنها فى حقيقة أمرها هى نفس الكتاب الذى صدر سنة ١٩٣٧ ، والذى أدخلت عليه بعض التصميمات ، فأعيد طبعه سنة ١٩٣٨ . ولا ينبغي أن تتقضى هذه الحقيقة من قيمة هذه الطبعة الأخيرة ، وذلك إذا مانظرنا إليها من زاوية الغرض من إعدادها . فهذا الكتاب بالذات ، هو الذى طلب المعنون إعادة طبعه ؛ لأنه يحقق غرضهم ، ويسد حاجة غيرهم من بقية المشتغلين بالدراسات التاريخية ، وهم الذين يريدون كتاباً أساسياً ؛ يكون مدخلاً لدراسة الجوانب الدراسية التى أعد من أجلها والى بنفق معها . وعندما طلبوا إعادة طبع الكتاب ؛ كان هذا الكتاب بالذات هو الذى يقصدهونه ، وترتسم صورته فى أذهانهم .

ولو أن الظروف كانت قد سمحت بإعادة جمع حروف الكتاب من جديد ، ومراجعته فى حرية واسعة ، لما أدى ذلك بأى حال من الأحوال إلى اختلاف الكتابة عن هذه الطبعة الجديدة . فقد بذلت كل جهودى فى اخراج هذا الكتاب سنة ١٩٣٧ ، — ولم أرمبراً لإدخال أية تعديلات جوهرية أو هامة عليها فى السنوات التالية ، ولو كنت قد نكرت فى زيادة حجم الكتابة فربما تغير الموقف ، ولكنى لم أفكر فى ذلك ؛ لأن الزيادة فى حجم الكتاب ؛ كانت ستؤدى إلى صعوبة استخدامه كمرجع دراسى سهل التداول .

وقد حرص المؤلف عند إعداد هذه الطبعة الجديدة ، أن يضع في الاعتبار كل ماوجه من نقد لطبعة سنة ١٩٣٧ ، وكذا كل ماوصله من تعليقات ومقترحات منذ ذلك الحين . كذلك قرأ بعناية أشهر الكتب التي تناولت موضوع الكتابة التاريخية ، والتي ظهرت منذ سنة ١٩٣٨ فصاعداً ، وأخص بالذكر منها : المؤلف الضخم الذي وضعه جيمس وستغول طومسون ، وما كتبه مايكل كراوس من كتابات قيمة عن علم تدوين التاريخ في أمريكا ، فضلاً عن الكتب العديدة الأخرى التي ظهرت في ذلك الموضوع ، والتي تناولت بصفة أساسية التطورات المرتبطة بكتابات كارل بيكر وشارل اوشن بيرد ، والمرتبطة كذلك بمشكلة النسبية التاريخية .

وثمة تغيير جذري في هذه الطبعة الجديدة هو إدراج المؤلفات التاريخية التي تم نشرها منذ سنة ١٩٣٨ ، والتي تعتبر من الدرجة الأولى في الأهمية ، وهي المؤلفات التي عالجت كافة عصور التاريخ — من عصر ما قبل الكتابة إلى عصر الحرب الباردة الذي نعيشه اليوم . كذلك أدخلت تعديلاً على ثبت المراجع وعلى التذييلات ، بحيث أصبحت جديدة كل الجدة ، وشملت الكتب الهامة التي ظهرت منذ سنة ١٩٦٣ . هذا فضلاً عن العناية الكافية بالتغيرات التي طرأت على منهج الكتابة التاريخية ، وما نجم عن التطورات التكنولوجية التي حدثت منذ ١٩٣٨ . من تعديل اعتري النظرة إلى التاريخ وطرق البحث فيه ، فضلاً عن كتابته ودراسته وتألقه ..

ومع أنني أعطيت الكتابة التاريخية عن الحرب العالمية الثانية ونتائجها قدراً من الاهتمام يفوق ما قام به أي مؤرخ آخر على قيد الحياة .. إلا أنني حرصت في هذه الطبعة على مقاومة الإغراء للخوض في معالجة تلك المسألة السياسية . ولن يعجز أولئك الذين يرغبون في الوقوف على آراء المؤلف حول هذا الموضوع عن الوصول الى موضع تلك الآراء .

ماليبور كاليفورنيا

سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

هاري إلر بارنز

مقدمة المؤلف للطبعة الأولى

يجرى هذا الكتاب مدخلا لتاريخ الكتابة التاريخية ، وهو يقدم عرضاً لتطور فن الكتابة التاريخية والعلم الخاص بتلك الكتابة ؛ من الأزمنة الغابرة حتى عصرنا الحالي . مع عدم أغفال أهمية علاقة هذا التطور بالإطار الثقافي العام ، والقوى الفكرية التي شكلت ذلك الإطار . ثم إن هذا يعطى ، اهتماماً كافياً لكبار الذين دونوا مؤلفات تاريخية كبرى تناول أحداث الماضي ، مع محاولة إيضاح أهمية جهود أولئك الكتاب والتأثيرات الفكرية التي ساعدت على تشكيل مفاهيمهم التاريخية ، ذلك أن الكتابة التاريخية — مثلها مثل أية صورة أخرى من الصور الثقافية — هي في حقيقة أمرها نتاج تاريخي . ولذا ينبغي دراستها في ضوء خلفية الحضارات التي البثت منها — وعلى ذلك فإن تاريخ الكتابة التاريخية لا بد وأن يكون إلى درجة كبيرة مظهراً من مظاهر التاريخ الفكري للجنس البشري — فضلاً عن أن الكتابة التاريخية الواعية ؛ لا بد وأن تضع في اعتبارها أمرين ؛ هما : نظرية عظمة الإنسان ، وفكرة حتمية التطور الثقافي . ويوضح تاريخ الكتابة التاريخية أثر هذين العاملين على التطور الثقافي إلى حد بعيد .

وهناك ثلاثة طرق رئيسية يمكن بواسطتها علاج موضوع الكتابة التاريخية . أولها : أن يختار المؤلف عدداً من كبار المؤرخين منذ عصر هيرودوت إلى عصر ادوارد ماير — ثم يخصص لكل منهم دراسة أدبية . وتبدو هذه الطريقة أكثر إمتاعاً من غيرها ، كما أنها تلائم بدرجة أكبر الصنعة الأدبية . ومن أمثلة هذا النوع من المؤلفات ؛ كتاب مورتر ريتز عن « تطور علم التاريخ » . ولكن مهما يكن لهذا النوع من الكتابة من خط من شغف القراء ، ومهما يكن له من قيمة أدبية ، فإنه يفتقروا إلى الدقة العلمية والدراسة المقارنة .

والطريقة الثانية : هي أن يقدم المؤلف موسوعة باسماء مراجع للكتابة التاريخية ، على نحو ما فعل ولیم هنری اليسون وآخرون في كتابهم . « دليل المراجع التاريخية » وكذا كتاب شارل . ف . لانجلويس « الدليل الموجز للمراجع التاريخية » . وهذا النوع الأخير من الكتب يحقق الدقة التي نعوز الطريقة السابقة . ولكنه يقدم لنا شيئاً لا يخرج عن كونه مجرد اسم مرجع . وبالتالي فهو لا يلائم القراءة المتصلة ذات الأفكار المترابطة .

أما الطريقة الثالثة : فهي ان يشخص المؤلف الأساس الفكرى لكل فترة رئيسية من فترات التقدم البشرى فى الحضارة الغربية — ويوضح كيف أن الكتابة التاريخية فى كل من هذه الفترات ؛ كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بالثقافة الأم — وبين السمات الرئيسية للكتابة التاريخية فى كل عصر — وما حققته من تقدم جديد فى علم التاريخ . ثم يعطى صورة واضحة لانتاج كل كاتب من دعائم الكتابة التاريخية فى العصر — وهذه الطريقة تمكنه من استعراض الاحداث الكبرى فى كل حقبة وتحديد جوانب التقدم فى الحضارة البشرية بوجه عام . وفى علم التاريخ على وجه الخصوص . ثم استجلاء ، ما أسهمت به المواهب الفردية لكبار كتاب التاريخ فى كل عصر . وهذا الأسلوب فى علاج الموضوع يجعل من الممكن الجمع بين حصر نواحي التقدم فى كل عصر وبين إبراز طبيعة الشخصيات الكبرى التى تدور حولها أحداث ذلك العصر . وكانت هذه هى الطريقة التى اتبعها ادوارد فيوثر فى كتابه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهى أيضاً نفس الطريقة التى فضلها فى كتابى هذا ، لأننى مقتنع بأنها الطريقة السليمة لعلاج هذا الموضوع بوصفها عرضاً عاماً ومدخلاً للدراسة أشمل . وإن كنت أترك للآخرين الحكم على مدى ما أحسبه من توفيق فى استخدام هذه الطريقة .

وقد حافظت فى الفصول الأولى من الكتاب على التقسيم التقليدى لمراحل تطور الكتابة التاريخية ، فعالجت الموضوعات فى هذه الفصول علاجاً زمنياً متسلسلاً . ولكن القارئ سيلمس تبايناً فى بقية الفصول ، حيث إننى لجأت إلى علاج هذا التطور على أساسى موضوعى ، وهو أمر لم يكن من المستطاع تجنبه ؛ لظهور اتجاهات مختلفة فى الكتابة التاريخية فى وقت واحد . فعلى سبيل المثال نجد أن القرنين السابع عشر والثامن عشر شهدا بداية المدارس التاريخية الحديثة . ونشأة فلسفة التاريخ . والاتجاهات العقلية فى الكتابة التاريخية ، فضلاً عن ظهور النعرة القومية فى تلك الكتابة . كذلك شهدت المائة سنة الأخيرة ، بلوغ الكتابة التاريخية مرحلة الكمال من ناحية شمول المعلومات . كما شهدت نشأة تاريخ الحضارة *kulturgeschichte* والأثر العظيم للعلوم الاجتماعية على كتابة التاريخ . وهكذا نبين أن علاج جميع هذه التطورات والاتجاهات عن طريق إدماجها تحت حقبة زمنية واحدة ، لن ينجم عنه سوى الارتباك وسوء التنظيم . ومن ثم رأينا من الأفضل الالتجاء إلى تعديل طفيف فى الطريقة ، بالقدر الذى يسمح بالترتيب الموضوعى حتى يزداد الموضوع فهماً ووضوحاً

وبدهى أنه فى هذه الحالة بات الاختيار أمراً ضرورياً لتحديد عدد واسماء المؤرخين الذين يتعرض لهم هذا الكتاب ؛ والذين لزم التنويه بهم والإشارة الخاصة إلى أعمالهم ، وإلا غدا الكتاب مجرد فهرس — وخاصة فى أجزائه الأخيرة — ولقد حاولت بكل طاقتى أن أجعل

هذا الاختيار يقوم على أسس عادلة معقولة . ومع ذلك فإنه لا مفر من أن يقع اختيار الغير في حالات كثيرة على أسماء غير تلك التي أخذتها وأقل ما يمكن أن أقوله في هذا الشأن : إنني لم أورد أى اسم بسبب ميلى أو انحيازى لاتجاه بعينه ، أو شخصيات بذاتها . وكذلك فإننى لم أستبعد أى اسم لتحامل الشخصى على صاحبه أو تحيزى ضده — فإن كانت هناك أسماء قد حذفها وثبت بعد ذلك أهميتها ، فإنه ليسرنى أن أضعها في الطبقات اللاحقة ؛ إذا تفضل أى امرئ بلفت نظرى إليها .

هذا وقد كنت صريحاً في معالجتي للكتابات التاريخية المعاصرة والأحياء من المؤرخين ، قدر صراحتي في تقديمي للكتابة التاريخية والمؤرخين في العصور القديمة والوسطى — وفي هذا ابتعاد عن المنهج المألوف المقبول — ولكنى أعتقد أن هذا أمر لاغنى عنه في أى مشروع للتاريخ للكتابة التاريخية بأخذ على عاتقه سرد قصته والوصول بها إلى أيامنا هذه . ذلك أن أهم الكتابات التاريخية على مر العصور كلها ؛ هي تلك التي دونت في الخمسين سنة الأخيرة — ومازال اكثراً المؤرخين على قيد الحياة — وعلى ذلك ؛ فإن استثناء الأحياء من المؤرخين ، وكذا السمو بأعمالهم عن النقد والتعليق ؛ سوف يترك هوة خطيرة في التقدير والتقييم الفاحص ؛ الذي يمكن أن يحويه كتاب من هذا النوع . وكتب التاريخ والعلوم الاجتماعية التي لا تتعرض للمؤرخين المعاصرين ؛ لا تحقق الفائدة المرجوة منها لأجيالنا التي تعيش اليوم .

وحسبنا أن مقالة كتلك التي كتبها «شارل اشن بيرد» بعنوان الحلم النبيل The Noble Dream ؛ تفوق في أهميتها العملية مجلداً كاملاً يتناول في طياته نقداً لكتاب الحوليات في العصور الوسطى . ثم إن تناول المعاصرين من الكتاب تناولاً صريحاً عادلاً يمثل «روحاً رياضية» عظيمة ذلك أن الشخص الموجود على قيد الحياة ؛ يستطيع أن يرفع صوته محتجاً ؛ بعكس الميت الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ضد ما يوجه إليه من نقد .

وقد عني هذا الكتاب عناية كبيرة برعاية ميول المؤرخين ، والاهتمام بالدراسات التي يعتمدون عليها في عصرنا . ولعل أهم ما أتى به القرن العشرون من جديد في مجال الكتابة التاريخية ؛ هو أنه ومع إدراكنا لمعنى التاريخ — نأتى بالفكرة القائلة بأن دراسة تاريخ الانسان في العصور السابقة يجب أن تبين لنا كيف كانت تسير الأمور في الماضي ، وكيف تطورت بعد ذلك — كما أنه أتى بالفكرة التي تذهب إلى أن تاريخ ماضى الانسان يساعدنا كثيراً على فهم حاضرننا ، وبمكنتنا من تخطيط المستقبل ، هذا كله فضلاً عن الاعتراف بأهمية العلوم الاجتماعية المختلفة في إعداد المؤرخ للممارسة مهنته . وهذه الأفكار الجديدة ؛ إنما تنبئ بتطورات عديدة أخرى في ميدان الكتابة التاريخية عند الأجيال القادمة ، وهذا في حالة ما إذا قدر للحضارة البشرية أن تستمر . وقد أقرت مدرسة أقطاب المؤرخين هذه الحقيقة بصفة قاطعة ، كما يدل

على ذلك التقرير المطول عن الدراسات الاجتماعية الذى أعدته إحدى اللجان المنبثقة عن الجمعية التاريخية الأمريكية . ومع ذلك فإن اعترافنا بأهمية ما يسمى « بالتاريخ الجديد » لجيلنا الحالى ، لم يجعلنى أبداً انتقص من القدر المخصص للإشادة بدور المدرسة التاريخية التقليدية ، فوفيتها حقها من الاحترام والتقدير .

والحقيقة أن هذا الكتاب قد قصد به أن يكون أكثر من مجرد موجز لما يعلم للقللة المختارة . ذلك أنه من المستطاع أن يمكن القارئ من ربط الأطراف المفككة فى كتابات الباحثين ، كما يعرف المبتدئ فى الدراسات التاريخية بالتطورات الاساسية لمهنته فى المستقبل ، وبمخالقة هذه المهنة . ولكنى أرجو كذلك أن يجد القارئ العام متعة ذهنية فى هذا الكتاب ، حيث إن عظماء المؤرخين يجذبون دوماً القراء المثقفين إليهم ، وذلك بفضل ما لكتاباتهم من روعة وسحر وقد حرصنا فى هذا الكتاب على أن نضع ليكوديدس ، تاكيتوس ، هيرودوت ، جيون ، موتلى ، باركمان . ماكولى ، وغيرهم ؛ فى مواجهة المسرح الثقافى والمهنى الذى انبثقت منه كتاباتهم ، والذى على أساسه يتم تقييم هذه الكتابات تقيماً سليماً وسط كتابات معاصريهم . فالقصة الكاملة لتاريخ التاريخ ؛ لا بد وأن تكون أكثر تشويقاً ومتعة ثقافية من أية نبذة عن مؤرخ واحد ، أو عن إنتاج ذلك المؤرخ . يضاف إلى ذلك أن أى عرض لتاريخ التاريخ ؛ سيكون حتماً رحلة متصلة الحلقات لها أهميتها فى تاريخ نمو الفكر البشرى والرقى الانسانى ؛ حيث إن التاريخ يتميز بكثرة جوانبه وداوم تقدمه وتطوره .

وأخيراً ؛ فإن دراسة الكتابات التاريخية السابقة ، وكذا الحقائق التاريخية المتعلقة بالماضى ؛ ينبغى أن تعدنا بطريقة أفضل لمعالجة مشاكل اليوم ، وتفسير المشاكل الجارية التى يتعرض لها الناس . ثم إننى قت بهذا العمل على قدر طاقى فى ضوء المفاهيم التى استرشدت بها . وفى حدود الحجم الذى خصصته للكتاب . وإذا كان هناك من يعتقد أنه يستطيع تنفيذ هذا العمل بطريقة أفضل ؛ فإنه سيجد بكل تأكيد مجالاً متسعاً لذلك . ولما كان هذا الكتاب هو الوحيد من نوعه فى كافة اللغات ؛ فإننى أتمنى كل نجاح وتوفيق لأى كاتب يقوم بعمل ينافس عملى هذا . ولن يكون هناك من هو أكثر منى سعادة عندما أرى المطابع تخرج للقراء كتاباً أفضل من كتابى هذا فى الموضوع نفسه .

وبرن — نيويورك

هارى إلر بارنز

شكر وتقدير

لقد تفضل كلُّ من الأساتذة : كارل وتيك (عميد كلية اوپرلين) ، ورالف هـ — ريكوردز (جامعة اوكلاهوما) بقراءة أصول الكتاب بأكملها . وأبدى كلاهما بعض الملاحظات البناءة التي ساعدتني كثيراً في مراجعة مادته . كذلك عني آخرون بأجزاء من الأصول تقع في دائرة تخصصاتهم ؛ فقرأ الأستاذ (ناتانيال شميدت) جامعة كورنيل الفصل الأول — وقرأ الأستاذ دلاس كالدويل (جامعة كارولينا الشمالية) الفصلين الأول والثاني — أما الأساتذة ؛ ادوارد مازلين هولم (جامعة ليلاند ستالفورد) جوزيا . ك راسل (جامعة كارولينا الشمالية) ؛ فقد قرءوا الفصلين الثالث والرابع ، وقرأ الأستاذ البرت هـ لايبير الأجزاء التي ترتبط بالتأريخين البيزنطيين والمسلمين في الفصل الرابع . وقرأ الأستاذ جيمس ا جيلسي (كلية بنسلفانيا) والأستاذ ليوجير شوى (جامعة لونج ايلاند) الفصل السابع . كذلك قرأ الدكتور هـ . س . انجلبرشت (نيويورك) الفصلين الثامن والتاسع — أما الفصل العاشر ؛ فقد قرأه الأستاذ دافيد مازي (جامعة كولومبيا) وهو الذي تفضل أيضاً بقراءة مسودة مبدئية للفصل الحادي عشر — كما قرأ بعض أجزاء الفصل العاشر أيضاً ؛ الأستاذ لويس م . هاكر . وهناك أيضاً الأستاذ بنيامين ب . كندريك (كلية كارولينا الشمالية للبنات) الذي قرأ الفصول الثاني عشر والثالث عشر والخامس عشر — أما الأستاذ ميرل كورتي (كلية المعلمين بجامعة كوليبيا) ، والأستاذ فالمرود (مكتبة هانتينغتون) باسادينا كاليفورنيا — فقد قرءوا الفصل الرابع عشر .

واكتشف هؤلاء الأساتذة عدداً من الأخطاء ، وأبدوا كثيراً من الملاحظات البناءة من أجل تهذيب المادة التي أضفتها لهذه الطبعة . وإنني لمدين كذلك للسيد سانوى لونتيل « نورمان — اوكلاهوما » لتفضله بمراجعة الأسماء والتواريخ في « تجارب الطبع » ولقيامه بعمل الفهرس المطول الخاص بالكتاب — ويسرني كذلك أن أشيد بالجهود العظيم الذي بذله السيد جوزيف ا . براندت (مطبعة جامعة اوكلاهوما) بالاشراف الدقيق على الطباعة والإخراج . كذلك ساعدني مشكوراً السيد أنتوني نتوى في قراءة « تجارب الطبع » .

والحق إننى فى هذه الطبعة لم أفرض على أحد مساعدتى . وإنما أفدت من النقد والتعليقات التى ظلت تصلنى منذ سنة ١٩٣٨ وأود بصفة خاصة أن أعبر عن اعتنائى وشكرى للسيد روبرت هتشنسون ورفاقه فى مؤسسة ردفر للطباعة ؛ لما قدموه من مساعدة فنية قيمة ، ولما أبدوه من جد واهتمام طوال عملهم معى فى إخراج هذا الكتاب .

هارى إلر بارنز

أصول الكتابة التاريخية (طبيعة التاريخ)

ارتبط اصطلاح التاريخ في استعماله العام بمعنيين مختلفين : فهو يستعمل عادة للتعبير عن حصيلة النشاط الإنساني في الأزمنة السابقة . ويأتي استخدامه بهذا المعنى مقروناً عادة بالعبارة التي كثيراً ما تترامى إلى أسماعنا ؛ وهي عبارة «والآن يصنع التاريخ» . وهذا ما يحدث عادة عند الكلام عن فترة نشطة ، أو عصر حافل بالأحداث الهامة من عصور النشاط البشري . أما الاستعمال الأكثر شيوعاً فهو ذلك الذي يعتبر التاريخ سجلاً للأحداث لا مجرد سرد للأحداث ذاتها . وهذا المعنى الأخير الأكثر تقبلاً وشيوعاً يمدنا بتعريفين للتاريخ : الأول موضوعي ؛ وهو على حد قول الأستاذ جيمس هارفي روبنسون : «كل ما نعرفه عن كل شيء فعله الإنسان أو فكر فيه أو أحس به أو نمناه» أما التعريف الثاني — وهو إلى حد كبير تعبير موضوعي أو نفسي — فهو أن التاريخ سجل لكل ما حدث داخل نطاق الإدراك البشري .

وعندما ننظر إلى التاريخ على أنه سجل لأحداث الماضي ؛ نجد أن البعض — وبخاصة في العصور المبكرة — اعتبروه فناً — وفرعاً من فروع الأدب . ونلمس في الوقت الحاضر زيادة كبيرة مضطردة في عدد الهيئات العلمية التي تعتبر التاريخ في أساسه علماً اجتماعياً ؛ يعني بقدر الإمكان باعادة بناء الفكر البشري والنشاط الإنساني في العصور السابقة .

وقبل الاكتشافات الهامة التي توصل إليها الباحثون في علم آثار ما قبل التاريخ وهي تلك الاكتشافات التي كان لها فضل كبير في تنمية معلوماتنا عن النشاط الإنساني في الأزمنة الغابرة — كان هناك اتجاه تقليدي يقصر لفظه «تاريخ» على سجل أحداث الماضي التي تم وصفها أو تسجيلها على الآثار . أما الآن فقد أوضح لنا علم الآثار كثيراً مما خفى من مراحل

معينة في حياة الانسان الأول ، مما جعلها أكثر وضوحاً من المراحل الأحداث منها . والتي استقينا معلوماتنا عنها من الأدلة المدونة . وعلى هذا لم يعد سليماً أو منطقياً أن نستخدم اصطلاح «ما قبل التاريخ» ، إلا إذا كنا نغني تلك الفترة الغامضة التي يفترض وجودها في البداية المبكرة جداً للتطور البشرى والتي لا توجد لها كتابات مدونة أو نقوش أو اللهم إذا قصرنا مفهوم التاريخ على أنه فرع من فروع الأدب . ولذا حل اصطلاح «ما قبل الكتابة» محل اصطلاح «ما قبل التاريخ» . ونعني بهذا المصطلح ، تلك الفترة من التطور البشرى التي نستخدم معلوماتنا عنها من القرائن الأثرية ؛ لا من كتابات مدونة .

وخلاصة القول : فإن هناك اتفاقاً على أن اصطلاح «ما قبل التاريخ» يحوى كثيراً من التناقض والبعد عن الحقيقة ؛ إذا ما استخدم في وصف أية فترة وجد لها سجل غني ؛ سواء اتخذ هذا السجل شكل كتابة أو أحجار أو عظام ، أو أدوات معينة ؛ فما كانت تستخدم في الحياة اليومية . وقد نبذ الكتاب المحدثون اصطلاح «ما قبل التاريخ» كما نبذوا من قبل اصطلاح «ما قبل آدم» . وجاء ذلك نتيجة حتمية للمعلوماتنا عن النشاط البشرى ؛ من ناحيتي الزمان والمكان .

وليس من الصواب أن تناقش في هذه المرحلة من الكتاب وبالتفصيل مختلف الآراء التي توضح ماهية التاريخ ؛ وما إذا كان يعنى أساساً برواية الأحداث — فإن مهمة هذا الكتاب هي إلى حد كبير توضيح التفسيرات المختلفة للتاريخ ، وتبيان تلك المشكلة التي طالما أثارت جدلاً ونقاشاً ، وأقصد معنى التاريخ أو الآراء التي دارت حول معناه ، وماطراً عليها من تغير وتطورا .

تطور تاريخ ما قبل الكتابة

يتحتم علينا بعد ما تبين أن التاريخ بمعناه المعاصر يرجع بعيداً إلى ما قبل تسجيل الوجود البشرى أو النشاط الإنساني ، أن نبحث عن أصل التاريخ بين تلك المصنوعات المبكرة التي تميزت من ناحية الشكل ، كما اتصفت بمتانة التركيب المادى ، بحيث أمكنها البقاء على مر العصور المتعاقبة ؛ لتكون دليلاً على منجزات الإنسان في ذلك الدور العريق في القدم والذي سبق إتيان فن الكتابة . وعلى هذا يمكن القول : إن الأصل الحقيقي للتاريخ إنما يرجع إلى تلك الفترة الغابرة الغامضة ؛ التي تعرف بالعصر الايولوثي أو ما قبل العصر الحجري القديم ، وهو العصر الذي استخدم فيه أحجاراً لا شكل لها ، بمعنى أن أول وثيقة تاريخية يمكن أن تعتبر

بحق أول آلة حجرية . أما إذا كان هناك من يرفض وجود الفترة الايلوثية — أى ما قبل العصر الحجري القديم . فإن أول سجل مؤكد في التاريخ يكون العصر الحجري القديم : الذى استخدم فيه الحجر المشطى .

ولا يسمح المجال هنا إلا ببيان مختصر جداً عن القصة الشيقة للتطور المبكر للجنس البشرى — كما تكشف عن الأدوات التى ظلت باقية . فهناك دلائل مثيرة على نشاط الإنسان واهتماماته في هذه الفترة الغابرة : التى ترجع إلى أكثر من ربع مليون سنة — والتى توضحها الأدوات والعظام التى وجدت في حصباء المدرجات النهرية القديمة ، فضلاً عن الكهوف والمغارات وما تم على عظام الحيوانات من نقوش محفورة ، فضلاً عن الرسومات البدائية التى وجدت في أماكن تلك الكهوف . ومن بينها ما وجد في التاميرا بأسبانيا ، فونت دى جوم بفرنسا ، فضلاً عن المنتجات الرائعة من العصرين البرونزى والحديدي — مما يثير بكل تأكيد اهتمام القارئ . وللإلمام بهذا الموضوع إلاماً وافياً : على القارئ أن يرجع إلى كتاب س . د . نايت « ما قبل فجر التاريخ »^(١) . وكتاب جورج جرانت ما كوردى Mac Curdy « ظهور الإنسان »^(٢) . وكتاب ستانلى كاسون « التقدم في دراسة الآثار »^(٣) . وكل ما يمكننا أن نفعله في هذا المجال : هو أن نقدم عرضاً سريعاً مختصراً لأهم الحقائق وأبرزها في هذا الموضوع .

لقد تم التوصل خلال القرن التاسع عشر إلى اكتشافين ثوريين : على قدر كبير جداً من الأهمية فيما يتعلق بأصل الجنس البشرى . أما الاكتشاف الأول فقد قضى على الفكرة القائلة : إن كل الكائنات الحية على هذه الأرض ، وأهمها بطبيعة الحال الإنسان قد خلقها الله في أسبوع واحد في وقت سبق ظهور المسيح بأربعة آلاف سنة أو أكثر قليلاً كما ذكر في الكتب الإسرائيلية والمسيحية وعلى النقيض من ذلك : أثبت هذا الاكتشاف أن بعض المخلوقات التى لها خصائص إنسان اليوم ، وبعض عاداته ، وشئ من ذكائه وتكوينه الجسماني ، تركت آثار أقدامها على صفحة التاريخ منذ حوالى خمسة ملايين سنة . أما الاكتشاف الثانى ، فيؤكد حداثة عمر البشرية بالقياس إلى عمر الأرض ذاتها .

وبناء على هذه الاكتشافات ، أخذت تلك القصة التقليدية عن بداية الخليقة تنهار تماماً أمام المفهوم الجديد الذى شق طريقه إلى عقولنا ، بعد التعرف على تلك الحقبة الطويلة

(1) Mc-Graw - Hill Book co. 1935.

(2) University Society 1932.

(3) Mc Graw - Hill 1935

التي أنقضت منذ أن انفصل كوكبنا عن الكوكب الأم — وهو الشمس — في صورة كتلة غازية هائلة . أنضمت تتجمع ذراتها لتكون الأرض التي نعيش عليها . ومهما يكن الاختلاف حول تقدير عمر الأرض ، فإنه لا جدال في أن حقبة طويلة من الزمن لا يمكن أن يدركها الإنسان ، قد أنقضت منذ أن بدأ الغاز يتحول إلى مادة أصلية ، أو منذ أن بدأت الذرات الكوكبية تتحد معاً لتكون كوكبنا — ومع ذلك ، فإنه طبقاً لتقدير الفلكيين في قياس الزمن ، فإن مولد الأرض كان حدثاً جديداً نسبياً في تاريخ الكون . وفي هذا يقول الاستاذ شابلي : في الأزمنة الغابرة جداً منذ ملايين كثيرة من السنين ، وقبل ظهور سيد جميع المخلوقات — أى الإنسان — تبعثت النجوم طاقتها المشعة ، ودارت الأجرام السماوية دورتها ، وخضع الكون لحكم القانون .

والواقع أننا مدينون بالكثير لعلم الجيولوجيا فما يختص بتقدير عمر الأرض . ذلك أن الجيولوجيين كانوا أول من حطم الأفكار السائدة في هذا الشأن . فبعد أن كانت النظرية المقبولة حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقول : إن سلسلة من الازمات القاسية قد خلقت بالكون الذى هو من صنع الله ، لتفسر بذلك التكوين الطبيعى لسطح الأرض — إذا بالجيولوجى الانجليزى السير شارلز لايلى يثبت لأول مرة أن القشرة الأرضية لم تتكون نتيجة لما حل بالكون من كوارث جارية ، وإنما تكون سطح الأرض نتيجة لأسباب وعوامل طبيعية . كلها مفهومة الآن ، ولا يزال معظمها يؤثر في الأرض . ففي كتابه المشهور « مبادئ الجيولوجيا » الذى صدر في الفترة ما بين سنتي ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ ، أوضح لايلى التفاعلات الطبيعية التي انتهت — بعد عصور جيولوجية عديدة — إلى تكوين مختلف الطبقات الجيولوجية والجبال والوديان وما إلى ذلك . ومنذ ذلك التاريخ وكل مؤلفات الجيولوجيين المتعاقبين تؤكد وجهة نظر لايلى . الذى أصدر بعد ذلك بثلاثين سنة (١٨٦٣) كتاباً آخر عنوانه « قدم الانسان » لخص فيه الدلائل المقنعة التي تؤكد صحة نظريته القائلة : إن الانسان عاش على الأرض منذ زمن أقدم بكثير عما كان يعتقد الناس عندئذ .

والواقع أن تطور الحياة العضوية على كوكب الأرض ينقسم من الناحية الجيولوجية إلى أربعة أقسام رئيسية هي :

- ١ — المرحلة الاولى (الباليوزية)
- ٢ — المرحلة الثانوية (الميسوزية)
- ٣ — مرحلة الثدييات (الترتارية)
- ٤ — مرحلة عصر الإنسان (الكوترينية)

وتستخدم أحيانا عبارة المرحلة السينوزية للتعبير عن المرحلتين الثالثة والرابعة معا . ومن الواضح أن حقبة طويلة جدا من الزمن قد مرت بين المرحلتين الأولى والثانية . وربما بلغت هذه الحقبة ثلاثمائة مليون سنة . ولا بد أن نذكر هنا أن تقديرات الزمن الجيولوجي تختلف من مصدر إلى آخر اختلافا كبيرا — ولذلك فإن علينا أن نقنع بما هو تقريبي . ومن المعتقد أن مرحلة الثدييات قد استمرت فترة تتراوح بين خمسة ملايين وثلاثين مليون سنة . ويسود الاعتقاد في الوقت الحاضر بأن طول المرحلة الرابعة يزيد على المليون سنة . أما المرحلتان الأخيرتان فتتسمان إلى أقسام فرعية ، فمرحلة الثدييات تنقسم إلى أربعة فترات : عصر الأيوسين ، وعصر الأوليجوسين ، عصر الميوسين ، عصر البليوسين . كذلك تنقسم مرحلة الإنسان (المرحلة الكورتنية) إلى عصرين : عصر البليستوسين والعصر الحديث . والواقع أن الترتيب الزمني لهذه المرحلة الأخيرة أمر في غاية الأهمية بالنسبة لتقدير عمر الإنسان وهو يقوم على العصور الجليدية الأربع ، وعلى العصور الثلاثة المتداخلة التي تحللها الواحد بعد الآخر . وتعاقبت حتى نهاية عصر البليستوسين . وقد نكون اليوم في المرحلة الرابعة من هذه المراحل المتداخلة .

وظلت أصول الثقافة البشرية حتى عهد قريب مجهولة تماما . شأنها في ذلك شأن أصل الجنس البشري ذاته . فطالما اعتبر آدم أول إنسان عاش على الأرض ، لم يكن هناك مجال لفكرة ما عن أي وجود للإنسان قبله ، وبالتالي لم يكن هناك مبرر لوجود علم آثار ما قبل التاريخ ، حيث إن أصل الكتابة يرجع إلى عهد يكاد يعاصر الإنسان الأول كما يتحدث عنه الإنجيل . ولكن اكتشاف بقايا هيكلية في الطبقات الجيولوجية القديمة أثبتت وجود أنواع أول للإنسان في ذلك الزمن السحيق . كما أن اكتشاف المصنوعات والمنتجات المختلفة التي هي من عمل الإنسان في بعض الطبقات الماثلة الأخرى ، سرعان ما أوضح أن تاريخ الإنسان وثقافته لا بد وأنها يمتدان إلى عهود بعيدة جدا . ولدينا معلومات كافية إن لم تكن كاملة تمكننا من تتبع تاريخ الثقافة البشرية منذ أصولها البعيدة للغاية ، وخلال مراحل تطورها المتعددة إلى يومنا هذا .

ولا يزيد عمر العلم الذي أوصلنا إلى هذه المعلومات القيمة — وهو علم آثار ما قبل التاريخ عن مائة سنة بكثير . ولما كان عصر ما قبل الكتابة لم يعرف التقويم ، فإن علم الآثار عليه تصنيف وتاريخ القرائن التي يعالجها ، أي البقايا الحجرية والعظمية والمعدنية التي يكتشفها . وذلك بوضعها في ترتيب زمني طبقاً لما يتبينه فيها من تطور وتقدم في الثقافة البشرية . ويعاونه في ذلك الجيولوجي الذي يقوم بوضع تواريخ تقريبية لكل من هذه البقايا عن طريق تقدير عمر الطبقة التي وجدت بها البقايا العظمية ، أو الأدوات والمصنوعات البشرية . فضلاً عن

عمر العظام الحيوانية التي وجدت بالطبقة نفسها . وتمكننا طريقة «كربون ١٤» من التعرف على طبقات عمرها خمسون ألف سنة ، في حين تمكننا طريقة أرغون البوتاسيوم من التعرف على طبقات عمرها أكثر من مليونين من السنين .

وقد أدى العثور على بعض الأدوات الحجرية التي نعتقد اليوم أنه من صنع الإنسان البدائي ببعض الكتاب خلال العصر الوثنى القديم إلى التأمل مغزاها ومعناها ، فيبدو أن الشاعر الروماني الفيلسوف لوكريتيوس ؛ وهو من كتاب القرن الأول قبل الميلاد — استطاع التوصل إلى تعاقب العصور الحجرية البرونزية والحديدية . بيد أن ثمة اعتقاداً ساد في تلك العصور بأن الأدوات الحجرية ليست إلا أحجاراً رعدية ألقت بها الآلهة . وظل هذا الاعتقاد سائدا طوال قرون عديدة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل اعتقد البعض بأن الأدوات تملك قدرات وخصائص سحرية خارقة . لذا فإنه عندما أتى مايكل مركت التوسكاني في القرن السادس عشر ؛ بنظرية تنادى بأن الأحجار الرعدية أو الصواعق ؛ ربما كانت من صنع الإنسان الأول ؛ فإنه يردد نظرية تسبق عصره . واستطاع رجلٌ مجهولُ اسمه توليوس — في القرن التالي — أن يخرج بنظرية ترضى المثدين من معاصرة ، ونوداها أن تلك الأحجار ليست إلا نيازك تولدت في السماء ؛ بفعل أبخرة ذات وميض تكونت على شكل سحب من تراكم بعض المواد فيما وراء الأفق .

ولم يكن ذلك قبل القرن التاسع عشر ، عندما تأكدت تماماً فكرة أن هذه الأدوات إنما هي من فعل البشر . ويرجع الفضل في ذلك إلى أمين متحف دانمركى الجنسية هو .س . ثومسن : Thomsen ثم إلى درجة أكبر إلى المجتهد الجريء جاك بوشيه دى برث ، وهو عالم آثار فرنسى . أما ثومسن فقد أحيا الأراء غير الواضحة التي أتى بها لوكريتيوس وأقامها على أسس علمية . وقد قسم ثومسن معروضات تحفة طبقاً لتتابع العصور : الحجرية ، فالبرونزية ، ثم الحديدية ، مستعيناً في ذلك بعلم الجيولوجيا . ولكنه — على الرغم من ذلك — لم يضيف إلى معلوماتنا سوى القليل عن أهمية تلك المعروضات التي صنعها على ذلك النمو ، أو عن قدم عهدها .

أما بوشيه دى برث فقد أخذ على عاتقه إيضاح حقيقه هامة ؛ وهي أن الإنسان المبكر قد استخدم فعلاً تلك الأدوات الحجرية في حياته اليومية منذ آلاف عديدة من السنين . وقد بدأ بوشيه حوالى سنة ١٨٣٠ جهداً منظماً للكشف عن البقايا الأثرية لوادى السوم ، حيث عثر في رمال الأنهار القديمة على كميات هائلة من الأدوات الحجرية والأسلحة . ثم أوضح بوشيه سنة ١٨٤٦ في مؤلفه القيم بعنوان «الصناعة البدائية» ؛ أنه ليس هناك شك في أن الأدوات الحجرية التي تم العثور عليها لا بد وأن تكون قد صنعت بيد الإنسان . وكان أن قوبلت آراؤه في

البداية بمعارضته شديدة ، وسخرية حادة ، ولكنه أصر عليها ودافع عنها حتى اقتنع بها علماء كثيرون من أئمة ورواد الباحثين في التاريخ الأول للإنسان على الأرض ، وهؤلاء لم يكتفوا بمجرد تقبلها بل هبوا بدورهم يدافعون عنها . ومن أمثلة هؤلاء : السير جون ايفانز .

وبعد أن ثبت بالدليل العلمي الأصل البشري لهذه الأدوات الحجرية : بدأ تصنيف ثومسن السالف الذكر أكثر وضوحاً وأكبر معنى ، وأصبح من الممكن تصنيف أدوات الإنسان الأول طبقاً لترتيبها الزمني ، ووفق تطورها الفني . وتم منذ منتصف القرن التاسع عشر : تقدم هائل وسريع في علم دراسة الآثار ، إذ ظهرت تقنيات أكثر دقة وتخصصاً ، في نفس الوقت الذي تم فيه اكتشاف كثير من البقايا الحجرية والعظمية والمعدنية .

وفي العقد السابع من القرن التاسع عشر ، قسم السير جون لابوك العصر الحجري إلى عصرين متميزين هما : العصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث . فأطلق اسم العصر الحجري القديم على العصر الذي اتصفت فيه الأدوات الحجرية بعدم الدقة في الصناعة ، في حين أطلق على العصر التالي الذي صقلت فيه هذه الأدوات وتهذبت : اسم العصر الحجري الحديث . وكان أن أفادت كتابات السير جون لابوك علم الآثار فائدة عظيمة . ونخص منها بالذكر كتابه «عصور ما قبل التاريخ» الذي صدر سنة ١٨٦٥ . وكان أحد العلماء الفرنسيين ويدعى أدوارد لارنيت ؛ قد اكتشف في سنة ١٨٦١ حقائق عديدة ، ساعدته على تقسيم العصر الحجري القديم إلى قسمين : علوي وسفلي . وهكذا استمرت بعد ذلك عملية تقسيم هذه العصور الكبيرة إلى فترات أصغر — تسير سيراً حثيثاً لتسهيل دراسة التقدم الحضاري البشري ووصفه .

ثم وضع جابريل دي مورتييه في كتابه «بحث في تقسيم العصور التاريخية» (سنة ١٨٦٩) ؛ أسس الترتيب الزمني لعصر «ما قبل التاريخ» . وأتى هذا الكتاب بالتقسيم المفصل الحالي للعصر الحجري القديم إلى فترات متعاقبة هي : المسفينيه Mesvinian التشليه Chellean ، الأكليليه Acheulian ، المستيرية Mausterian ، الأرجناسية Aurgignacian ، السولتيرانية Solutrean ، الجدالينية Magdalenian ، الأزيلييه Azilian ، التاردينيه Tardenonsion وهذه كلها في الحقيقة تقسيمات فرعية منبثقة عن الأقسام الكبرى وهي : العصر الحجري القديم الأسفل ، والأوسط ، والأعلى . وفي بعض الأحيان لا تعتبر المرحلتان الفرعيتان الأزيلييه والتاردينيه ضمن العصر الحجري القديم ، بل تعتبران مرحلة انتقال بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث . وقد أطلق عليها حديثاً اسم المرحلة الميزوليثية (Mesolithic) ولقد واصل دراسة العصر الحجري القديم عدد من العلماء أمثال : هنري برويل ، كما تابع دراسة

العصر الحجري الحديث كثيرون أمثال ؛ ر.ر. شميت ، اوجت اسكنك ، اسكار نوتلبوس . أما في قرنتنا هذا ؛ فقد أثبت العالم البلجيكي ايميه روتو ، والعالم الانجليزى ج. ريدموار Ridmoir وجود عصر سابق للعصر الحجري القديم ، أطلق عليه اسم العصر الايولوثى . ومن ناحية أخرى تم في نفس القرن ربط العصور المعدنية بالعصور الحجرية ، كما تم وضع ترتيب زمنى لهذه العصور المعدنية .

وبعد أن تم اكتشاف الأدوات البدائية وتصنيفها ؛ أمكن التوصل إلى ترتيب زمنى لعصر ما قبل الكتابة . وبذلك صارت الخطوة التالية هي تطوير دراسة التركيب الاكولوجى للمناطق الأوربية المختلفة . وكان أن أورد روتو وصفاً رائعاً لوحدة ثقافات بلجيكا ووادي السوم في عصر ما قبل الكتابة . وفي نفس الوقت قام كل من جوزيف ديكيلته Joseph Dechelette هنرى برويل ، اميل كارتيلهاك Cartailhac باعداد كل ما يتعلق بالآثار القديمة جداً في فرنسا ؛ من صخور وحفريات وما إلى ذلك . وكذلك فعل كارتيلهاك وهو جو اوبرنير Hugo Obermaier بالنية لأسبانيا ، في حين تحمل هذا العبء في إيطاليا ت.ا. بيت T.E. Peet أما في ألمانيا فقد تمت هذه الدراسات على يد ر.ر. شميت ، واوبرماير كما انعكف مونتلبوس على دراسة المواد الاسكتندنافية وفحصها فحصاً عميقاً ، على حين اهتم علماء آخرون بالبلدان الأوربية الأخرى . والواقع ؛ إن أول تحليل كامل ودراسة حديثة لفترة ما قبل الكتابة بأكملها ؛ كان من عمل العالم الأمريكى جورج جرانت ماكردي^(١) .

وقد يبدو للمبتدئ في دراسة الآثار القديمة أن أسماء كتلك التى أطلقت على فترات العصر الحجري القديم إنما يصعب فهمها لطولها وثقلها . ولكنها إذا ما شرحت شرحاً وافياً دقيقاً ؛ فإنها تصبح غاية في البساطة والوضوح . فهذه الأسماء تمثل التسلسل الزمني للتطور الحضارى وتوضح في نفس الوقت — إلى حد كبير — التطور الفنى الذى طرأ على المصنوعات الأولى كالأدوات والأسلحة من حيث ؛ العدد والتصميم ، والشكل ، فضلاً عن حافتها القاطعة . ويعتبر تقسيم العصور إلى فترات فرعية وإطلاق أسماء على تلك الفترات الوسيلة الوحيدة للترتيب الزمني لعصور ما قبل الكتابة . وعلى عكس ما قد يبدو فإن الأسماء الغريبة التى أطلقت على الفترات الحضارية المختلفة لم تطلق جزافاً ، لأن لهذه الأسماء أصول مفهومة ومعروفة ، وسميت كل من هذه الفترات بما يعرف (Type site) ، والمقصود بهذه الكلمة المكان الذى اكتشفت فيه لأول مرة أكثر البقايا دلالة على نوع معين من ثقافة العصر الحجري ، أو أنماط كاملة منها ، فمثلاً ؛ الآثار النموذجية للفترة المستيرية هو كهوف المستير بفرنسا .

(1) Human Origins (O. Applaton and Co. 1974 vols).

وعلى الرغم من أن هذا العصر الطويل من عمر الإنسان ، وهو العصر الذى دام حوالى خمسة ملايين من السنين ؛ لم يعرف الكتابة ، ولم يكن له بالتالى أية كتابات تاريخية ؛ إلا أن الاكتشافات البعيدة للبقايا الحجرية والعظمية والمعدنية ؛ تمثل البداية الحقيقية للسجل التاريخى للطريق الشاق الذى سلكه الإنسان من الهمجية إلى الحضارة . والحق ؛ إن هذه البقايا تزودنا بمعلومات عن حياة الجنس البشرى ؛ تفوق بكثير مازودتنا به الكتابات التاريخية اللاحقة التى طاملاً أغفلت كثيراً من النواحي الحيوية لمعيشة الإنسان . ولذا فإن هذه البقايا ستظل على قدر كبير جداً من الأهمية ، خاصة إذا ما علمنا أن أكثر من تسعين فى المائة من الوجود البشرى على كوكبنا قد انقضى قبل إتقان فن الكتابة . ولعل هذا هو السبب الذى جعلنا نستغنى عن اصطلاح «ما قبل التاريخ» وأن نستعير عنه بمفهوم «ما قبل الكتابة» .

وإلى جانب مقام به على الآثار من جهود فى تنظيم العناصر الحضارية لعصر ما قبل الكتابة ؛ فقد عكف علماء الاجتماع على دراسة نظم المعيشة عند ذلك المجتمع الأول . وليس لدينا بطبيعة الحال سوى التثر اليسير من بقايا المجتمع ، وبعض معلومات ضئيلة عن حياة الجماعات فى عصر ما قبل الكتابة ومن بين ما لدينا فى هذا الشأن آثار تدل على وجود شعائر دينية ، كما أن هناك بعض الأدوات الحجرية التى لا بد وأن تكون قد وضعت بمجهود تعاونى . والحق إنه يتعين علينا أن نبني معلوماتنا عن حياة الإنسان الجماعية فى هذا العصر على الاستنتاج والمقارنة ، وذلك عن طريق دراسة حياة المجتمعات البدائية التى لا تزال قائمة فى عالم اليوم ، والتى تشبه إلى حد كبير فى ثقافتها بمجتمعات ما قبل الكتابة . ولعل أهم مؤلف صدر فى هذا الشأن هو كتاب «المجتمع القديم» لمؤلفه لويس هنرى مورجان Morgan ، وإن كان يؤخذ على هذا الكتاب أنه برغم ما أضافه من معلومات قيمة ؛ فإنه بسط الأمور بشكل مبالغ فيه . ثم جاء كتاب أحد تلامذته وهى ليسلى Leslie ا هويت بعنوان «تطور الثقافة» مصححاً لكتاب مورجان ، وأكثر تمشياً مع الحقائق الهامة عن المجتمعات البدائية . وهذا الكتاب وكذا كتاب روبرت هـ. لوى Lewie يمكن مقارنتها بوجه عام بكتاب ماكردى والأصول البشرية الذى يتحدث فيه عن البقايا القديمة من عصر ما قبل الكتابة .

إتقان فن الكتابة

على الرغم من أن البقايا الخالية من الكتابة للإنسان القديم تعد أقيم وأعظم مصدر نسخة منه معرفتنا عن حياة ذلك الإنسان ونشاطه ، فإنه لم يمكن التوصل إلى

سجل شامل لاحداث الماضي البعيد ؛ إلا في العصر الذي بدأ يفكر فيه الإنسان في أن يضفي على أفكاره وأفعاله تعبيراً خالداً — أي في العصر الذي أتقن فيه الكتابة .

والحقيقة أن أصل هذا الفن لا يزال يشوبه بعض الغموض . ولكن هناك اتفاقاً على أن العصر الأول للكتابة ؛ هو عصر الكتابة بالصور التي ظهرت أول ما ظهرت على أدوات الاستعمال اليومي وعلى جدران كهوف المراحل المتوسطة والمتأخرة من العصر الحجري القديم . وقبل أن تصبح هذه الصور كتابة حقيقية ؛ كان عليها أن تمر بمراحل ثلاث : ففي المرحلة الأولى كان من الضروري التوصل إلى اتفاق عام في استخدام الصور ، بحيث تدل كل صورة على شيء معين لا يتغير شكلها أما المرحلة الثانية فكانت إيجاد تعبير عن المفاهيم المعنوية ، إلى جانب ما وجد فعلاً من رسوم تدل على الأشياء المادية والمحسوسة وأخيراً ؛ كان ضرورياً الربط بين هذه الصور والرموز من ناحية ، وبين صوت الإنسان من ناحية أخرى وقد مرت هذه المرحلة الأخيرة نفسها بعدة خطوات على طريق التطور ، ففي البداية كان هناك نوع من اللغة البدائية التركيبية . ثم كان هناك أبسط أنواع كتابة الأصوات ، حيث كان كل رمز يدل على كلمة بأكملها . وهناك بعض اللغات مثل اللغة الصينية لم تتعد المرحلة البدائية التي تعرف « بمرحلة الكلمات ذات المقطع الواحد » . وبالتدريج بدأت الرموز تعبر عن وقائع وليس عن كلمات بأكملها . وأمكن بعد ذلك بكثير من الوقت أو بقليل ؛ تحليل أصوات الإنسان ، ومن ثم تمثيلها برموز أو حروف معينة . وهكذا خرجت الأبجدية إلى الوجود .

وحوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م أضاف المصريون عملاً جديداً لفن الكتابة باستخدام أربعة وعشرين علامة هيروغليفية تمثل الأصوات الساكنة . ومع ذلك فإن المصريين القدماء لم يعتبروا هذا العدد من العلامات كافياً للوفاء باحتياجات التعبير ، واستخدموا عدداً أكبر من الرموز للدلالة على كلمات ومقاطع أخرى . وبالتالي لم يدركوا الجانب الأساسي اللازم لأبجدية ممتثلة للصوت . والواقع أن أول أبجدية صوتية اكتشفت حديثاً على حفريات وجدت في شبه جزيرة سيناء ، وفي جنوب فلسطين ، ويبدو أن مؤلف هذه الأبجدية قد حرر نفسه من قيود الأبجدية المصرية التي لم تتسم بالكمال . ولعله كان فنيقياً من « جليل » أو من أية جنسية سامية أخرى ، كما يحتمل أن يكون قد عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . كذلك تم حديثاً اكتشاف آثار كتابية في منطقة رأس الشجرة ، قرب اللاذقية في أوجاريت القديمة Ugaret وبعض هذه الكتابات مدون بأبجدية حروفها تشبه السامير ، ولهجة سامية شمالية غربية .

وليس مؤكداً حتى الآن أن صاحب هذه الكتابات كان يحاول استبدال الأبجدية المسمارية بالأبجدية السامية المعروفة في ذلك العصر ، أو أنه قد ابتكر هذه الأبجدية دون التأثير بما عداها . ولكن من الواضح أننا لا بد وأن نعدل الرأي القائل : إن الفينيقيين هم أول من ابتدع الأبجدية الصوتية . وأول ما اكتشف من كتابات بالأبجدية الفينيقية الكاملة هي تلك التي تنسب إلى آهيرام Ahiiram ؛ أحد معاصري رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد احتوت هذه الأبجدية على اثنين وعشرين حرفاً كلها من النوع الساكن . ثم جاء دور الاغريق في إكمال الأبجدية حيث جعلوا بعض الحروف الساكنة تمثل الاصوات المتحركة ، وانتشرت هذه الأبجدية بعد إدخال بعض التعديلات عليها في العالم الغربي على أيدي الرومان ، وكذا بين شعوب أوربا الشرقية على أيدي البيزنطيين . وقد أعطانا الرومان الشكل النهائي للحروف ، وهو الذي أخذت به معظم الدول في العالم الغربي الحديث . ففي العصر الروماني ؛ بدأ التمييز بين الحروف الكبيرة والصغيرة ، وإن كان الأدب الرفيع ظل يكتب بالحروف الكبيرة ؛ خلال العصرين اليوناني والروماني ، في حين اقتصر استخدام الحروف الصغيرة على الكتابات التجارية والمراسلات الخاصة . وفي عهد شارلمان في العصور الوسطى ؛ بدأ الناسخون من الرهبان في بلاطه يستخدمون الحروف الصغيرة مع الحروف الكبيرة ، حتى في تدوين الآداب المرموقة ، وهو الأمر الذي أصبح عادياً ومقبولاً منذ ذلك الوقت .

وصاحب اتقان فن الكتابة تقدم عظيم في صنع المواد اللازمة لها ، إذ كان من الواضح أن الأعمدة الحجرية ، والحوائط ، وقوالب الصلصال ، والألواح التي تاشهر بها البابليون ؛ لم تكن إلا وسائل محدودة للغاية ؛ على الرغم من أن أحداً لا ينكر فضلها في صيانة ما كتب عليها ، والاحتفاظ به إلى الأبد . وقد حل المصريون القدماء المشكلة باستخدام أوراق البردي كنوع من الورق . وبعد ذلك استخدمت جلود الحيوانات لنفس الغرض في المناطق التي لم يتوافر فيها البردي . ثم كان أن ظهر الورق المصنوع من الحرير ولب الأشجار ، وكان ظهوره أول مرة في الصين قريبا بداية العصر المسيحي . كذلك ابتكر العرب نوعاً من الورق المصنوع من نسيج القطن حوالي سنة ٧٥٠ م ، وانتقل هذا الورق إلى إسبانيا مع استبدال القطن بالكتان . أما الورق الحديث المصنوع من التيل فقد شاع استخدامه حوالي ١٢٥٠ ميلادية . وفي القرن الرابع عشر ، أصبح الورق المصنوع من الخرق شائع الاستخدام في أوربا الغربية .

كذلك صنع أول حبر عرف في التاريخ ؛ بمخلط الماء بالصمغ النباتي والسنج الأسود الذي كان يحصل عليه من جدران الأواني المسودة . وبعد ذلك صنع الحبر من مخاليط من الأصباغ النباتية والحيوانية . وفي عصرنا هذا يصنع من مختلف المواد الكيميائية الملونة . أما أول قلم ؛ فقد صنع من البوص الذي كان يبرى ويسن باليد ، وبعد ذلك استخدم ريش الإوز

وغيره من الطيور ، وظل يستخدم إلى أن اخترع القلم المعدني في القرن الرابع عشر . وبعد أن وجدت الأبجدية وتيسرت مواد الكتابة ، أصبح من الممكن أن تبدأ الكتابة التاريخية رحلتها الطويلة عبر الزمن ؛ من هيرودوت ثيكوديدس إلى فون رانكه ، أولارد Aulard ، جاردنر Gardiner ، اوسجود Osgood ، هاسكتر Haskins . ولقد أوضح الأستاذ جيمس هـ . برستيد أهمية فن الكتابة عامة في تطور الحضارة ، وأهمية الكتابة التاريخية خاصة إذ يقول : إن اختراع الكتابة ، وكذلك اختراع نظام ملائم للتسجيل على الورق ، لمن الأمور التي كان لها أكبر الأثر في الرقي بالجنس البشري ، وربما كان هذين الاختراعين أثر على الإنسان يفوق أثر أى منجزات فكرية أخرى خلال تاريخه الطويل ، فهي أكثر أهمية من كل المعارك التي حاربها الإنسان ، وكل النظم التي أقامها ، والمنشآت التي شيدتها .⁽¹⁾

ومع ذلك ؛ بقي أمام الإنسان أثر هام آخر قبل أن يتمكن من تسجيل تاريخه ، وهذا الأمر هو إيجاد طريقة لقياس الزمن ، ووضع نظام علمي لترتيب العصور .

اكتشاف الزمن ونشأة الترتيب الزمني للعصور

على الرغم من أن وجود طريقة لقياس الزمن ؛ كان لازمة أساسية لعملية تسجيل أفكار الإنسان وأعماله وترتيبها ، فإن التقويم لم يبتدع أصلاً منها لهذا الغرض . ولقد أوضح كل من الأستاذ جيمس ت . شوتويل James T. Shotwell ، والأستاذ هوتن ويستز Hutton Webster في شئى من التفصيل ؛ أن التقاويم الأولى صنعت لتحديد وتسجيل أعمال الالهة وليس أعمال البشر . ثم ازدادت الحاجة إلى قياس الوقت وابتداع طرق لذلك ؛ نتيجة لرغبة الإنسان في تحديد تواريخ الأيام المحرمة والمقدسة ، وكذلك رغبته في تسجيل وتحديد ما يحدث من ظواهر طبيعية غير عادية ؛ كان يعتقد في العصور المبكرة أن لها مغزى دينياً ، وبمعنى آخر فإن مفهوم الزمن نما عند الإنسان نتيجة لشعوره بما يتكرر حدوثه في الطبيعة ، وإحساسه بضرورة التفرقة بين الأيام بعضها وبعض ؛ على أساس نضائنها أو خصائصها الدينية المعنية . وكان أن شبه التقدم في طريقة قياس الزمن بالانتقال التدريجي من «الخط إلى الرياضيات» . والثابت أنه سبقت عملية الترتيب الزمني للأحداث الدنيوية والتاريخية ؛ عدة تقويمات غير دقيقة استخدمت في الأغراض الدينية .

(1) J.H. Breasted: Ancient Times (Ginn and Co. 1916) P. 45

وكان التقويم القمري أبسط أنواع التقاويم وأكثرها بدائية ، وهو يعتمد على المراحل المختلفة للقمر ، وأساسه الشهر القمري الذى يتكون من تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . ومن هذا الأساس أمكن التوصل إلى وحدات زمنية أطول وأقصر من الشهر ، فكان هناك نصف الشهر القمري الذى شاع قبوله كوحدة لقياس الزمن . وكذلك اشتقت الأسابيع من أرباع الشهر القمري ، كما كان هناك تقسيم للشهر بحيث يشمل ثلاث فترات كل منها عشرة أيام وكان هذا على ما يبدو أحسن الحلول وأكثرها قبولاً من الناحية الحسابية . وبالمثل ؛ فإن اثني عشر شهراً قريباً كانت تكون السنة القمرية ذات الثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً . وحتى تتمشى الشهور مع التقسيم الفصلى للسنة ؛ كان يضاف شهر ثالث عشر فى الفترات والحالات المناسبة . كذلك كانت هناك وحدة قياس أكبر تتمثل فى الدورة القمرية التى كانت تتكون من تسعة عشر سنة ، وهى التى استخدمها الإغريق حوالى سنة ٧٥٠ قبل الميلاد .

وعلى الرغم من أن التقويم القمري لم يزود الإنسان بتقسيمات محددة للزمن طويلاً أو قصراً فضلاً عن عدم وقته ؛ فإنه ظل شائعاً بين كل الشعوب القديمة باستثناء المصريين ؛ الذين أنفردوا — ومعهم سكان المكسيك الأصليين — بشرف ابتكار ما يعتبر فى جوهره تقويماً شمسياً ، وبداية للتقويم الحديث . ولعل اتجاه المصريين القدماء إلى السنة الشمسية كان مبعثه طبيعة الحياة الزراعية على أرض وادى النيل ، والأهمية القصوى لآله الشمس ، الأمر الذى أعطى الشمس أهمية أكبر ومكانة أفضل .

وهكذا صنع المصريون حوالى سنة ٤٢٣٦ ق.م^(١) — وهو أول تاريخ ثابت فى التاريخ — تقويماً جديداً ، أساسه السنة الشمسية ذات الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وكانت هذه السنة اثني عشر شهراً ، كل منها ثلاثون يوماً . ويضاف إلى هذه الشهور — فى نهاية كل سنة خمسة أيام للأعياد^(٢) . أما الأسبوع بأيامه السبعة ؛ فهو على الأرجح من ابتكار السومريين والبرانيين . وفى سنة ٢٣٨ ق.م ابتكر علماء الاسكندرية السنة الكينية التى تحل مرة كل أربع سنوات ، وكذلك حدث فى العصر الهليني تغيير فى الأسبوع العبرى ؛ بحيث أصبح على غرار الأسبوع الفلكي كما نحسبه فى تقويمنا الحديث . وفى سنة ٤٦ ق.م أدخل يوليوس قيصر نظام السنة الشمسية إلى العالم الغربى ، ولكن لم يتم استخدامه فى روما قبل القرن الثانى بعد الميلاد . أما آخر خطوة للوصول بالتقويم إلى درجة الكمال ؛ فقد قام بها البابا جريجورى الثالث عشر فى سنة ١٥٨٢ م ، حين أسقط أحد عشر يوماً من التقويم واعتبرت السنوات المثوية كيسة إذا قبلت القسمة على أربعائة .

(١) يرى بعض العلماء ان ذلك تم حدوثه سنة ٢٢٧٦ ق. م وليس سنة ٤٢٣٦ ق. م .

(٢) بنى المصريون تقويمهم السنوى على اساس النجوم والشمس . فكانت السنة المصرية تبدأ مع أول ظهور النجم الشرعى على الأفق الشرقى لخط طول الدلتا .

وتبين مما سبق ؛ أن وجود نوع ما من التقويم كان أمراً ضرورياً للكتابة التاريخية المنظمة ومع ذلك فقد بقيت خطوة هامة أمام الإنسان حتى يتمكن من تطوير عملية قياس الزمن وتسجيله ؛ بالصورة التي تجعل هذه العملية تفيد المشتغلين بكتابة التاريخ ، حيث إن قياس الزمن بالسنة وكسورها كان أمراً غير كاف . كذلك صار لابد من التوصل إلى طريقة ما يمكن بها تمييز السنين المتعاقبة وتحديدتها ، وبمعنى آخر كان لابد من التوصل إلى ترتيب زمني منظم للتاريخ .

وعلى الرغم من أن المصريين كانت لديهم وسيلة علمية رائعة تفي بهذا الغرض ؛ وهي الدورة الفلكية ذات الـ ١٤٦١ سنة ؛ إلا أنهم لم يستخدموها ، وبالتالي لم يتوصلوا إلى ترتيب زمني دقيق ، وكان أفضل ما توصلوا إليه في هذا الشأن هو تسمية بعض السنين بما دفع خلالها من أحداث عظيمة أو هامة . ولقد أمكن التعرف على الفترة ما بين ٣٤٠٠ ق.م ، ٢٧٠٠ ق.م من خلال إحدى قوائم الحوليات التي اشتهرت باسم (لوح بالرمو) . ثم طرأ بعض التقدم في عملية تمييز السنين والتعرف عليها ، عندما اعتبر عهد كل ملك من الملوك فترة مستقلة قائمة بذاتها ، ومثال ذلك ما تذكره الآثار المصرية القديمة من عهود الأسر والملوك الذين تعاقبوا على حكم مصر . وفي سنة ٢٧٥ ق.م عهد بطليموس فيلا دلفيوس إلى أحد الكهنة المصريين المتبحرين في العلم واسمه «مانيتو» بمهمة جمع قوائم ملوك مصر وعهودهم وترجمتها إلى اللغة اليونانية . وكان مانيتو من عمل «مانيتو» في هذا الشأن ؛ هو الأساس الذي بنى عليه علماء الآثار المصرية ترتيبهم ودراسهم لتاريخ مصر القديم .

أما البابليون فأنهم لم يتعدوا مرحلة تمييز السنين والتعرف عليها بما وقع خلالها من أحداث كبرى ، وإن كنا نشهد لهم بأنهم كانوا على درجة كبيرة من الدقة في وضع قوائم الملوك . ولقد حاول بيروسوس Berossos وهو أحد الكهنة المرموقين في بلاط انتيوخس الأول ملك سوريا وأحد معاصري مانيتو — أن يفعل ما فعله الأخير ، ولكن يبدو مما تبقى من أعماله أنه كان أقل نجاحاً وأقل دقة من معاصره .

وفي العصر الآشوري — وحوالي سنة ١١٠٠ ق.م — ظهرت بعض الحوليات التي كانت تتحدث عن أعمال الملوك سنة بعد أخرى ، وأصبحت هذه الحوليات التي كانت تتحدث عن أعمال الملوك سنة بعد أخرى ، وأصبحت هذه الحوليات في القرن الرابع عشر قبل الميلاد — وعلى عهد الملك نجلاتات بلسر الأول Tiglathpileser بالذات (حوالي ١١٠٠ ق.م) مصدراً مكتملاً ومعقولاً يمكن الاعتماد عليه لأغراض التاريخ . وقد ازداد

الترتيب الزمني عند الآشوريين. دقة ، نتيجة لتقليد سار عليه ملوكهم ، وهو تعيين موظف رسمي كل سنة ليقوم بأعمال التسجيل ، وأطلق على هذا الموظف اسم الليمو Linnu ، وبينا اسم الليمو في الأحداث المعاصرة التي سجلت على قوالب الصلصال ، فإن قوائم الليمو مكنت المؤرخ من إعادة بناء وتركيب الأحداث التاريخية في ذلك العصر الآشوري بدرجة كبيرة من الدقة — وهكذا أمكن في أواخر العصر الآشوري والبابلي التوصل إلى مفهوم (الحقبة التاريخية) التي تؤرخ بعهد الملك نابوناصر Nabonassar سنة ٧٤٠ ق. م.

وأما الترتيب الزمني عند العبرانيين فلم يتعد مرحلة تقدير الزمن بالأجيال ، على اعتبار أن كل جيل يستمر أربعين سنة ، ولكن يبدو أيضاً أن اليهود كانت لديهم فكرة غير واضحة عن العصور إذ تحدثوا كتاباتهم عن الفترة ما بين إبراهيم وداود ، والفترة ، ما بين داود والاسر البابلي .

وأما المؤرخون الإغريق الأوائل ؛ فعلى الرغم من أنه كان هناك نقطة بداية طيبة للعصر الإغريقي ؛ تمثل في القصة شبه الأسطورية لحصار طرواده ، وعلى الرغم مما كان لديهم من استعداد فطري غير عادي لقياس الزمن ، فإنهم لم يفعلوا أكثر مما فعل أسلافهم بخصوص ابتكار تقويم زمني . فحتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن لديهم سوى بعض القوائم المحلية التي تحوى أسماء كبار رجال الدولة والكهنة . وقد حاول أحد مواطني جزيرة لسبوس ، واسمه هيلانيقوس (Hellenicus) في النصف الأخير من نفس القرن ؛ أن يضع ترتيباً زمنياً مبنياً على تسلسل الأمر ، وعلى الرغم من أن المحاولة لم تستند إلى أساس قوي ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة . كذلك فإن هيرودوت وثيكوديدس لم يحاولا بصفة جدية أن يحدا حلاً لهذه المشكلة . وبذلك أنهى المؤرخون اليونانيون أعمالهم دون أن يصلوا إلى نظام مرض للترتيب الزمني ، إذ ظلوا يعتمدون كلية على طريقة الحساب بالسنوات الأولية التي أدخلها تيمارخوس حوالي ٣٠٠ ق. م ، وهي طريقة غير دقيقة على الإطلاق . ولم يحاول هؤلاء المؤرخون حتى مجرد الاستفادة من الحسابات الفلكية التي كانت في متناول أيديهم ، في الوقت الذي كانت فيه الأبحاث الفلكية لعلماء الاسكندرية أمثال ؛ أراطوستنيز الذي جاء بعد تيمارخوس بثمانين سنة ، قد بدأت تؤثر تأثيراً فعالاً على مستقبل علم الترتيب الزمني .

ولما كان الرومان يتصفون بالواقعية وبأنهم شعب عملي ، فإنهم كانوا أول من ابتكر نظاماً جيداً لترتيب الزمن يمكن الاعتماد عليه ، وبدأوا يؤرخون سنواتهم بادئين من تاريخ تأسيس روما الاسطوري في سنة ٧٥٣ ق. م . وسوف نتعرض فيما بعد للطريقة المسيحية الواضحة لترتيب الزمن وتاريخ الأحداث ، والتي أدخلها جوليس الإفريقي ، ايوزيوس جيروم ، وكذلك للطريقة العلمية الحديثة لتاريخ الأحداث ؛ التي ظهرت في أوائل العصر

الحديث على يد جوزيف سكالجر في كتابه «تقويم الزمن» ، وعلى يد دوم كلمنت في كتابه «فن تحقيق التواريخ» ولكن يكفى الآن أن نعي في الذاكرة حقيقة هامة ، هي أن علم التاريخ عند الرومان وحدهم هو الذى مكن كاتبي التاريخ القديم من أن يعالجوا أى موضوع فى ثقة واطمئنان ، حيث ضبط التواريخ فيما عدا التواريخ المعاصرة . وهذا يفسر إلى حد ما ؛ لماذا كانت المؤلفات التاريخية التى خلفها اليونانيون مجرد سجلات للأحداث الأخيرة والمعاصرة للكتاب .

وجاء تطور عملية الترتيب الزمني للأحداث مرتبطاً بفكرة تقسيم التاريخ إلى فترات وعصور ، وهو التقسيم المؤلف لنا جميعاً والذي يجعل من التاريخ ثلاثة عصور كبرى : قديمة ، ووسطى ، وحديثة . ويحذر بنا أن نشير إلى أن هذا التقسيم لم يخرج إلى الوجود إلا قرب نهاية القرن السابع عشر .

وكانت لآراء الأولى لتقسيم التاريخ إلى مراحل تقوم على التأمل والتفكير فى الماضى . فاليهود والمسيحيون رجعوا إلى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطها على الأرض ، ومن ثم فقد قسموا التاريخ إلى قسمين رئيسين هما : المرحلة التى سبقت الخروج من الجنة ، والمرحلة التى أعقبت ذلك الخروج . وبالمثل ؛ فإن اليهود قد استخدموا وقائع طردهم أساساً لتأريخهم وترتيبهم الزمني للأحداث . أما الاغريق فأتوا بفكرة مماثلة ، وهى فكرة اضمحلالهم بعد أن كانوا فى «عصر ذهبي» وعبر «هزبور» عن هذا المفهوم أحسن تعبير عندما قسم عصور التاريخ البشرى إلى خمسة أقسام هي : الذهبي ، والفضي والبرونزي ، وعصر الأبطال ، والعصر الحديدي . أما الآباء المسيحيون الأول ؛ فقد ربطوا بين العصر الذهبي والعصر الذى عاش فيه الإنسان فى الجنة ثم الخطيئة ، فى حين عبروا عن عصر الاضمحلال عن الوثنيين بفكرة تردى آدم فى الخطيئة وطردة من الجنة . بل إن نظرية دورات التطور البشرى كانت أكثر شيوعاً بين الاغريق والرومان ، إذ ساد الاعتقاد بأن الحضارة تمر بمراحل متعاقبة من الارتقاء والاضمحلال ، وأن هذه العملية تكرر نفسها إلى ما لا نهاية .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن مؤرخى العصور الوسطى دأبوا فى معظم الأحوال على تأكيد فكرة أن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات مستمرة ؛ لاحقب منفصلة عن بعضها البعض . ولذلك اعتبروا العصر الوسيط استمراراً للإمبراطورية الرومانية . وكان من أوائل من خرجوا على هذا الاتجاه المؤرخ العلامة فلافيوس بلوندوس Flavius Blondus

(١٣٨٨ - ١٤٦٣ م) الذي اعتبر أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوروبا الغربية عن روما ، و خلقت لنفسها تاريخاً وثقافة خاصة بها ، بمعنى أن بلوندوس أدرك تماماً أن هناك قسمين على الأقل للتاريخ هما : العصر القديم ، والعصر الوسيط . وجاء بعد ذلك العلامة الهولندي كرستوف كيلر ، الذي وضع كتاباً قرب نهاية القرن السابع عشر . قسم فيه التاريخ إلى أقسامة التقليدية الثلاثة التي نعرفها اليوم وهي : التاريخ القديم الذي ينتهي بعصر قسطنطين العظيم ، والتاريخ الوسيط الذي ينتهي بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم التاريخ الحديث من سنة ١٤٥٣ فصاعداً . واتبعت هذه التقسيمات بصفة عامة على الأقل من أيام كلاريوس حتى يومنا هذا . وسوف نشر فيما بعد إلى ما يتسم به هذا التقسيم من طابع لا يوجه الباحث توجيهاً صحيحاً ، وإلى ما يشوبه من عدم الدقة ؛ خاصة في ضوء التقدم البشري والتطور الكبير الذي نعاصره اليوم وتتوقع المزيد منه ، الأمر الذي يجعل أى تقسيم يقصد تطبيقه على التاريخ الحضارى للجنس البشرى تقسيماً قاصراً تعوزه الدقة^(١) .

والآن : وبعد أن ناقشنا في إيجاز متطلبات الكتابة التاريخية ؛ يمكننا أن نتناول اصل هذه الكتابة في العصر القديم .

بداية الكتابة التاريخية في الشرق

كانت الكتابة التاريخية في الشرق قليلة نسبياً باستثناء أعمال المؤرخين العبرانيين ، كذلك لم تصف تلك الكتابة بالتنظيم المحكم الدقيق . واستمر الأمر كذلك فترة طويلة من الزمن ، إلى أن تأثر الشرق الأدنى القديم بحضارة الاغريق وثقافتهم تأثراً عميقاً ، ذلك أن المادة التاريخية في الشرق القديم اقتصرَت على النقوش وقوائم الملوك . وكانت هذه النقوش مركزة على تمجيد الملوك ، وإبراز ما شيدوه من مبان ، وما أحرزوه من انتصارات حربية ، وما قاموا من مخاطرات في الصيد . ومع أنه من المسلم به أن نعلم هذه النقوش كانت من عمل الكهنة الكتاب ، إلا أنها نسبت إلى الملوك وإلى الآلهة ، فضلاً عما يلاحظ من أن هذه الكتابة التاريخية كانت خلواً من أى نقد ، فلم تتضمن أية معلومات تشين الملوك أو الآلهة الذين اهتموا بدينهم .

وعلى الرغم من أن الأحوال المناخية قد جعلت من مصر متحفاً رائعاً للآثار ، أو كما يقول الأستاذ برستد : مجلداً تاريخياً شاسعاً . وعلى الرغم من أن هذه الظروف المناخية قد ساعدت على حفظ عديد من مصادر المعلومات التاريخية القيمة المتمثلة في فن العمارة ، وفي الحقائق الهندسية ، والآثار الفنية الباقية في المقابر الملكية ، فضلاً عن الفنون التشكيلية التي

وجدت على جدران المقابر ، والمصور ، والمعابد وسائر الآثار ، على الرغم من هذا كله فإن ما
امكن حفظه من الكتابة التاريخية المصرية لا يعدو الترتيب البسيط . وهنا يحذر بنا أن نشير إلى عمل
قام به أحد الكتبة في عهد تحتمس الثالث . وهو عمل يحتوي على وصف دقيق لأبرز فتوحات
هذا الملك القدير النشط

وفيما عدا ذلك ؛ لا نجد سوى أجزاء من حوليات كتلك التي وردت على لوح بالرمو ،
وعلى بردية ماتورنيو . وليس لدينا في الوقت الحاضر أية معلومات ثبتت وجود أية كتابة تاريخية
هامة في العصور السابقة على الفترة الهلينية ؛ التي أصبحت فيها ثقافة مصر هيلينية أكثر منها
مصرية . ففي هذه الفترة جمع مانيتو الكاتب المصري الذي ذكرناه آنفاً — عصور التاريخ
المصري القديم ، كما وضع تاريخاً قصصياً لمصر ؛ يعتبر من ناحية التنظيم والدقة سابقاً للعصر
الذي كتبت فيه . وأهم ما يميز به كتابة مانيتو ؛ تلك الموضوعية في جميع المادة التاريخية
وتفسيرها . ولكن شاء سوء الحظ ألا يتبقى من عمله العظيم سوى أجزاء قليلة ؛ هي تلك التي
نراها في صورة مقتطفات في كتاب المؤرخ اليهودي جوزيفوس Josephus وكذا في الكتابات
التاريخية المسيحية التي وضعها كل من جوليس أفريكانوس ، ازيبيوس .

ويبدو أن البابليين والأشوريين قد فعلوا أكثر قليلاً مما فعل المصريون من حيث الوثائق
التاريخية . وإن افترقت بلاد ما بين النهرين إلى مؤرخ يماثل مانيتسون ، إلا أن الكاهن البابلي
بيروسوس الذي تأثر كثيراً بالهيلينية ؛ قد جمع تاريخاً لبابل في نفس القرن الذي عاش فيه
مانيتو . وكانت الكتابات التاريخية المبكرة في آسيا ؛ تسجيلات أعداء الكهنة السومريون ،
وإن كان لا يوجد لدينا حتى الآن أي تسجيل تاريخي منظم يمكن أن ينسب إلى هؤلاء الكتبة
ويرجع أقدم المصادر في هذا الشأن إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو عبارة عن نقوش
للتجميد والدعاء تبين أسماء الملوك ونسبهم ، وتصف العائل التي شيدت في عهودهم . كذلك
جمع البابليون عدة قوائم بأسماء ملوكهم . وبالنسبة للفترة السومرية ؛ نجد أن النقوش
الاسطوانية المنسوبة لجوريا من أهل لاجاش gudea of Lagach (٢٠٧٠ ق.م) هي أقدم
المصادر التاريخية ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك والعادات السائدة في تلك الفترة . وبعد ثلاثة
قرون من ذلك التاريخ نجد مصدراً عظيماً آخر وهو (قانون هامورابي) الذي لا تقتصر أهميته
على كونه مصدراً قيماً لتاريخ بابل الاجتماعي فحسب ، بل لأنه أهم وثيقة لتاريخ التشريع
القديم . وليس هناك بعد ذلك أية كتابة تاريخية هامة يمكن أن تنسب إلى السومريين والبابليين
القدماء .

أما الحقائق والترتيب الزمني الخاص بتاريخ آشور القديم ؛ فإنها تستمد من ثلاثة
مصادر رئيسية .

١ — نقوش الزينة التي كتب معظمها على قطع من الحجر ، وكان المقصود بها أصلاً تزيين العماثر ، ومن ثم فإنها لا تنتم بالدقة المطلوبة لسرد التاريخ .

٢ — نقوش الحوليات الملكية التي تحوى تاريخ الملوك ، والتي تعطى ملخصاً لأحداث كل سنة ، وهي تعتبر أهم مصدر يستمد منه تاريخ آشور .

٣ — قوائم أسماء الكتبة الرسميين ، وهي تبين أسماءهم والسنة التي عين فيها كل منهم .

ولقد أوضحنا فيما سبق أهمية هذا المصدر الثالث بالنسبة لتاريخ آشور . ولعل أهم الأعمال التاريخية للآشوريين والتي يمكن اعتبارها محاولات جادة لجمع التاريخ هي « التاريخ التزامنى » و « الحولية الآشورية » . ويحكى الأول بالتفصيل علاقة بابل وآشور من حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م إلى حوالى سنة ٨٠٠ ق.م ، ويحوى قائمة بالملوك الذين حكموا فى تلك الفترة فى كلا البلدين . كذلك عنى هذا المصدر عناية خاصة بالخلافات التي نشبت حول تحديد الحدود بين بابل وآشور . وفى وقت مضى اعتبر هذا العمل عملاً تاريخياً جاداً ، ولكن الأبحاث التاريخية اللاحقة أوضحت أنه لا يعدو واحداً من نقوش الزينة الممتازة ، التي قصد بها تمجيد آشور وآلهتها ، وتصوير الأفعال الشريرة التي أتى بها البابليون الأوغاد . ومع هذا فإنه نظراً لقلة المصادر يعتبر مصدراً قيماً للمعلومات التاريخية . أما الحولية الآشورية ، فهي وإن كانت تجميعاً جافاً لأسماء الموظفين ، ومدة خدمة كل منهم ، وسرداً لأهم أحداث كل سنة ، إلا أنها هي الأخرى تعتبر من أتمن مصادر معلوماتنا عن تاريخ آشور . وأقرب الكتابات التاريخية الآشورية إلى الأدب ، هي تلك التي تحكى عن الملوك بلغة مليئة بالمحسنات اللفظية . ولقد كان لعهد آشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق.م) أهمية خاصة فى تطوير الكتابة التاريخية فى آشور ، إذ أمر هذا الملك بجمع وتكوين مكتبة عظيمة ساعدت على حفظ المادة التاريخية الأولى ، فضلاً عن أنها ضمت كذلك نقوش وكتابات عصره . وهذه أقرب كثيراً من أسلوب السرد التاريخي المنظم الذي لم تعرفه العصور السابقة .

ويأتينا من العصر البابلي الكلداني عملاقاً عظيماً أولها : التاريخ البابلي ، ويغضى الفترة من ٧٤٥ ق.م إلى ٦٦٨ ق.م . ولهذا التاريخ وجهة نظر تختلف عن تلك الواردة فى السجلات الآشورية التي تكملها وتصحيحها ، وتتميز بأنها تروى حروب آشور مع عيلام Ham دون تحيز . أما العمل الآخر فهو : وتعالج الأجزاء التي حفظت منها الفترة ٦١٦ ق.م إلى ٦١٠ ق.م . وتصف سقوط آشور سنة ٦١٤ ق.م وسقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م وسقوط حيران سنة ٦١٠ ق.م ، كما تمجد الميديين تمجيدهم تماماً لمهارتهم الحربية . وواضح أن (تاريخ بيرسوس History of Berossos) الذي كتب باللغة الاغريقية فى بداية القرن الثالث قبل الميلاد ، إنما تم جمعه من السجلات المحلية فى بابل ، حيث حافظ على أسلوبها الذي تميزت به . ولقد كان

تاريخ بيروسوس مصدراً هاماً للمؤرخين في العالم الاغريق — الروماني وذلك لندرة المصادر الأخرى . وعلى الرغم من أننا في الوقت الحاضر لا نملك سوى مقتطفات من أجزائه الأخيرة غير الموثوقة بها ، إلا أن قيمتها تزداد يوماً بعد يوم .

أما ملوك ميديا وفارس فاتبعوا نفس طريقة الحوليات التي سارت عليها حوليات ملوك بابل وآشور ، ونخص بالذكر حولية الملك دارا المنقوشة على صخرة Behistan ، إذ كان لها الفضل الأكبر في مساعدتنا على تصحيح معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم ولغاته . وقد جاء هذا النقش الرائع في كتابات أو لغات ثلاث هي : الفارسية ، والسوسيه ، والبابلية . ومنذ قرن مضى ، وبعد دراسة ذلك السجل المنقوش وترجمته ، تمكن السير هنري رولتسن من كشف الغموض الذي أحاط باللغات السامية .

وهكذا تحقق العلماء أخيراً من أن الحيثيين كانت لهم كتابات تاريخية عظيمة . ولدينا الآن مادة تاريخية واسعة ، معظمها ورد على لوحات بالخط السامي وأمكن قراءتها وتفسيرها . هذا فضلاً عن نصوص هيروغليفية ظهرت بعد ذلك أمكن فك رموزها حالياً . وبالإضافة إلى الحوليات التاريخية ، توجد كتابات تشير إلى العلاقات السياسية المبكرة ، نخص منها بالذكر « تاريخ تليينوس » (حوالي سنة ١١٠٠ ق.م) الذي يغطي أكثر من ثلاثة قرون . وواضح أن لهذا التاريخ هدفاً خلقياً محدداً ، هو إبراز شرور الحروب الدامية وخطرها كوسيلة لتسوية المنازعات ومعالجة الجرائم . وبين الكاتب كيف أن الحروب أدت إلى القضاء على أسرة حاكمة بأكملها ، وإلى اتخاذ نظام القدي في القانون الحيثي الذي وضعه هاتوشيل الثالث . كذلك يحذر بنا أن نشير إلى أحد الأمثلة المبكرة لكتابة التراجم ، وهو تاريخ الملك هاتوشيل الثالث (١٢٨١ ق.م — ١٢٦٠ ق.م) .

وينسب إلى العبرانيين القدامى في فلسطين شرف إنتاج أول سرد تاريخي مطول ودقيق نسبياً . ولما كان هذا السرد قد ورد في التوراة ، فإنه من المفيد أن نستعرض باختصار الآراء الخاصة بطبيعة هذه التوراة .

لقد أثار بعض آباء الكنيسة من ذوى الاتجاه الناقد في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، بعض الشكوك حول الأفكار التقليدية الخاصة بتأليف التوراة . ولكن أول عالم قدر له أن يثير مسائل خطيرة حول تلك الأفكار التقليدية ، كان المفكر اليهودي ابن عزرا Aben Ezra الذي عاش في العصور الوسطى ، وتحدث حوالي سنة ١١٥٠ م الفكرة القائلة : إن موسى هو الذي ألف الأسفار الخمسة الأولى من التوراة المعروفة باسم أسفار موسى . وفي القرن السابع عشر أعلن الفيلسوف البريطاني الناقد توماس هوبز ، أنه يشك في نسب التوراة إلى موسى ، وذلك على أساس المنطق والادراك ، لا على أساس النصوص والدراسة التاريخية . فقد بين هوبز مدى الغرابة في أن يكتب مؤلف (موسى) تاريخ حياته ثم

يشير في الوقت نفسه إلى موته ، ويفخر بأنه قد دفن دفناً جيداً ، بحيث لم يتمكن أحدٌ لسنين طويلة معرفة مكان قبره . ومع هذا ، فإن التوراة تصف بدقة هذه السرية في دفن موسى ، كما تصف في إسهابٍ حزن اليهود على موته . وبالمثل ، فإن المفكر اليهودي باروخ سبينوزا Barush Spinoza وهو أحد معاصري هوبز ، قام هو الآخر بدراسة فائقة لأصل سفر التكوين ، وبين أنه لا يمكن أن يكون قد كتب بمعرفة مؤلف واحد في أي عصر واحد ، وقدم بعض الأدلة التي تهدم النظرية القائلة : إن موسى هو مؤلف الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة .

وفي منتصف القرن الثامن عشر قدم جان استروك ، وهو طبيب فرنسي مشهور ، رأياً في هذا الشأن ، أصبح فيما بعد الرأي المقبول بالنسبة لطبيعة تأليف الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة . أما الخطوة الفاصلة التي تلت ذلك ، فقد قام بها كارل دافيد إلجان Karle David Elgan قرب نهاية القرن الثامن عشر ، حيث أوضح أنه كانت هناك سبعة عشر وثيقة على الأقل في سفر التكوين ، وأن هذه الوثائق مستمدة من ثلاثة مصادر رئيسية ، اعتبرت منذ ذلك الزمن مقبولة وصحيحة . وفي القرن التالي ، استمر البحث عن أصل التوراة ، وكشف الغموض عن مؤلفها ، ومن بين من اشتركوا في هذا البحث الشامل عدد من قادة الفكر ، نذكر منهم : و.م.ل.دي ويت W.M.L. De wette ، هيرمان هوبفلد Hermann Hupfeld ، الأسقف جون وليام لوليترو John ، ويليام لولنسو William Lolenso ، برنارد دَمْ Bernhard Duhm ، أبراهام كيونين Abraham Kuenen ، برنارد ستيد Bernhard Stade ، جوليوس وهوزن Julius welhausen ، ويرجع الفضل إلى الأخير في التقدم العظيم في مجال نقد التوراة . ولذا يعتبر العلاقة القوي في هذا الميدان . ثم واصل عمله من بعده ت.ك. تشين T.K. chayne ، س.ر. دريفر S.R. Driver ، ب.و. يكون B.W.Bacon ، وغيرهم ، فأخرجوا بحثاً رائعة في ذلك الصدد .

ولم يقتصر النقد على مجرد دراسة نصوص التوراة ، بل برهن وليام روبرتسن سميث William Rohertson Smith — وهو الأستاذ الضليع بجامعة كامبردج ، في كتابه المشهور « ديانة الساميين » على أن الديانة اليهودية لم تحو شيئاً مزيداً أو غريباً ، كما أوضح أوجه الشبه العديدة بين ديانة قدماء العبرانيين من ناحية ، والعقائد والشعائر الدينية لدى بقية فروع الشعوب السامية من ناحية أخرى . ثم واصل هذه الدراسة على صورة أوسع وأكثر دقة ، باحثون أمثال : دلتش Delitzsch ، وونكلر Winckler ، وروجرز Rogers ، وهم الذين أوضحوا الأثر العميق الذي تركته الأساطير البابلية ، وتقاليدهم البابليين الدينية على ديانة العبرانيين ، وخاصة فيما يتعلق بفكرة البابليين عن طبيعة الكون ،

وقصة الخلق ، والأساطير التاريخية القديمة ، مثل قصة برج بابل وقصة الطوفان . كذلك أوضح ر. ه. شارلز R.H. Charles وآخرون الأسس الفارسية لبعض العقائد اليهودية المتأخرة ، التي أصبحت فيما بعد أساس المعتقدات المسيحية عن الشيطان ، وجنهم ، وخلود الروح .

وقد سبق أن أشرنا إلى اليهودى ، أو المسيحى الورى الذى اعتقد أن الله قد أملى التوراة على موسى ، — وهو ذلك السامى العبرانى الكبير ، والكاتب المخلص الأمين ، وتم ذلك فى وقت ما خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وكان أن أوضح العلماء الذين تخصصوا فى دراسة الكتاب المقدس ، أن توراة موسى ليست مكونة من خمسة أسفار كما هو معتقد ، وإنما هى تتكون من أحد عشر سफراً ، هى على وجه التحديد الأثنى عشر سफراً الأولى من الكتاب المقدس ، باستثناء سفر راعوث الذى هو نتاج متأخر للعصرين الفارسى والإغريق . فالتوراة إذا أبعد عن أن تكون عمل مؤلف واحد تم فى فترة وجيزة من السنين ، وإنما هى فى الحقيقة جمعت بواسطة أربع مجموعات من المؤلفين على أقل تقدير ، فى حقبة كبيرة من الزمن تمتد من نهاية القرن العاشر قبل الميلاد ، إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ذلك أن هناك أربعة أصول أساسية نبع منها هذا الجزء من الكتاب المقدس ، أقدمها ما سمي بالمصدر « J.E. » وهو نتاج الجزء الأخير من القرن العاشر ، أو بداية القرن التاسع قبل الميلاد . وقد سمي كذلك لأن الكتاب أطلقوا أسم يوه Jahveh للدلالة على إله العبرانيين . أما المصدر الثانى من حيث الترتيب الزمنى ، فقد سمي بالمصدر « E. » لأن المؤلفين استخدموا هذا اللفظ Elohim للدلالة على الرب — ويرجع هذا المصدر إلى القرن الثامن قبل الميلاد على وجه التحديد . أما المصدر الثالث فيتمثل فى سفر التثنية الذى دون فيما بين سنة ٦٥٠ ق. م. ، ٦٢٠ ق. م. ويشير إليه العلماء بالحرف « D. » وهو الحرف الأول من لفظ (Deuteronomy) أى سفر التثنية . أما المصدر الرابع والأخير فهو ما أطلق عليه اسم « المصدر الكهنوتى » أو المصدر « P. » وهو الحرف الأول من لفظ (priest) أى كاهن ، ويرجع إلى الفترة ما بين ٥٨٦ ق. م. ، ٥٤٠ ق. م. وكل مصدر من هذه المصادر الأربعة كان نتاج عمل مجموعة من الكتاب ، وليس من عمل كاتب واحد .

وجدير بالذكر أن كل وثيقة من هذه الوثائق الأساسية الأربع لم ترد فى الكتاب المقدس بنفس الصيغة التى كتبت بها بالضبط ، فقد تعرضت جميعاً لتغيرات متفاوتة على أيدي الكتبة المتعاقبين . هذا بالإضافة إلى أن التوراة ليست مكونة من الأصول السابقة ، P.P.J.E. ، بنفس هذا الترتيب الزمنى . فقد أدمج الكتاب اللاحقون هذه الأصول الأربعة بعضها فى بعض ، وخلطوها بشكل يتعذر معه فصلها أو تمييزها فى سهولة . ولعل هذا

هو السبب في أن الكشف عن مؤلف التوراة وعن تكوينها ، ظل مشكلة صعبة استغلت من الباحثين قرناً كاملاً من الجهد . ويدوأن المصدرين E.J. ، تم تحريرها وإدماجها في بعضها في وقت ما ، قرب نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ، ثم م بعد ذلك ، أي فيما بين سنة ٦٢٠ ق.م ، ٥٤٠ ق.م ، — تدوين وإدماج للمصادر P.E.J. وأخيراً — أي في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، تم ضم المصدر . ب إلى المصادر الثلاثة الأخرى ، بعد أن أدخلت عليها عدة تعديلات وتصويبات . وهكذا تكونت التوراة في صورتها التاريخية ، وأصبحت كما هي في أيدينا الآن ، تحت اسم «العهد القديم» .

على أن كل هذه الحقائق عن توراة موسى — وهي كما أوردناها هنا بهذا الشكل المختصر غير الكامل — لا تكفي لتصوير الموقف بكل ما فيه من تعقيد . ولكنها على أية حال تبين عدم صحة الفكرة التي يتصورها المتدينون عن التوراة — تلك الفكرة التي تحدثنا عنها فيما سبق . ولعلنا تلقى ضوءاً أكثر على طبيعة التوراة ، لو تأملنا المقارنة التالية التي عقدها الأستاذ جيمس ت . شوتويل بين التوراة كتاب إغريقى ضم الكثير من الافتراضات يشابهها من حيث الطبيعة والتكوين . يقول شوتويل : «دعنا نتخيل على سبيل المثال أننا لسنا بصدد الإصحاحات اليهودية ، وإنما تلك التي كانت لدى الإغريق . ولنفرض أن تراث هيلاس Hellas قد أمكن حفظه ، وأنه قد وصل إلينا بشكل يشبه الكتاب المقدس . ماذا يمكن أن يكون شكل وطبيعة هذا الكتاب ؟ لعله يحذرُ بنا أن نبدأ بعدد بسيط من الفقرات التي ألفها هزبود عن ميلاد الآلهة وفجر الحضارة ، وقد اختلطت بأجزاء من الألياذة ، وصيغت هذه وتلك في شكل مقتطفات طويلة من كتابات هيرودوت . أما حوار افلاطون فيمكن أن يقدمه لنا أبطال ملاحم هومر . وأما نصوص عظماء كتاب المسرح (بدلاً من الأنبياء) فقد تكون قد حفظت وتداولت في بعضها البعض ، حتى جاءت تعليقات اساتذة مدرسة الاسكندرية لتريدها تعقيداً . ولنتخيل بعد ذلك كله ، أن مصادر هذا التراث الضخم قد حجبتها عوامل الزمن وتعاقب القرون . وأن الفلاسفة — الذين كانوا بالنسبة للإغريق أشبه بفقهاء الذين بالنسبة لإسرائيل — أصبحوا يعتقدون أن الجزء الأعظم من هذا التراث التاريخي الفلسفي الأدبي قد كتبه سولون Solon ، كأنه صادر عن نبوة أبولو في دلفي . وأخيراً ، فلتخيل أن هذه النصوص أصبحت ثابتة وغير قابلة للتغيير ، ومن ثم فقد اكتسبت قداسة وعظمة ، حتى أصبحت بعد ذلك تراثاً لشعوب أجنبية لا تعرف شيئاً عن التاريخ اليوناني أكثر مما تحويه هذه النصوص الجمعة . . مثل هذا التراث — وفي هذا شيء من المبالغة — يكون بمثابة توراة هيلينية على غرار توراة اليهود . ولن نحاول أن نتأدى في هذه المقارنة ، ويكفي أن نذكر أنها من ناحية الشكل والتكوين معارضة ممتازة تقي بالغرض تماماً^(١)

١) T. Shotwell: An Introduction to the History of Histoy (Columbia Universty Press 1922) pp. 82-83.

ولقد كان لازدياد رخاء العبرانيين وهيبهم تحت حكم ثلاثة من ملوكهم هم : شاعول ، وداود ، وسليمان أكبر الأثر في تقدم الكتابة التاريخية عند هؤلاء القوم . وفي هذا يقول الاستاذ جورج فوت مور George Foote Moore : إن الباعث الأول على كتابة التاريخ هو الأحداث التي تصنع التاريخ . وهذا هو ما حدث في إسرائيل في عهد شاعول وداود حيث كانت البداية الحقيقية لكتابة التاريخ العبراني^(١) .

وكان أن ظهرت الكتابة التاريخية العبرانية أول ما ظهرت في أعمال عدد من المؤلفين المجهولين ، الذين يسمون إلى المصدر « D » الذي يتمثل في سفر يشوع Joshua ، وأسفار صموئيل ، وبداية « سفر الملوك الأول » . ويعلق الاستاذ برستد على هذا المصدر قائلاً : إن هذه أول أمثلة للكتابة التاريخية المنشورة ، ومؤلفها المجهول هو أول مؤرخ عرفناه في العالم القديم^(٢) .

كذلك يعلق ادوارد ميار على أروع الفقرات في هذه الكتابة التاريخية قائلاً : إنه لمن المدهش حقاً أن وجدت كتابة تاريخية من هذا الطراز في إسرائيل ، في ذلك الوقت المبكر ، فهي تفوقه بكثير أي كتابة تاريخية نعرفها في الشرق القديم بأكمله . وأبرز هذه الكتابات على الإطلاق ، هي ذلك السرد التاريخي المسمى « سيرة داود » والذي يرجح أن كاتبه هو الكاهن الأعظم (أبياثار) Abiathar . ويعلق الأستاذ أ. ت. اولمستيد A.T. Olmstead على هذه الكتابة بقوله : « سواء كان المؤلف أياثار أو غيره ، فإن على المؤرخ الحديث المحترف أن ينصف سلفه الذي عاش وكتب منذ ثلاثة آلاف سنة . فلقد أمتعنا بتاريخ مبتكر لا يوجد لدينا حتى الآن أي دليل على أن هناك من سبقه إليه . ففي هذه الكتابات العبرانية لا نجد حوليات تسجل حروب ملك ، ولا قصصاً جافة موجزة عن حياة بعض الأبطال السابقين ، كما هو الحال في الكتابات التاريخية المصرية والبابلية والآشورية ، وإنما نجد تاريخاً معاصراً يمكن أن يقارن بسجلات العصور الحالية . لقد كان ذلك المؤرخ الأول يقف خلف الستار ، ويكتب ببساطة ولكن في وضوح ، ولم يكن يقوم بالدعاية لمليكه ، بل كان يسجل الحقائق للأجيال القادمة . ولذا فإن موضوعيته تعتبر أمراً غير عادي بالنسبة لعصره . لقد كان داود يمثل البطل بالنسبة له — ما في ذلك شك — ولكنه لا يغفر لداود نقائصه ونواحي ضعفه ، وكذا خروجه على القانون في شبابه ، وأكاذيبه المتكررة ، وهروبه إلى اعداء قومه ، وتناسيه أن ميكال كان قد أنقذ حياته . كذلك فهو يؤاخذ على دسائسه مع « بشبع » ، وما ترتب على ذلك من نتائج بالنسبة لأسرته . وأخيراً فهو لا ينسى غروره وتبذله ، نتيجة للنجاح الذي أصابه ، ورغد العيش الذي حظى به . كذلك نرى هذا المؤرخ

(١) الكتاب السابق الإشارة إليه للاستاذ Breasted.

وقد التزم نفس الموضوعية في تعرضه لباقي أفراد البلاط ، بما فيهم صادوق الذي حل محل أياثار في مركز الكاهن الأعظم . وسواء كان هذا الكاتب أياثار أو غيره ، فهو أول مؤرخ حقيق عرفه التاريخ .

يبقى بعد ذلك من الأجزاء التاريخية للعهد القديم ، «سفر الملوك» اللذين كتبوا حوالي ٥٦٠ ق . م ، و«حوليات عزرا ونحميا» . أما عن «سفر الملوك» فهي أول تصوير لفكرة أن التاريخ كان يهدف أساساً إلى الافادة من دروس الماضي ، إذ أستخدم المؤلف إقناع الناس بقيمة الإخلاص للدين ، وذلك عن طريقة سرد أمثلة مستقاة من التاريخ . وتعزو هذه الأسفار والكوارث المتعاقبة التي حلت ببني إسرائيل إلى ابتعادهم عن ديانتهم القومية . ويبدو أن مؤلف «سفر الملوك» قد استقى بعض مادته عن تاريخ إسرائيل ويهوذا وملوكها في العصر الأخير ، من الكتابات المبكرة ذات القيمة الكبيرة ، وهي الكتابات التي أثبتت النقوش المعاصرة دقتها وصحتها . أما حوليا عزرا ونحميا فهي في أساسها من عمل مؤلف واحد هو كاهن من القدس . وقد استطاع هذا المؤلف عن طريق سرد سلاسل الأنساب ، فضلاً عن القصص والرويات ، أن يقدم عرضاً للتاريخ العبراني بأكمله ، يستهدف تمجيد مملكة العبرانيين تحت حكم داود وسليمان ، وإبراز عظمة هذه المملكة في شيء كثير من المبالغة . كما أنه أكد مرة أخرى التحذير الذي سبق أن أعلنه مؤلف «سفر الملوك» بخصوص العقوبات التي سيتعرض لها كل من يرتد عن ديانته . وأهم ما تحتويه حوليات «عزرا ونحميا» هو مذكرات نحميا المتعة الفنية بالمعلومات ، والتي جاءت في مجرى السرد العام للأحداث . وتتميز هذه المذكرات بأنها أرق بكثير من عمل المؤلف الكاهن الذي يعتقد أنه قد زور مذكرات عزرا . وبالإضافة إلى ما في العهد القديم من قصص ، فإن هذا الكتاب الديني يضم مادة تاريخية ذات قيمة كبيرة ، من جملتها تشريع العبرانيين ، سواء ما يتعلق «بالقوانين الدينية أو الدنيوية» وهي التشريعات التي رتبها كبار العلماء الذين قاموا بدراسات نقدية للأنجيل في القرن التاسع عشر . كذلك يحوى العهد القديم كثيراً من القصائد والأناشيد والقصص الشعبية ، مثل أساطير البطارقة . وقصص شمشون ، والقصص التي تناولت داود وسليمان . ويعتبر سفر المكابيين الأول من أقيم ما قدمته حضارة العبرانيين في فن التاريخ . ونظراً لأن هذا السفر لم يكن في الأصل العبري للتوراة ، وهو الأصل الذي اعتمد عليه المترجمون ، فإنه لم يرد في الكتاب المقدس البروتستانتي . وقد كتب هذا السفر حوالي سنة ١٢٥ ق . م أحد الصدوقيين المعروفين بحماستهم وتقواهم واعجابهم الشديد بأسرة الحشمونيين ، هو ترثشكا اليهودي ، وفيه يحكى قصة التاريخ العبراني المشيرة ، منذ فتح فلسطين على يد الاسكندر الأكبر ، حتى اعتلاء الملك يوحنا هركاندي John Hyrcanus العرش . ويركز هذا الكتاب على تخليص فلسطين من السيطرة السورية ، نتيجة للهجمات العسكرية التي قادها يهوذا المكابي وخلفاؤه . وعلى الرغم

لما اتصفت به كتابة هذا المؤلف من حماسة ووطنية ، وزهو بالنصر ، إلا أنه أنتج عملاً فريداً بالنسبة لعصره ، تميز باتجاهه العلماني . هذا الى أنه عزا انتصارات العبرانيين إلى شجاعة الحشمانيين ومقدرتهم ، وليس للتدخل الإلهي المباشر لصالح اليهود . ومع الأسف ، فإن المؤرخين المسيحيين في العصور الوسطى لم يعتبروا سفر المكابيين الأول النموذج الأسنى للسرد التاريخي العبراني ، بل راحوا يدعمون حماسة أتباعهم ، ويرهبون خصومهم بمحاكاة القصص التاريخية التقليدية العبرانية التي تؤكد المعجزات الإلهية ، ومكافأة الرب للمخلصين ومعاقبة المخطفين .

وكان آخر المؤرخين العبرانيين البارزين فلافيوس يوسيفوس (حوالي ٣٧ — ١٠٥ ق . م) وهو يعتبر المؤرخ القومي لليهود . وقد جاءت كتاباته في الفترة التي أعقبت تدمير قوة شعبه ووحدته سنة ٧٠ م . ولذا نراه يحرص على عرض أجداد اليهود الماضية ، ليخفف من محنة الشعب اليهودي ويؤسسه . ولعل هذا هو الذي جعل كتاباته تتميز بالمبالغة في تصوير ثراء فلسطين القديمة ، وشعبها ومكانتها الدولية ، أكثر مما فعل مؤلف (حوليات عزرا ونحميا) .

وأهم مؤلفات يوسيفوس كتابان هما : «حرب اليهود» و «آثار اليهود» ويتضمن الأول عرضاً لتاريخ اليهود في القرون التي سبقت الحرب اليهودية الكبرى مباشرة ، والتي انتهت بتدمير القدس . ثم يسرد بالتفصيل أحداث الحلقات النهائية في ذلك الصراع . أما الكتاب الثاني فأكثر إسهاباً من سابقه . وقد كرسه الكاتب لإبراز أجداد اليهود في الماضي . وليوسيفوس كتاب صغير آخر يعارض فيه النحوي اليوناني أيون Apion لموقفه المناوئ لليهود ، وفي هذا الكتاب هاجم يوسيفوس المؤرخين من غير اليهود لتعمدهم عدم إنصاف الثقافة اليهودية ، وغمطهم التاريخ اليهودي حقه من التقدير .

وفي علاجه لعصر العهد القديم ، نجد أن يوسيفوس أتي بمادة لا يمكن الاعتماد عليها . أما عرضه لفترة ما بعد المكابيين فقد جاء خلواً من المبالغة وملئاً بالأدلة . وجدير بالذكر أن يوسيفوس كتب باللغة اليونانية ، وبأسلوب أدبي رفيع . ولهذا نعت بأنه «ليني اليهود» . وإذا كانت هذه المقارنة بين يوسيفوس والمؤرخ الروماني ليني لا تخلو من أساس سليم تعتمد عليه ، إلا أن يوسيفوس لم يكن في نفس المستوى الأدبي الراق الذي اشتهر به ليني ، وإن كان يبدو أنه قاربه في دقة التعبير والتصوير .

وعلى الرغم من أن العبرانيين كان لهم الفضل في رواية التاريخ رواية صادقة ، إلا أن كتابة التاريخ عند العبرانيين ظلت لا تؤثر على المجرى العام للكتابة التاريخية ، حتى تناول المسيحيون بالدرس كتب اليهود وأسفارهم الدينية ، ذلك أن المسيحيين لم يتخذوا من هذه الكتب أساساً لكثير من نظريات اللاهوت المسيحي ، بل جعلوها أساساً للتاريخ المسيحي نفسه . ولتكوين وتأليف تاريخ العصور السابقة .

والواقع إن الإغريق هم الجديرون حقاً بأن نحول إليهم أنتباهنا . بوصفهم المصدر الرئيسي الأول لأصول ذلك الطراز من الكتابة التاريخية ، الذي كانت له السيادة في العصور القديمة ، والذي ظل سائداً حتى عهد ليو الإفريقى ، واروزيوس ، وايزيبيوس . والواقع ، إن كل الكتابات التاريخية للشرق القديم ، باستثناء الكتابات التاريخية العبرانية الأولى ، تأثرت إلى حد كبير بالثقافة الإغريقية . فثا يتون ، وبيروسوس ، ويوسيفوس ، تأثروا جميعاً بالحضارة الهلينية ، فضلاً عن أنهم كلهم استخدموا اللغة اليونانية في كتاباتهم .

المراجع

- 1- H.E. Barnes: The New History and Social Studies, The Century G. 1925
- 2- A. C. Haddon: History of Anthropology G. P. Ountan's Sons 1910.
- 3- B.J. Stern, Lewis Henry Morgan, Social Evolutionist, Universty of chicago press 1931.
- 4- Stanley Casson: Progress of Archeology Mc Cgraw Hill Book Co. 1935.
- 5- B.L. Uiemann, Ancient Writing, Longmans Green and Co. 1932.
- 6- W.A. Mason: History of the Art of Writing Macmillan 1920
- 7- Hutton Webster: Rest Days Macmillan 1916.
- 8- J.T. Shot well: Introduction to the History of History Chaps. i-xi- columpia University press 1927.
- 9- Adolf Erman: Literature of the Ancient Egyptians E.P. dutton and Co. 1927.
- 10- A.T. Olmstead Assyrian: Historiography Universty of Missouri Press 1961.
- 11- D.D. Luchenbill: Ancient Records of Assyria and Baloylonia unwirsty oof chicago press 1927, 2 vols.
- 12- G.A. Barton, The Loyal Inscrption of Sumer and Akkad. Yale University press 1929.
- 13- R.W. Rogers Cuneiform: parallels to the old Testanent Abingdon press 1912.
- 14- G.F. Moore, Literateure of th Old Testament. Hemry Holth, 1911.
- 15- A.T. Olmstead «Hebrew History and Mistericel Method» in Olmstead et al, persecution an Leberly: Essays in Homor of George Burr, pp. 21 ff. ceentury 1931.
- 16- Hans Schmidt, Die Ges shichtschraibung im Alten Testament tūingen, 1911.
- 17- J.W. Thomposon: AHistory of Historcial wrting voli, shopi 2 vols. Macmillan 1942.
- 18- H.E. Barnes and howard Becker, Social Thought from lore to science; voll, chopiii, 3 vols, 1961.
- 19- Herkert Wendet, In search of Adam, Hought on Mifflin 1959.
- 20- J.H. Robinson: The New History. The macmillen Co. 1912.
- 21- I. A. White, Thé Évolution of Culture Mc Graw, Hill 1955.
- 22- Juluis Leppert The Evolution of Culture Mac Millan 1931.
- 23- Will Durant our Oriental Heritage Simon and schuster 1938.
- 24- Jack Finegan Light from the Ancient Past, princeton Univ. Prem, press, 1959.
- 25- Werner Keller The Bible at History Strought on 1956.
- 27- F.J. Teggart, The Teory of History, gale University press 1925.
- 28- J.O. Hetzler, soial Thought of the Ancient Civilization Mc graw-Hill 1936.

- 29- H. H. Breasted Ancient Records of Egypt Univ. of Chicago 1906-7
- 30- J.A. Bewer: Literature of the Old Testament Columbia Univ. of 1951.
- 31- Alexander Heidel: The Babylonian Genesis. Univ. of Chicago Press 1951.

الكتابة التاريخية عند اليونان والرومان

تردد القول استناداً على شئ من الحقيقة الثانية أن أول كتابة تاريخية تستحق الذكر عند اليونان إنما تمثل في الأشعار المنسوبة لهومر . فهذه الأشعار بوصفها على الأقل مصدراً للمعلومات عن ثقافة الأغريق ومجتمعهم ؛ تتضمن مادة تفوقه في جمعها ومعناها ماورد في معظم الكتابات التاريخية التقليدية عند اليونان . وتوضح مؤلفات كل من ت . و . سيمور T.D. Seymour واندرو لانج Andrew lang ا . ج . كيلر A.G. Kaller عن المجتمع الهومري — كيف يمكن للمرء أن يحصل على صورة حية وافية لحضارة ذلك العصر من دراسة لكتابات هومر .

بينما ميلاد الكتابة التاريخية الحقيقة عند الأغريق تطلبت شروطاً عدة . وظروفاً أساسية في الخلفية الثقافية ، وهو أمر لم يكن متوفراً قبل القرن السادس قبل الميلاد . وأعني بهذه الظروف أسلوباً سهلاً متعارفاً عليه لكتابة النثر ، وفكراً ناقداً يعارض الأساطير الشائعة المتعلقة ببدء الأغريق ونشاطهم وإثارة الاهتمام بالأنظمة الاجتماعية وأصولها .

وكان أن توافرت هذه الشروط والظروف التي لاغنى عنها لكتابة التاريخ في منتصف القرن السادس في مدينة ملطية في ايونيا . ففي بداية القرن السادس ق.م أدخل كادموس من مدينة ملطية طريقة الكتابة بالنثر بدلاً من الشعر .

ولذلك اعتبر كادموس واحداً من أوائل كتاب النثر الأغريق ، وهم الذين أطلق عليهم اسم Logographi . وصحب ذلك ظهور الفلسفة الأيونية التأملية في نفس الوقت ، وهي الفلسفة التي جاءت للعالم بأصول الفكر الحر والفلسفة النقدية . ويعبر عن ذلك الأستاذ بيوري Bury بقوله : «إننا مدينون للإغريق بأعمق الشكر بوصفهم مبتكرى

الحربة والفكر الجدل ، لقد كانت أيونيا في آسيا الصغرى مهدا للفكر الحر وبين جوانبها نشأ تاريخ العلم الأوربي والفلسفة الأوربية . وفي أيونيا أخذ الفلاسفة الأوائل في القرنين السادس والخامس ق . م ، يعملون عقولهم للتحقيق في البحث في أصل العام وتكوينه . ومن ثم فقد بدأوا عملية تحطيم وجهات النظر والمعتقدات الدينية .

وكان أن ساعدت حركة الاستعمار والتجارة والسفر في الشرق على تموين الايونيين والأغريق الإيجيين ، وعلى تطوير تلك الثقافة وروح النقد التي كانت أساسا لنحو الفلسفة والأدب والكتابة التاريخية الاغريقية . والواقع ان اتصال الثقافات ببعضها على هذا النحو ، أثار حب الاستطلاع وشجع الازدهار الفكري ، وهكذا فإن رحلة هيكاتايوس أول مؤرخ اغريق إلى مصر ، وتجوّاله فيها من أقصاها إلى أدناها ، لم تخل من أهمية .

وأخيرا فإن دخول أيونيا في نطاق الامبراطورية الفارسية ، نجم عنه اتساع أفق الثقافة لدى الاغريق الايونيين نتيجة هذا الاتصال الهام بين الثقافات كما أنه أثار اهتمام الاغريق الايونيين بحضارة الشعوب المختلفة الذين ضمتهم الإمبراطورية الكبيرة واصبحوا هم جزءا منها . ونخرج من ذلك بأن أصول الكتابة التاريخية الاغريقية كانت جزءا من تلك الحركة الفكرية الكبيرة ، التي جرى العرف على تسميتها باسم حركة التدوين التاريخي القديم (قبل هيرودوت) فضلا عن أنها كانت جزءا من الفلسفة الاغريقية الناقدة في أيونيا . وإلى جانب هذه التفسيرات العامة أو الثقافية لمولد أول كتابة تاريخية اغريقية ونبغى ألا تغفل الرغبة الملحة التي كانت تدفع بعض المواطنين البارزين إلى أن يضيفوا على أسرهم نسباً مرموقا . ولقد مجد هيسود الآلهة الاغريقية باعطائهم نسباً عريقا . وأضفى الكتاب المحترفون الذين اتصف أسلوبهم بالبلاغة الأمر نفسه على التבלاء هذا إلى أن الاهتمام بدراسة الجغرافيا تاحية ، وعلم وصف الأجيال والسلالات من ناحية أخرى ، فضلا عن دراسة الإنسان ، كل ذلك ساعد على بذور بذور أصول الكتابة التاريخية عند الاغريق . وهذا يفسر اتجاه الكتابة التاريخية عند الاغريق نحو العناية بالوصف الجغرافي والدراسة الاجتماعية بالإضافة إلى وصف أصول الشعوب وعاداتها .

وفي ضوء العرض الموجز السابق للبيئة الفكرية التي ظهرت فيها البوادر الأولى للنثر الاغريقى النقدي ، يمكن القول : إنه كان من الطبيعي أن نعتبر هيكاتايوس Gecatays (الذى ولد سنة ٥٥٠ ق . م) أول مؤرخ اغريقى . ذلك أنه كان رحالة ، وأحد مواطني ملطية التي نشأ بين رجالها النثر الاغريقى والفلسفة الاغريقية الناقدة . وتنبع أهميته الأساسية من أنه أن أرهص بتطورين هامين في النهج العلمى لعلم التاريخ ، فجعل الحقيقة مقياساً لما يرد من روايات . بالإضافة إلى أنه اتخذ اتجاهاً نقدياً صريحاً تجاه الأساطير اليونانية التقليدية التي دارت حول نشأة الخلق . وربما كانت الفقرة الافتتاحية من كتابة المسمى

«الانساب Gencalogies» هي أول محاولة يقترب بها كاتب من طبيعة النقد التاريخي اقتراباً شعورياً عن وعي صادق . وهو يقول في هذه الفقرة «إن ما أدونه هنا هي الرواية التي اعتبرها صادقة وحقيقية ، لأن قصص الاغريق عديدة . وهي في رأيي تبحث على السخرية » .

ولم تلبث أن اتخذت الاتجاهات الفكرية التي أنجبت هيكتايوس تتقدم بخطى حثيثة . حتى اكتمل التطور من كتابة «الانساب» إلى «تاريخ هيرودوت» . ذلك أن شارون الذي ينسب إلى مدينة لامباسكوس ، وديومنيوس — الذي ينسب إلى ملطية — جمعا خلال منتصف القرن الخامس تواريخ فازس ، كما وضع سكيلاكس — الذي ينسب إلى كارياندا — أول سيرة تاريخية . ثم ألف أنطيوخس — الذي ينسب إلى سيراكيوز — أول تاريخ لشعوب اليونان في الجزء الأخير من القرن الخامس . في حين مهد هيلانيكوس — الذي ينسب إلى لسبوس — الطريق لهيرودوت ، وذلك بفضل سعة دائرة أفقه . ذلك أنه لم يقتصر على علاج تاريخ فارس واليونان من وجهة نظر اجتماعية عريضة فحسب ، بل إنه أيضاً كان أول مؤرخ اغريق اعترف بضرورة وجود نظام شامل للتسجيل التاريخي . وقد حاول أن يحقق الأمر الأخير ، ونجح في ذلك نجاحاً نسبياً .

على أن هيرودوت كان أول مؤلف اغريق قام بعمل تاريخي متكامل ومنتظم ؛ حين كتب قصة العلاقات الأغريقية الآسيوية منذ حكم كرويسس ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦ ق . م) ، حتى الهزيمة التي لحقت بالفرس عندما غزوا بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق . م . والواقع إن الحروب الفارسية أيقظت عند الاغريق الاهتمام بخصائص وطبيعة حضارات منطقة الشرق الأدنى . ومن ثم فإن أي كاتب يربط بين وصف الثقافات الشرقية ، وبين العمل الوطني المجيد الذي قام به الاغريق في صد الفرس ؛ كان من الضروري أن يجد عدداً وفيراً من القراء المتجاوبين معه . لقد انتهر هيرودوت أحد مواطني مدينة هاليكارنا سوس (٤٨٤ ق . م — ٤٢٥ ق . م تقريباً) — الفرصة ، ولم يقتصر اهتمامه على الشعوب المتحضرة فحسب ، بل وجه عنايته أيضاً نحو غيرها من الشعوب . ولذا اعتبر هيرودوت بحق أبا التاريخ ، بل أبا علم البشر والانسان . وقد كتب موريس كروازيه Croiset عن طبيعة كتاب هيرودوت وأهميته فقال : «لقد أخذ كاتب أسبوى اغريق هو هيرودوت — الذي ينسب إلى مدينة هاليكارنا سوس — على عاتقه تعريف مواطنيه بمزيد من الحقائق عن الشرق . ووفق في ذلك توفيقاً عظيماً . وامتاز هيرودوت بأنه رحالة لا يكل ، دفعته رغبته في أن يرى وأن يتعلم إلى زيارة مصر ، وآسيا الصغرى ، فضلاً عن كل بلاد الاغريق تقريباً ، وصقلية ، وإيطاليا على التوالي . وفي إيطاليا استقر به المقام في نهاية الأمر ، وحيث يحتمل انه مات . وقد وفق في القيام بدراسة ميدانية عظيمة الفائدة ، فراح يسأل الناس ، ويزور الآثار ، ويقف على كل شيء ،

مثل العادات ، والقوانين ، ونظم الحكم ، والديانات ؛ دون أن يكون متأثراً بأفكار سابقة أو ميول معينة . وإنما كانت مشاعره عبارة عن مزيجاً مزيداً من الدقة والاستعداد للتصديق ، مع فضول لا يقف عند حد ؛ واحترام للأديان . ومن كل ما شاهدته وقرأه وسمعه — فضلاً عن قدرته وعبقريته ، ووجهه للإشياء الجميلة ؛ وموهبته في رواية الأخبار ، وروعة أسلوب — استطاع أن ينتج مؤلفاً رائعاً حقاً . ذلك أنه أعطى لقرائه صورته عن حياة مائتين من الشعوب المتباينة داخل إطار ضخم كأنه منظر حي متحرك . والواقع أن المعلومات الوافرة التي وردت في كتاب . هيرودوت ؛ جعلت منه شيئاً أشبه بدائرة معارف ضخمة . ذلك أنه عالج في ذلك الكتاب أنماطاً متباينة من البشر ، وعدداً وفيراً من الديانات ، ونظماً مختلفة للحكم ، عالج كل ذلك بطريقة متممة ، بحيث يصعب أن نعث على تلك الصورة الحافلة للمجتمع البشري ؛ حتى على مسرح الحياة المعاصرة ⁽¹⁾ .

وكانت الحروب الفارسية هي المحور لتاريخ هيرودوت ، وخاصة ما أصاب أكرسيس من دمار على أيدي الاغريق . ولكن الصورة الخلفية التي رسمها هيرودوت لمؤلفه احتوت من المادة ما هو أهم وأكثر طرافة من التاريخ الخاص بحرب الفرس . والواقع أن هيرودوت كان أضعف ما يكون كراوية للتاريخ الحربي ، إذ أظهر في علاجه لهذا الجانب عدم اهتمام وقلة مقدرة في التحقق من التفاصيل . بين أن علاجه هذا كان من ناحية أخرى عملاً غير عادي ، يستوجب الثناء في الوقت ذاته ، لأنه لم يسمح للعواطف الوطنية أن تتغلب على أحكامه ووجه للعدل ، وقد بلغ من عدالة أحكامه على الفرس إصراره على امتداح شجاعتهم ، الأمر الذي عرضه لتقدير من جانب مواطنيه من قراء الاغريق .

وقد اعتبر هيرودوت الحروب الفارسية صداماً بين غطين مختلفين من الحضارة هما : الحضارة الهلينية ، والحضارة الشرقية . ومن ثم فإنه تجرد عن الهوى عند تحليل هاتين الثقافتين المتضاربتين . وبفضل نظرته التاريخية البعيدة ؛ تمكن هيرودوت من أن يصف شعوب غرب البحر الأبيض المتوسط والعالم الآسيوي في القرنين السادس والخامس ف . م وصفاً متمماً حياً وجاءت هذه المادة خليطاً بين التاريخ الثقافي والدراسة الاجتماعية الوصفية ، إذ تنقل من وصف مناخ المناطق المختلفة ، إلى وصف الحياة الخاصة اليومية للشعوب التي تناولها بالدراسة . ووصف الشعوب المختلفة في روح بعيدة تماماً عن التعصب الجنسي . ولقد ظل هيرودوت زمناً طويلاً يعتبر ضحية تصديق كل ما كان يسمعه ، ولكن الأبحاث الأثرية المعاصرة أكدت صحة الكثير من قصصه الرائعة . هذا إلى أنه ميز بنجاح فائق ليس له نظير في عصره بين القصص الشعبي الذي تناقله الالسنه ، وبين ما شاهدته بعينه وآمن بصحته . وأخيراً فإن هيرودوت اعتبر

(1) Maurice Croiset: Hellenic Civilization (Alfred A. Knopf 1936) pp. 143-144

بسبب تنوع ميوله واتساع أفقه — مؤرخا للتاريخ الثقافى . والجدير بالذكر أنه إذا كان كتابه أول مؤلف تاريخى شامل على وجه الإطلاق ، فإنه فى نفس الوقت جاء تاريخنا للحضارة . وكان هيودوت فى تناوله للحروب الفارسية أقل توفيقاً وحظاً وإن لم يكن أقل تشويقاً .

وأذا كان العلاقة شوتويل Shotwell وصفه بأنه « هومر الحروب الفارسية » فإن لفظة المقارنه سندها وقوتها . ذلك أن هذا الجزء من مؤلفه عبارة عن ملحمة شعرية فذة و استمد إلهامها من إعجابه بالديمقراطية الأثينية . فعلى الرغم من أنه راح يثنى على شجاعة الفرس ، إلا أنه مجد أثينا وانتصارها على الأمبرالية الفارسية المطلقة ، وفعل ذلك فى أسلوب حماسى ؛ يشبه أسلوب بانكروفت عند وصفه فوز الأمريكين باستقلالهم عن الامبراطورية البريطانية . لكن هيودوت على عكس خلفه الشهير ثوكيديدس ؛ أعوزه ذلك الحرص على مراعاة الدقة والوضوح فى سرد الأنجاز الحربية هذا فضلاً عن أنه لم يستطع أن يحرر نفسه من الخضوع للعقيدة القائلة : إن الآلهة تتدخل فى اعمال البشر . فظهرت فى أماكن متفرقة من مؤلفه فكرة نسبة بعض الظواهر إلى قوى عليا قاهرة غير ملموسة .

ومع هذا كله فإن شهرة هيودوت ستظل خالدة بوصفه أول فنان بناء فى مجال الكتابة التاريخية ، وصاحب أول مؤلف تاريخى شامل ، وأول كاتب أثبت أن مهمة المؤرخ هى أن يعبر بناء حياة الانسان الماضى كلها ، وأخيراً بوصفه واحداً من أمتع رواة القصص فى مجال الكتابة التاريخية كلها . وقد ازدادت شهرته وأهميته فى جيلنا نتيجة للإقبال المضطرد على دراسة التاريخ الحضارى ، والتخلى تدريجياً عن الاتجاه الذى حظى باقبال شديد ظل سائداً منذ عهد ثوكيديدس حتى القرن العشرين من عصرنا هذا ، وهو الاتجاه الحاضر بالعناية بالتاريخ الحربى والسياسى .

أما ثانى المؤرخين الاغريق العظام فهو ثوكيديدس Thucydides (456 — 396 ق . م) الذى تناول المسائل التاريخية بروح اختلفت كثيراً عن روح هيودوت ، فتخلى عن اتباع الأسلوب القصصى مفضلاً عليه السرد المترن الجاد للحقائق التاريخية كما أدركها . هذا إلى أن ثوكيديدس استبعد الأساطير والخرافات التى ولع بها هيودوت ، وفصل التاريخ عن شعر الملاحم والقوى الغير طبيعية ، ففسر أحداث التاريخ فى ضوء أسباب منطقية أساسها العقل ، أو مبررات دنيوية . ولا نجد فى كتابات ثوكيديدس استطرادات طويلة تخرجنا عن الموضوع ، مثلاً نجد فى كتابات هيودوت المليئة بتلك الاستطرادات ، بل إننا نجد ثوكيديدس يختار موضوعاً محدداً لبحثه التاريخى ، ويلتزم بالسير فى نطاقه . ولذا لم تكن مادته متصلة بالموضوع العام فحسب ؛ بل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنقطة قيد البحث .

كانت الحروب البلوونيزية (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م ، هي الموضوع الرئيسى الذى عالجه ثوكيديس فى كتاباته ، وهو ميدان أقل مدى وأكثر تحديداً من ذلك الميدان الذى غطاه هيرودوت وإذا قارنا مؤلف ثوكيديس بمؤلف هيرودوت فكأننا نقارن تاريخ الحرب الأمريكية الأهلية بقصة تطور الحضارة الأمريكية الإنجليزية منذ القرن السادس عشر ولما كان بعضنا من كتاب ثوكيديس قد أعد حين كان رضى الحرب دائرة فان عمله كان أشبه بعمل المراسل الحربى الخفيف بحيث أنه يمكننا أن نطلق عليه اسم فرانك سيموندس العصر القديم . وفى الوقت نفسه فإن فولف ثوكيديس يعتبر بنفس القدر عمل مؤرخ هادئ خال من الترععات ، يعمل على إعادة بناء أحداث الماضى البعيد معتمداً على دراسة الوثائق . وإن العرض الموجز الذى تناول فيه تطور اليونان من مدن حرة إلى قيام الامبراطورية الآتية ، وهو العرض الذى قلم به روايته عن الحروب البلوونيزية — ليدل على قدرته النادرة على تصوير الماضى إذا ما رأى أن ذلك مناسباً . ولكن عمله العظيم كان فى المحل الأول تاريخاً معاصراً لأحداث تناولها بوصفه شاهد عيان ، وناقداً وسياسياً أثينا .

على أن الفضل الأكبر لثوكيديس على علم كتابة التاريخ ، يتركز كما ألتحنا فى ميدان النقد ، وفى الطريقة للمهنية . ذلك أنه أكد بقوة نظرية أن القيمة الخالدة للعمل التاريخى وشهرته ، ينبغى أن تعتمد على صدق ما يرد فيه من روايات ومطابقتها للحقيقة ، أكثر مما تعتمد على التسلية بسرد الأحداث . والواقع أن ليوبولد فون رانكه فى بداية القرن التاسع عشر ، لم يأت بشرح أوفى من شرح ثوكيديس فى نهاية القرن الخامس ق . م ، للقاعدة الأساسية للدراسة العلمية للتاريخ ، وهى القاعدة القائلة : إن الدقة فى جمع المعلومات ينبغى أن تكون أساس الكتابة التاريخية السليمة . أما القاعدة الرئيسية الثابتة التى وصفها ثوكيديس فهى تلك التى تنص على مراعاة الشئ من المادة التاريخية والاقتناع بها ، وهذه كما رأينا — خطوة تقدم بها على هيرودوت . ويضاف إلى هذا كله قدرته على الإلمام بالتفاصيل ، وتنسيقها فى سياق السرد العام ومن ثم ، يمكن أن نعتبر ثوكيديس بحق مؤسس المنهج العلمى النقدي للتاريخ . وفضلاً عن ذلك كان ثوكيديس أول مؤرخ يقرر فى وضوح وجلاء القيمة العملية لكتابة التاريخ ودراسته ، فهو يرى أن الإلمام الصحيح بالماضى مفيد ، لأن الأحداث سوف تعيد نفسها فى صورة مشابهة ، وذلك وفقاً لسنة الحياة البشرية .

ولم يقتصر جهد ثوكيديس وإصراره ، على غزيلة مصادره وإقامة روايته على وثائق دقيقة ، بل إنه كان كذلك بارعاً فى تنظيم مادته وتفسيرها . وإذا كان قد أهتم أساساً بالحقائق السياسية ، فإنه كان فى الوقت ذاته أول مؤرخ يتناول السياسة بأسلوب الفيلسوف . ذلك أنه عنى بفحص البواعث السياسية والتاريخية للأحداث ، مبرراً الأسباب البعيدة منها والقريبة ،

في الوقت الذي اعتاز بقدرته على التحليل السيكولوجي للأفراد والجماعات ويظهرها بوضوح في دراسته الرائعة لعدد من الشخصيات ، وتحليله للرأي العام في مختلف المناسبات ، مثل ثورة أثينا سنة ٤١١ ق . م . وكان ثوكيديدس أديباً مبرعاً ، فعلى حين أنه استغل الوثائق والمصادر الشفاهية استغلالاً طيباً ، إلا أنه كان يخفى ذلك بمهارة ، ويستخدم طريقة ماهرة في العرض ، كي يجعل روايته سهلة سلسلة .

ولكن ، مع هذا كله ، ورغم أفضاله الكبيرة على علم التاريخ ، فإن كتابات ثوكيديدس لم تحل من سقطات كبرى . ذلك أنه لم يكن قادراً على استيعاب مفهوم الزمن استيعاباً كاملاً أو على تصوير الأحداث تصوراً تاريخياً صادقا ، هذا بالإضافة إلى أنه لم يمتلك قدرة هيروdotot البارعة في تقدير أهمية العوامل الجغرافية وأثرها في توجيه الأحداث التاريخية . ولم يكتف بأن يقتصر مجال التاريخ على مجال ضيق ، هو دراسة الظواهر السياسية المعاصرة ، بل إنه حصر هذه الظواهر الأخيرة في الجوانب الخارجية ، العسكرية ، الدبلوماسية ، والنشاط السياسي ، وأغفل الأهمية الحيوية لأثر العوامل الثقافية والجماعية والاقتصادية على التاريخ . ولعل ف . م . كورنفورد F.M. Cornford قد يلمح في إبراز نقط الضعف هذه ، إذ أوضح كورنفورد في كتابه « تاريخ ثوكيديدس الأسطوري » Thucydides Mythistoricus « أن ثوكيديدس لم يفهم طبيعة الحرب البلونيزية وإسبها ، حيث يعتقد كورنفورد أن تلك الحرب جاءت نتيجة لمسلك الجماعات التجارية والصناعية في ميناء بيريه ، أو بعبارة أخرى ؛ جاءت نتيجة لسياسة الطبقة الوسطى من التجار . ولكن ثوكيديدس لم يذكر هذه الحقيقة الأساسية ، ولعله — بوصفه أثينياً — كره أن يتوه بتشاط الطبقة الوسطى وتطلعاتها ، واكتفى ثوكيديدس بأن سلم بتصورات بركليز العامة عن نتائج الحرب ، دون أن يفحص قيمتها الحقيقية . وقد تولى ج . ف . أبت G.F. Abbott وآخرون الدفاع عن ثوكيديدس في هذه النقطة ، ولكن لم يوفقوا توفيقاً كبيراً .

وأهم من ذلك كله ، أغفل ثوكيديدس الفرصة الذهبية لتصوير أبعاد الحضارة الأثينية ، وهو الأمر الذي جاء نتيجة لفكرته المحددة عن رسالة المؤرخ ، لا لعدم قدرته كمؤرخ للحضارة . ذلك أن محاولته الشهيرة لإعادة بناء وتجميع مراثية بركليز ، تمثل دليلاً على ما كان يمكن أن يفعله في مجال التاريخ الثقافي لو أنه اختار أن يعالج هذا الموضوع . وفضلاً عن ذلك ، فإنه يصعب أن نشك في أنه ذهب بعيداً في التزام مبدأ الثبوت والتحقق من صحة المعلومات التي أوردها . وإذا كان هيروdotot قد أدخل الكثير من الإضافات والاستطرادات على أوصافه ، مما يبدو معه أنه خرج على الموضوع ، فإن ثوكيديدس حذف كثيراً من المادة المرتبطة بروايته اللازمة لفهم الرواية فهماً كاملاً . ويصدق هذا بصقة خاصة على العناصر غير السياسية وغير العسكرية في المواقف التاريخية ثم إن ثوكيديدس بدت فيه نقطة الضعف التي

أخذها المؤرخون على كارليل ؛ من حيث تفسيره المثير للأحداث عن طريق اتخاذ الشخصيات الكبيرة محاور لها ، وإن لم تكن له قدرة كارليل على تصوير الشخصية في مجموعها . ففي إدراكه للأسباب الشخصية البحتة وأثرها على التاريخ كان سطحياً إلى حد ما ، حيث كان يضع مجرد مبررات ظاهرية للأسباب الحقيقية . وأخيراً ؛ لم يبد في منهجه شيء قليل أو حتى شيء على الإطلاق مما ذكره ماييلون في نقاشه العميق عن استفادة ثوكيديدس من الوثائق بصورة ناقدة . فكما ذكرنا من قبل عن ثوكيديدس ؛ أنه كان يخفى مصادره حتى لا يتأثر أسلوب روايته للتاريخ .

ومع هذا كله فإنه من الممكن أن نتفق تماماً مع مقالته بيوري Bury من إن عمل ثوكيديدس يعتبر أوسع الخطوات وأكثرها حسماً مما قام بها فرد واحد نحو جعل التاريخ على ما هو عليه اليوم . مع ملاحظة عدم اعتبار هذا القول ثناء خالصاً . والأمر لاشك فيه أن ثوكيديدس كان له أثر واضح في إخضاع علم تدوين التاريخ لتطويع السياسة ولغزو الأحداث ، وهي مسائل عانى منها التاريخ منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر . كما أكد لابرنخت ؛ يجب ألا ننسى أن الدقة التاريخية الصادقة ، تتطلب دراسة نشأة كل موقف من المواقف وإطاره الحضارى ، بقدر ما يتطلب مجرد سرد حقائق الأحداث الترسيمة بذلك الموقف سرداً صادقاً . فإذا أخذنا بوجهة النظر هذه بالإضافة إلى ما هو مطلوب في دراسة التاريخ من تحرى الدقة والضبط والاحكام ، فالتنا نجد أن ثوكيديدس قلما يرق إلى مستوى هيودوت . ولعل المعجبين بالأول ؛ كثيراً ما غاب عنهم وتناسوا أن مجال البحث ومحتواه لا يقلان أهمية في ميدان التاريخ عن سلامة التهج وقوة حجج الرواية .

أما آخر كبار المؤرخين الاغريق فقد كان بوليبيوس Polybius (١٩٨-١١٧ ق . م .) وهو يفوق ثوكيديدس من حيث وفرة الإنتاج والعمق ، ويتساوى معه في تحريه ودقة الحقائق التاريخية . ولكن لما كان أسلوب بوليبيوس معقداً ومطولاً ، فإن جمهور القراء لم يقبلوا على قراءة مؤلفاته قدر إقبالهم على قراءة أعمال سلفيه العظمين (هيودوت ، ثوكيديدس) . وجاء تاريخه في أربعين جزءاً تناول فيها اتساع الامبراطورية الرومانية وتطورها الدستوري حتى سنة ١٤٦ ق . م . وإذا كان هناك شيء أمتاز به بوليبيوس على ثوكيديدس ؛ فهو أنه كان أكثر تأكيداً في أن المؤرخ الناجح ينبغي أن يكون رجلاً من أبرز رجال الأعمال في الدولة ، والأفضل أن يكون قائداً سياسياً .

وكما أن كتابات هيودوت تعكس اهتمام المؤرخين الاغريق الأوائل بالشرق ، وكما أن ثوكيديدس كتب عن أثينا وعلاقتها الخارجية في أوج الحضارة الأثينية ، فكذلك صور بوليبيوس اضمحلال الامبراطورية الهلنستية ، واتجاه الأنظار نحو قوة الرومان الجديدة في الغرب . ولما كان بوليبيوس مواطناً اغريقياً قضى معظم شبابه في روما ، فإنه كان أكثر اعتدالاً وتمسكاً

بمبدأ عدم التحيز ؛ عند علاجه التاريخ الإغريقي والروماني من أي مؤرخ آخر قديم . وقد حاول في مؤلفه حسن التنسيق والترتيب أن يشرح نمو سلطة روما . ويعتبر المجلد السادس من كتابه أفضل تحليل قديم بقي حتى اليوم للمثل السياسية والأساليب العسكرية الرومانية . وفي هذا التحليل ؛ توصل بوليوس إلى أن عبقرية الرومان السياسية نبعت من اتخاذهم نظاماً للحكم جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية . وابتاع الرومان لهذا الأسلوب تفادوا طريقاً حتمياً يمثل حلقة مفرغة ؛ تدور فيها الشعوب من الملكية ؛ إلى حكم الطغاة إلى الارستقراطية فالأوليغاركية أو حكم الأقلية ، ثم الديمقراطية وحكم الجماهير ، ثم تدور الحلقة من جديد . وكان بوليوس ثاقب الفكر ، نافذ البصيرة في تقديره للأمور السياسية ، كما كان مولعاً بدراسة الأحداث والشخصيات ، فجاء تحليله للشخصيات رائعا ، نذكر على سبيل المثال ؛ وصفه لشخصية هانيال .

ويتلخص ما أسهم به بوليوس في تقدم علم التاريخ ؛ في أنه شجع الأساليب المثالية للدراسة المنهجية التاريخية السليمة ، وهي الناحية التي فاق فيها ثوكيديدس . ففي المجلد الثاني عشر من مؤلفه ؛ أورد بوليوس نقداً للمؤرخ القديم طيباوس ، ويعتبر هذا النقد أول بحث عن منهج الأسلوب العلمي في التاريخ . وإذا استثنينا ما كتبه ثوكيديدس ، فإن هذا البحث يعتبر خير ما كتب في موضوعه حتى يومنا هذا فضلا عن أن حيده وعدم انحيازه كفيلا بأن يجعله نموذجا لكل المؤرخين . هذا كله فضلا عما يجب التنويه به من أن بوليوس أصر على أهمية معرفة الجغرافيا والطوبوغرافيا للمؤرخ ، وهو في هذا يشبه العلم ريت Ritter ثم إن بوليوس شابه ثوكيديدس في اتجاهه ليجعل من تاريخه دراسة ذات قيمة عملية كبيرة أو بعبارة أخرى ؛ يجعل منه دراسة فلسفية تعتمد على الأمثلة والنماذج . وكان بوليوس يعتقد أن القيمة العملية الكبرى للتاريخ تكمن في عرض الحقائق التاريخية الصحيحة ؛ التي قد تساعد الناس على توجيه الأمور العامة في حاضرهم ولكنه ندر أن سمح لطابعه الفلسفي أن يتغلب على طابعه كمؤرخ . ولما كان كثير من الاهتمام بالسببية ؛ فقد تعمق أكثر من ثوكيديدس في تحليل الأسباب الغير شخصية ، وإن جاء تفسيره أخلاقيا أكثر منه اقتصاديا واجتماعيا . وفي ذلك يقول كروازيه : « إن مؤلف بوليوس هو المؤلف الذي يوضح فكرة استمرار الحياة البشرية ، ونطق الأشياء . واعتماد الدول على بعضها بعد أن كانت كل منها في عزلة عن الأخرى . فلم يعد في إمكان التاريخ بعد ذلك أن ينظر إلى الجغرافيا أو تكوين الدول وقوانينها وعاداتها ونظمها الاقتصادية والحرية على أنها موضوعات منفصلة ، الهدف فيها إشباع فضول القراء بطريقة عابرة نوعاً ما ، وتلخص العبارة المختصرة التالية المقتبسة من مجلده الثاني عشر آراءه في مجال التاريخ . وأساليبه والهدف منه : « يقوم علم التاريخ على ثلاث دعائم : أولها ؛ تناول الوثائق المكتوبة وتنظيم المادة التي يحصل عليها منها . ثانيا ؛ طوبوغرافيا وظهور المدن الأحياء ووصف الأنهار

والمؤلف ، ووصفة عامة الظواهر الخاصة . بالبحار والدول والمسافات بينها . ثالثاً ، الشؤون السياسية . إن دائرة العمل الخاصة بالتاريخ تشمل أولاً : التحقق من صدق الكلمات التي استخدمت وقيلت فعلاً . وثانياً : فهم الأسباب التي أدت إلى فشل أو نجاح سياسة معينة أو تنظيم معين . ذلك أن مجرد رواية حادثٍ ما ، ليس مفيداً وإن كان طريفاً . ولكن إذا ربطت هذه الرواية بذكر المسببات ، أصبحت دراسة التاريخ مثمرة حيث يمكننا عن طريق مقارنتها بظروف ما أن نصل إلى الوسائل والأسس لتقدير المستقبل ، وأن نتعلم من الماضي حتى نتصرف بحذر في الحاضر ، ومتى نتصرف بحراً أكثر .

ثم إن بوليبيوس في تحليله ونقده للمؤرخ الإغريقي القديم طيباوس ؛ عنى كثيراً بموضوع صحة الوثائق التي على المؤرخ أن يستخدمها ، وأنتقد الانسياق وراء العاطفة وحذر منه ، وكان بوليبيوس خصماً لدوداً للبلاغة ؛ التي كانت قد بدأت تسوء الكتابة التاريخية عند الإغريق والرومان .

وخلاصة القول ان المرء يكاد يتفق مع الاستاذ جورج وليز بوتسفورد Willis Hotsford في راية القائل : إن قراءة هذا المؤلف بإمعان : هي أحسن مدخل ممكن للوقوف على روح التاريخ وطريقته كما ننظر إليها اليوم . « أو على حد تعبير الاستاذ شوتول : إن شرح بوليبيوس للمبادئ الهادية لكتابة التاريخ ؛ هو أول بيان رائع عن المثل العلمية للمؤرخ حتى أيام رانكة »

وهناك مؤرخ أقل مرتبة بكثير من من هيودوت وثوكيديدس وبوليبيوس ، هو اكزنيفون Tenophon (٤٣٠ — ٣٥٤ ق . م) الذي سبق بوليبيوس بقرنين . وكانت قدرته الأدبية مرموقة ، أما قدرته على التحليل التاريخي العميق فقد كانت محرومة . وقد أجاد المذكرات ، ويعتبر كتابه (Anabasis) من أمتع ما كتب من مذكرات تاريخية . كذلك حاول في كتابه Hellenica أن يكمل أو يواصل تاريخ ثوكيديدس من ٤١١ — ٣٦٢ ق . م .

ومع أن كتابه هذا بالغ القيمة ؛ بوصفه مصدراً لتاريخ تلك الفترة ، إلا أنه سطحي ، وترجع أهميته التاريخية إلى محاكاته طريقة ثوكيديدس وتنظيمه . كذلك كتب اكزنيفون أحسن سيرة تاريخية في الأدب الإغريقي ، وهي كتابه عن حياة اجزسلاوس Agesilous . هذا ويعتبر كتابه Ways and Means المثل الوحيد بين كتابات المؤرخين الإغريق الذي يدرك تماماً مدى تأثير العوامل الاقتصادية على اتجاهات السياسة . ومما يكن من أمر ؛ فن للممكن بصفة عامة ودون غضاضة أن نتفق مع بيوري في قوله : إن اكزنيفون يدين بشهرته كمؤرخ إلى أن جيلاً لا يمتلك القدرة على النقد حافظ فما بعد على

كتاباته في حين أهمل غيرها من المؤلفات الأكثر قيمة والتي تستحق المحافظة عليها « وانه لو عاش اكرنيفون في أيامنا لاعتبر صحفياً من الطراز الأول وكاتب مقالات ممتاز ، ولشق طريقة في الحياة بوصفه مراسلاً حريياً » ومع ذلك فإنه ليس من العدالة أن ننكر مواهب اكرنيفون الأدبية ، التي تجلت في مذكراته ، وتراجمه ، وتاريخه الرتيب ، وتحليلاته للسماتير والنظرية الاقتصادية .

أما بوليوس ، فكان مؤرخاً فريداً في عصره ، وكان علم الكتابة التاريخية عند الإغريق قد بدأ ينحدر عن المستويات التي وضعها ثوكيديدس ، وذلك قبل أن يؤلف بوليوس كتابه بوقت طويل . وأخذ علم التاريخ ينحصر لتأثير البلاغة في القرن الرابع ، واتجهت المؤلفات التاريخية للمدرسة البلاغية إلى إبراز الجوانب الخلقية ، إلى الخطب والتمقة الخيالية ، كما ولعت بالمديح والثناء ، وهي لذلك تشبه كتابات فرواسار ولامارتين في عصور لاحقة ، « التي تبدو فيه أكثر منها تاريخية » . ويرى هيرمان بيتر Hermann peter أن الرضوخ وتلك الاستجابة من جانب المؤرخين لإرضاء نزعة العامة نحو الكتابات البلاغية ، هو السبب الرئيسي في ركود وانحيار الكتابة التاريخية عند الإغريق ، وشيبتها عند الرومان .

وكان ايسقراط Esocrates رائد البلاغيين في القرن الرابع ق . م . كما كان ايفورس وثيوبومبوس زعيمى مؤرخى هذه المدرسة . ولعل مؤلف ايفورس أقرب محاولة من الحركة التاريخية الإغريقية لكتابة (التاريخ القومى) الهيلنى . وعلى نقىض ذلك كان عمل طماوس ، الذى ينسب إلى مدينة طورمانيوس بصقليه ، والذى قضى حياته يعمل في صبر لجمع مجموعة كبيرة من الحقائق التى لا يرقى إليها الشك عن تاريخ صقليه وإيطاليا . لذلك كان أول الأقدمين الذين برزوا في القرن الثالث ق . م . ويمكن القول : إنه كان نموذجاً لكل من بلوندىس وليالند Blondise Lalaind فيما بعد . وقد تم بغد ذلك جمع كتابين كبيرين هما : تاريخ العالم لديودور الصقلى (٩٠ — ٢١ ق . م .) ، وتاريخ روما لمعاصره الاصغر سناً ، ديو نيسيوس ، الذى يتسمى إلى مدينته هاليكارناسوس . وقد عرفا في السنة الرابعة الميلادية ، ومع أنها أقل دقة ، إلا أنها فاقا بكثير مؤلفات اصحاب المدرسة البلاغية . ويعتبر الكتاب الأخير أول مؤلف نادى بأن التاريخ يعلم الفلسفة عن طريق سرد الأمثلة الواقعية .

أما كتابه السير والتراجم عند الإغريق ، فقد قام ايسقراط — وهو أحد زعماء البلاغيين — برفع مستواها . وكانت سيرة اجيز لاوى التى كتبها اكرنيفون إحدى الآثار المبكرة . ثم خصص المؤرخون اللاحقون جزءاً كبيراً من مؤلفاتهم لكتابة التراجم . وجدير بالذكر أن كتاب بلوتارخ (٥٠ — ١٢٥ م تقريباً) « السير المتشابهة » وهو كتاب يتصف بالدقة والوضوح — ظل دواماً يتصدر الانتاج في مجال التراجم في العالم ، وذلك لطرافة معلوماته ،

فضلا عن دقته التاريخية الفائقة . وينبغي أن نذكر أن بلوتارخ كان داعية من دعاة الأخلاق ، وأنه كتب كتابه هذا لا ليكون مجرد سير تاريخية فحسب ، بل ليدعم بالبرهان مبادئه الأخلاقية التي استهدف من ورائها رفع أخلاقيات القراء .

وفي فترة إحياء الحضارة الهيلينية في روما ، ساهم عدد من المؤرخين الإغريق - على مستويات متباينة - بنصيب كبير في الكتابة التاريخية . ومن بين المؤلفات الأقل شهرة التي ظهرت في تلك الفترة ، المؤلف الذي وضعه اريان Arrian (حوالي ٩٥ - ١٧٥ م) عن « زحف الاسكندر وحركته التوسعية » وكتاب « تاريخ روما » الذي ألفه في الفترة ذاتها . ونذكر من المؤلفات التي تفوق هذين المؤلفين بكثير ، الكتاب القوي الذي ألفه ديوكاشيوس Diocassius (١٥٥ - ٢٤٠ م تقريبا) بعنوان « تاريخ روما » . أما اميانوس ماركيالينوس وهو الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة عظماء مؤرخي الإغريق ، فقد وضع تاريخاً للإمبراطورية الرومانية من ٩٦ - ٣٧٨ م يمتاز بسعة الأفق والإدراك . وقد كتب مؤلفه هذا باللغة اللاتينية حرصاً منه على أن يقرأه أهل روما . ويلاحظ أن اميانوس هذا كانت تعوزه عذوبة الأسلوب في اللغة التي اختارها وهي اللاتينية ، ولكن روايته للأحداث اتصفت بالدقة ، ويمكن الاعتماد عليها بصفة عامة .

هذا وقد ساهم الإغريق في تطور علم التاريخ عن طريق عرضي ، عندما ابتكروا آراء مقبولة حول عملية التسجيل التاريخي . من ذلك أن المؤرخ القديم طلماس (٣٥٠ ق . م تقريبا) ابتكر لتاريخ الأحداث طريقة حساب الزمن ، على أساس دورة الألعاب الأولمبية التي تجرى كل أربع سنوات . ثم تقدم تأريخ الأحداث على يد أمين مكتبة الاسكندرية العلامة ايراتوستينز Eratosthens (٢٧٦ - ١٩٤ ق.م تقريبا) الذي كان أول من ضبط أوقات الفترات الهامة في التاريخ الإغريقي ، مستعيناً بالتقديرات الفلكية ، فضلاً عن المراجع التاريخية التقليدية . وانتشر عمله وعمم على يد أبولودورس Appolodorus اللاتيني (١٢٠ ق . م تقريبا) وذلك في الدليل الذي وضعه لتأريخ الأحداث عند الإغريق . وقد أتم هذا العمل حتى وصل به إلى سنة ٦١ ق . م أحد علماء جزيرة رودس ، وهو كاستور Castor . ومن هذه الحصيلة التي حققها الإغريق في التأريخ ، أقاد يولويس الافريقى ، وايزيوس ، وجيموم في حساباتهم لتاريخ العالم في أوائل العصر المسيحي .

لم تسهم روما سوى بالقليل من العناصر الجديدة المبتكرة في تقدم علم كتابة التاريخ . ذلك أن روما سارت في هذه التاحية كما هو الحال في سائر مظاهر حياتها الحضارية على منوال الإغريق . وإذا كان هناك مؤرخون رومان مشهورون ، فإن أحداً منهم لا يرقى إلى مستوى ثوكيديدس أو بوليبيوس في التزامه أساليب النقد . ومع هذا تستطيع أن تقول : إن ليفي وتاكيوس ، هما المؤرخان الرومانيان الوحيدان اللذان بلغا في الجانب الأسلوبى ما بلغته المؤرخون الإغريق من رقى وتقدم .

ويتضح اعتماد الرومان المباشر على الإغريق في كتاباتهم للتاريخ ، من أنهم حتى القرن الثالث ق . م دأبوا على تدوين معظم كتاباتهم التاريخية باللغة الإغريقية . ومعظم هذه الأعمال التاريخية المباشرة التي كتبها الرومان بالإغريقية كانت عبارة عن حوليات ، أولها وأشهرها تلك التي كتبها فابيوس بيكتور - Fabius pictor (ولد ٢٥٤ ق . م) . أما الإنتاج الذي ردد لأول مرة الأسطورة القائلة بالأصل الطرواخي لروما ، فهو حولية الشاعر انيوس Ennius (ت ١٦٩ ق . م) الذي اشتهر باقتباسه عن الأدب الإغريقى . على أن أقدم المؤلفات التاريخية الرومانية التي كتبت باللاتينية هو كتاب «الأصول» Origins الذى ألفه كاتو (عاش فيما بين ٢٣٤ - ١٤٩ ق . م) . وقد روى فيه تاريخ روما ، في أسلوب تمشى مع روحه الوطنية الجياشة ، وترعاته الريبية الأرستقراطية . ومن أشهر المؤرخين الرومان القدماء ، فارو Farro ، وكان كاتباً واسع الأفق ، لا يحل ولا يكمل . وأهم مؤلفاته كتابه عن الآثار الرومانية سنة ٤٧ ق . م .

أما أول المؤرخين المعالقة فهو بوليبيوس قيصر الذى يعتبر من أعظم رجال عصره ، وأبرز قادة الرومان من حيث المقدرة (١٠٠ - ٤٤ ق . م) . وكانت في كتابته دقة بوجه عام ، وبوضوحاً وقويماً على الدوام ، انصف أسلوبه بالصراحة والقوة . وقد كتب كتالين يدافع فيها عن حياته العامة هما : «تعليقات على الحروب الغالية» و «الحروب الأهلية» وهما أحسن ما كتب من مذكرات تاريخية في العالم القديم ، ويقفان على قدم المساواة مع ما كتب من مذكرات تاريخية في أى عصر . والحق إن كتابات قيصر التاريخية «تمثل أروع عرض لما كتب في مجال

التاريخ ، إذ صور عبقريته كأحسن ما يكون للتصوير ، وناقش قضاياها بدقة فائقة ، بفضل تحليه بصفات ضبط النفس ، والتواضع الشخصي للمحوظ ، ويكاد كتابه «تعليقات على الحروب الغالية» لا يقل أهمية من حيث ما حواه من معلومات عن بلاد الفال قبل عهد الرومان . عن كتاب تاسيتوس المعروف بأسم «جرماتيا» . من حيث ما تضمنه عن بلاد الجرمان قبل عصر الرومان .

وهناك مؤرخ روماني أكثر منهجية هو سالوست *Salust* ، واسمه بالكامل جايوس سالوستيوس كرسبوس (٨٦ - ٣٤ ق . م) ويعتبر التلميذ الروماني لثوكيديدس . ولم يعثر على مؤلفه الرئيسي عن تاريخ روما من ٧٨ - ٦٧ ق . م . ولكن يمكن للباحث من كتيباته عن مؤامرة كاتيلين ، وعن الحرب بين روما ونوميديا - المعروفة بحرب جوجورثا - أن يقدر أسلوبه القوي الراقى ، وأن يلمس قدرته على تحليل الشخصيات والعوامل السياسية . لقد امتدح المعلقون على مؤلفاته بنوع خاص جهوده الواضحة في التزام عدم التحيز ، وسط الظروف السياسية التي أحس بها إحساساً عميقاً ، كما أشادوا بقدرته الفائقة على تصوير الشخصيات التاريخية وتحليلها . بين أنه لم يستطع إخفاء تشاؤمه إزاء مستقبل الدولة الرومانية ، في الفترة المضطربة المتقلبة التي صاحبت سقوط الجمهورية . ويلاحظ أن سالوست لم يفهم تماماً أسس الاتجاهات التاريخية للسياسة الرومانية في عصره ، ولم يعن بضبط تواريخه ولا بمعلوماته الجغرافية . وكان يستأجر الكتبة لإعداد الجزء الأكبر من أبحاثه التاريخية .

أما المؤلف الرائع في تاريخ روما القومي فكان من وضع ليني (تيتوس ليفيوس) (٥٩ ق . م - ١٧) وهو واحد من أعظم الرواة في كافة العصور ، وجاء مؤلفه ملحمة نثرية كبيرة ، تصور نمو الدولة الرومانية ذات الصبغة العالية ، وبرغم تفهمه الكبير لأهمية الدقة في السرد التاريخي فإنه فضل كمال الأسلوب على مراعاة الدقة في عبارته . ولم يتخذ ثوكيديدس نموذجاً يحتذى به ، وإنما اختار أن يتخذ رجال المدرسة البلاغية الاغريقية ليحتذى أسلوبهم . وإن ما تميز به مؤلف ليني من أسلوب أدبي رفيع ، وحرص على إشباع نزعة الغرور الوطني عند الرومان ، الذين اتصفوا بمحاصهم على شد انتباه المعجبين من معاصريهم ، ثم ما حظي به هذا المؤلف من إعجاب رجال الحركة الانسانية فيما بعد ، كل هذه الأمور تضافرت معا لتعطي كتاب ليني مكانة خاصة في ميدان التأليف التاريخي ، أسمى بكثير من قيمته التاريخية البحتة .

لقد كتب ليني بصراحة ليبرز عظمة روما ، ويمجد كبرياء أهلها وغرورهم ، وليحث في الشباب الروماني روح الحماسة وحب الوطن . وكانت عاطفته الدينية أقل قوة من عاطفته الوطنية فاحتلت القوى الخلاقة للطبيعة دوراً كبيراً في كتابته التاريخي . وقليل من مؤرخي العصور الوسطى من فاقه في إرجاع الأحداث التاريخي إلى تدخل الآلهة . والواقع إن ليني لم يحسن استغلال مصادره ، ولم تكن لديه القدرة الكافية أو الرغبة في استبعاد العناصر الخرافية

والتقليدية من كتابته . لقد اعتقد أن كل ما وجد من مادة تاريخية سابقة صالح له . وجاء تناوله لنشأة روما بصفة خاصة ، بحثاً لا يعتمد عليه ، حيث أنه جمع في صعيد واحد مجموعة من الأساطير والخرافات والتنبؤات . ولسوء الحظ ، فإن الجزء الأول من تاريخه هو الذىبقى حياً للأجيال اللاحقة . والواقع أنه لا يوجد خير من المؤلفين اللذين ألقها ليني وبوليوس عن تاريخ روما لتوضيح الفارق بين رواة القصص الممثلين وطنية ، والمؤرخين اللذين يتبعون في كتاباتهم الأساليب العلمية السليمة .

بين أنه ينبغي أن نذكر أن ليني لم يكن شخصية بلهاء ساذجة تؤمن بكل شئ . لقد كان يميز بين الغث والسمين ، وأدرك أن مصادره لكتابه تاريخ روما في عصرها الأول : تكاد تكون عديمة القيمة ، ولكنه استخدمها متجاهلاً هذه الحقيقة ، وأدرك أنه إذا كانت المادة التى كتبها ليست تاريخاً سليماً بالمعنى العلمى فحسب أنها قطعة أدبية رائعة . ومن هنا نبغ اهتمامه بالكتابة .

ومن الأمثلة الأقل أهمية للمؤلفات التاريخية التى وصفها المؤرخون الرومان من رجال المدرسة البلاغية تاريخ روما فى أوائل عصر الامبراطورية ، ألفه فيليبوس باتركولوس فى عهد الامبراطور طيبروس .

أما آخر المؤرخين الرومان العظام فهو بوليوس كورنيولوس تاكيتوس Publius Cornelius Tacitus (٥٥ - ١٢٠ م تقريباً) الذى كان رجل عمل ، شأنه شأن ثوكيديدس وبوليوس . ذلك أنه كان أحد المعجبين بالجمهورية الرومانية ذات الطابع الأرستقراطى . وكانت نظرتة للسياسة الرومانية والمجتمع الرومانى أكثر تشاؤماً من رواية سالوست عن انهيار الجمهورية . لقد كتب تاكيتوس فى حماسة بالغة ، وكانت له قدرة نادرة على تصوير الشخصيات ، كما حرص بصفة عامة على تحرى الحقيقة فيما كتبه ولكن حرصه على استخلاص المغزى الأخلاقى لرواياته ، قلل من قيمة مؤلفه من الناحية التاريخية ، وإن كان قد زاد من شهرته الأدبية . ويعتبر تاكيتوس وجوفينال مسئولين عن تلك الأسطورة المضللة ، التى تلور حول « الأسباب الخلقية » لسقوط الإمبراطورية الرومانية ، وهى التى تلقفها وزاد عليها فيما بعد شارل كنجسلى وآخرون غيره ، مما أدى إلى نتائج مؤسفة .

ولتاكيتوس مؤلفان رئيسان هما : « الحوليات » التى تناولت الفترة من موت أوغسطس حتى سنة ٦٩ ق . م وكتابه « التواريخ » الذى بدأ بالأزمة السياسية التى حدثت فى سنة ٦٩ وتناول عهد الأباطرة الفلافيين . ويحتل تاكيتوس بوصفه مؤرخاً اتبع منهجاً علمياً مكاناً وسطاً بين ليني وبوليوس ، إذ كان أكثر توفيقاً وأقل استعداداً لأخذ الأمور على علاتها من ليني . ولكن تعوزه قدرة بوليوس على عدم التحيز . ذلك أن تعصبه ضد الامبراطورية ، وميله للكتابة المثيرة - كل ذلك جعل كتاباته لا يمكن الاعتماد عليها بالقدر الذى يمكن به

الاعتماد على كتابات بوليبيوس . هذا إلى أنه كتب من وجهة نظر طبقه أعضاء السناتو ، والترم روح الإعجاب بالنظم الجمهورية القديمة ، حتى مع اعترافه بأن الجمهورية لقيت نهايتها نتيجة لما كان يمكن فيها من ضعف .

ومع هذا يعتبر تاكيتوس في تحليله للمؤامرات السياسية ، ووضعه للشخصيات المرموقة ، على رأس قائمة المؤرخين القدامى . إن الصورة التي رسمها لشخصية طبريوس لا مثيل لها في المؤلفات التاريخيه القديمة . وإذا كان بوليبيوس قد اعتقد أن التاريخ أداة في خدمة الدولة ، فإن تاكيتوس رأى أن التاريخ ينبغي أن يدعم الأخلاق العامة والخاصة . كذلك اعتقد تاكيتوس أن أسمى وظائف المؤرخ هي ألا يترك عملاً ذا قيمة دون أن يبرزه ، وأن يجعل التائب الذي يمكن أن يلحق بالإنسان من الخلف والاجيال التالية ، مصدر رعب لكل من يقول قولاً سيئاً ، أو يفعل شراً . لقد أدخل تاكيتوس نظرية أن التاريخ يعيد نفسه في مجال الأخلاقيات . فكتب في حولياته (الجزء الثالث ، ٥٥) يقول : « لعل هناك في كل أمر من الأمور ما يشبه الدائرة . وقد تكون هناك ثورات وتغيرات تطرأ على الأخلاق ، كما هو الحال مع تغيرات الفصول . وليس معنى ذلك أن كل ما كان في الماضي أفضل وأحسن ، فإن عصرنا أيضاً أنجب نماذج رائعة للعظمة ، وثقافة وحضارة تحذوها الأجيال القادمة » . وكانت تنقص مؤلفات تاكيتوس خطة عريضة ، كتلك التي اهتدى بها بوليبيوس ، إذ أفسدت كتابته كثرة التفاصيل الثانوية المتداخلة . وهكذا احتجبت صورة تطور الامبراطورية الرومانية في كتابته خلف إسرافه في العناية بسير الأفراد ، فضلاً عن التيارات المعقدة من الدسائس والاعمال الخزبية .

وبالإضافة إلى اعمال تاكيتوس التاريخيه البحتة ، كان كتابه « جرمانيا » من أقدم الدراسات في ميدان علم الاجتماع الوصفي . وقد صار لهذا الكتاب أهمية كبيرة فيما بعد ، نظراً لكونه المصدر الشامل الوحيد لمعلوماتنا عن نظم الجرمان في عصر تاكيتوس ، حتى ظل الوثيقة التاريخيه التي تار حولها جدالاً لا يفوقه سوى الجدال الذي قام حول توراة موسى والأناجيل المتقاربة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) . ولقد كشف النقاب عن هذا الكتاب في عصر الحركة الإنسانية ، وعرفه جمهور المتعلمين عن طريق كل من : بوجيو ، وانوك الاسكولى ، وكونراد كلتيس . وظل هذا الكتاب محور الصراع التاريخي بين المؤرخين الألمان والمؤرخين الفرنسيين في العصور الحديثة ، بالضبط مثلما كان الأثراس واللورين مثار صراع سياسى وحربي بين الدولتين اللتين يتسمي إلى كل منهما الفريقان السابقان . وفوق هذا أو ذاك ، فإن اتجاه تاكيتوس إلى إعلاء شأن الجرمان الأوائل من الناحية المثالية على حساب الرومان ، أدى إلى ذلك التفسير الخاطئ الخطير للغزوات الجرمانية ، والذي بلغ ذروته في النهاية في تخيلات شارلز كنسجلى التي أودعها كتابه « الروماني والجرماني » .

أما آخر مؤرخ روماني كان له نصيب من الشهرة ، فهو سوتنيوس ترانكيلوس Suetonius Tranquillus (٧٥ - ١٦٠ م) وهو الذي ظل مغموراً حتى عمل كورنمان على كشف الستار عنه و اظهار أهميته . وكان سوتنيوس ترانكو يملوس السكرتير الواسع الاطلاع لقائد الحرس الإمبراطوري للإمبراطور هادريان . ومع أن كتابه المطول المليء بالمعلومات عن « حياة القيصرية » يعول عليه في وصف الحياة العامة ، إلا أنه يعتبر مثلاً من أوائل الأمثلة في كتابة التاريخ عن محاولة البحث عن الفضائل ونشرها . والحق أن كتابة زاخر بوصف المواقف التاريخية والشخصيات ، حتى إن التراجم والسير التي ذكرها تغطي الفترة من عهد أوغسطس حتى عهد الإباطرة الفلافيين . ورغم ولع سوتنيوس بالتفاصيل المثيرة ، إلا أنه نحاشي الأساليب البلاغية السائدة في عصره ، وترك الحقائق التي سردها تروى قصتها بنفسها . وإن أهم ما ميز سوتنيوس في مجال تدوين التاريخ ، أنه أصبح نموذجاً يحتذى من ناحية الأسلوب وتنظيم التراجم التاريخية خلال عصر الحركة الإنسانية .

وأخيراً ، فإنه لا يمكن ختام هذا العرض الموجز للكتابة التاريخية عند الرومان ، دون الإشارة إلى كاتب ولو أنه لم يكن مؤرخاً محترفاً لكنه كان أكثر المؤرخين القدامى إلاماً بفكرة التاريخ . ونقصد به شاعر التطور العظيم لوكريتيوس (٩٥ - ٥٥ ق . م) . ويعتبر كتابه عن طبيعة الأشياء أروع ما صدر عن تطور الكون حتى نشر هيربرت سبنسر كتابه « المبادئ الأولى » First principles في سنة ١٨٦٠ . وقد شرح لوكريتيوس في كتابه ، تطور الحضارة المادية ، والنظم ، والسلوك ، والعادات ، حتى قال عنه الاستاذ شوتويل : « إنه ربما كان أروع عمل ظهر في أدب الأقدمين » .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان لم يكونوا مبتكرين ، وكانوا دائماً في كثير أو قليل تحت تأثير المدرسة الاغريقية البلاغية ، إلا أن أهم ما امتازت به كتاباتهم أنها كانت أكثر صدقاً وأقرب إلى علم كتابة التاريخ مما جاء بعدها من كتابات رجعت بالتاريخ إلى الوراء ، وجعلته يخضع لتأثير الأساطير والتعصب الديني ، وهي الظاهرة التي كانت قد أخذت تختفي منذ أيام هيكانيوس الملطي ، أي قبل ثمانية قرون .

المراجع

- 1- J.T. Shotwell, An Introduction to the History of History chaps XII-XXIII.
- 2- Thompson: History of Historical writing Vol. 1. chaps II-VII
- 3- Mortz Rutter: Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft — Munich 1919.
- 4- G. Wachsmuth, Einleitung in das Studium der alten Geschichte (Leipzig) 1895.
- 5- Über Ziel und Methoden der griechischen Geschichtsschreibung, Leipzig 1897.
- 6- J.B. Bury The Ancient Greek Historians Pover 1957.
- 7- Hermann Peter Die Geschichtliche Litteratur Über die römische Kaiserzeit bis Theodosius I. Leipzig 1897.
- 8- Wahrheit und Kunst Leipzig 1911.
- 9- T.R. Glover: Herodotus, University of California Press 1939.
- 10- F.M. Cornford: Thucydides Mythistoricus London 1907.
- 11- G.B. Grundy: Thucydides and the History of His Age London 1911.
- 12- G.F. Abbott: Thucydides: A Study in Historical Reality. London 1925.
- 13- C.N. Cochrane: Thucydides and the Science of History London.
- 14- Otto Cuntz: Polybius und sein Werk, Leipzig 1902.
- 15- R.A. Laqueur: Polybius Leipzig 1913.
- 16- T.S. Brown: Timaeus of Tauromenium, University of California Press 1958.
- 17- A.J. Toynbee: Greek Historical Thought Macmillan 1924.
- 18- Wilhelm Soltau Livius Geschichtswerk, Leipzig 1897.
 Römische Geschichtsschreibung, Leipzig 1909.
- 20- Gaston Boissier Tacitus London 1906.
- 21- Wolf Steidle: Sallusts Historische Monographien Wiesbaden 1958.
- 22- M.L.W. Laistner: The Greater Roman Historians University of California Press 1947.
- 23- Willy Strehl and Wilhelm Soltau: Grundriss der alten Geschichte und Quellenkunde, Breslau, 1913 2 vols.
- 24- Arthur Rosenberg Einleitung und Quellenkunde zur römischen Geschichte. Berlin 1921.
- 25- W.S. Teuffel and L. Schwake: History of Roman Literature 2 vols. London 1900.

الكتابة التاريخية في العصر المسيحي الأول

الخلفية الثقافية للكتابة التاريخية في العصر المسيحي

صحب انتصار المسيحية على الوثنية تغيرات شاملة في مفاهيم الكتابة التاريخية ، والآراء التي اهتمت بها . ففي العصر المسيحي استبعدت - من الوجهة الرسمية على الأقل - الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان . ولم تلبث أن غدت كتابات الوثنيين التاريخية تحتل مرتبة أدنى بكثير من مرتبة كتابات اليهود المقدسة الواردة في العهد القديم (التوراة) ، رغم أن معظم ما أحتوته (التوراة) كان في مستواه التاريخي أقل بكثير من مستوى مؤلفات كبار المؤرخين الوثنيين . كذلك احتقر المسيحيون منطق العمل الذي احتل مكانته الهامة عند الإغريق ، ورفعوا من شأن الإيمان ، وجعلوا له مكان الصدارة . وهكذا غدت سهولة التصديق وخاصة بالنسبة لقوى الطبيعة الخارقة - فضيلة أساسية ، عقلية وروحية معا . ولقد كان شوتوبل بارعا عندما أجمل هذه الحقائق الجوهرية عن تلك الثورة الثقافية الكبرى من حيث تأثيرها على الكتابة التاريخية فقال : « ليس هناك في تاريخ الفكر ثورة أهم من هذه ، من حيث إنتاج المفكرين والمؤلفين والفلاسفة والفنانين والشعراء ورجال السياسة . ذلك أن الاهتمام تركز حول ما يسمى وحي الأنبياء والزهد في الحياة الدنيا ، وحلت كتب اليهود المقدسة محل مؤلفات الأقدمين وهكذا بدأت ثورة في تاريخ التاريخ ، إذ تعرضت أشعار هومر . وكتابات ثوكيديدس وبوليوس وليفي - وهم فخر العصر القديم - للإهمال والإغراض . وربط المسيحيون النظرة العلمية التي توصل إليها أعظم المفكرين الذين أنجبتهم العالم بالأساطير والخرافات التي نشأت قرب مراكز البرابرة البدائيين ، ومعنى هذا أن كل شيء صار في نظرهم وثنا ، أي متصفا بالخداع والتضليل ولا يمكن الاعتماد عليه إلا إذا كان متمشيا مع ضوء العقيدة الجديدة ، أو إذا استطاع أن يفرض نفسه نتيجة لمتطلبات الحياة ، وبذلك يشد طريقه إلى علم التجربة العادية ... وهكذا كان انتصار هذه المقاييس الجديدة كارثة على

علم كتابة التاريخ ، حيث لم تعترف الديانة السماوية الجديدة سوى بمنهج واحد للتاريخ وسط التطور الواسع المتنوع الذي حققه العالم القديم . وبذلك وضعت عقبة كأداء في مجال البحث العلمي ، تطلب التغلب عليها تسعة عشر قرناً من الزمان .

ومع ذلك ورغم تعصب آباء الكنيسة الأول رسمياً ووجدانياً ضد الثقافة الوثنية فإنهم لم يستطيعوا التخلص كلية من التأثيرات الغير مباشرة واللاشعورية التي فرضتها الوثنية عليهم ، والتي عاشت في البيئة الثقافية المحيطة بهم . وهكذا كان سخرية القدر أن هذه الثقافة الوثنية التي عمل آباء الكنيسة على ازدهارها ، أثرت فعلاً على فلسفتهم التاريخية ، وفلسفتهم عن الكون ؛ بقدر يكاد يقارب تأثير الثقافة اليهودية عليهم . ذلك آباء الكنيسة استخدموا اللغات القديمة وسحرتهم بلاغة القدماء . وكان الكثيرون منهم قد تلقوا العلم بوصفهم وثنيين قبل اعتناقهم الديانة المسيحية . وكانت آراؤهم عن التلفيقات اللاهوتية مشوبة بكثير من العناصر الوثنية ، بل كانت مثلهم السياسة وأعمالهم مقتبسة بعناية عن مثيلاتها في الامبراطورية الرومانية ، مما جعل الاستاذ جورج لكتولن يريصف أسس التنظيم الكنسي المسيحي بأنه أشبه ما يكون «بظهور روما الجديدة» .

ويبدو أن أكبر أثر ساهمت به الوثنية في الاتجاهات المسيحية التاريخية بعد أن تأثر المسيحيون بالأسلوب الكلاسيكي والبلاغة والقواعد الكلاسيكية - جاء هذا الأثر من الإفلاطونية الجديدة التي اضفت تبريراً فلسفياً رفيعاً على تمجيد المسيحيين الساذج للإيمان . فإن نظريتها القائلة بتفوق العواطف والإيمان على العقل والفكر وندائها بضرورة تصديق كل ما يتصل بالمسائل الدينية تصديقاً لآحد له - وهذا كله وآم تماماً آباء الكنيسة وانعكاساتهم الفكرية ، وأصبح جزءاً لا يتجزأ من الاتجاه الفكري لدى مؤرخي العصر المسيحي الأول والعصر الوسيط ذلك أن القديس أوغسطين وقف على اتجاهات الأفلاطونية الجديدة أيام شبابه ، ثم ظهرت هذه الاتجاهات جلياً في فلسفته فيما بعد أما الحافظ الذي دفع هذه الاتجاهات إلى الأمام في العصور الوسطى فقد جاء فيما يبدو نتيجة أمرين : أحدهما ؛ رواج «كتاب الملائكة» Celestial Hierarchy الذي يفس الأفلاطونية الجديدة على أسس مسيحية ، وقد كتبه راهب سوري في القرن الخامس الميلادي يدعى ديونيسيوس الغير حقيقي^(١) .

وينحصر الأمر الثاني في الجهود الفلسفية والأدبية التي قام بها جون سكوتس إريجينا (John Scotus Erigena) وإلى جانب الاتجاه إلى الرمزية ؛ فقد كان من شأن الأفلاطونية الجديدة أن جعلت من المستحيل تماماً تطور أي اتجاه ناقد يتناول بالشك مصادر المعرفة التاريخية .

(١) لصفت به هذه الصفة تيمناً له عن ديونيسيوس الأريوباغي وكان نظره في أول الأمر أنها شخص واحد .

النظرة الفلسفية المسيحية للتاريخ

وعلى حين نبذ المسيحيون الأوائل الكتابات التاريخية القديمة ، بسبب موقفهم الرسمي من الثقافة الوثنية ، إذا بهم يركزون اهتمامهم في كتبهم التاريخية على تأكيد فكرتين هما : المذهب العملي والغائية . ذلك أن « عملة التاريخ » كانت لها دلالة ومعنى عند المؤرخين المسيحيين الأول ؛ بوصفها في نظرهم جزءاً من عملية كونية كبرى أركانها الأساسية : الله ، والإنسان وفي ذلك يقول الاستاذ جيمس هارفى روبنسون : « ربما كان المسيحيون أول من ظن في وجود عظمة حقيقية في التاريخ ، حيث صار (التاريخ) في نظرهم ملحمة مقدسة تمتد إلى الماضي السحيق منذ خلق الإنسان ، وتمضى قدماً إلى أن يفصل الخير عن الشر انفصالاً نهائياً في لحظة حاسمة هامة » .

وهذه النظرة الفلسفية المسيحية للتاريخ التي وفق جورج سانتيانا حين نعتها بأنها « الملحمة المسيحية » قام الآباء المسيحيون بتطويرها شيئاً فشيئاً حتى شرحها أوغسطين شرحاً وافياً وحاسماً في كتابه « مدينة الله » . ويلاحظ أن هذه الفلسفة التي استقت أصولها من عقائد فارسية وهيلينية ؛ قدر ما استقت من مصادر عبرية تعتبر العملية التاريخية تعبيراً عملياً عن الصراع الكوني بين قوى الخير والشر . وقد كان هذا الصراع بالنسبة لمدلوله للإنسان في الأرض ، وبالنسبة للتاريخ صراعاً بين « مدينة الله » أي المجموعة المصطفاة من المؤمنين برب اليهود والمسيحيين ، وبين « مدينة الشيطان » وهو الاسم العام الذي أطلق على اتباع الوثنية المعاصرين والسابقين ، وعلى الضالين من المسيحيين . أما نتيجة هذا الصراع فهي في انتصار الخير وهلاك الشر وفنائه .

وفي ضوء هذه الخلفية الفلسفية ؛ ليس من الصعب أن ندرك أن الكتابة التاريخية المسيحية كانت ذات طابع عملي لم يكن يحلم بها بوليبيوس أو ديونيسيوس . لقد كانت « فلسفة تلقن بالقعدة » وفي ظل رادع حقيقي ومن ثم ؛ كان لكل حادثٍ فيها كان تافهاً أهمية الحيوية وهذه « الملحمة » التي شرحت شرحاً فلسفياً في كتابات أوغسطين ، والتي وضحت من تاريخ أورزידس ؛ قد صيغت في أسلوب أدبي ممتع في حولية سوليبيكوس سڤروس Sulpicius Severus (٣٦٣ - ٤٢٣) .

تصور المسيحيين الأول للمنهج التاريخي

ابتعد المؤرخون المسيحيون بعيداً عن القواعد التي وصفها ثوكيديدس وبوليبيوس للمنهج التاريخي فبالإضافة إلى تعصبهم الشديد ضد الوثنية ، وهو أمر أدى إلى اعراضهم عن الموضوعية كان لزاماً عليهم أن يتكروا أسلوباً خاصاً لمعالجة الوثائق ذات الطابع الديني . حيث رأوا أن تناول المسائل الخاصة بالخلق كما وردت في التوراة بنفس طريقة النقد التي اتخذها هيكاتيوس نحو الأساطير الإغريقية يعتبر إلحاداً وإثماً لا يغتفر . هكذا فإنه لو فرض أن الكتب الدينية حوت ما لا يصدق العقل أو يقبله . فلا بد لتبرير ذلك من إيجاد معنى خفي : أو تفسير باطني .

واستجابة لهذه الضرورة حلت المجازات والمعاني الرمزية محل التحليل الناقد والقول الصريح كأسس للمنهج التاريخي . وفي ذلك يقول الاستاذ بير Burr : « حتى الكتب المقدسة لم تحظ بالتقدير بسبب ما احتوته من حقائق تاريخية سطحية فحسب ، وإنما للمعاني الأكثر عمقاً ، الرمزية والخلقية والصوفية التي تكمن وراءها » . وكان أن طور فيلو اليهودي - أحد يهود الاسكندرية - المنهج الرمزي المجازي في تفسير التوراة . كذلك ظهر المنهج في الكتابات المسيحية المبكرة : في كتاب « سفر الرؤيا » وفي « رسالة برنابا » ، و « راعي هرماس » . وكان الأب . أوريجن السكندري (١٨٦ - ٢٥٥) هو صاحب الفضل الأول في بث هذا الاتجاه بين الآباء المسيحيين . ويقول فريدك كورنولس كونبير أنه طبقاً لما ذكره أوريجن : « نصادف شرائع أو أحداثاً عديدة النفع وتتصف بالاستحالة من هذا النوع ، فإن علينا أن نتجنب تفسيرها الحرفي . وأن نفحص المفزى الخلق التي هي جديرة بأن تحتويه وكذا المعاني السامية الغامضة التي تتضمنها . وما يمكن أن يكمن وراء رمزياتها من حقائق أكثر عمقا . ولقد دبرت الحكمة الألهية عن قصد الشباك الصغيرة والعقبات : لتجعلنا نتخلى عن تعلقنا بالفهم التاريخي للمتن ، وذلك بمحشر أشياء مستحيلة وغير مناسبة بين طياته ، كي تدفعنا عبارات تبدو لأول وهلة أنها غير صحيحة أو ناقصة إلى البحث عن الحقيقة الكلية . فتلمس في الأسفار المقدسة - التي تؤمن أن الله أوحى بها - المعنى الجدير به » (١) .

ولقد لقي الاتجاه الرمزي الذي سماه فوق النقد قبولاً عاماً تقريباً لدى الآباء المسيحيين الأول ، وتجلي هذا الاتجاه في الكتب الخالدة الآتية : « كتاب الأخلاق » أو « شرح سفر أيوب » لمؤلفه جريجوري العظيم (٥٤٠ - ٦٠٤) . أو كتاب « الشرح المجازي للكتاب

(1) F.C. Conybeare, A history of New Testament criticism (G.P. Puntam sons 1910) pp. 14-15.

المقدس ، لصاحبه ايزدور الاشيلي (ت ٦٣٦ م) . وقد عالج فيه في ترتيب زمني الدلالة
الرمزية لكل الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .
وأصبحت هذه الكتب هي الكتب الأساسية المتداولة في العصور الوسطى عن الرمزية .

ولم يقتصر الأمر على وجود معيارين أو مستويين مختلفين كل الاختلاف لاستخدام
الوثائق التاريخية وتفسيرها في أوائل العصر المسيحي ، بل انقسم التاريخ إلى ميدانين حدد كل
منها تحديداً دقيقاً . فكان هناك التاريخ المقدس والتاريخ غير المقدس ، فاختص الأول
بالجانب الديني ، واختص الثاني بالجانب الدنيوي^(١) . وغنى عن الذكر أن الجانب الأول كان
له الأهمية الكبرى بل الخطيرة في ذلك العصر ، حتى إن اصطناع المعجزات والحديث عنها بات
أمراً أهم من الحديث عن قيام أسرة من الأسر الحاكمة . وحرص الآباء المسيحيون على أن
يكرسوا جهودهم وأقصى طاقتهم لتفسير الحقائق المشكوك فيها والمتناقضة في الكتاب المقدس
تفسيراً مجزئاً رمزياً . لكنه كان من المستحيل أن نتصور أحدهم يقوم مثلاً بمثل ما قام به أرسطو
من جمع وتحليل محتويات ١٥٨ دستوراً .

على أنه من الإنصاف هنا أن نشير إلى أن تدهور المدرسة التاريخية تدهوراً ملحوظاً في
ذلك الدور من العصر المسيحي المبكر ، لم يكن كله راجعاً إلى الاتجاه المسيحي نحو حقائق
التاريخ ومشاكله . فعلى الرغم من الأسباب التي سبق سردها والتي جعلت الكتابة التاريخية
المسيحية أقل صحة وأثراً من قرينتها الوثنية ، إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن الفترة الأخيرة في
عهد الامبراطورية الرومانية شهدت اضطهاداً للحضارة بوجه عام ، أو أن الانحراف عن المثل
والانجازات التي بلغت الثقافة الكلاسيكية في أوجها كان له أثره على الكتاب الوثنيين والمسيحيين
على سواء^(٢) .

المفهوم التاريخي عند المسيحيين تاريخ الأحداث في المسيحية

من الوسائل البالغة الأثر في إزالة الشك من نفوس الناس ، وكسب أنصار الحركة من
الحركات ، القدرة على الاستشهاد بماض مجيد . وكان أن أحس المسيحيون بذلك إحساساً
عميقاً فقبلوا كتب اليهود المقدسة بوصفها سجلاً رسمياً لأسلافهم ، ومن ثم نقد واجهتهم
ضرورة ملحة وعاجلة ، هي أن يضيفوا على التاريخ العبري القديم منزلة رفيعة ، وأصالة خرمته

(1) C.F.H.O. Taylor. The Classical Heritage of the Middle Ages (Macmillan Co. 1911).

(2) J. H. Robinson «Sacred and profane History in Annual Report of the American Historical Assoc. 1899-1, 527-35.

منها مؤلفات المؤرخين الوثنيين ذلك أن هؤلاء الآخرين لم يعطوا تاريخ اليهود سوى ذلك القدر الضئيل من الكم والعناية الذى يتناسب وتاريخهم (اليهود) السياسى الهزيل . ولذا يلاحظ على المؤلفين التاريخيين اللذين وصفها ديوردر الصقلى ويومى تروجس عن تاريخ العالم - وهما دون شك يقومان بكثير أى تاريخ للعالم جمعه المؤرخون الأوائل من الآباء المسيحيين - لم يحققا بحال من الأحوال متطلبات الدعاية المسيحية . وكذلك كان شأن المؤلف الذى وضعه يوسفوس عن التاريخ العبرى العام ، لأنه بالغ كثيراً فى الدور الذى لعبه اليهود ، على حين لم يعط المسيحيين سوى القليل من الاهتمام . ومن ثم انجذبت الكتاب المسيحيون إلى جمع عناصر الماضى التى أعطت اليهود حقهم فيما ينسب إليهم من أجداد ، وتوضح فى الوقت نفسه لماذا لم يعد اليهود جديرين بترائهم القديم ، بعد أن ضيعوا ذلك التراث فانتقل مجدهم السالف إلى المسيحيين .

وكان أول عمل للمؤرخين المسيحيين ، هو وضع خلفية تاريخية رائعة للعقيدة المسيحية ، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعراقته - وأعنى بالتاريخ المقدس هنا التاريخ اليهودى والمسيحى معاً وبذلك غدا التطور التاريخى لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيسى فى تاريخ الماضى بأسره ، بينما وصفت الأحداث التاريخية التى احتوتها سجلات الأمم الوثنية فى صورة عرضية ثانوية ، على سبيل المقارنة أمام خلفية التاريخ اليهودى والمسيحى . وقد عبر عن ذلك الأستاذ جورج لنكولن بير فى عبارته الواضحة الرائعة : « إن ذلك التاريخ الطويل الذى أصبح الآن مقدمة لتاريخهم هو تلك القصة الدينية لشعب الله المختار ، بما فيها من معان تشير إلى سلم يعقوب الذى يصل بين الأرض والسماء ^(١) . ولقد كان «يهوه» محوراً وهو الآن إله الأرض كلها وينبغى أن يدور التاريخ كله حول هذه القصة ، فضلاً عن الكتب المقدسة التى يمكن عن طريق قديميتها البالغة الوقوف على ترتيب الله القادر على كل شئ وكان جيروم هو الذى كشف عن ذلك فى تفسيرات «دانيال» وأحلامه القائلة بخروج أربعة حيوانات عظيمة من البحر لكل منها رأس من ذهب وجسم من نحاس . ومن أيامه حتى عهدنا اضطرت الممالك والإمبراطوريات التى تعاقبت على الأرض أن تجد لها مكاناً داخل الإطار . وكان من الضرورى نذ كل ماحوته الحوليات غير المقدسة من كتابات تناقض الكتاب المقدس ، ثم تنسيق مابقى منها بعد ذلك مع كلمات هذا الكتاب . لقد اعتبرت حياة الإنسان على الأرض سقوطاً ولم يعد من الجائز للعقل البشرى أن يمجّد نفسه ، وبذا فإن فيثاجوراس وأفلاطون قد تعلما من موسى ، وتعلم سينكا من بولس ^(٢) .

وكان أقدم كاتب مسيحى حاول أن يوجد تاريخاً مناسباً لماضى البشرية ، ويتفق وحاجات العقيدة المسيحية الجديدة ومفهومها هو سكستوس يوليوس الإفريقى ، (١٨٠ - ٢٥٠

(١) سفر التكوين . ٢٨ (١٢)

(٢) G.L. Burr: «The Freedom of History in American Historical Review jan. 1917 pp. 255-60.

ق . م) إذ كتب مؤلفا اسمه « قياس الزمن » chronogrephia في كتب ؛ لخص فيها ماضي اليهود ، والوثنيين منذ بدء الخليقة حتى سنة ٢٢١ م . وقد أفاد سكتوس الإفريقي مما كتبه الكتاب المختلفون سواء كانوا يهوداً أو وثنيين عن الموضوع نفسه . فكان من بين من اعتمد عليهم : مانيتون ، وبيردسوس ، وابوللو دورس الآثيني ، ويوسيفوس ، وجستوس الطبراني . وقد وضع هذا الأخير تأريخاً يعوزه التهذيب للملك اليهود . وقد حدد سكتوس الإفريقي في التاريخ الذي وضعه بداية الخليقة بسنة ٥٤٩٩ قبل المسيح ، كما قرر أن العالم سيظل على حاله خمسمائة سنة بعد مولد المسيح ، يبدأ بعدها العصر الألفي (عصر حكم المسيح ألف سنة على الأرض) . وقد لخص سكتوس الإفريقي أحداث وتواريخ الأمم اليهودية والوثنية في صورة مقتضبه ، مع إعطاء أهمية خاصة لسجل اليهود التاريخي . ولم تكن الرمزية والخيال في كتاب أقل وضوحاً من عنايته بالجانب الرياضي في تقويم الأحداث .

وهناك مؤلف لمؤرخ آخر أوفى من مؤلف سكتوس الإفريقي وأكثر منه تكاملاً وانسجاماً ألا وهو التاريخ الذي وصفه إيوزيوس بامفيلوس Eusebuis pamphilus اسقف قيصرية (حوالي ٢٦٠ - ٣٤٠) لقد حفز إيوزيوس على إعداد حوليته هذه ؛ رغبته في أن يرسم الخلفية التاريخية الزمنية للمؤلف الذي أعترم وضعه عن «تاريخ الكنيسة» ، وكذلك ليتمكن من إثبات أسبقية موسى على حكماء اليونان وروما .

ولقد كتب إيوزيوس كتابه قبل عام ٣٠٣ م بقليل ، وأفاد كثيراً من جهود سكتوس الإفريقي السابقة ، وقسم كتابه الأول إلى قسمين أساسيين ؛ أولهما : قياس الزمن ، وتضمن ملخصاً لطرق حساب الزمن عند اليهود والوثنيين ، وكذا موجز للتاريخ العالمي قام على أساس مقتطفات عن المؤرخين المعروفين في كل قطر . فاعتمد في كتابته عن الكلدانيين على اسكند - بوليستور ايدنوس ، ويوسيفوس . واعتمد في سرده تاريخ اليهود على التوراه ، وعلى يوسيفوس ، وكلمنت السكندري . أما ما كتبه عن المصريين ؛ فقد أعتمد فيه على ديودور ، مانيتون ، بورفيري ، كما أعتمد على كاستور ، بورفيري ، وديودورس فيما كتبه عن الإغريق ، وعلى ديونسيوس من هاليكارناسوس وديودور ، كاستور فيما ذكره عن الرومان . وهكذا ؛ نلاحظ أن إيوزيوس غص النظر أو تجاهل كثيرين من أكتفا المؤرخين الوثنيين وأحرصهم على تحري الدقة في زكركم للحقائق .

أما القسم الثاني من تاريخ إيوزيوس ؛ ويعرف باسم قواعد حساب الزمن Chronological canons ؛ فهو أهم كثيراً من القسم الأول لأنه يمثل فصل إيوزيوس الفعلي على حساب الزمن وتاريخ الأحداث . بذلك أنه أورد تواريخ الأحداث في سلسلة في عامود في منتصف كل صحيفة ، مع إعطاء أحداث التاريخ العبري أولية خاصة . ثم نسق حوادث التاريخ الوثني والعبري والمسيحي ، إلى جانب تلك التواريخ ، وذلك في

أعمدة متوازية ، معطيا أحداث التاريخ العبرى والمسيحي مكان الصدارة . ووضع أحداث التاريخ المقدس إلى يسار عمود التاريخ ، وأحداث التاريخ الوثني إلى يمينه .

وتمتد عملية حساب الزمن أو التاريخ الإنجيلي بالقارئ إلى بدء الخليقة ، على حين أن التاريخ المقارن المسهب لم يبدأ حتى الوقت الذى يقال إن سيدنا ابراهيم ولد فيه (٢٠١٦ ق . م) ومنذئذ فصاعداً ؛ قسمت عملية تأريخ التاريخ إلى خمس فترات أو مراحل :

(١) ابراهيم إلى حصار طرواده .

(٢) من حصار طرواده إلى الدورة الاولى الأولى .

(٣) من الدورة الاولى الأولى إلى السنة الثانية من حكم دارا .

(٤) من السنة الثانية . فى حكم دارا إلى موت المسيح .

(٥) من موت المسيح إلى السنة العشرين من حكم الإمبراطور قسطنطين .

وكما سبق أن أشرنا ؛ فإن المادة قد نسقت فى أعمدة متقابلة تختلف عددها طبقاً للفترة التى تناولتها . وتبدأ هذه الأعمدة بأعمدة خاصة بالملوك الآشوريين والأنبياء العبرانيين وملوك سيكيون ببلاد اليونان ، ثم الفراعنة المصريين . وتعددت الأعمدة الى حد كبير من الفترة الثانية حتى الرابعة ، ثم تحولت فى الفترة الخامسة أى الأخيرة إلى ثلاثة جداول ، خصصت لليهود والأغريق والرومان ، فى حين تضمنت الهوامش تعليقات إيوزيوس نفسه . ويلاحظ أنه فى جميعه وتنسيقه لمادته ، لم يكشف عن جهد كبير وعلم واسع فحسب ، بل كشف كذلك عن قدر كبير من السذاجة . ولقد أوضح ذلك الرئيس الراحل اندرو هويت حينما كتب يقول : « مدت فى هذه القوائم أسماء موسى ، والإله باكوس ، . وأسماء دبورة واورفيوس والامازونات ؛ كما لو كانت كلها شخصيات حقيقة لا فرق بين الحقيقى منها والخرافى . وعلى هذا الأساس نفسه «احتلوا مكانتهم فى التاريخ» .

وكتب ايوزيوس كنبه بالإغريقية وهى لغة لم يستطيع قراءتها فى ذلك الوقت سوى عدد قليل جداً من المثقفين فى الإمبراطورية الغربية ومن ثم كانت هناك حاجة ماسة إلى ترجمتها إلى اللاتينية ، لكى يسهل على المسيحيين الغربيين قراءتها . وقام بهذه المهمة الأب جيروم ، فسارع فى سنة ٣٧٩ م إلى ترجمة تاريخ ايوزيوس مع اجراء بعض التصحيحات والأضافات . أما كتاب إيوزيوس (قياس الزمن) فقد ترجمه جيروم دون أن يدخل عليه تغييرات هامة . وأضاف جيروم حقائق كثيرة من التاريخ العام ، وخاصة من التاريخ والأدب الرومانى ، عند ترجمته للجزء المعروف «قواعد حساب الزمن» وكذلك لينجعله أكثر فائدة للغرب . ووصل جيروم بالتلخيص الزمنى للأحداث حتى ٣٧٨ م .

والواقع إن ترجمة جيروم لتاريخ ايوزيوس ظلت تعتبر المصدر المعتمد في تاريخ الأحداث بالنسبة للمسيحيين في الغرب ، حتى راجع هذا التاريخ كل من يوسف جستوس سكاليجر Joseph Justus scaliger في سنة ١٥٨٣ م ، والأسقف جيمس أوشر James Usher في سنة ١٦٥٠ م . على أنه أصبح جزءاً من تاريخ الكنيسة عندما أدخله سولييكس سيفروس Sulpicius Severus (٣٦٠ - ٤١٠ م) في تاريخه ، وكذلك عندما ورد في كتاب « التاريخ الثلاثي » Historia Tripartita الذي ترجمه رفاقد كاسيودورس .

وكان أن أثر كتاب جيروم تأثيراً كبيراً في الكتابات التاريخية طوال العصور الوسطى . ذلك أن المؤرخين في تلك العصور اعتادوا أن يصدروا به روايتهم عما حدث من تطورات في بلادهم ، أو في غيرها من الأقطار ، وأن يربطوها بالتالي بما سلفها من أحداث حتى يصلوا إلى بدء الخليقة . ولقد وضع يروسر الاكوتيني prosper of Aquitaine تكملة لكتاب جيروم ، حيث وصل بالأحداث إلى سنة ٤٥٥ م ثم أواصلها الأسقف الاسباني ايداتيوس Idatius حتى سنة ٤٦٨ م . أما الراهب الافريقى فكتور توننزيوس Victor Tonnennensis ، فقد أخرج حولة عامة منذ بدء الخليقة حتى سنة ٥٦٦ م . وقام العلامة الأسباني ايزودور الأشيلي في أوائل القرن السابع بكتابه مدونة تاريخية أكتسبت شهرة كبيرة ، بناها على أساس ما قام به كل من ايوزيوس وجيروم ، ولكنه تأثر كذلك بما كتبه أوغسطين الذي اقتبس عنه ايزودور تقسيم تاريخ العالم إلى ستة فترات ، نسبة إلى الأيام الستة التي خلق الله فيها العالم . وأجمل ايزودور بطريقة زمنية سلسلة تاريخ البشرية منذ بدأت حتى ٦١٥ م ، ولكنه لم يصف شيئاً جوهرياً إلى ما جاء في التواريخ السابقة . كذلك كتب القسيس بيدى (Bade) مؤلفاً قيماً عنوانه « التفسير العقلي للزمن » De Temporum Ratione عن التاريخ في القرن الثامن ، وقسم فيه التاريخ منذ بدء الخليقة إلى عصور ستة . وراح المؤرخون في العصور الوسطى ينقلون الكثير عنه . وكان بيدى أول من أشاع في تاريخه اتخاذ مولد المسيح حداً فاصلاً بتقسيم التاريخ إلى ما قبل الميلاد وبعده وهو الإجراء الذي تتبعه اليوم ، والذي كان أول من أتى به ديونزيوس اكسيجس Dionysius Exiguus (ت ٥٥٠ م) .

ويلاحظ أن فكرة المسيحيين هذه عن تاريخ العالم وبناء عناصره ، بغض النظر عما في تاريخها للأحداث من تصنع ، وترتيبها ترتيباً زمنياً في جداول متقابلة ، قد تضمنت ظاهرتين جديرتين بالذكر ، وهما عدم تقبل مبدأ الأهمية النسبية للتاريخ العربي ، ثم التعصب الخطير ضد الحضارة الوثنية ، مما جعل النظرة الموضوعية للتاريخ أمراً مستحيلاً . أما عن الاتجاه الأول

فقد قال عنه الأستاذ جيمس هارفي روبنسون : «إن هذه الوحدة اللاهوتية للتاريخ ومعناه ،
تمت على حساب كل المفاهيم العلمانية ، والدقة في صحة المعلومات ، وفي ذلك توضيح بالغة .
ذلك أن العموريين حظوا باهتمام لم يحظ به القرطاجيون . وتألق اسم كل من إنوك ، ولوط في
تاريخ لا يكاد يعرف بركليز . »^(١) والحقيقة المرة التي يجب أن نعرف بها لثباتها هي أن الأمة
اليهودية تدن بدرجة كبيرة ببروزها في تاريخ العالم إلى هذه التشوهات التي جاءت نتيجة
المفاهيم التاريخية الخاطئة لدى المؤرخين المسيحيين الأوائل .

أورزيوس وتاريخ العالم المسيحي

وكان من غير المتوقع أن يستمر آباء الكنيسة الأوائل قانعين بما تم تسجيله في العصر
الوثني من أحداث تاريخية ، وإنما اشتدت الرغبة في إعداد تاريخ للبشرية يتم في ظل
المسيحية ، ويتصفت بالتنظيم ، ويأخذ طابعاً رسمياً ، على أن يكون هدفه تمجيد المسيحية ،
وكان أن تحقق ذلك بعد أن اتهم الوثنيون المسيحيين إلى حد قولهم إن المسيحية هي المسئولة عن
المصائب التي حلت بالأمبراطورية الرومانية ، وخاصة بعد أن تعرضت روما للحصار على يد
«الرك» في بداية القرن الخامس . وقد عهد أوغسطين بألرد على هذا الاتهام إلى مساعده
المخلص والمثابر «بولس» أورزيوس paulus Orosius (٣٨٠ - ٤٢٠ م) ،
وهو من مواليد اسبانيا ، ثم انتقل إلى إفريقية ، حيث صار مقرباً لأوغسطين وتلمذ عليه مدى
خمس سنوات . وقبل أن يقوم أورزيوس بجمع مؤلفه التاريخي كتب - بناءً على اقتراح من
أوغسطين - بعض أبحاث دفاعاً عن العقيدة المسيحية ضد أقوال الهراطقة . أما كتابه الذي نفي
فيه عن المسيحية الاتهامات الوثنية ، فقد عرف باسم «سبعة كتب تاريخية ضد الوثنيين» وقد تم
جمعه بين سنتي ٤١٥ ، ٤١٨ م .

وأستند كتاب أورزيوس التاريخي على نظرية القديس أوغسطين القائلة بمبدأ أثر القدرة
الالهية في التاريخ ، بمعنى أن التدبير الإلهي هو الذي قرر مصائر الإمبراطوريات الوثنية ،
والتاريخ اليهودي والمسيحي على سواء . واختار أورزيوس أن يضرب المثل بابل وروما كدولتين
وثنتين ، كان لها أعظم التأثير المباشر على اليهود والمسيحيين ، ولكنه لم يذكر شيئاً ذا قيمة عن
مصر ، في حين أنه اعتبر مقدونيا وقرطاجنة إمبراطوريات إضافية ، ساعدت على نقل الثقافة
البابلية إلى روما ، وذلك لكي يبرر الرمزية التي تضمنها حلم دانيال والتي نقلها جيروم إلى
المفهوم التاريخي المسيحي والقائلة : «بصعود أربعة حيوانات عظيمة من البحر» . وكان

(1) J.H. Robinson: The New History (Machnillan 1912) p. 30.

الكتيب الذى وضعه أورزيوس عن التاريخ ، قائماً على تدعيم وجهة نظر جيروم التى استقاهها هذا الأخير من حولية ايوزيوس . على أن أورزيوس لم يذل جهداً فى جمع المادة التاريخية لكتابه ، إذ أنه لم يستشر المؤرخين القدامى فى الشرق ، أو المؤرخين الإغريق والرومان . واستعان بمقتبسات لاتينية من هيودوت ، ولينى ، وثاكيثوس ، ومن شابههم .

ويبدأ أورزيوس كتابه «سبعة كتب تاريخية ضد الوثنيين» نبذة جغرافية عن العالم كما عرفه أورزيوس ، لا سيما تلك المناطق التى عالجها فى كتابه . ثم يبدأ تاريخ الإنسان منذ بدأت الخليقة باقتباس من حولية جيروم . ثم يذكر عجالة سريعة عن التاريخ البابلى . ويأتى على ذكر التاريخ الرومانى المباشر حتى حصار الغالين لروما وهو الحصار الذى أبدع فى تصويره ووصف ما أحدثه الغالون بأنه فاق فى شناعته وسوء تخريبه ، ذلك الذى أحدثه ألك . ثم يأتى على ذكر التاريخ الإغريقى والمقدونى من أيام بركليز إلى هزيمة بيرهوس الإيروسى . ثم يتقل أورزيوس إلى الحديث عن قرطاجة ، التى يتناول تاريخها من نشأتها حتى تخريبها . وفى النهاية يتناول أورزيوس تاريخ روما القريب ، فيؤكد تأكيداً قوياً ارتباطه بالكنيسة المسيحية ، ولكنه لا ينسى فى الوقت نفسه أن يسرد الأحداث البشعة التى صحبت اضطهاد الوثنيين للمسيحيين والمذابح التى تعرض لها المسيحيون ، ويصل بالرواية حتى سنة ٤١٧ م .

ومن الواضح أن هناك ثغرات كبيرة عن الماضى فى تاريخ أورزيوس . وجاء ذلك نتيجة لاستبعاده بعض البلدان من الاعتبار فى سرده ونتيجة لعمله الغير متكامل ، وهو العمل الذى عبر عن وجهة نظره الخاصة . على أن نقطة الضعف الأساسية التى تؤخذ على كتابه ، لم تكن نتيجة لإجباله واختصاره فيما كتب . وإنما كانت حول الهدف الذى استهدفه من وضع كتابه ، وهو حرصه على إظهار وتأكيد حقيقة هامة ، هى أن كل مالحق بروما من مصائب فى العصر المسيحى ، لا يمكن أن يعادل فى عدده وأثره الهدام تلك المصائب التى مرت بالجماعات الوثنية . وهكذا أهمل أورزيوس الجوانب المشرقة للثقافة الوثنية ، وتغاضى عن أبرز تلك الجوانب ، حتى إنه جمع كتابه الذى سماه مصائب تاريخية «Historia Calamitatum» ليزر فيه صورة لاهوادة فيها عما حواه التاريخ الوثنى من كوارث تضمنت الحروب والطاعون والجوع وأحوال الزلازل والدمار الذى حدث بواسطة النار المتطايرة من البراكين والبرق والجليد ، والبؤس الشديد الناتج عن الجرائم التى تحدث فى مثل هذه الأحوال . وعبر عن ذلك الأستاذ روينسون عندما كتب يقول : «إن كل المنجزات التى تحققت فى مصر واليونان وروما ، اختفت من فكر تلميذ أوغسطين (أورزيوس) فى حين أنه أبرز الآلام التى سادت فى الدول العابدة للشيطان» .

ولكن على الرغم من كل ذلك ، فإنه لاينبغى أن نتغاضى عما فى كتاب أورزيوس العظيم من نظرة بعيدة وبنائة . ذلك أننا نخرج من تاريخه عن الحروب الوثنية وما أحدثته الوثنيون

من مداخل حياجية ، يتطلب أنه يصرف النظر عن شتف طبقة النبلاء بالحروب ، فإن أثر تلك الحروب على العامة كان حقيقياً إلى أقصى حد . وأشار إلى أن هناك رواية هامة تروى عن تاريخ العامة الذين كانت الحروب بالنسبة لهم بلاء وشراً مستظيراً . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن علاجه التاريخ الإمبراطورية للرومانية في الفترة القريبة منه ، يجعلنا نحس بأنه كان على يقين من أنه يعيش فترة انتقال ، وهي الفترة التي تعارفنا فيها بعد على أنها بداية العصور الوسطى . وهو بهذا وإنجمله يكون قد اتخذ خطوة تقدم بها على استاذة أوغسطين أو أى كاتب مسيحي آخر .

ومع ما يقل حول الحقيقة التي تنادي بأن مؤلف أورزيوس إنما هو كتاب جدلي ، هدفه الدفاع عن العقيدة المسيحية ، فإن هذا الكتاب صار خير نموذج للعمل التاريخي الذي يعالج للعالم القديم الوثني ، وذلك خلال العصور الوسطى . وكان هذا من سوء حظ دارس التاريخ خلال العصور الوسطى ، لأسباب كثيرة واضحة ، أولها أن الكتاب أساء إلى الأمم الوثنية وثقافتها ، وثانيها : أنه أهمل العناصر البناءة والنواحي الأكثر استقراراً في التاريخ الوثني ، وثالثها : أن تناوله للتاريخ القديم جاء مقتضباً وغير متكامل ، سواء بالنسبة للبلاد أو بالنسبة للموضوعات والأحداث . وأخيراً ، فإنه حتى المادة التي اقتبسها لم تكن مما يعتمد عليها ، لأنها جمعت من مصادر غير أصلية ، ثم نسقت حتى تبدو في صورة عمل مبتكر يفسر التاريخ والأحداث .

التاريخ الكنسي المنسق

إن أعظم إنجازات آباء الكنيسة في ميدان التاريخ تمت داخل إطار التاريخ المنسق للكنيسة المسيحية . ذلك أن نظرتهم العالمية وإن كانت قد حجبت عنهم كثيراً من الأبعاد والمجالات ، وطمست بعض تفسيراتهم ، إلا أن ذلك لم يعد سوى بالتر اليسر من الضرر على المدرسة التاريخية ، لأنهم رغم مسلكهم المعادي للوثنية ، ورغبتهم القوية في الاعتقاد في المعجزات والخوارف الغير طبيعية ، وعلت كتاباتهم من مسحة تدل على بساطة التقوى والتدين ، وتغليب فلسفة المسيحية على تفسير التاريخ ، فإن طبيعة المادة التي كانوا يعالجونها حالت بينهم وبين أن يشوهوها مثلاً شوهوا التاريخ الوثني القديم . ذلك أن اهتمامهم تركز على الموضوعات الكنسية ، كما تناولوا بالذكر معاصريهم من كبار رجال الدين ، وإن كان هؤلاء لم يلقوا عند الحديث عنهم من العناية مألوفة الشخصيات التي تناولها الإنجيل .

أما أول المصادر الشبيهة بالقصص عن تاريخ المسيحية فهي تلك التي أكتشفت

حديثاً ، والمعروفة باسم لغائف أبرسجلات البحر الميت ، وتشمل رسائل القديس بولس الرسول في القرن الأول ، والأنجيل المتقاربة لمثى ومرقص ولوقا ويوحنا ، وهي التي يحتمل أنها كتبت في الثلث الأخير من القرن الأول نفسه .

وأدق الأنجيل التي يمكن الاعتماد عليها من حيث استقامة الرواية هو إنجيل مرقس . الذي كتب حوالي سنة ٧٠ م ، ولو أن إنجيل لوقا جاء أكثر رونقاً وأكثر اقتراباً من أن يكون عملاً تاريخياً . ثم هناك سفر أعمال الرسل ، وهو ما تبقى من التراث القانوني والتاريخي في القرن الأول ، وقد كتبه نفس الكاتب الذي كتب إنجيل لوقا حوالي سنة ١٠٠ م . وبعد ذلك يأتي الكتاب المسيحيون الذين تولوا الدفاع عن العقيدة المسيحية في القرنين الثاني والثالث ، وكتابتهم هي الأخرى مصادر هامة من مصادر المعرفة ولو أنها كتابات جدلية إلى حد كبير .

أما أحد الأعمال الشهيرة من الكتابات التاريخية الكنسية المنسقة في عهد الآباء الأول للكنيسة ، فهو كتاب التاريخ الكنسي لمؤلفه ايزيوس اسقف قيصرية ، وهو الذي سبق أن أشرنا إليه بوصفه صاحب التاريخ المعول عليه من المسيحية . وكان ايزيوس من رجال الدين ذوي المكانة في الدول ، وصديقاً للإمبراطور قسطنطين وموضع ثقته ، فضلاً عن كونه من رجال المسيحية القدامى المتعلمين . ثم إنه أعد نفسه لمشروعه بمزيد من القراءة ، وسعة الاطلاع ، وكثرة البحث في مكتبة صديقه وأستاذه وصاحب الفضل عليه « يامفيلوس القيصري » ، وهو الذي حكم عليه بالإعدام في الاضطهادات التي قام بها ماكسيموس ضد المسيحيين . ولقد تأثرت نظرة ايزيوس الدينية بأكثر علماء آباء الكنيسة الشرقيين وهو أورجن السكندري . ويعتبر كتاب اورزيوس عن تاريخ الكنيسة رواية لأصول المسيحية وانتصاراتها . وسرداً لعموم الكنيسة المسيحية وتنظيمها في عهود الحوارين وآباء الكنيسة الأوائل . والواقع أن ايزيوس كان من نوع العلامة اليوناني طماوس ، ولكن في قالب مسيحي بمعنى أنه كان عالماً وأثرياً ولغوياً أكثر منه فيلسوفاً تاريخياً . ولقد كان كما وصفه الأستاذ دقاراري Defarrari في تلك العبارة التي لخص فيها مواهبه وما أسهم به في ميدان الفكر فقال : « كان ايزيوس هو أول من أدرك بوضوح المعنى العام لأدب مسيحي استخدم فيه الأساليب القديمة ، فخلد تواريخ الكتاب ، وصنف إنتاجهم ورتبه ، هذا إلى أنه ترجم منهج مدرسة الإسكندرية في لغة إلى قالب مسيحي »^(١)

وقد عالج ايزيوس في سجله التاريخي نشأة الكنيسة في إيجاز ثم توسع في ذلك الموجز وفصله تفصيلاً حقيقياً في كتابه عن التاريخ الكنسي . وأنقسم عمله إلى الأقسام الرئيسية الآتية :

(1) In Peter Gulday and church Historians (Kenedy 1926) p. 24.

- ١ - سلسلة تتابع الأساقفة في أهم الكراسى الأسقفية .
- ٢ - أشهر المعلمين والكتاب المسيحيين .
- ٣ - الحركات الهرطقية وزعماء الهرطقة .
- ٤ - ماحل باليهود من عقوبات مختلفة نتيجةً لصلبهم المسيح .
- ٥ - اضطهاد الرومان للمسيحيين .
- ٦ - الشهداء والمعجزات على أيام ايزيوس نفسه .

أما وجهة النظر التي سادت الكتاب بأسره فكانت - كما هو متوقع - الدفاع المطلق عن المسيحية ، وإثبات أن التاريخ بأكمله يثبت ألوهية المسيح وصدق رسالته . على أن كتاب ايزيوس يتضح فيه اعتدال لهجته ، وأترانه وهدوءه ، مع أنه من أوائل الكتاب المسيحيين ، فضلاً عن أنه شهد استشهاده أستاذه وصديقه المقرب « بامفيلوس » على يد حكومة الوثنيين . وبدل كتابه على سعة الاطلاع ، وتعمقه في البحث . وفي الحق إن كتابه عن التاريخ يعتبر جامعاً للوثائق الهامة المختارة في التاريخ المسيحي الأول صنعت في هيئة دليل مرشد ومنظم . ذلك أن تاريخ الكنيسة في نظر ايزيوس كان « مجموعة من التعاليم تورث من السلف إلى الخلف » . ومع أن هذا الوضع بالنسبة لكتاب يعتبر مصدراً مثل كتاب ايزيوس يجعل قراءته بطيئة ، إلا أن الوثائق التي يتضمنها ؛ لا غنى عنها لكاتب في عصر متأخر يؤرخ لتاريخ الكنيسة في عصرها الأول . ذلك أن معظم الوثائق المتعلقة بذلك الموضوع قد ضاعت ، ولا نثر عليها إلا في تاريخ ايزيوس . وهكذا حالت كثرة الوثائق في كتابه دون أن يجعله مجرد كتاب في فن صناعة الأدب ، فضلاً عن أن طريقته في التحليق فوق الأحداث وعدم التركيز في سردتها ، لم تساعد على جعل الصورة التي يعرفها تتصف بالحياة . وهكذا جاء كتاب ايزيوس قبل كل شيء ، مرتبطاً بالتعمق في دراسة تاريخ آباء الكنيسة . وقد راجع ايزيوس كتابه أربع مرات ، أنهى به في المراجعة الأخيرة إلى حوادث سنة ٣٢٣ م .

وفي القرن الخامس أكمل مؤرخو الكنيسة ، سقراط ، سوزمن sozamen ، ثيودوريت Theodoret ، كتاب ايزيوس المعروف « بالتاريخ الكنسي » . ولكن كان هناك تداخل في أعمالهم ، إذ تناول سقراط الفترة من ٣٠٦ إلى ٤٣٩ م ، وتناول سوزمن الفترة من ٣٢٣ إلى ٤٣٩ ، وأما ثيودوريت فتناول السنوات من ٣٢٥ إلى ٤٢٧ ميلادية . ثم جمع العمل كله وأختصره وترجمه إلى اللاتينية « ايبثانيوس Epithanius » وآخرون معه ، تحت توجيه وإشراف كاسيدورس في القرن السادس ، ووصلوا بالسرد حتى سنة ٥١٨ ميلادية . وكتب كاسيدورس بنفسه مقدمة للترجمة اللاتينية ، ومن المعتقد أنه أشرف شخصياً على المختصر ، كما

قرر بنفسه المادة التي تختار ونظمها . ويعرف هذا العمل الذي أنتجه كاسيدورس وتلامذته باسم التاريخ الثلاثي ((the Tripartite History)). وأصبح هذا الكتيب عن التاريخ الكنسي هو الشائع استخدامه عبر العصور الوسطى . وعلى الرغم من كل ما يقال عن هذا الكتيب من أنه غير مرتب ، وغير منسق ، وغير دقيق ، وكتيب حوليات ، فإنه يفوق في قيمته العلمية كتاب اورزيوس عن التاريخ العلماني (الوثني) .

أما الكتاب التاريخي الوحيد عن الكنيسة المسيحية الذي كتب خلال عصر آباء الكنيسة الأول ، وله قيمته الأدبية فهو كتاب «التاريخ المقدس» لمؤلفه سوليكيوس سفروس (Sulpicius severus) وهذا الكتاب تاريخ مختصر مشوق للكنيسة يحوى ملخصاً لتصور الفكر المسيحي لتاريخ العالم ، ويعتمد على مدونة اورزيوس التاريخي . ولقد وصل سوليكيوس بالأحداث حتى سنة ٤٠٠ م . وكان هدفه من الكتابة استثارة اهتمام جمهور المتعلمين بتاريخ الكنيسة ، وأخرج عمله إخراج القادر المتمكن . وعلى الرغم من هذا كله ، فإن كتيبه ظل منسياً شبه مهمل طوال العصور الوسطى ، اذ طغى عليه وغمره التاريخ الثلاثي ، مع كونه مطولاً وغير مترابط . على أن كتاب سوليكيوس لم يلبث ان عرف وأشتهر في أوال عصر الحركة الإنسانية الحديثة عندما قدره الإنسانيون الأوائل لأسلوبه الرفيع .

ولعله من الواضح أن أكثر السقطات في هذا الكتب التاريخي الأولى عن الكنيسة ، هي فشلها في تحليل القوى العميقة والأحداث البارزة المرتبطة بتلك الحركة الدينية التي كانوا يصنعونها . ومرجع ذلك هو اعتقادهم أن المسيحية سادت بفضل من الله وحده . ومن ناحية أخرى ، إلى الحقيقة الخاصة بأن الكتاب جميعاً آمنوا بفكرة وجود قوى خفية ، ومعجزات وشهداء وقديس .

سير مسيحية

اعتمد ازدياد نفوذ الكنيسة وتطورها بدرجة كبيرة على جهود المؤمنين بها ورجال الدين . ومن ثم فإنه ليس بالأمر المستغرب أن تحتل السير التاريخي دوراً مشهوراً في علم الكتابة التاريخي في عهد آباء الكنيسة . وكانت أول خطوة في هذا المجال هي الأجزاء الأولى من كتاب ايوزيوس «التاريخ الكنسي» حيث سرد حياة رجال الكنيسة المرموقين وأعمالهم ، ولكن أول تجميع رسمي للسير المسيحية الشهيرة ، كانت في كتاب «مشاهير الرجال» الذي كتبه جيروم في بيت لحم سنة ٣٩٢ م . وكان سوتنيوس كاتب السير الرومانية قد أنخرج كتاباً في سنة ١١٣ م

يحمل نفس العنوان ، حيث رتب في قوائم كبار الشخصيات في عالم الأدب اللاتيني مع وصف لهم ، حتى الوقت الذي أصدر فيه كتابه . ويميل الكتاب الوثنيون إلى التقليل من شأن الكتابة المسيحية ، وإظهار المسيحيين على أنهم جهلة وغير متعلمين . وكان ذلك مادفع جيروم إلى التصميم على أن يجمع قائمة بهؤلاء الذين اعتبرهم قد أسروا ضيقاً للكنيسة بأعمالهم الأدبية ، رداً على ادعاء الوثنيين ، وتحداهم بهذه المقارنة في هذه الكلمات الآتية : «دع هؤلاء الرجال — مثل كلوسوس Calsus ، بورفيرى ، جوليان وهم الطلاب المجانين الذين يتهمون على المسيح ، دعهم وشركائهم الذين يتصورون أن الكنيسة ليس لها فلاسف ولا خطباء ولا أطباء — دع كل هؤلاء يرون قدرات وجهود الرجال الذين أسسوا الكنيسة وطوروها ونحتوها . دعهم يكفون عن اتهام عقيدتنا زوراً وبهتاناً ، وبأنها ليس لها ما تبديه سوى بساطة غير فنية ، بل دعهم يعترفون بجهلهم هم . »⁽¹⁾

ولقد سرد جيروم قائمة الذين اعتقد أنهم كتاب مسيحيون مشهورون . من سيمون بيتر حتى وصل إلى سرد اسمه هو ووصفهم في صورة غير منسقة ويبدو أنه أخذ أكثر من نصف القائمة التي سردها عن ايزيوس ، وحتى يجعل عرضه مؤثراً على قدر الأمكان ، وممتعاً ، أضاف أسماء بعض الكتاب المرافقة والغير مسيحيين مثل يوسفوس وفيلو ، وجستوس الطبراني ، ولكنه في القدر الذي خصصه لكل كاتب ، واللهجة التي عالج بها الموضوع ، اعتمد بصفة أساسية على إحساسه الشخصي تجاه كل كاتب .

ولقد مضى على منوال جيروم ، جنياديوس المنسوب إلى مارسيليا (حوالي ٤٧٠ م) حيث جمع مجموعة من التراجم حملت نفس العنوان الذي أعطاه جيروم لكتابه . وفي بداية القرن السابع الميلادي ، كان الأسقف ورجل الموسوعات الأسباني ايزدور الاشيلي (٥٧٠ - ٦٣٦ م) قد وصل بتجميع مادة السير والتراجم حتى العصر الذي عاش فيه ، مستخدماً نفس العنوان . وقد أتم عمله أحد مواطنيه ، هو الديفونوسوس الطليطلي (ت ٦٦٧ م) . وفي القرن الثاني عشر مضى هونوريوس الذي ينسب إلى أوتون في سرد سير رجال الكنيسة حتى عصره . واستمرت العناية بالسير والتراجم خلال العصور الوسطى ، حتى بلغت ذروتها في الكتاب الذي وضعه يوحنا ترميوس (١٤٦٢ - ٦٥١٦ م) باسم «الكتاب الكنسين» والذي جمع فيه ٩٦٣ ترجمة لرجال الكنيسة . ويبدو طابع السذاجة التي اتصف بها أكثر الساردين للسير تعلماً وإيمانهم بالخوارق والمعجزات ، في كتاب من كتب جيروم أسماء «حياة بولس الناسك الأول» ، أو في كتاب اثناسيوس «حياة القديس أنطون» على أن أعظم سيرة ذاتية كتبها فرد عن نفسه في ذلك الدور ، كانت «الأعترافات» للقديس أوغسطين ، وهو الكتاب الذي فاق في قوة وتأثيره أي كتاب آخر .

(1) Cited in pierre de Labriolle: History and Literature of christianity (Kmpof 1925) p. 362.

المراجع

- 1- Shotwell, Introduction to the History of History cheps xxiv-xxvi
- 2- Thompson, History of Historical writing vol, chaps viii.
- 3- E.J. Goodspeed, A history of Early christian Literature, Uneversity of chicago press 1942.
- 4- Miller Burrows: The Dead sea scrolls, viking 1958
- 5- T.H. Gaster: The Dead sea scrptures, Doubleday 1956.
- 6- M.A. Lerson: The Religion of the Occident philosophical library 1959.
- 7- E.F. Scott: The Literature of the new Testament, columsia unversty press 1932.
- 8- C.J.M. Hayes: An Introduction to the Sources Relalting to the Germanic Invasions, chaps x-xi Columbia unversity press 1909.
- 9- Pater gilday, ed, church Historians pp. 3-70 kenedy 1926.
- 10- Ritter, die Entwicklung-der-geschichtswissenschaf Book, chap.
- 11- Gustav Krüger, history of Early christion leterture london 1897.
- 12- Pierre de Labriotte History and literature of chistianety kruopf 1925.
- 13- A.C. Me Giffert ed, The Church History of Eusebuis «Nicene and post-Nicene and post-Nicene Fathers».
- 14- I.W. Raymond ed, seven Book of History aginst the Pagans: The Apology of paulus Brisiu's, columbia University press 1936.
- 15- J.C. Ayer, Sowce Book for Ancent church History, Scribner 1913.
- 16- R. L. P. Milburn, Early christion Interpretations of History Harper 1954.

الفصل الرابع

الكتابة التاريخية خلال العصور الوسطى

وجهة النظر التاريخية خلال العصور الوسطى

أتضح من البحث السابق أن كتابات اورزيوس وكاسيدورس ، كانت المؤلفات التاريخية التي اعتبرت نماذج تحتذى في الكتابات المسيحية خلال العصور الوسطى ، كما أتضح أن فلسفة آباء الكنيسة للتاريخ لم تحدث فجوة واسعة تحول دون استمرار الأساليب المعروفة في دراسة التاريخ . وفي ذلك كتب الأستاذ بير But يقول : « لم تفصل العصور الوسطى ما بين التاريخ وعلم اللاهوت ، بل لجأت للمحاولة دون حدوث مثل ذلك الفصل إلى التمسك بقدر من وحدة الفكر يحقق ضمناً ضد الآراء الهرطقية . وهكذا ظلت نظرة آباء الكنيسة ماثلة في التاريخ حتى نهاية تلك العصور الوسطى التي عرفت باسم عصور الايمان »

ولقد كان رواد كتابة التاريخ في العصور الوسطى - مثلاً كان الحال بالنسبة لبقية جوانب النشاط الثقافي في تلك العصور - من رجال الكنيسة في صورة أخرى ، وإن كان غالبيتهم من الرهبان . واستمرت طوال العصور الوسطى الاتجاهات التي سادت العصر المسيحي الأول ، من إيمان بالخوارق الطبيعية ، واعتقاد في الحين ، فضلاً عن عدم اهتمام نسبي بالحقائق التاريخية التي هي مثار اهتمام المؤرخين اليوم ، وخاصة ما يرتبط بقيام الدول واضمحلالها ، والحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية (والفكرية التي هي بمثابة العلامات التي تنتهي بها بعض عصور التاريخ ، وتبدأ بها عصور أخرى . ودالملحمة المسيحية » ظل لها وزنها الذي لم يمتريه تغير طوال اثني عشر قرناً من الزمان ، وإن كانت قد اهترت قليلاً في أواخر العصور الوسطى نتيجة لحركة إحياء الدراسات الوثنية في أواخر العصور الوسطى ، ونمو الحركة الإنسانية ، وما صاحب ذلك كله من نقاش وجدل في عصر النهضة . ومع ذلك فإن الملحمة المسيحية ظلت بمنجاة من أن تلقى ضربة بالغة العنف ، إلا في القرنين

السابع عشر والثامن عشر ، حين كشف الربوبيون^(١) الإنجليز Deists والفلاسفة الفرنسيون عن ضعف تلك الملحمة وما فيها من تضارب ، وذلك بما أثاروه حولها من نقد في الصميم .

على أن الشيء الجدير بالذكر ، هو أنه حدث خلال القرون التي أعقبت الدور الأول للمسيحية أن شهدت الحياة العلمية تدهوراً انعكست صورته على المفهوم التاريخي . ذلك أن كتاب العصور الوسطى لم يبقوا على مثالب العهد المسيحي الأول وعبويه فحسب ، بل كان يعوزهم أنفسهم معرفة بالعلوم الكلاسيكية ، ومزيد من التعمق في علم اللاهوت ، وهو الأمر الذي كان متوفراً لدى آباء الكنيسة الأوائل . كذلك عبر كتاب العصور الوسطى عن نوع من الثقافة التي ينقصها التهذيب والصقل ، وهو أمر لم يكن هناك مفر منه في الفترة التي أعقبت مباشرة التخلص من البربرية . ولقد أجمل المؤرخ الألماني الذائع الصيت هنريخ فون سيبل

Henrich von Sybel ، الخصائص البارزة لعلم كتابة التاريخ (في العصور الوسطى) في صورة توضيح الرباط القوي بينها وبين الكتابة التاريخية في العصر المسيحي الأول ، حيث قال : « ولم يكن في تلك الفترة معيار للأحكام التاريخية ، ولا إحساس بالحقيقة التاريخية ولا النذر اليسر من الحاسة النقدية ، بل ساد مبدأ الحكم المطلق ، والسلطة الدينية التي تحكم دون عائق ، وتمكنت هذه السلطة الدينية من أن تحيى كل ما هو ماثور ومتوارث من المذاهب والعقائد . ثم إن الناس في العصور الوسطى كان يميلون إلى تصديق كل ما يقال ، بدلاً من البحث للفرقة بين ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى . واتسع أفق الخيال في كل مكان ، وصارت له اليد العليا على العقل والمنطق بحيث لم يصبح هناك فاصل أو تفرقة بين ما يجب أن يكون وما هو قائم فعلاً ، أو بين الخيال والواقع . كذلك لم تصبح هناك تفرقة بين الحقائق الشعرية والحقائق التاريخية ، فاعتبرت أشعار هومر التي تصور البطولات وتمجدها على أعلى أنواع كتابة التاريخ . وصلت الملاحم ، والأساطير ، والأدب الشعرية ، والشعر التصويرى ؛ محل التاريخ ، ومع ذلك فقد ظهر هناك بصيص من نور خافت ينبئ عن تطور تاريخى بطئ ، حين أخذ المعاصرون يدونون أحداثاً معينة كبرى ، أو قضايا خاصة بأشخاص معينين . ولكن أحداً من كتاب العصور الوسطى لم يمتعه ضميره من أن يحيط الأوضاع المحيطة بها له من المجد العظيمة (مستمدة الصور السالفة في سالف العصور والأزمان . ولجأ كتاب العصور الوسطى في تحقيق ذلك ، إلى اصطناع الأحداث ، وتلفيق الأخبار ، وتزوير الوثائق ، دون أن يحاول أحدهم التثبت من صحة الاختبارات المدونة إذ لم يكن هناك داعٍ لذلك ؛ طالما إن ماذكر جاء متمشياً مع الأوضاع القائمة والاعتقادات السائدة ، فضلاً عن تمشيها مع أهداف المعاصرين وميولهم »

(١) هم الذين يؤمنون بالرب دون الأديان (المراجع)

وثمة خاصية عامة أخرى للكتابة التاريخية في العصور الوسطى ؛ هي مذاجتها الفكرية ، التي يمكن أن تقارن بالمستوى الفكري عند الأطفال . وقد أكد هذه الظاهرة الأستاذ جورج جوردن كولتون George Gordon Coulton فقال : « يتصف المؤرخ في العصور الوسطى - إذا ما قورن بالمؤرخ القديم والحديث - بأن له نفس عا للطفل من اهتمام بأمور الناس والأشياء ، ونفس اتجاه الطفل في الملاحظة والتطور ، بل وكان له نفس الميل إلى الحقد الذي أحيانا عند الطفل نتيجة لما يسمع ويرى ، من ذلك أنه لا يمكن الثقة بإحصاءات المؤرخ في العصور الوسطى ، كما كان يمكن أن يغفر له كل خطأ حسبا له من اتجاه عقائدي أو مهني . هكذا يمكن مقارنة الكتابات التاريخية الصرفة في العصور الوسطى - أي حتى القرن الثالث عشر الميلادي - بما كتبه الهنود الحمر عن طبيعة حياتهم حيث إننا نجد هذه الكتابات الأخيرة تتصف بالصدق والتزام الحقيقة ، طالما أنه تتعرض للأحداث اليومية المتعلقة بالصيد ، ولكنها فيما عدا ذلك تغتفر إلى القدرة الافتراضية ومحاولة إثباته بالحجة والبرهان . فضلا عن الربط بين النتائج والأسباب » .

وإذا كان من الضروري أن نعترف بهذه القيود التي عرقلت سبيل الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، والعيوب التي اتصفت بها تلك الكتابة عندئذ ، فإنه من المناسب في الوقت نفسه أن نبين الصعاب التي اعترضت سبيل الكتابة التاريخية . ذلك أنه صعب انهيار الحضارة الرومانية اضطراباً وعنف ، وأصبح التعليم عقياً ، وفقد قدرته الخلاقة وحيويته حتى ذبل تماماً ، هذا في الوقت الذي فقدت كل الكتب الهامة عن التاريخ الكلاسيكي القديم أو فقدت أجزاء منها . وكان لتعصب المسيحيين ضد الوثنية وتراثها أثره في تخريب وإفساد كثير من الكنوز الأدبية التي خلفها العصر الوثني ، وهو الأمر الذي يتنثل بوضوح في حريق مكتبة الإسكندرية . هذا إلى أن السفر صار مستعصياً ، باهظ التكاليف ، محفوقاً بالمخاطر ، ومن ثم فقد اصطبغت الثقافة بصبغة محلية إقليمية ، واستبعدت تلك النظرة الواسعة عن مجتمع أوربي ، أو مجتمع علمي . وكان أن أصبح الرهبان وهم الطبقة المتعلمة الوحيدة في أوروبا في العصور الوسطى ، ومن ثم صاروا بالطبع هم مؤرخوها الوحيدون وإذا كنا ندين لجهودهم وإخلاصهم ، فإن خرافاتهم الدينية وتطرفهم الديني ، فضلاً عن تعصبهم العنيف لمكاسيهم ونفوذهم الديني ، كل ذلك كان سبباً في تحريف عملهم التاريخي وتشويهه . وإن ما يقال من أن معظم المدونات التاريخية في الغرب خرجت من الأديرة ، ليس مرده فقط إلى أن الرهبان كان لديهم الفراغ مثلاً توافرت لديهم المكتبات . ذلك أن رجال الكاتدرائيات مثلاً ، كانوا متعلمين ولديهم مكتباتهم القيمة ، ومع ذلك فشلوا في إتباع مدونات تاريخية ، لكن رجال الأديرة كان لديهم الإحساس بأن التاريخ ظاهرة مستمرة ، فضلاً عن اعتراهم الكبير بنظامهم الديري ، والدير الذي يتشبه إليه ، والرهبان الذين يعيشون داخله .

وهناك من الاعتبارات الأخرى الهامة ما ينبغي أن توضع في الحسبان عند الحديث عن الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، إذ كان المؤرخون مثل باقي الكتاب في العصور الوسطى ، لديهم دوافع عديدة تختمر في أذهانهم ، فضلاً عما كانوا يستهدفونه من تمجيد الرب وكسب رضا ، ومن هذه الدوافع حرص المؤرخ على إرضاء طموحه الشخصي ، فضلاً عن تمجيد وليّ الدير وحاميّه ، وإظهار الولاء للمجموعة التي ينتمى إليها . أما منهجهم في الكتابة التاريخية فقد تأثر بتعليمهم واتصالهم ، بالإضافة إلى المكتبات والكتب التي أُتيح لهم استخدامها والرجوع إليها ، إذ لم يكن هناك في تلك الأوقات مصادر مكتوبة موحدة للرجوع إليها عند الكتابة ، مثلاً نجد في هذه الأيام . وقد لعبت الدوافع الشخصية دورها بالنسبة للإقدام على الكتابة . حقيقة إن كثيراً من المؤرخين في العصور الوسطى كانوا رهباناً نهضوا بمهام معينة في الحياة الديرية ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم زهدوا في تحقيق جاهٍ أو صيت ، عن طريق إنتاج كتابٍ تاريخي له أهميته ، مما يؤدي إلى كسب التقدير والثبوت الشخصي ، وهي الأمور التي قد يحققها تأليف كتاب في أيامنا هذه وربما يشكل الدافع الشخصي للكتابة (في العصور الوسطى) في صورة حرص الكاتب على اكتساب مناصبٍ أو حاميٍّ له ، فتمجد شخصاً ما أو أسرته أو أسلافه في الوظيفة . وظهر تأثير ذلك الدافع بصورة كبيرة في المجتمعات البيزنطية والإسلامية ، حيث وجد كثيرون من الزعماء الدينيين الذين قدروا قيمة الإنتاج الأدبي الراقى . وهكذا تأثرت المدونات التاريخية في العصور الوسطى بعامل الرعاية والحماية . وإذا كان المؤرخ في أيامنا هذه يختص عادةً صنفاً معيناً من القراء بكتاباتهِ ، فإن مؤرخ العصور الوسطى كان يكتب أساساً لسيدهِ وراعيهِ ، أو لمجموعةٍ صغيرةٍ متفانيةٍ من القراء . وهناك نقطة هامة ترتبط بهذه الحقيقة ، وهي أن هؤلاء المؤرخين كانت تربط بينهم بطريقةٍ أو أخرى ، سجلات الأديرة التي اعتمدوا عليها في الكتابة . ذلك أنهم كانوا أصحاب صفةٍ رسميةٍ في الأديرة ، ومن ثم فقد كانوا رواد تنظيماتٍ ديريةٍ كبرى . ولم يكن هناك اختلاف في الميول الدينية بينهم وبين غيرهم من العلمانيين ، فالكل يدين بالكاثوليكية ، ولكنه كانت هناك اختلافات في المصالح الاقتصادية ليس بينهم وبين العلمانيين فحسب ، بل بينهم وبين الأساقفة ، فضلاً عن رجال الأديرة الأخرى ومن ثم فإن العامل الذي حدا بالراهب إلى التحمس للكتابة التاريخ وهو ولاؤه للجماعة ، كان هو نفس العامل الذي دفعه إلى الدفاع عن وضع المجموعة التي ينتمى إليها . ومن حين لآخر كان هناك من مؤرخي العصور الوسطى من يكتبون أساساً لإشباع دوافع الرغبة في الابتكار ، ومن ثم ، فقد أخرجوا مخطوطاتٍ جميلةٍ ظهر فيها مدى إعجابهم بمقدرة الأديرة . وهناك في كل عصر من الرجال من أوتي القدرة على التعبير عن مواهبه الخلاقة على هذا النحو .

الكتابة التاريخية خلال فترة الانتقال من العصور القديمة إلى ثقافة العصور الوسطى

يتصف تاريخ أوروبا الثقافي بحقيقة أساسية ، هي عدم وجود فجوة واسعة بين الحضارة الكلاسيكية ، وثقافة العصور الوسطى ، إذ أخذت الحضارة الكلاسيكية في الذبول تدريجياً ، بسبب ازدياد الشغف بالبلاغة والبيان ، مع عدم توافر الفكر الخلاق ، والرغبة في مجرد تفسير كتابات السابقين وشرحها . ثم ما كان من تحول واضح في الميول الثقافية ، نتيجة لانتشار المسيحية⁽¹⁾ .

وهكذا بدأت الثقافة في العصور الوسطى بخلفية محددة ، وإن كانت ذابلة من المعرفة الكلاسيكية ، وهي التي خضعت تدريجياً لمتطلبات الحياة الفكرية . وانعكست هذه الاتجاهات في الكتابة التاريخية في فترة الانتقال من العصر القديم إلى العصر الوسيط . ففي الدور الممتد من عصر ثيودوريك إلى عهد شارلمان ، ظهر مؤرخون عبروا في كتاباتهم عن بقايا الطابع الكلاسيكي والأخذ في الزوال ، مثلما عبروا عن الاتجاهات الدينية والسياسية التي سادت مجتمع العصور الوسطى المبكر . وقبل أن تنجبه إلى دراسة نتاج العصور الوسطى من حوليات ومدونات تاريخية نموذجية ، ربما كان من الأنسب أن نشير إلى بعض أعمال المؤرخين ذات الأهمية النسبية في تلك الفترة الانتقالية ، على أن نضع في الاعتبار أن هذه الفترة ليست ذات حدود واضحة المعالم وأن مؤرخيها ليسوا مجموعة محددة تحديداً واضحاً بحيث يمكن تمييزهم تمييزاً واضحاً عن سابقهم ، أو عن معاصريهم ، أو عن خلفائهم من المؤرخين .

أما أول هؤلاء المؤرخين الذين نرى من المناسب الإشارة إليهم بوصفهم من أكثر الشخصيات أهمية في تلك الفترة الانتقالية في مجال الفكر المسيحي فهو ماركوس أوريلوس كاسيودورس Cassiodorus (٤٨٠ — ٥٧٠ م تقريباً) . وقد نمتع بمرتبة رفيعة عند ثيودوريك ، وشغل منصباً هاماً في بلاط ملك القوط الشرقيين تقرب من رئيس المحكمة العليا . ولم يكن كتابة عن «تاريخ القوط» «History of the Goths» «أقيم ما كتبه في التاريخ ، بقدر ما كان كتابه المسمى (Variac) وهو مجموعة رسائل

(1) F. Taylor, The Classical Heritage of the Middle Ages and the Medieval Mind (McMillan 1925) Vol.

رسمية ، كتبها عندما كان في خدمة ثيودوريك ، ولذا فهي وثائق رسمية ذات أهمية نادرة . ومع أنها معقدة ، ويتصف أسلوبها بالبلاغة ، فضلاً عما يبدو في روحها من نزعة نحو التعامل ، مع الإيجاز والتركيز الشديد ، والحرص على اظهار الولاء للثيودوريك وللقوط الشرقيين ، إلا أنها مصدر هام من مصادر المعرفة عن مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا . ذلك أن تلك الرسائل غطت جميع مظاهر النشاط في ذلك العصر ، سواء من النواحي الاقتصادية ، أو الثقافية ، أو السياسية ، فضلاً عن العلاقات الخارجية . على أن أكثر أعمال كاسيدورس التاريخي ذيوعاً بين الناس ؛ هو كتابه عن تاريخ القوط الذي وصفه في اثني عشر مجلداً ، واستغرق منه الفترة الواقعة ما بين سنتي ٥٢٦ ، ٥٣٣ م . وليست هناك نسخة أصلية كاملة ، باقية من هذا الكتاب وكل ما نعرفه عنه من معلومات ، إنما يستمد من ذلك الملخص الذي وضعه جوردان ، وهو راهب ضعيف الكتابة . ويبدو مما كتبه جوردان وغيره ، أن كتاب « تاريخ القوط » يتفق مع نفس اتجاه كتاب كاسيدورس السابقة ، من حيث التعبير عن الولاء لثيودوريك والقوط الشرقيين . وقد اعتمد كاسيدورس بصفة أساسية في الحصول على مادة هذا الكتاب على مؤلف قوطي يدعى أبلافوس Ablavius . وحاول كاسيدورس أن يعبر عن إعجابه وولائه لثيودوريك ، على أساس تقدير هذا الملك القوطي لثقافة روما اللاتينية ، مبرراً هذه الظاهرة بترديد الأساطير الخيالية التي تدعى نسبة القوط إلى أصل روماني ، ثم نسبة الرومان بدورهم إلى طروادة .

وقد سبق أن أشرنا إلى الكتاب المسمى « التاريخ الثلاثي » الذي أعد تحت إشراف كاسيدورس ، وهو ذلك الكتيب الغير سليم ، الغير دقيق في مادته ، والذي ترجع أهميته إلى اتخاذه في العصور الوسطى مرجعاً شعبياً عن تاريخ الكنيسة المسيحية .

وسبق أن أشرنا كذلك إلى أن ما نعرفه عن كتاب كاسيدورس عن تاريخ القوط ، إنما هو مستمد مما كتبه جوردان ذلك الراهب القوطي الذي حصل على القدر اليسير من المعرفة والتعليم . ذلك أن جوردان يحظى كتاب كاسيدورس عن القوط في كتاب أعطاه اسم « أصول القوط وأعمالهم » . وتم وضع ذلك الملخص حوالي ٥٥٠ م . وأخبرنا جوردان أنه استطاع أن يطلع على كتاب كاسيدورس عن القوط لمدة أيام قلائل ، وهو أمر يشك كثير من الباحثين المحدثين في صحته . وينحوي جوردان منحىً خيالياً في تناوله لأصل القوط ، وإن كان يبدو منطقياً في وصفه للأحداث التي عاصرها في حياته ، ثم إنه لم يكن بالحاقد على الرومان ، كما يتوقع الإنسان من رجل قوطي مثل جوردان ، بل كانت ثقافته وميوله العاطفية ذات صبغة رومانية كاثوليكية واضحة ، كما كانت تتحوز على عقله فكرة الطابع العالمي للإمبراطورية الرومانية ، وهي الفكر التي ربط بينها وبين التوراة في أحداثها السالفة ، وتنبأ لها بمستقبل زاهر . ومما يكتن من أمر ، فإن كتابات جوردان ينقصها وضوح الأسلوب ، كما تفتقر إلى

عمق المعرفة والذكاء الفكرى .

فإذا ما انتقلنا للحديث عن المؤرخ البيزنطى الذى سجل حروب جستنيان وهو بريكوبيوس Precopius (٥٠٠ - ٥٦٥ م) نجده فاق كل من كاسيدورس وجوردان فى كافة النواحي . وكانت كتاباته باللغة الاغريقية^(١) ، وعالج فى كتابه « تاريخ زمانه » History of His own Time . حروب جستنيان ضد الفرس وفى

افريقيا وضد القوط . ورغم أنه حاول أن يقلد فى شئ من عدم المهارة كتاب الاغريق مثل هيرودوت وثيكدديدس ، فإن بريكوبيوس كان كاتباً رقيقاً وحاذقاً . فضلاً عما توافر له من الثروة والتعليم وسعة النشاط ، وهو أمر أتاح له الوقوف على بواطن الأمور ، مما لم يتح لكثيرين فى أيامه . ذلك أنه رافق القائد البيزنطى العظيم بليزاريوس فى معاركه . ومن ثم ، فإن كتابات بروكبيوس جاءت كتابات شاهد عيان ، لكن نقطة الضعف فيه كمؤرخ إنه كان قليل العناية والتحقيق فى استخدام مصادره . هذا إلى أنه فى كتابته كان متحيزاً للإمبراطورية البيزنطية . كما كان شديد الإعجاب ببليزاريوس . وفضلاً عن هذا أو ذاك ، فقد كان مؤمناً برسالة روما الحضارية ، وبأن الدولة البيزنطية هى التى تنهض بمهمة إتمام هذه الرسالة . وأخيراً ، فإنه حرص على أن يقف موقف المدافع عن أرستقراطية المال والمنصب . ولبروكبيوس كتاب آخر مختصر أسماه التاريخ السرى [Secret History (Historia Arcana)

وهو يتضمن آراءه الخاصة حول مؤامرات القصر الإمبراطورى فى عهده . والفساد الخلقى الذى استشرى فى العاصمة البيزنطية . ويرى بيورى وغيره من المؤرخين أن هذا الكتاب اليوم يحوى قداًز كبيراً من المبالغة والتحيز . وكان أن تشكك بعض المؤرخين فى أن يكون بروكبيوس صاحب القصص التى وردت فى هذا الكتاب . وإن كان يبدو أن الكتب الشبيهة بكتاب « التاريخ السرى » كانت كثيرة ومتداولة فى تلك الأيام . وانتشر هذا النوع من الكتابة أوقات سيادة الحكم المطلق — مثلما كان عليه الوضع أيام الإمبراطور جستنيان — كنوع من التنفيس والتعبير عن الضيق المكبوت . ومثال ذلك ، ما هو معروف من أن بعض أفراد حاشية لويس الرابع عشر فى فرنسا ، أفرج ما يشبه التاريخ السرى الذى كتبه بريكوبيوس .

وربما كان أكثر من ينبغى الاهتمام بهم من المؤرخين فى تلك الفترة الانتقالية ، هو جريجورى الشهير أسقف مدينة تور (٥٣٨ - ٥٩٤ م) . ذلك أنه كتب أهم مؤلف عن تاريخ الفرنجة فى ذلك الدور الحاسم الذى غزوا فيه غالباً ، وأقاموا دعائم الحضارة الميروفنجية على أساس خليط من عناصر غالبية رومانية من جهة ، وجرمانية من جهة أخرى . وقد سعى جريجورى كتابه « تاريخ الفرنجة » . وابتدأه بعرض غير محكم ولا دقيق للعالم منذ القدم حتى

(١) هناك ملخص واف عن بريكوبيوس أعده J.B. Bury فى الملحق الذى أضيف الى آخر طبعة لكتاب جيون اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية (المؤلفة) .

القرن الخامس الميلادي . وبعد ذلك انتقل إلى علاج تاريخ الفرنجة من ٤١٧ حتى ٥٩١ م . ومن الملاحظ أن جريجورى عاصر الأحداث التي وصفها في الخمسين سنة الأخيرة من تاريخه ، ومن ثم فقد اعتمد في معظم ما يكتب على مصادر أصلية ، استطاع بحكم مركزه أن يطلع عليها لأنه كان من رجال الكنيسة ذوى المكانة والنفوذ ، كما كان صديقاً لكبار رجال الدولة من غير رجال الدين . ثم إنه تنقل كثيراً عبر غاليا ، حتى أصبح اسقفاً لتور ، وعندئذ غدا على اتصال وثيق بالحجاج الكثيرين الذين قدموا لزيارة ضريح مارتن التورى .

وتعتبر الفقرات التي كتبها جريجورى التورى عن انحطاط مستوى الدراسات الأدبية في غاليا بعد غزوات الفرنجة ، وتصميمه على أن يكتب بأسلوب لائىنى واضح بسيط ، يقرأه ويفهمه الرجل العادى المتوسط التعليم في أيامه ، تعتبر هذه الفقرات من خير الكتابات الأدبية في العصور الوسطى . ولكن على الرغم مما يظهره جريجورى من تواضع إزاء أسلوبه اللاتينى ، فإن تاريخه يعبر عن موهبة أدبية شخصيته أكثر مما يعبر عن كتابة تاريخية سليمة ناقدة . ذلك أنه أحسن عرض الموضوع عرضاً مسرحياً ، وأتصف تاريخه بوجه عام بالطرافة والجمال ، والقدرة على إثارة مشاعر القارئ ، فضلاً عن صورته الزاهية . ومما تكن أخطاؤه في الإعراب ، فإن اللغة اللاتينية الدارجة التي استخدمها تبدو مفصلة كثيراً عن اللاتينية الفصحى المنمقة التي استخدمها كتاب مثل كاسيلدورس حاولوا محاكاة الأسلوب الكلاسيكى القديم .

وترجع شهرة كتاب «تاريخ الفرنجة» الذى ألفه جريجورى التورى إلى سببين كبيرين ، يأتى فى المقام الأول منها ، أن هذا الكتاب يعطينا الصورة الوحيدة الموحدة والكاملة تقريباً عن أصل الثقافة الميروفنجية ، التي جاءت نتيجة للمزج بين الثقافات الغالية الرومانية من ناحية ، والفرنجية من ناحية أخرى . ثم يأتى فى المقام الثانى أن هذا الكتاب يصور فى وضوح تام النفوذ المتزايد للكنيسة ، والدور الذى قدر لها أن تشغله فى حضارة العصور الوسطى ، هذا كله فضلاً عما يصوره من سذاجة مطلقة أتصفت بها عصور الإيمان . ذلك أن كتابه جاء مليئاً بالخرافات والمعجزات والكرامات المقلسة . وكان العنصر الذى أدى إلى وجود وحدة فى كتاب جريجورى من أوله إلى آخره ، هو تأكيد أهمية الكنيسة بوصفها المحور الرئيسى الذى دارت حوله الحياة فى غاليا على عصر الفرنجة .

على أن كتاب جريجورى لم يكن سرداً تاريخياً مباشراً دون حيدٍ عن القصد ، وإنما كان مليئاً بالاستطرادات والحكايات والفكاهات ، فضلاً عن المواعظ . واستخدم جريجورى الحوار ليضفى قدراً من التشويق على ما يسرده . ومع ذلك فقد اتصف كل ركنٍ من كتابه بالإخلاص والأمانة ووحدة الفكر . ولا يسم القارئ المنصف الذى لا يؤمن بالمعجزات الدينية والخوارق وما شابهها - سوى أن يعترف بأن جريجورى كان يسعى دائماً ليقول الحق . هذا إلى أنه كان حريصاً على أن يطلع القارئ على المصادر الأساسية التى استقى منها معلوماته . وربما

كان أقوى ما أمتاز به كمؤرخ قدرته على علاج الشخصيات ، حيث تبدو براعته السيكولوجية ، فضلاً عن قدرته الأدبية ، مما يجعله نداً لتاكيوتوس . وخلاصة القول ، فإن جريجورى أمد القارئ الحديث بأحسن الكتب التاريخية عن فترة الانتقال من الثقافة الرومانية إلى ثقافة العصور الوسطى ، ويمكن أحد أسباب نجاحه في ذلك ، في أنه نفسه كان صورة حية مكتملة لتلك الفترة الانتقالية . وكان أن اختصر كتاب جريجورى وأكمل حتى ٧٦٨ ميلادية في حولية فردجاريوس *Fredegarius* المزيفة ، وهي الحولية التي قام بها ثلاثة مؤلفين أحدهم برجندى والثاني من استريا والثالث فرنجي . وغير فصول هذه الحولية هي التي تغطي السنوات ما بين ٦٣١ ، ٦٤٢ والسنوات ما بين ٧٤٢ - ٧٦٨ . ومع أن مادة هذه الحولية تتصف بعدم التنسيق ، إلا أنها المصدر الوحيد عن تاريخ الفرنجة خلال تلك الفترة ، ومنه نبث فكرة الأصل الطروادي للفرنجة .

أما عن ايزدور الاشيلي ، فمع كونه أكثر تعلماً من جريجورى إلا أن كتابه عن تاريخ القوط الغربيين والوندال والسويبي ، لا يمكن أن يرقى إلى درجة المقارنة بكتاب جريجورى « تاريخ الفرنجة » . ذلك أن كتاب ايزدور مختصر ، ومادته غير أصلية وإنما مستقاة من كتابات مؤرخين ومعلقين سابقين . وقد ظهر خيال ايزدور الواسع في تاريخه ، مثلما ظهر في بقية إنتاجه الأدبي .

ويكاد يكون هناك إجماع عام على أن أفضل الكتب التاريخية التي ظهرت خلال تلك الفترة الانتقالية هو كتاب بيدى *Bede* وعنوانه « التاريخ الكنسي للشعب الانجليزي » . ويزودنا هذا الكتاب بأدق قصة يمكن الاعتماد عليها حول تاريخ وانتصار المسيحية في إنجلترا ، وانتشار الثقافة الانجلو ساكسونية في تلك الجزيرة . ويبدأ بيدى كتابه بمقدمة تاريخية عامة غير مبتكرة وسطحية . ثم ينتقل بعدها إلى دراسة جادة تبدأ بوصول القديس أوغسطين إلى إنجلترا سنة ٥٩٧ ، وهو الراهب الذي يرجع إليه الفضل في التبشير بالديانة المسيحية في إنجلترا . ويواصل بيدى تاريخه حتى سنة ٧٣١ م ، وهي نفس السنة التي أتم فيها كتابه . واعتمد بيدى على البحث الدقيق ، فقرأ معظم المصادر الهامة المكتوبة واستشار عديداً من زعماء الكنيسة . وكان أميناً ومخلصاً في كلامه عن طبيعة المصادر التي رجع إليها ، ومدى إمكان الاعتماد عليها . وبينما سرد الكثير عن الخوارق والمعجزات ، إلا أنه أبدى تحفظاً أكثر من جريجورى المحتوى في تقبله لها كحقائق تاريخية يمكن الاعتماد على صحتها . وإذا كان بيدى قد استهدف أساساً من كتابه إعطاء القارئ صورة لانتصار المسيحية وتنظيم الكنيسة الإنجليزية ، فإنه بالإضافة إلى ذلك عالج الأحداث السياسية التي أثرت في انتشار المسيحية . أو في التنظيم الكنسي في إنجلترا .

ونتج عن ذلك أن كتاب ييدى لم يعدنا بسجل المسيحية الإنجليزية في عهدها الأول فحسب ، بل أمدنا كذلك برواية معتدلة عن التداخل الذى تم بين الحضارة الأنجلو ساكسونية وبين عناصر الحضارة الوطنية فى إنجلترا ، فضلاً عن نشأة المجتمع الأنجلو ساكسونى . ولكتاب ييدى أهمية فى ميدان السير والتراجم ، إذ أنه ضمن كتابه تراجم الكثيرين من القديسين ورجال الكنيسة الإنجليزية . وأختتم ييدى كتاب موجز للتاريخ الإنجليزي ، من أيام يوليوس قيصر حتى سنة ٧٣١ م مرتباً ترتيباً زمنياً .

ثم إن « ييدى » لم يكن مجرد سارد يجتهد للأحداث فحسب ، وإنما جاهد وتحمل كثيراً من المعتاء من أجل رسم إطار محدد لتاريخه . ونجح فى إقامة بناء متكامل محكم التنظيم لما أورده من معلومات . ثم إن كتابه انصف بالوحدة والأثران ، فضلاً عن أسلوبه اللاتينى الذى جمع بين السهولة والحيوية . والحق أن ييدى كان من خيرة علماء عصره فى غرب أوروبا الملمين بالدراسات الكلاسيكية . وإذا كان « ييدى » لم يصل إلى مستوى جريجورى التورى فى طلاوة الأسلوب وتميق العبارات ، فإنه قد فاقه فى التزامه الفكرى ، فضلاً عن أن كتاباته التاريخية يمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر من كتابات جريجورى التورى . وهكذا يبدو الاختلاف بينها شبيهاً بالاختلاف بين هيروdot وThucydides . وقد تأثرت كثير من كتب التاريخ التى دونت بعد ذلك فى العصور الوسطى تأثراً كبيراً بكتاب « ييدى » « تقيم العصور » وهو الكتاب الذى قسم فيه تاريخ العالم إلى ستة عصور تبدأ بخلق الكون ، وتستمر حتى سنة ٧٢٩ ق . م .

وقام الراهب اللباردى بولس وارنفريدوس Panles Warnerfridus (حوالى ٧٣٠ - ٨٠٠) وهو المعروف عادة بأسم بولس الشماس ، بوصف ظهور اللبارديين على مسرح التاريخ الأوربي . وكان بولس هذا رجلاً من رجال الكنيسة الذين أوتوا حظاً طيباً من العلم والثقافة . فقام برحلات واسعة النطاق فى شمال ايطاليا وغاليا ، بصحبة المشولين من رجال الدولة والكنيسة . وقد كتب كتابه عن « تاريخ اللبارديين » فى أواخر سنى حياته ، عندما كان مقيماً بدير مونت كاسينو الشهير . ولم يقدر له أن يعيش حتى يكمل كتابه الذى عالج فى ستة أجزاء تاريخ اللبارديين منذ نشأتهم التى تحيط بها الأساطير حتى سنة ٧٤٤ . واعتمد بولس على عدة مصادر منها ، « أصول شعب اللانجو بارديين »^(١) لبلينى . كما رجع إلى الكتابات التاريخية لسكوندسى الترنقى ، وجريجورى التورى ، ولما كتبه ايسيدور الاشيلي و « ييدى » ، فضلاً عن تراجم رجال الكنيسة وكتابات جريجورى العظيم . هذا كله بالإضافة إلى المصادر التى حصل عليها من أسفاره ، والمجالات الشفاهية ، وما تواتر لدى الناس مما له

(١) اللانجو بارديون هو الاسم الاصلى الصحيح للشعب اللباردى ، وكانوا يسكنون فى أول الامر فى شمال المانيا غرب نهر الآلب (المراجع) .

ارتباط بأصل تاريخي . ولم يتمتع بمقدرة قوية في ترتيب أو تنظيم هذا الحشد من المادة التي استقاها من المصادر ، فضلاً عن عدم محاولته نقد الأساطير اللومباردية الأولى . ولكن يبدو أنه كان من الناحية الفكرية أميناً ومخلصاً ، بحيث يمكن الاعتماد نسبياً على ما كتبه عن تاريخ اللومبارديين في عصرهم الأخير . بل إن الأساطير التي أوردها عن العصور الأولى تعكس روح وثقافة هذه العصور .

ولقد كان كما كتب عنه الدكتور بالزاني Balzani : « وان كتاب بولس « تاريخ اللومبارديين » في علاجه للأحداث الحقيقية جذير بان يحظى بقدر كبير من الاعتبار والتقدير نظراً لما أتى به من شواهد وأدلة وبراهين لها أهميتها ، بينما نشعر من ناحية أخرى أنه في تناوله للأساطير يسلك نفس مسلك اللومبارديين ، شأنه في هذه الناحية شأن والتر سكوت ، عندما كتب بقلمه العجيب تاريخ اسكتلندا الأول كتابةً فاقت ما فعله أي مؤرخ آخر^(١) .

لكن هناك نقطة ضعف رئيسية في كتاب بولس ، هي عدم عنايته بعملية الترتيب الزمني ، مما أدى إلى خلط كبير في روايته . ومع ذلك فإنه دون كتابه بأسلوب واضح وغير مفتعل وامتازت بعض فقراته بطابع تمثيلي واضح ، مما جعل لهذا الكتاب شهرته التي أدت إلى انتشاره . ويزيد من قيمة هذا الكتاب أنه حفظ لنا عدة أسماء لمصادر ضاعت ولا نعلمها على وجود .

أما أول رجل علماني ألف كتاباً تاريخياً هاماً في العصور الوسطى ، فهو نيثارد Nithard (٧٩٥ - ٨٤٣ م) الذي تلقى قسطاً طيباً من التعليم ، في وقت كاد التعليم فيه يكون مقصوراً على رجال الدين . والحق إنه يعتبر أقدر مؤرخ ظهر في أواخر العصر الكارولنجي . أما من ناحية الأصل ، فقد كان حفيداً غير شرعي لشارلمان ، أنجبه أحد مقدمي الأديرة العلمانيين من إحدى بنات شارلمان . ومما يكتن من أمر ، فقد كتب مؤلفاً أسماه « أربعة كتب في التاريخ » عالج فيها الحروب الأهلية بين أحفاد شارلمان . وغطى الفترة فيما بين لويس الثاني حتى ٨٤٣ ، وتناول بوجه خاص تفصيلات الأحداث فيما بين سنة ٨٣٨ ، ٨٤٣ ميلادية . ويزيد من أهمية ما كتبه نيثارد أنه كان شاهد عيان لمعظم ما وصفه من أحداث ، فضلاً عن أنه أجاد استخدام كل ما رجع اليه من مصادر مخطوطة . واتصفت كتابته بالوضوح ، والاستقامة ، وسهولة الأسلوب ، وبعده عن التلاعب البلاغي . ثم إنه في كتابه لم يستسلم للاستطراد أو الحيرة عن الهدف الذي يتوخاه بقصد الاستشارة . ومع ذلك فإن كتابه

(١) Ugo Balzani: Early chroniclers of Europe: Italy (London 1983), p. 90.

يحظى بأهمية خاصة في تاريخ اللغة ، حيث إنه مصدرنا الوحيد عن قسم ستراسبورج^(١) . ومع أن نشارد يبدو متحيزاً لشارل الأصلع بقدر ما كان قاسياً في نقد لوثر الثاني ، إلا أن كتاباته التاريخية حظيت باستحسان المتخصصين من الباحثين الناقدين في أيامنا هذه . بل إن أحكامه القاسية على لوثر أصبحت أمراً مقبولاً الآن بوجه عام .

أما اينهارد ، الذي عاش تقريباً بين سني ٧٧٠ ، ٨٤٠ فكان خير كاتب للتراجم في عصره ، بحيث لم يدانيه أحد في مهارته . ويعتبر كتابه «حياة شارلمان» من أحسن التراجم التاريخية الشهيرة في العصور الوسطى بأسرها . والمعروف أن اينهارد كان له مركزه ومكانته المرموقة في المجتمع ، إذ كان صديقاً لشارلمان وأحد المسؤولين في عهده ومقرباً على أحد الأديرة . وبذلك توافرت له من طول معاشرة شارلمان ولخليفته من بعده فرصة لم تتح لغيره ليجمع في سهولة المعلومات الجديدة التي بنى منها ترجمته لحياة شارلمان . هذا إلى أنه جمع بين تلك الفرصة التي أتاحت له ، وقوة الملاحظة الشخصية من ناحية ، وبين ارتفاع مستوى تعليمه بالنسبة لتلك العصور من ناحية أخرى . فدرس الدراسات وتلقى خير صورة من التعليم كان من الممكن أن يتلقاها شخص معاصر ، وذلك في مدرسة دير فولدا ، ثم في مدرسة القصر التي زعمها «الكوين» . وقد حدا حدو سوتنسيوس في كتاباته ، خاصة في كتابه عن حياة أوغسطين . هذا فضلاً عما يبدو من أنه اطلع في مكتبة دير فولدا على كتابات عمالقة المؤرخين الرومان . ولاشك في أن مكتبة دير فولدا بالذات ، كانت غنية بالمخطوطات التاريخية . والحق أن كتاب اينهارد عن سيرة شارلمان ، جاء في أسلوب لاتيني منمق بعيد عن تلك اللاتينية السهلة التي استخدمها جريجوري التوري في كتابه «تاريخ الفرنجة» أو عن الأسلوب الفصيح الذي امتاز به كاسيدورس .

ومع أن كتاب اينهارد جاء من مختلف النواحي والجوانب وثيقة تاريخية هامة لا غنى عنها ، إلا أنه لا يخلو من عيوب يارزة . فإذا كان قد حدا حدو سوتنسيوس ، فإنه كان صورة مشوهة له ، لأنه في تصويره لشارلمان قلد سوتنسيوس تقليداً أعمى ، مما جعله يصور شارلمان في قالب أوغسطيني . هذا إلى أنه اتهم أتهما لا يخلو من سند بأنه تخطى أو تعمد إغفال ذكر بعض الحقائق التي لا تشرف سيده شارلمان ، وخاصة في الأدوار الأولى من حياته . وأخيراً فإنه مع اعترافنا بأهمية كتاب اينهارد ، إلا أن هذا الكتاب جاء في أساسه دعاية للدولة الكارولنجية . وقد لجأ اينهارد في محاولته لتأكيد أجداد العصر الكارولنجي ، إلى المبالغة في الخط من شأن العصر الميروفنجي وحكامه . وهناك بعض الظن اليوم بأن الميروفنجيين وبصفة خاصة ملوكهم

(١) يقصد بقسم ستراسبورج اليمين الذي اقسمه كل من شارل الأصلع ولويس الاملاك في مدينة ستراسبورج سنة ٨٤٢ بقصد التحالف ضد لوثر . (المراجع) .

الأواخر قد تعرضوا في التاريخ لسوء التقدير نتيجة للأحكام المستمدة من كتابات اينهارد عنهم . ومع هذا كله فإننا نستطيع أن نقول بوجه عام : إن المؤرخين شهدوا دائماً لاينهارد بأن ترجمته لشارلمان تعتبر عملاً فريداً ذا طابع أدبي ، وعرضاً تاريخياً للدور المبكر من أدوار العصور الوسطى .

وبعد ، فإننا نستطيع الآن أن نتناول الجانب الأقوى من الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ونعني بها الحوليات والمدونات التاريخية ، وقد بدأت جميعها بدايةً ساذجةً غير متقنة ، ثم تطورت ونمت حتى صارت تمثل الكتابة التاريخية المنظمة التي عرفتها العصور الوسطى .

الحوليات والمدونات التاريخية في العصور الوسطى

من أهم ما أتمت به ثقافة المراحل الأولى من العصور الوسطى ، هي ان طريقة « الحوليات » كانت الطريقة الشائعة في كتابة التاريخ خلال القرون الأولى التي أعقبت انهيار الثقافة الكلاسيكية . وهذه الطريقة - طريقة « الحوليات » كانت هي الطريقة المتبعة في مصر القديمة وبابل . وقد ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية في أوائل العصر الكارولنجي ، وليداً للدافع الديني فيما يتعلق بتحديد عيد الفصح تحديداً دقيقاً . ومن الواضح أن افتقار عامة رجال الدين يومئذ إلى المعرفة الدقيقة بعلم الفلك ، أو حساب الزمن ، جعل ذوي العلم منهم يوزعون على الرهبان والقساوسة جداول زمنية تحوى بياناً بموعد عيد الفصح لعدة سنوات تالية . وقد أدى الخوف من أن يخطأ القساوسة - بسبب قلة حظهم من العلم - في تحديد موعد هذا العيد مما يترتب عليه تغيير مواعيد الأعياد التالية ، إلى تقرير مواعيد ثابتة لعيد الفصح . ويبدو أن تنفيذ هذه الفكرة بدأ في نور ثميا بالانجلترا ، ومنها انتشرت في باقي انجلترا ، حتى حملها « الكوين » Alcuin معه وأتباعه من الرهبان إلى القارة الأوربية .

وثمة عادة شاعت في جميع البلاد عندئذ ، هي تدوين - في الهامش المقابل لكل سنة - الأحداث التي يعتبرها الكاتب مميزة لتاريخ الإقليم في تلك السنة . وكان أن أمر شارلمان رجال الأديرة في دولته أن يحتفظوا بحوليات منظمة ومرتبعة ، ولم تكن هذه الحوليات في ذلك الدور المبكر من العصور الوسطى - شحيحة المعلومات إلى حد كبير ، طالما أنها أشارت إلى بعض الأحداث البارزة التي وقعت خلال كل سنة . ولكن ربما أضعف من قيمة تلك الحوليات أن كتابها كثيراً ما حرصوا على تدوين بعض الخوارق غير الطبيعية ، فضلاً عن

الاهتمام الفائق بأحداث - هي في نظرهم ذات أهمية كبيرة - مثل نقل رفات قديس ، وكل هذه معلومات ذات قيمة ضئيلة للباحث الحديث المشتغل بالتاريخ ، اللهم سوى أنها تكشف النقاب عن المستوى الفكرى لمؤرخ العصور الوسطى ، وتعطينا فكرة عن ضعف الحاسة التاريخية عنده .

ولقد أوضح الأستاذ هاسكنس هذه الحقائق بعرض بعض الأحداث التى وردت فى السنوات الأولى من حولى سانت جول :

سنة ٧٠٩ م	شتاء قارس - وفاة دوق جوتفرد .
سنة ٧١٠ م	عام مجذب ونقص فى المحصول .
سنة ٧١٢ م	فيضان مرتفع .
سنة ٧١٤ م	وفاة «بين» ناظر القصر .
سنة ٧١٨ م	أنزل شارل مارتل خراب كبيراً بإقليم سكسونيا .
سنة ٧٢٠ م	حارب شارل السكسون .
سنة ٧٢١ م	طرد ثيو «السكسون» من إقليم اكويتين .
سنة ٧٢٤ م	وفرة فى المحاصيل .
سنة ٧٢٥ م	فى هذه السنة كان مجيئ المسلمين لأول مرة .
سنة ٧٣١ م	مات «بدي» شيخ الكنيسة المبارك .
سنة ٧٣٢ م	فى يوم السبت حارب شارل المسلمين عند بواتيه .

ومن هذا نجد - كما لاحظ الأستاذ هاسكنس - أن تلك الحولية أغفلت ذكر موقعة «نور» فى أحداث سنة ٧٣٢ م ، علماً بأنها إحدى المواقع الفاصلة فى تاريخ العالم . ومما يكتن من أمر ، فإنه مع مرور الوقت نمت هذه التسجيلات واتسع أفق كاتب الحولية ، حتى غدت الحوليات سجلاً له قيمته عند معالجة تطور أمة من الأمم ، على نحو ما نجده فى حوليات «روجر أوف هوفندن» التى كتبها فى بداية القرن الثالث عشر وأسمها حوليات التاريخ الانجليزى *Annals of English History* . ثم ظهرت بعد ذلك حوليات مفصلة

قامت على أساس الحوليات الموجزة السابقة .

أما المدونات التاريخية فترتبط من ناحية النشأة والتطور ارتباطاً مباشراً بالحوليات . ذلك أن الحوليات كانت فى أساسها سجلات سنوية قام بكتابتها بعض المعاصرين . أما

المدونات التاريخية (chronicle) فهي تلخيص لأحداث تاريخية لفترة من الفترات ، يقوم على أساس حولية أو أكثر ، مع الاحتفاظ بالتنظيم والترتيب الزمني للأحداث ، على نحو ما هو متبع في الحوليات التي نقل عنها . وقد يكون بعض ما ورد في هذه المدونات التاريخية من أحداث قد وقع قبل عصر المؤرخ ، ومن ثم فإنه يجمع المادة الخاصة بها بالرجوع الى عديد من الحوليات ، حتى يحقق في كتابه سرداً متكاملأ شاملاً . ولكي يحول الكاتب هذه المجموعة من الحوليات إلى مدونات تاريخية ، كان يلجأ عادة إلى وضع مقدمة - مثل تلك التي وضعها جيروم حين ترجم مدونة ايزيبوس التاريخية - ويستهدف من هذه المقدمة أن تتضمن سرداً لأحداث العالم ، منذ نشأة الخليقة حتى يصل الى العصر الذي يدون أحداثه . وهناك تباين كبير بين المدونات التاريخية بعضها وبعض في العصور الوسطى ، وذلك من ناحية طبيعتها أو من ناحية التأليف ، فبعضها كان حكايات شخصية عن تجارب المؤلف الخاصة ، والبعض الآخر تناول تاريخ البيئة المحلية ، في حين أن بعضها كان سجلاً لدير من الأديرة ، والحياة فيه ، وما كان بينه وبين العالم الخارجى من علاقات واتصالات .

وهناك من المدونات التاريخية في العصور الوسطى ما أختص بعلاج تاريخ مدينة معينة وما تعرضت له من أحداث ، مثل تلك الحوليات الشهيرة عن لندن ، وفلورنسا ، وجنوا ، وكولونيا . هذا في حين اختص البعض الآخر بمحدث ضخم مثل الحروب الصليبية . على أن غالبية المدونات التاريخية المرموقة سمت إلى مستوى العناية بتاريخ إقليم أو بلد معينة ، بل لقد بلغت شجاعة بعض كتابها إلى التعرض للأحداث الدولية في أوروبا كلها .

وقد أبدى الأستاذ « تاوت »⁽¹⁾ عدة آراء قيمة عن طبيعة المدونات التاريخية في العصور الوسطى ، منها : أن الهدف الأساسى الذى استهدفته هذه المدونات لم يكن إظهار الأسلوب الأدبى فلم يكن هدفهم بصفة عامة إنتاج قطعة إنشائية أدبية ، وإنما كان ذلك الهدف تحقيق حاجة عملية ، وتزويد القارئ بالمعلومات ، أو إثبات قضية معينة .

والواقع أن كتاب المدونات التاريخية في العصور الوسطى لم يهتموا كثيراً بتاريخ الماضى القديم ، فعرضوا له في صورة تنفى وطبيعة مجتمعات العصور الوسطى واهتماماته ، بذلك كانت تعوزهم « الحاسة التاريخية » بل لقد بلغ بهم الأمر الى درجة عدم القدرة على إخراج دراسة دقيقة عن فترة من العصور الوسطى سابقة على عصرهم ، فضلاً عن عدم قدرتهم على التمييز بين أهمية مختلف المصادر التي استخدموها في كتابتهم . وهكذا صبروا كل غايتهم على العصر الذى عاشوا فيه وشاهدوا أحداثه بأعينهم ، فوصفوها وصف شاهد عيان ، وحتى في وصفهم

(1) T.F. Tout, The Study of Medieval chronicles (London, Green, Co. 1922)

لهذه الأحداث لم يحدوا أنفسهم عن الميول الشخصية والترعات الخاصة . ولما كان معظم هؤلاء المؤرخين من الرهبان ، فإن وجهة نظر الرهبانية وطبيعة انجاساتهم كانت هى السائدة . والواقع إن الميزة الكبرى فى هؤلاء الرهبان هى أنهم عاشوا حياة مستقرة آمنة سالمة ، وسط ظروف من شأنها أن تساعد على التأليف . ولم يهتم أولئك المؤرخين فى أول أمرهم اهتماماً كبيراً بعنوان كتبهم ، فكان يطلق على الكتاب اسم «حويات» أو «مدونات تاريخية» . ولكن لم يلبث أن ازداد الأهتمام فيما بعد بعنوان الكتاب ، وصار يرادى فيه نوع من التمييز ، ففى فترة من الفترات صار اسم «زهور التاريخ» هو الأسم المفضل ، وفى فترات أخرى كان اسم «الحويات العديدة» هو الأسم الشائع لهذا النوع من الكتب التاريخية .

ومع مرور الوقت اتسع نطاق الحويات فى مضمونها وتفصيلها وشكلها ، عن طريقة الإيضاحات والزيادات مما عكس صورته على كتب المدونات التاريخية لتصبح بدورها تاريخاً بالمعنى السليم . وهكذا حتى نجد أنفسنا أمام إنتاج تاريخى فى العصور الوسطى ، يعتبر يحتوى مصادر أصيلة نمدنا بالمعلومات التاريخية عن تلك العصور ، ومن أمثلة هذا الإنتاج مدونة الانجلو ساكنون التاريخية وما كتبه هرمان راهب دير ريختو Reicheneau (ت ١٠٥٤) ، والوقائع العالمية التى كتبها «اكهارد» بدير أوراخ Aurach فى أوائل القرن الثانى عشر ، والمدونة التاريخية التى كتبها «أوتو» راهب دير فريزنج (ت ١١٥٨) وأخيراً ، المدونة التاريخية الكبرى التى كتبها ماتيو باريس Mathew Paris (ت ١٢٥٩) .

ولما كان معظم المؤرخين المبرزين فى العصور الوسطى من كتابى الحويات أو المدونات التاريخية ، فإننا ستعرض مرة أخرى لهذا النوع من الكتابات التاريخية عندما نعالج أهم ما أنتجه عالقة المؤرخين فى العصور الوسطى . ولا يحول هذا دون أن نشير إشارة عابرة إلى بعض الحويات والمدونات التاريخية الهامة ، التى لا ترتبط ارتباطاً قوياً بأحد مؤرخى العصور الوسطى المبرزين . ولما كان التكوين التاريخى للحولية أبسط من تكوين المدونة التاريخية ، فإنه كان أمراً طبيعياً أن يأخذ الشاج التاريخى المبكر فى العصور الوسطى شكل الحويات . ولقد تناولت معظم هذه الحويات العصر الكارولنجى والفترة التالية له مباشرة . أما عصر شارلمان نفسه ، فقد عولج فى الحويات الكبرى التى تنسب إلى ديرلورخ Lorseh ، ثم جاءت تنمة هذا العصر حتى سنة ٨٢٩ فيما يعرف باسم الحويات الملكية . وأبرز الحويات التى تناولت الفترة منذ شارلمان حتى القرن العاشر هى حويات ديرفولدا الشهيرة ، وحويات ديرسانت برنتين . وقد غطت هذه الحويات الفترة فيما بين سنتى ٨٣٠ ، ٨٨٢ والتى كتبها بعض الكتاب أمثال : برودنتيوس ، وهنكار الذى ينسب إلى ريمس . وجاءت تنمة هذه الكتابات فى حويات سانت فاسيت ، التى تناولت قصة العالم منذ بدء الخليقة حتى سنة ٨٨٩ م ، أما

حوليات ميتر ؛ فقد تناولت احداث الفترة من ٨٨٣ حتى سنة ٩٠٣ ميلادية : ومن أهم الحوليات الضخمة التي ظهرت في أواخر العصور الوسطى حوليات كولونيا الكبرى ؛ والتي مضت بالأحداث حتى ١٢٣٧ م ، ثم حوليات جنوا الشهيرة . وقد تناولت الفترة من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٢٩٣ ميلادية .

أما عن بعض ما يمثل إنتاج العصور الوسطى في المدونات التاريخية ، فلدينا بالنسبة لـ *انجلتر* تلك المعروفة التاريخية الهامة المودنه باسم *الأنجلوساكسون* وهي من الكتب القليلة التي دونت باللغة الدارجة ، وتناولت الأحداث التاريخية حتى ١١٥٤ ميلادية ، وإن كانت أهميتها تناقص عندما نتعرض للفترة التي أعقبت الغزو النورمانى لـ *انجلتر* . هذا بالإضافة إلى مدونه *فلورنس* التي تنسب إلى *وركستر Worcester* ، والتي لها أهميتها فيما يتعلق بالفترة التي تبدأ بالغزو النورمانى حتى حكم إدوارد الأول . وثمة مدونه اسمها أعمال « *استفن* » كتبها أحد رجال الكنيسة وتعالج الملك *ستفن* . أما عن مدونه سانت البان التاريخية ؛ فهي على جانب كبير من الأهمية وتعالج الأحداث : بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٤٢٢ م .

وإذا ما انتقلنا إلى فرنسا وجدنا أنفسنا أمام عديد من المدونات التاريخية الهامة ؛ وقد تناولت الأحداث التاريخية حتى ١٠٤٩ م ، ومدونه سانت دينيس الشهيرة ، التي دونت في *الدبر العظيم* الذي يحمل نفس الاسم بالقرب من باريس ، وتناولت الفترة من ١٢٥٠ حتى ١٣٨٠ م .

أما عن المدونات التاريخية في العصور الوسطى في كل من ألمانيا وإيطاليا ؛ فعظمها كتبه بعض كبار مؤرخي تلك العصور ، ممن ستعرض لهم بالحديث بعد قليل . والواقع ان المدونات التاريخية في أواخر العصور الوسطى صارت بشكل مألوف إما مدنية ؛ أي تتكلم عن الاحداث التي تدور حول مدينة ذاتها ، أو وطنية قومية . ومثال ذلك المدونة التاريخية *Chronicle of London* التي كتبت بالفرنسية عن لندن ، والتي تناولت الفترة ما بين السنة الرابعة والأربعين من حكم هنري الثالث حتى السنة السابعة عشر من حكم إدوارد الثالث . وثمة مدونة أخرى كتبت بالإنجليزية ، وحذت حذو المدونة السابقة ، وقد جمعت مادتها في عهد الملك هنري السادس ، وتناولت الأحداث من عهد هذا الملك حتى عهد إدوارد الرابع . هذا فضلاً عن مدونة *فلورنسا* ، وهي مدونة قيمة تنسب إلى *دينوكامباني Dino Capagni* (١٢٦٠ - ١٣٢٣ م) . أما عن باقي المدونات التاريخية العظمى التي ترجع إلى العصور الوسطى ؛ فإننا سنشير إليها عند حديثنا عن المؤرخين البارزين في تلك العصور

وقد فرقت بعض المؤلفات عن علم كتابة التاريخ في العصور الوسطى مثل كتاب العلامة البارز ريجنالد لين بول Reginald Lane Poole - بين كتب المدونات التاريخية في العصور الوسطى وبين كتب التاريخ بمعناها المعروف ، وبنوا هذه التفرقة على أساس جودة ما تحتويه من مادة . فإذا كان الأثر التاريخي الذي يرجع إلى العصور الوسطى مجدياً وصعباً فهو من المدونات التاريخية ، أما إذا كان سلس الأسلوب ومسلماً ، وتصف أحكامه بالتراحة والجدية ، فهو في هذه الحالة تاريخ . وفي ذلك يقول الاستاذ «بول» مقتفياً أثر كتاب العصور الوسطى وهو «جريتز» المنسوب إلى كانتربروري : «يتفق المؤرخ مع كاتب المدونة التاريخية في أن كلاهما يستهدف هدفاً واحداً ، ويستخدم نفس العناصر في بناء مادته . ولكن يبدو الخلاف بينهما في طريقة معالجة الموضوع ، وفي شكل الكتابة ، إذ يتبع المؤرخ أسلوباً واضحاً مهياً ، في حين يستخدم صاحب المدونة طريقة مبسطة موجزة . وبينما يستهدف المؤرخ سرد الحقائق كما حدثت فعلاً مستخدماً أسلوباً أدبياً ، وبذلك يدخل السرور على قلوب القراء بما يقدمه لهم من أوصاف شيقة للرجال والتقاليد ، إذ بكاتب المدونة يقصر مهمته على سرد السنين وذكر الشهور والأيام ، مكثفياً بالإشارة في إيجاز إلى أعمال الملوك والأمراء ، وتسجيل الأحداث والنذر والمعجزات»

ومع أن هذا القول قد يبدو طريفاً ، إلا أنه لا يمكن الأخذ به تماماً وخاصة فيما يتعلق بذروة العصور الوسطى . ذلك أنه قد يكون صحيحاً عند المقارنة بين كتب المدونات التاريخية في أوائل العصور الوسطى وفي أواخرها ، أو حين المقارنة بين مجرد جامع للمعلومات وبين كاتب يتمتع بحاسة فلسفة التاريخ . ولكنه من الصعب علينا عندما نجد قصة جافة أن نقول عنها : إنها من كتب المدونات التاريخية ، وعندما نجد قطعة أدبية ممتازة من التاريخ ترجع إلى العصور الوسطى نقول : إنها تاريخ وليست مدونة تاريخية وربما كان أقرب إلى الصواب أن نقول : إننا نلمس الكتابة التاريخية الحقة في العصور الوسطى عندما يخرج الكاتب عن طريقة الحوليات واتباع نظام السنوات في سرد الأحداث ، إلى حيث ينظم مادته العلمية تنظيمًا موضوعياً وفقاً لوحدة الموضوع ، أو لعهود الملوك والحكام . ولم يكن ذلك قبل نهاية العصور الوسطى عندما ظهرت الطريقة الموضوعية في كتابة التاريخ في صورة منظمة ، وكان ذلك في حالات نادرة مثل كتابات ميكافيللي . أما الكتابات التاريخية التي ظهرت في العصور الوسطى ، والتي قامت على أساس عهود الملوك والحكام ، فليس لها إلا القليل من الروح التاريخية ، حيث إنه قام بها النسايون .

وهكذا يبدو لنا أن معظم المؤرخين في العصور الوسطى كانوا بصفة أساسية من كتاب المدونات التاريخية الذين اتبعوا طريقة السنين في تنظيم عرض الأحداث ، ولم يستطع الخروج

عن هذه الطريقة سوى عدد قليل مثل ؛ روجر التسوب إلى هوفدن Hoveden ،
وما توبو بارير ، وفيها ردوان ، ولامبرت التسوب إلى تير هرسفلد ، وألخارد التسوب إلى
أوراخ ، وأوتو التسوب إلى فريزنج Otto of Freising . وحتى هؤلاء الكتاب كانوا أساساً
إخبارين من كتاب المدونات التاريخية ، مع شئ من لتساع الأفق وشمول وجهة النظر مما
ميزهم عن معاصريهم . ولذا فإن معظم كتاباتهم قامت على أساس علاج الأحداث سنة بعد
أخرى .

بعض زعماء المؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى

تبدأ كتابة التاريخ في إنجلترا العصور الوسطى بكتاب تعلقه نسخة من الكآبة ، كتبها الراهب الصريح جيلداس Gildas (٥١٦ - ٥٧٠ تقريباً) والمعروف باسم «شكوى بصدد تخريب بريطانيا» وقد كتب هذا الكتاب بلغة قوية ، على الرغم من أن أسلوبه اللاتيني كان يمثل نوعاً عتيقاً بالياً من بلاغة شيشرون . ويتعرض الكتاب للمزق وانهار الثقافة الإنجليزية نتيجة للغزو الأنجلوسكسوني لذا يعتبر هذا الكتاب المصدر الوحيد الدائم الذي يمدنا بمعلومات عن تلك الفترة . وتوضح نظرة جيلداس وتقديره للأمور من وصفه لتزول السكون على أرض إنجلترا ، إذ يقول : ثم تدفق من عرين اللبوة المتوحشة أشبال كثيرون في ثلاثة صنادل كما يسمونها في لغتهم ، أو ثلاث سفن طويلة كما نسميها نحن في لغتنا ، وقد نشرت أشرعها على سطح الماء ، يصحبون منهم ما يتفائلون به ، والنبوءات التي بشرتهم بأنهم سيحتلون الأرض التي اعتادوا أن يترددوا عليها عن طريق البحر طوال ثلثائة عام ، وأنهم سيقضون فيها نصف هذه المدة ، أي مائة وخمسين عاماً ، ينهبونها ويدمرونها ويسلبون خيراتها»^(١)

ومع أنه لا يمكن الاعتماد على التفاصيل التي ذكرها جيلداس في قصته ، إلا أن معظم المشتغلين بالدارسات التاريخية اليوم يتقبلون الصورة العامة التي رسمها لحالة الاضطراب والفوضى التي صاحبت الفرد التوتوني لإنجلترا ، ولو أنهم يرفضون الأخذ بما قاله جيلداس ؛ من أن ذلك الفرد ترتب عليه تدمير الثقافة التي كانت سائدة بإنجلترا قبل الغزو الأنجلوسكسوني تدميراً شاملاً .

ويتمثل المصدر الرئيسي للفترة التي تلت تلك التي تناوفا جيلداس ، في تاريخ «بيدي» Bede الذي سبق أن ناقشناه آنفاً . هذا في حين تغطي مدونة الأنجلوساكسون التاريخ ببقية العصر الأنجلو ساكسوني في إنجلترا .

(1) Janes Gairdner, Early chronicles of Europe, England (London 1883) p. 6.

أما تاريخ الكنيسة الانجليزية من عهد إدجار إلى هنري الأول ، بما في ذلك العلاقة بين الدولة والكنيسة ، فقد عالجه راهب من كاتريوري عاش بين سنتي ١٠٦٠ ، ١١٢٤ م تقريباً ، اسمه (ايدمر) وسمى كتابه «تاريخ زمانه» . وهذا الكتاب الذي يقع في ستة مجلدات يعتبر مصدراً لا غنى عنه للموضوع وللعصر الذي تناوله . ويتصف أسلوبه بالرفق والوضوح ، وإن كان قد تحامل على ولیم الثاني عندما عالج علاقته مع الكنيسة . وثمة كتاب آخر يعتبر إضافة هامة لتاريخ الكنيسة في إنجلترا ، ونعني به كتاب «تاريخ كنيسة درهام» الذي ألفه سيمون أسقف درهام (ت ١١١٩ م) . وقد كتب درهام كتاباً آخر أسماه «تاريخ الملوك» تناول فيه تاريخ نورثمبريا من سنة ٧٣١ م وهي بداية السنة التي توقف عندها المؤرخ «بيدي» . وإذا كان هذا الكتاب تجميعاً لما جاء به المؤرخون السابقون ، فإنه مع ذلك يحوي كثيراً من المعلومات القيمة .

على أنه ربما كان أقدر المؤرخين الانجليز الذين يمكن الاعتماد على كتابتهم في العصور الوسطى هو ولیم راهب دير مالمسبري ، الذي عاش بين سنتي ١٠٩٦ ، ١١٤٣ م تقريباً ، وكتب كتاباً كبيراً أسماه «أعمال الملوك الانجليز» عالج فيه الأحداث التي بدأت بالغزو السكسوني لانجلترا حتى سنة ١١٢٨ م ، ثم أكمله بكتاب آخر أسماه «التاريخ الحديث» تناول فيه الأحداث التاريخية حتى سنة ١١٤٢ م . ولما كان ولیم ينحدر من أصل نصفه انجليزي ونصفه نورماني ، فإنه استطاع أن يحتفظ بقدر كبير من التوازن عند علاجه للعصر السابق للغزو النورماني والعصر التالي له ، وهو ما جعله يزهو بنفسه . والواقع إنه قل أن نجد بين مؤرخي العصور الوسطى من يداني «ولیم» في وعيه عند استعانةه بمختلف المصادر التي أمكنه الرجوع إليها ، إذ يبدو أنه لم يترك مصدراً بارزاً أمكنه الرجوع إليه الا ورجع اليه قبل أن يكتب كتابه . ومع ذلك فإنه لم يكن مجرد جامع مادة بطريقة جافة ، فلقد أحسن تنظيم كتابه ، وتوفر لديه من رقي الذوق ورقة الحس ما جعله ينجح في تصوير الشخصيات تصويراً طيباً وافر الدقة . وإذا كانت أحكامه التاريخية تتم عن نبصر وذكاء غير عاديين ، فإنه أظهر مقدرة كبيرة في تتبع تطور نظم الحكم . هذا فضلاً عن أنه أسهم بصورة جدية في خدمة تاريخ إنجلترا الكنسي ، بأن ألف «قصة الكنيسة الانجليزية» وهو الكتاب الذي استعرض تاريخ إنجلترا الأسقف والديري حتى سنة ١١٢٥ م ، محاكياً في غير دقة تاريخ «بيدي» .

وهناك مؤرخ عاصر ولیم وأبرز قدرة على النقد واستقلال الرأي ، هو هنري هانتينجدون («Henry of Huntingdon») الذي عاش ، بين سنتي ١٠٨٤ ، ١١٥٧ م تقريباً . وعالج في كتابه «التاريخ الانجليزي» تاريخ إنجلترا حتى تنويع

هنرى الثانى سنة ١١٥٤ . وقد أحب هنرى مهته كمؤرخ ، وآمن بأنها مهنة ذات فوائد عملية فكتب يقول : « ليس هناك فى هذا العالم ما هو أعظم متعة من العمل على استقصاء شئون العالم فى دقة . إن التاريخ يجعلنا ننظر إلى الماضى وكأنه فى الحاضر ، ويساعدنا فى الحكم على المستقبل بتصويرنا للماضى أمام أعيننا »^(١) . ثم أن هنرى تحققت له المقدرة على نقد وموازنة كل الأساطير والمعجزات التى تنسب الى القوى الغير طبيعية ، مع الجرأة على إبداء التشكك فيها ، مما لم يتوافر لأى مؤرخ آخر فى عصره ، وذلك كله بالاضافة إلى كونه (مؤرخاً دقيقاً ومتراً ممتع الأسلوب . وقد شهد عصر هنرى الثانى مولد أول كتاب باللغة العامية الدارجة فى ذلك الحين ، وهو الكتاب الذى كتبه « ما سترويز » المنسوب الى جيرس

Master Wace of Jersey وقد كتبه نظاماً ، أشبه بسائر الكتابات الوطنية التى كتبت باللغة الدارجة عندئذ . ويفوق هذا الكتاب فى أهميته بكثير ما كتبه بعد ذلك عن تاريخ إنجلترا حتى سنة ١٢٧٠ روبرت المنسوب الى جلوكستر ، وهو كتاب كتب باللغة المحلية الدارجة . ويعتبر مصدراً هاماً عن تاريخ إنجلترا ما بين سنتي ١٢٥٦ ، ١٢٧٠ م ، فضلاً عن أهميته بالنسبة لفقه اللغة الانجليزية .

ثم نأتى على ذكر كتابي جريس المنسوب الى كافنبري ، فى أواخر القرن الثانى عشر تقريباً وهما « المدونة التاريخية ، والمتجزات الملكية » . وقد أمدنا هذان الكتابان بمعلومات هامة عن الصراع بين الكنيسة والدولة ، كما أنهما من المصادر الأساسية عن الملوك النورمان الأواخر ، وقيام البيت الأنجوى (امرة بلانتاجت) فى حكم إنجلترا ، حتى عهد الملك حنا . وإذا كانت كتابته يتقصها جودة الأسلوب ، فإنها تدل على جهد كبير ونجيب حتى ، وتحتوى قدراً كبيراً من المادة التى يمكن الاعتماد عليها .

أما المؤرخ النورماندى الشهير اوردرىكوس فيتاليس (١٠٧٥ تقريباً - ١١٤٣) فكان راهباً ، ولد بإنجلترا ولكنه قضى معظم حياته فى نورمانديا . ومن ثم فإنه يعتبر مؤرخاً انجليزياً وفرنسياً فى آن واحد . ويعتبر كتابه « التاريخ الكنسى » تاريخاً مجملاً للعالم من وقت المسيح حتى أيامه ، وإن كان لم ينجح نجاحاً تفصيلياً إلا فى الفترة التى أعقبت الغزو النورماندى لإنجلترا . ويعالج المؤلف فى هذا الكتاب شئون النورمانديين ، لا فى نورماندى فعسب ، بل فى إيطاليا وصقلية أيضاً . هذا الى أنه ضمن كتابه كثيراً من الجوانب السياسية ، على نحو أكثر مما فعل « بيدى » فى كتاباته . على أن هناك مأخذ عديدة تؤخذ على أوردرىكوس فى كتابته ، منها ، أنه لم يوفق فى رسم خطة عامة محكمة لكتابه ، مثلاً فعل « بيدى » . ثم إن عمله جاء غير متناسق ، يتقل من نقطة الى أخرى دون تخطيط أو نظام ، الأمر الذى أوقعه فى التكرار والتناقض . هذا الى أنه لم يهتم بمراعاة الترتيب الزمنى ، مما أوقعه فى أخطاء تسبب للقارئ ارتباطاً كبيراً . أما أسلوبه فى الكتابة فيغلب عليه التعقيد والتخلف . ومع كل ذلك فإنه يحتل مكانة هامة

كمؤرخ ، بسبب بعد نظره واتساع أفقه ، وتعرضه لعديد من الجوانب في بحثه .

وقد قال عنه الاستاذ شارل دافيد David : «إنه لا يوجد مؤرخ آخر معاصر يدانيه في اتجاهاته الإنسانية الكبيرة ، أو في حماسه لاستقصاء أدق تفاصيل الأمور . لقد اهتم بكل ما هو جديد وكل ما هو إنشائي سواء فيما يتعلق بالأمور المحلية الخاصة بالدير الذي عاش فيه ، أو فيما يتعلق بالأحداث البعيدة في إنجلترا وإيطاليا أو الشرق ، مربية كانت تلك الأحداث أو كنيسة أو دينية أو أدبية أو فنية . وقد أولى الشعوب اهتماما خاصا ، فرأى ونفذ إلى حياة كافة الطبقات ، بحيث لا يوجد كاتب آخر في عصره بلغ تلك الدرجة من الاختراق في تصوير الصبغة المحلية» (١) .

أما عن عصر ريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، فإن المؤرخ الانجليزي الرئيسي الذي نعتمد عليه في دراسة تلك الفترة ، هو ريتشارد المنسوب إلى مدينة ديفريز Richard of Devizes (حوالي ١١٩٠ م) . وقد عرف هذا المؤرخ بروح اللامبالاة وعدم الاكتراث . وجاء كتابه دقيقا ومتعمقا ، كما أنه نجح نجاحا بارعا في تصوير روح ذلك العصر ، وله أهمية خاصة في تصويره الانفعالات والأحاسيس التي صاحبت الاستعداد للغزوة الصليبية الثالثة ، وفي تصوير أحوال الدولة بعد أن تركها الملك ريتشارد متجها إلى الشرق على رأس حملته الصليبية . هذا وإن كان أسلوب ريتشارد جاء متكلفا بعض الشيء ، واختلط كلامه بالكثير من الاقتباسات عن الأقدمين ، وإذا كان ريتشارد قد غنى بوصف الأوضاع السياسية والحربية في عصره ، فإن الصورة التي رسمها أتمها كاتب انجليزي آخر هو جوسلين ، المنسوب إلى بريكلاند (حوالي ١٢٠٠) وهو الذي كتب سجلا لدير سانت ادموند سيوري . ويعتبر هذا السجل في حد ذاته دراسة فريدة للأحوال الاجتماعية والحياة الديرية في إنجلترا في القرن الثاني عشر . هذا إلى أنه مصدر قيم لا غنى عنه للوقوف على النظم الإدارية المتعلقة بالأديرة في العصور الوسطى . ثم إن جوسلين أثناء كتابته أثبت مهارة نادرة في كتابة سيرته والترجمة لنفسه ، وبذلك أعطانا صورة حية لأفكار وأعمال راهب مجد قدير .

وثمة مؤرخ آخر لا بدأينة أحد في إنجلترا في العصور الوسطى من ناحية قدرته على الخداع ، هو جوفري المنسوب إلى مونماوث (١٠٠ م - ١١٥٤ م تقريبا) ، أنه بلغ من خداعه أنه زور الحقائق الخاصة بأصل وطبيعة كتابه وتاريخ ملوك إنجلترا ، فادعى أنه ترجمه إلى اللاتينية عن أصل أنجلو سكوني قديم غير معروف ، يتناول تاريخ بريطانيا في أيامها الأولى - ومن أعماله القبيحة الذائعة الصيت ؛ الأسطورة التي زعمها عن الأصل الطروادي للشعب الإنجليزي . على أنه مما تكن القيمة التاريخية لكتابه نافهة ، فإن لهذا الكتاب أهمية من

(1) In Guilday, Church Historians pp. 121-22

ناحية تأثيره على أدب الفروسية والبطولة في إنجلترا . فن كتاباته بالذات اقتبست بعض القصص الشهيرة مثل : الملك لير ، والنبي الساحر مرلين ، فضلاً عن معظم القصص الخرافية عن الملك آرثر .

ولقد هاجم جيرالدوس كامبرنس Giraldu Cambransis (عاش ما بين سنتي ١١٤٦ - ١٢٢٠ م) جيوفري ، ووصفه بأنه كذاب أفاك ، ولكن جيرالدوس نفسه حشا كتابه عن غزو إيرلندا - وهو الكتاب الذي أسماه «التاريخ التنبؤي لغزو الجزيرة» - بكثير من المعجزات والأعمال الخارقة للطبيعة . وعلى الرغم من تعصبه لوطنه وخياله الواسع ، وسداجته ، فإن كتابه من خيرة الكتب في العصور الوسطى بالنسبة للموضع الذي تناوله ، فضلاً عن أنه كان أحد الموهوبين بلاغة الأسلوب بين كل المؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى ، فامتاز أسلوبه بالوضوح والبساطة والبلاغة ، مع قدرته الممتازة على تحليل الشخصيات والسلوك ، وهي خاصية ميزته على أقرانه من المؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى . وقد تضمنت كتابات جيرالدوس كثيراً من المعلومات عن السلوك والعادات والتقاليد والمشاهد العامة . هذا فضلاً عن اهتمامه بالجغرافيا التاريخية كما وضع ذلك فيما كتبه عن «طوبوغرافيه إيرلندا» وعن «دليل المسافر في ويلز»

وربما كان وليم راهب دير مونموث أقوى أثراً بوصفه ناقدًا ، جيوفري . وقد ولد وليم هذا حوالي ١١٣٥ ميلادية ، وتناول كتابه «تاريخ إنجلترا» الفترة من عهد الملك استيفن حتى نهاية حكم الملك هنري الثاني ، متخذاً «ييدي» نموذجاً يقتضى أثره في كتابة التاريخ . وهكذا أخرج وليم كتاباً بالدقة والوضوح والتشويق ، وامتاز بأحكام تدل على قوة الإدراك . ثم كان أن استطاع روجر المنسوب إلى هوفدن Roger of Hoveden (ت حوالي ١٢٠ م) أن يخطو بكتابته التاريخ خطوة واسعة عندما كتب «حوليات التاريخ الإنجليزي» ، وهو الكتاب الذي أكمل به تاريخ «ييدي» حتى أيامه . واستطاع روجر في هذا الكتاب أن يخرج عن المنهج الحولي في الكتاب ، وكان نجاحه في ذلك أكثر من أي مؤرخ آخر في عصره ، حيث أنه أخرج كتاباً جيد التنظيم ، وتناول بالتفصيل تاريخ حكم الملك هنري الثاني وريتشارد الأول وبداية عصر الملك حنا . وامتاز روجر بوفرة للمعرفة والاهتمام بالشئون الخارجية .

واستطاع عدد من رهبان دير سانت الباتز أن يخلدوا أسماءهم بوصفهم من أقدر المؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى . ومن هؤلاء نذكر روجر المنسوب إلى وندوفر Roger of Wendover (ت ١٢٣٦ م) وله كتاب . يختصر لكنه غزير المعلومات عن تاريخ العالم سماه «أزهار التاريخ» تناول أحداث التاريخ منذ بدء الخليقة حتى ١٢٣٥ م ، وعالج بصفة خاصة أحوال إنجلترا بعد الغزو النورماندي . ويعتبر هذا الكتاب من

أحسن المصادر عن حكم الملك حثا وهو يمتاز عموماً بطرحة الأسلوب ووضوحه وقوة التعبير واتزان الأحكام .

ومها يكن من أمر ، فهناك شبه إجماع على أن ماثيو باريس الذى عاش من ١٢٠٠ - ١٢٥٩ م تقريباً ، والذى أكمل كتاب روجر السابق الإشارة إليه ، هو أقدر المؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى . ذلك أن ماثيو استطاع بدرجة لا يدانيه فيها مؤرخ معاصر غيره - أن يحرر عقله من تأثير العقيدة الدينية والأساطير الخرافية ، مركزاً عنايته في تاريخه على التطور السياسى . ولد جاء كتابه المصدر السند الصحيح لكل ما هو خاص بتطور الأنظمة الدستورية الإنجليزية ؛ ما بين العهد الأعظم ونشأة البرلمان الإنجليزى . واحتوى كتابه كثيراً من الوثائق العامة ذات الأهمية الكبيرة . وثمة ميزة كبرى امتاز بها كتابه ؛ هو اهتمامه بإبراز أثر الأحوال والعلاقات الخارجية في التاريخ السياسى الداخلى لـ إنجلترا . والحق إن ماثيو يتصف في كتابته بالبساطة والاستقامة ، والقدرة على الاحتفاظ باستقلال الرأى ، وإصدار الأحكام القويمة حتى فيما يتعلق بتصرفات ملوك إنجلترا وسياساتهم . لذلك لا عجب إذا وصفه «توت» بأنه أكثر المؤرخين استقلالاً برأيه ، واعتداداً بنفسه ؛ في العصور الوسطى . وقد أكمل كتابه على يد أحد رهبان دير سانت الباتز ، فوصل بأحدثاته حتى وفاة هنرى الخامس . ومن بين الكتاب الذين أتموا عمل رهبان دير سانت الباتز أيضاً ؛ روبرت ويدنج الذى توفى سنة ١٣١٨ ، وهو أحد رهبان وستمنستر ، وأظهر ولاء واضحاً لايرل لانكستر .

ويعتبر توماس والسنجهام Thomas Walsingham آخر المؤرخين العظام الذين يتمون إلى دير سانت الباتز (جاء بعد ١٤٠٠ تقريباً) ذلك أن توماس راجع أعمال المؤرخين السابقين ، ومضى بالتاريخ في كتابه «التاريخ الإنجليزى» حتى وفاة هنرى الخامس (١٤٢٢ م) . ورغم معاداته للحركات الراديكالية فإن كتابه يعتبر خير مرجع عن حركة «ويكليف» و«وات تيلر» . هذا إلى أن كتابه له أهمية فيما يتعلق بتطور النظم الدستورية .

وهناك مصدر هام عن عهد الملك ادوارد الأول ؛ هو الكتاب الذى كتبه الراهب الدومينيكاني نيقولا تريفت ؛ الذى عاش بين سنتي ١٢٥٨ م ، ١٣٢٨ م تقريباً . وقد بلغ نيقولا مستوى لا بأس به في الدراسات القديمة ، وتعتبر روايته عن التاريخ الإنجليزى في هذه الفترة (عهد ادوارد الأول) دقيقة نسبياً واتصفت بصعوبة الأسلوب ، وضخامة الفكر . ولكتابته من خصائص الكتب التعليمية أكثر من معظم كتب ذلك العصر . وجاءت معالجته لتاريخ الشؤون الخارجية خلاصةً لكتاب المؤرخ الألماني «مارتن» المنسوب إلى تروباو .

ثم نأتى على ذكر المؤرخ الإنجليزى والتر همنبورج Walter Heminburgh المتوفى ١٣١٥ تقريباً ، الذى تناول في كتابه «تاريخ إنجلترا» الفترة ما بين الغزو النورمانى لها

وحكم الملك ادولف الثالث - ويعتبر هذا الكتاب أعظم مصادرها أهمية عن آل ادوارد الأوائل ، ويمكن الاعتماد على روايته ، كما أنه أسلوبه يتصف بالقوة والوضوح ؛ على الرغم من أنه تضمن كتابته عديداً من الوثائق والنصوص مثل ؛ العهود والمراسلات ، وبعض أوراق الدولة الرسمية . هذا إلى أن أحكامه عادلة وآرائه معتدلة غير متحيزة .

وعن حكم الملك ادوارد الثالث وحتى ١٣٥٦ م ، لدينا كتاب تاريخي هام كتبه روبرت المنسوب إلى أفريري Robert of Avesbury (حوالي ١٣٥٠) ، وهو أحد المؤرخين القلائل من غير رجال الدين في أوروبا في العصور الوسطى ، وكان الأمين على سجلات كانترييري . وأهتم روبرت في كتابه بالتاريخ الحربي ؛ خاصة الحروب مع فرنسا منذ ١٣٣٩ حتى ١٣٥٦ م ، والذي لم يعط قدر حصيل من العناية لشئون السياسة الداخلية ، أو التاريخ الدستوري ، أو تاريخ الكنيسة في إنجلترا . وكان يوصفه مؤرخاً لشئون الحرب رقيقاً شديد الرقة في بحثه ، وغير متحيز في أحكامه . ولكتبه أهمية خاصة ، نظراً لما تضمنه من عديد الوثائق الأصلية والمراسلات الهامة التي تضمنها .

ومن الروايات التاريخية المعاصرة ما كتبه رالف هيجدن (١٢٩٩ - ١٣٦٤ م تقريباً) وهو راهب عاش في عهد الملك ادوارد الثالث . وكتابه «التاريخ الشامل» Polychronicon محاولة لسرد تاريخ العالم في صورة موجزة ، وهو منقسم إلى سبعة مجلدات وفقاً للأيام السبعة التي خلق الله فيها الكون . كذلك تضمن كتابه معلومات مفصلة عن الجغرافيا التاريخية على نحو ما كانت معروفة في تلك الأيام . والحق إن هذا الكتاب - وعلى حد قول جردنر - ليس له مثل فيما احتواه من مادة ، وفي تكامله وفي الفائدة التي تعود منه ، ولا بدانيه إنتاج آخر مثله حاز الإعجاب على نطاق واسع . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب قليل القيمة كمصدر لتاريخ أي عهد من العهود هذا وإن كانت أهمية تكمن فيها يتضمنه من مفاهيم مبتكرة ، وما يعبر عنه مستوى ذلك العصر من معلومات جغرافية وعلمية ولغوية . وأخيراً ؛ فإن هناك توليفة لكتابة التاريخ في العصور الوسطى قام بها أحد الإنجليز وهو روبرت ثاينان (ت ١٥١٢ م) في كتابه «تطابق التواريخ» الذي يلم يعتمد في كتابته على كبرى المذونات التاريخية الإنجليزية فحسب ، بل أيضاً على ما كتبه أهم المؤرخين الفرنسيين في العصور الوسطى .

أبرز المؤرخين الفرنسيين في العصور الوسطى

يعتبر ريشر الذي عاش في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي أول المؤرخين أهمية في فرنسا العصور الوسطى . ذلك أنه تناول في كتابه المسمى تاريخ عصره *History His Own times* الفترة من ١٨٨٧ إلى ٩٩٨ م . وقسم ذلك الكتاب إلى أربعة أجزاء . وعلى الرغم مما يتصف به في بعض فقراته من إطناب غزل وأسلوب انشائي ، وتحيز في الأحكام ، إلا أنه بصرف النظر عن ذلك كله مصدر أمين يعطي صورة صادقة للعصر الذي يؤرخ له . والواقع ؛ إنه مصدر لاغنى عنه في دراسة عصر الإضمحلال للبيت الكارولنجي وظهور أسرة كاييه . وثمة مصدر آخر من كتب التاريخ أقل أهمية وسابقة هو كتاب راؤول جلابر (أورالف الأصلع *Ralph the Bald*) المتوفى حوالي ١٠٥٠ م . وقد تناول هذا الكتاب تاريخ الفترة ما بين عامي ٩٠٠ م ، ١٠٥٦ م . على أن هذا الكتاب يتصف بعدم الدقة ، فضلاً عن إكثاره من ذكر الخرافات والأساطير ، ومنه استقينا الخرافة التي شاعت في ذلك الحين ، والتي رددت بأن موجة من الرعب ستجتاح العالم المسيحي عند حلول السنة الألف بعد مولد المسيح .

ولم تلبث هذه الخرافة أن ترددت في كتب التاريخ عبر ما كتبه بارونيوس ، روبرتسون ، ميشليه . ومع ذلك فإن كتاب ألف له أهمية نظراً لندرة المادة التي كتبت عن ذلك العصر . وهناك كتابان آخران من الكتب التي صدرت في القرن الحادي عشر الميلادي ، ويعتمد عليها إلى حد بعيد في دراسة تاريخ ذلك العصر هما : كتاب أدعمار المنسوب إلى شابامنس *Adhemar of Chabanmes* ، وكتاب وليم المنسوب إلى بواتو ؛ وهو الكتاب المسمى باسم أعمال وليم الفاتح ، والآخر مصدر لاغنى عنه في دراسة تاريخ النورمان . أما سيجبرت المنسوب إلى جمبلو (عاش بين ١٠٣٠ - ١١١٢ م تقريباً) فقد ألف تاريخاً عاماً للعالم ؛ استخدمه على نطاق واسع من جاء بعده من الكتاب . كان سيجبرت راهباً في دير من أديرة بلجيكا وهو دير جمبلو . وتبدأ مدونته التاريخية التي أتم كتابتها حوالي ١١٠٦ م بيده الخليفة ، لكنه أخذ يميل إلى الإسهاب عندما وصل إلى أحداث ٣٨١ م ، ثم توقف بها

عند عام ١١٠١ ميلادية . ويلاحظ أنه اعتمد إلى حد كبير على ماسبق أن كتبه المؤرخ ماريانوس سكوتس . كما يلاحظ أن الأقسام الأولى من هذا الكتاب ليست لها قيمة من الناحية التاريخية ، وإن كانت فصوله الأخيرة ذات قيمة أكبر ، رغم عدم عنايته باستشارة المراجع في هذا الجزء^(١) . وهناك أكثر من تكملة لهذا الكتاب كتبها بعض الكتاب الذين ظهروا بعد ذلك ، كما استفاد منه بعض الكتاب بوصفه دليلاً زمنياً لأحداث التاريخ .

والحق ؛ إن هذا الكتاب الذي لخص تاريخ العالم كأن أكثر الكتب من نوعه شيوعاً في العصور الوسطى . وقد كتب روبرت المنسوب إلى تورجيني المتوفى سنة ١١٨٦ م . وكان مقدم مونت سانت مايكل ؛ ذيلاً لكتاب سيجبرت غطى فيه أحداث الفترة ، بين سنتي ١١٥٤ ، ١١٨٦ ميلادياً . ولهذا الكتاب أهمية سواء في الأحداث التاريخية التي عالجه ، أو في تاريخ الكتابة . وهو واحد من أهم المصادر عن حكم الملك هنري الثاني في إنجلترا . وثمة مؤرخ آخر قدير ؛ هو روبرت المنسوب إلى أوكسر Auxerre الذي عاش بين عامي ١١٥٦ م ١٢١٢ م . وقد سمي كتابه « تاريخ العالم » واستبقى معظم ما ذكره من أحداث حتى ١١٨١ م مما كتبه سيجبرت وآخرون . ورغم ذلك فإن هذا الكتاب له أهمية بالنسبة للفترة ما بين ١١٨١ ، ١٢١١ م بوصفه مصدراً اسامياً معاصراً . هذا فضلاً عن أهميته بوصفه مصدراً للمعرفة عن حياة فيليب أوغسطس والحروب الصليبية . ذلك أن روبرت كان قارئاً مثابراً تصف أحكامه بالاعتزان ، ولذا فإنه يعتبر من خبرة المؤرخين الفرنسيين في العصور الوسطى .

ومن المعروف أن الفرنسيين نهضوا بدون قيادي في الحروب الصليبية ، وأن هناك عدداً من المؤرخين الفرنسيين في العصور الوسطى إلى جانب روبرت السابق ذكره ؛ شاركوا بجهودهم في تزويدنا بمعلومات من ذلك العصر . ومن هؤلاء فولشييه Foulcher المنسوب إلى شارتر (١٠٥٨ م ١١٢٧ م) ، وقد كتب كتاباً عن تاريخ الحروب الصليبية أمرنا بكثير من التفاصيل عن المراكز الأولى التي أقامها الصليبيون في الشرق الأدنى ، وإن كانت كتابته تصف بالغرور والتعصب . وربما فاق هذا الكتاب في الشهرة ما كتبه جبرت المنسوب إلى توجنت (١٠٥٣ م ١١٢٤ م) ، واسم كتابه « ماحقه الحرب على أيدي الفرنسيين » Deeds of God through the French . وقد بنى هذا الكتاب

في أساسه على قصة نورمانديه ، ولذا نرى المؤلف يعاني صعوبةً بينةً في الكتابة ، بعد أن تنتهي القصة التي بنى عليها كتابه . ومع أن أسلوبه يتصف بالتكليف والتصنع ؛ إلا أنه مرجع قيم عن الحملة الصليبية الأولى . أما تاريخ الحملة الصليبية الثانية فنجد في كتاب « تاريخ حملة لويس السابع » الذي ألفه اودو المنسوب إلى ديبيل Odo of Deuil المتوفى

(١) يحظى سيجبرت بقدر أكبر من التقدير في نظر بعض الكتاب ، فيعتبره مولنير في كتابه مصادر التاريخ الفرنسي الجزء الثاني ص ١١٠ غير من كتب في تاريخ العالم في العصور الوسطى (المؤلف)

سنة ١١٦٢ م . وهذا الكتاب مختصر العبارة ، يتصف بالبلاغة عندما يصف بطولة المحاربين الصليبيين ، وهو كتاب مشوق لحيويته ، وخاصة عندما يصف القسطنطينيه وأهلها ، وإن كان هناك وصفه هذا يتم عن روح الكراهية والعداء . ولعل أحسن ما كتبه الفرنسيون عن الحروب الصليبية هو كتاب وليم الصوري ، الذي عاش من ١١٣٠ ١١٩٣ م . وكان وليم رئيس أساقفه مدينة صور ، وتناول كتابه تتابع الأحداث التي شهرتها الأرض المقدسة في فلسفة منذ ١٠٩٥ ١١٨٤ م . والملاحظ أنه جمع مادته بعناية ، واستقى معلوماته من أوسع نطاق ، فضلاً عن أنه كان دقيقاً فيما كتب وغير متطرف في تعصبه وتحيزه . وقد مضى عدد من المؤرخين الذين اعقبوا في تكملة ماتوقف عنده سرد الأحداث في هذا الكتاب .

أما كتاب «غزو القسطنطينية» الذي كتبه جوفري فيلهاردوان (١١٦٧ م - ١٢١٣ م) تقريباً فيعتبر من خبرة الانتاج التاريخي الذي قلسته العصور الوسطى . ولعله أول كتاب تاريخي هام في العصور الوسطى يكتب باللغة العامية المحلية الدارجة . وفيما يتصف المؤرخ بالتواضع عند حديثه عما قام به نفسه من أعمال ، إذا بالكتاب يتضمن دفاعاً عن سياسة فيلهاردون نفسه في الحملة الصليبية الرابعة . وما زال هذا الكتاب . خير مصور تعرف منه على روح الغزاة الصليبيين في تلك الحملة التي اعتبروها حرباً مقدسة . وقد كتب بأسلوب يجمع بين الموضوع والإيجاز ولكنه مليء بالحقائق ، يفيض بالإحساسات الشخصية والاعتبارات الإنسانية . ويقول عنه جوستاف ماسون : «إن نظرة عابرة إلى أسلوب فيلهاردون التثري ليقنع القارئ أنه لا يدانيه مؤلف فرنسي في العصور الوسطى في وضوح أسلوبه ، ودقة في اختيار مادته ، ومهارته في تصوير الشخصيات»^(١) أما عن فلسفته السياسية فكان فيلهاردون مدافعاً عن الفروسية والإقطاع .

أما أكبر الكتب التاريخية التي كتبت في فرنسا في العصور الوسطى ، فهو القسم التاريخي من الموسوعة الكبيرة للمساء «المرآة الكبرى» Speculum majus للراهب الدومنيكاني وفنان «المنسوبة إلى دير بوفيه Vin cent of Beauvais ولقد جاءت هذه الموسوعة في ٣١ كتاباً ، واشتملت على ٣٧٩٣ فصلاً ، وهي توازي بحجم الكتب الحديثة في أيامنا ، عشرين مجلداً . وتناولت هذه الموسوعة كل تاريخ البشر منذ بدء الخليقة حتى عهد القديس لويس (التاسع) ، وأختيرت مادتها من عدد كبير من الكتب التاريخية التي دونت في العصور الوسطى . وإذا كانت غير مبتكرة فإنها تجمع ما هر حاذق ، كما أنها خير ما كتب عن الصناعة في العصور الوسطى .

(1) Gustave Masson, Early chronichers of Europe: France (London 1883) p. 129

أما المؤرخ وليم المنسوب إلى نانجيس Guillaume de Nangis (ت حوالى ١٣٣٠ م) فإن كتابه تناول الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى حكم فيليب الجميل . وقد اعتمد في مقلعته التاريخية العامة التي وصل بها الى حوالى سنة ١٣٠٠ م على كل من كتابات المؤرخين ايزيوس ، جيروم ، وسيجيرت المنسوب الى جميلو وهذه المقلعة ليس لها أهمية خاصة . أما الجزء الذى يأتى بعد ذلك فهو مبتكر فى مادته . ويعتبر أحسن مالدينا عن الدور الأول من حكم فيليب . وقد مجد المؤلف النظام الملكى وسياسة الملك فيليب فى الحكم المركزى . وقد أكمل كتاب وليم بعد ذلك « حنا دى فينيت » المولود حوالى ١٣٠٨ ، وهو كاتب ممتاز باستقلال الرأى فى أحكامه وروحه الناقدة . ولم يكن مجرد كاتب حوليات ، بل كان مؤرخاً تجاوز أفق مادته . ذلك أنه انتقد فى صراحة الملكية والأمراء والاقطاعيين الذين اختصهم بقدر كبير من نقده . ومع أنه لم يكن ديموقراطياً ، فإنه كان يعتقد أنه ما دام الشعب يدفع ضرائب باهظة ، فمن حقه إذن أن ينعم بالعدالة والأمن .

ومن أخصب المؤرخين الفرنسيين إنتاجاً فى العصور الوسطى برنارد جاي الذى عاش بين سنتى ١٢٦١ - ١٣٣١ ، وكتب بوجه خاص عن محاكم التفتيش فى العصور الوسطى . ومن أبرز كتاباته كتاب « زهرة المدونات التاريخية » . ولهذا الكتاب أهمية كبيرة بالنسبة للعصر الذى دون فيه . وبالإضافة إلى ما كتبه عن محاكم التفتيش فإن له كتاباً مختصرة عن البابوات والباطرة وملوك فرنسا وأمراء تولوز .

أما أحسن المؤرخين وضوحاً فى أسلوبه بين المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى ، فهو المؤرخ الفرنسى حنا فرواسار Jean Froissart الذى عاش من ١٣٣٧ م الى ١٤١٠ م . وكان شاعراً ومؤرخاً ، وكتب كتاباً عن فرنسا وفلاندرز وإنجلترا واسكوتلندة واسبانيا ، تعتبر جميعها من الكتب الممتعة للقارى . ذلك أنه لم يقف عند حد تسجيل الأحداث التاريخية وفقاً للترتيب الزمنى ، وإنما كانت له مقدرة فى تجسيد المناظر المثيرة وتصوير الشخصيات ، وفى ذلك يقول ماسون : « لا يقارن بفرواسار هذا سوى شكسبير فى مجال طلاوة الأسلوب والقدرة على تصوير المجتمع ^(١) . ولقد أعاد كتابة كتابه ثلاث مرات وفى كل واحدة منها كانت تختلف عن الأخرى . فالنسخة الأولى تتصف بأنها أكثر حيوية ، كما أنه كان مناصراً للإنجليز ، فى حين نجده فى النسخة الأخيرة ينحز نحواً فلسفياً ، ويتحامل على الإنجليز . وقد اهتم بالمسيبات ونتائجها وأعطانا كثير عن السلوك والعادات والأنظمة السائدة فى تلك العصور على أن فرواسار لم يكن مؤرخاً قومياً ، وإنما أخذ يدافع عن الفروسية فى فترة انهيار الاقطاع . هذا الى أنه لم يكن بالدقة الكافية فى تمحيصه للحقائق ، مما أوقعه فى أخطاء كثيرة عند ذكره

(١) Masson op. cit, p. 176.

للتواريخ ، وهى أخطاء مريكة للقارئ . ومع ذلك فإن عمله خير المصادر المعاصرة للحرب المائة سنة ، كما يصور عصر الفروسية ومثلها فى صدق وأمانة .

ويختلف عن هذا الكتاب فى الأسلوب والنم ، الكتاب الذى الفه انجيران مونسترليه Enguerrand de Monstrelet (١٣٩٠ م - ١٣ م - ١٣٠٣ م - ١٤٥٣ م) .

وذلك أنه تناول الأحداث التاريخية من سنة ١٤٠٠ م - ١٤٤٤ م فى أسلوب رصين ، وأبدى كثيراً من الاحساس إزاء ما أحدثته حروب النبلاء من تخريب وفوضى . ثم أنه جاوز الكثيرين من معاصريه برفضه تقبل وجود المعجزات والخرارق الغير طبيعية ، والسحر والعجائب وما شابهها . لكن يؤخذ عليه نظرتة الضيقة المحلية أذ أنه اتجه إلى تمجيد الأحداث التى وقعت فى فلاندرز لغير سبب معقول سوى أنه من أبناء ذلك الاقليم . وقد قام بأكمال ما توقف عنده كتابه

من أحداث حتى سنة ١٤٦١ م « ماثيو دى سوس » Mathieu de Coucey المولود حوالى ١٤٢٠ م . وكان هذا الكاتب واضح الأسلوب ، ويقارن فى بعض النواحي بفروسار . ولكنه كان أكثر حرصاً منه ودقة فى تناوله للمادة التاريخية . هذا الى أنه جمع بين رصانة الأسلوب والأمانة فيما يقول ، وكان يعترف بندرة المصادر ، وهو على حق فى ذلك . ولكتاباه أهمية خاصة لاسيما بالنسبة للفترة الأخيرة من حكم شارل السابع .

ومن الكتابات اللاذعة فى العصور الوسطى ، الكتاب الذى دونه توماس باسن Thomas Basin (١٤١٢ م - ١٤٩١ م) واسم الكتاب « تاريخ عصر شارل السابع ولويس العاشر » وهو مشبع بروح الكراهية للإنجليز من ناحية وللنظام الملكى من ناحية أخرى ، فضلاً عن أنه قاس فى حكمه على طغيان لويس . وإذا كان المؤلف قد عنى بما ساقه من حقائق ، إلا أنه عكس انطباعاته الذاتية على حكمه على الأمور .

أما كتاب « الوقائع الخزية » لمؤلفة حنا المنسوب الى تروى Trays فقد تناول الفترة من ١٤٦٠ م - ١٤٨٣ م . ولكنه حوى قدرأ من اللغو والثثرة أكثر مما طواه من الفضائح والأحداث الخزية . ولذا جاءت معظم مادته سطحية تافهة يعوزها الابتكار والجدة ، وإن كانت لها قيمتها من حيث الاضواء التى تلقينا على الحياة فى باريس فى ذلك الدور .

أما آخر المؤرخين الفرنسيين اللامعين فى العصور الوسطى وأقدرهم ، فهو فيليب دى كومين (١٤٤٥ م - ١٥٠٩ م) الذى تعبّر مذكراته عن بداية النقلة الى المرحلة الحديثة فى كتابة التاريخ . وتسم هذه المذكرات بالحوية ، فضلاً عن كثير من الخصائص التى تتصف بها الطريقة الحقة فى كتابة التاريخ ، مثل القدرة على استقصاء الحقائق وتحليل الدوافع تحليلاً دقيقاً ، ووضع الجوانب الثقافية موضع الاعتبار ، ثم الخروج بأحكام عامة مدعومة .

ولقد ابدع كومين عند علاجه المؤامرات السياسية والديبلوماسية المعقدة . وأكد

الأهمية السياسية والفنية والعملية للتاريخ . ثم نصح رجال الدولة والسياسة بأن « يدرسوا التاريخ جيداً ، حيث أنه مفتاح معرفة كل أساليب الغدر والخداع والأكاذيب » . ولقد تناول كومين في مذكراته الأحداث من ١٤٦٤ م - ١٤٨٣ م ، ومن ١٤٨٨ م الى ١٤٩١ م . ويعتبر كتابه من خير المصادر عن عهد لويس الحادي عشر وشارل الثاني . ويبدو من كتابته أنه كان مجاملاً ، ويذكرنا كلامه وتمجيده للملك لويس ولدور الأمير في السياسة بما كتبه ميكافلي . ويقول المؤرخ الانجليزي هلام Hallam عن كومين إنه أول كاتب يمثل العصر الحديث ... ذلك أنه أظهر بنجاح وحصانة في دراسة طبيعة الرجال ومعرفة نتائج أعمالهم . وكانت لديه القدرة أن يعطى لملاحظاته واستنباطه صفة التعميم . وذلك باتباع أسلوب المقارنة والتطبيق .

بعض أهم المؤرخين الإيطاليين في العصور الوسطى

كان بولس الشماس أعظم المؤرخين الإيطاليين أهمية في العصور الوسطى . وقد سبق أن أشرنا إليه بوصفه أحد الكتاب الذين يمثلون نموذجاً للكتابة التاريخية في الفترة الانتقالية ما بين العصور القديمة والوسطى . ومن المعروف أن إيطاليا ظلت البلد الذي يضم العاصمة الدينية للغرب المسيحي في العصور الوسطى وذلك إذا استثنينا فترة الأسر البابلي التي انتقلت فيها البابوية إلى أفنيون ، وهي فترة قصيرة في أواخر العصور الوسطى . ولذا فإن الكتابة عن البابوات صارت أمراً له أهميته في الكتابة التاريخية الإيطالية في العصور الوسطى . وأكثر الكتب أهمية في هذا المجال «كتاب عن البابوات» الذي بدأ بحوادث القرن الرابع بذكر بعض حقائق مختصرة عن الحياة الرسمية لكل «بابا» من البابوات ، ثم انتقل تدريجياً ليأتى بتراجم مفصلة عن البابوات .

وثمة كتاب آخر له أهميته عن التاريخ الكنسي ، هو تاريخ أساقفة «رافنا» من العصر الرسولي حتى منتصف القرن الثامن ، وألف هذا الكتاب انجلوس الرافني الذي ولد في ٨٠٥ م وكما هو متوقع ضمن كتابه العديد من الخوارق والأساطير إلى جانب ما به من مادة تاريخية سليمة .

أما أول المؤرخين البارزين في إيطاليا ممن يمكن اعتبارهم صورة صادقة لمؤرخي العصور الوسطى ، فهو «ليتوراند» أسقف كريمونا (٩٢٤ م — ٩٧٢ م تقريباً) وكان أقدر المؤرخين الإيطاليين في عصره بل ربما كان أكفأ كتاب التاريخ في أوروبا العصور الوسطى طوال القرن العاشر وله ثلاث كتب تاريخية هامة . وأشهر هذه الكتب وأكثرها فائدة هو الكتاب الذي سماه «كتاب الجزاء» وقد عالج فيه الفترة من ٨٨٨ م إلى ٩٥٠ م . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب اختص بتاريخ إيطاليا ، إلا أنه تضمن الكثير عن ألمانيا والدولة البيزنطية والتاريخ الإسلامي . وكان عنيفاً فيما كتبه عن الملك برنجاريوس Brengarius ، وهو الملك الذي نفاه . وجاء عنوان الكتاب متأشياً مع ما استهدفه من محامل على هذا الملك والكتاب في جملته غني بالمادة والتفاصيل ، وإذا قورن ليتوراند بأي كاتب آخر في عصره ،

نجده أقلهم أيماناً بالخوارق والاساطير. أما كتابه الثاني «تاريخ اوتو» فهو صورة تامة للفترة ما بين سنة ٩٤٠٠ م — ٩١٤٤ م ، وهي فترة عاشها وشهد أحداثها . وأخيراً يأتي كتابه الثالث واسمه «قصة سفارة ا الى القسطنطينية» ويتضمن صورة ممتعة ولكنها لا تخلوا من هجاء للبلاط البيزنطي .. هذا كله فضلاً عن أن ليتوبراند كان محيطاً بالدراسات الكلاسيكية القديمة ، وهذه ظاهرة نادرة في عصره ولا وجود لها بين المؤرخين المعاصرين له . وقد إتخذ ليتوبراند بوثيوس نموذجاً يقتدى بأسلوبه ، كما أنه دأب على الاستشهاد ببعض فقرات كلاسيكية ، بل أنه اقتبس بعض نصوص من الكتاب الإغريق ، وكتبها كما هي بالاغريقية . وربما كانت نقطة الضعف الرئيسية فيه هي استجابته للمشاعر العاطفية في كتابته مثل التحيز ، والتحامل والكراهية ، كما يبدو ذلك من تعامله على الملك برنجاريوس لكراهيته له . ثم أنه كان يميل إلى أن يضيئ على مادته طلاءً جديداً ، مما جعل أحكامه في بعض الأحيان تتصف بالتهور والاندفاع . ومع هذا كله فإن ليتوبراند يحتل مكان الصدارة بين بقية المؤرخين المعاصرين .

وهناك مؤرخ إيطالي آخر أسهم بنصيب هام في الدراسات التاريخية في العصور الوسطى في القرن الحادي عشر ؛ هو جريغوري كاتينو صاحب سجل دير فارفا . ذلك أنه نظم «أرشيف» ذلك الدير وجمع محتوياته في كتاب واحد ، واستنفذ هذا العمل منه نحواً من خمس عشرة سنة ، وتمكن بفضل خبرته من نقد هذه الوثائق نقداً تاريخياً . وقد كتب جريغوري بعد ذلك كتاباً في صورة سرد تاريخي ، استند في مادته على السجل السابق . وأخيراً ؛ فإن ثمة «نظماً» على جانب من الأهمية التاريخية كتبه ولیم الأيول ويتناول غزو النورمان لجنوب إيطاليا .

أما التاريخ الذي كتبه ليو أوستينسيس Leo Ostiensis (ت حوالى ١١١٦ م) - هو تاريخ رسمي لدير مونت كاسينو العظيم ، فيعتبر إضافة ثمينة لتاريخ إيطاليا الدينى والثقافى فى العصور الوسطى . ذلك أن ليو هذا كتب تاريخاً كاملاً عن ذلك الدير ونشاطه منذ تأسيسه حتى سنة ١٠٧٥ م . ويعتبر كتابه من خيرة نماذج الكتابة التاريخية فى إيطاليا خلال العصور الوسطى بأسرها ، لأنه أتم بالنظام وعدم التحيز ، ووفرة المعلومات التى دونت بأسلوب متم . ثم إن ليو كان شديد الحرص والحذر عند تعرضه لإحدى الاساطير أو المعجزات . وقام بمهمة إكمال كتابه والوصول بأحداثه حتى سنة ١١٣٨ م بطرس الشماس المتوفى حوالى ١١٤٠ م . على أن عمل هذا الأخير جاء أقل إحكاماً من عمل «ليو» لأن بطرس كان مغروراً بنفسه ، دا نزع انفعاليه ، ولم يحاول أن يتعرض بالنقد لما صادفه فى تاريخه من أساطير وخرافات .

أما «بونيزو» Bonizo - أسقف موتري المولود حوالي ١٠٦٠ م فقد كتب مؤلفاً أسماء كتاب إلى صديقه ، عالج فيه تاريخ البابوية على أيامه . وساعده على كتابة هذا التاريخ إلمامه الكبير بالشئون الكنسية ، مما جعله يكتب هذا الكتاب ليقف إلى جانب البابوية في رحلة التراجع حول التقليدي العثماني ، وخاصة الصراع العنيف بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع . وهو في كتابته عن الصراع حول مشكلة التقليد العثماني إنما كان شاهد عيان لما كتبه ، كما كان يمنح نحو الاعتقاد على نبوءات من الكتاب المقدس والقانون الكنسي لتأييد وجهة نظره .

وأما عن تاريخ صقلية وخاصة في عهد النورمان فكان موضع اهتمام «هوجو فللكانتوس» . وقد ولد هوجو هذا في فرنسا ولكنه عاش فترة طويلة في صقلية وإيطاليا ، وأتم تأليف كتابه سنة ١١٦٩ م . وعلى الرغم من أنه كان من أشد أنصار النبلاء النورمان الإقطاعيين في صقلية ، إلا أنه استطاع التجرد عن الجوى ، وإصدار أحكام سليمة ومحايدة . وتضمن كتابه مادة «قيمة» عن الأنظمة والتقاليد والعادات في صقلية في العصور الوسطى ، فضلاً عن أن هذا الكتاب كتب بأسلوب واضح منسق .

وهناك كتاب من أهم الكتب التاريخية في إيطاليا العصور الوسطى ، وهو كتاب كتب أحد الرهبان الفرانسيسكان ويدعى فراسالمين Fra Salimbene (١٢٢١ م - ١٢٩٠ م) . وكان سالمين قد قام بكثير من الأسفار الواسعة وأختلط بمختلف أصناف الناس من البابوات والملوك حتى عامة الناس والمساكين . ولذا جاء كتابه وصفاً روائياً استطرادياً غير منظم ؛ لكل مارآه وسمعه حتى سنة ١٢٨٨ م . وعلى الرغم من طيبة الكتاب للتشعبة فإن سالمين كان شاهد عيان لأحداث عصره ، وقاصاً وروائياً بسليقته . ومن ثم فإن عمله جاء مهماً للغاية ، وذا أهمية كبيرة في إعطاء صورة لعادات وسلوك وملابس وثقافة أهل عصره . هذا مع التركيز على بعض الأحداث السياسية في عصره ، وخاصة ذلك الصراع بين فردريك الثاني والمدن الإيطالية . وكتب كتابه بأسلوب قوي ولكن بلاينية العصور الوسطى الغير أصيلة .

وعلى النقيض من سالمين في منهجه التاريخي ؛ كان فيروتوس Ferretus of Vincenza (ولد حوالي ١٢٩٥ م) الذي يغطي «تاريخ الشئون الإيطالية» تاريخ إيطاليا وعلاقاتها الخارجية من ١٢٥٠ م حتى سنة ١٣١٨ م . ولقد أحكم رسم خطة لكتابه ، ذلك أن هذا الكتاب امتاز بحسن التخطيط وبراعة التنظيم ، والمقدمة الكبيرة على انتقاء الحقائق ، أما مادته فقد دونت بلغة لاتينية سهلة . وربما كان العيب الوحيد فيه هو ميله إلى الطريقة التنبؤية في كتابته ، مما جعله في بعض الأحيان يحط في الحقيقة كي يدع في الوصف .

ومن المعروف أنه من أهم الأحداث السياسية التي تعرضت لها إيطاليا في العصور الوسطى ؛ ذلك الصراع بين الجلفيين والجليليين . ومن أحسن الكتب التاريخية التي تناولت هذا الصراع كتاب «التاريخ الجليل» لمؤلفه البرتينوس موساتوس Albertinus Mussatus (١٢٦١ م - ١٣٣٠ م تقريباً) . وكان البرتينوس هذا جندياً وسياسياً قام بأسفار واسعة في البلدان الأوربية . وكتب كتابه بأمانة وغير تحيز وبأسلوب لاتيني جميل .

أما عن البندقية وتاريخها في العصور الوسطى فقد شددت انتباه كثير من المشتغلين بكتابة التاريخ ، فكتب مارت دي كانال Martin de Canale والذي لا نعرف عن حياته سوى القليل تاريخاً للبندقية حتى سنة ١٢٧٥ م . والواقع إن كتابه جمع بين الكتابة القصصية وكتابة التاريخ ، ولكنه على أي حال له قيمة في وصفه للسلوك والعادات وبعض جوانب الفن في البندقية . وهناك كتاب آخر عن تاريخ البندقية في العصور الوسطى ، ويمكن الاعتماد عليه أكثر من الكتاب السابق ، ونعني به كتاب تاريخ البندقية لاندريا داندولا (١٣٠٩ - ١٣٥٤ م تقريباً) . وكان اندريا رجلاً من رجالات الدولة ، فضلاً عن كونه قسيساً ومشرعاً ومؤرخاً . وقد درس في عناية كل الكتب التي عالجت تاريخ البندقية في دوره الأول ، ونقل عنها كثيراً من الوثائق التي يرجع الفضل إليه في حفظها وعدم ضياعها . هذا إلى أنه كان كاتباً منصفاً يمكن الاعتماد على المادة التي وردت في كتابه ، فيما عدا الأجزاء الأولى من كتابه والتقويم الزمني للأحداث . ويعتبر كتابه مصدراً لاغنى عنه للوقوف على الحياة العامة والنظم السائدة في البندقية في العصور الوسطى وبخاصة ما يتعلق بالتطور المعشوري فيها .

أما مدينة جنوا فكان لها الأخرى مؤرخوها من أمثال ؛ كفارو ، اوبرتوس ، أوجريوس بانيس . Caffaro, Obertus Ogerius panis . ويعتبر كفارو بالذات أحد مؤرخي الحروب الصليبية في العصور الوسطى الذين تمتاز كتابتهم بالاستقامة ، ولذا يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره . وتعتبر حولياته فضلاً عن كتاباته الخاصة بالحروب الصليبية - مرآة طيبة لعصره .

على أن كتابة التاريخ في إيطاليا لم تصل ذروة نضجها في العصور الوسطى إلا في مدينة فلورنسا في أواخر تلك العصور . وخير ما يمثل هذا المستوى الراقى لكتابة التاريخ في فلورنسا هما دينو كامباني (١٢٦٠ م - ١٣٢٣ م تقريباً) ، وجيوفاني فيلاني (ت ١٣٤٨ م) ويمدنا كتاب دينو عن «تاريخ فلورنسا» بعرض مختصر عن أصول نشأة تلك المدينة ثم يقدم سرداً مطولاً لتاريخها منذ ١٢٨٠ م إلى ١٣١٢ م وهي الفترة التي اهتم بها دينو اهتماماً خاصاً . ولم يكن دينو مجرد سارد حوليات فحسب ، بل كان يأتي في معظم الأحيان بالتفسيرات الدقيقة التي اعتمد فيها على نفسه ولم يستمدّها من غيره . وتعلو كتاب دينو مسحة من الاعتزاز بمدينته ، كما أنه

كتب بأسلوب تصويرى يتصف بالوضوح . ويقول بلزانى عن روح هذا الكتاب : « لقد عاش الكتاب بين الأحداث التى كان يكتب عنها ، وتنفس فى جوها ، وتجول بين أنحائها ، ولا تعرف مؤرخاً حديثاً له نفس القدرة على نقل كل أحاسيسه إلى قرائه مثلما فعل دينو . »^(١)

أما زميله المؤرخ جيوفانى فيلانى فهناك شبه إجماع على أنه أعظم مؤرخ إيطالى فى العصور الوسطى ، وبفضله دخلت كتابة التاريخ فى إيطاليا مرحلتها الحديثة . وكان جيوفانى رجلاً عسكرياً ورحالة وموظفاً ذا شأن فى فلورنسا . وقد تناول فى كتابه « تاريخ فلورنسا » كل الفترة الممتدة من نزول الإنجيل حتى ١٣٤٦ م . ولكن أهميته تقتصر فقط على الفترة التى عالج فيها تاريخ العصور الوسطى . وفى كتابته عن أصل فلورنسا ، اتجه فيلانى إلى الأخذ بالقصص الأسطورى . وجاء أكثر شمولاً من كتاب دينو ؛ سواء من ناحية الفترة التى تناولها أو الجوانب والمواضيع التى عالجها . هذا إلى أن كتابه أمدنا بصورة كاملة عن تاريخ فلورنسا فى العصور الوسطى ، فضلاً عن تاريخ أوروبا بصفة عامة فى تلك العصور . ثم إنه بنى كتابه على اطلاع واسع ، ودراسة ناقدة للبولقات السابقة التى درسها . والحق إنه كان فى كتابته معتدلاً منصفاً ، بصرف النظر عن عطفه على الجلفيين ، مما جعله يقف إلى جانب طبقة التجار . هذا إلى أنه أحسن تنظيم كتابه والتخطيط له ؛ وكانت لديه قدرة فائقة على إصدار الأحكام الناقدة غير المستقاة من أحد . وقد وصفه الأستاذ فرديناند شيفل « بأنه يمتلك إحساساً صادقاً بوقائع الأمور ، وهذه صفة لم تتوافر بنفس الدرجة لدى أى كاتب آخر فى العصور الوسطى »^(٢) . أما أسلوبه فكان رصيناً واضحاً ، هذا إلى أن الكتاب لا يتوقف عند حد سرد تطور فلورنسا ، وإنما يلقى أيضاً أضواء على مجتمع تلك المدينة وثقافتها . وكما يقول الأستاذ شيفل إن أعظم ماحققه هذا المؤرخ هو وصفه الدقيق لفلورنسا كما رآها بعينه ، ومارواه عن تجارتها والصناعة فيها ، وعن بنائها الاجتماعى وتقاليدها الدينية ، وعلاقتها بجيرانها ، وما كان يحتدم داخلها من منازعات وصراعات لا تنتهى ، وهذه كلها أمور لا يمكننا فى العصور التالية أن نجحف بحقه فيها »^(٣) ويعتبر الكتاب أحد الأعمال القليلة فى العصور الوسطى التى اشتملت على معلومات إحصائية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . وقام كل من ماتيو وفيلبو فلانى بإتمام هذا الكتاب حتى سنة ١٣٦٤ م .

(i) Balzanai: Early cbronickers of Eurupe: Italy pp. 321-32.

Ferdemand Schevill: A History of Florence (Harcourt Brace, 1936) p. xiv.
ihid, p. xv

زعماء المؤرخين الألمان في العصور الوسطى

عندما نذكر المؤرخين الألمان في العصور الوسطى ؛ علينا أن نضع في قائمتهم كتاباً أمثال ؛ جوردان ، اينهارد ونيثارد ، وآخرين من الذين اعتبرناهم مؤرخين للفترة الانتقالية ؛ بين الكتابة التاريخية في العصر القديم والعصور الوسطى .

وربما كان فلودارد Flodoard . أول مؤرخ ألماني يستحق الأهمية في العصور الوسطى . وكان فلودارد قسيساً في ريمز وتوفي ٩٦٦ م . وقد جمع عدة حوليات مليئة بمعلومات قيمة عن الفترة من ٩١٩ م إلى ٩٦٦ م . وتبدو هذه الحوليات وكأنه كان يقوم بكتابتها عند وقوع أحداثها . ومن ثم ؛ فإنه يعتبر شاهد عيان للأحداث التي وصفها . وقد نظر إليه المؤرخون بوصفه أحد الذين تحمروا اللقمة في سُردهم للحقائق ويحبر كتابه مصدراً هلماً عن أواخر العصر الكارولنجي وقيام أسرة كاييه فضلاً عن قيام أصل الأسرة السكسونية في حكم ألمانيا . وثمة مصدر آخر جدير بالاهتمام ؛ عن الفترة الأخيرة من القرن العاشر ، ونعني كتابات الشاعرة الراهبة هورسوثيرا Horsaitha التي كتبت مجموعة من القصائد الشعرية التاريخية عن عصرها ، وأشهر هذه القصائد ؛ تلك الملحمة الشعرية عن أسرة أوتو ، والتي أسمتها «أنشودة حول مآثر أوتو» . وتناولت فيها الأحداث حتى سنة ٩٦٨ ، كما أنتجت عدداً آخر من الكوميديات .

تم شهد الجيل الذي تلا جيلها ؛ المؤرخ ويدوكند Widkund (ت ١٠٠٤ م) وهو راهب «بندكتي» من رهبان دير كورفي . ويعرف كتابه الرئيسي في التاريخ باسم «أعمال السكسون» وقد قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، تناول فيها الفترة منذ أصل السكسون حتى وفاة أوتو الكبير في سنة ٩٧٣ م . وكان علاجه للدور الأول من التاريخ المبكر للسكسون ذا صبغة أسطورية إلى حد كبير ، ولكن لكتابته قيمته الكبيرة بالنسبة لتاريخ هنري الصياد وأوتو الكبير وقد بدأ يدون كتابه حوالي سنة ٩٦٨ م في قبة حكم أوتو ، وكان شديد الإعجاب بالباطرة السكسون ، وأثنى بدرجة كبيرة على مآثرهم وأعمالهم . أما أسلوبه فقد حكي فيه المؤرخون القدامى وخاصة سالوست . ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع أن يحافظ على قواعد اللغة اللاتينية بشكل سليم

وجاء بعده ثيتار Thietmar أسقف مدينة مرسبرج ، الذي انتهى في سنة ١٠١٨ من كتابة التاريخ العظيم الذي غطى فيه عهود أوتو الأول والثاني والثالث ، فضلاً عن هنري الثاني . أما عهد هنري الثالث ، فكانت أكثر الكتب التي عالجت أهمية هو كتاب هيرمان راهب دير ريخناو ، الذي عاش من ١٠١٣ م إلى سنة ١٠٥٤ م . كان هيرمان عالماً متعدد المواهب قادراً على معالجة مسائل كثيرة في وقت واحد ، فضلاً عن كونه مؤرخاً ماهراً ، واشتهر أيضاً بكتاباته في الرياضة والفلك والموسيقى . أما كتابه في التاريخ فهو تاريخ عام لأوروبا من بداية العصر المسيحي حتى سنة ١٠٥٤ م . وبعد ذلك جاء تلميذه بيرثولد Berthold فضى في تكملة كتابه حتى سنة ١٠٨٠ م . و خلاصة القول : إن هرمان كان من أقدر المؤرخين في عصره ، ولكتابته قيمة كبيرة بالنسبة للعصر الذي عاش فيه . فضلاً عن أهميته بالنسبة للقرن السابق (القرن العاشر) لاعتماده على مصادر ذات قيمة كبيرة فقدت منذ ذلك الحين .

وثمة مؤرخ ألماني آخر هو لامبرت المتوفى حوالي ١٠٨٠ م ، وكان راهباً بندكياً في دير هرسفيلد ، استمد إلهامه من ليفي وسالوست ، وأخرج كتاباً يعتبر أكثر الكتب التاريخية المعاصرة في كافة البلدان الأوربية إحكاماً ، وأدقها أسلوباً . وتعتبر الحوليات التي وصفها لامبرت من أهم الإضافات التاريخية التي تلقى أضواء على تاريخ العلاقات بين ألمانيا والبابوية . وبدأ هذه الحوليات بجدول زمني للأحداث ، امتد منذ بدء الخليقة حتى ١٠٤٠ م ، ويعتبر ما جاء به عن هذه الفترة تكراراً لما ورد في الكتب العامة المعروفة عن تاريخ العالم ، وبالإضافة إلى ما أخذه من حوليات دير هرسفيلد القديمة . ولكن منذ ١٠٤٠ م فصاعداً ، تتخذ حوليات لامبرت أهمية خاصة لما تحويه من معلومات مبتكرة ، حتى تصل تلك الحوليات إلى ذروة حسنها في آخر أجزائها ، عندما تعالج السنوات من سنة ١٠٦٩ م حتى ١٠٧٧ م . ويلاحظ أن لامبرت في هذا الجزء الأخير يعدل عن الطريقة الحولية في كتابة التاريخ حسب ترتيب السنوات ، ويرتفع إلى مستوى المؤرخ الحق . والواقع ، إنه نجح أكثر من معاصريه في الإلمام بالأبعاد الزمنية للتاريخ وبمجالاته فلم يقف عند حد تسجيل الأحداث فحسب ، وإنما ناقش موضوع السبب والأثر على مجرى التطورات التاريخية . كذلك امتاز بقدره عالية على وصف المناظر التاريخية . ومن ثم ، فإنه ليس غريباً أن يحظى لامبرت بإعجاب كبير طيلة ثلاثة قرون ، منذ طبعت حولياته لأول مرة سنة ١٥٢٥ م . على أنه ، كما يتعرض لنقد ليوبولد فون رانكه سنة ١٨٥٤ حتى اهتزت مكانته وفقد كثيراً من أهميته . وبعد مرور جيل على فون رانكه ، قام هانز ولبروك بفحص ما كتبه لامبرت فحسباً أكثر دقة وأوضح أن الأخطاء التي وقع فيها كانت عادة بالنسبة للحقائق التاريخية البسيطة ، وأنه كان منحازاً بلا جدال لضعف البابوية ، مما أثر على روايته عن الصراع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلماني ، وأنه

أهل أو هون من شأن القانون العلماني دوره في ذلك الصراع . وينسب إلى لامبرت أنه مخترع الرواية القائلة بتدليل هنري الرابع أمام البابا جريجوري الثامن في قلعة كانوسا . ولكنه على الرغم من هذا كله ، فإن العمل الذي قام به لامبرت يحظى بأهمية تاريخية فائقة ، ويفوق في قيمته أي إنتاج آخر معاصر في ميدان الكتابة التاريخية .

أما دير كونستانس ، فقد أخرج كتابين في التاريخ على جانب من الأهمية فيما يتعلق بعهد هنري الرابع وصراعه ضد الكنيسة . أما الكتاب الأول فقد دونه برثولد Berthold الراهب بذلك الدير ، والمتوفى ١٠٨٨ م ، وقد عالج فيه الصراع حول مشكلة التقليد العلماني ، متخذاً جانب البابا ضد هنري . أما الكتاب الثاني فقد كتبه راهب آخر من دير كونستانس ، هو هرمان الذي عاش من ١٠٤٦ م - ١١٣٢ م ، وهذا الكتاب أكثر قيمة وأكثر حياداً من الكتاب الأول ، وإن كان هو الآخر معادياً للإمبراطورية .

أما برنو Bruno . فتعد كتب « تاريخ ثورة سكسونيا » وهو كتاب له أهمية بالنسبة لأحداث ألمانيا على عهد هنري الرابع . أما آدم المنسوب إلى « برمين » فقد كتب في أواخر القرن الحادي عشر كتاباً يعالج الأحداث من ٧٨٨ م حتى ١٠٧٢ م ، واسم هذا الكتاب « تاريخ هامبورج وبرمين الكنسي » . ويمدنا بمعلومات هامة عن أحوال شمال ألمانيا . ولقد تتقف آدم في الكتب الكلاسيكية ، ويحوى كتابه مادة ثقافية ومعلومات عن تاريخ الكنيسة ، فضلاً عن أخبار غزو السلاف لإقليم نهر الألب ، هذا كله بالإضافة إلى ما به من معلومات هامة عن حكم هنري الرابع . ولآدم كتاب هام آخر عن تاريخ اسكندناوه القديم ، وعن تجارة الشماليين في عصرهم الأول .

وهناك تاريخ عام للعالم كتب ماريانوس سكوتس الذي عاش من ١٠٢٨ م - ١٠٨٤ م ، وهو أحد علماء مايتز ، وإن كان إيرلندي الأصل . ويقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ؛ يختص الأول بالتاريخ القديم ، والثاني يصل بالأحداث حتى حياة المسيح وعصره ، والثالث يمتد حتى العصور الوسطى . على أن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب تنحصر في الفترة المعاصرة لحياة المؤلف . وقد تضمن كثيراً من المعلومات عن التاريخ الإيرلندي ، فضلاً عن « تاريخ مدينة مايتز » . ولقد كان ماريانوس عالماً في الرياضيات ومؤرخاً ولذا فإن كتابه حوى أبحاثاً طريفة عن مشاكل التقويم التاريخ ، وقد أكمل هذا الكتاب فلورنس المنسور إلى وركستر في إنجلترا ، ثم استفاد فيه على نطاق واسع سيجبرت المنسوب إلى جميلو وفي كتابه عن تاريخ العالم .

أما أكثر الكتب شمولاً كتب التاريخ العامة في العصور الوسطى ؛ فهو كتاب «تاريخ العالم» الذي بدأه فروثولد مقدم دير ميشلزبرج Fruthold of Michelsberg . في القرن الحادى عشر ، وشرع في إتمامه سنة ١١٠١ م إيكهارد Ekkehard الراهب بدير اوراخ ، وقد مضى به حتى الأحداث التي وقعت سنة ١١٢٥ م وهي سنة وفاته . وقد استعان في إتمام هذا العمل بصادر موثوق بها ، وعنى بجمع مادة كتابه عناية فائقة ، وراجع عدة مرات ؛ حتى أخرجه بحثاً متكاملاً دقيقاً في تناوله للفترة التي عاصرها . هذا إلى أنه عالج موضوع النزاع حول التقليد العلماني بروح معتدلة ، ونهج نهجاً مفصلاً وموضوعياً في علاجه للحملة الصليبية الأولى . وكان واسع الأفق ، وتواترت لديه معرفة واسعة عن أحداث البلاد الأخرى خارج ألمانيا . ثم إن إيكهارد كان أكثر حياداً من لامبرت في علاجه للأحداث وبدت سلامة أحكامه في حسن انتقائه للمادة العلمية . وقد قسم كتابه عن تاريخ العالم إلى خمسة أجزاء ؛ خصص الثلاثة الأولى منها للفترة حتى عهد شارلمان ، أما الجزءان الآخران ؛ فقد تناول فيها الأحداث منذ شارلمان حتى حكم هنرى الخامس . وفي الجزء الأخير عالج عهد هنرى الخامس ، وهو أهم أجزاء كتابه ، ومن أحسن ما يمكن الاعتماد عليه في موضوعه ، بل إنه أفضل المصادر عن أعمال هنرى . ويعتبر كتابه من المصادر القيمة في معلوماته التاريخية عن شمال ألمانيا في العصور الوسطى . ومع أن أسلوب إيكهارد ليس مصقولاً ؛ شأنه شأن أسلوب لامبرت ، فإن أسلوب إيكهارد اتسم بالوضوح والسهولة ، كما اتصف بالوضوح وعدم الغموض في مادته . وقد طلب منه الإمبراطور هنرى الخامس أن يكتب تاريخاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ شارلمان فصاعداً ، ولكن هذا العمل الذي أنجزه إيكهارد جاء أقل قيمة من كتابه السابق .

وهناك مصدر قيم عن تاريخ ألمانيا والمرحلة الأولى من مراحل الحروب الصليبية ، هو الكتاب الذي كتبه البرت المنسوب إلى آخن ، وهو رجل لا نعرف عن حياته سوى القليل ؛ فيما عدا ما كتبه عن نفسه قبل ١١٥٨ م . وجاء كتابه في اثني عشر جزءاً ووصل فيه بالأحداث حتى سنة ١١٢١ م . وهو من الكتب الهامة ، وخاصة في الأبحاث التي حواها عن الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس الصليبية . وقد رجع الصوري إلى كتاب لامبرت واعتمد عليه كثيراً .

أما أهم المؤرخين الألمان وأوسعهم شهرة في العصور الوسطى ؛ فهو أوتو أسقف فريزنج الذي عاش بين سنتي ١١١٤ م - ١١٥٨ م تقريباً ، وهو عم الإمبراطور فردريك الأول (بارباروسا) . ذلك أنه لم يكن مجرد مؤرخ قدير سارد للأحداث ، وإنما كان أيضاً أول فيلسوف للتاريخ يستحق الذكر في العصور الوسطى . وأكثر كتبه أهمية كتابان هما : «كتاب المدينتين» و«أعمال الإمبراطور فردريك الأول» . وقد مضى بالأحداث التي سردها في الكتاب

الأول حتى سنة ١١٤٦ م ، ويعتبر أول فلسفة هامة للتاريخ في العصور الوسطى . وفي هذا الكتاب اتبع طريقة اورديوس ومنهجه في كتابة التاريخ ، على حين اتبع أوغسطين في فلسفته للتاريخ . وقد استند الكتاب على نظرية أوغسطين الخاصة بإيراز التناقض بين «مدينة الله» و «مدينة الشيطان» . وقد أوضح أوتو الصراع بينها على نفس النمط الذي وصفه اورديوس - ومضى في تلك القصة منذ بدء الخليقة حتى عصره هو . وقد أتم عمله راهب آخر ، هو أوتو الراهب بدير سانت بلاسن Blaisen . الذي مضى بالقصة حتى سنة ١٢٠٩ م . وتم هذا العمل في ثمانية أجزاء ، خصص الأخير منها ليوم الحساب وقيام القيامة . وكان هذا الكتاب - على حد قول بلزاني - أول محاولة يقوم بها مؤرخ في العصور الوسطى بوضع فيها قصة الإنسان بأكملها داخل إطار محكم من الأسباب والنتائج ، على أن النهج الفلسفي الذي اتبعه أوتو قلل من القيمة التاريخية لكتابه من ناحيتين : الناحية الأولى ، هي أنه جعله ينحاز ضد النواحي الطائفة والوثنية ، والناحية الثانية ، أن اهتمامه الأساسي بفلسفة التاريخ جعلته أحياناً يهمل سرد التفاصيل . ولقد ساعد على عدم عنايته بذكر الحقائق والتفاصيل حرصه على الجانب البلاغي في كتابته ، وتصوير المتناقضات المثيرة ، مما جعل الشكل لا يقل عنده أهمية عن الجوهر .

وهكذا نجد روايته عن اتفاقية «ورمز» الهامة سنة ١١٢٢ تحوى عنواناً خاطئاً وتفاصيل مختلة . ولكن على الرغم من هذا كله ، فإن المادة التي احتوتها كتابات أوتو ذات قيمة كبيرة ، وخاصة كلما اقتربت الأحداث من عصره وقد اعتمد في هذه المادة على مصادر موثوق بها ، وخاصة ما كتبه إيكهارد . ولا يوجد مؤرخ آخر معاصر يناظره في الاهتمام بشرح الحاضر في ضوء الماضي .

أما كتابه الثاني عن أعمال الإمبراطور فردريك فهو أقل وقعاً من كتابه السابق وإن كان أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ المعاصر لأنه لاغنى عنه لمعرفة العلاقة بين فردريك والكنيسة ذلك أن أوتو كان شاهد عيان ومُلمّ تماماً بتلك الأحداث ، وعلى معرفة كاملة بالعمل الذي أقدم عليه . وقد حالت وفاته المبكرة دون إتمام هذا العمل فتوقف به عند ١١٥٨ م وكان متحيزاً للإمبراطورية الألمانية وفكرة توسعها على حساب الإيطاليين ، ولكن نشأته وصفته الدينية قادتته إلى الوقوف بجانب البابا . وقد أكمل هذا الكتاب مساعد لأوتو اسمه راهوين Rahewin . ويظن أن أوتو كتب كتاباً عن تاريخ النمسا لكنه فقد . أما من ناحية الأسلوب ؛ فقد كان أوتو صاحب أسلوب مصقول ومثير ، اتسم بالبلاغة وقوة التأثير . ولقد كتب أحد المعجبين بأوتو ؛ وهو الناقد الكاثوليكي فرايزر اكس فيجيل يقول عنه ويثنى عليه : «لم تشهد ألمانيا لعدة قرون كاتباً له ما لأوتو أسقف فريزينج من موهبة أدبية فائقة . وإذا كان لامبرت الراهب بديرهر سفيلد قد فاق أوتو في قدرته على رواية الأحداث ، فإن أوتو فاقه بنظرته

الفلسفة العميقة الجادة الواسعة الأفق ، وذات الطابع العالمي ، فضلاً عن سمو وجهة نظره في المسائل التي عالجها . ومما يكن الحكم على فلسفته ، فيكفي أنه كان المؤرخ الألماني الوحيد في العصور الوسطى التي توفرت له القدرة على أن يتناول بطريقة فلسفية مسيرة التاريخ العالمي . محاولاً أن يعرض هذه المسيرة عرضاً حكيماً . هذا بالإضافة إلى مكاتبه بوصفه من أقدس رواة التاريخ في أيامه .^(١)

أما جود فري المنسوب إلى دير فيتربو Geod Frey of Viterbo (١١٢٠ م - ١١٩٦ م) فيعتبر كل من الألمان والإيطاليين أنه منهم . ويبدو أنه ولد وتلقى تعليمه في ألمانيا ، ولكنه توفي في دير فيتربو حيث قضى السنوات الأخيرة من عمره . وقد عمل في حاشية فردريك الأول بوصفه واعظاً لرجال جيشه ثم سكرتيراً ، كما أوفد في عدة بعثات دبلوماسية هامة . وتناول في كتابه التاريخي الرئيسي أعمال فردريك الأول في الفترة من ١١٥٥ م - ١١٨٠ م ومعظمه كتب نظماً . وقد عالج فيه بصفة رئيسية أحداث إيطاليا التي رواها في قالب قصصي ، فحما جعل كتابه دون مستوى الكتب التاريخية التي دونت في ألمانيا في العصور الوسطى والتي سبق أن أشرنا إليها .

وثمة كتاب غريب شائع ، كتبه مارتن المنسوب إلى ترويارو (ت ١٢٦٨ م) وأسماء « تاريخ البابوات والأباطرة » . وكان مارتن هذا راهباً من الرهبان الدومنيكان ، ثم صار أسقف فيما بعد . وقد عمل في خدمة البابا فترة من الزمان ، ودون كتابه بناء على أوامره . ووجه الغرابة في كتابه ، أنه نظم بطريقة خاصة بحيث وضع البابوات والأباطرة في صفحات متقابلة فاحتوت كل صفحة على خمسين سطراً لكل سنة سطر واحد . وقد استمرت هذه الخطة بصورة منتظمة حتى سنة ١٩٧٦ م ، وهي السنة التي شهدت قيام ثلاث بابوات . ولذا اضطرا مارتن إلى العدول عن خطته ، وأخذ يناقش الأحداث الكبرى المعاصرة ، والواقع أن عمله لا يمكن الاعتماد عليه كثيراً ، ولكنه مع ذلك حظي بشعبية واسعة . وكثيراً ما رجع إليه من جاء بعد ذلك من المؤرخين مثل ، المؤرخ نيقولا تريفت في إنجلترا .

(1) F.X. von Wegele, Geschichte der deutschen Historiographie seit dem Auftreten des Humanismus (Leipzig 1885) p. 20

التراجم التاريخية في غرب أوروبا خلال العصور الوسطى

تناولت بعض خيرة الكتابات التاريخية سير وتراجم زعماء السياسة ورجال الدين . ذلك أن النجاح الذي حققته بعض الشخصيات العظيمة - السياسية والعسكرية - في العصور الوسطى ؛ جعل من الممكن أن تصبح هذه الشخصيات موضوعات جذابة لتراجم تاريخية . وكان يحدث عادة أن يظل الملك مؤرخ سيرته بعطفة ليضمن ثناء المؤرخ عليه وعلى أعماله . ولستنا في حاجة إلى القول بأن الكتابة المتصفة المجردة عن الهوى لم يكن لها وجود في العصور الوسطى ، وأنه يمكن أن نضيف الملق والمداهنة إلى جانب بقية العيوب التي اتصفت بها كتابه التاريخ في تلك العصور . هذا فضلاً عن أن الصبغة الدينية التي صبغت الحياة الفكرية في العصور الوسطى ؛ جعلت كاتب التراجم في غالب الأحيان ، يصور الشخصيات العلمانية العظيمة في عصره على أنه وليدة العناية الإلهية في ذلك العصر .

ومن بين سيرتين أو ثلاثة بلغت القمة في كتابة التراجم في العصور الوسطى ؛ تحتل ترجمة شارلمان التي كتبها اينهارد بعنوان «حياة شارلمان» - والتي سبق أن تعرضنا لها بالإشارة - مكان الصدارة . ويرتبط أيضاً بكتابة التراجم التاريخية في العصور الوسطى ؛ كتاب اوتو أسقف فريزنج عن «أعمال الإمبراطور فردريك الأول» على أنه ربما كان أول ترجمة تاريخية يمكن اعتبارها نموذجاً لكتابة التراجم في العصور الوسطى ؛ هي ما كتبه «آسر»

عن «حياة ألفرد» . وكاتب هذه الترجمة قسيس من ويلز ، عاش في أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العاشر للميلاد . وتبدأ الترجمة بسنة ٨٤٩ ميلادية وهي السنة التقليدية التي تحدد مولد صاحب السيرة . على أن تلك الترجمة تجاوزت الحدود المعروفة لسيرة «ألفرد» فتناول الأحداث العظمى في عهده . واستعان المؤلف فيما دونه من سيرة وفيما رواه ؛ بكتاب تارين السكسون . ولكن الكتاب جاء مليئاً بالأحداث الطريفة ، وتتجه نغمته نحو إطراء ألفرد . أما أسلوبه فيتصف بالسهولة والتشويق . وقد أضاف له بعض الكتاب المتأخرين إضافات كثيرة ، وتضمنت هذه الإضافات بعض قصص قديمة عن «آرثر» مثل تلك الأسطورة القائلة بإهمال نسب إلى آرثر تسبب عنه احتراق طعام أحد قطعان البقر . وقد نقل فلورنس المنسوب إلى وركستر (ت ١١١٨ م) كتاب «آسر» بأكمله .

وربما كان أكثر وضوحاً بالنسبة لنا ، تلك الترجمة التي كتبها شوجر Suger مقدم دير سانت دينس ، ومستشار الملك لويس السابع ، عن حياة الملك لويس السادس - أو السمين - أحد الملوك الأوائل المبرزين في أسرة كاييه . ولم يكن كتابه حولية فحسب ، وإنما كان ترجمة للملك لويس . ومن ثم فإنه ينبغي على من يريد الوقوف على كافة الأحداث في ذلك العصر أن يرجع إلى كتب أخرى . وكان شوجر في كتابته متحيزاً للملك لويس بصفة عامة ، ولكن ليس بالدرجة التي تعكس الحقائق . هذا إلى أنه كان منصفاً للإنجليز في كتابته . وإذا كان جافاً ، إلا أنه كان يأخذ طابعاً مشوقاً جذاباً في روايته للأحداث المثيرة أما قواعد النحو اللاتيني ، فلا جدال في أنها بلغت حداً كبيراً من السوء في ذلك الكتاب . أما عن ترجمة الامبراطور كونراد الثاني (١٠٢٤ م - ١٠٣٩ م) التي كتبها قسيسه ويبو Wippo فهي سيرة فذة متكاملة على الرغم مما فيها من إفراط في تملق كونراد .

ومن أكثر الشخصيات الكنسية البراقة التي استهوت كتاب السير والتراجم في العصور الوسطى ؛ كان البابا جريجورى السابع ، الذى وجد من ترجم له في شخص القس الإيطالى بولس المنسوب إلى برنريد Bernried . فكتب كتابه « تاريخ جريجورى السابع » وأنتم ذلك الكتاب سنة ١٢٢٨ سنة م . وقبل أن يقدم بولس على كتابة هذه السيرة ؛ أعد نفسه بدراسة واسعة ، فضلاً عن نقص الحقائق والرجوع إلى كثير ممن شهدوا الأحداث وعاصروها . وكانت نتيجة ذلك أن خرج كتابه من أحسن الكتب التاريخية التي كتبت في إيطاليا عن النزاع حول التقليد العلماني . هذا إلى أن بولس اعتمد على مصادر طيبة ، ودرس كثيراً من الوثائق الرسمية . ومن الثابت أنه لم يقم بنقد أو تقنين تلك الوثائق التي رجع إليه ، مما أوقعه في بعض أخطاء كبيرة ، فضلاً عن استعداده للاعتراف بالخرافات والأساطير . ولكن حتى في هذه المواضع يستطيع القارئ بسهولة أن يميز بين ما أخذه بولس من الأساطير ؛ وبين ما استقاه من مصادر تاريخية حقيقية . والكتاب يؤيد البابا جريجورى تأييداً قوياً ، ويؤكد في صفحاته النفوذ الأدبي الكبير لذلك البابا .

أما ملك فرنسا القدير ذو الشخصية البراقة « فيليب أوغسطس » فقد ترجم له كل من ريجورد المتوفى حوالى سنة ١٢٠٧ م ، ووليم بريتون حوالى ١٢٢٧ م . أما ريجورد فكان مثل شوجر ، أحد رهبان دير سانت دينس . وبدأ كتابه عن « حياة فيليب أوغسطس » حوالى سنة ١١٩٠ م . واستغرق في كتابته عدة سنوات ، حتى غطى فيه الفترة ما بين ١١٧٩ ، ١٢٠٧ م . وقد أدخل بين ثنايا سرده بعض القصص القديم أو الأسطوري ، مما يرتبط بأصل الأمة الفرنسية ، كما ضمن كتابه أيضاً جداول زمنية بملوك فرنسا . والواقع ، إن ريجورد لم يكن رجلاً كبير العقل ، ولم مؤرخاً عظيماً ، لكن تحيزه لفيليب أرضى هذا الملك ، ودفعه إلى رعاية كتابه . أما وليم بريتون ، فكان أحد القساوسة في بلاط فيليب ، وفاق ريجورد إلى حد

يعيد في كونه مؤرخاً ناجحاً . وقد عهد إليه بعدة بعثات دبلوماسية وسياسية ، وصاحب الملك فيليب في كثير من حروبه . وقد قام بإكمال كتاب ريجورد حتى سنة ١٢١٩ م ، وكتابه لاغنى عنه ، خصوصاً عند دراسة الفترة من ١٢٠٩ م حتى سنة ١٢١٩ م . أما شعر وليم الذي نُسب إليه فيليب ، فيلقى كثيراً من الضوء على النواحي الجغرافية ، وعلى تقاليد وعادات ذلك العصر .

وربما كانت الترجمة الوحيدة في العصور الوسطى ؛ التي تناظر أو تفوق ما كتبه اينهارد عن حياة شارلمان ، هي تلك التي كتبها جوفانفيل Joinville (١٢٢٤ - ١٣١٩ م) عن لويس التاسع . ذلك أن جوفانفيل كان صديقاً ومستشاراً للملك لويس التاسع ، وموضوع ثقته . ومن المحتمل أنه شرع في تدوين أو إكمال كتابه «تاريخ القديس لويس» بعد أن تقدم به السن . وتكاد تكون الحملة الصليبية السابعة هي محور الكتاب ، والاطار الأساسي لأحداثه ، حيث إنه ركر على أحداث الفترة من ١٢٤٨ م إلى ١٢٥٤ م . وقد استهدفت المادة التاريخية — مع كونها سلبية ويمكن الاعتماد عليها نسبياً — تأكيد ما للملك لويس التاسع من صفات القداسة . وكان جوفانفيل أقل تشككاً من فيلهاردون في المعجزات . أما فلسفته السياسية . فتتجه نحو الدفاع عن تركيز السلطة في يد الملوك ، مثلاً كان فيلهاردون مدافعاً عن الإقطاع والفروسية . وقد كتب جوفانفيل كتابه في أسلوب جميل ممتع ، سواء كان موضوع حديثه وصفاً ، أو مدحاً ، أو قدحاً .

أما سيرة ماتيلدا أميرة تساكنيا ؛ فقد كتبها نظماً باللاتينية في القرن الحادي عشر دونيزون Donnizone في كتاب اسمه «حياة ماتيلدا» وهو الكتاب الذي يعتبر أول ما أسهمت به إيطاليا بشكل فعال في ميدان التراجم التاريخية في العصور الوسطى . كذلك أنجبت إيطاليا في القرن الرابع عشر كتاباً غفلاً من اسم صاحبه بعنوان «حياة كولادى ريتري» Life of Cola de Rienzi ، وهم أعظم الكتب التاريخية شهرة في روما خلال القرن الرابع عشر بأسره . ذلك أن مؤلفه أظهر مهارة فائقة في علاج مشكلة عويصة ؛ هي تصوير شخصية كولا ذات التركيب المتناقض ، وتصوير تطور نفوذه وشخصيته . ولهذا الكتاب أهمية خاصة ؛ من ناحية أنه يكشف النقاب عن المؤثرات المعاصرة داخل الكنيسة والدولة ، مما يجعله في جملة كتباً شيقاً للقارئ .

ويأتي في المرتبة التالية لكتاب جوفانفيل من ناحية الأهمية بين كتب التراجم الفرنسية في العصور الوسطى ؛ الكتاب الذي كتبه حنا جوفينال (١٣٣٨ م - ١٤٧٣ م) عن حياة شارل السادس .

ومؤلف هذه الترجمة كان محامياً بارزاً ورئيساً لأساقفة ريمس . ومن ثم فإنه كان قوى الصلة بالأوضاع الكنسية والسياسية المعاصرة . وتناول كتابة الفترة من ١٣٨٠ م — ١٤٢٢ م وهي مدة حكم شارل السادس بأكملها : وكتابته لها قيمتها الكبيرة بالنسبة لأمر الدولة والكنيسة جميعاً . ويتصف أسلوبه بأنه ممتع وسهل ، ومشوق في جملته للقراء بدرجة كبيرة ، هذا إلى أن المؤلف امتاز بنظرة محايدة عميقة إلى أمور عصره .

ومن بين التراجم الذاتية في العصور الوسطى يبرز الكتاب الذي كتبه عن نفسه « ابيلا » وهو من أذكى مواهب تلك العصور . وهناك كتاب يقترب من هذا الكتاب ، وله نفس شهرته ولكنه دونه في الجودة ، هو كتاب « اعترافات القديس أوغسطين » الذي يرجع إلى عهد آباء الكنيسة ، وهو العهد الأول الذي سبقت الإشارة إليه .

وهناك بالإضافة إلى ذلك ، مادة تاريخية نجدتها في العصور الوسطى فيما كتب من شعر أو أغاني ، أو دعوات دينية ، أو قصص قصيرة ، أو أساطير خرافية ، أو عهود وبراءات ومراسيم عامة ، مما لا يسمح المجال بدراستها هنا ، مع اعترافنا بأهميتها كمصدر هام للمعرفة التاريخية

المؤرخون البيزنطيون في العصور الوسطى

صاد إلى وقت قريب اعتقاد خاطئ في أن التاريخ الوسيط هو بوجه عام تاريخ أوروبا اللاتينية خلال تلك العصور . ومن ثم ؛ فإن الكلام عن المؤرخين في العصور الوسطى كاد لا يتعدى ذكر أسماء المؤرخين الغربيين في أوروبا ، مع إهمال كثيرين من عالقة المؤرخين في الشرق ، سواء مؤرخي الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية ، أو المؤرخين المسلمين . وسنشير فيما يلي باختصار إلى هؤلاء المؤرخين في العصور الوسطى .

أما عن الدولة البيزنطية ؛ فقد سبق أن أشرنا إلى بعض مؤرخيها الذين ظهوروا في دور مبكر من تاريخها ، ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين الكنسيون ؛ ايوزيوس ، وسقراط وسوزمين ، ثيودوريت . ومن المؤرخين العسكريين السياسين ؛ سبق أن ذكرنا بروكويوس . وربما كان أول المؤرخين العلمانيين في الشرق البيزنطي هو اوتربيوس ؛ السكرتير العسكري للملك قسطنطين . وقد توفي هذا المؤرخ بعد ٣٧٨ م بقليل . وكتب هذا المؤرخ تاريخه باللاتينية ، وذلك قبل أن تصبح اللغة الإغريقية هي اللغة الرسمية في الدولة البيزنطية . وأهم كتبه التاريخية كتاب أسماء « مختصر عن قيام الدولة الرومانية » ألقي فيه نظرة مجملة على التاريخ الروماني حتى أيام الامبراطور فالتر . وقد استخدم هذا الكتاب وأضاف إليه « بولس الشماس » فيما بعد . ومن بين أهم المؤرخين البيزنطيين الأوائل ؛ يبرز اسم « زوسيموس » الذي لمع اسمه حوالى منتصف القرن الخامس . وقد سمي كتابه « التاريخ الجديد » وتناول الأحداث التي وقعت منذ أيام أوغسطس حتى سنة ٤١ م . وكان زوسيموس وثياً ، وكان يحس ؛ إحساساً يفيض بالألم ؛ بضعف الإمبراطورية الرومانية وضياح هبتها . وأرجع سبب ذلك إلى قيام المسيحية ، وإرساء قواعدها في الإمبراطورية الرومانية . ولذلك كان قاسياً على قسطنطين ، ومتحيزاً إلى « جوليان المرتد » عن دين المسيحية . وكانت نظرته إلى التاريخ تتعارض مع نظرة اورزيوس ، وكانت الحاجة إليها ماسة لتصحيح الفكرة عن أبعاد التاريخ ومجالاته .

أما كتاب بردكويوس ؛ فهو تاريخ هام لحروب الإمبراطور جوستنيان ، ويتضمن إشادة بعقيدة القائد الحربي بلزاريوس . وقد جاء متما لهذا الكتاب ؛ كتاب عن تاريخ

الإمبراطورية الرومانية حتى عهد جوليان المرتد ، وكتبه معاصر لبروكيوس اسمه «بطرس الشريف» وهو محام بيزنطى ، وأحد رجال السياسة . وفى عهد جوستنيان قام هسخيوس الملطى بوضع أول كتاب بيزنطى عن تاريخ العالم ، تناول فيه أحداث العالم منذ التاريخ الأشورى حتى ٥١٨ م . ثم أكمله هسخيوس ، فألقى نظرة تاريخية على عهد جستن الأول ، والشرط الأول من حكم جستن . وقد فقد معظم هذا الكتاب وهناك كتاب معاصر للكتاب السابق كتبه حنا مالالاس John Malalas (٤٩١ م - ٥٧٨ م) اسمه

«سجل تاريخ العالم» ، تناول فيه الأحداث التى وقعت فى العالم ؛ منذ التاريخ المصرى القديم حتى عهد جستن ، وضمن كتابه كثيراً من الأساطير والخرافات . والواقع ؛ إن ما قام به لم يتعد سرد موجز للتاريخ حتى الجزء الخاص بتاريخ جستن نفسه ، واتخذ مدينة أنطاكية محورا لتاريخه . ويفهم من كتابه أنه كان متحمساً ومؤيداً للكنيسة والملكية . وعلى الرغم مما يحتويه هذا الكتاب من مادة تاريخية لا يعتمد عليها ؛ إلا أنه حصل على شهرة واسعة ، وذلك نظراً لأنه أول كتاب تاريخى فى الدولة البيزنطية يكتب بلغة دارجة بقصد الاستهلاك العام .

وعن عهد جستن بالذات وخاصة الفترة من ٥٥٢ م إلى ٥٥٨ م ، كتب أحد علماء ميرينا بأسيا الصغرى ، هو المحامى العلامة اجثياس الذى عاش فى أواخر القرن السادس ؛ كتاباً اسمه «تاريخ عهد جستن» . وقد قام مينادر المحامى بإكمال هذا الكتاب حتى سنة ٥٨٢ م ، أى بداية حكم الإمبراطور موريس (٥٨٢ م - ٦٠٢ م) ، ولكن هذه التكملة جاءت على مستوى ضعيف ، وإن كان العمل فى ذاته لا يخلو من أهمية ، نظراً لما تضمنه من معلومات جغرافية ، وعن السلالات والأجناس . كذلك كتب ثيوفانس البيزنطى فى أواخر القرن السادس للميلاد ؛ كتاباً عن الفترة من عهد جستن حتى عهد موريس ، وهو الكتاب الذى شاعت الصدفة وحدها أن تجعل منه أحد المصادر الهامة عن الأتراك .

ويتمى إلى نفس هذا الجيل من المؤرخين ؛ العالم ايفاجريوس المسورى المولود حوالى ٥٣٦ م ، وهو الذى أنم التواريخ الكنسية التى كتبها سقراط ، وسوزمين ، ثيودوريت ، فعالج تاريخ الكنيسة فى الفترة من ٤٣١ م إلى ٥٩٣ م وذلك فى كتابه «التاريخ الكنسى» ، وأما عن حكم الإمبراطور البيزنطى موريس ؛ فإن من أقيم الكتب فى هذا المجال كتاب «ثيوفيلكت سيموقطا» وهو علامة مصرى ؛ حوالى سنة ٦٣٠ م . وجاء كتابه «تاريخ الإمبراطور موريس» فى ثمانية أجزاء . وقد اتمم بالبلاغة فى الأسلوب مع شئ من التكلف ، ولكنه المصدر الهام المعاصر الوحيد الذى عالج عهد الإمبراطور موريس . وكان كاتبه معاصراً لعهد هذا الإمبراطور . وفى عهد موريس أيضاً جمع حنا المنسوب إلى أفسوس ، المتوفى حوالى ٥٨٦ م - باللغة السريانية كتابه «التاريخ الكنسى» وتناول فيه التطورات الدينية منذ أيام يوليوس قيصر حتى سنة ٥٨٥ م . ولهذا الكتاب أهمية خاصة ، حيث إنه حكى آخر حلقات

صحوة الوثنية حتى تم القضاء عليها نهائياً ، فضلاً عما يتضمنه الكتاب من وصف للتاريخ السياسي والحضارى للإمبراطورية الشرقية فى القرن السادس .

أما بالنسبة لعهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦١٤ م) فلدنيا التواريخ التى كتبت نظاماً عن حروب هذا الإمبراطور ضد الفرس والآفار ، وقد قام بنظمها جورج المنسوب إلى بيسيديا ، وهو معاصر عاش فى أيام تلك الحروب . ولدنيا عن هذه الفترة أيضاً ، ما كتبه حنا الأنطاكى ، وقد تناول فى كتابه عن تاريخ العالم ؛ الفترة منذ أيام آدم حتى سنة ٦١٠ م . وقد أتى كتابه أكثر تكاملاً وشمولاً من كتاب حنا مالالاس . ولم يكن حنا الأنطاكى متحمساً للأساطير والخرافات ، وإنما امتاز بنظرة تاريخية واسعة الأفق ، مع عناية باستخدام المصادر . أما العصر « اللأيقونى » فقد شهد ثلاث أعمال تاريخية هامة ، أولاً : كتاب جورج سينكلوس الذى توفى فى أوائل القرن التاسع . وقد عالج غلاباً سريعاً أحداث التاريخ منذ بداية الخليقة حتى عهد دقلديانوس . وقضى مضى فى تكملة كتابه التاريخى « ثيوفانس المعترف » (٧٥٨ م) - (٨١٨ م) . وقد أتى ثيوفانس بقدر كبير هام من المعلومات عن الصراع اللأيقونى . وكان موقفه إلى جانب اللأيقونيين . ومن أفضل ما عمله ثيوفانس ؛ أنه استخدم عدداً من المصادر الهامة القديمة ، وبذلك صان مادتها من الضياع . وقد رجع إلى كتابه عدد من المؤرخين البيزنطيين الذين جاءوا من بعده .

أما البطريق نقفور - بطريق القسطنطينية (٧٥٨ م - ٨٢٩ م) فقد كتب موجزاً قماً عن التاريخ البيزنطى فى الفترة من ٦٠٢ م إلى ٧٧٠ م ، وهو واحد من أهم المصادر التى تصف ظهور « البلغار » على مسرح التاريخ فى البلقان . وإلى جانب ذلك ؛ فإن البطريق نقفور كتب جدولاً زمنياً موجزاً ؛ لخص فيه الأحداث منذ عهد آدم حتى عصره ، ولكن هذا الكتاب أقل قيمة من سابقه .

وفى أواخر عصر الحركة اللأيقونية - أى حوالى سنة ٨٥٠ م ؛ كتب جورج هامارتولس كتابه الذى عرض فيه تاريخ العالم منذ آدم حتى ٨٤٢ م . وكان المؤرخ شاهد عيان للأحداث التى ذكرها فى الأجزاء الأخيرة من كتابه ، ولذا فإن كتابه تضمنت قدراً ثميناً من المعرفة الثقافية ، والدينية ، والفنية عن ذلك العصر . هذا فضلاً عن أهمية الكتاب نتيجة لما ألقاه من أضواء على الحياة الديرية فى الشرق . وقد حظى التاريخ الذى كتبه هامارتولس Hamartolus باهتمام المؤرخين البيزنطيين فى الوقت المتأخر ، وتأثر به إلى مدى أبعد ؛ المؤرخون الروس فى أواخر العصور الوسطى .

وفى عهد قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٨ م) كتب « يوسف جنسيوس » كتاباً أسماه « تاريخ القسطنطينية » عالج فيه الفترة من عهد ليو الخامس حتى ليو السادس (٨١٣ م -

٨٨٦ م). وقد صدر هذا الكتاب في أربعة أجزاء . ويمكن الاعتماد على المادة التاريخية التي تضمنها ، والتي جاءت بأسلوب واضح مبسط .

وفي أوائل القرن العاشر كتب سيمون ميتا فراستس Simon Metaphrestis وهو أحد السياسين ذوي النفوذ في توجيه مصائر الأمور في الدولة البيزنطية ؛ كتابه الشهير «حياة القديسين» . وثمة كتاب نسب إلى الإمبراطور قسطنطين السابع ؛ عن حياة الإمبراطور «باسل الأول» . ومن المحتمل أن يكن قد كتب هذا الكتاب أحد العلماء تحت رعاية الإمبراطور قسطنطين السابع . ومهما يكن الأمر ، فإن هذا الكتاب يحوى معلومات كثيرة عن الأوضاع التشريعية والتاريخ الحرى لذلك العصر .

أما التاريخ الذى كتبه ليو الشماس ، أهم ما كتب عن الفترة من ٩٥٩ م حتى ٩٧٥ م ، وبخاصة فيما يتعلق بحروب البيزنطيين ضد المسلمين والبلغار . على أنه لا جدال في أن أعظم أعلام الثقافة البيزنطية هو ميخائيل قسطنطين بسيلوس الذى عاش بين سنتي ١٠١٨ - ١١١٠ م . ذلك أنه كتب تاريخاً علمياً قيماً عن الفترة ما بين ٩٧٦ م ، ١٠٧٧ م ، ضمنه ما سبق أن كتبه ليو الشماس . ويعتبر أسلوبه نموذجاً طيباً لأسمى ما بلغته الكتابه اليونانية من بلاغة في العصر البيزنطى وثمة كتاب تاريخى آخر يرجع إلى القرن الحادى عشر ؛ هو الكتاب الذى ألفه ميخائيل أناليتا (حوالى سنة ١٠٧٥ م) ، وعالج فيه الفترة منذ ١٠٣٤ م حتى ١٠٧٩ م ، ولما كان ميخائيل هذا مشرعاً قديراً ، فإن كتابه التاريخى هذا عنى عناية قوية بالتطورات القانونية والإدارية . وقد كتب حنا سكليترا تاريخاً دسماً للسنوات من ٨١١ م حتى ١٠٥٧ م . ثم قام جورج كدريينوس بتضمين كتابه عن تاريخ العالم (حوالى سنة ١١٠٠ م) الكتاب الذى كتبه حنا سكليترا .

وفي نفس هذه الفترة ؛ ظهر كتابان تاريخيان في التاريخ العالمى ، فكتب جورج كدريينوس Cedrenus في سنة ١١٠٠ م كتابه الذى سبق أن أشرنا إليه ، وتناول فيه أحداث العالم منذ بدء الخلق حتى سنة ١٠٥٩ م في حين كتب حنا زوناراس (Zanaraus) (١١٣٠ م) وهو من أقدر المؤرخين البيزنطيين في العصور الوسطى - تاريخاً حقيقياً للعالم في ثمانية عشر جزءاً ، تناول فيها تاريخ العالم منذ بدء الخلق حتى سنة ١١١٨ م .

ولم يلزم في كتابه هذا بالمنهج التقليدى لمؤرخى العصور الوسطى ، وإعما اعتمد على الحقائق الثابتة وخاصة بالنسبة للفترة الأخيرة التى تناولها في كتابه . وقد استعان على نطاق واسع بما سبق أن كتبه الكتاب القدامى من الإغريق والرومان . ثم إن زوناراس كتب مؤلفات أخرى أقل أهمية عن تاريخ الكنيسة الشرقية . أما ما كتبه ميخائيل جليكوس في القرن الثانى عشر عن تاريخ العالم فيعتبر من أكثر الكتابات التاريخية التى صدرت في الدولة البيزنطية شيوعاً في العصور الوسطى .

وثمة كتاب طريف عن الإمبراطور الكسيوس الأول كتبته أخته آنا كومنتا Anna Comneta المولودة سنة ١٠٨٣ م . وكانت آنا هذه قد دبرت مؤامرة لتخلف أباهما على العرش ، لكن مؤامرتها باءت بالفشل وعندئذ عوقبت بالنفي فعكفت في منفاهما على كتابة تاريخ حياة أبيها الكسيوس الأول وحكمه الذي امتد من ١٠٨١ م حتى ١١١٨ م . وكتبت كتابها هذا بأسلوب بلاغي على نمط كتابات المؤرخين الإغريق القدامى . وقد دفعها الرغبة في تملق أبيها واستعطافه إلى المبالغة في إظهار الحماسة نحوه وتضخيم أعماله ، مما ترتب عليه إهمالها بعض الأحداث العامة الكبرى المعاصرة . ومع أن التاريخ الذي كتبه آنا كومنتا به كثير من نواحي النقص والعيوب ، إلا أن له أهمية خاصة من ناحية كونه من المصادر البيزنطية الأولى عن الحركة الصليبية في دورها المبكر .

وقد ظهر في أسرة كومنين أحد المؤرخين البيزنطيين المبرزين تجدر الإشارة إليه وهو السكرتير الإمبراطوري حنا كيناموس John Cinamus (جاء بعد ١١٧٥ م تقريباً ، ذلك أنه تعمد محاكاة طريقة اكرنيفون وبروكيوس ، من المؤرخين القدامى . ويقع ما كتبه في ستة أجزاء تناولت حكم حنا الثاني ومانويل الأول ، وتضمنت أحداث الفترة من ١١١٨ م إلى ١١٧٦ م . وقد أثق كثيراً على الإمبراطور مانويل ، كما دافع عن الإمبراطورية البيزنطية ضد مطامع البابا والكنيسة الكاثوليكية الغربية . وجاء ما كتبه في أسلوب رائع متين .

ومن الواضح أن الحروب الصليبية وخاصة الحملة الرابعة منها أثارت اهتمام المؤرخين البيزنطيين كثيراً وأبرز الأعمال في هذا المجال ما كتبه نيقetas أكوميناتوس Nicetas Acominatus الذي توفي سنة ١٢١٦ م ، وهو الذي على وجه التقريب شبهه بالمؤرخ نيلهاردون الذي أرخ عن العصر البيزنطي . ويقع ما كتبه في ٢١ جزءاً ، تناول فيها الفترة من ١١٨٠ م إلى ١٢٠٦ م وتضمنت وصفاً لحصار الصليبيين للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . وهذا الكتاب من بعض النواحي عبارة عن عدة دراسات عن حياة الأباطرة المعاصرين . ويعتبر خير ما كتب عن الحقائق الخاصة بحكم عمانوئيل الأول وسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . ويناقش المؤلف في طريقة محبيه تفوق الحضارة البيزنطية على ما أسماه واعتبره بربرية الغرب والواقع أنه كان أكثر إدراكاً لطبيعة وأصول العلاقات بين الشرق والغرب من أي مؤرخ آخر معاصر في أي بلد من بلدان العصور الوسطى .

وثمة مؤرخ بيزنطي آخر هو نقفور بلميدس Nicephorus Blemmydes برز في النصف الأول من القرن الثالث عشر وترجم لنفسه في سيرة شهيرة . وقد تضمنت هذه السيرة وصفاً طيباً لتطور الحياة الكنسية في ذلك العصر فضلاً عن الأحوال السياسية

والاجتماعية المعاصرة . وجاء تلميذه وهو رجل السياسة جورج اكربوليتا George Acropoliwa (١٢١٧ - ١٢٨٢ م) فكتب كتاباً من أعظم الكتب التاريخية البيزنطية «تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من ١٢٠٣ م إلى ١٢١٦ م» وهو خير ما كتب عن الفترة الحرجة منذ سقوط القسطنطينية حتى بعث الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . وكان جورج هذا شاهد عيان لكثير من التطورات والأحداث التي كتب عنها ، وامتاز أسلوبه في الكتابة بالمستوى الراقى الذى امتازت به محتويات الكتاب . وأما عن الفترة التالية ، فهناك كتابات جورج باخميروس George Pachumeres (١٢٤٢ - ١٣١٠ م) التى عالجت تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من ١٢٦١ م إلى ١٣٠٨ م . وعلى الرغم مما تصف به كتاباته من ادعاء وتظاهر بالعلم والمعرفة ، مقلداً فى ذلك المؤرخين القدامى ، فإن هذه الكتابات لها قيمتها الكبرى بوصفها مصدراً للمعلومات والمعرفة عن الصراعى الدينى والمذهبى فى هذا العصر . وقد جاء ما كتبه غير متحيز إلى حد ما بالنسبة لما كانت عليه الكتابة فى عصره .

ولدينا من المؤرخين فى القرن الرابع عشر نقفور جرجيوراس (١٢٩٥ م - ١٣٦٠ تقريباً) واسم كتابه «التاريخ البيزنطى من ١٢٠٤ م - ١٣٥٩ م» . وقد جاء هذا الكتاب فى ثمانية وثلاثين جزءاً بمثابة دراسة مفصلة للدين ، والفلسفة ، والعلوم : أما ما كتبه فى التاريخ فله قيمته حيث أنه ألقى ضوءاً على حضارة الدولة البيزنطية ، ومانشبت داخلها من منازعات دينية عقب صحتها فى القرن الثالث عشر .

أما عن العصر الأخير فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وهو العصر الذى انتهى بغروب شمسها وسقوطها فى يد الترك ، فقد عالجه ثلاثة مؤرخين شهدوا جميعاً تلك الأحداث ، أولهم دوقاس (١٤٦٠ م تقريباً) وهو من رجال الحاشية فى البلاط البيزنطى ومن رجال السياسة ، وقد تناول فى كتابته الفترة من ١٣٤١ م - ١٤٦٢ م . وأما جورج فرانتريس George Phrantzes (١٤٠١ م - ١٤٧٨ م تقريباً) فقد عالج أحداث الفترة

من ١٢٥٨ م إلى ١٤٧٦ م . أخيراً يأتي لا يونيكاس - خالكونديليس Laonikas Chalkondyles (حوالى ١٤٦٠ م) الذى عالج الفترة من ١٢٩٨ إلى ١٤٦٣ م . ويعتبر كتاب فرانتريس أحسن الكتب الثلاثة السابقة فى تصوير نهاية الإمبراطورية الإغريقية ، ذلك أنه كتب كتابه بوصفه شاهد عيان وبطريقة مشوقة وجاء بمادة يعتمد عليها . أما خالكونديليس فكان أول من فطن إلى خطر ظهور الترك على مسرح التاريخ وإلى تقيم قوتهم فى القرن الخامس عشر . ويحذر بالذكر أيضاً أن تشير إلى ما كتبه المؤرخ البيزنطى كريتوبولس المنسوب إلى امبروس وذلك عن عهد السلطان محمد الثانى حتى سنة ١٤٦٧ م .

وأخيراً ، فإننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن المؤرخين البيزنطيين فاقوا نظراءهم من المؤرخين الغربيين في سعة العلم والمعرفة . ذلك أن التراث الكلاسيكي القديم كانت له جذوره وسلطانه في الإمبراطورية البيزنطية أكثر مما كان في الغرب الأوربي . ولكن هذا الأثر للتراث الكلاسيكي خفف منه وأضعف من نفوذه إلى حد ما الطابع الجديد المتنوع للأدب البيزنطي . وهكذا ظل الكتاب في الدولة البيزنطية يحاكون في هذا الشكل والجوهر الكتاب القدامى في العصر الكلاسيكي دون أن تتاح له فرصة للتجديد والابتكار بالدرجة التي اتاحت لكتاب الغرب الأوربي . ففي العصور الوسطى كانت الحياة الثقافية في غرب أوروبا تتطور من مستوى منخفض قريب من مستوى البربرية إلى مستوى حضارى راقد نوعاً ما . أما في الشرق البيزنطي فكانت الثقافة تتدهور من المستوى الكلاسيكي القديم لتصبح ضحلة صورية . وهكذا في الوقت الذي كانت ثقافة الغرب تنمو وتتألق إذا بثقافة الشرق تجف وتذبل . وفي كلتا الحالتين سواء في الشرق أو في الغرب كانت فلسفة العالم المسيحي تدفع الكتابة التاريخية بطابع خاص ، وهنا نجد أن البيزنطيين في الشرق جرفهم تيار الخلافات العقائدية أكثر مما حدث في الغرب المسيحي .

أما عن كتابة التاريخ في روسيا في أواخر العصور الوسطى فقد تأثرت بشكل عميق بما كانت عليه في الدولة البيزنطية . والواقع أن روسيا لم تعرف سوى القليل من الكتابة التاريخية في بداية العصور الوسطى نظراً لحالة الجهل وعدم المعرفة بالقراءة والكتابة ، باستثناء الجنوب . وقد ظهرت عدة كتب تاريخية مجهول أصحابها منذ منتصف القرن الحادى عشر وأهم هذه الكتب « التاريخ النسطورى و التاريخ الفالسى » في القرن الثالث عشر ثم وضع بعد ستة ١٤٠٠ م تأثر المؤرخين الروس بالمؤرخين البيزنطيين وخاصة بالمؤرخ هاماركولس . ولم يلبث أن أصبحت الكتب التاريخية التي كتبها المؤرخون الروس بعد ذلك مجرد مجاميع رسمية . وفي أواخر العصور الوسطى جمعت في روسيا كثير من الكتابات عن حياة القديسين وهي كتابات مليئة بالمعجزات والأساطير .

بعض المبرزين من المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى

كانت حضارة الشعوب الإسلامية لا الحضارة المسيحية هي أرقى حضارات العالم وأكثرها تقدماً في العصور الوسطى . ويبدو صدى هذه الحقيقة في الجانب الثقافي ، الأمر الذي ترتب عليه ظهور عدد من المؤرخين يعتبرون من أقدر المؤرخين الذين عرفتهم العصور الوسطى . وعلى رأس هؤلاء المؤرخين يأتي ابن خلدون الذي فاق تماماً أي مؤرخ مسيحي في العصور الوسطى ، وذلك في إدراكه لأصول التطور البشري والثقافي والعوامل التي تتحكم في ذلك التطور ، ولم يستطع مؤرخ آخر في العالم المسيحي أن يضارع ابن خلدون في تلك المكاتبة حتى عهد فولتير في القرن الثامن عشر الميلادي . وإذا قارنا المؤرخين المسلمين في مجموعهم بالمؤرخين المسيحيين نجدهم يمتازون بالقدرة على استنباط أحكام مستقلة ، كما يمتازون بسعة الأفق وعدم التعصب فضلاً عن تفوقهم في الإلمام بأساليب التقويم والترتيب الزمني للأحداث ، الأمر الذي مكنهم من التأريخ للأحداث على نحو أدق بكثير مما فعله الكتاب المسيحيون . . .

وتنحصر البواعث الرئيسية التي شجعت المسلمين على العناية بكتابة التاريخ في القرون الأولى التي أعقبت البعثة النبوية في الرغبة في تزويد الخلف بتراث الإسلام ، والحفاصة لإثبات صلة النسب بالرسول (عليه السلام) والحرص على تمجيد الفتوح الإسلامية وإعلاء شأن المجاهدين المسلمين . وظل التوثيق التاريخي عند المسلمين يقوم على أساس روايات متصلة يروها الخلف عن السلف وتتناول أصل العقيدة الإسلامية وإنتشارها . ولم تكن الدراسة التاريخية والنقد أمراً أساسياً عند نقلة الروايات والمأثور من الحديث والسنة . وعلى هذا الأساس فقد بدأت كتابات التاريخ عند المسلمين في شكل العناية بالتاريخ الديني والسياسي ولم يكن بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي سوى أقدر المؤرخين المسلمين واعظمهم ابتكاراً . ثم إن المؤرخين المسلمين آمنوا بالنظرية نفسها التي آمن بها المؤرخون المسيحيون ، وهي نظرية العناية والمشية الالهية وأثرها في تطور أحداث التاريخ . وكل ما هناك هو الله عز وجل حل محل يهوه اله العبرانيين . ثم إن طريقة الكتابة عند المؤرخين المسلمين تأثرت إلى حد كبير بالأساليب الفارسية كما يبدو ذلك من بعض كتابات الفردوس (٩٣٥ - ١٠٢٠ م) التي ترجمت بسرعة إلى العربية .

ومن الطبيعي أن تنحصر أولى الأعمال التاريخية عند المسلمين في السيرة النبوية من ناحية وفتوح البلدان على أيدي المسلمين من ناحية أخرى . وكان أول كتاب يسترعى الاهتمام من كتب السيرة النبوية هو كتاب ابن إسحق المتوفى سنة ٧٦٨ م ، ويتصف هذا الكتاب بأنه محاولة جادة لجمع الحقائق المرتبطة بالسيرة النبوية من ناحية وأصول الإسلام من ناحية أخرى . والواقع أنه من خيرة الكتب التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة الفترة التي أعقبت البعثة النبوية ، ولذا اعتمد عليه المؤرخون المسلمون الذين جاءوا بعد ذلك ، كما ضمنه ابن هشام (ت ٨٣٤ م) كتابه المشهور عن السيرة النبوية . ومن أوائل الكتب الهامة التي تكملت عن الفتوحات الإسلامية كتاب الواقدي (٧٤٧ م - ٨٢٣ م) ، وهو المؤرخ الذي خطى بمكانة كبيرة في بلاط الخلفاء العباسيين .

ثم خطت كتابة التاريخ خطوة واسعة على يد البلاذري (ت ٨٩٢ م) الذي كتب تاريخاً نموذجياً لحروب المسلمين وفتوحاتهم الأولى وسمى كتابه «فتوح البلدان» ويتسم إلى نفس جيل البلاذري مؤرخ آخر هو الدينوري (ت ٨٩٥ م) الذي كتب كتاب «الأخبار الطوال» وهو مؤلف هام يعالج تاريخ العرب والفرس . أما خيراً ما كتب عن الخلافة العباسية في بغداد فهو كتاب «تاريخ بغداد» لأمين أبي الطاهر المتوفى سنة ٩٠٢ م .

أما عمدة المؤرخين في التاريخ السياسي ورواية الأخبار في الإسلام فهو الطبري (٨٣٨ م - ٩٢٣ م) الذي تنقل وتجول كثيراً ودرس الشريعة الإسلامية وعلومها . وقد تناول في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» أحداث التاريخ حتى ٩١٥ م . والواقع أنه أجاد في كتابه التاريخ كتابة حولية ، فشاع كتابه وتداوله المؤرخون المسلمون الذين جلموا من بعده ، وحاكوه واتخذوه نموذجاً لهم ، حتى شبه البعض بأنه صار عند المسلمين في منزلة المؤرخ ليني عند الرومان . على أن هذا التشبيه غير دقيق لأنه أدق من ليني وإن كان دونه في بلاغة الأسلوب . والواقع أن كتاب الطبري عبارة عن تجميع لحشد ضخم من المادة التاريخية ، مع قليل من التنظيم والتنسيق ، مما يجعل أهميته تنحصر في كونه مصدراً ينهل منه المؤرخون من بعده .

أما المسعودي المتوفى سنة ٩٥٦ م فلم يكن مجرد أحد مؤلفي الموسوعات في الإسلام ، وإنما كان أيضاً واحداً من رواد المؤرخين المسلمين . ذلك أنه نبذ طريقة الطبري في التاريخ الحولي ورتب تاريخه وفقاً لتسلسل الخلفاء والأسرات الحاكمة والموضوعات . واحتوى كتابه «مروج الذهب» على كثير من المعرفة والمعلومات الخاصة بعلم الأنساب والسلالات فضلاً عن الجوانب الثقافية والاجتماعية ، كل ذلك بالإضافة إلى الأحداث السياسية . وإذا كان المسعودي قد وصف بأنه «هيودوت العرب» فإن هذا الوصف جاء سليماً عادلاً ، لأنه كانت

له نفس القدرة على الاستطلاع والتأمل والحفاصة فى جمع المعرفة مثلاً كان « لأبى التاريخ » ولكنه كان أكثر أنقياداً من هيودوت فى تقبل الأساطير والعجائب .

أما ابن مسكويه (حوالى ٩٧٠ م) فكان من أقدر المؤرخين المسلمين وأشدهم إعجاباً بالطبرى ذلك أنه جمع بين الذكاء النادر والإلمام الكامل بكثير من المعلومات الجديدة الحية وخاصة فيما يتعلق بالأمور الإدارية والحربية . وامتاز كتابه « تجارب الأمم » بصدق الأحكام والبعد عن الهوى والصراحة حتى فيما يقوله عن أعظم حكام المسلمين . لذلك لا عجب إذا قال عنه الأستاذ مارجليوث عند حديثه عن المؤرخين المسلمين « إن كتابه التاريخ بلغت ذروتها على يد مسكويه » . هذا وإن كان ابن مسكويه لم يرق إلى مستوى ابن خلدون فى فلسفة التاريخ .

وثمة مؤرخ آخر من مؤرخى المسلمين هو أبو على التنوخى (٩٣٩ م - ٩٩٤ م) الذى دون كتابه « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » فيما بين سنتى ٩٨٢ م ، ٩٩٤ م وجمع فيه قدر كبيراً من النوادر والقصص التاريخية . أما عن دمشق وعن أعلام المسلمين بها فلدينا كتاب « تاريخ دمشق » لعلى بن محمد المعروف بابن عسكر (١١٢١ م - ١١٩٣ م) . أما أغزر المؤرخين المسلمين معرفة وأعمالهم بحثاً فى أصول مصر الإسلامية فهو المؤرخ المقرئى (١٣٦٠ م - ١٤٤٢ م) . ولم يكن المقرئى عالماً مبتكراً بقدر ما كان رجلاً ضعيفاً فيما جمع من مادة غزيرة ، وأهم كتبه كانت أبحاثه فى خطط مصر فى كتابه « الواعظ » وهو كتاب لا يناظره مصدر آخر عن أخبار القاهرة فى العصور الوسطى . كذلك كتب كتاباً عن تاريخ خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك وموسوعة كبيرة عن تراجم أعيان مصر^(١) .

وهناك كتب تاريخية أخرى موسوعة فى التاريخ منها ما كتبه أبو الفرج الأصفهاني (٨٩٧ - ٩٦٧ م)^(٢) وابن الأثير المتوفى ١٢٣٤ م وأبو الفدا (١٢٧٣ - ١٣٣١ م) . ونخص بالذكر ابن الأثير بالذات بوصفه أحد المؤرخين المسلمين السابقين إلى النظر إلى التاريخ نظرة فلسفية على أساس تقييم التطور التاريخى فى ضوء الأسلوب والنتائج .

(١) من الواضح أن ثمة لبس وقع فيها المؤلف ، حيث إن الموسوعة الكبيرة التى كتبها المقرئى فى التاريخ وهى كتاب السلوك لم يعالج فيها تاريخ الفاطميين ، وإنما عالج تاريخ الأيوبيين والمماليك . وإذا كان المقرئى قد تعرض للفاطميين وتاريخهم ، فإن ذلك جاء عرضاً فى كتابه « الواعظ » السابق الإشارة إليه فى المتن ، فضلاً عما جاء فى كتاب « إغاثة الأمة » وهو كتاب صغير يعالج فيه المقرئى الجانب الاقتصادى والمجاعات والأوبئة التى تعرضت لها مصر على مر عصور التاريخ وأسبابها . كذلك لم يكتب المقرئى كتاباً مستقلاً عن تراجم أعيان مصر ، وإنما جاءت هذه التراجم فى ذيل كل سنة من السنوات التى أتى على أحداثها فى كتاب السلوك (المراجع) .

(٢) مرة أخرى لم يوفق المؤلف فى اختيار كتاب الأغاني لأن الفرج الأصفهاني ليكون مثلاً للموسوعات التاريخية بالذات عند المسلمين . فع اعترافنا بأهمية كتاب الأغاني كموسوعة أدبية ضخمة ومع اعترافنا بوفرة ما فيه من مادة تفيد المؤرخ إلا أن أهميته فى خدمة علم التاريخ تأتي دون شك بعد كتاب مثل موسوعة « نهاية الأرب » للنويرى مثلاً (المراجع) .

أما أقدر المؤرخين المسلمين وأبعدهم شهرة في علم كتابة التاريخ فهو المؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢ م - ١٤٠٦ م) . وترجع أهميته إلى قدرته على تعقل موضوع التاريخ وتطبيق ذلك المذهب العقلي على مناهج التاريخ وأهدافه . ونستطيع أن نقول عن ابن خلدون إنه « روجر بيكون » العصور الوسطى بالنسبة لعلم كتابة التاريخ . لقد آمن بأن التاريخ ينبغي اعتباره علماً وأن هذا العلم عليه أن يعالج التطور الاجتماعي ، وهو ذلك التطور الذي يعتبر في رأيه نتاجاً للتفاعل بين البيئة والطبيعة وبين حياة الإنسان ككل . واستطاع ابن خلدون في المقدمة الشهيرة التي وصفها لكتابه « العبر » أن يعرض بطريقة منسقة تلك الآراء والنظريات وأن يخلق تمييزاً واضحاً بين الكتابة الحولية التقليدية أو القائمة على اتباع نظام العهود والعصور من ناحية وبين التاريخ كما تصوره هو من ناحية أخرى ، إذ تصور ابن خلدون علم التاريخ بوصفه علم نشأة المجتمع والحضارة وتطورها . وبذلك سبق ابن خلدون كلاً من فيكو وترجوف في قوله بوحدة التطور التاريخي واستمرار ذلك التطور . وكان لابن خلدون إدراك كبير لمفهوم الزمن وأثره على تطور سنن الحياة وشرائعها . وفي معرض مقارنة ذلك بالمفاهيم الثابتة أو المتطورة عند المؤرخين المسيحيين المعاصرين له ، تبرز نظرية ابن خلدون عن « تبدل الأحوال في الأمم والأجيال تبدل الأعصار ومرار الأيام .. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول . وأوضح ابن خلدون الدور الذي تلعبه العوامل النفسية وعوامل البيئة على تطور الحضارة . وبذلك يكون ابن خلدون قد سبق ماركس عندما قال بأن ما تضعه الشعوب من شرائع ونظم يقوم على أساس ما تختاره هذه الشعوب من نظم وعادات . وقد طبق ابن خلدون في كتابه « العبر وديوان المبتدا والخبر » وهو كتاب كبير في سبعة أجزاء - هذه النظرية عن التاريخ خصوصاً عن تطور العرب الاجتماعي الثقافي ولقد قيم روبرت فلنت عمل ابن خلدون في الكلمات التالية :

« لقد كان محمد بن خلدون أول كاتب يعالج التاريخ بوصفه علماً له خصائصه الخاصة . وسواء أكان يمكن اعتبار ابن خلدون لهذا السبب هو المؤسس لعلم التاريخ أم لا ، فإن هذا قول قد يكون محل اختلاف بين وجهات النظر ولكن أي قارئ أمين لمقدمته لا يستطيع أن ينكر أنه أحق بهذا اللقب من أي كاتب آخر ظهر قبل فيكو. » (١)

أما عن كتابة التراجم والسير فقد كانت مجال اهتمام عدد كبير من المؤرخين المسلمين . ولقد سبق أن أشرنا إلى أهم الكتب التي تناولت سيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) . ومن السير التاريخية الهامة أيضاً سيرة صلاح الدين للمؤرخ الإسلامي بهاء الدين ابن شداد (١١٨٥ م - ١٢٣٤) وطبقات ابن سعد (ت ٨٥٤ م) الذي أخرج لنا أول مجموعة تاريخية

(1) Robert Flint, The philosophy of History in France (Scribner 1894) pp. 158 f.

منظمة من التراجم لها قيمتها عن أعلام المسلمين الأوائل . ثم لدينا باقوت الحموي (١١٧٩ م - ١٢٢٩ م) وهو أحد الجغرافيين المسلمين المبرزين ، فقد جمع معجم الأدباء وضعه تراجم عدد كبير من مفكرى الإسلام . على أن العمل الضخم الأكثر أهمية في مجال التراجم هو الكتاب الكبير الذى كتبه ابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢ م) وأسماء وفيات الأعيان ، وضمنه ما لا يقل عن ٨٦٥ ترجمة لمشاهير الأعلام في التاريخ الإسلامى . ويشبه هذا العمل ما قام به تريمبوس في العالم المسيحى . أما الآثار الإسلامية فقد عالجتها بعض كتب مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وكتاب تاريخ مصر لابن إياس وقد تناول فيه تاريخها حتى الغزو العثماني . أما العالم الإسلامى الذى يعتبر من علماء الموسوعات فضلاً عن كونه من المبرزين في الرياضيات وعلم الفلك فهو البيروني (٩٧٣ م - ١٠٨٤ م) ويعتبر كتابه «الآثار الباقية» من خيرة كتب التقوم التاريخى الإسلامى ، إذا حاول أن يبنى هذا التقوم مما علق به من شواثب وأن ينظمه على أسس فلكية . ولم يظهر في العالم المسيحى حتى زمن سكاليجر علم من أعلام التقوم التاريخى يضاهى البيروني في مكانته العلمية .

ملحوظات ختامية عن كتابة التاريخ في العصور الوسطى

مع أننا لا نميل إلى المبالغة في انحطاط مستوى الكتابة التاريخية في العصور الوسطى عند مقارنتها بما هي عليه في العصر الحديث ، إلا أننا لا نستطيع أن نجامل مؤرخى العصور الوسطى - وخاصة في الغرب الأوربي - إلى مدى بعيد . فالنماذج الجاهزة أمامنا للكتابة التاريخية في تلك العصور ، مثل كتابات أورزيوس وكاسيدورس كانت منحطة في مستواها . ولم يكن هناك تجميع منظم مرتب للمصادر ، كما أنه لم يكن هناك تطبيق منظم للدراسة والبحث بل إن النظم والقواعد المتبعة في الدراسة التاريخية كان من شأنها أن تعوق البحث وتفسده أكثر مما تخدمه . ثم إن تبادل المعلومات بين المجتمعات كان ضعيفاً بسبب ضعف الاتصالات فيما بينها وبين بعض ، الأمر الذى جعل من الصعب على الكاتب أن يلم بأطراف أى موقف من المواقف إماماً عاماً شاملاً . هذا إلى أن مؤرخى العصور الوسطى نظروا إلى الحياة نظرة بدائية مليئة بالأوهام والخرافات مما جعلهم غير مسئولين عما يكتبون . ولم تكن هناك علوم طبيعية يستندون إليها في مقاومة الخرافات والمعجزات ، وكذلك لم يكن هناك علم اجتماع يمكنهم من نقد أوضاع المجتمع الذى يعيشون فيه .

وتحت تأثير كل هذه الظروف ، ربما استشار عجبنا وصول مؤرخى العصور الوسطى إلى ما وصلوا إليه فعلاً . ومن عرضنا السابق الوجيز لعلم كتابة التاريخ في العصور الوسطى تبرز

عدة حقائق يأتي في المقام الأول منها أن الكتابة التاريخية في تلك العصور على غرار ما كانت عليه في العصور القديمة - تناولت الأحداث التي عاصرها المؤرخ وكانت معالجة الفترات البعيدة عن عصره تأتي في صورة رديئة مختصرة . والحقيقة الثانية أنه كان من المستحيل التفرقة بين الكتابة التاريخية كما هي في المدونات التاريخية وبين الكتابة التاريخية السليمة المنتظمة وبين السير التاريخية وذلك استناداً إلى مناهج عامة ثابتة موحدة . ويلاحظ بعد ذلك أن الغالبية العظمى من المؤرخين من رجال الكنيسة كانوا في معظمهم من رجال الدين وخاصة الرهبان ، وهؤلاء لا يمكن أن نلومهم في عنف على تجاهلهم للمناهج التاريخية ، فضلاً عن أنه ينبغي أن نذكر أنه لولاهم لكانت المؤلفات التاريخية في العصور الوسطى أسوأ مما هي عليه فعلاً . وبعد ذلك تأتي الحقيقة الرابعة وهي أنه ينبغي في أول نظرة أن يكون واضحاً أن كتابة التاريخ في العصور الوسطى في معظمها اتبعت نظام العهود والفترات ولم تتسم تلك الكتابة بالتحليل العميق للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي أثرت في التطور التاريخي . وأخيراً يمكن للباحث أن يدرك الحقيقة الخاصة بأن الرغبة في مزيد من الثقافة في أثناء الحروب الصليبية وما بعدها كان من شأنها أن يزيد في إنتاج المؤرخين وأن يصاحب تلك الزيادة في الكم رقي في الكيف وهو الأمر الذي أنبأ بالعودة إلى المستوى الذي كانت عليه الكتابة التاريخية في العصور الكلاسيكية القديمة .

المراجع

- 1- Hayes: An Introduction to the Sources Relating to the Germanic Invasion chaps VIII-XV.
- 2- Guilday: church Historians pp. 71-127
- 3- Rlter Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book chaps ii-iii.
- 4- Thompson: History of Historical Writing vol 1. Books II-IV
- 5- Charles Gross: Sources and Literature of English History (Macmillan 1915)
- 6- M.L.W. Lastner: Thought and Letters in western Europe (A.D. 500-900) Dial press 1931.
- 7- R.L. Poole: Chronicles and Annals, Oxford University press 1926
- 8- C.H. Jenkins: The Monastic chronicler London 1922
- 9- Maire Schulz: Die Lehre von der Historischen Methode bei den Geschichtschreibern des Mittelalters, Berlin 1909.
- 10- James Gairdner: Early chroniclers of Europe England London 1883.
- 11- Gustav Masso: Early chroniclers of Europe France London 1883.
- 12- Ugo Bulzani: Early chromiclers of Europe Italy London 1883.
- 13- Wilhelm Wattenbach: Deutschlands Geschichtsquellen im Mittelater, bis zur Mitte der dreizehnten jahrhunderts Berlin 1893-49 2 vols.
- 14- Ottokar Lorenz: Deutschlands Geschichtsquellen in Mittelater Seit der Mitte des dreizehnten Jahrhunderots. Berlin 1886-87- 2 vols.
- 15- A.A. Vasiliev: History of the Byzantine Empire «Unveristy of Wisconsin Studies» Madison Wis, 1978-29. u Vols.
- 16- Karls Krumbacher: Geschichte der byzantischen Letter atur munich 1897.
- 17- D.S. Margolouth: Lectures on Arabic Historians. Calcutta 1930
- 18- R.A. Nicholson: Literary history of the Arabs Machiullan 1929.
- 19- Nathaniel Schmidt, Ibn Khaldoun Columbia University press 1930.
- 20- J.H. Robinson ed., Readings in European History Voll Ginn 1904 2 vols
- 21- J.A. Giles ed., Six Old English chronicles London 1888.
- 22- L.R. Loomis ed; The Book of the popes. Columhia univ. press 1916.
- 23- Ernest Brehaut ed., The history of the Franks by Gregory Bishop of Tours. Columbia univ. press 1916.
- 24- C.C. Microw ed., Two cities by Otto, Bishop of Freising. Columbia univ. press 1929.
- 25- P.K. Hitti and F.C. Margotten eds., The Origins of the Islamic state (Translation of Al Baladhuri) Columbia Unvieristy press 1916, 1924
- 26- J.N. Hussey Church and learning in the Byzntine Empire. Oxford Univ. Press 1937.
- 27- Heinz Quirin Einführung in des Studium der mittelaterlichen Geschichte. Brunswick 1961.

الحركة الإنسانية والكتابة التاريخية .

طبيعة الحركة الإنسانية وتأثيرها العام على الكتابة التاريخية

لقد أدى البحث الحديث والنظرة الناقدة للتيارات الفكرية في التاريخ الأوربي إلى تعديل آراء يعقوب بيركهاردت Jacob Burckhardt ، حنا أدنجتون John Adington وهي آراء مبالغ فيها عن علاقة الحركة المعروفة « بحركة النهضة » بتطور الفكر والثقافة في أوروبا . ذلك أن البعض أوضح أن حركة النهضة هذه على الرغم مما فيها من سمات عظيمة لم تمثل تقدماً مباشراً وملموساً نحو الوصول إلى المفاهيم الحديثة . وكل ما هنالك هو أن هذه الحركة جاءت وليداً طبيعياً للعصر السابق لها وهو العصر الوسيط . ولاشك في أن هذه الحركة تمثل إحياءاً للعناية بالحضارة القديمة التي كانت في كثير من جوانبها الرئيسية تتعارض مع النظرة الحديثة للحياة . لكن هذا الإحياء أسهم بطريقة غير مباشرة في تطور النظرة الحديثة . وخاصة عن طريق الخروج من نطاق الجمود الذي فرضته الكنيسة على الفكر في العصور الوسطى وعلى إبراز الاهتمام بالأمر الدنيوي .

وصار متفقاً عليه الآن أن يطلق اسم (الحركة الإنسانية) على الجانب الأدبي من حركة النهضة هذه ، وليس معنى ذلك إحياء الاهتمام بالأدب القديم فحسب ، بل أيضاً تجديد استحسان وتذوق ما في الأدب الوثني من اهتمامات إنسانية عريضة ونظرة علمانية إلى الحياة . فهذه الحركة الإنسانية جاءت رد فعل عاطفي وشعري للاتجاهات الروحانية المترمة التي تمسك بها علماء اللاهوت ، دون أن تكون ثورة حقيقية أو ملموسة على اللاهوت نفسه أو الفلسفة الاجتماعية . والفكر الذي يتسم إلى المذهب الإنساني إنما يمثل اتجاهاً وسطاً في ميوله ومثله بين الفكر المدرسي في العصور الوسطى والفيلسوف الاجتماعي أو الإنسان المتشكك في العصر الحديث .

ومن الطبيعي أن يكون هناك تباين كبير من ناحية طبيعة ونوع حصيلة المؤرخين في تلك الفترة ، مثل ذلك التباين الذي يبدو بين مؤلفات بوجيو Poggio ، وبين كتابات جويكارديني Guicardini . ومع ذلك فإن هناك خصائص رئيسية لعلم كتابة التاريخ عند أصحاب المذهب الإنساني وهي خصائص عامة وشاملة الى حد كبير مما يجعل من الضروري حصرها والإشارة إليها .

ولقد جاء تأثير الحركة الإنسانية على الكتابة التاريخية متمشياً تماماً مع المظاهر الرئيسية لتلك الحركة بوجه عام . فهذه الحركة بالنسبة للتاريخ كانت تعنى البحث عن النصوص القديمة ثم مقارنة ونقد وتصحيح ما تم الوقوف عليه منها . وكان أن خلق نقد النصوص التي حوتها الكتب إحساساً أولياً بقيمة المعالجة الناقدة للوثائق التاريخية .

هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل في تضاعف عنصر المعجزات في عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلاً عن تضاعف الآثار العاطفية « للملحمة المسيحية » . ومع ذلك لا ينبغي أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين أو المتشككين في الديانة المسيحية ، وإنما الغالب - أنهم تجاهلوا - ولم ينكروا - مزاعم اللاهوت والجدل الديني . ويرجع ذلك إلى حد ما إلى وداعة التركة الكاثوليكية .

وهكذا قدر للتاريخ الوثني أن يستعيد إلى حد ما مكانته البارزة التي فقدتها على أيدي الكتاب المسيحيين بصفة عامة وأوغسطين وأورزيبوس على وجه الخصوص . ويرجع هذا إلى حد ما إلى إعجاب الإنسانيين بالثقافة الكلاسيكية فضلاً عن حقيقة هامة هي أنه لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية صار معظم المؤرخين البارزين من العلمانيين وعامة الناس بعد أن كانوا من رجال الكنيسة ورجال اللاهوت . وكان من الطبيعي أن تكون النماذج القديمة المكتوبة في التاريخ لها أثرها الكبير في تحسين الأسلوب من ناحية ، ثم في شد الانتباه إلى القوى والأحداث السياسية ، وهذا أمر له أهميته . وكل هذا يعني في إيجاز العودة بالتاريخ الى الانجاء العلماني ، وهو الأمر الذي زاد من قوته النعرة الاستقلالية عند المدن الإيطالية التي أخذت تظهر في صورة جمهوريات تعتر بكيانها ، فضلاً عن ظهور بوادر القوميات الحديثة .

وكان أن بدأت كتابة التاريخ في عصر الحركة الإنسانية في إيطاليا بالذات ، وانخذت لنفسها طابعاً محلياً بحيث انحصرت في دائرة تسجيل منجزات المدنية وأعمال أمرائها . ولكن لم تلبث القوميات الحديثة الناشئة أن أثرت في كتابة التاريخ مما أدى الى اتساع دائرتها السياسية . وأخيراً فإنه على أيدي الإنسانيين ازداد الطابع التاريخي لعلم التاريخ وضوحاً ورسوخاً . ذلك أن اهتماماتهم تركزت أساساً في حضارة الماضي البعيد ، ومن ثم لم يقصروا كتاباتهم التاريخية على

التاريخ المعاصر أو مجرد إطالة فيها إضافات متنوعة لما كتبه جيروم . والحق أن ثمة محاولات لا بأس بها لكتابة تاريخ العالم ظهرت في كتب سايلكوس ، جيوفاني ، فرانسوا بلفورست ، يوحنا كلوفر ، سير والتر رالي .

والواضح أن الحركة الإنسانية أحدثت تقدماً أدبياً وثقافياً في الكتابة التاريخية أكثر مما أحدثت من تقدم في المنهج العلمي . ذلك أن هذه الحركة ساندت التاريخ وزودته بدفعة هائلة بوصفه نوعاً من الأدب لا بوصفه علماً اجتماعياً أو علماً ناقداً . وهكذا حرص مؤرخو الحركة الإنسانية على أن يأتوا بأئمة البلاغة من أمثال ايسقراط ، ليني ، تاكيتوس ، بلوتارك ، سوتونيوس ، لا بأئمة التاريخ من القدامى أمثال ثيكوديدس ، وبوليوس . وإذا كان مؤرخو المدرسة الإنسانية قد نبذوا المعجزات التي آمن بها مؤرخو العصور الوسطى فإنهم أبدوا كثيراً من التبجيل للخرافات الماثورة عن الأقدمين وإن لم يستوعبوها دائماً ببساطة وسذاجة . وكثيراً ما كانت تشوه الحقائق والمواقف التاريخية في عصر الحركة الإنسانية حتى تتمشى مع متطلبات البلاغة وقواعد الخطابة . كذلك كان يتم تفسير الحقائق التاريخية وعلى سبيل المثال أحداث سنة ١٥٠٠ م - بنفس مفاهيم الحضارة القديمة والعكس صحيح مع عدم العناية بروح التاريخ في الحالتين .

كذلك لم تحقق الحركة الإنسانية للكتابة التاريخية - كما كان مفروضاً بصفة عامة - تحرراً كاملاً من سيطرة المصالح المتبادلة والرغبة في محاباة أصحاب السلطة . وكل ما فعلته أنها حررت التاريخ الى حد ما من الاتجاه الديني . ولكنها أتت في الوقت نفسه بقيود علمانية لم تكن أقل خطراً على الموضوعية والدقة التاريخية . من ذلك أن تمجيد الأبطال استمر على ما هو عليه ، وإذا كان مؤرخو العصور الوسطى قد مجدوا رجال الكنيسة والشهداء والعذارى ومن إليهم ، فإن مؤرخي الحركة الإنسانية قد مجدوا أعمال أمراء المدن ومن جاء بعدهم من ملوك الدول القومية . ويوضح الأستاذ بير Buir هذه الحقيقة بقوله :

« يجب أن نعترف بأنه عندما آذنت العصور الوسطى على نهايتها ، لم يؤد إحياء دراسة القدماء في أول الأمر ولا قيام جمهوريات علمانية تمجد الآداب والعلوم والفنون إلى تحرير كتابة التاريخ بشكل ملحوظ . ذلك أن الكاتب في عصر الحركة الإنسانية إذا كان يعمل في بلاط أمير فإنه كان لا يعني إلا بكتابة ترجمة لذلك الأمير أو لتاريخ أسرته ، أما إذا كان مكلفاً من قبل السلطة الحاكمة في المدينة بكتابة تاريخ تلك المدينة ، فإنه في هذه الحالة كان لا يجد قدراً من الحرية ، مثلما كان الحال مع المؤرخ من رجال الكنيسة . لأن الأخير لم يخش سيطرة أمير ورث سلطانه عن آباءه ولم يحرقه تيار الغرور والزهو بمدبته . وكان القارئ هو الآخر من الإنسانيين ، ومن ثم فإن سطوة البلاغة - وهو الشيء الذي لم يتبدد كلية خلال العصور

الوسطى - عادت لتؤكد نفسها في عصر الحركة الإنسانية ، وصار لها من السلطان ضعف ما كان لها من قبل . وهكذا ركرر أولئك المؤرخون اهتمامهم في أن يجعلوا من أمجاد أمرائهم ومدنهم أداة يستعرضون بها أسلوبهم اللاتيني الذي نالوا بفضله ما وصلوا إليه من وظائف ومناصب . ولما كان التاريخ على هذه الصورة قد أصبح مرة أخرى قنًا ونوعاً من فروع الأدب يتناول الأمور الدنيوية ويعرض عن التنويه بالمعجزات الكنيسية بل ويتناسى فكرة الخلاص ، فقد كان لابد له أن يأخذ عن الأقدمين ما تعمقت به كتابتهم من ذكر للنبوءات « المسائل الحارقة للطبيعة »⁽¹⁾ .

وعلى الرغم من عدم وجود علاقة مباشرة أو عارضة بين الحركة الإنسانية واختراع آلة الطباعة فقد جاء الاثنان في عصر واحد . وكان اختراع هذه الآلة أكبر حافز على تأليف الكتب في مجال التاريخ وغير التاريخ من المجالات الأدبية الأخرى . ولا يقل أثر اختراع هذه الآلة على مستقبل كتابة التاريخ عن أثر إتقان فن الكتابة في الماضي ، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا إن أعمال ثيكوديدس ، بوليوس ، بلوندس ، مابليون ، فون رانكه لم تكن أكثر شأناً أو أقوى أثراً من عمل ذلك المخترع العظيم الذي اخترع للعالم آلة الطباعة في الوصول بعلم كتابة التاريخ الى مكانته الحالية .

(1) Burr, loc. cit. p. 261.

الكتابة التاريخية على أيدي الإنسانيين في إيطاليا

وقبل أن نتناول بالحديث مؤرخين معينين من الإنسانيين ينبغي أن نتحدث قليلاً عن جانب معين من تلك الجوانب التي أسهموا بها في خدمة علم التاريخ ، وعلى وجه التحديد جانب البحث بهمة وحفاة عن المخطوطات القديمة في الأديرة والأماكن الأخرى غير المطروقة وقد ترعى حركة البحث هذه رجال مثل بوجيو ، انوك الاسكولى . وهكذا خرجت إلى النور مخطوطات كانت تعتبر مفقودة لشيشرون ، كوتيليان ، نيبوس ، بلاوتوس ، ماريال ، أوفيد ، بليني ، فارد ، تاكيتوس . وكان لاكتشاف انوك الاسكولى للمخطوط الذي كتبه تاكيتوس بأسم جرمانيا أهمية خاصة . ذلك أن هذا المخطوط صار - كما رأينا - مثار جدل كبير وسط كل الوثائق التاريخية المعاصرة . وهكذا ظهرت إلى النور مصادر تاريخية هامة وبدأ نشرها ، وكان هذا إيذاناً بمولد حركة واسعة تستهدف النشر والنقد على أسس علمية .

أما النقلة في الكتابة التاريخية إلى مثل الإنسانيين وطرقهم ، فتبدو في إنتاج ألبرتينيوس موساتوس Albertinus Mussatus (١٢٦١ م - ١٣٣٠ م) الذي كتب في مطلع القرن الرابع عشر عن زعماء إيطاليا وأحداثها بلغة لاتينية رائعة . هذا بالإضافة إلى إنتاج جيوفاني فيلاني Giovanni Villani الذي سبق الإشارة إليه . على أن فرانسيسكو بترارك Francesco petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) كان دون منازع الأب الحقيقي للحركة الإنسانية فضلاً عن كتابة التاريخ في إيطاليا في عصر تلك الحركة . كان بترارك يكتب بأسلوب لاتيني رفيع مركزاً اهتمامه في التاريخ على ثقافة العصر الكلاسيكي القديم وشخصياته البارزة خاصة في روما . فعرض في كتابه Liber de viris illistibus

عرضاً لتاريخ روما عن طريق الترجمة لعظائنها ، وترجم لواحد وثلاثين بطلاً من الأبطال التقليديين في التاريخ الروماني منذ عهد رومولوس حتى عهد قيصر . كذلك أورد في كتابه الآخر Rerum memorandum مجموعة من القصص الطريفة عن هؤلاء الأبطال . وعلى الرغم من أنه لم يتشكك في الأساطير المتواترة في كتاب العصر الكلاسيكي القديم ، مثلاً تشكك في أساطير العصور الوسطى المرتبطة بروما ، فإنه مع ذلك لم يأخذ ببعض أساطير العصر الكلاسيكي القديم مثل قصة هوراتيوس عند جسر نهر التير . هذا إلى أن نظرة بترارك إلى

التاريخ وإدراكه له كان يشوبها نقص واضح حيث أنه كان يؤمن بأسطورية وجود عصور مظلمة طويلة أعقت سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، كما أنه كان يقيم الثقافة الرومانية بمعايير عصره .

ثم كانت الحصيلة الهامة التالية من نتاج الحركة الإنسانية في علم تنوين التاريخ كتاباً اسمه (اثني عشر كتاباً في تاريخ فلورنسا) ألفه ليويناردو برونى (١٣٦٩ - ١٤٤٤ م) الذى كان محامياً وسكرتيراً للبابوية وأحد كبار الموظفين في فلورنسا . وفي هذا الكتاب كما في كتابه الآخر الذى أسماه (التعليقات) تبين كثيراً من خصائص الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية وعلى رأسها الالتزام بقواعد الأسلوب الذى سار عليه رجال البلاغة الإغريق والرومان ، فضلاً عن التمسك بفكرة أن الثقافة الكلاسيكية القديمة تفوق الثقافة المعاصرة كمصدر للإلهام التاريخي ، وأخيراً ، فإن ليويناردو برونى حرص في كتابته على حذف كثير من المعجزات والأساطير المسيحية والوثنية ، واهتم بصفة أساسية بالتحليل العملي للأحداث السياسية والنشاط السياسى . لكن إذا كان برونى قد رفض بوجه عام المعجزات والأساطير بما في ذلك كثيراً من تلك التى أحاطت بأصل فلورنسا ، فإن الذى كسبه في هذا المجال خسره في مجال آخر حيث أقحم في كتاباته قصصاً خطائية من تلك التى يشدق بها رجال البلاغة ، مع تكييف الحقائق التاريخية لتمشى مع مقتضيات البلاغة . كذلك لجأ برونى إلى استخدام المصطلحات الرومانية عند وصف الحقائق المرتبطة بعصر النهضة . هذا إلى أنه نظر بعين الاعتبار إلى أهمية نقد المصادر التى استخدمها . والحق أنه كان في إمكانه أن يصل إلى مستوى أعلى مما وصله لو أنه لم يستسلم للقواعد البلاغية التى سادت العصر القديم . وكانت فلورنسا في روايته مركز العالم على الرغم من أنه كان على درجة من الإنصاف جعلته يقر بأن أهل فلورنسا لم يكونوا جميعاً معصومين من الخطأ ، وكذلك سياسة فلورنسا نفسها . كذلك وضع برونى الاتجاه الإنسانى الذى يعزى الأحداث السياسية إلى أسباب شخصية ويضور بشكل مثير أعمال زعماء السياسة وشخصياتهم .

وكان لنهج برونى واتجاهاته أثر كبير على أول مؤرخى المدرسة الإنسانية في البندقية وهو ماركانتونيو كوشيو Marcantonio Coccio (١٤٣٦ م - ١٥٠٦ م) الشهير باسم دى صبغة كلاسيكية هو سايبيلكوس . وعرف عن سايبيلكوس هذا أنه أستاذ للخطابة ، كلفته حكومة البندقية بوضع تاريخ رسمى للمدينة . وكان أن فعل هذا ، فجمع في قصة محبوبة مختلف القصص الماثورة بتاريخ البندقية فضلاً عن الوقائع الخاصة بذلك التاريخ ، معتمداً بصفة خاصة على ما كتبه داندولا Dandolo ، وحرص على أن يضمن على هذا التاريخ كثيراً من الزخارف البلاغية والخيالية . والواقع أن هذا التاريخ الذى وضعه سايبيلكوس جاء ضعيفاً هذيلاً لأنه تجاهل كلية التاريخ الكنىسى والاقتصادى وهما جانبان لها أهمية خاصة لمن

يدرس تطور البندقية بالذات . كذلك كتب سايلكوس بحثاً امتدح فيه ليني . على أن أهم ما قام به سايلكوس هو محاولته كتابة تاريخ العالم وهو التاريخ الذى أطلق عليه اسم «التاسوع» ويمثل أولى محاولات المدرسة الانسانية فى هذا المجال .

والحق أن سايلكوس لم يكن معداً من الناحية المهنية لمثل هذا العمل . وإذا كان قد نجح فيه فإن هذه حقيقة تبين كيف ساعدت الحركة الإنسانية على تنمية الحاسة التاريخية عند المعاصرين . حقيقة إنه كان بين مؤرخى العصور الوسطى علماء عظماء ، لكن نظرتهم المعادية للماضى الوثنى وتعسفهم ضده كانا عاملين كبيرين أدبا الى تضاعف قيمة كتاباتهم عن فترة ما قبل العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن سايلكوس استمد تقويمه للأحداث بصفة أساسية من إيزيوس ، وجيرون ، فإنه أعاد إلى تاريخ العصور القديمة بعض ما يستحقه من الاعتبار ، وخصص فى مؤلفاته مساحة كافية لمعالجة عديد من الأمم القديمة . هذا الى أنه أبى أن يتقبل ما فى التاريخ العبرانى من أشياء غير معقولة ، مثلما فعل غيره من السابقين طوال ألف عام . ولم يكن ذلك هو التناقض الوحيد بين كتاب (التاسوع) من ناحية والكتب التاريخية فى العصور الوسطى من ناحية أخرى ، بل كان سايلكوس متشككا فى معجزات الكتاب المقدس نفسه ووضعها فى نفس المرتبة مع القصص الكلاسيكى القديم ، حتى إنه اعتبر شمشون هرقل العبرانيين . كذلك لا نجد فى كتبه أى ذكر «للمالك الأربع» الشهيرة على الرغم من معرفته الجيدة بالتاريخ الذى كتبه جيرون . وواضح أن سايلكوس لم يسرشد إلا بأعمال عدد قليل نسبيا من المؤرخين القدامى عندما كان يكتب تاريخه عن العصر القديم . ولكنه حاول أن يخلق انطباعاً زائفاً بسعة علمه ، فظاهر بأنه رجع إلى كافة المصادر التى استخدمها مرشدوه . كذلك وقع فى خطأ عام من أخطاء المدرسة الإنسانية وهو النظر الى أجزاء كثيرة من التاريخ القديم بعين رومانية . ونجد تقدماً كبيراً عند كتابته عن العصور الوسطى نتيجة لأستخدامه مؤلفات المؤرخين الممتازين أمثال بولس الشماس ، فلافيوس بلوندوس . ولكن كتابه جاء ضعيفاً فى معالجته للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . أما من ناحية اللهجة والمحتويات فنجد أن هذا الكتاب يمثل تقدماً ملحوظاً عن أورزيوس وكتاب العصور الوسطى الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط . ولم يكن سايلكوس هو المؤرخ الوحيد من عصر الحركة الإنسانية الذى كتب عن تاريخ العالم وإنما هناك جيوفانى دوجليونى Giovanni Daglioni وهو مؤرخ من البندقية كتب موجزاً لتاريخ العالم (١٦٠١ م) . ويعتبر هذا الموجز أكثر نضجاً من كتاب سايلكوس فى مجال التاريخ العلمى :

وإذا كان برونى هو هيودوت الحركة الإنسانية فى علم كتابة التاريخ وساييلكوس هو ديودورس تلك الحركة فإن بوجيو براتشيوليني Poggio Bracciolini (١٣٨٠ م - ١٤٥٩ م) كان ايفورس تلك الحركة . كان بوجيو - شأنه شأن برونى - سكرتيراً بابويا

وصاحب منصب رفيع في فلورنسا فضلاً عن أنه كان يستهدف التفوق على سلفه كمؤرخ ، وان يظهر براعته بصفة خاصة في الكتابة باللغة اللاتينية القديمة . ويصور مؤلفه «ثمانية كتب في تاريخ فلورنسا» التأثير الواضح للبلاغة الكلاسيكية على الكتابة التاريخية في عصر الحركة الإنسانية . ولهذا فنحن نتفق مع فيوتر في رأيه «إن ما حققه بوجيو كأديب خسرته كمؤرخ» . ومع ذلك فإن بوجيو تميز بقوة الملاحظة وجاء عمله أكثر اتساعاً وموضوعية من عمل بروني . وكان في استطاعته أن يحقق تفوقاً أكبر لو أنه قلح في تخلص نفسه من الرغبة الملحة في محاكاة كبار الكتاب في العصر القديم : كذلك حال منصبه الرسمي دون جعله أكثر صراحة وتعمقاً في تحليله للسياسة الداخلية لفلورنسا . على أن ذلك كله لا ينبغي أن يجعلنا ننسى نشاط بوجيو وأن نشيد بنجاحه كبجاعة متحمس في النصوص القديمة .

ويختلف عن إنتاج بوجيو اختلافاً كبيراً في طبيعة ما كتبه لورنزو فاللا (١٤٠٧ - ١٤٥٧ م) أول مؤرخي المدرسة الإنسانية في نابولي وأبرز النقاد التاريخيين الإيطاليين في تلك الفترة . والملاحظ أن المؤلف الوحيد المنسق من إنتاج فاللا هو كتاب عنوانه «تاريخ فردنياند الأول ملك أرغونه» . لكن هذا الكتاب لم يلق نجاحاً كبيراً . ففيه يبدو المؤلف وكأنه تاجر فضائح وليس مؤرخاً يعمل في مجال السرد التاريخي . كذلك لم يهتم فاللا إلا قليلاً بالأمور السياسية والعسكرية . وربما كانت أبرز نواحي الضعف في هذا الكتاب هي أنه جاء إلى حد كبير تاريخياً «رسمياً» وهو عمل لا يتفق وعقلية فاللا الناقدة .

أما العمل الذي حقق لفاللا شهرة كبيرة ومكانة قوية كناقدا فكان ما قدمه من أدلة قاطعة على زيف الوثيقة التي تعرف باسم (هبة قسطنطين) Donation of Constantine^(١) . وكان كوزانوس Cusannus قد أعلن تشككه في صحة هذه الوثيقة . كذلك قام الأسقف رينالد بيكون Regionald peacock في إنجلترا بإثبات عدم صحتها . ولكن كما يقول فيوتر اكتسب فاللا شهرة كبيرة لا بسبب ما كان للوثيقة التي هاجمها من طبيعة هامة فحسب ولكن أيضاً بسبب المهارة والمعرفة الجمة التي انضحت من تحليله لها . والحقيقة أن هذا الهجوم الذي شنّه فاللا على صحة هذه الوثيقة يتم عن شجاعته أكثر مما يكشف عن قدراته كناقدا . تلك القدرات التي يعلو إلى مستواها كثير من كتاب المدرسة الإنسانية . وكما يقول إمرتون : إن أمتع شيء فيما جاء به فاللا هو السهولة المذهلة لما عرضه ، وهو أمر لا يثبت ما تمتع به الكاتب من علم ومهارة لأن كلاهما لم يكن شيئاً مطلوباً . ففي اللحظة التي يعرض فيها

(١) هبة قسطنطين : هبة يقال إن الإمبراطور قسطنطين الأعظم منحها للبابا سلفر الأول (٣١٤ - ٣٣٥ م) وخلفائه تعطيهم سيطرة روحية كاملة على كافة البطارقة وسلطة مطلقة في أمور العقيدة والعبادة وكذلك سلطة زمنية على روما وإيطاليا وسائر أرجاء العالم الغربي وكان الدافع على ذلك هو عرفان الإمبراطور يحميل البابا الذي شفاه من البرص بمعجزة وأدخله في الدين المسيحي والمعتقد الآن أن هذه الهبة مزورة . (المترجم)

الحقائق عارية امام جمهرة العلماء يتمزق تلقائيا النسيج الكامل للسخرافات التي حيكت فيها تلك الوثيقة»^(١).

ولقد أظهر فالأ مهارة أكثر وأصالة. أكبر في كتابه الذي أسماه (مدينتا تاركويني)^(٢) Duo Tarquinii الذي كان هجوما على الطريقة التي عالج بها ليني أجزاء معينة من التاريخ الروماني المبكر. ولقد وضع في كتابه أن أكبر المصادر العلمانية القديمة ذات المكانة الكبيرة لم تسلم من الفحص الناقد الذي قلم به فالأ، شأنها شأن تلك الوثائق الكنسية التي كانت تتمتع بهيبة كبيرة واحترام عظيم. والحق أن التشكك في أمر الأساطير الكلاسيكية القديمة كان يحتاج إلى قدر من الشجاعة من جانب الكاتب الإنساني أكبر من القدر الذي يتطلبه التشكك في المعجزات التي حوتها بعض كتابات العصور الوسطى. وإذا كان معظم الكتاب الإنسانيين قد تشككوا في معجزات وأساطير العصور الوسطى فإن قلة منهم هم الذين جروا على انتقاد المصادر الكلاسيكية القديمة الكبرى من أمثال كتابات ليني. والحق أن المدرسة الإنسانية لم تنجب حتى عهد أرازموس ناقداً على نفس مستوى فالأ في الكفاية والمقدرة.

ولقد طبق أحد معاصري فالأ من أهل البندقية وهو برناردو جويستيناني Bernardo Giustiniani (١٤٠٨ - ١٤٨٩ م) نفس منهجه في تفنيد الأساطير المرتبطة بنشأة مدينة البندقية وذلك في كتابه «أهل مدينة البندقية ونحوها حتى ٨٠٩ م» كان جويستيناني رجل سياسة أكثر منه أديباً من أدباء المدرسة الإنسانية، ومن ثم فإنه تحاشى القيود البلاغية التي اتصفبت بها الكتابة التاريخية في تلك المدرسة. على أنه لم يكن يكتب تاريخاً رسمياً. ولذا فإنه فكر وكتب بعقلية مستقلة تماماً.

أما فلافيوس بلوندوس Flavius Blondus فكان أعظم علامة في التاريخ أنجبته الحركة الإنسانية في إيطاليا. وقد عاش فلافيوس من ١٣٨٨ م - ١٤٦٣ م وكان اسمه الإيطالي الحقيقي فلافيو بوندو Flaviu Biondu ويعتبر «طهاوس» الحركة الإنسانية. ذلك أنه كرس حياته لدراسة آثار روما القديمة وقيام دول العصور الوسطى. واعتمد فيما كتبه عن التاريخ الروماني على الآثار والمخلفات القديمة. وكانت كتبه «إيطاليا في صور» و«تأسيس روما» و«انتصار روما» بمثابة أول ما أسهمت به المدرسة الإنسانية في مجال طوبوغرافية وآثار روما القديمة. كذلك يبدو أن كتابه «تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» يعني بصفة

(1) Ephraim Emerton: The Beginnings of Modern Europe (Ginn 1917) p. 504.

(٢) تاركويني : مدينة قديمة في سهل تمكانيا لما شهرتها في غير تاريخ روما (لراجع).

أساسيه على الآثار القديمة . وكان بقيس عظمة كل عهد أو عصر من عصور الإمبراطورية الرومانية في ضوء مقدار ما حظى به ذلك العهد أو العصر من أمن وسلام من ناحية وازدهار فكري وثقافي من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أهمية كتاب بلوندوس عن الآثار الرومانية فقد كان أعظم ما أسهم به هو نظريته الأصلية والمبتكرة إلى تاريخ العصور الوسطى وتصويره الدقيق نسبياً لها . وفي هذا المجال جاء كتابه الرئيسي «حلقات من التاريخ منذ اضمحلال قوة الرومان» (٤٧٢ - ١٤٤٠ م) الذي ظهر في واحد وثلاثين مجلداً . وبصرف النظر عما في هذا الكتاب من دراسة تتسم بالجهد والعناية فإن أهم ما يميز هذا الكتاب هو نظرة المؤلف المبتكرة في تقييمه للعصور الوسطى . وفي هذا يقول الأستاذ بور Burr «إن العنصر الجديد في اتجاه بلوندوس هو أنه بدلاً من أن ينظر إلى العصور الوسطى على أنها امتداد لتاريخ الإمبراطورية الرومانية فإنه ترك روما بماضيتها وتناول قصة الشعوب الجديدة التي حلت محلها»^(١) . ويقول فيوتر عن بلوندوس إنه أضاف لمعلوماتنا عن العصور الوسطى وعن العصر الروماني القديم أكثر مما أضافه سائر كتاب المدرسة الإنسانية مجتمعين^(٢) .

ولعل خير ما يصور المثل التي سادت الحركة الإنسانية أن بلوندوس - وهو الذي كان أعظم مؤرخيها في إيطاليا - لم يعط حقه من التقدير والتبجيل ولم يقدر عمله العظيم حق قدره لأنه لم يكن يمتلك أسلوباً أدبياً رائعاً . ولكن الحقيقة أن أعمال بلوندوس صادفت فيما بعد حقها من التقدير والتقدير . فمن بين كل حصيلة الدراسات التاريخية في ذلك العصر صار كتاب بلوندوس قبلة الكتاب اللاحقين الذين أخذوا عنه واقتبسوا منه الكثير ، وعن هذا الطريق أسهم بلوندوس إسهاماً غير مباشر في تقدم الدراسة التاريخية في عصر الحركة الإنسانية . والواقع أن المعاصرين لم يقفوا العلم لذاته وكما يبدو بوضوح في حالة بلوندوس - وربما كان هذا هو السر في أنه ليس له إلا تلميذ واحد هو تريستان كالشي Tristen calchi

(١٦٤٢ م - إلى حوالي ١٥١٦ م) مؤرخ ميلانو الفذ المعروف باستقلاله في الرأي يضاف إلى ذلك أن بلوندوس كان الرائد الحقيقي سلفاً لكل من ليبتز ، ومايبلون ، وتيلمونت .

وعندما نتكلم عن التاريخ والمؤرخين في عصر الحركة الإنسانية ، يجدر بنا أن نذكر البابا إنياس سلفيوس بيكولوميني Aenas Sylvius piccolomini وذلك نظراً لأهميته المستمدة - لا مما أسهم به في مجال الكتابة التاريخية المنسقة أو أدخله من تحسين على المنهج التاريخي فحسب - وإنما أيضاً وبدرجة أكبر بحكم طبيعة مهنته وما كان له من تأثير على

(١) جاء ذلك في رسالة إلى المؤلف

(٢) Edvard Fueter: Histoire de l'Historiographie pariss 1914 p. 131

الكتاب الألمان اللاحقين . ومن بين أعماله العديدة التاريخية « تعليقات على مجمع بازل » ، « تاريخ أوروبا » ، « تاريخ العالم » ، « التعليقات » . ويشوب هذه الكتب كما يشوب ترجمته التي كتبها عن نفسه كثير من السطحية والافتقار إلى النظرة الفلسفية العميقة ، وكذا عدم إتمام ما تنهض به من كتابات في أغلب الأحيان . والواقع أنه لا يرقى إلى مستوى بروفي كناقده ، وليس هناك ما يدعو إلى مقارنته بقالا أو بلدوندوس . ومع ذلك فإنه بلغ درجة من المهارة في إدراك أبعاد السياسة تجعله على مستوى نيكوديدس ، بوليبيوس ، تاكيتوس . ولم يكن هناك بين معاصريه من هو أكثر منه علما بالسياسة والثقافة الأوربية . ولعل أقيم ما في كتاباته التاريخية ، امتلاؤها بالذكريات الشخصية . وقد فاق في اهتمامه بالتاريخ الألماني والثقافة الألمانية أي معاصره في إيطاليا وذلك نظراً لكونه عضواً في المحكمة الإمبراطورية العليا على يد فردريك الثالث من ناحية ولعلاقاته الكنسية مع الإمبراطورية فيما بعد من ناحية أخرى . وتكمن أهميته بالنسبة لتطور علم كتابة التاريخ في استخدامه مؤلفات المؤرخين السابقين من الألمان ، إذ استعان في كتابة تاريخ فردريك الثالث بالكثير مما كتبه أوتو المنسوب إلى فريزنج Otto of Fressing بذلك لفت أنظار معاصريه إلى هذا المؤرخ . كذلك استعان بمؤلفات جورديوان مما ترتب عليه إحيائها وإكسابها شهرة . وربما كان كتابه تاريخ بوهيميا أول محاولة يقوم بها مؤرخ من المدرسة الإنسانية لإدخال علم وصف الأجناس البشرية في مجال الكتابة التاريخية . وأخيراً فإن كتابه « تاريخ أوروبا » ، « تاريخ العالم » يمثلان محاولة جادة لإبراز العلاقة بين علمي التاريخ والجغرافيا . وكان تأثيره كبيراً في هذا المجال ويصفه خاصة على المؤرخين الألمان اللاحقين . وفي هذا يقول فيوتر : « يعتبر إنياس سلفيوس المسئول الأول عن ذلك الاتجاه الذي التزم به كثير من المؤرخين الألمان اللاحقين والذين يضمن المؤلفات التاريخية أبحاثاً عن نشأة القانون وتطوره وعن أثر الجغرافيا في تطور التاريخ فضلاً عن وقوفه موقفاً يوصف على الأقل بأنه نصف ناقد من الأساطير التي أحاطت بأصول الأجناس البشرية ، يضاف إلى هذا كله أنه أظهر غلواً في الوطنية في المسائل التي تمس اتجاه القومي »⁽¹⁾

أما خير ما يصور الانتقال بعلم كتابة التاريخ في إيطاليا من المذهب الإنساني البحت إلى بداية الكتابة التاريخية الحديثة ذات الطابع السياسي والقومي ، فهي تلك المؤلفات التي كتبها المؤرخان الفلورنسيان البارزان ماكيافلي وجويكارديني . وكان من الطبيعي أن يؤدي تفوق فلورنسا الحضاري ونشاط الحياة إلى خلق مناخ مناسب لإنتاج مؤلفات تاريخية ذات قيمة عالية . ولم يكن ميكافلي وجويكارديني أقل من بلوندوس من ناحية عنايتهم بالحقيقة أكثر من البلاغة ، لكنها اختلفا عن بلوندوس في بقائهم مغمورين غير مشهورين لأنها تجنبنا الإطالة وكثرة الكلام والإكثار من التفاصيل بقصد ادعاء العلم والتظاهر به . وقد أصبح التاريخ على

(1) Feuter op, cit p.143

أنتسبها برواية للأحداث العلانية واتقصر أساساً على السرد والتحليل المباشر للأحداث السياسية .
هذا إلى أنها قلما يمتص المحاولات لإحلال التفسيرات المادية والنفسية لأحداث التاريخ محل
القوى الخارجية للطبيعة والمجيزات التي لم يعد هناك سيلاً للأخذ بها .

ويشرح الأستاذ شيفل اهتمام ميكافلي وجويكارديني الكبير بالحكومات عامة
ومحكومة فلورنسا خاصة فيقول :

« لقد رقياً إلى مستوى تلك النظرة نتيجة لتأثرهما بمن احتذوا حذوهم من الأقدمين ،
لكن ذلك جاء أساساً نتيجة للتطورات الفعلية التي حيرت الأذهان في بلادهم . وعلى مدى
عدة أجيال منذ انهيار الإقطاع في القرن الثالث عشر ظهرت في طول إيطاليا وعرضها إلى
الوجود حكومات ترعّمها أفراد وجماعات ، لكن هذه الحكومات كانت سرعان ما تتبدل قبل
أن يمضي على قيامها سنة أو حتى شهر - ويحل محلها وضع جديد يستبشر به الناس أكثر من
سابقه »

كان نيقولا ميكافلي Nicola machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م) أولاً وقبل كل
شيء فيلسوفاً سياسياً لا يمكن للتاريخ عاطفة معينة ولا يتم إلا بالقدر الذي يمكنه من استغلاله
لصالح النظرية السياسية . وكان هذا الاتجاه هو الذي أعطى كتاب ميكافلي « تاريخ
فلورنسا » وهو الكتاب الذي كتبه على عجل وأصدره في ثمانية أجزاء - خصائصه المميزة .
والواقع أن هذا الكتاب لا يرقى من ناحيتي الأسلوب والدقة - إلى مستوى بعض المؤلفات
التاريخية الأخرى المعاصرة . ولكننا نفتقد أن أي مؤرخ سابق منذ بوليوس - الذي عرفه
ميكافلي - كان له مثل قدرته من حيث إدراكه لطبيعة العوامل السياسية التي تحرك التاريخ أو
من حيث عرضه صورة واضحة لعملية التطور السياسي . وتبدو عبقرية ميكافلي بوصفه مفكراً
سياسياً في قدرته على تنظيم العوامل المسببة لتطور المدين ، وربما بدت قدرته في هذه النواحي
أكثر منها في رواية الأحداث السياسية بطريقة موضوعية . ويشير الأستاذ شيفل إلى أن هذا
الاهتمام بالانعكاس السياسي من جانب ميكافلي قد نجم عن الوضع الغريب الذي ساد إيطاليا
حيث كانت لها الزعامة في المجال الثقافي ولكنها كانت عاجزة سياسياً بصورة يصعب عليها
الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم أو غزو . وكان من نتيجة ذلك أن جعل ميكافلي كتابه ،
معملاً سياسياً وضع فيه مذاهب الأقدمين ومذاهبه هو نفسه موضع الاختبار العملي^(١)

والحق إن ميكافلي أوتي من نفاذ البصيرة بالعوامل التاريخية المستمرة التي تحرك
التطورات السياسية ما لم يتوافر لأي مؤرخ آخر من المدرسة الإنسانية حتى عهده . ذلك أنه
أدرك العلاقات المتداخلة بين التيارات السياسية الداخلية والخارجية وبين الأنشطة العسكرية

(١) Schervill, op cit p. xviii

والتطورات السياسية ، وبوضع فلورنسا في تاريخ إيطاليا بوجه عام ، ونحسب للفكرة المثالية الخاصة بتحقيق الوحدة الإيطالية وقيام دولة إيطالية متحدة . ولذلك فإنه يجد الرجال والجماعات الذين حبذوا قيام هذه الدولة ، وفي الوقت نفسه فإنه وقف موقفاً معادياً من البابوية التي اعتبرها عقبة كئوداً في طريق الوحدة الإيطالية . ولعل هذا يفسر الترجمة المليئة بالرومانسية التي وضعها لكاستراكاني وهو قائد بعض فرق الجند المرتقة . على أن ميكافلي كان يعمل بوجه عام إلى الإقلال من العنصر الشخصي بوصفه أحد العوامل المحركة للتاريخ . ويقول فيوتر في هذا الشأن . لا يوجد كاتب منذ أيام بوليوس ذهب أبداً مما ذهب إليه ميكافلي في جعل التاريخ « تاريخاً طبيعياً للسياسة »^(١) وهكذا حلت نظرية مادية صريحة لتحليل التاريخ محل النظرية القديمة التي فسرت التاريخ في ضوء قوى ما وراء الطبيعة أو عيادة الأبطال . وتعكس هذه الفلسفة التاريخيه المبادئ والآراء التي ضمنها ميكافلي كتابه « الأند » . كذلك نبذ ميكافلي إلى درجة كبيرة الترتيب الحول المادة التاريخيه وهو الترتيب التقليدي في تلك العصور ونظم كتابته على أساس موضوعي . هذا إلى أنه نحاشي الأسلوب البلاغي الجميل وكتب بطريقة واقعية خاطئة . وإذا كان ميكافلي لم يستخدم سوى عدد قليل من المصادر ، إلا أنها كانت من النوع الطيب ، وخاصة مؤلفات بلونديوس ، وجيوفاني ، وفيلاني . وسيموني . وأفضل أجزاء كتابه ذلك الجزء الذي تناول فيه تطور السياسة الداخلية في فلورنسا . وفيه نجد وصفاً مفصلاً للأحداث وكثيراً من التعليقات الشخصية « وانطباعات عديده عن الحكومة والأحزاب وأعمال القادة الذين كانت تحركهم مشاعر الغيرة والحماسة والطموح ومآثر الانفعالات التي توارثها الإنسان « والواقع أن الراوية في كتاب ميكافلي كانت أقل أهمية من « هذه التعليقات للمستفيضة »^(٢) . أما إذا نظرنا إلى ميكافلي على أنه مؤرخ راو . فإننا وفق مستويات البحث الحديثة - نجد كتابه مليئاً بعدد من الأخطاء في الحقائق وينقصه الاستناد إلى الوثائق والحجج » .

أما فرانسيسكو جويكارديني Francesco Guiccardini (١٤٨٣ - ١٤٥٠ م) فإنه وإن يكن فيلسوفاً على مستوى ميكافلي . فإنه فاقه كمؤرخ حقيقى . ذلك أن كتابه « تاريخ فلورنسا » الذي كتبه في شبابه - جاء أحد الأعمال المبتكرة في مجال كتابة التاريخ . إذ خرج الكاتب فيه عن نطاق كل من الكتابة التاريخية الدينية والإنسانية في مراحلها الأولى - وكذلك خرج عن التقاليد التاريخية القديمة بأن استبعد نص الأحاديث المباشرة التي تأتي على لسان أبطال الرواية التاريخية ولا نجد في أسلوبه السلس - تحرير نسبياً من الإسهاب والتفاصيل الخارجة عن الموضوع - أثراً للمحسبات البلاغية . كذلك نلاحظ أن اهتمامه الكبير

(١) F. Guiccardini pp ٦٩-٧٠
(٢) Guiccardini pp ٨٨-٨٩

بالتاريخ السياسي المعاصر دفعه إلى أن يتخلى في الجزء الأخير من مؤلفه بصورة واضحة عن النظام الحولى الذى ساد الكتابة التاريخية في عصره . وكانت محاولته في تحليل التاريخ تحليلاً فلسفياً أقل توفيقاً من ميكافلي . وإن كان قد كرس نفسه بصفة رئيسية لوصف الأحداث وصفاً قوياً قاطعاً وللقصد الصريح للأشخاص والاتجاهات . وكانت لديه قدرة نادرة على انتقاء الحقائق الأساسية . وإذا جاز أن تكون لديه نظرية خاصة في التاريخ ، فإن هذه النظرية كانت على أساس الافتراض العقلاني القائل بأن الظروف السياسية في مرجعها في النهاية الحساب والتأمر . وكان فرانسكو نفسه لا يؤمن بالأوهام والخرافات ، الأمر الذى أدى إلى اتزان كتابته وعدم تميزه نسياً . وتبدو اللمعة الساخرة نوعاً ما في كتاباته من بعض ملحوظاته ومنها قوله « لا عيب في فرديناند ملك أرغونه سوى شحه وعدم وفائه بالعهد » أما ميوله الشخصية فكانت إلى الأسر القديمة والجماعات الحاكمة في فلورنسا . ويقول فيوتر إن كتاب « تاريخ فلورنسا » يمثل البداية الحقيقية في التاريخ للكتابة التاريخية التحليلة الحديثة والاستنتاج السياسي ⁽¹⁾ ويتفق معظم النقاد على أن الكتابة التاريخية في أوروبا الغربية استعادت بفضل هذا الكتاب المستوى الذى كانت قد بلغت على أيدي ثيكوديدس وبوليوس . ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يكن له تأثير كبير على علم تدوين التاريخ في عصر النهضة لأنه لم ينشر حتى سنة ١٨٥٩ م .

وثمة كتاب آخر كبير ألفه جويكارديني عنوانه « تاريخ إيطاليا » وقد كتبه في مرحلة النضج . ومع ذلك فإنه جاء أقل أصالة من ناحية الأسلوب والتنظيم إذ كان المؤلف قد شرب التقاليد البلاغية للمدرسة الإنسانية وهو الأمر الذى لا وجود له في مؤلفه الأول . ومن هذه التقاليد مثلاً اهتمامه بالمعارك الحربية على نطاق كبير والحرص على إثبات الحوار المباشر ونصوص الخطب . ومع ذلك فإنه نظراً لاتساع مجال كتابه الثانى وطريقته المبتكرة فى معالجة الموضوعات فإنه يعتبر بداية مرحلة جديدة في الكتابة . فلأول مرة منذ العصور القديمة استطاع مؤرخ أن يخرج عن نطاق ما هو مألوف وأن يحرر نفسه من الاتجاه السائد في التاريخ ، وهو الاتجاه الذى يستهدف الاهتمام أساساً بدولة أو أسرة حاكمة معينة - وأن يكرس جهده لمجال أكثر اتساعاً وهو تاريخ وحدة جغرافيه . لذا فإن هذا الكتاب - تاريخ إيطاليا - الذى يعتبر أول تاريخ عام لإيطاليا ، أتاح لمؤلفه فرصة عظيمة لدراسة نشأة الدول واضمحلالها وتفاعلها فيما بينها وطبيعة العلاقات الدولية وعملية التطور السياسى . ومن جهة أخرى فإن مادة الكتاب هيأت إمكانيات نادرة لدراسة تاريخ العالم وإعادة كتابته على نطاق محدود . وعلى الرغم من أن جويكارديني كانت نعوزه بصيرة ميكافلي وتحليله الفلسفى للأمور الاجتماعية والسياسية . وهو الأمر الذى لم يتمكن بسببه من وضع تحليل دقيق للتطور الاجتماعى

(1) Feuter op. cit p. 88

والسياسي ، فإن المجال الذي تناوله جويكارديني والجديد الذي أتى به يمثلان بالتأكيد تقدماً كبيراً في المنهج التاريخي ومفهوم التاريخ .

وربما أنكر قليلون أن كتب جويكارديني قد بلغت أعلى مستوى للكتابة التاريخية بعد العصر القديم الكلاسيكي وحتى عهد كامون ، ثاونس ، كلارندون . ويمكننا أن نتبين مقدار التقدم الهائل الذي كان لا بد منه لمولد التاريخ السياسي العلمي الحديث لو تأملنا النقد القاسي الذي وجهه ليوبولد فون رانكه - أول رائد مميز للمدرسة العلمية الحديثة - إلى جويكارديني . ذلك أن صفوة مؤرخي عصر النهضة أنفسهم أمثال ميكافلي جويكارديني كان يعينهم في المقام الأول « الانطباعات السياسية والاستنتاجات والحكم » وبعد ذلك يأتي في المقام الثاني الاهتمام بتحرى الدقة في الحقائق « وغالباً ما كانوا يقفون على ما اقتبسوه من الكتاب السابقين دون تغيير كلمة واحدة ، حتى ميكافلي وجويكارديني سلكا طريقاً إذا حكمنا عليه بالمعايير الحديثة - يضعها في موضع الادانة الواضحة بانتحال ثمرة أفكار غيرهما من الكتاب ، هذا إلى أنها لم يميزا تمييزاً دقيقاً بين الرواة الذين يأتون في المرتبة الثانية والذين أخذوا عنهم وبين الوثائق الأصلية التي استخدموها ، ولم يظهر هذا التميز في كتابة التاريخ على أسس علمية في أعمالها إلا في شكل أولى^(١)

ولقد كان من الممكن بلوغ المستوى الحديث في الكتابة التاريخية بسرعة أكبر لو لا ما نسبت فيه حركة الإصلاح الديني من نكسة عرقلت تقدم هذه الكتابة ، إذ بعثت تلك الحركة من جديد الاهتمامات بعلوم اللاهوت والجدل الديني بعد أن كانت الحركة الإنسانية قد أضعفت منها تدريجياً وسلمياً وهكذا صار إحراز التقدم غير مستطاع حتى تم سحق ذلك التحكم الديني بفضل ازدهار الحركة العقلانية في القرن الثامن عشر وازدياد الاتجاهات العلمانية قوة وقد عيماً نتيجة للتوسع الأوربي والثورة التجارية ونشأة الأمم الحديثة^(١)

وقد ظهرت البداية الحقيقة للتراجم التاريخي في المدرسة الإنسانية في كتاب ، حياة دانتي ، الذي ألفه جيوفاني بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣١٣ - ١٣٧٥ م) وهو كتاب كانت له أهميته في فهم دانتي بوصفه أدبياً فناناً . ومع ذلك فإن بوكاشيو كان ضعيفاً في معالجته لاهتمامات دانتي السياسية . ويعزى ذلك إلى قلة اهتمام بوكاشيو نفسه بالسياسة .

أما الخطوة الثانية في هذا المجال فقد خطاها فيلبيفيلاني Filippo Villani (حوالي ١٣٢٥ م - ١٤٠٥ م) . وقد اتخذ فيلاني بوكاشيو مثلاً يحتذى به ، وكان أول عهده بهذا المجال هو نشرة كتاب « حياة دانتي » الذي ألفه بوكاشيو . ولم يلبث أن دفعه ذلك إلى

(١) Schevill op. cit pp xxi-xxii.

(١) انظر الفصل السابع (المؤلف) .

إعداد سلسلة من التراجم لأبرز رجالات فلورنسا. وأصبح هذا العمل نموذجاً لمن جاء بعده من كتاب التراجم في المرسى الإنسانية. الذين جاءت أعمالهم في صورة مشابهة لعمل فيلاني. ولقد حوت هذه الأعمال كثيراً من خصائص سوتنيوس وأسلوبه، وهو الذي كان ينظر إليه كتاب التراجم في المدرسة الإنسانية بوصفه النموذج الكلاسيكي الذي عليهم أن يتخذوه.

ثم كان أن تخطت سيطرة الأسلوب البلاغي القديم بدرجة كبيرة على يد أشهر كتاب التراجم الإنسانيين وهو جيورجيو فاساري Giorgio Vasari (١٥١١م —

١٥٧٤م) صاحب الكتاب الخالد «حياة أبرز الرسامين والنحاتين والمعماريين». كان فاساري نفسه رساماً ومهندساً معمارياً ولذا ظهر اهتمامه الكبير بحياة كبار الفنانين الإيطاليين في عصر النهضة وأعمالهم. وشجعه على إصدار سلسلة تراجمه إلكاردينال فاريتز Farnese ، وبابولوجيوفى Paolo Giovio وغيرهم والواقع أنه كان مؤهلاً تماماً لمثل هذا العمل لأنه تجول كثيراً وتحدث إلى كثير من الفنانين المعاصرين وسجل عديداً من ملحوظاته. واستمر على هذا النموذج يدرس الصور والنماثيل والمنشآت العظيمة التي تميزت بروعة جلالها، مع استعداد لاستيعاب كل شيء. ويرجع إلى المعلومات الكثيرة التي جمعها السرفيا اتصفت به أعماله من سحر وضعف في نفس الوقت. وقد صدر كتابه لأول مرة سنة ٥٥٠ م ولكنه استمر بعد ذلك يتنقل ويقابل كثيرين، مما تطلب منه إصدار كتابه مرة أخرى في صورة مفخمة سنة ١٥٦٨ م.

ويعتبر كتابه هذا أول تاريخ هام وشامل للفن، وهو موضوع لا يوجد لدينا أى سجل عنه في تاريخ الكتابة التاريخية. هذا إلى أن فاساري على دراية بأساليب الفن وعالج موضوعاته علاج المتمكن، ومن وجهة نظر المثمن. ثم إن ما كتبه جاء لا نظيره في روعته وجاذبيته، إذ كانت له قدرة نادرة على جعل شخصياته تنبض بالحياة. أما طريقته فاتصفت بالعدل وعدم التميز حتى في المواضع الكفيلة بأن تغري الكاتب على التميز والتعصب. ولا غنى إطلاقاً عن دراسة تاريخ الفن في عصر النهضة عن ذلك القدر الضخم من المعلومات التي جمعها فاساري. ومع ذلك فإنه لم يكن حريصاً في غريته للمصادر والأنخذ منها، ويتبين ذلك من تقبله لقدر كبير من الشائعات والحقائق المشكوك في صحتها. كذلك يؤخذ عليه عدم الدقة في تحديد التواريخ ومحوى كتابه كثيراً من المتناقضات، إذ كان يأق أحياناً بمعلومات مستفيضة عن فنانين تافهين في الوقت الذي لم يعط البعض الآخر من المبرزين حقهم من المعالجة. وعلى الرغم من كل هذه العيوب، فإن كتابه يعتبر من أشهر التراجم التي أتمتها المدرسة الإنسانية لا في إيطاليا فحسب بل في أوروبا كلها، وهو يمثل بحق بداية مرحلة رئيسية في تاريخ الفن. أما أبرز التراجم لنفس هذه المدرسة الإنسانية فهو ما كتبه بينفوننتو شيليني Benvenuto cellini (١٥٠٠م — ١٥٧١ م) ويعتبر كتابه صورة رائعة لشخصيته وعصره

الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية في خارج إيطاليا

صادفت الحركة الإنسانية خارج إيطاليا قبولاً من كثيرين ، شابعوها وناصروها ، ومن هؤلاء غير قليل ظهر في ميدان التاريخ . ولقد سار المؤرخين الإنسانيون على وجه العموم في مجال الكتابة التاريخية على نفس الأسس والمبادئ التي عرفت في إيطاليا مع شئ من التنوع والتغير الذي اقتضته الظروف الثقافية المحلية المحيطة .

ولما كانت الحركة الإنسانية جاءت متأخرة نوعاً في مناطق ما وراء جبال الألب ، فإن هذه الحركة عاقت من تقدمها الصراعات الدينية التي صاحب حركة الإصلاح الديني ، ومن ثم فإنها أعطت شيئاً من الاهتمام للجدل الديني الذي لم يكن له وجود في كتابة التاريخ بإيطاليا في القرن الخامس عشر . هذا إلى أن ثمة تغير طراً على تذوق الأدب الكلاسيكي ، ففي غمرة الحماسة للكتابة البلاغية المنمقة والحرص على الأسلوب اللازم الساخر صار تاكيتوس أقرب من ليني إلى العقول والقلوب ، بل لقد صار تاكيتوس بمثابة النموذج الذي تميز به كتاب الحركة الإنسانية في شمال أوروبا في القرن السادس عشر كذلك أدى الشعور بالروح القومية التي جاءت نتيجة لحركة الإصلاح الديني والحركة الاستعمارية الأوربية ولنشأة الرأسمالية إلى صيغ الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية في شمال أوروبا صيغة وطنية قومية . ففي ظل الأنظمة السياسية الجديدة نشأت الصراعات الحزبية ، وبالتالي فإن الكتابة التاريخية الإنسانية أخذت تبدو بين طياتها الملامح السياسية التي نلاحظها في الكتابة الحديثة للتاريخ .

وفي سويسرا كان أقيم ما أتمته كتابات المدرسة الإنسانية هو كتاب تاريخ دير سانت جالي St Gall وكتاباً عن المقاطعات السويسرية ذات الغابات التي وصفها يواقيم فون وات Joachim von Watt (١٤٨٤ م — ١٥٥١ م) المشهور بفاديانوس Vadianus . وكثيراً ما نظر إلى فاديانوس على أنه يفوق بلوندوس كمؤرخ ، لأنه لم يمتاز عليه في قدرته على نقد النصوص فحسب ، ولكنه تقدم عليه خطوة واقترب بشكل أكبر من فون رانكه عندما أظهر تقدماً أولاً في النقد الداخلي أي في مجال فحص ميول كاتب الوثائق واتجاهاتهم . والواقع أنه كان ماهراً بصفة خاصة في تتبعه للأساطير الدينية وتفنيدها لرفضها .

وكذلك تمكن فاديانوس من أن يجمع بين المعرفة الفريدة والأسلوب القومى الواضح وأن يبرز العوامل الرئيسية في التطور التاريخي . ثم إنه تميز بدرجة عالية من القدرة على إصدار أحكام مبتكرة ، وكانت أفكاره وآراؤه خالية من الشطط ومعقولة إلى حد كبير . ومع ذلك فإنه يقف في الصف الأول بين المؤرخين الإنسانيين لقدرته على تتبع تطور التنظيم الديني والسياسية وإبرازه فكرة التطور الاجتماعي . يضاف إلى ذلك أنه تبنى نظرية السببية التاريخية أى تعليل أحداث التاريخ وذكر مسبباتها ، بصورة تتم عن سعة الأفق ، مع رفض الاتجاه التقليدي الذي يعزى التطورات التاريخية إلى الشخصيات أو الأحداث التافهة دون غيرها : ويرى فيوتر أن ما جاء به فاديانوس يمثل أقصى ما بلغه إنتاج المدرسة الإنسانية من سعة الأفق وذلك لما تميز به ذلك الكاتب من ذكاء وحيدة . وما اتصفت به كنه نفسها من ضخامة في مجال موضوعاتها وتنوع اهتماماتها .

ومع ذلك فقد تعرض كتاب فاديانوس للنسيان فترة أطول أكثر مما تعرض له كتاب جويكارديني عن « تاريخ فلورنسا » ، حيث إن الكتاب الأول لم ينشر حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر .

أما في ألمانيا فقد بدأت قائمة المؤرخين الإنسانيين البارزين باسم ألبرت كراتز Albert Krantz (١٤٥٠م — ١٥١٧م) الذي اتبع نفس منهج إنياس سلفيوس في تطبيق المناهج التاريخية والأدبية للمدرسة الإنسانية على دراسة الشعوب البدائية التي عالج تاريخها في كتبه ، مثل السكسون والونديين الأوائل . ويفوق كراتز في الشهرة المؤرخ جوهانز تورير Johannes Turmair المعروف بافتيوس Aventius (١٤٧٧م) صاحب كتاب « حوليات دوقات بافاريا » . وفي هذا الكتاب كما في كتاب آخر كتبه تورير عن تاريخ ألمانيا المبكر تجده يحاول الجمع بين القواعد الأدبية التي حرص عليها بروني والعلم الغزير الذي تميز به بلوندوس ، وإن كان لم يوفق في الوصول إلى مستوى أى منها . هذا إلى أن تعقبه الشديد للمذهب البروتستانتي منعه من معالجة موضوع الكنيسة الكاثوليكية أو البابوات وغير ذلك من الشئون المعاصرة بطريقة موضوعية ، فضلاً عن تحمسه لقوميته الألمانية وتعصبه لبافاريا والبافاريين على وجه الخصوص . وعلى الرغم من أنه اجتهد اجتهاداً غير عادي في جمع مصادره فإنه لم يكن ناقدًا بدرجة بارزة عند استخدامه لها ، بالإضافة إلى أن أعماله شابها نوع من عدم التناصب والتناسق ، فتجده يفسح مجالاً كبيراً في كتاباته للأباطرة الرومان كما لو كان يكتب تاريخاً عالمياً . أما المزاي الرئيسية لكتابه فهي أنه وضع له مقدمه عبارة عن وصف للبلاد والشعوب التي تناولها فضلاً عن قدرته النادرة على وصف سلوك وعادات الشعوب التي قام بدراستها يضاف إلى هذا كله أسلوبه الذي امتاز بالوضوح وتعبيراته التي اتصفت بالقوة .

وبعد ذلك يأتي أولبرخ هوتن Ulrich von Hutten (١٤٨٨ — ١٥٢٣ م) الذي ترجع شهرته الواسعة إلى حملته القوية ضد التعصب الديني أكثر مما ترجع إلى كتاباته في مجال التاريخ . والواقع أنه قام بعمل هام جداً يعتبر إضافة قيمة للمعرفة التاريخية . هو إحياءه للمنشور الذي أصدره الإمبراطور هنري الرابع ضد البابا جريجوري السابع ويعتبر هذا المنشور في حد ذاته سلاحاً قوياً استخدمه البروتستانت ضد البابوية وروما . فضلاً عن كونه إضافة هامة للمعرفة التاريخية .

أما بيتوس رينانوس Beatus Rhenenans (١٤٨٦ — ١٥٤٧ م) فهو الوحيد الذي يعتبر أبرز ممثلي الاتجاه الناقد الذي عرف به بلوندوس والميل نحو المعرفة الغزيرة . وذلك في مدرسة المؤرخين الإنسانيين في ألمانيا . كان رينانوس صديقاً وتلميذاً لإيرازموس وفي كتابه « أحوال ألمانيا » تولى فحص مصادر التاريخ الألماني في دوره الأول بنفس الطريقة العلمية الموضوعية واللغوية التي فحص بها إيرازموس السجلات والوثائق الكنسية . ويعتبر رينانوس من أكثر الباحثين في التاريخ جهداً وصبراً وبلغت على يديه الكتابة التاريخية على عصر الحركة الإنسانية في ألمانيا أعلى درجاتها . وكان يرجع دائماً إلى المصادر الأصلية ويفحصها بدقة كبيرة كما كان يتقل منها في أمانه بالغة . كذلك كان متشداً في رفضه للأساطير الكلاسيكية قدر تشده في نبذ الأساطير الدينية ، هذا بالإضافة إلى ما امتاز به من حب حقيقي للبحث التاريخي وحكم سليم عند تقييمه لما توصل إليه في بحثه عن نتائج . وعلى الرغم من مشاعره القومية فإنه لم يدع شعوره الوطني يؤثر على أحكامه . وربما يمثل عيبه الرئيسي في عجزه عن صهر مادته كلها في سرد كامل محكم ، كما كان تاريخه عن الألمان غير مترابط ووصل به حتى الأباطرة الساكسون فقط ، في حين أنه كان متكاملاً إلى حد معقول فيما يتعلق بسيطرة الرومان وغزواتهم .

ومن بين عديد من كتاب القانون الدولي والشرعية الذين لهم مكانتهم في كتابات المدرسة الإنسانية الألمانية يبرز اسم صمويل بوفيندورف Samuel Pufendorf (١٦٣٢ — ١٦٩٤ م) بوصفه رائد هؤلاء الكتاب في ميدان التاريخ . ومن جملة كتبه كتاب « تاريخ السويد » وكتاب « تاريخ شارل جوستاف العاشر » وكتاب « تاريخ فردريك ولیم الناخب الأعظم » ومقدمة « لتاريخ القوى والدول التي تزعمت أوربا » . وامتازت كتابة بوفيندورف بطابعها الرفيع وأسلوبها المميز الواضح الراق . ولكن ربما كان هذا للأسف هو خير ما جاء في كتاباته التاريخية . ولما كان يرتب مادته في أغلب الأحيان طبقاً لتاريخ الوثائق التي استخدمها وطبيعة تلك الوثائق فإنه أخفق في إعطائنا سرداً تاريخياً واضحاً خالياً من التناقض . هذا إلى أنه حرص إلى أبعد حد على أن يفسر التاريخ في ضوء سير الأشخاص والتراجم ، كما

كانت أعمالهم — من وجهة نظرة أيضا — هي التي تحدد مجرى الأحداث التاريخية . كذلك لم يفسر الأحداث التاريخية في ضوء الحركات التاريخية العامة التي صاحبته ولم يوضح العلاقة بين السياسة الداخلية والشئون الخارجية . ثم إنه يبدو في صورة المؤرخ الرسمي ، حيث إنه أنحى كثيراً من الحقائق والمعلومات . وكان يكتب أساساً بهدف تعريف من هم خارج ألمانيا وتعليمهم ، ومن ثم فقد صور ألمانيا في صورة إمبراطورية موحدة ومماسكة ، دون أن يذكر سوى القليل عن التناقض السياسي بين مختلف الولايات الألمانية ، وما اكتنف شئون ألمانيا الداخلية من تعقيد وتداخل . لذلك فإن فيوتر أصاب إلى حد بعيد عندما قال عنه « إن بوفيندورف كتب للإمبراطورية أكثر مما كتب عنها »

وعالج . بوجسلاوى فيليب دى شميتز Bogislaw philippe de Chemnitz (١٦٠٥ — ١٦٧٨ م) مملكة السويد وعلاقاتها الخارجية وبصفة خاصة حرب الثلاثين عاما في ألمانيا وذلك على غرار ما كتبه جويكاردى عن سياسة فلورنسا وعلاقاتها الخارجية وما كتبه بوفيندورف عن براند نبرج والإمبراطورية الألمانية . وقد رجع بوفيندورف إلى هذا الكتاب عندما تعرض لشئون السويد في كتابته .

أما في هولندا فإن أبرز شخصية بين مؤرخى المدرسة الإنسانية كان هوجو جروتىوس Hugo Grotius (١٥٨٣ — ١٦٤٥ م) . الذى اشتهر بأنه أب القانون الدولى والذى كتب عدة مؤلفات تاريخية عن القوط والوندال واللومبارديين فضلا عن تاريخ بلجيكا وهولندا . وقد حاكى في أسلوبه تاكيوتوس . ولذلك جاءت كتابته مليئة بالحشو المطول والمعقد ، وإن فاق كثيرين غيره ومن بينهم تاكيوتوس — من حيث مقدرته على استخدام علم النفس في تحليل المواقف التاريخية . وبدأت هذه المقدرة بصفة خاصة في استقصائه للأسباب الحقيقية الكامنة للحروب بين أسبانيا وهولندا . وكان يرفض دائما أن يقرن تفسير التاريخ بالأشخاص والأحداث ، وهو التفسير الذى وجده بوفيندورف مناسباً جداً ، كذلك اتخذ جروتىوس موقفاً غير متعصب بوجه عام تجاه المشكلات الدينية واتفق مع ثاونس في أن الحروب الدينية تمثل خطراً كبيراً على النظام العام ورفاهية الشعوب عموماً أما في معالجته للسياسة الداخلية فإن كتابة جروتىوس تدل على أنه كان أرستقراطياً اكرمته جمهوريا متحمساً وثمة مؤرخ أكثر مقدرة هو بطرس كورنيلسن هوفت Cornelissen Hooft

(١٥٨١ م — ١٦٤٧) الذى فاق جروتىوس في إعجابه بتاكيوتوس حيث قام بترجمة أعماله إلى اللغة الهولندية ، وسار على نهجه في الطريقة والأسلوب . ولكنه فاق تاكيوتوس في نهجه العلمى ، إذ دأب على فحص المصادر التاريخية بكل دقة ، واتصفت كتاباته بالبعد عن التحيز في أحكامها . وقد تناولت كتاباته بصفة أساسية التاريخ الفرنسى والهولندى ، كما تضمنت تاريخاً لهزرى الرابع وأسرة ميدتش بالإضافة إلى تاريخ هولندا في النصف الثانى

من القرن السادس عشر . أما المؤرخ يوحنا كلوفر Johannes Clüver الذى ألف كتاباً باسم مجمل تاريخ العالم (١٦٣٧ م) فإن كتابه يعتبر من الكتب الموثوق بها عن تاريخ العالم

فإذا ما انتقلنا إلى إنجلترا وجدنا كتابة التاريخ فى عصر الحركة الإنسانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأصول الحركة الأدبية فى إيطاليا . وأول مثال لهذا النوع من أعلام الكتابة التاريخية فى إنجلترا هو بوليدور فيرجيل (١٤٧٠ — ١٥٣٥ م) الذى كتب كتاباً عن تاريخ إنجلترا يتصف بإحكام الأسلوب وغزارة المادة . وكان فيرجيل من رجال الكنيسة الإيطالية وأحد أصدقاء أرازموس ثم اتخذ إنجلترا موطناً له . ولم يكن فى عصره فى الجزر البريطانية من يفوقه فى اتساع العلم والمعرفة حتى أيام كامدن أى بعد عهد فيرجل بحوالى قرن من الزمان . هذا إلى أنه أظهر فى كل أجزاء تاريخه قدرة عظيمة على النقد ، ولم يقف عند حد شن هجوم عنيف على الأساطير التى امتلأت بها كتابات جوفرى المنسوب إلى مومعاتث عن أصل الشعب البريطانى ، وإنما استطاع أن يقدم خبر ما كتب عن حكم هنرى السابع .

أما سير توماس مور (١٤٧٨ م — ١٥٣٥ م) فهو أول مؤرخ بارز من أهل إنجلترا ينتمى إلى المدرسة الإنسانية ، وظهر أسلوبه المصقول فى كتابه الموجز «تاريخ الملك ريتشارد الثالث» . وقد كتب مور كتابة هذا مرتين ، إحداهما باللغة الإنجليزية والأخرى باللاتينية ووصل فى كليتهما إلى أعلى مستوى فى فن الكتابة . وتمتص النسخة الإنجليزية من كتابه بأهمية خاصة حيث إنها تمثل أول كتابة بلغة محلية طبقت أساليب المدرسة الإنسانية فى صورتها النقية الخالصة . ومع ذلك فإن الصورة الزاهية التى رسمها مور بشخصية ريتشارد الثالث لم تكن دقيقة تماماً وكان يشوبها بعض من خرافات وأساطير ذلك العصر . وبرغم ذلك فقد اعتمد عليها شكسبير مما جعلها مصدر الانطباع العام عن ريتشارد الثالث فى نظر الناس منذ أيام مور حتى عصرنا هذا .

أما أصول الدراسة العلمية لتراث الأقدمين فى إنجلترا فقد أرسى أساسها جون ستو John Stow (١٥٢٥ م — ١٦٠٥ م) وحنًا ليلاند John Leland (١٥٠٦ — ١٥٥٢ م) وقد نجولا كثيراً فى طول البلاد وعرضها بحثاً عن المادة التى تفيد فى كتابة التاريخ والآثار لكل من إقليمى إنجلترا وويلز . ومع ذلك فإن الكتابات التى بنيت على هذه الرحلات لم تنشر إلا فى مطلع القرن الثامن عشر .

أما سير والتر رالى — وهو من رجال البلاط الإنجليزي وأحد دعاة الاستعمار المتصفين بالشجاعة والجرأة (١٥٥٢ — ١٦١٨ م) فقد ألف كتاباً بعنوان «تاريخ العالم» بينما كان مسجوناً فى برج لندن . ويجمع هذا الكتاب بين ما درج عليه كتاب المدرسة الإنسانية من حب لتراث القدامى وما هو معروف عن النيورتان من ميل للإنجيل والحرية . ومع أن رالى كان ملماً

بأعمال عطاء المؤرخين القدامى إلا أنه كان شديد التأثير ببلوتارك على وجه الخصوص . على أن هذا الكتاب برغم ما يجتاز به من تشويق وأسلوب رفيع ، فإنه لم يصف شيئاً لمعلوماتنا ولم يأت بجديد فيما يتعلق بتاريخ الماضي . وقد خصصت الفصول الأخيرة منه بصفة رئيسية للتاريخ الإنجليزي .

ويمثل مدرسة بلوندرس الناقدة ذات المعرفة الواسعة من المؤرخين الإنجليز مؤرخ البلاط وليام كامدن . William Camden (١٥٥١ م - ١٩٢٣ م) الذي كان شديد الإعجاب بيوليوس . ويعتمد كتابه « بريطانيا » من الكتيبات الرائعة التي تناولت تاريخ الجزر البريطانية وجغرافيتها وآثارها وردد كامدن في سخرية لطيفة الأساطير التي أحاطت بأصل البريطانيين . وأوضح في كتابه حوليات التاريخ الإنجليزي الأيرلندي في عهد الملكة إليزابيث « مثل ما أوضح معاصره الفرنسي ثاونس - أن التاريخ السياسي للقرن السادس عشر لا يمكن فصله عن المسائل الدينية . ولكنه كان أقل حياداً من بلوندوس في كتاباته التاريخية حيث إنه كان ملكياً محافظاً ومن أنصار الكنيسة الرسمية في إنجلترا .

أما العلامة الفيلسوف فرانسيس باكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) فيعتبر مريداً في إنجلترا لكل من ميكافلي وجويكارديني . والواقع أن هناك تشابهاً كبيراً بينه وبين أولئك الفلورنسيين السابقين له في الأسلوب ووجهات النظر . وجاء مؤلفه التاريخي الرسمي « تاريخ عهد الملك هنري السابع » كتاباً رافعاً في خطته وتعبيره وروحه الفلسفية ، مع أن أحكامه القاسية كانت موضع نقد شديد من جانب النقاد الذين جاءوا بعده . ولقد أظهر باكون احتراماً يثير الدهشة للكنيسة ، مع ما كان عليه من نزعة علمية . ولكن باكون كان رجلاً إنجليزياً مهذباً قبل أن يكون فيلسوفاً مما دفعه إلى احترام الكنيسة الإنجليزية . أما نظراته إلى التاريخ فهي أكثر أهمية من أي إنتاج له في مجال الكتابة التاريخية . وتبدو هنا النظرة وذلك الإدراك الكامل للمفهوم التاريخي حين يؤكد « أننا نحن القدماء » « وسترى أيا منا هذه بالعصور القديمة ذلك عندما يشيخ العالم على مر السنين . إن عصرنا نحن أكثر قديماً من الزمن الذي أحصيناه وراعنا وذلك إذا بدأنا بعصرنا هذا وقسنا عليه المستقبل » .^(١) وحين يؤكد باكون هذه الآراء يتضح كيف كان ينظر إلى التاريخ نظرة شاملة واسعة . وعلى نفس المستوى من الأضالة والأهمية كانت دعوة باكون الفلسفية لكتابة تاريخ أوروبا الثقافي والفكري .^(٢) وكان أول من نهض بهذا العمل أكثر النقاد قسوة على باكون وهو أستاذ العلوم الأمريكي حنا وليم دراير

John William Draper

يؤكد باسكال وجهة النظر هذه بصورة قاطعة . انظر بريزنتد سميث (المؤلف)

(2) Preserved Smith «A History of Modern Culture (Holt 1930) 1,255.

وفي إنتاج سيلدن وكلارندون وبورنت امتزجت الكتابة التاريخية في عصر الحركة الإنسانية لكتابة التاريخ الحديث السياسي والحزبي . ذلك أن حنا سيلدن (١٥٨٤ - ١٦٤٥ م) كتب مقالات مستقلة عن القانون ونظام الحكم في إنجلترا بما في ذلك نظم الحكم التي سبقت الفتح النورمانى ، وتاريخ الألقاب وضرائب العشور في إنجلترا . ولقد سجنه الملك جيمس الأول فترة من الزمن لمعاداته النظام الملكي وللمجيده إطلاق الحريات .

وكانت الحرب الأهلية التي وقعت في السنة الأخيرة من حياة سيلدن خير حافز له على كتابة التاريخ السياسي وتاريخ الأحزاب في إنجلترا . أما كتاب تاريخ الثورة والحروب الأهلية في إنجلترا الذي وصفه إيرل كلارندون (إدوارد هابيد) (١٦٠٩ - ١٦٧٤ م) فيشبه في نظامه العام إلى حد كبير المذكرات الفرنسية . وعلى الرغم من أن كلارندون كان سطحيًا للغاية في تحليله للأسباب الرئيسية - الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية - للحرب الأهلية الأولى في إنجلترا ، إلا أنه لا يوجد مؤرخ سبقه سواء من الإنسانيين أو القدامى استطاع أن يفوقه في قدرته على وصف وتحليل الشخصيات . وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الملكية لأنه من أنصارها ، إلا لم يحذف هاميدون وكرومويل وغيرهما من قادة الثورة حقهم « فأعطى للشيطان حقه » . وقد فسر الحرب الأهلية على أنها منبع القانون الدستوري لكن نظريته فيما يتعلق بالسببية التاريخية كانت من النوع الشخصى الأخلاقى التى وإن ناسبت فنه فى تصوير الشخصيات فإنها لم تكن مناسبة للموضوع .

ثم يأتى بعد ذلك الأسقف جلبرت بيرنت Gilbert Burnet (١٦٤٣ - ١٧١٥ م) الذى كان أول مؤرخ عالج للمسائل الحزبية والمناقشات البرلمانية ، وهما موضوعان قلما عرض لهما مؤرخ سابق . وقد عالج بيرنت هذين الموضوعين فى كتابيه « حركة الإصلاح الكنسى فى إنجلترا » و « التاريخ المعاصر » ولذلك يعتبر بيرنت أحد رواد التاريخ السياسى الحديث مثلما هو أحد تلاميذ المدرسة الإنسانية . وعلى الرغم من أن كتابه عن تاريخ حركة الإصلاح الكنسى فى إنجلترا يعبر عن تحيز واضح للبروتستانت ، كما أنه غير دقيق فى كثير من تفاصيله ، إلا أنه عالج الموضوع على أساس دراسة الأسباب والنتائج ، كما أنه فاق كلارندون فى فهم الإطار العام - الفكرى والاجتماعى - للتطورات الدينية . أما كتابه « التاريخ المعاصر » فيحوى عرضاً سريعاً ممتازاً للمسرح السياسى السريع التبدل والتغير فضلاً عن المسائل الحزبية والقيمة داخل البلاط وهو أيضاً دفاع رائع متحمس عن حزب الأحرار وقد احتوى هذا الكتاب على قدر كبير من التاريخ الثقافى . ويلاحظ فيه أن الكاتب يؤمن بتدخل القوى الإلهية فى صنع أحداث التاريخ . وعلى الرغم من أن بيرنت قد قبل منصب أسقف فى الكنيسة الانجليزية فإنه كان دائماً منصفاً لفئة المنشقين عن تلك الكنيسة ، كما كان يكتب بأسلوب بالغ الوضوح والسلاسة .

أما أبرز كتاب المدرسة الإنسانية في اسكتلندا فهو العلامة جورج بوخنان Buchanan (١٥٠٦ - ١٥٨٢ م) الذي كان شاعراً بارزاً ومؤرخاً وفيلسوفاً سياسياً ومصلحاً دينياً وزعيماً حزبياً . ولا يداينه في نقاوة أسلوبه اللاتيني وقوة ووضوح سرده سوى قليل من أحسن الكتاب الإيطاليين . والكتاب الرئيسي الذي كتبه بوخنان هو كتاب « تاريخ اسكتلندا » (من أقدم الأزمنة حتى ١٥٠٨ م) تميز بروعة الأسلوب وإن كانت تشوبه نغمة التحزب وعدم دقة الرد . ثم انه عند علاجه للدور المبكر من تاريخ اسكتلندا اتخذ موقفاً شديد العداء لانجلترا واضح التعصب لاسكتلندا . وعلى الرغم من أنه استطاع تحليل المعجزات والأساطير إلا أنه لم يكن متحمساً لنبذها . ومع أن الكتاب عظيم في معالجته للفترة المعاصرة ، إلا أنه حتى في ذلك الدور كان منحازاً إلى جانب اسكتلندا وكنيستها المشيخية . كذلك لم يتجسس في إعطاء صورة لنوكس Knox والحركة الإصلاح الديني في اسكتلندا . ولقد كان بوخنان معادياً للعقلانيين من المفكرين الأحرار وأيضاً للملكيين ، كما كان من ألد خصوم النظام الكويريني .

أما في فرنسا فإن أثنى ما أنتجته المدرسة الإنسانية هو ما كتبه العلامة الفرنسي جوزيف جستوس سكاليجر Joseph Justus Scalger (١٥٤٠ - ١٦٠٩ م) صاحب كتاب « تصحيح التقويم التاريخي » Restoration of chronology Emendatione Temporum . وجاء هذا الكتاب محاولة جريئة لتقويم التاريخ على أسس علمية ، وذلك بمراجعة التاريخ « المقدس » في ضوء شواهد مستقاة من تواريخ الأمم الماضية الأجنبية الوثنية . وقد احتوى الكتاب على عرض لكل التقاويم المعروفة وطرق حساب الزمن . أما كتاب « سجل التواريخ » فهو عمل علمي رائع يشمل كتاب ايوزيوس المفقود بعد أن استمدته من جيروم ومن كتاب يوناثان . ويعتبر هذا العمل أهم تقويم يمكن الاعتماد عليه للتاريخ القديم وذلك حتى ظهرت أبحاث دوم كلمنت وأبحاث المتخصصين المحدثين .

وعاصر سكاليجر القانوني الضليع حنا بودين (١٥٣٠ - ١٥٩٦ م) صاحب كتاب « طريقة لفهم التاريخ بسهولة » (١٥٦٦ م) وهو يمدنا بأول بحث مطول عن منهج التاريخ ، معتمداً على شرح وتفسير ما جاءت به المصادر من ارتكازه على نقدها . وقد اهتم بودين كثيراً بإيضاح تأثير العوامل الجغرافية على تطور التاريخ . ويبدأ فتح طريقاً أمام مونتسكييه وريتير . كذلك فإن كتابه - وليس كتاب ليبروخ - يسجل شعباً على الفضل الأول من كتاب باكل « تاريخ الحضارة في إنجلترا » . أما عن الطريقة التي عالج بها مؤرخو الحركة الإنسانية تاريخ العالم ، فتبدو واضحة في كتاب « تاريخ العالم » (١٥٧٧ م) الذي كتبه فرانسوي بلفورست .

وعلى الرغم من أن فكرة بودين الخاصة بتأثير العوامل الجغرافية قامت على أساس عام من التنجيم ، فإن مغزاها كان كبيراً وهاماً . ذلك أنه أظهر بوضوح طبيعة فلسفة التاريخ وقبم

تطور الإنسان تاريخياً إلى ثلاث مراحل : مرحلة الشعوب الشرقية ، مرحلة شعوب البحر المتوسط ، ومرحلة شعوب أوروبا الشمالية . ثم إنه عرض في البداية نظرية أوليه للتقدم كانت متبعة في الكتابة التاريخية المسيحية. ومؤداها التشكك في الاعتقاد السائد وقتذاك والخاص بالانحدار من عصر ذهبي أو الابتعاد عن الجنة . ففي رأيه أن الإنسان قد أحرز الكثير من التقدم المظرد منذ بدأت الخليقة على الأرض .

وفي النصف الأخير من القرن السادس عشر تحولت الكتابة التاريخية عند الإنسانيين في فرنسا إلى دراسة السياسة الفرنسية والحروب الدينية ويتضح هذا الأمر في كتاب «تاريخ العالم» الذي ألفه ثيودور اجريبادي أوبائن Theodore Agrippa d'Aubigné (١٥٥٢ - ١٦٣٠ م) الذي كان بروتستانتيًا ، ولذا أمر برلمان باريس بحرق نسخ من كتابه القيم .

وفي أعمال المؤرخ جاك أوجست دي ثو المعروف عادة بـثاونس (١٥٥٥ - ١٦١٧ م) نجد استكمالاً للغرض التاريخي الخاص بهذه الفترة . ذلك أن ثاونس يعتبر على الأرجح أبرز مؤرخ فرنسي أسهم في الكتابة التاريخية المنظمة خلال الحركة الإنسانية . وكتاب «التاريخ المعاصر» قصد به أن يكون استكمالاً لكتاب بنفس العنوان لأحد مؤرخي الحركة الإنسانية في إيطاليا وهو بولس جوفيزوس (١٤٨٣ - ١٥٥٢ م) . ويصف هذا الكتاب الحروب الأهلية والدينية في فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر (١٥٤٦ م - ١٦٠٧ م) وصفاً أمهلت روح كاثوليكي فرنسي مستنير معتدل . ولقد أدخل ثاونس على الكتابة التاريخية الاتجاهات العظيمة التي أتت بها في عالم السياسة مولاة وصديقه الملك هنري الرابع . وكما هو متوقع من مشرع اشترك في صياغة مرسوم نانت^(١) لم يكن ثاونس متصفاً لبيت جويز ، أعداء البروتستانت الألداء في فرنسا ، وكذلك للحزب الكاثوليكي المتطرف . ولكن منهجه كان يعبر عن روح سامية نبيلة من أجل التسامح الديني في سبيل مصالح فرنسا الكبرى . ذلك أنه حث الملوك الفرنسيين على التسامح والسلام كذلك فإن أعماله تكشف عن قدرة ذهنية عظيمة وعن قدرة على التعبير . وكان من الممكن أن يتساوى ثاونس مع ميكافلي وجويكارديني لو أنه لم يدافع عن نظرية التوجيه الإلهي للتاريخ ، ولو أنه امتلك الخيال التاريخي البناء الذي يمكنه من تنظيم العمل التاريخي في سرد محكم . ومع ذلك يمكن أن يقال إنه قد فاقها في ناحية معينة وهي إيضاح أهمية بل ضرورة مناقشة الأمور الدينية للتوصل إلى فهم كامل للتطورات السياسية والدستورية . وكان أسلوب ثاونس على درجة كبيرة من الوضوح ، ولكن يغاب عليه كثرة التصنع والحرص على تقليد النماذج الكلاسيكية .

(١) : صدر هذا المرسوم سنة ١٥٩٨ وهو يسمح لغير الكاثوليك من الفرنسيين بالحرية المذهبية الدينية وفي سنة ١٦٨٥ أبطله لويس الرابع عشر وأمر بحرق كنائس البروتستانت (المترجم) .

أما ما أسهم به اسحق كوسبون Isaac Casaubon المعاصر لثاونس ، فسوف نتناوله في مجال آخر . والواقع أن خلفاء ثاونس في فرنسا كانوا أقل منه كثيراً في القدرة الدقة ، وأولهم هو انريكو كاتيرينو دافيللا Enrico Caterino Davila (١٥٧٦ - ١٦٣١ م) الذي كان جندياً شارك في الحروب الدينية الفرنسية ، ثم هاجر إلى إيطاليا وكتب باللغة اللاتينية تاريخاً معروفاً للحرب الأهلية في فرنسا . وقد كان فهمه سطحياً لحركة الهجرات وهم بروتستانت فرنسا في ذلك العصر . ويليه في الأهمية فرانسوا ابود الشهير بميزراي Mezeray (١٦١٠ - ١٦٨٣ م) صاحب كتاب «تاريخ البرجوازيين في فرنسا» سنة ١٦١٠ ولم يكن دقيقاً في تفاصيله التي لا يعتمد عليها ، ويعكس عواطف الطبقة البرجوازية ومشاعرها الطيبة نحو الملكية القوية في فرنسا ، ولذا فإنه يجد الملوك الفرنسيين وخاصة الأقوياء منهم . وجاء هذا الكتاب بلغة فرنسية مصقولة .

أما التحفة الأدبية بالنسبة للكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية الفرنسية فهي مذكرات دوق سان سيمون (١٦٧٥ - ١٧٥٥ م) التي تناول فرنسا في عهد البوريون . والواقع ان سان سيمون كان لا يتمتع بصفة العلامة المتعمق الدقيق أو المؤرخ الفلسفي ، فهو لم يلتزم الدقة فيما يتعلق بالتفاصيل ولم تكن لديه القدرة على تقدير القيمة الحقيقية للمادة التي توافرت له ، كما أنه كان متحيزاً لطبقة النبلاء التي ينتمي هو نفسه إليها . يضاف إلى ذلك قلة اهتمامه بالسياسة الخارجية وشففه بالدماسيس والنجاسة . ولكنه مع ذلك كله كان عظيماً في تصوير الشخصيات والمناظر المسرحية عن دوائر البلاط وشخصياته ، مما جعل كتابه من أكثر الكتابات التاريخية متعة . ويقول عنه جورج بيودي جوخ «بأنه له تأثيراً مغناطيسياً» وبنوه «بمركز المؤلف في البلاط وعلاقاته الوثيقة بشخصياته الرئيسية وقدرته التي لا تبارى على اعطاء تفاصيل كاملة وكذلك قدرته الغير عادية على الملاحظة وتصويره الرائع للشخصيات وأسلوبه الواضح» . هذا وان كان رواد المدرسة الناقدة أمثال شيرويل وبواز ليزل Boislisle لم يغفروا لسان سيمون عدم توخي الدقة في كتاباته .

أما في اسبانيا فقد كان للمدرسة الإنسانية ثلاثة كتاب على جانب من الأهمية هم دايغو هورتادودي ميندوزا Diego Hurtado de Mendoza (١٥٠٣ - ١٥٧٥ م) ، وجيردينمودي زوريتا (١٥١٢ - ١٥٨٠ م) وجوان دي مارينا (١٥٣٥ - ١٥٧٥ م) . كان ميندوزا كاتباً ذا خبرة إدارية وعسكرية كبيرة ، صار في يوم ما من الشخصيات المقربة لفيليب الثاني ولكنه طرد بعد ذلك من البلاط . وأدى هذا الحدث إلى تزويده بالأساس السيكلوجي للاتجاه الناقد وهو الاتجاه الذي ظهر في كتاب تاريخ حرب غرناطة ، الذي يعتبر سرداً قائماً بذاته ممتازاً يتضح منه أن المؤلف كان متمكناً بدرجة كبيرة من مادته وكان صريحاً متزناً ومتعمقاً في أحكامه على نحو ما كان عليه جويكارديني ، باكون . هذا

وان أدى تعطشه مثل بقية رجال المدرسة الإنسانية إلى تقليد القدماء إلى عدم وضوح كتاباته والانتقاص من قيمتها . وكان هدفه دائماً أن يقلد سالوست ، وتاكيوس . ولكنه لم يفعل ذلك بمهارة ولم يحقق نجاحاً فيما ذهب إليه ، لأنه مزج ملاحظاته الدقيقة بعبارات وتركيبات قديمة مستمدة من تاكيوس . ثم إنه لم يكتف بهذا بل ذهب إلى حد تناول المواقف التاريخية المعاصرة بنفس أسلوب تاكيوس وطريقته مما أفسد كتابته وشوه الصورة التي أرادها وجعلها بعيدة عن أن تكون سرداً مباشراً له قيمته الكبرى .

وربما كان جيرونيمو دي زوريتا Geronimo de Zurita المؤرخ الرسمي لمملكة أرغونه وأبرز تلامذة بولوندوس بين المؤرخين الأسبان في ذلك الدور وأكثرهم إخلاصاً له . ويتناول في كتابه حوليات لمملكة أرغونه وتاريخ هذه المملكة منذ نشأتها حتى سنة ١٥١٦ م . ولعل أهم شيء في هذا الكتاب هو أن مؤلفه كان أحد المؤرخين الأوائل الذين استفادوا بدرجة كبيرة من الأرشيفات والمراسلات الدبلوماسية ، استغل ذلك في وضع سجل جديد للأحداث السياسية منذ الماضي البعيد كذلك فإن كتابه له قيمة خاصة بالنسبة لدراسة عهد فرديناند .

أما الكاتب الأسباني ماريانا الذي ينتمي إلى المدرسة الإنسانية فكان فيلسوفاً سياسياً معارضاً لاستبداد الملكية . وهو أشهر المؤرخين الإنسانيين في أسبانيا ، ودفعته نزعته الوطنية إلى أن يهدي أسبانيا عملاً تاريخياً يليق بها ويكشف للأجانب عن عظمة بلاده فتناول في كتابه «تاريخ أسبانيا» منذ الفترة التي يقال إن أحد أحفاد نوح خط رحاله فيها حتى عصر اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ . وبعد ذلك أكمل ماريانا هذا الكتاب بشكل مختصر حتى وصل إلى سنة ١٦٢١ م . ومع أنه استخدم المصادر المعروفة إلا أنه لم يكن ناقدًا أو مدققًا في استخدامها على نحو ما كان عليه زوريتا . كذلك كان ميالاً لتقبل المعجزات والأساطير التي جاء بها الأقدمون والمسيحيون الأوائل . ولكنه مع ذلك كان لبقاً في تناوله للسياسة الأسبانية ، وخاصة في الفترة الأقرب لعصره هو . واحتوى سرده على قدر كبير من الوعظ السياسي والتنويه بدروس التاريخ وضرورة الاستفادة منها . ويبدو أنه كان يبغي الحصول على شعبية وشهرة ، ولذا كتب بأسلوب واضح سلس معبر مما جعله يعرف - بأنه بوخنان الأسباني ولهذه الشهرة ما يبررها . وإذا لم يكن ماريانا في مستوى بوخنان الأسكتلندي العظيم من ناحية الأسلوب الرفيع فإنه يفوقه كمؤرخ علامة .

ولابد في هذا المقام من أن نشير إلى المؤرخ فيفولا أنطونيو (ت ١٦٨٤) والذي كتب أول تاريخ للأدب الأسباني .

ولقد سبق أن أشرنا إلى الخلافات الدينية التي نشأت في القرن السادس عشر بقيام حركة الإصلاح الديني البروتستانتية وردود فعل هذه الحركة ، ولذا فإن دراسة هذه الحركة وردودها سيكون موضوعنا التالي ويعتبر قلب ميلانكتون (١٤٩٧ - ١٥٦٠ م) خير من يمثل كتاب الفترة الانتقالية من الحركة الإنسانية إلى عهد الإصلاح الديني .

المراجع

1. Articles «Humanism and Renaissance in Encyclopaedia of the social sciences
2. **Hulme**: The Renaissance The Protestant Revolution and the Catholic Reformation in continental Europe Chaps V, XXXIX, century 1915.
3. **E.P. Cheyney**: The Dawn of a New Era 1250 - 1453 Hapers 1936.
4. **Thompson**: History of Historical Writing Vol. 1 chaps XXVIII - XXIX
5. **M.P. Gilmore**: The World of Humanism (Harper) 1957.
6. **Will Durant**: The Renaissance, Simon and Schuster 1953.
7. **James Gairdner**: Early chroniclers of Europe England chap. VII.
8. **Ugo Balzan**: Early chroniclers of Europe Italy chap. VII
9. **Ritter**: Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book II.
10. **Preserved Smith**: A History of Modern Culture I, 252, 270, Holt 1930
11. **Robert Flint**: Historical philosophy in France pp. 183 - 207. Scribners 1894.
12. **John Morley**: Critical Miscellanies IV, 1 - 108. Macmillan 1908.
13. **Ferdinand Scheil**: A History of Florence, Introduction. Harcourt, Brace, 1936.
14. **W.K. Ferguson**: The Renaissance in Historical Thought (Houghton Mifflin), 1948.
15. **Eduard Fueter**: Histoire de l'Historiographie moderne Books 1 - 11 Paris 1914.
16. **F. X. Von Wegele**: Geschichte der deutschen Historiographie Seit dem Auftreten des Humanismus Book, Lepzig 1885.
17. **Paul Joachimsin**: Geschichtsauffassung und Geschichtschreibung in Deutschland unter dem Einfluss des Humanismus Berlin 1910.
18. **A.A. Tilley**: The Literature of the French Renaissance Macmillan 1904. 2 Vols.
19. **A.W. Ward and A.R. Waller ads, Cambridge**: History of English Literature, Vols III-VI. Macmillan 1907 - 17. 15 Vols.
20. **J.E. Spingarn**: History of Literary Criticism in the Renaissance. Columbia University press 1908.
21. **Sin J. E. Sandys**: History of Classical Scholarship, Puntam 1906-8 3 vols.
22. **Merrick Whit combs**: Literary Source Book of the renaissance University of Pennsylvania press 1904.

الفصل السادس .

الكتابة التاريخية الكنسية خلال عصر الإصلاح الديني والحركة المضادة

الأثر العام لحركة الإصلاح الديني والحركة المضادة في الكتابة التاريخية

حدث في نفس السنة التي نهض فيها ميكافيلي بكتابه « تاريخ فلورنسا » أن أقدم مارتن لوثر على حرق المرسوم البابوي في وتبرج^(١) . وهذا أنطلقت الثورة البروتستانتية . وهكذا تعرضت الحركة الإنسانية لهزة عنيفة ، في الوقت الذي أخذت تلك الحركة تسلك في ميدان الكتابة التاريخية طريقاً دنيوياً صحيحاً . ومرة أخرى أخذت الاهتمامات التاريخية تنحصر في دائرة المهاترات والجدل الديني التي حاول المؤرخون منذ عهد بترارك وبوكاشيو تحرير أنفسهم منها . ونعود مرة أخرى للاقتباس مما قاله الأستاذ بير في هذا الشأن :

لقد تعرضت حرية التاريخ لصلصة مفاجئة عند ظهور رد الفعل الديني العظيم الذي نسميه حركة الإصلاح الديني . ومرة أخرى نجد مصالغ البشر وقد غاصت في قاع النسيان ، لأن ما أعطته آراء لوثر وكالفن الدينية من اهتمام بالجهد البشري وتقدير له كان أقل مما أعطته الكنيسة في قديم عهدها . حقا إن لوثر قدّر التاريخ حق قدره ، ولكنه فعل ذلك بوصفه درساً سماوياً مقدساً كذلك أخذ ميلانكتون^(٢) يتلمس يد الله في التاريخ وكيف تعاليمه كلها وفق احتياجات العقيدة البروتستانتية . وسواء كان على الكاثوليك أو البروتستانت أن يحققوا وحدة للعالم المسيحي ، فإن التاريخ صار عليه مرة أخرى أن يصبح صنعة اللاهوت^(٣)

(١) تم ذلك في العاشر من ديسمبر ١٥٢٠ وكان البابا حينذاك هو البابا ليو العاشر (تولى البابوية من مارس ١٥١٣ - ديسمبر ١٥٢٦ م) وقد أعلن لوثر أنه يحقر البابوية واتهمها بأنها قوة معادية للمسيحية (المترجم)

(٢) بعد وفاة لوثر ١٥٤٦ تولى ميلانكتون زعامة حركة الإصلاح الديني في أوروبا وكان رائد علماء اللاهوت في جامعة وتبرج ومثل اللوثرين في كل المفاوضات للوصول لاتفاق مع الكاثوليك في أوروبا (المترجم) .

(٣) Burr. loc. cit., p. 262.

ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة والمنظمات الدينية هي صاحبة المقام الأول والأكبر في مجال البحث التاريخي . بل أن التاريخ العالمي صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشیطان بعد أن حلت « مدينتان جديدتان للشیطان » محل المدينة الوثنية التي عرضها القديس أوغسطين وأورزيوس ، وهما على التابع « وكر الشيطان في روما » و « اتباع الراهب المجنون في ويتبرج » . وهكذا اقتصر الصراع في ذلك العصر على العالم المسيحي الذي أصبح بيتا منقسم على نفسه واستخدمت أساليب أورزيوس في تلك « المعركة العائلية » التي تعرض لها الوطن المسيحي .

وغنى عن القول أن أحياء التركة الدينية في مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التي لمساها في كتابات بعض المؤرخين من أمثال جويكارديني ، بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الديني في كتابة التاريخ ، وهو الاتجاه الذي كانت تمثله المدرسة الفلورنسية . كذلك ترتب على أحياء تلك التركة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضي ، وهو الأمر الذي أضى بوليوس نفسه من أجله ، ذلك لأن التاريخ في تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية بدرجة لا تقل عنفا عما كان عليه أيام القديس أوغسطين وتلاميذه . وبعبارة أخرى فإن النظرة إلى الماضي في ذلك العصر جعلت « ترسانة » شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها في تشوية صورة خصومهم . كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التي أحيها خيرة كتاب المدرسة الإنسانية . ذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد في الماضي ما يؤيد وجهة نظره ويظهر معارضيه في أقبح صورة ، وبالتالي لم يعد الحكم على مصادر المعلومات ينبع من حيث مدى امكان الاعتماد على صحتها ، ولكن من حيث قدرتها على المساهمة في الجدل القائم . وهكذا حل الجدل الصائب المليء بالاتهامات والعنف محل السرد الهادئ الرتيب . ونتج عن ذلك كله أن تضالبت لفترة طويلة بعد حركة الإصلاح الديني . الفرصة لدراسة العصور الوسطى دراسة كاملة حرة بعيدة عن التحيز . ففي فترة كهذه شهدت انقسام العالم المسيحي إلى حزبين دينيين كبيرين لم يكن هناك مجال للتحليل الهادئ غير العاطفي . . .

على أننا نبتعد عن الدقة إذا ما اعتقدنا أن حركة الإصلاح الديني تسهم في دفع عجلة البحث التاريخي ، إذ لم يوجد في إخصب الكتابات التاريخية القديمة أو تلك التي تنتمي إلى المدرسة الإنسانية مثل ما وجد في حركة الإصلاح الديني من طاقة محمومة تجلت في التفتيش والبحث الدقيق في سجلات الماضي وبعبارة أخرى فإن العيب الرئيسي لم يكن في اضمحلال النشاط أو ضعف الاهتمام بالبحث ، وإنما كان في طبيعة الدوافع التي أدت إلى هذا النشاط

الكبير في البحث عن المعلومات . وفي الطريقة التي استغلت بها هذه المعلومات بعد جمعها . فالمؤرخون البروتستانت النمساويون من إله القديس بولس في بحثهم عن أدلة قاطعة لا تقبل الشك تثبت أن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها بما تصف به من تقصير ومماثلة تحوى الكثير مما لا يوجد له أصل في الكتاب المقدس وأنها أقرب الى الوثنية ، وأن البابا نفسه هو خصم المسيحية الخارج على المسيح وتعاليمه . أما الباحثون الكاثوليك فقد النمساويون والعون والتوجيه من « السيدة العذراء » ليثبتوا أن الكنيسة وكافة أجهزتها هي التطبيق الصحيح الكامل للإنجيل ، وأن البروتستانت سيحل بهم العقاب الشديد جزاء ما كسبت أيديهم من خطيئة في حق الدين وفي حق كنيسة القديس بطرس التي أقامها تنفيذاً لكلمة المسيح .

ولعل أهم ما أسهم به ذلك الجدل في مجال التاريخ هو إحيائه ونشره للوثائق المباشرة الهامة عن الكنيسة وتاريخها بعد أن أمضى كل من الطرفين في نقده للطرف الآخر ، الأمر الذي استعله أصحاب المذهب العقلاني بعد ذلك بقرن من الزمان في هدم المعسكرين المتنازعين جميعاً .

إن حكمي الأخير هو أنه على الرغم من أن رواية هذا المؤرخ البندقي جنحت نتيجة للتعصب عن الحقيقة الكاملة في بعض أجزائها ، إلا أن هذا الكتاب من ناحية الدقة يعطى في مستواه أى نموذج آخر للكتابة التاريخية في عصره^(١) على أن الآراء اختلفت بالنسبة لتقدير ساربي وعمله ، فمثلاً يعتبره ماكولاى — أحد كبار الأحرار — من نخبة المؤرخين في أوائل العصر الحديث ، في حين يقول عنه المؤرخ الكاثوليكي البارز لورد آكون إنه لم يعد كونه طائراً سجيناً .

كان أول عمل هام أنتجه المعسكر البروتستانتي هو كتاب « حياة بابوات روما » الذي ألفه روبرت بارنز (١٤٩٥ - ١٥٤٠ م) . وكان بارنز لوثرى أنجليزى فرأى المانيا طلباً للحياة وألف كتابه تحت رعاية لوثر نفسه وإشرافه المباشر . وفيه حاول أن يلقى على البابوات والكنيسة الكاثوليكية مسئولية كوارث العصور الوسطى ، كما امتدح فضائل المعارضين العلمانيين للبابوات . وهكذا أنقلبت طريقة أورزيوس ومنهجه لتصبح سلاحاً ضد الكنيسة نفسها .

ونمة وسيلة أخرى اختارها البروتستانت هي إلقاء الضوء — ولو بشكل مبالغ فيه إذا ما اقتضى الأمر على اضطهاد الأحزاب الكاثوليكية للمصلحين الدينيين في دول أوروبا المختلفة وهكذا استفادت البروتستانتية من الشهداء الذين سقطوا ضحية الاضطهاد الكاثوليكي واستغل البروتستانت هؤلاء الشهداء في دعايتهم للتشهير بالكاثوليك ، بالضبط مثلما استفادت الكنيسة الكاثوليكية في عصرها الأول من شهداء المسيحية الذين ذبحهم الرومان الوثنيون . وكانت أولى المؤلفات التي ظهرت في هذا المجال « كتاب الشهداء » The Book of Martyrs الذى ألفه جينا كرسبين Jean Crespin وهو بروتستانتي فرنسى ونشر سنة ١٥٥٤ م . وكان هذا الكتاب جدلاً صريحاً مصوراً ليس فيه ما يهم عن اهتمام كبير بالدقة التاريخية . وقد وضع فيه على أى حال الأمكانيات المتعددة في هذا النوع من الكتابة التاريخية . والحقيقة أنه كان مخططاً بطريقة ماهرة ليستثير المشاعر ويزيد من تأييد أعداء روما للحركة البروتستانتية .

أما كتاب المؤلف الأنجليزى جون فوكس John Foxe (١٥١٦ — ١٥٨٧ م) الذى صدر بعنوان أعمال الشهداء المسيحيين وآثارهم فكان ثانياً كتاب من هذا النوع وهو أكثر تكاملاً وتحقيقاً لهدفه من سابقه . ولقد صمم بحيث أتخذ كتاب كرسبين بصورة قاطعة نموذجاً له . وفيه يبدأ فوكس بالمصلح الأنجليزى جينا وكلف وتتبع سجل الشهداء البروتستانت بطريقة تمثل النضال الدينى القائم في ذلك الوقت وكأنه صراع بين نقاوة المسيحية وانحرافها ، وبين المسيح وخصومه وقرر فوكس بعد شئ من التفكير أن يوسع كتابه ويجعله

تاريخاً عاماً وناقداً للكنيسة المسيحية ومن ثم وجد نفسه يسرق على نطاق واسع من كتاب
 مثنويات ماجدبرج ، Matthias Vlacich Illyricus والذي سوف نتعرض له بعد
 قليل . وبفضل ما تمتع به فوكس من مواهب أدبية وقدرة على التأثير في الدهماء - فإنه اكتسب
 شعبية كبيرة لدى مجموعة ضخمة من القراء المتحمسين له والمتشبعين به . وإذا كانت المصادر
 التي اعتمد عليها قد تعرضت لنقد لاذع من جانب الكتاب الكاثوليك ، فإن الدراسات
 اللاحقة وبخاصة تلك التي قارن فيها الأستاذ بريرفرد سميت بين أعمال فوكس والمصادر التي
 استخدمها قد أثبتت أن أخطاؤه أقل بكثير مما ادعى أعداؤه ، وإن كان ينبغي أن يؤخذ ماجاء
 في كتابه بتحفظ شديد .

أما في اسكتلندا فقد وجدت البروتستانتية بطلها في شخص من أتباع كالفن يدعى حنا
 نوكس John Knox (١٥٠٥ - ١٥٧٤ م) وهو صاحب كتاب تاريخ
 الإصلاح الديني في أسكتلندا وقد ألف نوكس كتابه ليثبت أن الشيطان وحده هو التصير الكبير
 للكاثوليك . وعلى الرغم مما في هذا الكتاب من تميز واضح للبروتستانتية فضلاً عن كثرة
 حديث المؤلف عن نفسه ، ألا أنه أعظم بكثير من كتاب « مثنويات ماجدبرج » وكتاب
 نوكس . والواقع أن هذا الكتاب يمثل من ناحية قيمته الأدبية والتاريخية عملاً فذاً يكشف عن
 دقة مذهلة وكفاءة تامة في اختيار التفاصيل المثيرة الهامة وعرضها . وإذا ما نظرنا إلى المؤلف
 بوصفه كاتباً جديلاً نجده يتميز بموهبة لا مثيل لها وحاسة فكاهية ، تبدو في سخريته وأسلوبه
 اللاذع . ولم يفت نوكس أن يدين بشدة أولئك الذين اعتنقوا مذهب كالفن لاتخاذهم وسيلة
 لتحقيق أغراض ذاتية مادية وكذلك أولئك الذين لجئوا إلى العنف باسم الدين من أجل
 الانتقام الشخصي أو السياسي وعلى الرغم من أن نوكس كان ينظر إلى الحقائق بعين متميزة فإنه
 لم يعمد إلى تزويرها أو حججها .

أما أكثر الكتب طموحاً وأشهرها بين كتب البروتستانت الجدلالية فهو ذلك المجلد
 الضخم بعنوان « مثنويات ماجدبرج » الذي وضع خطته وأصدره ماتيئاس (متي) فلاكيش
 الإيليري Matthias Vlacich Illyricus (١٥٧٥ - ١٥٢) الشهير باسمه اللاتيني
 فلاكيوس Flacius وقد ساعده في هذا العمل عدد من العلماء البروتستانت أمثال
 ألمان Aleman ، كويس Copus ، ويجاند Wigand ، وجودكس
 . وكان منهجهم هو نفس منهج أوبزيوس ولكن على صورة أكبر وموجه ضد
 الكنيسة الكاثوليكية . وشغف المؤلفون في هذا الكتاب بإبراز كل حقائق التاريخ الكنسي التي
 تدين الكاثوليك والبابوات . كما استعرضوا تاريخ الكنيسة والعقيدة المسيحية قرناً بعد قرن على
 التوالي حتى سنة ١٣٥٠ م . وذلك بهدف الوصول إلى سند تاريخي لموقف لوثر وإثبات أن

مبادئ الكاثوليك ونظمهم ليست إلا أنجماً دخيلاً ، وهو اتجاه غير مقدس بعيد كل البعد عن المسيحية في صورتها النقية التي جاء بها الحواريون . وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ما بين سنتي ١٥٣٩ ، ١٥٤٦ ميلادية . وعلى الرغم من أن خطة المؤلفين الأصلية كانت دراسة تاريخ الكنيسة المسيحية بأكمله فإنهم قصرُوا اهتمامهم على تاريخ العقائد والمذاهب المسيحية وبذلك أضعفوا من شأن التاريخ السياسي والقانوني للكنيسة بل أسأوا تفسيره . وعلى الرغم مما أبدوه من مقدرة فائقة في تفنيد معتقدات البابوية وآرائها فإنهم برعوا في الخداع وسوء النية عندما قبلوا المصادر والروايات الغير صحيحة ليدعموا جانبهم في الجدل مع خصومهم . وفي الوقت نفسه فإنهم نظروا الى المعجزات نظرة ذات وجهين فأعتبروا المعجزات معجزات أصلية . أما تلك التي كانت توازر الكاثوليك فأعتبروها زائفة خداعه . وهكذا بلغت مقدرتهم على النقد ذروتها عندما كان النقد في صالحهم كما هو الحال عندما نقدوا المراسيم البابوية المزورة المنسوبة إلى ايسيدور المزور .

ومهما يكن من أمر فإن أهمية كتاب « مثنويات ماجدبرج » تكمن في أنه أرسى أسس التاريخ الكنيسي في صورته الحديثة .

أما مؤلفات سليدانوس وبولينجر Sleidanus & Bullinger عن حركة الإصلاح الديني فكانت أقل طموحاً من الكتاب السابق ويمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر بالنسبة للجانب البروتستانتي وذلك في مجال الجدل بين البروتستانت وخصومهم .

والواقع أن خير ما كتبه الكاثوليك أو البروتستانت، عن تاريخ لحركة الإصلاح الديني قبل عهد الأسقف جلبرت بورنت هو كتاب ، شروح الاحوال السياسية والدينية في عهد الامبراطور شارل الخامس ١٥١٧ — ١٥٥٥ م الذي وضعه حنا سليدان John Sleidan (١٥٠٦ — ١٥٥٦ م) المشهور باسمه اللاتيني سليدانوس Sleidanus وقد تمتع هذا الكاتب بحصيلة فكرية تشبه ما كان لعلماء الحركة الانسانية وما كان لطلاب الدراسات التاريخية في أواخر العصور الوسطى . كان سليدانوس تلميذاً في حياته المبكرة لاراموس . وقبل أن يكتب عن حركة الإصلاح الديني قام بترجمة أعمال فرواسار وكومينز . ومساعدته ذلك على تزويده بنظرة أكثر اتساعاً وأوسع أفقاً من نظرة أي مؤرخ آخر من المؤرخين الجدد العاديين ، ومعرفته بما ينبغي أن تكون عليه مثل الكتابة التاريخية السليمة . ذلك أن أحداً لا يستطيع أن يترجم كومينز إلا إذا نظر إلى التاريخ نظرة مستقلة تفسيرية . هذا الى أنه جمع معلومات أصلية عن حركة الإصلاح الديني بطريق مباشر من خلال عمله كدبلوماسي ومشرع . مضافاً الى ذلك أنه قضى قرابة عشر سنوات في جمع المادة التاريخية اللازمة لتاريخه عن حركة الإصلاح الديني . وقد أذكى من خبرته كسياسي ومشروع دراسته لمبادئ كالفن وآرائه .

وتكمن أهمية كتاب سليدانوس في حقيقة انه كان أول تحليل سياسى لحركة الإصلاح الدينى والثورة البروتستانتية . ذلك أن سليدانوس كان المدافع الرسمى القانونى عن المناطق التى اعتنقت المذهب اللوثرى فى شمال ألمانيا . بحيث جاءت مهمته تبرير شرعية انفصال الأمراء البروتستانت عن الكنيسة تبريراً شرعياً يرضى الرأى العام . وبهذا يكون قد عالج تاريخ حركة الإصلاح الدينى من وجهة النظر السياسية والدستورية . وفى نفس الوقت من وجهة النظر الدينية . لذلك التزم باستخدام الوثائق الموثوق فى صحتها فجاء كتابه تأييداً معتدلاً للبروتستانتية . وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن من النوع الجدى . فإنه كان نوعاً من المرافعة المتزنة لمحام رتب بعناية أدلته التاريخية التى استند اليها فى القضية . وكما هو متوقع فى مثل هذه الحالة تميز كتابه بترتيب المادة وحسن عرضها . كما امتاز بروعة التعبير وسمو الطابع . حيث أن خطته وضعت بهدف مخاطبة الجماهير المثقفة فى أوروبا . وعلى الرغم من أنه لم نجد شيئاً من الحماسة الدينية الرومانية التى ميزت كتاب فون رانكه فى كتابه أو شيئاً من تلك الدراسات الاجتماعية التى قام بها جانسين janseen أو التحليل الاقتصادى الذى تلمسه فى كتابه وير weber وسومبارت . فإن كتاب سليدانوس كانت له أهمية كبرى بوصفه نذيراً مباشراً للنظرية التى وضعها الأستاذ جيمس هارفى روبنسون والتى تلقى اليوم قبولاً واسعاً وهى النظرية القائلة بأن الثورة البروتستانتية كانت حركة سياسة أكثر منها دينية . وأنها كانت تسعى إلى إجراء تعديلات سياسية فى صلح أو جزبرج ومعاودة استقلالها أكثر مما كانت تهدف إلى الانتصار العقائدى الدينى وحده .

والواقع أن سليدانوس سبق أن توصل إلى هذا التفسير لا بطريقته العامة فى معالجة المشكلة فحسب . بل بتعليقاته المحددة عن المراحل السياسية البارزة للثورة . أو كما يقول هو نفسه عندما كنت أصف الأمور الدينية لم أكن قادراً على استبعاد الجانب السياسى لأن الدين والسياسة كما سبق أن ذكرت يتداخلان ويتفاعلان معا بصفة دائمة . ولا يمكن الفصل بينهما . على الأقل فى عصرنا هذا⁽¹⁾ .

وخلاصة القول أن عمل سليدانوس لم يكن تاريخياً كاملاً أو عميقاً يعالج أسباب حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى أو بطبيعتها أو مبادئها . إنما كان يفوق نسبياً غيره من الكتب المعاصرة الأقل فى المستوى . ولقد تمتع كتابه بأهمية دائمة نظراً لأنه أكبر الحقيقة الرئيسية الخاصة بالجوانب السياسية للحركة البروتستانتية . فضلاً عن أنه زاد من إهتمام المؤرخين السياسيين أمثال كامبيون . ثاونس بالتطورات الدينية . وكان من المتوقع أن يتعرض سليدانوس لهجوم شديد من جانب المتطرفين الكاثوليك والبروتستانت على السواء وذلك نظراً

(1) Preserved Smith The Age of the Reformation (Holt 1920) p. 705

لتسامحه واتزانه ، فقال العلامة اللوثرى ميلانكنون عن كتابه أنه لا يصلح لأن يتداوله الشباب البروتستانتى فى حين كان الكاثوليك أقل تقديراً له .

أما المصلح الدينى السويسرى هنريخ بولينجر Henrich Bullinger (١٥٠٤ — ١٥٧٥ م) فكان أحد تلاميذه زونجلي ومن أقدر الكتاب البروتستانت الذين عالجوا فترة حركة الإصلاح الدينى . وفى كتابه « تاريخ حركة الإصلاح الدينى ١٥١٩ — ١٥٣٢ م » نلمس تأثيراً واضحاً باتجاهات سليدانوس وآرائه ، كما نشعر بأن المؤلف يؤرخ عن معرفة تامة لتاريخ السنوات المبكرة من الحركة ، ولهذا فهو يختلف فى نغمته عن أعمال فوكس ومؤلفى كتاب « مثنويات ماجدبرج » وهذا الكتاب وأن كان تاريخاً بروتستانتياً متحيزاً إلا أنه يبدو فى صورة رسالة دفاعية ، وليس حواراً كتاريخ فوكس . ومع ذلك فإن بولينجر يشابه فوكس فى عنايته الفائقة باستقاء الحقائق والألفاظ فضلاً عن أنه كان معتدلاً فى اتجاهاته . وقد أراد بوجه عام أن يكون أميناً وعادلاً ، ومع هذا كله فإنه لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقاوم أغراء حجب بعض الحقائق المخجلة التى حدثت خلال الحركة البروتستانتية . والواقع أن بولينجر كان يجتهد فى جمع الحقائق وأتبع نفس طريقة بولوندوس فى نسخ وثائق بأكملها ولكن مع فارق بينهما إذا كان بولينجر ينسج تلك الوثائق بمهارة داخل السرد العام . ولكونسويسريا وطنياً فإنه حاول أن يصور حركة الإصلاح الدينى فى سويسرا بأنها مستقلة عن الحركة الألمانية . هذا بالإضافة إلى أنه قصر معالجته على الأمور الدينية فقط دون أن يستعرض النواحي السياسية إلا بالقدر الذى تضمنه برنامج زونجلي .

أما فى فرنسا فإن تاريخ حركة الإصلاح الدينى قد وجد من يكتبه ببراعة فى شخص أحد أتباع كالفن وهو العلامة الأنسانى تيودور بيزا Theodore Beza (١٥١٩ — ١٦٠٥ م) صاحب كتاب التاريخ الدينى لإصلاحات الكنيسة فى المملكة الفرنسية الذى صدر سنة ١٥٨٠ وهو الذى يقدم عرضاً كاملاً لنشأت الحركة الكالفينية فى فرنسا . ويعتبر بيزا خليفة كالفن وجاء كتابه استمراراً وتكملة لكتاب كريسين « كتاب الشهداء » ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لا يتصف بالطابع العلمى الذى كنا نتوقعه من كاتب فى مثل علم بيزا وثقافته . وعلى الرغم من أن كتابه صدر دون أن يحمل اسم مؤلفه فإن كل الدلائل تشير إلى أن مؤلفه هو بيزا نفسه (١)

أما الرد الكاثولى على كتابه « مثنويات ماجدبرج » فكان كتاباً أكثر أسهاماً ألفه الكاردينالى قيصر بارونيوس ١٥٣٨ — ١٦٠٧ م . تحت عنوان « الحوليات الكنيسية » ولم يكن الأسلوب والمنهج اللذان أتبعهما الكاردينالى قيصر فى وضع هذا الكتاب بأحسن من تلك التى أتبعها مؤلفو كتاب « مثنويات ماجدبرج » وعلى الرغم من أستعانتة بعدد أكبر من الوثائق

(١) لا تزال هناك فى المصادر الحديثة حول صاحب هذا الكتاب ومؤلفه .

حيث أن مكتبة الفاتيكان كانت تحت تصرفه . ذلك أنه كان هو الآخر أقل أمانة في ذكر مصادره وتنسيقها في مواجهة المسائل الصعبة بأسلوب مباشر وفي هذا يقول بريزرفد سميث وهو مصدرنا الرئيسي عن حركة الإصلاح الديني مها يكن من ضعف كتاب « مثنويات ماجديرج » فإن أقل ما يمكن أن ينصف به مؤلفوه هو أنه في ترتيب مصادرهـم وهذا أمر لم ينطبق تماماً على قيصر باردينيوس الذي جاء كتابه الحوليات الكنيسة بمثابة الرد الرسمي العنيف على كتاب « مثنويات ماجديرج » وعلى الرغم من أن نقد بارونيوس لم يكن بأي حال أحسن من نقد مؤلفي كتاب « مثنويات ماجديرج » فإن بارونيوس استخدم سياسة مأكرة أنتشرت على الأسف انتشاراً واسعاً منذ أيامه وهي سياسة تجاهل الحقائق المسيئة لوجهة نظره وحجبها بدلاً من وصفها أو تنقيتها من الشوائب التي علقـت بها . وأدت قدرته على تحويل الانتباه إلى مسائل فرعية وعلى تعقيد المشكلات بدلاً من السعي لحلها إلى أن أسماء البروتستانت وهم على حق في هذا « المخادع الأكبر »^(١)

وقد تلقى بارونيوس تعليمه الديني ودرس تاريخ الكنيسة على يد فيليب تيري الشهير . ومنذ وقت مبكر قرر أن يكرس حياته لكتابة تاريخ الكنيسة وألقى محاضرات حول هذا الموضوع قبل أن يشرع في كتابة حولياته . وإذا كان قد بدأ يلقى محاضراته حوالي سنة ١٥٥٩ م فإنه يمكن القول إنه كرس قرابة نصف قرن من حياته لدراسة تاريخ الكنيسة المسيحية وبعد سنة ١٥٥٩ م أصبح الأمين الأول لمكتبة الفاتيكان . ويتناول كتابه « الحوليات الكنيسة » تاريخ الكنيسة منذ البداية حتى ١١٩٨ م . وظهر هذا الكتاب في عدة أجزاء بين ١٥٨٨ ، ١٦١٧ م . وأتبع الكتاب الطريقة الحولية أي أنه عالج الأحداث سنة بعد أخرى ، وكان لهذه الطريقة أهميتها في إثبات التزامه التاريخي ، ولكنها مزقت سرد القصة الواحدة ، وحالت دون موضوع الرواية التاريخية وتسلسلها . وكان بارونيوس باحثاً لا يكتفي في بحثه عن المادة ، ففحص كل ما كتب تقريباً عن تاريخ الكنيسة المسيحية دون أن يمنعه ذلك حتى من الرجوع إلى كتب التاريخ في العصر الوثني . ولذلك اشتمل كتابه على قدر كبير من المعلومات المستخدمة من الوثائق التي لم يسبق نشرها . ونلمس في هذا الكتاب بوجه عام قدراً من الحماسة الشخصية والطلاوة والجاذبية أكثر مما تمتع به كتاب « مثنويات ماجديرج » .

وأظهر بارونيوس احتراماً كبيراً للمصادر المسيحية التي عالجـت القرون الأولى لتلك الديانة . ولكن قدرته على النقد برزت في صورة أكبر عندما تعرض للمادة التاريخية الخاصة بأواخر العصور الوسطى . فبخا هو يتقبل رأي فاللا في نقد هبة قسطنطين ، وما يحيط بها من أوهام وخيال هنا إذا به لا يبالي بمناقشة رأي « مثنويات ماجديرج » في المراسيم البابوية المزودة

(١) Preserved Smith. The Age of the Reformation p. 585.

وهو الراى الذى فوض تلك المراسيم المنسوبة الى يسدور الزور . ومن الواضح أن الحوليات التى كتبها بارونيوس عبارة عن كتاب بدافع عن الكاثوليكية ، أختار بارونيوس مادته بالشكل الذى يحقق له هذا الغرض تماماً مثلما فعل مؤلفو كتاب « مثنويات ماجدبرج » ولكن مع فارق كبير هو أن بارونيوس كشف النقاب عن دائرة أكثر اتساعاً من المصادر التاريخية التى ساعده على تحقيق غرضه ، ولعل هذا هو خير ما يميز عمله الكبير ، أما حيويه الرئيسية فقد انحصرت فى ميله لتجاهل الدولة المعارضة لرأيه وأبتداعه أسلوب التهرب من النقاط الحرجة والتحايل على إبراز النقاط الأقل أهمية ، وهو ذلك الأسلوب الذى شاع بين اليسوعيين الجدد . هذا الى انه بذل قصارى جهده فى تحاشي الأستخدام فى مسائل محرجة ، ولذلك حجب النقط الرئيسية وحول كتابته إلى مناقشة مسائل ثانوية لاعلاقة لها بالمجرى الرئيسى للموضوع . هذا وقد قام أودوريكوس رينالدوس Oedericus Raynaldus بإكمال حوليات بارونيوس على نحو أفضل ، حتى إنه فاق بارونيوس فى نشر وثائق جديدة هامة .

ويأتى دون بارونيوس فى المقدمة والشهرة نيقولا ساندروز ، وهو إنجليزى كاثولى كتب كتاباً عن حركة انفصال الكنيسة الإنجليزية عن روما سنة ١٥٨٥ وكيف نشأت أحداث ذلك الانقسام وتطورت . وجاء هذا الكتاب أكبر حشد للحملات التشهير التى ظهرت فى تاريخ الجدل الدينى كله فى ذلك العصر ، إذ ذهب ساندروز إلى حد اتهام الملك هنرى الثامن بأبشع أنواع الزنا بأن أشاع أن آنا بولين كانت فى الحقيقة ابنة هنرى نفسه ، ولم تلبث طريقة ساندروز هذه فى التشهير أن جعلت البروتستانت يحرفون اسمه ليصبح « دكتور ملاندروز » .

ونعود مرة أخرى إلى كتاب « مثنويات ماجدبرج » لنذكر أنه حتى ذوى الفطنة وأهل الثقة من البروتستانت لم يترددوا فى انتقاده . ونذكر على سبيل المثال جوتفريد أرنولد صاحب كتاب « التاريخ المحايد للكنيسة والهرطقة » الذى ظهرت سنة ١٦٩٩ . وكان أرنولد رجلاً تقياً ورعاً يكره العنف بقدر ما كان يكره الجوانب السياسية للحركة الثورية . وكان نقده خاصاً بالعقيدة والأخلاق أكثر من نقده للجانب التاريخى ، شأنه فى ذلك شأن كتاب « مثنويات ماجدبرج » .

ثم كان أن كشف أحد علماء الحركة الإنسانية الفرنسيين وهو إسحق كازويون (١٥٥٩ - ١٦١٤ م) عن كثير من الزيف والأخطاء التى احتواها كتاب بارونيوس . فرأى أن نقط الضعف عند بارونيوس ترجع إلى عدم إلمامه باللغة اليونانية بشكل واضح . وأمضى إسحق السنين الأخيرة من حياته فى تأليف كتابه الذى أسماه « دراسات حول كتاب بارونيوس » . وفيه نقد كتاب بارونيوس ولخص ما به من آراء بتحريض من الملك جيمس الأول ملك إنجلترا . كان كازويون من المهجرت — أى بروتستانت فرنسا — المعتدلين لم يشككوا فى

صحة السيرة المسيحية ، وهذا هو السر في أن نقده أقتصر على الأخطاء التاريخية والشكلية في النصوص وفي اللغة وما شابه ذلك . ثم إنه آمن في مذاجه بالأساطير والعجائب التي أوردها الكتاب القدامى مثلما آمن بارونيوس بالمعجزات المسيحية . ولو كان له بالإضافة إلى علمه قسط من مقدرة بابل أو فولتير لاستطاع أن يهدم كل ما جاء في كتاب بارونيوس الواسع من تلفيق واختلاق .

أما باولو سارنى فهو راهب وسياسى من أهل البندقية (١٥٥٢ - ١٦٢٣ م) فكان من أقدر مؤرخى عصر الجدل الدينى وأكثره متعة . وعلى الرغم من أنه تعرض لكراهية المحيطين بالبابا بدرجة شديدة حتى إنه أصيب في مؤامرة دبرها له بعض أفراد حاشية البابا لأغتياله إلا أنه مع هذا كله كان كاثوليكياً حقاً ، يريد إصلاح أحوال الكنيسة ومن ثم فقد ناصب حاشية البابا العداء ، وانتقد الخرافات والمظالم والمساوئ السياسية التى عمت الكنيسة الكاثوليكية . ثم إنه أراد أن يدفع قدماً بمبدأ الاستنارة والتسامح الدينى وتحقيق النقاوة داخل جهاز الكنيسة الكاثوليكية ، الأمر الذى جعل من سارنى « دولنجر القرن السابع عشر » . وفى سبيل ذلك شن سارنى معركة مريرة ضد البابوية حتى دهمه سنة ١٦٠٧ بعض المترمتين المتدينين فوق أحد الكبارى الصغيرة العديدة فى البندقية ، وتركوه وقد أشرف على الموت . ولكن شاعت الأقدار له أن يشفى ليعاود نضاله بحماسة أكبر . فكانت نظرية سارنى أن حركة الإصلاح الدينى حدثت بسبب مساوئ الكنيسة الكاثوليكية ومظالمها فضلاً عما وقع من غيرة وخلاف بين الرهبان الأوغسطينيين والدومنيكان .

وقد كتب سارنى عدة مقالات ، لكن كتابه الرئيسى هو تاريخ مجمع الترنى History of the council of Trent (١٦١٩ م) الذى بدأه بمقدمة عالج فيها اسباب حركة الإصلاح الدينى ومظاهرها - واعتمد فى هذه المقدمة على سليدانوس . ثم أخذ سارنى بعد ذلك يشن هجومه على مجمع الترنى الذى أدانته بوصفه مثلاً من أمثلة انحراف البابوية وصورة معبرة عن الدسائس التى دبرها اليسوعيون . ولعل نقطة الضعف الرئيسية فى مؤلف سارنى هى أنه فى غمرة اهتمامه الكبير بتفاصيل ذلك المجمع المسكونى والروح التى سادته ، لم ينجح فى أن ينظر إلى ذلك المجمع من زاوية تاريخية سليمة . فهو لم يقدر قضاياها حق التقدير كما أنه لم يقدر رد فعله بالنسبة لطبيعة الكنيسة الكاثوليكية ومنهجها . ولكنه مع ذلك كان يكتب بأسلوب واضح ينم عن بصيرة سيكلوجية نفاذة ، كما دافع فى حرارة عن ضرورة الحرية والاستنارة . ولهذا تعرض كتابه لهجوم عنيف من جانب الكاثوليك الذين سبق لبعضهم أن هاجموا جد مؤلف هذا الكتاب . ولقد تولى (بريرزفد سميث) فى تقييمه الأخير الدفاع عن سارنى إذ يقول :

وقد رد على ساربي أحد المؤرخين اليسوعيين المعاصرين هو الكاردينال سفورزا بالافيكينو (١٦٠٧ - ١٦٦٧ م) الذي كتب كتاباً بعنوان «تاريخ مجمع الترنيت» وظهر الكتاب سنة ١٦٥٧. وجاء هذا الكتاب بمثابة رد مستفيض على ساربي لتنفيذ آرائه ولكن رده كان أقل إحكاماً ولا يمكن الاعتماد على ما به من معلومات مثل كتاب ساربي. والواقع أن هذا الكتاب جاء أشبه بعمل محام يهاجم الملخص الذي جاء به خصمه نقطة بعد أخرى. ويرجع بالافيكينو Pallavicino إلى كثير من المصادر، ولذا جمع قدراً من المادة أغزر من تلك التي توفرت لساربي. ومن ثم لم يكن من المستغرب أن نراه يتفوق على ساربي بإبراز تفاصيل كثير من المسائل المتناهية في الدقة. ولكنه أبهم المسائل الكبرى بل تجنب ذكرها كلية مما جعله يتفوق في حجب الحقائق المخرجة، ويتفوق الجميع في هذا الشأن بما في ذلك بارونيوس نفسه.

أما بطرس جيانون (١٦٧٦ - ١٧٤٨ م) فكان في عداوته المكشوفة للكنيسة الكاثوليكية أشد قسوة من ساربي. وكان بطرس هذا - مثل المؤرخ فاللا - يتمي إلى مدينة نابولي وقد هاجم بطرس بلا هوادة ما قامت به الكنيسة من اغتصاب للسلطة السياسية بصفة عامة وذلك في كتابه «التاريخ المدني لمملكة نابولي». واستنكر في سخريه شديدة لاذعة امتيازات الكنيسة في نابلي. ومع ذلك فإن أهمية هذا الكتاب الكبيرة بالنسبة لعلم كتابة التاريخ لا تكمن في هجومه اللاذع على الكنيسة، وإنما في الحقيقة الخاصة بأن مؤلفه كان أول مؤرخ يجعل من تاريخ القانون والنظم ميداناً مشروعاً من ميادين البحث والدراسة التاريخية. ولكي يثبت رأيه فيما يختص باغتصاب الكنيسة للسلطة السياسية ولكي يبرهن على عدم شرعية هذا العمل، اضطر جيانون إلى التعرض لتاريخ القانون وتاريخ الدساتير والإدارة. وكان أن ساعده ذلك - وبطريقة عارضة - على إيضاح أن الكنيسة الكاثوليكية كانت منذ البداية ذات نزعة سياسية بغض النظر عما إذا كان هذا أمراً شرعياً أو لا واستطاع جيانون في مهارة جمع أبحاث المتخصصين في تاريخ القانون والإدارة ووصفها جميعاً في رسالة تاريخية عامة. واتصفت كتابته بالوضوح والحيوية بهدف اكتساب أكبر عدد من القراء.

وثمة هجوم شديد على المذهب اللوثرى شهه أحد اليسوعيين الفرنسيين هو لويس ميمبورج (١٦١٠ - ١٦٨٦ م) وقد ضمنه ذلك في كتابه عن «تاريخ المذهب اللوثرى». وقد جمع ميمبورج معظم نواحي الحوار الكاثوليكي التقليدي ضد اللوثرية ولكن دون أن يتبع المنهج القائم الكتيب الذي كان شائعاً في ذلك العصر. وأهم ما تميز به هذا الكتاب هو أسلوبه اللاذع الذي كان يرضى النوق الأدبي في ذلك العصر ويحتلب في نفس الوقت مجهوداً

كبيراً من القراء . ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً باهراً بوصفه صورة شعبية محببة للجدل التاريخي والديني . ولكن أهميته تتضاءل إذا نظرنا إليه بوصفه بحثاً قائماً بذاته . هذا وقد ألف ميمبورج كتاباً آخر عن مذهب كالفن بعنوان « تاريخ مذهب كالفن » ولكن هذا الكتاب أقل شأنًا من سابقه من ناحية النقد والمادة . وإذا كان ميمبورج من المؤرخين الذين ناصبوا البروتستانتية العداء إلا أنه لم يكن بوقاً من أبواق البابوية المخلصين لها . ذلك أنه دافع بقوة عن حرية الكنيسة الفرنسية الأمر الذي حدا بالبابا إلى طرده من هيئة اليسوعيين سنة ١٦٨٢ م ، ولكن الملك لويس الرابع عشر قرر له معاشاً .

ثم كتب لودفيج فون سيكندورف Ludwig von Seckendorf (١٦٢٦ - ١٦٩٢ م) من إقليم ساكس جوتا (في بافاريا) كتاباً كبيراً بعنوان « شرح تاريخي ودفاع عن اللوترية وحركة الإصلاح الديني » صدر فيما بين سنتي ١٦٨٨ م - ١٦٩٢ م . ويسمى سيكندورف إلى مدرسة سليدانوس . ولا يحوى كتابه كثيراً من المادة المبتكرة ومع ذلك فإنه تلخيص طيب وسليم لموقف البروتستانت . ولم يهدف سيكندورف من وضعه إلى الرد على ميمبورج فحسب بل منازلة عدو أكثر خطراً يتمثل في مشكلة التشكك وعدم المبالاة بالأسس الرئيسية الخاصة بحركة الإصلاح الديني . وكان أن وضع الأمراء السكسون كل سجلاتهم تحت تصرف سيكندورف ، وهذا استطاع أن يستخدم مصادر لم يقترب منها من قبل أحد المؤرخين البروتستانت . وجاء كتابه فقرة بعد فقرة دحضاً للآراء التي جاء بها ميمبورج مستنداً إلى المصادر ، ومضيفاً الكثير على سبيل التوضيح والشرح والتعليق . ووضع سيكندورف كتاباً مفيداً عن تاريخ الكنيسة لأغراض الدراسة الجامعية باسم « موجز التاريخ الكنسي » .

وإذا كان بارونيوس قد استعان في دفاعه عن الكاثوليكية بتاريخ الكنيسة فإن ثمة مؤرخ آخر دافع عن الكاثوليكية مستعيناً بالتاريخ أجمع ونعني به الأسقف جاك بنيامين بوسويه Jacques Benigne Bousset (١٦٢٧ - ١٧٠٤) صاحب كتاب « تاريخ الخلاقات بين الكنائس البروتستانت » وقد حاول في هذا الكتاب أن يقنع البروتستانت أنهم سائرون في طريق خاطئ بأن وضع لهم أن الانقسامات الطائفية لا يمكن أن تنتهي وأن النتيجة النهائية الحتمية لمثل هذا الانفصال هي الاتحاد والفوضى والتحلل الأخلاقي . وتلمس بوسويه مبررات كافية لتبرير وجهة نظره في مجرى تاريخ الحركة البروتستانتية ذاتها من بدايتها حتى أيامه . وتكمن أهمية بوسويه في أنه الوحيد بين رجال الجدل الكاثوليك والبروتستانت على السواء - الذي استطاع أن يغوص إلى مستوى أعمق من مستوى الشخصيات والأحداث وإن ينظر إلى الصراع في أعظم مظاهره الفلسفية بوصفه صراعاً بين الحرية والسلطة . وكان معنى انتصار الحرية في هذا الصراع بالنسبة له هو انتصار اللامبالاة والإلحاد والفوضى الدينية . ولقد بذل بوسويه جهداً عظيماً حتى يكون مترناً في عمله فوجه كتابه مباشرة إلى القراء البروتستانت

الذين كان ينشد عودتهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . لذلك نراه يعترف بأن هناك بعض البابوات المنحرفين وأن الكنيسة في أيام لوثر كانت محتاجة فعلاً إلى الإصلاح وأن لوثر نفسه كان يتمتع بكثير من الصفات الطيبة ولكن بوسويه كان حريصاً في الوقت نفسه على أن يستغل كل ما وجه للبروتستانت من اتهامات لتدعيم آرائه .

ولقد بان واضحاً في كتاب بوسويه الذي اسماء «حديث عن تاريخ العالم» رجوعه إلى دراسة كل تاريخ البشرية . وتبين في هذا الكتاب أن بوسويه اعتنق آراء القديس أوغسطين ومنهج أورزيوس . ولذلك قيل عنه حقاً إنه «أورزيوس الحركة المضادة للإصلاح الديني» . وعلى الرغم من أن كتابه عن تاريخ العالم يفوق في مستواه ونظريته الفلسفية كتاب «سبع أسفار في التاريخ ضد الوثنية» الذي كتبه أورزيوس ، إلا أنه كان من وجهة النظر التاريخية دون مستوى كتاب سايلكوس . ويقول فيوتر عن كتاب بوسويه إنه لم يكن عملاً تاريخياً إذ لم يعد كونه مجموعة من العظات الدينية استبدلت فيها نصوص الإنجيل بمادة تاريخية⁽¹⁾ وواضح أن الكاتب بذل جهداً كبيراً ليؤكد القدرة الإلهية في صنع التاريخ . لقد اعتقد بوسويه أن أحداث التاريخ الديني كانت من صنع الله شأنها شأن التاريخ الدنيوي ، وإن كانت القدرة الإلهية تبدو بصورة مباشرة وواضحة في صنع التاريخ الديني . وقسم بوسويه كتابه إلى ثلاثة أجزاء رئيسية ، فاستعرض في الجزء الأول التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عهد شارلمان وتناول في الجزء الثاني تاريخ العقيدة المسيحية ميناً أنها كانت دائماً تحت الرعاية والتدبير الإلهي . ثم وصف بوسويه في الجزء الثالث والأخير قيام الإمبراطوريات وسقوطها ميناً أن ذلك كان رد فعل لرضاء الله أو غضبه .

وهكذا نرى أن كتاب بوسويه عن تاريخ العالم ، يمثل إحدى المحاولات الأخيرة الجادة لتفسير تاريخ العالم في ظل العناية الإلهية وذلك بمنطق اللاهوت القديم . وبعد أن أصدر فولتير كتابه عن سلوك الأمم وروح الشعوب في منتصف القرن التالي لبوسويه لا نجد سوى قليلاً من مشاهير المؤرخين توافرت لهم الجرأة للإقدام على إحياء مبادئ أورزيوس وبوسويه

(1) Fuler op. cit p. 360.

اليسوعيون (الجزويت)

ظهرت في أعقاب الحركة البروتستانتية كرد فعل أخطر ما يكون لحركة الإصلاح الديني حركة أطلق على رجالها «مجمع يسوع» وتعرف الآن عادة باسم «اليسوعيين» ولقد أسهمت هذه الحركة بقدر هائل في كتابة التاريخ الكنسي ، ولهذا وجب علينا أن نقف عند بعض مؤلفاتها الرئيسية .

كانت أحسن التراجم الشخصية في ذلك الوقت بأجمعه هو ما كتبه عن نفسه مؤسس الحركة اليسوعية وهو إجناتيوس لويولا الذي أملى مادته في الفترة ما بين سنة ١٥٥٣ ، ١٥٥٦ م فجاءت تحفة رائعة من التحليل الذاتي المسير للعقل ولقد أقدم لويولا على هذا العمل بعد أن أعد نفسه له ، فقصى سنوات في التأمل والعبادة . ومع أن أي محلل نفسي حديث سوف يفسر خبرات لويولا الشخصية بطريقة مخالفة تماماً للطريقة التي فسرنا هوبها ، إلا أن كتابه يعتبر عملاً فريداً بالنسبة لعصره .

أما أحسن التراجم التي كتبت عن لويولا في ذلك العصر فهي ما كتبه بطرس ريبادنيرا Pierre Ribadeniera وهو يسوعي من الإنسانيين (١٥٢٧ - ١٦١١ م) . ويعتبر فيوتر هذا الكتاب أحسن التراجم التي كتبها المؤرخون من رجال المدرسة الإنسانية . ذلك أنه تعتمد الابتعاد عن طريقة كتاب التراجم في العصور الوسطى وهم الذين كانوا يقبلون الحقائق على علانها ، واستبعد المعجزات غير المعقولة ونسخ في كتابه هذا أجزاء مما كتبه لويولا عن نفسه ، محاولاً أن يضعه في المكان اللائق به في تاريخ الكنيسة ، وخاصة في مجرى تطور الكنيسة الكاثوليكية . والواقع أن بطرس ريبادنيرا كان من أنصار الكنيسة الكاثوليكية ومن أشد المعجبين بلويولا ، ولكنه لم يترك ما جاء به من مادة تاريخية معلقة وحدها في فضاء التاريخ ، وإنما ربطها لويولا بالتطورات التي حدثت في عصره وساعده على ذلك براعته في الكتابه بأسلوب لائني رفيع واضح .

وثمة كتاب آخر عن لويولا وإن كان أقل في مستواه بكثير عن الكتاب الأول ، ونعني به الكتاب المسمى القديس إجناتيوس لويولا وعاداته الذي ألفه جيامبيرو مافي Giampietro Maffi (١٥٥٣ - ١٦٠٣ م) . ومن العيوب الظاهرة في هذا الكتاب سطحيته

وتمجده لشخص لويولا إلى حد العبادة ، ونسبه كثير من المعجزات إليه مستخدماً أسلوب بلاغياً محاكياً فيه أسلوب شيشرون .

أما أول كتاب جيد عن تاريخ المجتمع اليسوعي فهو ذلك الكتاب الذي ألفه يسوعي من فلورنسا يدعي نيقولا أورلانديني Niccolo Orlandini (ت ١٦٠٦ م) وكان نيقولا هذا مؤرخاً قديراً استطاع بكتابه هذا أن يتج عملاً ينم عن مقدرة عظيمة . أما من الناحية الفكرية فكان يميل نحو الشك المعتدل الذي اتصفت به المدرسة الإنسانية في أواخر عصرها في إيطاليا . ولذا فإنه فقد الغالبية العظمى مما نسب إلى لويولا من معجزات وأعمال خارقة ، هذا مع احتفاظه بصفة الأمانة إلى الحد الذي جعله يكشف النقاب عن النشاط السياسي لليسوعيين ، كما أعطى اهتماماً كبيراً لنشاطهم الثقافي وخاصة في مجال التربية والتعليم . أما أسلوبه فكان مثل أسلوب رياردينرا - أسلوباً لاتينياً سليماً راقياً .

على أن أعظم ما أسهم به اليسوعيون في الدراسة التاريخية في ذلك العصر كان العمل الذي بدأه هيربرت روزويد Herbert Rosweyde (١٥٢٩ - ١٦٢٩ م) والذي جمع فيه عدداً هائلاً من تراجم القديسين جمعاً مرتباً منظماً . وكان أهم من اشتركوا في هذا العمل العظيم حنا بولاند اليسوعي (١٥٦٩ - ١٦٦٥ م) وهو من الأراضي المنخفضة الاسبانية^(١) . وعرف هذا الكتاب قبل أن يستكمل بعد باسم أعمال القديسين ، وفيه رتب القديسون بترتيب أعيادهم وهي تواريخ وفاتهم التي تعتبر تواريخ ميلادهم بالنسبة للحياة الأخرى . توضع في المقدمة جميع القديسين الذين وافتهم المنية فعلاً أو الذين روت الأساطير أنهم ماتوا في أول يناير . أما أولئك الذين توفوا في ٣١ ديسمبر فيأتون في المؤخرة . ويعتبر هذا الترتيب مريباً من الناحية التاريخية ويفضل عليه الترتيب التاريخي المعتاد . ولقد تم في حياة بولاند إتمام الأجزاء التي تناول القديسين الذين توفوا في شهرى يناير وفبراير وظهر أول جزء منه سنة ١٦٤٣ م . وبعد ذلك قام تلامذته : هنشن ، بابيروخ بتكملة الكتاب . وتكمن أهمية هذا الكتاب فيما اشتمل عليه من حشد هائل للقديسين ، كما أنه يستوعب مادة ضخمة للتراجم جمعت في مكان واحد ، هذا بالإضافة إلى أنه أسهم ولو بقدر محدود في تطوير مبادئ النقد التاريخي . ذلك أن الكاردينال روبرت بالرمين Robert Bellarmine الذي نذكره بالعرفان لما كان من أمر صداقة لجاليليو كان قد حذر من أن كثيراً من الحقائق المتداولة عن حياة القديسين في دنياهم الحقيقة تبث على الفكاهة أكثر مما تبث على الاقتناع والإيمان . ولهذا رفض بولاند ومساعدوه كثيراً من المعجزات التقليدية واحتفظوا فقط بتلك التي تحوى قدراً من الإقناع والإيمان .

(١) تعرف الآن باسم بلجيكا - (المؤلف) .

وكان أن اقترب عصر الجدل الديني من نهايته عندما ظهر اتجاه جديد كان بمثابة البداية للتاريخ العلمي للكنيسة . واتضح هذا الاتجاه في أعمال بوحنا فون موشيم jahannes von Mosheim (١٦٩٤ م - ١٧٥٥ م) وهو أستاذ جامعي بارز في علم اللاهوت وتاريخ الكنيسة . وقد ألف عدداً من الكتب في حقل تخصصه ، ولكن أتم هذه المؤلفات كان كتابه « مبادئ وأسس التاريخ الكنسي القديم والحديث » الذي ظهر سنة ١٧٥٥ م . ذلك أنه جمع في كتابه هذا بين طول الباع في المعرفة بتعاليم المذهب البروتستانتي والنظرة البروتستانية إلى تاريخ الكنيسة، وأخرج ذلك في مجلد ضخم قصد به أن يكون مرجعاً للدراسة الجامعية في ذلك الميدان وتميز هذا الكتاب باعتدال لهجته واقترب نوعاً من المذهب العقلاني ، ولو أنه لم يشارك مطلقاً العقلانيين في تقديمهم لأسس العقيدة المسيحية . هذا إلى أن موشيم رفض الأخذ بفكرة أن نظام الوجود صادر مما فوق الطبيعة Supernaturalism وهي الفكرة التي أخذ بها الكاثوليك والبروتستانت تاريخ الكنيسة . والملاحظ . أنه كان ضعيفاً في معالجة للعصور الوسطى ليس فقط بسبب نظريته إلى تلك العصور من الوجهة البروتستانية ، وإنما لأنه تجاهل أموراً بالغة الأهمية مثل قانون الكنيسة ونظم إدارتها . هذا إلى أن روايته عن أسباب حركة الإصلاح الديني وتطورها اعتمدت تماماً على تفسيرات البروتستانت . ومع ذلك فإن حديثه عن الثورة البروتستانية جاء معتدلاً ومترناً . والحق أن كتابه هذا أتم كتاب في موضوعه قدمه مؤرخ بروتستانتي سابق ، أو أنه على حد قول فيوتر « يمثل إنتاج أستاذ قدير وكاتب متمرس ولكنه لا يمثل عمل مؤرخ عظيم أو مفكر مبتكر » .^(١)

ومع ذلك فإن علاج تاريخ حركة الإصلاح الديني من زاوية الجدل أو من زاوية ماوراء الطبيعة لم يتوقف بعد وفاة موشيم . ولعل أشهر تاريخ يحفظ بالطابع البروتستانتي من ناحية وبطابع ما فوق الطبيعة من ناحية أخرى ، هو ما كتبه المؤرخ السويسري حنا هنري ميرليه دي اوبينه Jean Henri Merle d'Aubigné (١٧٩٤ - ١٨٧٢ م) الذي يعتبر كتابه . تاريخ حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر (١٨٣٥ - ١٨٥٣) عملاً واسع الشهرة اجتذب كثيراً من القراء ، بل إنه كان آخر صلي عظيم لروح كتاب « مثويات ماجدبرج »

وإذا كنا قد تعرضنا للأسقف بورنت في مناسبة سابقة ، إلا أننا لا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نشير إلى كتابه . تاريخ حركة إصلاح الكنيسة الإنجليزية ، بوصفه - على الأرجح - خير إنتاج تاريخي تناول كل مرحلة من مراحل حركة الإصلاح الديني من بدايتها حتى أيام موشيم وترجع أهمية هذا العمل بصفة خاصة إلى عنايته بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي حركت موجة الإصلاح الديني أو التي نتجت عنها .

(1) Fueter op. cit. 336.

التقويم الزمني المسيحي

وبعد ، فانه لا يفوتنا في هذا الفصل الذي تناولنا فيه التاريخ والجدل الديني في عصر حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة أن نقول كلمة عن الجدل الذي دار حول التقويم التاريخي ، وهو الجدل الذي استحوذ على اهتمام المؤرخين منذ البداية والذي حاول أن يضع حلاً له بالنسبة للمسيحيين كل من ايوزيوس ، جيروم ، يدي .

والواقع أن كل التقديرات والحسابات التاريخية في العالم المسيحي كانت على أساس ماجاء في الإنجيل عن بدء الخليقة ، ومن ثم فقد صار من المفروض أن يبدأ تاريخ البشرية بعهد آدم . ولكن هناك تقدير عبري مقبول يحدد بداية الخليقة لسنة ٣٧٦١ ق . م . وقد عدل المؤرخون المسيحيون هذا التاريخ بحيث يتفق مع مفاهيمهم التاريخية ونظرتهم الى التاريخ وفكرتهم عنه ، تلك الفكرة التي قامت أصلاً على وجود سبعة عصور رمزية للانسان - تكون في مجموعها ما يعرف بالأسبوع الكوني - ويمتد كل عصر منها الى ألف سنة . وعلى هذا حدد المسيحيون بداية الخليقة لسنة ٤٠٠٠ ق . م ، وكان الاعتقاد السائد هو أن العصر المسيحي سيستمر ألفي سنة أخرى وبعدها تأتي الألف سنة الأخيرة ، وكان أن أقر لوثر هذا التقدير واعتبره مقدساً وقال إن نوح جاء بمئة ٢٠٠٠ ق . م . أما العلامة سكاليجر الذي عني بدراسة التقويم فكان يرى أن بداية الخليقة حدثت سنة ٣٩٤٧ ق . م وأن المسيح ولد في السنة الرابعة ق . م ، وأن آدم قد خلق في ٢٣ أبريل . وبالاعتماد على علم الفلك والكتاب المقدس توصل يوحنا كبلر إلى تقدير لبداية الخلق لسنة ٣٩٩٢ ق . م وقال إن ميلاد المسيح تم في السنة الخامسة ق . م .

ومهما يكن من أمر فإن أكثر هذه التقديرات قبولاً وشيوعاً هو تقدير الأسقف جيمس أونثر الذي بلغ درجة هائلة من الدقة في كتابه «حوليات العهدين القديم والجديد» (١٦٥٠ - ١٦٥٣ م) فقال إن أسبوع الخلق بدأ يوم الأحد ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م وأن آدم خلق يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر من نفس السنة بينما ولد المسيح في السنة الرابعة ق . م . ثم أجرى لايفوت lightfoot بعض التغيير على هذا التقدير ليجعله أكثر دقة بأن حدد

إلى جانب الأيام الساعات فذكر أن آدم خلق في الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م .

ولم يلبث أن ظهر الرواد الأوائل لعلم الجيولوجيا فأتوا بأفكار ومعلومات جديدة جعلت كل التقديرات الدينية تبدو غاية في الحماقة والعجز والبعد عن المنطق الطبيعي برغم ما بذل من جهد .

وأخيراً ، فإن الكتب والمؤلفات التي ذكرناها في حديثنا في هذا الفصل ليست إلا أبرز ما كتب عن الجدل الديني من بين عدد ضخم من المؤلفات التاريخية الأقل أهمية عن عصر حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة لها . ومع ذلك فهي تكفي لتصوير الاتجاهات العامة في منهج التاريخ وتفسيره على ذلك العصر . والواقع أن الجدل لم يتوقف كلية في الزمن المعاصر ، كما يتضح عند مقارنة بين إنتاج فون رانكه وسكاف من ناحية وبين ما كتبه دولينجر ، ويانسين من ناحية أخرى . وبينما أهل الجدل من الإنسانيين ورجال الدين يواصلون كتاباتهم ، إذا بأوروبا تتطور لتأخذ شكلاً جديداً بتأثير التوسع الجغرافي والثورة التجارية وهي العوامل التي تجمعت عن الحضارة الحديثة وما صاحبها من مولد كتابة تاريخية على أسس علمية عقلانية.

المراجع

1. **Preserved Smith**: The Age of the Reformation pp. 579 - 88, 699, 750
2. **A History of Modern Culture** 1, 258, 69, 11, 24. 16.
3. **Guilday**: church Historians, pp. 153-211.
4. **Thompson**: History of Historical Writing Vol. 1 chaps XXX-XXXVI
5. **Will Durant**: The Reformation, Simonand Schuster 1958.
6. **H.O. Taylor**: Thought and Expression in the Sixteenth century 2 vols.. Macmillan.
7. **T.M. Lindsay**: History of the Reformation 2 vols (Scribner 1928).
8. **A.C. Mc Giffert**: Protestant thought before kant (Scribner) 1915.
9. **R.H. Tawrey**: Religion and the Rise of Capitalism (Harcourt Brace) 1926.
10. **Pieter Janiles**: The Catholic Reformation, Bruce, 1949.
11. **J.H. Robinson**: «The Study of the Lutheran Revolt» American Historical Review, January 1903 pp. 205 - 16.
12. **Fueter**: Histoire de l'historiographie moderne pp. 303 - 06.
13. **Wegele**: Geschichte der deutschen Historiographie Books 1 - 11.
14. **Hippolyte Delehaye**: The Work of the Bollandists through Three centuries, 1615 - 1915 (Princeton University press 1927.
15. **Gustav Wolf**: Reformation geschichte, Gotha, 1915 - 22 2 vols.
16. **Heinrich Boehmer**: Luther and the Reformation in the light of Modern Research. London 1930.
17. **F.C. Bauer**: Die Epochen der Kircklichen Geschichtsbriehung, Tubingen, 1852.
18. **K. Völker**: Die Kischenges chichtss chreibung der Aufklärung, Tubingen 1921.
19. **Eberhard Gothein**: Schriften Zur Kulturgeschichte der Renaissance, Reformation and Gegenreformation, Munich 1924.
20. **Adolph Harnach**: History of Dogma 7 vols bound as 4 vols Dover publications Inc. 1961. vol. 111.
21. **I.F. Mozley**: John Foxe and His Book Macmillan 1940.
22. **Emil Menke - Glückert**; Die Geschichtss chreibung der Reformation und Gegenreformation Leipzig 1912.
23. **Amabel Kerr**: Life of Cesare Card, Baronius London 1898.
24. **George Goyan**: Le Catholicisme et L'histoire Ecclesia, paris 1927.
25. **J.M. Headley**: Luther's view of church History Yale university press 1936.

نَسَاةُ التَّارِيخِ الْاجْتِمَاعِيِّ النَّقَائِي

عصر الكشوف الجغرافية ونمو الحركة العقلانية

الأثر العام لحركة التوسع الأوربي على الكتابة التاريخية

ظل التاريخ في العهود القريية جدًّا يمثل دائرة تخصص الأدباء ورجال اللاهوت ، الأمر الذي نتج عنه اعتبار عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني بداية المرحلة الحديثة في تطور الكتابة التاريخية . وإذا كان هناك اليوم شبه إجماع على اعتبار التاريخ من أوسع معانيه فرعاً من العلوم الاجتماعية الأمر الذي جعله من حيث نوعيته يتسم إلى أسرة العلوم بوجه عام ، لذلك بات من الضروري أن نبحث في مكان آخر عن الأسباب التي أخرجت الكتابة التاريخية الحديثة إلى حيز الوجود . وهناك نجد أن أصول الكتابة التاريخية الحديثة تكمن في النتائج الفكرية التي ترتبت على فترة التحول العظيمة التي تمثل بداية الوضع الاجتماعي والفكري الحالي ، ونعني بهذه الفترة «التوسع الأوربي» . ونعني بهذا الاصطلاح الأخير تلك الفترة التي امتدت خلال قرون ثلاثة من ١٤٥٠ م إلى ١٧٥٠ م ، والتي شهدت اكتشافات جغرافية هائلة كان لها أكبر الأثر على الفكر الأوربي والأنظمة الأوربية^(١) . ولم يعد من الممكن أن تسير حياة العزلة والحياة الرئيسية المألوفة والاستقرار في ظل العزلة الإقليمية الوضع الجديد الذي تميز باتصال واسع بين الحضارات المختلفة . وهو الاتصال الذي كان أقوى العوامل الباعثة على تحويل الفكر وتنشيط البحث والحث على إحداث تغيير في كل مجال .

ويتضح تأثير حركة التوسع الأوربي على الكتابة التاريخية أكثر مما يتضح في ذلك الطابع الثوري الذي أحدثته هذه الحركة بالنسبة لدائرة اهتمام المؤرخ . ذلك أنه لم يعد من الممكن أن تستمر الدائرة الضيقة التي دارت حولها الكتابة التاريخية على ما هي عليه ، كما لم يعد

(1) H.C. Brunes A History of Western Civilization vol 11 part 1. (Harcourt Braes 1935) 2 Vols.

من الممكن كذلك أن يظل البحث التاريخي يتسم بالسطحية على النحو الذي استمر عليه منذ أيام ثيكوديدس وأورزيوس . وكان العهد الجديد يحمل في ركابه بشيراً بمضي المؤرخ قدما في نفس الطريق الذي سبق أن مضى فيه هيرودوت . ولذلك نرى الكتاب في ذلك العهد وقد توقفوا إلى حد ما عن معالجة التاريخ معالجة سطحية لا تتعدى جوانبه السياسية والكنسية ، ونراهم قد اهتموا لأول مرة بدراسة الحضارة البشرية بوصفها وحدة متكاملة . وإذا كانت الحركة الإنسانية قد أحييت عند المؤرخ سعة الأفق واتجاهه لدراسة الأمور العلمية فإن هذه الحركة الجديدة أكدت هذه المعاني وأعطتها قوة دفع جديدة وحددت له معالم الطريق . ذلك أن الأمر لم يقتصر على مجرد العثور على رصيد ضخم جديد من المعرفة نجم عن الاتصال بحضارات الشرق القديمة ، وإنما عثر المؤرخون والفلاسفة في ثقافات الشعوب الأخرى على « الإنسان الطبيعي » Natural man الذين كانوا يعتقدون أنه ليس له وجود إلا في العهود الأسطورية التي سبقت عهد الطوفان . وليس هناك أفضل لإيضاح أثر حركة الكشف الجديدة بالنسبة للمؤرخ من أن نقارن بين مجالات اهتمام مؤرخ مثل بوفيندورف ومجالات اهتمام مؤرخ آخر مثل جومارا .

يضاف إلى ذلك أن اتساع دائرة نشاط علم التاريخ وازدياد مجالات اهتمام المؤرخ أتاح مزيداً من الفرض للابتكار والتجديد في عالم الفكر ، وذلك لعدم وجود سوابق مليئة بالأخطاء في هذه المجالات الجديدة يمكن أن يستشيرها الباحث ويعتمد عليها ويستمد منها . فنحن لا نجد مثلاً أي حديث واضح يعتمد عليه بخصوص عادات الزواج في بورتو أو العلاقة بين الناس في أركواز فيما كتبه ثيكوديدس أو بوليوس أو ليفي ، ولا عند أوغسطين واكويناس ، إذ لم تتعد كتاباتهم من هذه الناحية أكثر من ذكر « لدولة الطبيعة » التي تناقلوها فكرتها عن الرواقين والمحامين الرومانيين ، التي بدا عندئذ في عصر الكشف أن لها أساساً عملياً في حياة السكان الأصليين في البلاد المكتشفة .

والواقع أن حركة التوسع الأوربي كان لها تأثير كبير وإن كان غير مباشر على الكتابة التاريخية وذلك نظراً لما صاحب هذه الحركة من تغيرات فكرية واجتماعية ، ثم انعكاس هذه التغيرات على الاهتمامات والمناهج التاريخية . ومع ذلك فقد كان لهذه الحركة أيضاً نتائج مباشرة سريعة ظهرت في الكتابة التاريخية التي كتبها أولئك الذين تناولوا موضوع الكشف ، إذ نلاحظ في هذا النوع من الكتابة تغيرات جذرية في الأسلوب وطريقة العرض . ذلك أن الطريقة الحولية في كتابة التاريخ لم تعد مناسبة للمقام بعد أن أصبحنا أمام ظواهر تتطلب أن تكون الكتابة عنها وصفاً شاملاً لا بمجرد عملية تاريخية . هذا إلى أن الغالبية العظمى من المؤرخين الأول لحركة الكشف كانوا رجال أعمال عمليين فكتبوا بأسلوب مباشر بعيد عن الاتصال وعلى الرغم من وجود ميل لدى بعض الكتاب الذين جاءوا بعد قليل مثل هيرارا نحو

محاكاة طريقة الإنسانية في الكتابة ، فإن الكتابة التاريخية في ذلك العلم ابتعدت تماماً عن الطريقة التقليدية من حيث الشكل والأسلوب ، فضلاً عن أن ماتضمنته هذه الكتابة من مادة جاء مخالفاً تماماً عن سابقه .

وهكذا لم تعد الكتابة التاريخية مجرد سرد للمؤامرات والدسائس في مجال السياسة والأوساط الدينية بل أصبحت وصفاً شاملاً لعادات الشعوب وسلوكها . وكان لهذا الاتجاه تأثيره القوي حتى على الكتاب الذين اقتصر كتاباتهم على شعوب أوروبا والمسائل الأوربية . من ذلك أن العالم الإسباني جوان بايز دي كاسترو وهو من أعلام الحركة الإنسانية في منتصف القرن السادس عشر - أوضح القيمة التربوية التعليمية من مقارنة سلوك شعوب ماوراء البحار وعاداتها بشعوب أوروبا . وبعبارة أخرى فإن ما كتبه جيروم في تاريخه لم يعد أهم ما يمكن أن يصدر به كتاب التاريخ ، وكذلك شجرات أنساب الملوك والأسرة الحاكمة . وصار لابد من أن يحل محل هذا كله وصف البلاد والشعوب . ولأول مرة منذ عهد المؤرخين الإيونيين في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد . احتل علم الجغرافيا ووصف الشعوب مكاناً مرموقاً في كتابة التاريخ وذلك باستثناء ما كتبه عدد محدود من المؤرخين أمثال جيرالدوس ، كامبرنيس ، رالف هيجدن في إنجلترا ، إيتاس سلفيوس وتلاميذه في ألمانيا . وأخيراً وعلى الرغم من أن الرواد الأول لهذه المدرسة الجديدة كانوا في المحل الأول من جامعي المعلومات الخاصة بوصف الشعوب وعاداتها ، إلا أنهم أصبحوا بعد ذلك من النوع الناقد المحلل . وفي أعمال فولتير وهيرور تبدو محاولات لكتابة تاريخ العالم وفق المنهج الجديد وبصورة اتسمت بالشمول واتضح فيها جانب التحليل والإستنتاج .

ولقد ظهر مقدمات آثار حركة الكشف والتوسع الأوربي على المعرفة التاريخية وكتابة التاريخ في أدب الرحلات الذي أنتجه رحالة العصور الوسطى ومغامروها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أمثال حنا بلانو كارييني ، ولیم روبروك ، وماركوبولو ، وحنا مونت كورفينو وابن بطوطه ، وظهر هذا الأثر على التاريخ أشد ما يكون وضوحاً في الكتاب الشهير الذي كتبه ماركوبولو عن رحلاته (١٢٥٤ م — ١٣٢٤ م) وكذلك في كتاب رحلات حنا دي مانديفيل ، وهي ممتعة حقاً على الرغم مما فيها من خيال ، وقد ظهرت بعد منتصف القرن الرابع عشر بقليل .

أما ماركوبولو فقد قضى عشرين سنة في الشرق الأقصى شغل خلالها مناصب هامة مكنته من أن يدرس عادات أهل الشرق مما أفاده في كتاباته . وفي السنوات التي أعقبت سنة ١٢٨٩ م ، وبينما كان ماركوبولو سجيناً في جنوه بعد عودته من الشرق أُملي ماركوبولو ما

تذكره من رحلاته ومشاهداته على رفيقه في السجن ، روستيكانو اليزي Rusticiano of pisa الذي كان لحسن الحظ ذا كفاية أدبية عالية . وهكذا ظهرت رحلات

ماركوبولو التي تعتبر من أهم ما كتب في موضوعها . وفي هذا تقول إلين باور Eileen Power « من المستحيل أن نبالغ في الحديث عن مدى اتساع نطاق مشاهدات ماركوبولو ووقتها حقيقة إن كان يعيد بعض حكايات الرحالة السابقين الدارجة وأنه عندما كتب اعتمد على السماع مما أوقعه في أخطاء هنا وهناك ، ولكنه سجل كل ما رآه بعينه بكل دقة ، إذ كانت لديه فرصة عظيمة للمشاهدة وكان رائعا في استغلال هذه الفرصة أعظم استغلال » (١) .

أما كتاب رحلات السيرجون دي مانديفيل فكان ذا طبيعة مختلفة إذ غلب عليها الطابع الميداني الخيالي المستمد بطريقة عشوائية من أعمال السابقين وموسوعات أمثال بليسي ، ومما جمعه رجال العصور الوسطى أمثال فنسانت المنسوب إلى بوفيه Vincent of Beavaies فضلاً عن تقارير الرحالة المغامرين الذين جابوا الشرق الأقصى . وعلى الرغم من أن هذا العمل لم يكن سوى خليط نادر من الحقيقة والخيال فإنه أخذ بألباب الناس ، وكان له أكبر الأثر في زيادة فضولهم بالشرق وبثرواته وعجائبه وثقافته . ومما يمكن من أمر ، فإنه يحسن بنا ألا نخرج كثيراً عن الموضوع الأساسي الذي نعالجه في هذا الباب وهو الكلام عن مؤرخي حركة الكشف وحركة التوسع والاستعمار بعد سنة ١٤٩٢ م .

أما أول هؤلاء فهو كريستوفر كولمبس الذي لم يستطع أن يكمل ما كان يطمح فيه من وصف العالم الجديد ، ولكنه كتب بإسهاب عن اكتشافاته ، ودفعته رغبته في تمجيد نفسه تحت تأثير الغرور إلى المبالغة واختلاق أشياء ووقائع خيالية لا أساس لها . وعلى الرغم من ذلك فإنه وصف مشاهداته وصفاً على درجة معقولة من الدقة والاعتدال والموضوعية . ولعل ما أشيع عنه من أنه « تاجر أساطير » إنما يرجع إلى وصفه أشياء لم يكن قد رآها فعلاً . أما أهم وصف لطبيعة العالم الجديد وثقافته فجاء في التقارير التي كان يرسلها إلى أسبانيا هرناندو كورتز Hernando Cortez الذي غزا المكسيك . ذلك أن تقاريره تضمنت وصفاً غاية في الوضوح برغم ما فيها من اختصار وإيجاز ، وكل ما يشوبها هو حرص كاتبها على تبرير أعماله . ويقارن فيوتر هذه التقارير بتقارير يوليوس قيصر ، وهي مقارنة لها بعض ما يبررها . وبإمكاننا الآن أن ننقل إلى عرض لقوائم المؤرخين الذين أمدونا بأول وصف تاريخي دقيق للكشوف والفتوحات .

فإنه من الطبيعي أن يكون المؤرخون الأوائل لهذه الفترة من رجال المدرسة الإنسانية الذين استثارت الحركة الجديدة انتباههم فطراً تغيير ملحوظ على أسلوبهم وطريقة عرضهم للمادة . وسوف نبدأ بمناقشة الكتابات التاريخية للمؤرخين في أسبانيا وإيطاليا والبرتغال في ذلك الدور .

(1) In A.E. Newton, Travel and Travellers in Middle Ages (Kropf, 1926) p. 135

كان أول المؤرخين ذوى الأهمية الذين كتبوا عن العالم الجديد هو بطرس مارتر دى

انجيرا Pietro Martire d'Anghiera (١٤٥٥ - ١٥٢٦ م) الذى اشتهر باسم

بطرس مارثير Peter Martyr كان هذا المؤرخ من رجال المدرسة الإنسانية فى

إيطاليا ومن تلامذة إينياس سيلفيوس وبوجيو . ولكنه هاجر إلى أسبانيا ليعيش فيها حتى إذا ما

كانت سنة ١٥٢٠ عين المؤرخ الرسمى لمجلس جزر الهند الغربية . وفيما بين سنتي ١٥١٦ ،

١٥٣٠ م ظهر كتابه « عشرات السنين فى العالم الجديد » الذى كتب بطريقة فريدة عبارة عن

رسائل أخبارية . وقد ظهر فى الكتاب براعة مارثير الأدبية وقدرته الفائقة على الوصف ، كما

تظهر فيه أيضاً حرصه على البعد عن مناهج المدرسة الإنسانية كلما عن له ذلك . ويرغم افتقار

الكتاب إلى العمق والنظرة الناقدة فإن كاتبه زودنا بملخص واف للتقارير التى كانت ترسل عن

شعوب العالم الجديد حتى سنة ١٥٢٥ . وتنحصر أهمية هذا الكتاب بالنسبة لكتابة التاريخ فى

أنه أول عمل من نوعه يصف ثقافة الشعوب ويتعد تماماً عن الشكل السابق التقليدى فى كتابة

التاريخ داخل إطار الحوليات السياسية والدينية .

أما كتاب « التاريخ العام الطبيعى لجزر الهند » الذى كتبه جوتزالو فرناندز دى

أوفيدوفلدىس وهو أسباني كان مهتماً بدراسة العلوم الطبيعية ثم تحول إلى دراسة التاريخ

(١٤٧٨ - ١٥٥٧ م) ، فهو وإن كان دون كتاب مارثير من الناحية الأدبية فإنه يعطيه من

ناحية القيمة التاريخية ، لأن فالدىس قضى أكثر من عشرين سنة فى أمريكا يؤلف كتابه هذا

فجاءت معلوماته دقيقة حيث إنه استمدّها بنفسه ومن مشاهداته . ولقد تميز هذا الكاتب

بمنهجه الموضوعى الذى يشبه منهج العلماء الطبيعيين ، ومن ثم اتصفت كتاباته بالدقة التى لا

يرقى إليها الشك .

والملاحظ أن معظم الكتاب الذين تناولوا حركة الكشف والتوسع الأوربي كانوا كثيراً

ما يمجّدون الغزاة فى كتاباتهم ، ولكننا نجد كاتباً كالأسقف الدوفيكاني بارتوليم دى لاس

كاساسى Bartoleme de Les Casas (١٤٧٤ - ١٥٦٦ م) لا ينسى أن يشيد

ببطولة المواطنين الأصليين من الهنود كما يبدو ذلك فى كتابه « عرض موجز لتخريب جزر الهند »

وكتابه الثانى « تاريخ للدفاع عن جزر الهند » ثم كتابه الثالث « تاريخ جزر الهند » . ولعل

عطفه على الهنود فى كتاباته هو الذى أوحى بفكرة «الهمجي النبيل» Noble Savage عند

الأوساط الهندية الأوربية فى القرن الثامن عشر . وكان أن استخدم الإنجليز والهولنديون تعليقاته

الناقدة كدعاية ضد الأسبان فى عدم اهليتهم لامتلاك وإدارة المستعمرات الجديدة .

أما فرانسيسكو لوبيز دى جومارا (١٥١١ - ١٥٦٠) فقد وصف فتح بيرو والمكسيك

فى كتابه « التاريخ العام لجزر الهند » وقد ركز الحديث على فتح المكسيك حيث كان يعمل فى

خدمة أسرة كورتز وإذا كان فيوتر يعتبره أقدر مؤرخى عصر الكشف ، فإن الأستاذ ويلجس

Wilgus يعارضه في ذلك ويعتبر جومارا كاتباً اعتمد على الاستماع أكثر مما اعتمد على الوثائق ولجأ في بعض الأحيان إلى الاختلاق .

أما جوزي دي اكوستا José de Acosta (١٥٣٩ - ١٦٠٠ م) الذي كان من الرجال اليسوعيين المسؤولين في بيرو . فهو كاتب لا يشك في صحة كتابته ودقتها . وقد ألف كتابه « التاريخ الطبيعي والأخلاق لجزر الهند » واعتمد فيه إلى حد كبير على معلومات أصلية جمعها بنفسه ، وإن كان قد أضفى عليه روح اليسوعيين كما برزت فيها النزعة الأخلاقية .

وثمة كتاب آخر تناول وصف الكشوف الجغرافية هو كتاب جوان لويز دي فيلاسكو الذي سماه « جغرافيه جزر الهند ووصفها العام » (١٥٧٤) وجمع مادته من الوثائق التي وضعها - مجلس جزر الهند تحت تصرف المؤلف . أما رحلة ماجلان فقد وصفها أحد بحارته وهو انطونيو بحافيتا (١٤٨٠ - ١٥٣٤ م) في كتابه « رحلة ماجلان حول العالم » .

ومن أهم الكتب عن أمريكا اللاتينية في القرن السابع عشر كتاب وضعه انطونيو دي هيريرا تورديسيلاس وأسماء « التاريخ العام » . وقد ألف كتابه هذا تحت رعاية الملك فيليب الثاني وظهر ما بين سنة ١٦٠١ وسنة ١٦١٥ م . وفيه تعرض للأحداث الهامة في العالم الجديد حتى سنة ١٥٥٧ م . ولم يعتمد مؤلف هذا الكتاب على الوثائق اعتماداً واسع النطاق ولكنه سرق كثيراً وبطريقة مباشرة من أعمال لاس كاساس . ويبدو أنه كان معجباً بمنهج المدرسة الإنسانية ، فجاءت أعماله مليئة بالبلاغة والمحسنات اللفظية . وعلى الرغم من اعتماد هذا الكاتب على مؤلفات لاس كاساس ، فإنه لم يشاركه احترامه للسكان الأصليين . وقد استغل هذا الكتاب الشهير على أنه دعاية أسبانية وترتب عليه تشويه الرأي العام الأسباني عن الفتوحات . أما كتاب برنابيه كويو دي بيرالتا اليسوعي (١٥٨٢ - ١٦٥٧ م) فهو أعظم قيمة من كتاب هيريرا حيث إن بيرالتا اعتمد أساساً على مشاهداته وملحوظاته الخاصة .

وتمخض القرن الثامن عشر عن عدة كتابات هامة عن العالم الجديد . ففي سنة ١٧٧٢ م ظهر كتاب انطونيو دي اولوا Antonio de Ulloa بعنوان « ملحوظات عن الأمريكتين » وهو غني بالمعلومات القيمة عن أمريكا الأسبانية وخاصة بيرو ، وأكوادور . وفي سنة ١٧٨٩ أصدر انطونيو دي الكيدو بكسارافو (١٧٣٦ - ١٨١٢) كتابه المعجم الجغرافي والتاريخي لجزر الهند الغربية الأمريكية ، ويحوي وثائق في خمسة مجلدات ويعادل هذا الكتاب في دقته كتابه جوان بونستا مونوز Juon Bautista Munoz

(١٧٤٥ - ١٧٩٩ م) وعنوانه « تاريخ العالم الجديد » وقد ظهر سنة ١٧٩٣ م . ثم إن هناك مؤلفات عديدة تتناول مراحل معينة محدودة من حركة الكشوف

والاستعمار في أمريكا اللاتينية منها الكتاب الذي ألفه أوغسطين دافيلاد (1562 - 1604 م) وهو أول كتاب هام عن الإرساليات الأسبانية في دورها الأول بعنوان تاريخ مقاطعة سانتياجو بالمكسيك. أما ألونزو فرناندز فقد حكي جهود الكنيسة الكاثوليكية في تبشير أهالي تلك البلاد بالديانة المسيحية وذلك في كتابه الذي ظهر سنة 1611 والذي أسماه التاريخ الكنسي للعصور الحديثة. ولم تقف جهود المؤرخ (جيل جونزالز دافيلاد) عند حد تناول دور البعثات التبشيرية، بل تعرض كذلك لعقائد الهنود أهل البلاد الأصليين. أما جوكان دي ريبادينيريا يبارنتوس Ribadeneira y Barrentos فقد جمع في كتيبه الذي صدر سنة 1755 كل الوثائق الكاثوليكية المتعلقة بالتبشير في أمريكا اللاتينية. كذلك قام جوكان دي سولرزانو بيريرا (1575 - 1655) بجمع القوانين السائدة في أمريكا اللاتينية في أيامها الأولى في كتابه الذي أسماه «تحرى الحقيقة حول قوانين جزر الهند» أما عن القانون التجاري في ذلك العصر فلقد كتب جوزيه دي فتياليناج سنة 1672 كتابه الذي أسماه «قواعد التجارة الأسبانية في جزر الهند الغربية» وقد أمدنا برناردو دي فارجاس ماشوكا (1557 - 1662 م) بأحسن وصف للنواحي العسكرية في أمريكا اللاتينية.

وهناك مؤلفات كثيرة عن المناطق التي احتلها الأسبان والبرتغاليون في العالم الجديد وكان أول كتاب هام عن البرازيل هو كتاب عن «آسيا» الذي كتبه جوادى باروس (1496 - 1570 م) وهو مبني على وثائق أصلية، وصدر فيما بين عامي 1552، 1615 م. وقد تناول أحداث اكتشاف البرازيل وغزوها بأسلوب واضح قوي، كما عالج نفس الكتاب الغزوات البرتغالية في جزر الهند الشرقية. وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه ساعد كثيراً على محو الخرافات التي سادت في هذا العصر عن تلك الجزر. وهناك كتاب هام آخر عن البرازيل وجزر الهند الشرقية وهو «التاريخ العام للهند الشرقية» (1603) كتبه انطونيو دي سان رومان. وثمة كتاب ثالث لا يقل أهمية عن الكتابين السابقين هو كتاب مانويل دي فاريا Manuel de Fariay Sousa (1590 - 1648 م) وأسماه «موجز تاريخ البرتغال» وقد تناول فيه أحوال البرازيل والمستعمرات البرتغالية في جزر الهند الشرقية أما كتاب «تاريخ المجتمع السياسي في البرازيل» الذي صدر سنة 1663 فقد كتبه سيمان دي فاسكونسيلو اليسوعي Siman de Vasconcellos (1597 - 1671 م). كذلك من المؤلفات الهامة والمفيدة التي ظهرت في البرازيل في القرن الثامن عشر كتاب سيباستيوروخايتا (1660 - 1738 م) واسمه «تاريخ أمريكا البرتغالية» سنة 1730 م. وأما بيرو فكتب عنها فرانسيسكو دي اكسرسيس (ولد 1504 م) سكرتير بيزارو كتابه المشهور «نبذة صادقة عن فتح بيرو» (1534) وقد كتبه بناء على طلب بيزارو نفسه كذلك يوجد تاريخ شامل لبيرو هو كتاب «تاريخ فتح بيرو» الذي ألفه بدرو دي جيزادى ليون (1518 - 1560 م). ومن أشهر الكتاب الأوائل الذين كتبوا عن بيرو جاركيلاسو دير

لافيجا (١٥٣٩ - ١٦١٦ م) صاحب كتاب «تعليقات على قبائل الانكا .» و «التاريخ العام لبيرو» ، ومع ذلك فقد اختلف النقاد في تقدير قيمة أعماله إذ وصفها فيوتر بأنها كتابة غير ناقدة هدفها تقريظ قبائل الانكا . وفي نفس الوقت وصفها وليجاس بأنها «خير مصدر نستمد منه معلوماتنا عن التاريخ المبكر لهذا البلد» . وفي سنة ١٥٧١ أصدر دييجو فرناندز (ولد ١٥١٠ م) تاريخ بيرو وهو خير ما كتب عن الحروب الأهلية في بيرو . كذلك وصف جوزي دي أريجا (١٥٦٢ - ١٦٢٢ م) انتشار الديانة المسيحية الكاثوليكية بين هنود بيرو في كتابه الذي صدر سنة ١٦٢١ بعنوان «استئصال الوثنية من بيرو» .

وخير ما كتب عن شيلي في ذلك الدور المبكر ما كتبه ألونزو دي أوفال Alonso de Ovalle (ت ١٦٥٠ م) كذلك كتب انطونيو رويدي مونتويا (١٥٩٣ - ١٦٥٢ م) عن انتشار المسيحية في بوجواي . وكان انطونيو هذا يحس تجاه السكان الأصليين نفس الأحاسيس التي كان يحس بها كاساس .

ولقد أثار فتح المكسيك (أسبانيا الجديدة) اهتمام عدد من أقدر المؤرخين أمثال برنال دياز ديل كاستيلو Bernal Diaz del Castillo (١٤٩٢ - ١٥٨١ م) صاحب كتاب «التاريخ الحقيقي لفتح أسبانيا الجديدة» . وكان كاستيلو جندياً شجاعاً كفئاً ، استهدف تأليف كتابه الثناء على الجيش الأسباني وضباطه وليبرز أعمال الجيش وبطولته الفذة . كذلك يتضمن هذا الكتاب سرداً رائعاً لأحداث الفتح الأسباني للمكسيك ووصفاً للمكسيك والمعدات الحربية التي استعملها الغزاة ، بالإضافة إلى ماورد به من ملحوظات ومشاهدات عن العالم الجديد وسكانه الأصليين . ولا يقل أهمية عن هذا الكتاب كتاب برناردو ساها جون Bernardo Sahagun (ولد ١٥٩٠) واسمه «التاريخ العام لاحتلال أسبانيا الجديدة» . أما خير وصف كتب في ذلك العصر عن غزو المكسيك فقد جاء في كتاب «تاريخ غزو المكسيك» الذي ألفه انطونيو دي سوليس ريفادنييرا (١٦١٠ - ١٦٨٦) وهو كتاب تفوق قيمته الأدبية قيمته التاريخية . وقام فرناندو دي ألفا اكتيليز شيتل Fernando de Alva

Iktiblzóchitl (١٥٦٨ - ١٦٤٨ م) بتصوير وحشية الغزاة تصويراً دقيقاً ، وذلك في كتابه «قوة غزاة المكسيك المثيرة» . ومن خيرة ما كتب عن غزو المكسيك كذلك ما كتبه جاسباردي نيلاجرا (ت ١٦٢٠ م) في كتابه «تاريخ المكسيك الجديدة» وأما عن كاليفورنيا الأسبانية فإن أقيم ما كتب عنها كتاب «نبذة عن كاليفورنيا» (١٧٥٧) لمؤلفه مييجويل فينجاس Miguel Vènegas وعن فلوريدا ، لدينا كتاب «نبذة وتعليقات» لمؤلفه ألفار نتر كاييزا دي فاكا Alvar Nunez Cabeza de Vaca (١٤٩٠ - ١٥٦٤ م) . كذلك كتاب «فلوريدا بلد الانكا» لمؤلفه جارسيلاسو دي لافيجا وهذا الكتاب عبارة عن سرد رومانتيكي غير ناقد لفتوحات سوتو .

ولم يكن الكتاب في شمال أوروبا أقل اهتماماً بحركة الكشف الجغرافية . فمن هولندا ظهر لدينا أول عمل ذو قيمة في هذا الصدد وهو ما كتبه جوان دي ليت Joannes de Laet (١٥٩٣ - ١٦٤٩ م) تحت اسم «العالم الجديد أو جزر الهند الغربية» . وقد عني فيه بعلاج التاريخ الطبيعي للعالم الجديد وعادات السكان الأصليين فضلاً عن حركة الاستعمار . وهناك أيضاً ارندالدوس هونتانوس (١٦٢٥ - ١٦٨٣ م) الذي تناول فيه في «عام جديد مجهول» حركة الكشف في أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية والبرازيل . وفي سنة ١٦٧٨ أصدر حنا اسكوميلين (هندريك سميكس) كتاب «الرحلات البرية إلى أمريكا» الذي يعتبر واحداً من أحسن الكتب التي تناولت موضوع القراصنة وقطاع الطرق . ومن خير ماظهر في هولندا في ذلك العصر أيضاً عن الرحلات البرية ذلك الكتاب الذي أصدره بطرس فان در آزا Pieter von der Aa سنة ١٧٠٧ ويقع في ١٢٧ مجلداً .

وظهرت في ألمانيا كذلك عدة كتب عن حركة الكشف والاستعمار في العالم الجديد من أشهرها كتاب جاسبار إن Gaspar En «تاريخ الهند الغربية» (١٦١٢) وكتاب جوهان لودفيج جوتفريد «العالم الجديد وتاريخ أمريكا» (١٦٥٥) .

أما في فرنسا فإن أول كتاب ينبغي الإشارة به عن الرحلات كتاب بعنوان «مجموعة روايات عن رحلات غربية متنوعة» وقد صدر فيما بين سنتي ١٦٩٣ - ١٦٩٦ م لمؤلفه ملشيدش ثيفينو Melechise dech Thevenot وفي سنة ١٧٠٧ أصدر الأب بيلجارد كتاباً بعنوان «التاريخ العالمي للرحلات» وقد أعطى فيه اهتماماً خاصاً لرحلات الأسبان إلى أمريكا . أما الموسوعات التي كتبها شارلوا عن الكشف الجغرافية فستعرض لها فيما بعد ومن أعظم الكتابات الفرنسية التي تناولت حركة الكشف والاستعمار كتاب التاريخ العام للكشف الجغرافية الذي ألفه أنطوان بريفوست دي اكزيل (١٦٩٧ - ١٧٦٣ م) prevost d'Exiles وعلى الرغم من أنه مجرد تجميع مادة ومشروع لناشر إلا أنه حوى قدراً هائلاً من المعلومات . وقد ظهر في عدة مجلدات ما بين سنتي ١٧٤٦ - ١٧٥٤ م . وأهم ما نلاحظه على هذا الكتاب هو أنه يثنى على السكان الأصليين لكنه يتقد خيانة لاس كاساس الساذج ، ثم إنه يعكس وجهة نظر مونتسكييه الخاصة بالنظر إلى الثقافة والنظم من وجهة مقارنة وملاحظة تأثير المناخ على الأنظمة الاجتماعية وما يلاحظ على هذا العمل كذلك أنه أفسح مجالاً كبيراً للتحليل النفسي ونمو المجتمعات في العالم الجديد . أما عن التاريخ الديني للعالم الجديد فهناك كتاب شامل يقع في أربعة عشر مجلداً صدر سنة ١٧٧٠ م وألفه انطوان تورون بعنوان «التاريخ العام لأمريكا منذ اكتشافها» .

أما أول كتاب في إنجلترا يتناول حركة التوسع الأوربي هو كتاب ريتشارد ايدن وعنوانه «العالم الجديد في بضع عشرات من السنين» وقد صدر سنة ١٥٥٥ م . واستند مؤلف هذا

الكتاب إلى حد ما إلى ما كتبه بطرس مارتير . وبعد ذلك ظهر كتاب ريتشارد هاكولويت وعنوانه الملاحة والرحلات والكشوف الرئيسية عن الامة الإنجليزية . وقد ظهر لأول مرة سنة ١٥٥٨ م ثم صدر مرة ثانية في صورة موسعة سنة ١٦٠٠ م . ويكمل هذا الكتاب كتاب آخر أصدره بعد ذلك بربع قرن صمويل بيرشاز عن رحلاته وأسفاره . كذلك كتب توماس جاج كتاباً بعنوان « وصف جديد لجزر الهند الغربية » (١٦٤٨) وقد كتبه المؤلف ليضمنه ثمرة إقامته فترة طويلة في جزر الهند الغربية . وهناك بحث أشمل منه كتبه حنا أوجلي John Ogilby (١٦٠٠ - ١٦٧٦ م) بعنوان « أمريكا : أحدث وأدق وصف للعالم الجديد » (١٦٧١) واستقى بغض معلوماته مما كتبه الهولندي مونتانوس .

ومع مطلع القرن الثامن عشر أصدر أونشام تشرشل Aunsham Churchill كتابه المشهور « مجموعة من الرحلات والأسفار » سنة ١٧٠٤ م ثم غد ذلك بعام كتاب جون هارينيس « مكتبة الرحلات البحرية والبرية » . كذلك أصدر جون كامبل سنة ١٧٤٢ كتاب التاريخ الموجز لأمريكا الأسبانية وقد أعطى اهتماماً خاصاً للتجارة والعلاقات الخارجية . واختص الكتاب الإنجليز مناطق معينة من العالم الجديد باهتمامهم . وخير مثل لذلك ما كتبه روبرت سوثي Robert Southey (١٧٧٤ - ١٨٤٣) « تاريخ البرازيل » الذي هو جزء من كتاب أكبر شرع فيه ولكنه لم يكمله وهو كتاب « تاريخ البرتغال » . وكان سوثي واثماً أنصف في بحثه جميع السكان الأصليين من الهنود فضلاً عن ما قاهرهم من الأوربيين واستحوذت على مشاعره فكرة المستقبل المرموق المتوقع للبرازيل .

أما أول مؤلف مشهور عن تاريخ الاستعمار الإنجليزي فهو كتاب الكابتن جون سميث وعنوانه « التاريخ العام لفرجينيا و « نيو انجلاند » ويؤخذ على هذا الكتاب الذي صدر سنة ١٦٢٤ مسحته الخيالية وإحساسه بالزهو . والواقع أن سميث لم يؤلف سوى جزء بسيط من هذا الكتاب الذي يحمل اسمه في حين أن ذلك الجزء الأعظم منه ليس إلا تجميعاً لبعض القصص القديمة وذكريات المهاجرين الإنجليز الذين استقروهم المقام في العالم الجديد . ومن بين ما اختلقه سميث أسطورة البوكاهونتاس التي تحتل مكانة مشهورة على قدم المساواة مع أسطورة شجرة الكرز بين أساطير التاريخ الشعبي الأمريكي . ويصف الدكتور ج . ف . جيمسون عمل سميث هذا في سخرية دقيقة . فيقول « إن ما يحويه هذا الكتاب من معلومات تاريخية ليست من عمل سميث ، أما العمل الذي قام هو نفسه به فلا بحث للتاريخ بصلة . » (١)

أما كتاب روبرت بيفرلي « تاريخ فرجينيا » الذي صدر سنة ١٧٠٥ م فهو كتاب من طبعة أخرى مختلفة كتبه صاحبه تلبية لرغبة أحد باعة الكتب في لندن ، وهو عبارة عن ملخص ممتاز للوثائق والسجلات المبكرة في أسلوب واضح يتصف بالحيوية . وثمة كتاب آخر

وليم ستيث Stith «أكتشاف فرجينا لأول مرة» وقد صدر سنة ١٧٤٧ م . ويتفوق هذا الكتاب على كتاب بيفرلي من ناحية أنه أعظم منه في معلوماته وأدق منه وإن كان أقل منه تشويقاً للقارئ . وكان أول ما كتب عن تاريخ «نيو إنجلاند» في أيامها الأولى في صورة جذيرة بالتصوير والاهتمام هو ما كتبه اثنان من حكامها هما وليم برادفورد وجون وينثروب . وقد سمي الأول كتابه «تاريخ الزراعة في بلايموث» ، في حين سمي الثاني كتابه تاريخ «نيو إنجلاند» . واتصفت رواية برادفورد (١٥٩٠ - ١٦٥٧ م) بالسهولة والصراحة وغبت عليها مسحة من التفوق تدل على تأثيره بالنظرية الإلهية في تفسير التاريخ ، هذا إلى أنه قضى أعواماً طويلة في جمع الوثائق الخاصة بكتابه مما جعل مادته لا يرقى إليه شك . وأهم ما جاء فيه وصفه لحركة استقرار المهاجرين الإنجليز في مستعمرة بلايموث حتى سنة ١٦٤٦ م . أما وينثروب فجاءت روايته الرائعة على طريقة الحوليات ، فسرد تاريخ مستعمرة خليج ماسوشيت حتى سنة ١٦٤٨ . والواقع أن كتابه ليس تاريخاً لنيوإنجلاند على طول الخط ، ولذا قام أحد الناشرين في لندن بتغيير عنوان الكتاب فيما بعد ليزيد اهتمام القارئ به ، وبالتالي يزداد رواجاً . والحق أن هذا الكتاب هو أحسن كتاب يورتاني في تاريخ العالم الجديد .

ثم يأتي بعد ذلك كتاب مثير للفرع والعجب معاً ذلك هو كتاب التاريخ الكنسي لنيوإنجلاند تأليف كوتون ماثر Cotton Mather (١٦٦٣ - ١٧٢٨ م) وهو بحق موسوعة شاملة تتناول جوانب كثيرة من الحياة الدينية والثقافية للنازحين الجدد ، بما في ذلك النبوءات الدينية المزعومة والخاصة بتعمير «نيو إنجلاند» والاستيطان فيها ، ويمضي في روايته حتى يتناول تاريخ التعليم العالي في ماسوشيت . ويتضمن هذا الكتاب حياة الحكام والعلماء والوزراء وسائر الشخصيات البارزة ، كما يتناول كذلك تاريخ كلية هارفارد وتاريخ الحروب الهندية ودلائل العناية الإلهية على طول التاريخ لنيوإنجلاند وفي هذا الجانب نجد ماثر يطبق نفس النظريات التي أخذ بها بوسويه ولكن على نطاق أصغر .

وهنا بالإضافة إلى ذلك كتاب توماس برينس Thomas Prince «تاريخ نيوإنجلاند» (١٧٣٦) الذي يعتبر أحسن ملخص لتاريخها المبكر حتى سنة ١٦٦٣ م . ولا يفوقه في اتساع المفهوم والقدرة الأدبية سوى كتاب نوماس هتشنسون (١٧١١ - ١٧٨٠ م) تاريخ مقاطعة خليج ماسوشيت ، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء كان هتشنسون أستاذاً أمريكياً وفي نفس الوقت آخر حاكم ملكي لماسوشيت ولذا كان متأثراً بالمدرسة العقلانية في كتابة التاريخ . والحق أن كتابه من المصادر التي يعتمد عليها لأمانته وحيدته ، وهو أيضاً من أحسن الكتابات التي تناولت موضوع التطورات التشريعية والدستورية .

(١) J.F. Jameson: The History of Historical Writing in America (Houghton Mifflin 1891) p 16

وثمة عدد من الكتاب البريطانيين تناولوا بالبحث الهنود في أمريكا الشمالية والجنوبية وحاولوا أن ينقلوا إلى أهل أوروبا الحقائق المتعلقة بهم . هناك مثلاً آدم فيرجسون الذي عالج في كتابه « تاريخ المجتمع المدني » الحياة الاجتماعية للهنود الحمر في أمريكا بشئ من الإنصاف فكان كتابه انعكاساً مقبولاً لفكرة « الهمجي النبل » وعلى العكس نجد كاتباً مثل ج . ه . وين J. H. Wynne يهاجم بعنف مثل هذا التفسير لثقافة الهنود الأمريكيين في كتابه « التاريخ العام للإمبراطورية البريطانية في أمريكا » (١٧٧٠) . وادعى في هذا الكتاب أن أية محاولة لتعليم الهنود وتهذيبهم ليس إلا مضيعة للوقت . ويقصد (وين) في هذا الاتجاه كل من وليم روبرتسون في كتابه « تاريخ أمريكا » و س . ه . ارنولد في كتابه التاريخ العالمي المحايد للأمريكتين الشمالية والجنوبية (١٧٨١ م) وتتقد هذه الكتب الثلاثة السابقة الإشارة إليها كل تقرير للسكان الأصليين في الأمريكتين .

وثمة اتجاه وسط بين أصحاب فكرة الهمجي النبل وبين الناقدين لها في عنف . ويتزعم هذا الاتجاه الوسط جيمس آديار Adair صاحب كتاب « تاريخ الهنود الأمريكيين » (١٧٧٥ م) الذي استخدم فيه طريقة مونتسكيه في كتابه « رسائل فارسية » وذلك للرد على ناقديه الأوربيين الذين تناولوا موضوع الهنود . وقد نحا وليم راسل هذا الاتجاه الوسط في كتابه « تاريخ أمريكا ١٧٧٨ » الذي عرض فيه الجوانب الحسنة والسيئة من حياة الهنود وثقافتهم ، ودعا راسل الأوربيين الذين اغرعتهم القسوة الوحشية التي نسبت إلى الهنود في غارتهم على البيض أن يقارنوها بحروب أوروبا في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث أو يقارنوها بحروب أوروبا في العصر القديم أو حتى ما جاء ذكره في الإنجيل من غزوات وحروب . أما فيما يختص بالكشوف الفرنسية في حوض المسيسيبي فإن أول مؤلف هام كان كتاب ماركويت « الرحلات والكشوف » (١٦٨١) ثم تلاه كتابان للمبشر البلجيكي لوى هينين Louis Hennepin (ولد ١٦٤٠ م) هما « الكشوف الجديدة » و « ووصف لويزيانا » . وهذان الكتابان على قدر عظيم من الأهمية لما يتضمنانه من معلومات وافية عن الكشوف الأمريكية وعن السكان الأصليين على الرغم من كذب ما ادعاه هينين من أنه تتبع نهر المسيسيبي حتى مصبه .

على أن أشهر الكتب عن الكشوف الفرنسية والاستعمار الفرنسي في أمريكا هو كتاب « التاريخ العام والوصف الشامل لفرنسا الجديدة » الذي ألفه الرحالة الفرنسي اليسوعي بطرس فرانسوا كراميزدي شارلفو Franceis xJavier de charlevoix (١٦٨٢ - ١٧٦١ م) . ويمتاز هذا الكتاب بأن مؤلفه رجع فيه إلى السجلات والوثائق ولكنه اعتمد إلى حد كبير على ما جمعه بنفسه من معلومات . وعلى الرغم مما في هذا الكتاب من إسهاب وثرثرة وادعاءات كثيرة مع افتقاره إلى النظرة الناقدة ، إلا أنه يعد أكثر الكتب تشويقاً ومتعة ومن ثم كان من

أكثرها رواجاً . وهناك كتب أخرى لشارلوا تناولت جهود اليسوعيين في التبشير في اليابان والشرق الأقصى على غرار أعمال كايمفر وغيره . هذا كله بالإضافة إلى ما كتبه من أوصاف شهيرة لجزر هايتي وبرجواي .

ولعل أقيم كتاب تناول بالوصف والتحليل ثقافة الهنود الأمريكيين في ذلك العصر هو كتاب جوزيف فرانسوا لافيتو Lafititeau (١٦٨١ - ١٧٤٦ م) وعنوانه «مقارنة عادات الأمريكيان الهمج بما كان عليه الناس في الأزمنة القديمة» . وكان لافيتو مبشراً يسوعياً فرنسياً وقد أسهم بأبحاثه الطيبة عن قبائل Hurons and Iroquois في وضع الأسس التي ساعدت على نشأة علم دراسة الأجناس البشرية من النواحي الاجتماعية والثقافية . أما المؤرخ الإنجليزي وليم روبرتسون وهو من رجال الحركة العقلانية فقد ألف كتاباً سنشير إليه فيما بعد عنوانه «تاريخ أمريكا» يعتبر أبرز كتب التاريخ العامة التي كتبت عن العالم الجديد قبل مطلع القرن التاسع عشر .

وفيما يتعلق بتاريخ الشرق الأدنى نجد أن أشهر كتاب في هذا المجال هو ذلك الذي وصفه ريتشارد نول Richard Knolle تحت عنوان التاريخ العام للأتراك (١٦٠٣) وقد أثنى عليه كل من صمويل جونسون وهنري هالام لما تميز به من صدق الوصف وروعة الأسلوب . وهناك كتاب آخر عنوانه «رحلات في فارس وجزر الهند الشرقية» كتبه حنا تشاردن على فترات فيما بين ١٦٨٦ ، ١٧١١ م وقد استفاد منه موتسكيه كثيراً . أما الكتاب العظيم الذي وصفه السير جون مالكولم بعنوان «تاريخ فارس» ١٨١٥ فقد جمع مادة من المصادر ومما حصل عليه مباشرة من معلومات . كذلك هناك كتاب داود بريس David price «تأملات في التاريخ الإسلامي» (١٨٢١) . وقد ساعدت هذه الكتب وغيرها على خلق اهتمام عظيم بالثقافة الإسلامية والأدب العربي وهو الاهتمام الذي ازداد كثيراً بترجمة قصص «ألف ليلة وليلة»

وفيما يتعلق بالاتصالات المبكرة بين أوروبا من ناحية واليابان والشرق الأقصى من ناحية أخرى ، فإن أول رواية منذ أيام ماركوبولو عن تلك الاتصالات تبدو في كتاب «تاريخ اليابان» الذي ألفه الطبيب الألماني انجلبرشت كامفير Engelbrecht Kaempfer (١٦٥١ - ١٧١٦) وهو الكتاب الذي ظل لمدي قرن أو أكثر المصدر الرئيسي لمعلومات أوروبا عن اليابان مثلما كان كتاب دي باروس مصدراً عن جزر الهند الشرقية . كذلك ساعد كتاب وليم مارسدن «تاريخ سومطرة» ، (١٧٨٣ م) على إلقاء مزيد من الضوء على جزر الهند الشرقية وتميز هذا الكتاب بترعة عقلانية تاريخية واضحة . وثمة كتاب . يعتبر من الكتب العالمية في الرحلات ووصف البلاد ، ونص به الكتاب الذي كتبه ديرك دي براي Dirk de Bry بعنوان «رحلات إلى جزر الهند الشرقية والغربية» وصدر في

فرانكفورت فيما بين سنتي ١٥٩٠ م ، ١٦٣٤ م . أما كتاب روبرت أورم orme بعنوان « تاريخ العمليات الحربية للأمة البريطانية في هندوستان منذ ١٧٤٥ م » (١٧٧٨ م) فنجد فيه وصفاً دقيقاً للمراحل المتأخرة من الفتوح البريطانية في الهند . وقد اهتم فيه المؤلف بالعمليات الحربية اهتماماً كبيراً . وعن شركة الهند الشرقية البريطانية فلدينا كتاب حنا بروس « حوليات عن تاريخ شركة الهند الشرقية الموقرة » (١٨١٠) Annals of the honourable East India Company واستند المؤلف فيه على الوثائق التي تجمعت لديه .

على أن أول عمل كامل تناول الكشوف والاستعمار في الهند هو الكتاب المفصل الذي كتبه جيمس ميل Mill بعنوان « تاريخ الهند البريطانية » (١٨١٨) ومؤلف هذا الكتاب من فلاسفة المذهب النفعي . وقد ضمن كتابه معلومات كثيرة وعظيمة كما تناول الحضارة الهندية والحكم البريطاني في الهند بكثير من النقد ويشابه ما كتبه ميل في تقييمه التسليم للحضارة الهندية ما كتبه من بعده كاترين مايو بعنوان « الهند الأم » . على أن ميل قام في نفس الوقت بتقييم لإدارة شركة الهند الشرقية مستخدماً معايير بتنام ، فوجد أنها تقتصر إلى الكفاية فضلاً عن العدل والاقتصاد وهناك كتب أخرى ألقت مزيداً من الضوء على جزر الهند الشرقية أمثال كتاب الاستعماري الإنجليزي السير توماس ستانقور رافلز وعنوانه « تاريخ جاوة » (١٨١٧) وكتاب حنا كروفورد « تاريخ الجزر الهندية » وكلاهما غني بأوصاف عادات وسلوك السكان المحليين .

ونجد اقيم المعلومات وأهمها عن جنوب أفريقيا في كتاب « رحلات في إفريقيا الجنوبية » الذي ألفه السير جونا بارو (١٧٦٤ - ١٦٤٨ م) . وقد جمع هذا المؤلف بنفسه أول مجموعة تامة تضم بياناً بكل الجهود غير الموفقة التي بذلت للتوصل إلى طريق يوصل إلى الهند من جهة الشمال الغربي . وجاء ذلك في كتابه « رحلات للكشف والبحث في المناطق القطبية » .

ومع مطلع القرن التاسع عشر ظهر اتجاه جديد لربط أدب الرحلات بعلم الجغرافيا ، واتضح هذا في بعض الكتاب مثل الكسندرفون همبولدت Humboldt ، كارل ريتز Karl Ritter ويبدو ان التأثير العام لحركة الكشوف الجغرافية على المؤرخين أقوى ما يكون في كتاب « التاريخ الفلسفي والسياسي للمستوطنين الأوروبيين وتجارهم في جزر الهند الشرقية » الذي ألفه الصحفي ولیم توماس رينال (١٧١٣ - ١٧٩٦) وظهر هذا الكتاب سنة ١٧٧١ مييناً تأثير حركة التوسع والكشوف على الفكر الأوربي . وقد ردد بعد ذلك فرانسو حنا شاستللو Jean Chastellaux (١٧٣٤ - ١٧٨٨) آراء رينال الفلسفية في كتابه « بحث عن مزايا وأضرار اكتشاف أمريكا » . أما تأثير المعلومات الجغرافية الجديدة على مفاهيم التاريخ

في ذلك العصر فقد عبر عنها نيقولا لينجلت وفرسنوي (١٦٧٤ - ١٧٥٥ م) وخاصة في كتابيه «طرق دراسة التاريخ» ، «طرق دراسة الجغرافيا» .

وبعد ، فإنه يتبين مما سبق ذكره أن بعض من تناولناهم من الكتاب كان لهم دور هام في تغيير أسس الأسلوب التاريخي وبمجال اهتمامات المؤرخ ، ولكننا نتبين كذلك أن تأثير حركة التوسع الأوربي على المؤرخين بكل ما فيها من عمق لم يكن أقوى من تأثير نفس الحركة على بقية معظم مجالات الحياة والفكر في أوروبا في القرون التي تلتها . ذلك أنه ترتب على هذه الحركة بطريق مباشر أو غير مباشر نشأة ونمو اتجاهات جديدة ومن ثم حدوث تغييرات عظيمة في المفاهيم والمناهج التاريخية .

ليس هناك من بين المؤثرات الغير مباشرة لحركة التوسع الأوربي على الكتابة التاريخية ما هو أكثر أهمية ووضوحاً من مساعدتها في وجود الفلسفة الطبيعية الناقلة التي يمثلها أصدق تمثيل كل من يكون ، وديكارت ، ولوك . ذلك أنه ترتب على استكشاف ذلك الجزء الأعظم من سطح الأرض أن عرف الناس أن هناك بقاعاً شاسعة في هذه الكرة الأرضية تصلح لسكانهم ، وأكثر من هذا ثبت لهم أن المزارع التي كانت تحيط بالأجزاء غير المعروفة من أعاجيب وأمر مثير للذعر إنما هي نوع من الأساطير التي لا أساس لها من الحقيقة في شيء .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه داجاما ، كولومبوس ، وماجلان يقومون بالكشف عن امتداد الكرة الأرضية وطبيعتها ، كان هناك آخرون كرسوا أنفسهم للكشف عن الكون كله . وكان لكل من العاملين من النتائج ما عصف بالتقاليد والمعتقدات الدينية القديمة . لقد كشف كوبرنيكس ، برونو ، جاليلو ، تيكورا عن عظمة الكون واتساعه . كما وضع جاليلو وكبلر ونيوتن أفكاراً جديدة أهمها ما يختص بالنظام الكوني وحركة الكواكب . ويضاف إلى هذا ما حدث من تقدم رئيسي في العلم بتفسير كافة الظواهر الطبيعية في كل مجال من مجالات العلم الطبيعي في القرن السابع عشر ، وهي الظواهر التي نعتبرها اليوم شيئاً عادياً معروفاً في حياتنا المعاصرة . وكانت النتيجة النهائية لكل هذا التقدم العلمي أن واجه التفسير الديني القديم للعالم تحدياً خطيراً وهو التفسير القائل بوجود آله متحكم يقوم دائماً بتغيير أو إيقاف قوانين الكون ليعاقب أمير عاق أو يستجيب لصلوات ودعوات أسقف مخلص .

وكان أن استطاع كل من فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وجون لوك أن ينظم مغزى الاكتشافات العالمية السابق ذكرها في فكر فلسفي مستقيم . لقد أوضح باكون بصفة خاصة ضرورة اتباع طريقة الاستقراء . أما ديكارت فقد فسر حركة الكون تفسيراً آلياً في حين حاول لوك أن يبنى المعرفة والحقيقة على الخبرة البشرية . وهكذا نجد أن الكشوف العلمية والفلسفة الجديدة كانت تميل نحو إيجاد تفسير عقلاني للظواهر الطبيعية والاجتماعية وهو الأمر الذي كان

يمثل تحدياً كبيراً للآراء القديمة والذي كان مقبولا حتى ذلك الوقت والذي كان أساسه تفسير الظواهر الطبيعية على أنها معجزات وعجائب وهو ما رأيناه بوضوح في كتابات المؤرخين المسيحيين في العصور الوسطى . ومن بين المفكرين الإنجليز الربوبين - الذين آمنوا بالله وأثبتوا وجوده عن الخصوص تذكر ولستون ، وهيوم^(١) وتشكك هؤلاء جميعاً - وشاركهم في ذلك المتعلمون من معاصريهم في مبدأ المعجزات والعجائب . ولم يلبث أن انهارت تماماً فلسفة لعجائب والمعجزات عندما هاجم هوبز ، سينيوزا ، واسنروك ، وريماروس ، وإلجن الآراء التقليدية حول محتوى العهدين القديم والجديد . ولم تكن الدلائل والبراهين العلمية الجديدة هي وحدها السبب في حدوث ذلك الانهيار ، بل إن هناك أيضاً الشك الذي أثير حول صحة الكتابات التي حوت تلك المعجزات . وفي القرن الثامن عشر أمكن التعبير بحرية أكثر عن كل هذه الآراء وخاصة في إنجلترا وهولندا حيث سادت روح الاعتدال والتسامح الفكري ، وبالتالي ازداد شيوع تلك الأفكار .

ثم إنه كان من الطبيعي أيضاً أن يكون هناك رد فعل عميق للاكتشافات العلمية الجديدة والفلسفة الجديدة للطبيعة على الفلسفة الاجتماعية المعاصرة في ذلك الحين . وهكذا ظهر مفكرون أمثال فيكو - هيوم ، ترجو عرض فكرة استمرار المجتمع وتطوره تطوراً منتظماً شأنه في ذلك شأن الطبيعة . ومعنى ذلك أن الفكرة القديمة عن التطور الاجتماعي والتي مؤداها تدهور المجتمع البشري من عصر أولى ذهبي تبدلت بمفهوم التقدم المستمر من المراحل الدنيا في الحضارة إلى المراحل الأعلى . وظهر هذا المفهوم الجديد على وجه الخصوص في كتابات فونثيل - بيرولت ، فيكو ، فولتير - هيوم - ترجو ، وكانت ، وجودوين ، وكندورسيه . وفي ضوء هذا المفهوم تضاءلت الحاجة إلى المعجزات لتبرير أحداث التاريخ وغيره من العلوم الأخرى التي تناولت النشاط الإنساني . وكان سبب هذا التضاؤل ازدياد نمو فكرة الإيمان بالله عز طريق العقل وحدة عند الربوبين . ثم افتراض مبدأ تأدب الإنسان وحسن سلوكه ، وهو المذهب المناقض تماماً للآراء القديمة التي اعتنقها آباء الكنيسة الأولى واعتنقها كالفن نفسه والتي كانت تؤكد فساد الإنسان وعدم طهارته . وأخيراً فإن الاكتشافات الجديدة وخروج الفلسفة الطبيعية والدينية عن النطاق الديني المحدود كان لها أكبر الأثر في توسيع دائرة اهتمامات المؤرخ التي ظلت مقتصرة حتى ذلك الحين على مجال السياسة والدين .

وفي كتابات فولتير ، رينال ومونتسكييه ، وهيرين يتضح في صورة أكبر الاتجاه نحو توسيع مجال التاريخ ، ليس عند الذين تناولوا مراحل حركة الاستعمار والتوسع فحسب بل عند

(١) ان وجهة نظر ميلتون تجاه المعجزات أكدت في عمق آراء إنكار جيون عن المسيحية (المؤلف)

كثيرين غيرهم . هذا مع ملاحظة أن ظهور الاتجاه القومي كان من بين العوامل التي اعترضت طريق هذا الاتجاه السليم لأن القومية حددت الاهتمام بالتاريخ السياسي . ومع ذلك فإن هذا الاتجاه الجديد استطاع أن يثبت أقدامه وخاصة بعد أن دججه الاهتمام بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وهو الأمر الذي تجدد وازداد قوة في الفترة التي أعقبت الثورة العلمية والصناعية في القرن التاسع عشر .

وكان أن ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية وكذلك رد فعل الفلسفة الاجتماعية على كتابات التاريخ في كتابات « المدرسة العقلانية » للمؤرخين ، وعلى الرغم من أن كتابات هذه المدرسة اختلفت فيما بينها اختلافات شتى بحيث أصبح من المعتاد أن يقسم كتابها إلى مجموعات عديدة ، فإنها تميزت بوحدة أساسية ظهرت في المنهج والطريقة والاهتمامات ، مما أمكن معه وضع خواص موحدة لكتابة التاريخ لدى المدرسة العقلانية في القرن الثامن عشر . والواقع أن أهم ما جاءت به هذه المدرسة من جديد هو اتجاهها العام نحو توسيع مجال التاريخ بحيث يتعدى مجرد سرد دسائس الكنيسة والدولة وبحيث يشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضارة في أوسع معانيها . وإذا كان مؤرخو عصر الكشف قد أخذوا بنفس هذا الاتجاه فإن أعمالهم اقتصرت على معالجة العالم الجديد ولم يصبحوا أصحاب مدرسة بمعنى الكلمة . بينما نرى أن المؤرخين العقلانيين بذلوا جهودهم للتوصل إلى مدخل ثقافي عريض للتاريخ بغض النظر عن الفترة أو البلد التي يعالجونها ، ولذلك حاولوا جادين أن يدخلوا بعض الأسس الاجتماعية عند تحليلهم للتاريخ .

ولا يقل أهمية عما سبق محاولتهم عدم الأخذ بالخرافات والنظريات اللاهوتية لتفسير أسباب التاريخ وأحداثه ، وإنما أرجعوا ذلك كله إلى العوامل الطبيعية . هذا إلى أن المؤرخين العقلانيين أخذوا بفكرة أن الكون والمجتمع يسيران آلياً وهي الفكرة التي كان قد توصل إليها الربوبيون استناداً إلى ما قدمه نيوتن من حقائق فلكية . وإذا كان الله يوجه الكون فإنه يفعل ذلك من خلال ما وضعه هو نفسه من قوانين للطبيعة . إن كل شيء في التاريخ البشري هو نتاج علاقة محددة بين السبب والآخر . ولكن هذا لم يمنع المؤرخين العقلانيين من الاعتقاد في إرجاع بعض أحداث التاريخ إلى أسباب شخصية ذات طبيعة ثانوية ، بل لقد اقتربوا في بعض الأحيان من نظرية أن الكوارث تصنع التاريخ وبها تعلق أحداثه ، وذلك عندما فسروا الحركات الكبرى والخيوط الرئيسية للسياسة على أنها نتاج لعمل شخصي فردي . وهكذا التزموا بوجه عام بنظرية أن العوامل الفكرية - أو بمعنى آخر الأفكار هي العنصر البارز المسيطر في التاريخ ، ومن هنا ركزوا اهتمامهم على التاريخ الفكري .

ثم أن هؤلاء المفكرين ككل - اعتقدوا في أن العقل البشري لا يختلف أساساً من مكان إلى آخر في العالم . وأن ما يوجد من اختلافات يعزى إلى اختلاف البيئة الاجتماعية أي

أنماط السلوك والعادات . وقد عزا بعض المؤرخين اختلاف عادات الشعوب إلى اختلاف ظروف البيئة الجغرافية وخاصة المناخ . ويركز مونتسكييه ومدرسته أهمية خاصة على تأثير هذه العوامل الجغرافية . في حين أوضح فولتير أن هناك ثلاثة عوامل رئيسية تؤثر على تشكيل عقل الإنسان . وهي المناخ ونظام الحكم والديانة . كذلك اعتقد المؤرخون العقلانيون أن التقدم أمر حتمي وأن أعظم خطوة اتخذها الإنسان في تاريخه هي تحرير عقله من الخرافات والخوف مما وراء الطبيعة . ومن ثم فقد شعر هؤلاء المؤرخون بالرضا والفخر بعصرهم الذي فاق أى عصر سابق من عصور تاريخ البشر . فالعقل قادر على محو المفاصل المترسبة عن الماضي . على أن يقود البشر إلى حياة أفضل . وإذا كان التقدم قد ظل بطيئاً نسبياً حتى القرن السادس عشر فإن معدل الاستفادة البشرية تزايد بسرعة بعد ذلك .

ثم أن العقلانيين أضفوا على التاريخ السياسى أيضاً ثوباً جديداً وضاءً ، فلم يعد يقتصر على الدفاع عن التصرفات السياسية ، ولكنه أصبح بحق تاريخاً سياسياً ناقداً . كذلك لم يعد يحتكر كتابه هذا النوع من التاريخ أفراد الطبقات الحاكمة أو ممن يحظون بعطفهم ، بل صار كتابة التاريخ في ذلك الوقت في أيدي الطبقة البرجوازية الجديدة أو الطبقة الثالثة التي لم يكن لها نفوذ كبير في الحكومات الأوروبية . وهكذا غدا التاريخ أداة للنقد السياسى وحافزاً على الإصلاح ولكنه لم يصبح أداة للثورة إلا في القليل النادر . وكان هناك اعتقاد عام بأن من شارك بقدر أو بآخر في الشؤون العامة أقدر من غيره على معالجة التاريخ السياسى ، فإذا لم يكن المؤرخ من رجال الدولة أو الدبلوماسيين فلا أقل من أن يكون ممن نطلق عليهم رجال الإعلام .

وينبغي أن نذكر أن النقد البناء الذى جاء به العقلانيون انحصر أساساً في نظرتهم العامة إلى مادة التاريخ دون أن يكون لمصادر المعلومات نصيب كبير من ذلك التقدم . أما عن دراسة المخطوطات والمصادر المطبوعة ونقدتهم لها فإنهم لم يتخطوا ما وصلت إليه مدرسة مايبلون . وعموماً فإنهم استخدموا شئ من القدرة والتمييز المصادر المطبوعة التي توفرت لديهم .

وكذلك عنى المؤرخون العقلانيون عناية كبرى بالناحية الأدبية في أعمالهم ، وهم في هذا يشاركون مؤرخى المدرسة الإنسانية برغم ما بين المدرستين من خلاف واسع حول مدلول الفن الأدبى . فالمتعلقون لم يحاولوا الكتابة بأسلوب بلاغى لاتينى مصطنع ، محاكين شيشرون ولبنى وتاكيوس . وإنما كتبوا بأسلوب مباشر واضح وبلغات بلادهم ، وفي هذا يقول الأستاذ بلاك :

« لم تكن المسألة مجرد إيجاد الكلمات المضبوطة أو وصل الجمل ببعضها بشكل يجعل الترابط بينهما سهلاً ، بل لقد كان الهدف الدقيق بناء فقرات وفصول بأكملها بحيث يمكن

ضبط المعنى ويحيث يكون هناك ربط بين التفاصيل بطريقة فنية^(١)

وكان أبرز مظاهر الكتابة التاريخية للمدرسة العقلانية هو ما استهدفته من ربط الحقائق التاريخية بالإطار الاجتماعي الفلسفي للمدرسة الإنسانية وهو ما يمكن أن نصفه اليوم بهذه الكلمات .

«مما يكن من قصور عند مؤرخي القرن الثامن عشر فإنهم من غير شك قد توصلوا إلى حكم قوى واضح على الماضي ذلك أن القارئ لفوليتروهيوم يستطيع أن يفهم ماذا يريد كل منها أن يقول دون لبس أو غموض . فوضعا حقائق التاريخ الهامة في إطار عريض وأوضحا انعكاسها على الإطار الأخلاقي العام وقبائها على أسس اعتبارها نهائية ، سواء كانا على صواب أو خطأ في ذلك . وعلى هذا فإن أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ بوصفه أكثر من مجرد سرد للحقائق والذين يعتقدون أن الحقيقة التاريخية لا يمكن تذوقها أو تقديرها إلا إذا وضعت في إطارها الفلسفي ، هؤلاء وأولئك لن يملوا استحسان مؤرخي عصر العقل الذين ضربوا على مر الزمن أروع الأمثلة التي تبين كيف يمكن ربط ثقافة البشر ربطاً مفيداً بالماضي الذي نظر إليه الكثيرون وكأنه شيء لا حياة فيه ولا قيمة له^(٢)»

أما عن الفلسفة التاريخية الخاصة بالمدرسة العقلانية وهي تلك الفلسفة التي ارتبط بها كل كتاب تلك المدرسة والتي كانت إحدى دعائم كتاباتهم التاريخية كما حددت كثيراً من أهدافهم ومنهجهم في كتابة التاريخ ، فإنها توضح لنا لماذا ركز كتاب المدرسة العقلانية كثيراً على فكرة أن التاريخ فلسفة تعلم عن طريق المثل *Philosophy teaching by example* ، وهي العبارة التي تنسب إلى بولنجبروك وهو أحد السياسيين من رجال المدرسة العقلانية . ذلك أن حماسة رجال هذه المدرسة للتاريخ نبعت أساساً من اهتمامهم بالفلسفة الطبيعية الجديدة ومن رغبتهم في حل التناقض الظاهر بين افتراض وجود الشر في الكون وبين نظريتهم القائلة بطبيعة الإنسان الحيرة . وإزاء صعوبة إثبات صحة عقيدتهم بالنسبة لقوانين الطبيعة وطبيعة الرب ، اضطروا إلى تحكيم العقل فلهجثوا إلى فحص تحيرات الإنسان في الماضي على سطح الأرض فحصاً شاملاً دقيقاً أو حاولوا أن يثبتوا أنه حتى إذا كان الشر موجوداً في الكون فإن الشر في الإنسان لا يوجد ألا إذا اعتنق الإنسان ديانة أو عقيدة خاطئة دون تعقل وكان أن ظهر لهذا الشر عند الإنسان في الماضي في تلك ، العصور النعسة ، عندما سيطرت عليه ناحية الديانة وخاصة المسيحية وطمست طبيعته الحيرة . وعلى العكس فإن خبرة الإنسان في العصور السعيدة عندما لم تستطع الديانة ولا الكنيسة أن تسيطر عليه — توضح ما يمكن أن

(1) J. B. Black. The Art of History (F. S. Crofts and company 1926) pp. 17-18.

(٢) المرجع السابق ص ٧ ..

يصل إليه الإنسان من مستوى عال وسلوك طيب في ظل الظروف الطبيعية . وهكذا تبين أن للتاريخ «فلسفة ذات مثل الأمر» الذي ساعد على إظهار الجانب الأخلاقي في المذهب العقلاني . ويمكن وصف هذه المدرسة بأنها تناقض طريقة أورزيوس وأوغسطين . ومن هنا ينبع اهتمام المؤرخين العقلانيين البالغ «بالصيني السعيد» والهنود الأمريكين وغيرهم ممن كانوا بعيدين عن قيود الكنيسة وسيطرتها ، فضلاً عن اهتمامهم الزائد بالإسلام والثقافة الإسلامية . وعلى الرغم مما تميزت به المدرسة العقلانية من موضوعية فإن المغزى الأخلاقي من سردهم للتاريخ ظل ثابتاً لا يتغير سواء أكان الموضوع هو تاريخ إنجلترا أو انهيار الإمبراطورية الرومانية أو العصور الوسطى . لقد كانت استنتاجاتهم العامة موضوعة مقدماً قبل أن يبدأوا أبحاثهم . وكانت لديهم فكرتهم عن الإنسان قبل لجوئهم إلى التاريخ يستمدون منه المعلومات التي تسير أفكارهم وتؤديها .

يعتبر فرانسوا آرويه François Arouet المعروف بفولتير (١٦٩٧ - ١٧٧٨) مؤسس المدرسة العقلانية في علم التاريخ ، بوصفه العقل الكبير الموجه لها . والواقع أن أعماله جاءت محققة لبعض ما تطلع إليه منذ زمن فرانسيس باكون وفينلون ، وآخرون من ضرورة وجود كتب تعالج التاريخ الفكري والثقافي والاجتماعي . أما العوامل الرئيسية الكاثنة وراء فلسفة فولتير السياسية والتاريخية فهي إيمانه بالعلم والعقل وإعجابه الشديد بالحضارة الإنجليزية في عصره وقدرته التي لا مثيل لها في النقد . لقد رأى في إنجلترا على عهد والبول مثله الأعلى في السياسة والدولة ، لأنه جعل من نفسه مدافعاً عن نظم الحكم المستنيرة التي تسمح للطبيعة البرجوازية بأن تتطور ثقافياً واقتصادياً تطوراً حراً . لذلك ارتبط حرصه على وجود حركة إصلاح في فرنسا بالرغبة القوية في أن تأخذ هذه الحركة بما هو موجود فعلاً في إنجلترا . ويرى فولتير أن العقل يمكن المؤرخ من علاج الماضي علاجاً يتسم بالذكاء والقدرة على الاستفادة منه ، كما يمكن رجل السياسة في الحاضر من العمل لخلق عالم أفضل أمام الإنسان . ولا يوجد في أي عصر من يداني فولتير في عظمته كناقد ، لأنه لم يكن في نفسه أي احترام زائف لأي نظام . ومن ثم فقد كانت لديه الحرية التامة لأن يعبر عن تحديه لكل مظاهر الركود الفكري .

وأول كتاب تاريخي هام لفولتير هو كتابه الذي كتبه سنة ١٧٣١ م عن حياة الملك شارل الثاني عشر ملك السويد . وعلى الرغم مما يفتقر إليه هذا العمل من تقدير لمنطق الأحداث والنظم الدستورية - وهي النواحي التي أسهمت في هزيمة شارل أكثر مما أسهم به بطرس الكبير - على الرغم من هذا فإن الكتاب يعتبر تحفة أدبية رائعة ، ويعطيناً وصفاً لا مثيل له لشخصية شارل . ويقول عنه الأستاذ بلاك :

« لا يوجد في هذا الكتاب ما يمكن اعتباره مادة زائفة لا لزوم لها ، فضلاً عن أنه بعيد عن المغالاة في الاستنتاجات ، والمبالغة في المحسنات دون محاولة من الكاتب لإقحام آرائه . إن كل سطر فيه يتميز بالاختصار والدقة وسهولة الفهم ، الأمر الذي جعل شخص الملك شارل الثاني عشر يبرز من المتن وكأنه منقوش على لوح من الصلب . »^(١)

(١) Black, op. cit pp. 63-64.

أما أروع أعمال فولتير التاريخية فهو كتابه الذى صدر سنة ١٧٥١ بعنوان عصر الملك لويس الرابع عشر ، ويصف فيوتر هذا الكتاب بأنه ، « أول كتاب تاريخي بالمعنى الحديث » . ففي هذا الكتاب نجد فولتير وقد تحلى تماماً عن طريقة الكتابة على منهج الحوليات ، أو حتى الالتزام بتتابع زمنى معين ، بل نظم كتابه تنظيمًا موضوعيًا . ولأول مرة نجد في هذا الكتاب وصفاً لحضارة دولة أوربية عظمى من جميع جوانبها وعناصرها . لذلك يعتبر هذا الكتاب من وجهة النظر الناقدة من أعظم الأعمال . ويتضح منه أن فولتير قرأ كثيراً وبإمعان وذكاء قبل أن يشرع في تأليف كتابه . كما أنه لم يترك مصدراً من مصادر ذلك العصر إلا ورجع إليه واستفاد منه .

ثم إن عرض فولتير لعصر لويس الرابع عشر لم يكن مجرد تجميع ماهر للحقائق والأحداث ، وإنما كان محاولة كبرى لعرض تيارات التطورات الرئيسية في حياة دولة (فرنسا) لها جوانب قوتها ، فضلاً عن أنه دراسة لمجتمع مثقف مع ربط ذلك كله بالنواحي السياسية السائدة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب اتصف بما كان للمدرسة العقلانية من نظرة دولية ، فجاء بعيداً عن روح العصبية الوطنية وهى الروح التى شوهت أعمال المؤرخين السياسيين فى القرن التالى . كذلك أبرز فولتير محاسن ومساوئ لويس وعصره بقدر متعادل من الوضوح والصراحة . فنراه يدين بشدة حروبه وتعصبه الدينى الممقوت ، كما نراه يثنى على النشاط الثقافى فى فرنسا . والحق أن كتابه هذا يعتبر تحفة أدبية رائعة ، وإن كان أهم ما يؤخذ عليه هو أن فولتير لم ينجح فى ربط عصر لويس بالتطور العام للحضارة الأوربية ، ولم يحاول أن يضع هذا العصر داخل الإطار العام لتطور الثقافة الحديثة ككل .

أما كتابه «مقاله فى سلوك الأمم وروحها» (١٧٥٦) ، فهو وإن كان أقل شمولاً من الكتاب السابق ، إلا أنه لا يقل عنه أهمية . ذلك أنه يعتبره أول تاريخ عالمى بالمعنى الحقيقى للعبارة ، ووضعت خطته على أساس أن يكون تاريخاً شاملاً لثقافة كل العصور وكل الشعوب . وعلى الرغم من أن فولتير لم يكن لديه من الوقت والمعرفة ما يؤهله لتنفيذ هذه الخطة بنجاح ، وعلى الرغم مما بهذا الكتاب من عيوب وثغرات خطيرة ، إلا أنه يعتبر من أهم العلامات على طريق تطور الكتابة التاريخية . ذلك أن هذا الكتاب يعتبر فعلاً أساس تاريخ الحضارة بمعناه الحديث ، فضلاً عن أنه أول عمل ينصف غير المسيحيين وخاصة الشرقيين والمسلمين ، ويقر بدورهم الذى أسهموا به فى تطور الحضارة الأوربية . هذا إلى أنه من أوائل الكتب التى أوضحت علاقة التاريخ السياسى بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى إطار التطور العام للبشرية . وأخيراً فإن هذا الكتاب قضى نهائياً على فكرة تفسير أحداث التاريخ فى ضوء التدابير الإلهية وهى الفكرة التى سادت منذ عهد أورزبوس حتى بوسويه .

وثمة ميزة أخرى اتسمت بها أعمال فولتير وهى عدم تقيده بتلك الدائرة الضيقة التى

الترم بها المؤرخون والتي جعلتهم ينظرون إلى الأحداث من وجهة نظر أوربية بحتة . ذلك أنه لم يكف بمعالجة الحضارات القديمة وإنما تناول كذلك الشعوب البدائية التي اكتشفت مؤخراً ، كما أنه ساعد على تحطيم الاتجاه الذي ساد على أيدي رجال المدرسة الإنسانية لتقديس كل ما هو كلاسيكي . كذلك لم يحفل بالمصلحين البروتستانت لأن اعتقادهم في قوى الغيب وتعصيم الدين جعله ينفر منهم . ولكن عصر العقل هو الوحيد الذي حظى باحترامه وتقديره وإن كان لم يصل للحديث عنها في المقالة السابقة لأنه أنهاها بحكم لويس الثالث عشر . وينظر فولتير إلى التاريخ على أنه في أساسه نتاج احتكاك الأفكار والحضارات . فالمسيحية جاءت لتتحدى الوثنية ، والإسلام دخل في صراع مع المسيحية ، والمذهب البروتستانتي ظهر ليتحدى الكاثوليكية التي كانت سائدة في العصور الوسطى . أما عصر فولتير نفسه فقد تغلب فيه العقل على كل الخرافات وشقي البدع . ولعل العيب الأكبر في كتابه « المقالة » هو عدم اكتماله وأفتقاره إلى الوحدة . كذلك فإنه لم يربط حديثه عن الثقافة البدائية وثقافة الشرق القديم ببقية حديثه عن الثقافات فجاء الحديث عنها بالخروج عن الموضوع الأصلي في بداية الكتاب . هذا إلى أن فولتير مر سريعاً على العصور الموهلة في القدم ، ولم تأخذ روايته وضعها الصحيح إلا منذ عهد شارلمان . أما علاجه لفترة العصور الوسطى فجاء غير متناسق تنقصه الوحدة .

وكان أبرز تلاميذ فولتير من الفرنسيين هو الفيلسوف ايتين دي كونديلاك (١٧١٥ - ١٧٨٠) الذي نشر كتابين هما « التاريخ القديم » و « التاريخ الحديث » . وفي هذين الكتابين نجد قدراً من المادة في مجال الفكر والثقافة والاجتماع وأكثر مما جاء به فولتير . ذلك أن ايتين تناول العصر العقلاني تناولاً شاملاً ، وصاغ بوضوح ودقة آراء العقلانيين حول المسيمات التاريخية ، فضلاً عن أنه ركز كثيراً على الفنون والعلوم ، بل لقد تناول بالتفصيل في كتاب خاص تأثير التجارة على السياسة والحكومة .

ولم تلبث طريقة فولتير في معالجة التاريخ أن صار لها صدى هام في إنجلترا واسكتلنده على أننا نلاحظ فرقاً واضحاً وهاماً ، بين فولتير والمؤرخين الإنجليز ، وهو أن أولئك المؤرخين لم تكن لديهم دوافع قوية للإصلاح وكانوا قانعين تماماً بالأحوال التي سادت ذلك العصر ، ومؤمنين بأن النظم الإنجليزية تتميز بالكمال والتمام ، وهو الأمر الذي ظهر جلياً في مؤلفات بلايستون عن القانون ، وهي المؤلفات التي أثارت غضب بيتام فيما بعد . وربما نجد تفسيراً جزئياً لهذه الظاهرة في الحقيقة الخاصة بأن الثورة البرجوازية في إنجلترا جاءت متأخرة إلى حد ما لأنها لم تتم إلا في القرن السابع عشر . أما في فرنسا فإن الثورة كانت أمراً محتملاً بحكم رصوخها تحت حكم ملكي مستبد ونظام إقطاعي متداعي ، ومن ثم كان اهتمام المفكرين والمؤرخين الفرنسيين بالإصلاح كبيراً وعميقاً ، فضلاً عن أن إيتيادهم عن السياسة جعلهم يركزون على مسائل الفكر حتى يصلوا إلى حرية الرأي .

وخير مثال يعبر عن اتجاهات الكتابة التاريخية في إنجلترا في ذلك العصر هو إدوارد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦ م) مؤلف كتاب «تاريخ إنجلترا من غزو يوليوس قيصر حتى ثورة ١٦٩٨». ولم يكن هيوم أحد أولئك المؤرخين الذين قلدوا فولتير لأنه فرغ من كتاباته التاريخية قبل أن يكتب فولتير كتابه «عصر لويس الرابع عشر» وكتابه «المقالة» ولكن الحقيقة هي أن كليهما كان متأثراً إلى حد بعيد بذلك الحشد الهائل من الأفكار التي سادت عصر الاستنارة. كما لاحظ أحد النقاد فإن هيوم كتب مؤلفاته في التاريخ كما يتلو السحرة تعاويذهم، بمعنى أنه ابتداءً من عصره ثم جعل يعود إلى الوراء. فثلاً ظهرت المجلدات الخاصة بتاريخ ملوك أسره استيوارت (١٦٠٣ - ١٦٨٨) في سنة ١٧٥٠ ونظراً لما أثارته هذه المجلدات من عاصفة فقد كتب يدافع عنها سنة ١٧٥٩ فجاءت كتاباته عن أسره تيودور بعد ذلك. وحتى بكل الصورة ويستمر في جذب انتباه القراء كتب عن الجزء المبكر من تاريخ إنجلترا من عهد قيصر حتى عهد الملك هنري السابع (١٧٦٢). ومهما يكن من أمر فإن ما كتبه هيوم يعتبر في مجموعه أول تاريخ «قومي» كامل لإنجلترا. وكان لهذه الحقيقة، بالإضافة إلى أسلوبه المشوق ومذهبه العقلاني المشهور أثر في رواج كتابه بصورة لا مثيل لها مما جعل له تأثيراً ثقافياً هائلاً.

ولم يقم هيوم بجمع مادته بنفس الطريقة الشاملة الحاشدة للمعلومات التي استخدمها فولتير في كتابه المقالة أو بشكل أوضح في كتابه عصر لويس الرابع عشر وإنما كل الذي فعله هيوم هو أنه قرأ جيداً أعمال المؤرخين السابقين. وكان متأثراً بصفة خاصة ولسوء الحظ بما كتبه كلارندون عن تاريخ الحرب الأهلية الكبرى. لذلك نلمس من الناحية الأكاديمية تقصيراً بالغاً في أعمال هيوم كما نلاحظ كذلك اخفاقة في تقديم سرد منظم للقارئ، حتى إن كتاباته تبدو في بعض الأحيان وكأنها مذكرات غير منظمة. وظهر ذلك بصفة خاصة في الأجزاء التي تناول فيها الأفكار والعادات والسلوك، وهي الأجزاء التي كان ينبغي أن تظهر فيها براعته وقوته. وعلى العموم فإنه يمكن القول بأن قدرة هيوم الذهنية فاقت بدرجة كبيرة قدرته على الإنتاج كمؤرخ محترف، بحيث امتلأت كتبه بالمسائل الفلسفية والملاحظات القوية وروح التشكك أكثر مما امتلأت بحقائق التاريخ ولعل هذا هو الذي أعطى هذه الكتب قيمة دائمة. أما إذا نظرنا إليها من زاوية التاريخ فإننا نجد أنها عرضاً فقيراً للتاريخ الإنجليزي. ولم تكتسب هذه الكتابات صفة الخلود إلا نتيجة لقدرة هيوم الذهنية وهي القدرة التي جعلت المادة التاريخية طيعة بين يديه بصوغها كيف شاء.

لقد اعتبر هيوم التاريخ سجلاً لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية، ولكنه آثر في نفس الوقت أن يكتب تاريخاً سياسياً. ولذلك سارت كتاباته على نمط ثابت يستهدف إبراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والأخلاق والدين هي التي تشكل السياسة. فهو يحكم على السياسة من وجهة نظر العلم والفلسفة والدين والأخلاق. ولم تكن لديه رغبة في نهية الناس

لثورة إذ استهدف من كتاباته أن تكون ممتعة وذات قيمة ثقافية لاغير ، أو باختصار أراد أن يرفع مستوى السفسطة المذهبية ، لقد كان عداؤه للخرافات وترمت المسيحية مبعث احتقاره للعصور الوسطى التي اعتبرها ألف سنة من الفراغ الثقافي أو منخفض هائل في الخط البياني للتقدم البشرى . وأثر هذا الاتجاه على نظرة هيوم إلى حركة الإصلاح الديني والصراع الإنجليزي الدستوري في القرن السابع عشر . ودفع هيوم لاتخاذ موقف معاد من حركة الإصلاح الديني ومن الصراع البيورطاني ضد الملكية الإنجليزية نتيجة لتعصب المصلحين البروتستانت والأفكار الأخلاقية البيورطانية التي تم عن ضيق الأفق . ولهذا انهم بأنه من أنصار المحافظين في السياسة والتاريخ ، وهو أمر يخالف الحقيقة . حقيقة أن هيوم وقف موقفاً معارضاً من حزب الأحرار ، ولكن ذلك مبعثه كان تحرره الأخلاقي والديني ورفضه لفكرة الثورة . وعلى الرغم مما تعرض له تاريخ هيوم للقرن السابع عشر من نقد مرير فإنه ليس هناك عمل آخر وصل إلى ما وصل إليه عمله ، وذلك بسبب نظره للحركة نظرة لا تغلب عليها نظرة تاريخية متحيزة . وعلى حد قول الأستاذ بيردون عنه :
« لقد حاول هيوم في كتبه عن اسرة استيوارت أن يعالج صراعات القرن السابع عشر بروح محايدة مع العناية بدرجة كافية بالاطار الذي تمثلت فيه مطالب الملك والبرلمان وادعاءات كل فريق . واعتقد هيوم أن كثيراً مما بدا للملك من أسره استيوارت أنه قانوني ودستوري اعتبر هجوماً على الحريات العامة في القرن التالي . وأكد كذلك أن الدستور لم يكن واضح الخطوط حتى سنة ١٦٨٨ . وبهذا أضفى هيوم شيئاً من الواقعية على روح الحزبية التي كانت تسود جو المناقشات في القرن السابع عشر . »^(١)
يضاف إلى ذلك أن نظرة هيوم إلى الدين ساعدت على توضيح الحقائق التاريخية لأن هذه النظرة صححت ما سبق ظهوره من تاريخ متحيز متعصب للكنيسة الإنجليزية ، وما كتبه المتزمتون من الكاثوليك والبروتستانت عن التطور الديني في إنجلترا . وأخيراً فإن ما نختم به حديثنا عن هيوم هو ما كتبه الأستاذ بلاك ملخصاً أهمية أعمال هيوم وقيمها الدائمة :
« إننا نقرأ هذه الأعمال اليوم بنفس الاهتمام واللذة اللذين قرأت بها عندما ظهرت في عصر هيوم . وهناك كثير من الدارسين ، داخل أو خارج نطاق محترفي دراسة التاريخ وكتابته يرون في أعماله غذاء ومنتعة . وإن سلاسة الأسلوب الذي كتبت به هذه المجلدات وقوته ووضوحه ، فضلاً عما تحويه من عمق وحكمة وخبرات مركزة جعلت منها ما كان يرجوه لها هيوم وهي أن تكون كتابات مشوقة تزود القارئ بالعلم والثقافة لأقصى درجة »^(٢)

(1) T.P. Peardon, The Transition in English Historical Writing 176- 1830 (Columbia University press 1933). p. 20.

(2) black Op. cit. p. 116.

أما المؤرخ الأسكتلندي ولیم روبرتسون (١٧٢١ - ١٧٩٣ م) فقد فاق هيوام مقدرة الفنية حتى إنه يعتبر أقدر المؤرخين فنياً في المدرسة العقلانية الإنجليزية بحيث لا يدانيه في قدرته سوى جيون . والواقع أن روبرت اتصف بكافة المواهب التي يمكن أن يتحلى بها عالم ، فعلم في جد وذآب ليتمكن من مادته واستخدم مصادره استخدام المتمكن ، كما تميز بتبجيله للحق . ويشهد له الأستاذ بلاك فيقول : « تميزت كتابات روبرتسون التاريخية بالدقة والصدق » ثم إن روبرتسون كتب بطريقة واضحة ومؤثرة متخثرة من التصنع البلاغي ، واتخذ من سوفيت وديفو Defoe نموذجين يحتذيها في الأسلوب الأدبي . ويمكن أن نشير إلى أن إعجاب جيون بأسلوب روبرتسون كان أحد الأسباب التي دعت إلى وضع مؤلفة التاريخ العظيم . كذلك كان روبرتسون يؤمن بأن التاريخ يعالج المسائل العظيمة ويسرد أعمال الشخصيات الكبرى فضلاً عن الشخصيات العادية التي لها مكانتها الهامة وهذا ما جعل من الصعب عليه أن يعطى اهتماماً كافياً للتاريخ الثقافي والاقتصادي والاجتماعي ، حيث إن تجانباً كبيراً من هذه النواحي تناول أموراً عادية وعامة سواء من ناحية الأحداث أو من ناحية الأشخاص . ومن ثم فإثنا نجد أن التاريخ السياسي لا يمكن أن يكون غير دراسة سطحية للجوانب السياسية والعسكرية .^(١) ومع ذلك فإن روبرتسون لم يغفل وجود العناصر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في التاريخ ، فيشير إليها كثيراً وإن لم تكن المادة الأساسية لأعماله . ويلاحظ أن روبرتسون كان من أقل مؤرخي المدرسة العقلانية في إنجلترا أقلهم تحسناً بأصول هذا المذهب ، لأنه أمضى شطراً من حياته قسيساً بروتستانياً وكان يعتقد أن حركة الإصلاح الديني هي أصلاً من تدبير العناية الإلهية . وعلى الرغم من أنه لم يكن بروتستانياً متعصباً فإن استحسانه للمدرسة العقلانية ظهر بصفة رئيسية في تناوله لتاريخ الكنيسة الكاثوليكية . وأعمال روبرتسون الرئيسية هي : « تاريخ اسكتلندا (١٧٥٩) » و « تاريخ عهد الإمبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) و « تاريخ أمريكا (١٧٧٧ - ١٧٩٤) » ، « دراسة تاريخية عن الهند في العصور القديمة » (١٧٩١) . ويجمع معظم النقاد على أن كتابه عن تاريخ الإمبراطور شارل الخامس هو أحسن ما أنتجه روبرتسون . ولكن الأستاذ بلاك وهو أكبر حجة بين النقاد الإنجليز عن روبرتسون يميل إلى تفضيل كتاب « تاريخ أمريكا » . على أن كتاب « تاريخ اسكتلندا » باعتباره كتاباً تاريخياً كاملاً ومتكاملاً - لا بد أن يأتي على رأس القائمة مثلاً يحتل كتاب فولتر « عصر لويس الرابع عشر » الصدارة بين مؤلفاته وخاصة « المقالة » بوصفه كتاباً متكاملاً يتسم بالوحدة والترابط . ذلك أن روبرتسون فاق مؤرخي عصره عندما عالج تاريخ اسكتلندا ، إذ اطلع على معظم المصادر المتوفرة واستقى منها ما رآه مناسباً وعالج مادته بطريقة معقولة تتسم بعدم التحيز . ثم استطاع أن ينسج كل شيء في أسلوب مبسط شيق رفيع ، مما جعل الهوة سحيقة بين أعماله وأعمال بورشان Buchanan

W.C. Abbott: Adventures in Reputation (Harvard University press 1936)

(١) بالنسبة للدفاع المعاصر عن هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ انظر

أما عظمة كتابه «شارل الخامس» فترجع بدرجة كبيرة إلى تحليل روبرتسون الفلسفي للعصور الوسطى ، وهي الدراسة التي ظهرت في صورة جزء مستقل لتكون بمثابة مقدمة لدراساته التي بدأت في القرن السادس عشر . وقد سميت هذه الدراسة «نظرة على حالة المجتمع في العصور الوسطى» . وتفوق هذه الدراسة في مستواها العلمي وفي حجمها الأجزاء التي كتبها فولتير عن العصور الوسطى في كتابه «المقالة» . والواقع أنه ليس هناك ما يفوق نظرة روبرتسون وشرحه للعصور الوسطى بين كل كتابات القرن الثامن عشر سوى أعمال جيون . والحق أن روبرتسون كان قاسياً إلى حد ما في نظره إلى العصور الثقافية في العصور الوسطى على الرغم من أنه لم يتطرق في الحكم عليها كما فعل هيوم . كذلك لم يتطرق في عدائه ضد الكاثوليكية مثلاً فعل فولتير . هذا إلى أنه من أوائل المؤرخين الذين أوضحوا طبيعة التطور السياسي وتطور النظم في العصور الوسطى فأبرز دور العوامل الاقتصادية والثقافية التي أسهمت في تقدم تلك العصور ومن بين هذه العوامل الحروب الصليبية والتطور التشريعي ونمو المدن والنشاط التجاري وما شابه . ذلك كذلك يلاحظ أن روبرتسون كان مبالغاً بعض الشيء في تصويره لأثر الحروب الصليبية وأنه أحيأ أسطورة العام الألف والتي ابتدعها ألف الأصمعي وانتقلت عنه عبر حوليات يارونيوس . وإذا كان كتاب روبرتسون عن «شارل الخامس» كتاباً طويلاً ويبحث على السأم إلى حد ما - فإن أهم ما فيه هو ذلك الاهتمام الذي أبداه الكاتب بالأسباب «الثانوية» لحركة الإصلاح الديني ، وهي على وجه التحديد : فساد الكنيسة ، وزيادة الضرائب البابوية زيادة كبيرة ، وإحياء العلوم ، واختراع الطباعة وما إلى ذلك . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يعط اهتماماً كافياً لعنصر القومية فضلاً عن عناصر أخرى مثل نشاط التجارة وظهور الطبقة الوسطى ، فإنه أحسن الكتب التي عالجت حركة الإصلاح الديني والتي ظهرت ما بين قيام هذه الحركة وعصر روبرتسون . ولما لاشك فيه أن روبرتسون كان من أتباع مارتن لوتر ذوى النفوذ والمكانة وأنه كان يشايع سائر المصلحين الدينيين

أما كتاب روبرتسون «تاريخ أمريكا» فإنه يعتبر بحق أكثر أعماله دقة وابتكاراً ويفوق غيره من ناحية المعلجة المثيرة والمعبرة عن الموضوع . وكانت طبيعة المادة التي تناولها تدفع به إلى عدم التقيد بمستوى الكتابة التاريخية التقليدية والاهتمامات التاريخية المألوفة ، فاقبجه إلى الإفاضة في الحديث عن السلوك والعادات والأصول الجغرافية للثقافة الأمريكية في مراحلها الأولى فضلاً عن مغامرات المكتشفين والفاتحين . ومع ما هنالك من ضعف ملحوظ في مناقشات الكتاب لموضوع السكان الأصليين . فإنه يعطينا عرضاً رائعاً لحياة ومغامرات المكتشفين والفاتحين . والواقع أنه أحسن كتاب ظهر في ذلك العصر وعالج طبيعة النظام الاستعماري الأسباني وتطوره وكان روبرتسون أول من أثار فكرة أن الهنود الأمريكيين تزحوا إلى أمريكا عن طريق مضائق بيرنج وألاسكا ، وهي الفكرة التي أصبحت تمثل الرأي المقبول في هذه

القضية . والملاحظ أن روبرتسون وضع كتابه «دراسة عن الهند» في شيء من العجلة ، ومع ذلك فهو عمل له أهمية لما يلقيه من ضوء على أهمية ومدى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب في الأزمنة القديمة والعصور الوسطى .

أما أبرز الكتاب بين مؤرخي المدرسة العقلانية فهو المؤرخ والكاتب إدوارد جيون (١٧٣٧ - ١٧٩٤ م) . ومع أن جيون كان أقل ابتكاراً وتأثيراً من فولتير على مجرى الكتابة التاريخية في العصور التالية ، كما أنه لم يكن على مستوى روبرتسون في علمه ، إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين - غير المؤرخين المحترفين - فاقت شهرة كل من فولتير وروبرتسون . ويرجع ذلك إلى عدة ظروف أولها : أن موضوع بحثه الخاص : يانهار الحضارة الرومانية والأنظمة الإمبريالية كان مقصوداً به أن يأخذ بالباب الجماهير ، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم . ثم إن جيون نظم عمله بطريقة فذة ، وكان أسلوبه رفيعاً ومؤثراً يدخل السهجة على نفس قارئه ، فضلاً عن أن عمله يتميز بدقة متناهية وهو أمر مدحش بالنسبة لعصر جيون . ولقد ظل كتابه مرجعاً يهتدى به ومصدراً لا يرقى إليه الشك طوال قرن ونصف . وعلى هذا فإن كتاب «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» لم يكن كتاباً رائجاً مشهوراً فحسب بل وعملاً خالداً .

وعلى عكس كثير من أعلام مؤرخي المدرسة العقلانية ، كرس جيون حياته بصفة رئيسية لدراسة التاريخ وكتابته . فعلى حين كان فولتير أديباً ومصلحاً وزعيماً شعبياً ، وكان هيوم فلسفياً كما كان روبرتسون رجل دين ومدير جامعة ، إذا بجيون يعد نفسه منذ البداية لمهنة المؤرخ . ولهذا قرأ كثيراً عن التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى وإن اعتمد أساساً على المصادر المطبوعة ، كما أن اهتمامه بالبحث في المخطوطات كان ضئيلاً . ثم إن جيون كان يعتبر المؤرخ مهتماً عظيماً يقوم بمشروع أدبي علمي ، ولم ينظر إليه أبداً كمجرد ناسخ للوثائق أو كاتب أبحاث ، وهو ما أل إليه أمر المؤرخ في أيامنا هذه . وبينما هو يعتقد في سمو المؤرخ الحقيقي على غيره من الكتاب الذين اهتموا بجمع المادة عن موضوع معين ، فإن جيون لم يدرك تماماً أن الكتب التاريخية في شكلها الحديث لم تكن لتوجد لولا ما قام به هؤلاء الذين جمعوا الحقائق في الماضي .

وقد تبخر جيون في تاريخ روما القديم ، وكانت خطته الأصلية هي أن يكتب تاريخاً لروما حتى عهد أوغسطس . ولكنه قرر في سنة ١٥٦٤ م أن يتناول تاريخ روما منذ عهد أوغسطس حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية ١٤٥٣ م . وكانت النتيجة مؤلفه الرفيع العظيم الذي أسماه «تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» (١٧٧٦ - ١٧٨٨) . وجاء كتابه ملئاً بالتفاصيل عن الفترة من سنة ١٨٠ م إلى ٦٤١ م ، ثم قدم بعد ذلك عرضاً مختصراً عن التطورات منذ سنة ٦٤١ م حتى سنة ١٤٥٣ م . أما ماتلا ذلك من

أحداث فقد عرضه جيون عرضاً سريعاً فثلاً أعطانا ملخصاً سريعاً لتأثير حركة الإصلاح الديني وتأثيرها على الثقافة والنظم .

كانت الروح الفلسفية أقل ظهوراً في كتاب جيون مما كانت في كتب غيره من مؤرخي المدرسة العقلانية أما كتابته فكانت أقرب إلى الملاحم الأدبية ، لأنه اهتم بالأسلوب والشكل أكثر من اهتمامه بالمغزى الفلسفي العملي . وتركت الصورة العامة لكتابه أثراً بالغ العمق في عقول الناس ، حتى وصفه كثيرون من رجال الأدب والبيان أوصافاً مختلفة عند رجوعهم إليه ، فوصفوه بأنه « انتصار لروما » و « ختام رائع لتاريخ الإمبراطورية » و « أشبه بكاتدرائية قوطية عظيمة » أو « أشبه بقاعة استقبال فاخرة في قصر لويس الرابع عشر » أو بأنه « قمة جبل شامخ يختلف منظرها باختلاف الضوء والظل » ، و « صخرة عظيمة تتحطم عليها أمواج الزمن » وغير ذلك من الأوصاف . أما أسلوب جيون فتال كل إعجاب واستحسان فكتب فريدريك هاريسون عنه فيقول :

« ترع جيون فوق قمة الفن الأولى ، إذ كانت له القدرة على أن يجعل جبلاً من البحث الدقيق إلى كتلة متماسكة تنبض بالحياة في كل جزء من أجزائها . إنه لكتاب رائع إذا ما نظرنا إليه ككل » ولعل أحسن تلخيص لمواهب جيون الأدبية التي تشكل ركناً هاماً بارزاً في كل أعمال ما كتبه الأستاذ بلاك : « إن سمو الأسلوب وعظمته وجاذبيته تمشي تماماً مع عظمة الموضوع وسموه ... فجيون لا يأتي بالحقيقة عارية بطريقه سهل فهمها على النحو الذي تترامى له ، وإنما لابد وأن تدخل في سلسلة من تفاعلات غامضة ومعقدة تخرج بعدها في صورة يشهد لها الجميع بأنها مصقولة منمقة وسمية ذات زخرف بديع . ومن يقرأ كتابه « اضمحلل الإمبراطورية وسقوطها » كما أراد صاحبه أن يقرأ - أي بإمعان وتأمل وتقدير ومراعاة لذكاء المؤلف القذ - فإنه لن يجد في العالم كله وثيقة أكثر منه روعة وأخذاً بالألباب . حقيقة إنه كتاب مطول يفيض بالحصانة والمعرفة التي قد يتحير القارئ في فهمها ويقف عاجزاً أمامها ولكن خفته وحيوته لا تبارى . إن جاذبية أسلوبه قادرة على استيعاب أي شيء في حديثه عن الحروب الفارسية والبيزنطية التي لانهاية لها إلى الخلافات الدينية داخل الكنيسة في أيامها الأولى إلى إصلاحات جتيان الدينية »⁽¹⁾ .

ويبدو أن جيون تأثر كثيراً بمؤرخي روما العظام . فن المؤرخ الروماني الأشهر ليفي أخذ جيون فكرة السرد الملحمي القصيح ، ومن تاكيوس أخذ النظرة الفلسفية العملية إلى مادة التاريخ ، ومن بوليبيوس أخذ مراعاته الدقة والتزامه لها وتقديسه إياها ، فضلاً عن الوعي التام للأمور العامة . ومن ناحية أخرى نراه متأثراً بآراء هؤلاء المؤرخين عن المادة التاريخية . فهو يرى

(1) Black op. cit, 144, 175.

أن الحروب وإدارة الشؤون العامة ينبغي أن تكون للموضوع الرئيسى للتاريخ ، وعلى الرغم من أننا نجد في كتابه بعضاً من التاريخ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، إلا أن ذلك كان أمراً عارضاً تماماً . هذا إلى أن أسلوبه الرفيع لم يكن يتناسب مع معالجة هذا النوع من الكتابة التاريخية .

وعلى الرغم من أن جيون كرس جهده بإخلاص لروما وتاريخها واعتبر سقوطها كارثة عالمية وعالج تاريخ روما علاجاً مطولاً ، إلا أنه لم يأت بتحليل علمى منظم . حقيقة إنه ذكر معظم الأسباب التى أدت إلى سقوط روما التى أقرها اليوم المتخصصون فى التاريخ ، لكنه لم يحسن صياغة هذه الأسباب ولم يؤلف بينها فى نظرية واحدة تفسر سقوط الإمبراطورية الرومانية . وأكثر تفسيراته الجامعة والتى استقاها من مونتسكييه هى أن الإمبراطورية الرومانية أصبحت شاسعة جداً ولكنه لم يوضح أن هذا الاتساع كان ممياً لها لسبب رئيسى وهو افتقار الإمبراطورية للأساليب الحديثة فى الصناعة وإلى طرق النقل والاتصال المباشرة ربما كان لجيون العذر ، كان يكتب فى وقت لايسمح له بالإحساس بأهمية هذا العامل .

ومن أبرز عناصر التجديد التى أدخلها جيون على كتابة التاريخ علاجه لأصول المسيحية . وهو أمر كان مهياً له تماماً بحكم دراسته وخبراته الشخصية . ذلك أن جيون كان على التعاقب بروتستانتيًا ثم كاثوليكيًا ثم ربيعاً آمن بوجود الله عن طريق العقل وحده . وقد ألف كتابه العظيم وهو فى هذه الحالة الأخيرة . لكن اعتراضه على المسيحية لم يكن بتلك الدرجة الكبيرة التى صورها بيورى وآخرون من ناقدى جيون . والواقع أن جيون شارك هيوم رايه فى أنه ينبغي النظر إلى الدين كما ننظر إلى أى نظام اجتماعى آخر - أى بطريقة طبيعية . ولذا فإنه عالج نشأة المسيحية لأول مرة بطريقة موضوعية بحثة وعلل لئوها وتطورها بنفس الطريقة التى كان يستخدمها لو أنه تعرض لتطور أى ديانة أخرى أو أى نظام علمانى . وخلاصة القول إنه عالج المشكلة من الناحية التاريخية لا من الناحية الدينية وأنكر وجود شئ خارق فيها أو أى تأييد من قوى ماوراء الطبيعة . وكان جيون عنيفاً فى نقده للأثار التاريخية الخاصة بالمسيحية فاعتبر أن الإمبراطورية الرومانية أعظم ما أنتجه الجنس البشرى وأن المسيحية قد لعبت دوراً هاماً فى إضعافها وتقويضها ، ومن ثم فإنه ناصبها العدا . ومع ذلك فإنه أشاد بقوة هذه العقيدة وتماسكها وخاصة بعد الوهن الذى أصاب الدولة . كذلك لم يغفل جيون الخدمات الثقافية التى أدتها الكنيسة خلال العصور الوسطى . وذلك على الرغم من انتقائه إلى المدرسة العقلانية التى لا تنظر باحترام كبير إلى عصور الإيمان . هذا كله بالإضافة إلى أن جيون كان واحداً من أوائل الكتاب فى العالم المسيحى الذين تناولوا بطريقة عادلة موضوع نشأة الإسلام وفضل المسلمين على الحضارة . وبعض النظر عن الأخطاء التى وقع فيها جيون عند تفسيره للتاريخ البيزنطى ، فإن معالجته لهذا الموضوع أمر جديد لأن معظم مؤرخى العصور الوسطى فى الغرب لم يحفلوا به .

ولعله مما يجلد اسم جيون ويوضح مكانته العلمية ويؤكد عظمة إنتاجه أن كتابه وقد مضى على كتابته أكثر من قرن ونصف لا يزال يعتبر من أحسن وأمتع ما كتب عن الإمبراطورية الرومانية .

وهناك أعمال عديدة أخرى أقل شأنًا مما سبق ذكره يتضح منها أثر المدرسة العقلانية على الكتابة التاريخية في إنجلترا . من ذلك كتاب ريتشارد هنري (١٧١٨ - ١٧٩٠ م) « تاريخ إنجلترا » وقد رسمت خطته على أساس صورة في عشرة مجلدات وقصد به أن يكون مجلداً لتاريخ الحضارة مع العناية بالتاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي . وتمكن صاحبه من أن ينفذ خطته فجاء كتابه بعيداً تماماً عن التاريخ السياسي المألوف . ولكن يعاب عليه أنه جاء سرداً حرقاً مما جعله يبدو وكأنه دائرة معارف وليس كتاباً في التاريخ . وترتب على ذلك افتقار الكتاب إلى عنصر التشويق شأنه شأن سائر الكتب الجامعة المحشوة بالمادة . وعلى الرغم من أن هنري كان من العقلانيين المشككين في المسيحية فإنه أظهر سذاجة كبيرة عند تعرضه للأساطير والقصص الوثنية والدينية المتواترة . وتوقف بكتابته عند أحداث سنة ١٥٤٧ وبعدها قام جيمس بتيت اندروس بتكملته حتى سنة ١٦٠٣ م .

كذلك أصدر ولیم راسل كتاباً من أجل الشباب عن تاريخ أوروبا من وجهة نظر العقلانيين تحت عنوان « تاريخ أوروبا الحديث من سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى ١٧٦٣ » وقد ظهر فيما بين سنة ١٧٧٩ م ، ١٧٨٤ م . وجاء هذا الكتاب في صورة رسائل من أحد النبلاء إلى ابنه ، ويتضمن كثيراً عن التاريخ الثقافي والاجتماعي ولكن ليس بالقدر الذي وعد به الكاتب . ومع ذلك فإن شهرته ككاتب تناول موضوعاً معيَّناً ظلت قائمة فترة تزيد عن نصف قرن .

ويمثل كتاب راسل روحاً وشهرة كتاب « عناصر التاريخ العام » الذي ألفه الكسندر فريزر نيتلر وصدر سنة ١٨٠١ . واختلف الكسندر عن راسل في أنه تناول في كتبه تاريخ العالم ويذل محاولة لم تنجح كثيراً في تفسير التاريخ السياسي في ضوء العوامل غير السياسية . وثمة محاولة مثيرة استهدفت التوفيق بين الفلسفة العقلانية وتلك الفلسفة القائمة على أساس تفسير التاريخ تفسيراً دينياً تمت في كتاب « مجازة في التاريخ » الذي ألفه العالم والفيلسوف الموحد يوسف بريستلي (١٧٧٣ - ١٨٠٤ م) . أما عن آدم فيرجسون فستناول أعماله بعد قليل .

ومن بين الأعمال العظيمة الأخرى كتاب ولیم جودوين (١٧٥٦ - ١٨٣٦ م) وهو من رجال المدرسة العقلانية المبرزين وقد صدر كتابه في أربعة أجزاء تحت عنوان « تاريخ الكومنولث الإنجليزي » وعالج فيه الحرب الأهلية الكبرى في إنجلترا . وتميز بالصراحة في التعبير عن أحكامه وهي أحكام امتازت بالحيدة وبأنها غير مستفاه من أحد بحيث إنه وجه نقده لكلا الجانبين اللذين اشتركا في الحرب الأهلية . ومع إحساسه بأن شارل الأول كان أحد كبار

المذنبين المجرمين في هذا العالم ، إلا أنه اعتقد أن إعدامه كان خطأ استراتيجياً ساعد على جعل عودة الملكية أمراً محتملاً . كذلك اعتقد أن كرومويل خان أصدقاء الحرية والجمهورية ، ولكنه أشاد بقدراته وعبر عن إيمانه بأنه لو عاش لفترة عشر سنوات أخرى لأمكنه إنشاء أسرة حاكمة جديدة في إنجلترا .

أما وليم روسكو Willaim Rocsoe (١٧٥٣ - ١٨٣١ م) فكان أحد تلامذة فولتير الإنجليز الجديرين بالانتماء إليه . وكان يأمل في ملء الفراغ بين مؤلفات جيون وروبرتسون ولذلك كرسى حياته لدراسة أسرة الميديشي ولبابوات عصر النهضة الذين أعجب بهم لاهتمامهم بالعلوم والفنون . وأهم أعماله الرئيسية هي تراجم لورنزو دي ميدتش والبابا ليو العاشر ولكن هذه الأعمال تضمنت أيضاً عرضاً لتاريخ العصر وثقافته . وقد أوضح روسكو التناقض بين أبحاد تلك الفترة وبين ما اعتبره ظلام وتعصب كل من كاثوليكية العصور الوسطى وبروتستانتية حركة الإصلاح الديني .

يأتى بعد ذلك هنرى هالام (١٥٧٧ - ١٨٥٩) الذى حذا حذو جيون ورجال المدرسة العقلانية رغم أنه كان في أول أمره من المؤمنين بأن التاريخ من صنع وتدبير العناية الإلهية . ونظر هالام إلى الماضى نفس نظرة جيون الفلسفية ، فرأى أن تاريخ الماضى يعطى درساً للحاضر . كما شارك العقلانيين في تحقيرهم من شأن ثقافة العصور الوسطى ، وأبدى اهتماماً حقيقياً بتاريخ المجتمع والفكر والثقافة . ثم إن هالام يشبه جيون وروبرتسون في سعة الأفق والمعرفة والمكانة العلمية ، فكان رجلاً مهذباً متعلماً ، ثقاف نفسه بطريقة تلقائية دون كلفة ، ودون أن يتبع أساليب مدرسة النقد الجديدة التى ظهرت في القارة الأوروبية مثلاً فعل نيبور Neibuhr وفون رانكه ومع ذلك فإن بلغ درجة واسعة من الاطلاع التاريخى حتى إنه فاق في ذلك كل من جيون وروبرتسون كلما فاقها في دقة اعتماده على المصادر .

كان أول كتاب مرموق لهالام هو كتابه « نظرة على حالة أوروبا في العصور الوسطى » (صدر سنة ١٨١٨) ويقع في ثلاثة مجلدات ، ويعالج الفترة منذ عهد كلوفيس حتى شارل الثامن . وهذا أول عمل تاريخى في غرب أوروبا بنفس كتاب جيون سواء في حجمه أو في قوة التأثير على القراء . ومع أنه لايدانى كتاب جيون في الأسلوب والتصوير إلا أنه يفوقه في كونه تاريخاً للنظم الاجتماعية والسياسية في العصور الوسطى . وقد استبعد هالام القصص الدارجة والخرافات الشائعة وتفسير أحداث التاريخ تفسيراً غير موضوعي ، ووجه عنايته نحو تتبع تطور النظم . ولعل العيب الرئيسى في كتاب هالام هو عدم وجود دراسة مقارنة للنظم الأوربية في فترة العصور الوسطى وذلك في الفصول التى تناولت دولاً عديدة ، وإنما جاء علاجه للموضوع في صورة دراسات منفصلة لنظم كل دولة على حدة . وعلى الرغم من أن حكمه على العصور الوسطى لم يكن شديد القسوة ، فإنه كان حكماً لا أثر للمواطف فيه ، واتصف بعدم الانفعال وذلك باستثناء إنجلترا التى خصص لها جزءاً كبيراً من الكتاب . وقد دفعه إلى ذلك

إعجابه بها ، مما يعتبر مظهراً للشعور القومي في كتابه . هذا إلى أنه أبدى إيماناً بالفلسفة العقلانية للتاريخ في الجزء الأخير من كتابه الذي تناول فيه الطبيعة العامة للحضارة الأوربية .

ويعتقد معظم النقاد أن أقيم وأقدر أعمال هالام هو كتابه « التاريخ الدستوري لإنجلترا » الذي ظهر في جزئين عام ١٨٢٧ وتناول فيه الفترة منذ عهد الملك هنري السابع حتى عهد الملك جورج الثالث . وهو كتاب يمثل وجهة نظر حزب الأحرار وإن كان قد كتب من زاوية منفصلة تميل إلى التشكك فضلاً عن حرصه على عرض وجهتي نظر الفريقين المتنازعين . وإذا قورن به يوم فإنه يفوقه في المعرفة وصدق البصيرة . وقد بلغ التاريخ الدستوري وتاريخ الحياة الحزبية في إنجلترا أرقى مراتبه في هذا الكتاب ويتضح ميله إلى وجهة نظر الأحرار من أنه في كتابه يؤكد دائماً حقيقة أن إنجلترا كانت دائماً وبصفة أساسية ملكية دستورية تعرض بصفة دورية لفترات من الاستبداد والفوضى . أما خير ما أسهم به هالام في تاريخ الفكر والثقافة فهو كتابه الذي صدر في أربعة أجزاء بعنوان « مقدمة للأدب الأوربي » في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر . ويعتبر هذا الكتاب بالنسبة لعصره من الكتب التي لا ينافسها كتاب آخر عن تاريخ أوربا الفكرى والثقافى .

وأخيراً ، يبقى الجناح المتطرف من كتاب المدرسة العقلانية في إنجلترا هنري توماس بكل الذي ستعرض له عندما نتكلم عن نشأة فلسفة التاريخ .

أما في ألمانيا فكان لفولتير ثلاثة أتباع رئيسيه هم فون شولزر ، شميدت ، سبتلر وكان الأول — وهو أوجست لودفيج فون شولزر — (١٧٣٥ — ١٨٠٩) صاحب كتاب « التاريخ العالمى » وهو كتاب منهجى متداخل التفاصيل أخذ فيه مؤلفه بالقول الدارج التقليدى حول تاريخ الخلق . وقد ركز فيه على الدول السلافية في أوربا حيث وجد فيه خير نموذج للملكية المستبدة المستترة في شخص كاترين الثانية . وإلى جانب هذا الكتاب ظهر لشولزر كتابان آخران هما : « تاريخ روسيا » وقد ظهر سنة ١٧٦٩ م و « التاريخ العام لبلاد الشمال » وقد نشر سنة ١٧٧٢ . وهذان الكتابان هما على الأرجح — أحسن الكتب عن السلاف الصقالية في أوربا . ويلاحظ أن قدرة شولزر على النقد كانت محدودة ، خاصة فيما يتعلق بما ورد في الإنجيل . وكان شولزر أبرز المدافعين عن الملكية المستبدة المستترة بين المؤرخين العقلانيين .

أما المؤرخ الألمانى ميخائيل اجناثر شميدت Michael Ignatz Schmidt ١٧٣٦ — (١٧٩٤) فكان دوره في ألمانيا شبيه بدور فولتير في فرنسا ، هيوم في إنجلترا ، روبرتسون في اسكتلندا . ذلك أن كتابه « تاريخ ألمانيا » الذي تناول فيه تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٦٦٠ يعتبر من أبرز ما أنتجته المدرسة العقلانية في مجال الكتابة التاريخية . وامتاز هذا المؤرخ بأسلوبه الرائع ودقته وحذره في استخدام المصادر وبعده عن روح التعصب لوطنه . هذا فضلاً عن أن

شميدت كان واحداً من أوائل الكتاب الذين تناولوا حركة الإصلاح الديني في ألمانيا بطريقة لا تحيز فيها . وهو يشبه فولتير في أن كلاهما كتب تاريخاً حقيقياً للحضارة .

أما الدويلات الألمانية الصغيرة والكنيسة المسيحية فقد وجدت في لودفيج تيمو ثيوس سبتلرLudwig Timotheus Spittler (١٧٥٢ — ١٨١٠ م) مؤرخها الذي ينتمي إلى المدرسة العقلانية . وسبتلر هذا هو صاحب كتاب « عرض لتاريخ الدول الأوربية » الذي ظهر سنة ١٧٩٣ « وتاريخ الكنيسة المسيحية » الذي صدر سنة ١٧٨٢ . وبلغ سبتلر ذروة عظمتة كمؤرخ عندما عالج الفترة القرية من عصره . ونجده في كتاباته يمجّد العصور الوسطى . وإليه يرجع الفضل إلى حد ما في أنه وضع أساس النظر إلى العصور الوسطى نظرة مشرقة مليئة بالرومانسية واعتبار تلك العصور عصوراً نشطة شهدت حياة الفروسية وبرز فيها الفرسان وشعراء التروبادور فضلاً عن شعراء الألمان الفنانين . ثم إن سبتلر كان أول مؤرخ يعالج تاريخ الكنيسة علاجاً كاملاً من وجهة النظر العقلانيين ، وكان نقده لها معتدلاً نسبياً . وقد تبنى فكرة الحكم على الكنيسة من زاوية أنها أداة لدفع قضية الرومانسية قدماً . وكما يقول فيوتر كان هذا الاتجاه منه إسهاماً في مجال التسلية التاريخية أكثر منه إسهاماً في مجال البحث التاريخي وإلقاء ضوء على التاريخ .

ونعمة مؤرخ أقدر من سبتلر في كتابته عن الكنيسة هو جوتليب يعقوب بلانك Gottlieb Jakob planck (١٧٥١ — ١٨٣٧ م) . وإذا كان سبتلر قد عالج تاريخ الكنيسة من وجهة نظر شخصية ومن زاوية تناولت الأحداث الهامة . فإن بلانك عالجها من زاوية تاريخ الفكر والنظم . ويعتبر كتابه History of the christian constitution of society دراسة طيبة للتنظيم السياسي لكنيسة العصور الوسطى وعلاقة الكنيسة بالدولة ثم جهود الكنيسة في تأكيد سيادتها وسموها على الدولة . كذلك كتب بلانك كتابة مفصلة عن تاريخ العقيدة والمذهب انبروتستانتي مؤكداً بصفة خاصة آراء البروتستانت عن الديانة المسيحية . وبذلك يعتبر بلانك أول من وضع أساس الدراسة المقارنة عن طوائف البروتستانت وأبطل بعمله هذا ما كتبه بوسويه من كتابات معادية غير محايدة . هذا إلى أن بلانك كان من أشد مؤرخي المدرسة العقلانية تطرفاً في الإيمان بنظرية الصدفة في التاريخ . وكان يعتقد فيما يخص بحركة الإصلاح الديني أن طبيعتها تثبت أنها كانت تحظى برضاء العناية الإلهية .

لم تستطع مدرسة فولتير التي كانت أكثر تقدماً في المذهب العقلاني أن تحظى بقبول عام وأن تحافظ على مكانها في القرن الثامن عشر إلا بمشقة كبيرة ، نظراً لأنها كانت أكثر تقدماً من المستوى العام للفكر المعاصر لها . هذا إلى أن هذه المدرسة لم تسلم من بعض القيود التي اقترنت بمحاولتها الأولى والجريئة في إعادة صياغة التاريخ وإيجاد تناسق بينه وبين التقدم المعاصر في الفكر العلمي والفلسفة الاجتماعية وكان من الطبيعي أن يتولد رد فعل ضد كثير من نظرياتها ومناهجها بسبب تجدد حالة من الخمول الذهني من ناحية ثم بسبب ما بذل من جهد لتصحيح بعض العيوب في مدرسة فولتير من ناحية أخرى . وكانت مراحل رد الفعل هذه متدرجة وواضحة المعالم تدرجت من تعقل مونتسكييه المعتدل والمحافظة إلى عاطفة روسو اللاعقلانية ، ثم انتهت إلى تخيلات الرومانسية المثالية الغامضة . ولم تفق مدرسة فولتير إلى نفسها إلا بعد أن أحيتها الجهود الكبيرة التي بذلها كل من باكل ، وليكي ، ولينزلي ستيفن ، ودراير ، وهويت ، وروينسون وذلك نتيجة لرد الفعل الذي أحدثته الحركة العلمية في القرن التاسع عشر والحركة الفكرية الناقدة في الكتابة التاريخية .

وعلى الرغم من أن أعمال مونتسكييه نفسه لم تكن ذات قيمة عظيمة في ميادين البحث والتقدم التاريخي ، فإنه يمثل مكانة بالغة الأهمية في مجال مناهج البحث ذلك أنه لم يكن متطرفاً أو عنيفاً في نظريته السياسية وكان أقرب إلى المدرسة الإنسانية من المدرسة العقلانية . ومع ذلك فإنه قدم اتجاهات فكرية جديدة فاقت ما جاء به فولتير . فمع أن مونتسكييه تقبل مذهب فولتير القائل بوجود بعض الشعوب التي تتسم بالعبقرية إلا أنه حاول أن يفسر هذه الظاهرة ، فقال بأن هذه العبقرية إنما ترجع إلى تفاعل القوى الطبيعية وعلى الأخص تأثير المناخ . كذلك فإنه وضع لأول مرة وفي وضوح فروضاً أساسية وهي أن الحكم على الأنظمة الاجتماعية يجب ألا يكون حكماً مطلقاً وعلى نطاق عام وإنما في ضوء ملاءمة تلك الأنظمة لروح الشعب الذي وضعت من أجله .

ولا يقف الفرق بين مونتسكيه وفولتير عند هذا الحد ، فعلى حين أن فولتير وأتباعه لم يقدموا سوى بعض الملاحظات العابرة في مجالات معينة ، إذا بمونتسكيه يقدم تحليلاً وربطاً بين العوامل المختلفة التي يتأثر بها التاريخ في تقدمه وتطوره . وإذا كان ما قدمه مونتسكيه في هذا الشأن يعوزه الصقل والتكامل ، فإنه يعتبر تقدماً هائلاً في مناهج البحث . وأخيراً فإنه إذا كانت مدرسة فولتير قد اكتفت بمجرد اقتراح دراسة العوامل الاقتصادية وعلاقتها بالتطور السياسي ، فإن مونتسكيه وأتباعه اهتموا اهتماماً كبيراً بتأكيد التأثير العميق للنشاط الاقتصادي والمالي على الدولة . وأوضحت مدرسة مونتسكيه في صدق أثر الثورة التجارية على الكتابة التاريخية في أوروبا .

وكانت أبحاث مونتسكيه الرئيسية في التاريخ هي دراسة مطولة بعنوان «أسباب عظمة الرومان» و«اضمحلالهم» وظهر سنة ١٧٣٤ ومع أن هذا العمل ليس به ما ينم عن بلوغه شأواً بعيداً في مجال نقد للصادر أو اتساع المعرفة ، فإنه كشف عن قوة مذهلة في تفسير الاتجاهات والعوامل الرئيسية في تقدم المجتمع الروماني واضمحلاله . وهذا الكتاب يكون مونتسكيه قد سبق العلماء المحدثين المهتمين والمتخصصين في دراسة نمو وتفكك السياسة الرومانية وقوتها الإمبراطورية ، حيث إنه أكد حقيقة هامة هي أن الإمبراطورية اتسعت كثيراً إلى الحد الذي لم يضمن لها السيطرة على اقتصادياتها . كان مونتسكيه في كتابته مثل السائر وسط غابة لكنه لم يدع أشجارها تحول بينه وبين الوصول إلى هدفه . هذا إلى أن آراءه الخاصة باضمحلال الإمبراطورية الرومانية كان لها تأثير كبير على كتابات جيون .

ولما كان مونتسكيه فيلسوفاً سياسياً أكثر منه مؤرخاً ، فإن تلاميذه من أصحاب النظريات السياسية كانوا لا يقلون عدداً عن تلاميذه من المؤرخين البارزين . ومثال ذلك ما كتبه ج . ل . لولم عن دستور إنجلترا ، وآدم فيرجسون عن تاريخ المجتمع المدني اللدان يعكسان بوضوح آراء مونتسكيه في مجال الفلسفة السياسية .

أما كتاب «دستور إنجلترا» فقد نشر لأول مرة سنة ١٧٧٠ واتبع مؤلفه نهج مونتسكيه في التحليل الخيالي وذلك بتوضيحه ما يتسم به الحكم الإنجليزي من فصل أكيد بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وما يراه في ذلك الفصل من ضمان لحرية الفرد . وقد اعتقد دى لولم أن المواطن يتحقق له الأمن التام إذا تساوى الناس أمام القانون وإذا تحددت دائرة السلطة التنفيذية . ولهذا فإنه عارض بشدة فكرة روسو القائلة بالحكم عن طريق الحصول على تفويض شعبي لأنه يرى أن الناس يكونون دائماً «ضحايا التآمر الصامت القوي النشط من جانب الحكام» .

وأما آدم فيرجسون وهو الفيلسوف الاجتماعي الاسكتلندي فقد كتب سنة ١٧٨٢ تاريخ ازدهار الجمهورية الرومانية ونهايتها ، وينافس فيرجسون مونتسكيه في قدرته على

استخلاص جوهر ما يريد أن يقوله ويشرحه . كذلك أشار بوضوح إلى ما يحويه التاريخ الروماني في عصره الأول من معلومات موضع شك وبعبدة عن اليقين . وقد أكد بصفة خاصة تأثير الفتوح الرومانية على الأنظمة القائمة وأوضح أن النظام الجمهوري لم يعد قادراً على مواجهة الأزمات التي وجدت في ذلك الحين . وكان إيمان فيرجسون القوي بنظرية حرية الإرادة حائلاً بينه وبين القدرة على إصدار حكم عادل على أولئك الذين أرادوا أن يطيحوا بالجمهورية ويخلقوا النظام الإمبراطوري المطلوب . وأكثر ما يبعث على السخرية في كتاب فيرجسون هو التماسه الأعذار لمجلس السناتو الروماني في القرن الأخير من العصر الجمهوري ، وهو ذلك المجلس الذي تميز بقصر النظر والدس .

وكان فيرجسون قد أصدر قبل ذلك سنة ١٧٦٥ كتاباً بعنوان « تاريخ المجتمع المدني » وهو أفضل عرض للتطور الاجتماعي كتب حتى ذلك الحين ، كما يعتبر البداية الحقيقية لدراسة علم الاجتماع التاريخي . ويؤكد فيرجسون في هذا الكتاب أهمية الحروب في المراحل الأولى من التطور السياسي .

وإذا كان تلاميذ مونتسكيه قلة بين أوساط المؤرخين المحترفين فإن حبه تلميذه العظيم أرنولد هيرمان لودفيج هيرين (١٧٦٠ — ١٨٤٢ م) وهو أحد أساتذة جامعة جوتينجن العظام في عصره وخير ما أنتجه هو كتاب « صور لسياسة الأمم الكبرى في العصور القديمة وعلاقاتها وتجارها » ويعكس هذا الكتاب نفس مبادئ مونتسكيه ، إلا أنه يمتاز ببعض التحسن ازاء تحليله العلمي للجانب الاقتصادي وهو الجانب الذي تجسم في انتاج آدم سميث . ذلك أن هيرين حاول في مهارة فائقة أن يعيد دراسة الحياة التجارية القديمة ليبين أثرها على مجرى تاريخ العديد من الأمم القديمة . والحق أن هيرين كان واحداً من أقدر مؤرخي عصره ، ولم يحرص على المحسنات البلاغية مما جعل كتابه عملاً فكرياً واضحاً ومتماسكاً . ووصفه إدوارد ميار وهو حجة بين المؤرخين عن العصور القديمة — بأنه يتزعم أولئك الذين تناولوا بالبحث نفس المجال الذي كتب فيه . ولم تلبث طريقة هيرين في ربط التاريخ بالمناهج المدرسية المعاصرة أن ظهرت مرة أخرى في كتاب ويلهلم فون هايد « تاريخ التجارة مع الشرق في العصور الوسطى » الذي ظهر سنة ١٨٧٩ م . أما طريقة مونتسكيه في علاج المسائل السياسية عن طريق ربطها بالعوامل الجغرافية فقد انعكست في كتاب هيرين « تاريخ نظم الدول الأوربية ومستعمراتها » ويكفي في نهاية حديثنا عن هيرين أن نذكر أنه ألهم بيرتر في دراسته لمصادر العصور الوسطى وألهم بيرتر فيما ألفه عن التاريخ الدستوري وأثار اهتمام ريتز بالجغرافيا السياسية .

وهناك كاتبان بريطانيان أبرزتا اهتمام مونتسكيه بتأثير التجارة ، هما آدم اندرسون دافيد ما كفرسون . أما الأول فهو صاحب ذلك الكتاب المفيد وعنوانه « المفهوم التاريخي والزمني لنشأة التجارة » . وقد أعاد دافيد ما كفرسون في بداية القرن التاسع عشر كتابه الأجزاء الخاصة

بالعصور الوسطى في ذلك الكتاب . والف ما كُفُرسون كتاباً آخر أكثر شمولاً واتساعاً وهو « تاريخ التجارة الأوربية مع الهند » الذي ظهر سنة ١٨١٢ ويشبه الجزء الأخير من هذا الكتاب ما كتبه رينال عن علاقة التوسع الأوربي بالحضارة الأوربية ورفاهية الجنس البشرى .

ومن بين تلاميذ مونتسكيه كذلك المؤرخ الاسكتلندي الفذ « جابرست ستوارت » (١٧٤٢-١٧٨٦) الذي عاب على كل من هيوم وروبرتسون نظرتها غير الطيبة تجاه العصور الوسطى . ففي كتابه « رسالة في التاريخ » تناول موضوع الدستور الإنجليزي كما مجد في كتابه « نظرة على المجتمع الأوربي » النظم الديمقراطية السياسية التي نسبها إلى الجرمان الأوائل وذهب إلى أن إنجلترا الأنجلوساكسونية كانت ثيوتونية بحتة . كذلك اعتقد أن الدستور الإنجليزي وضعت بذوره في أرض ألمانيا وغاباتها ، وبذلك يكون قد سبق المدرسة الألمانية التي ظهرت في إنجلترا في القرن التالي .

ثم إن إعجاب استيورات بالشطر الأول من العصور الوسطى فاق إعجابه بالشطر الأخير منها . وأخيراً فإنه وضع سلسلة كاملة من الكتب عن تاريخ اسكتلندا بهدف تفنيد آراء روبرتسون التي تضمنها كتابه « تاريخ اسكتلندا » ومناقشة تفسيراته حول ذلك الموضوع .

تلاميذ روسو

وثمة اتجاه آخر للمدرسة العقلانية أضعف من الاتجاه السابق يمثل أولئك الذين اتبعوا روسو ، وهم الذين يصورون مرحلة التحول المنطقي من العقلانية إلى الرومانسية . والواقع أن هناك عدداً من الفروقات الهامة بين روسو وفولتير من ناحية نظرة كل منهما للمشكلات التاريخية والاجتماعية فقولتير كان في المقام الأول كاتباً ناقداً لا تحركه العاطفة ولا يتأثر بها . أما روسو فكان في معظم الأحيان عاطفياً إلى درجة المرض ، يشارك الناس أحاسيسهم ويعطف عليهم . ومن ناحية أخرى كان فولتير واقعياً وعميقاً ، في حين كان روسو مثالياً خيالياً . وأخيراً فإن فولتير كان يكتب من وجهة نظر بورجوازية ، فامتدح الاستبداد المستنير ، دون أن يثق كثيراً في مقدرة الجماهير الجاهلة في شئون السياسة . أما روسو فكان يكتب في قوة مؤيداً لضرورة تحرير الجماهير من نير القوة السياسية المستبدة .

ولم تلق آراء روسو حتى قيام الثورة الفرنسية رواجاً كبيراً ، ولكنها وجدت في ألمانيا كثيراً من المتحمسين لها . وكان أول تلاميذ روسو الألمان هو إسحاق ايزرلين (١٧٢٨-١٧٨٢ م) مؤلف كتاب « فروض فلسفية حول تاريخ الإنسانية » وقد ظهر في جزئين . وعلى

الرغم من إعجاب ايزلين بنظريات مونتسكيه السياسيه فإن تأثير روسو عليه يبدو أكثر وضوحاً وخاصة في اهتمامه الزائد بالمجتمع البدائي . ويعتبر كتابه — باستثناء كتابات لافاتييه Lafateau أحسن ما كتب عن تحليل ثقافة العصور البدائية ونظمها ، على الرغم من أن الكاتب حاول على غير أساس أن يميز بين الحياة الطبيعية التي حياها الإنسان وبين حياته المسجيه . كذلك تأثر ايزلين بمونتسكيه في ناحية أخرى هي اهتمامه البالغ بالتحليل المقارن لحضارة الشعوب الكبرى في التاريخ وعاداتها وسلوكها .

أما أعظم تلاميذ روسو الألمان في مجال التاريخ فهو الشاعر المسرحي والمؤرخ فردريك شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) الذي كانت أهم أعماله تاريخ ثورة الأراضي المنخفضة ضد الحكم الأسباني ، ثم كتاب «تاريخ حرب الثلاثين عاماً» . وتضم هذه الأعمال خليطاً من عواطف وخلجات روسو والقوى الأصيلة لشاعر وكاتب مسرحي عظيم . ففي علاجه لتاريخ ثورة الأراضي المنخفضة رأها في صورة ملحمة بطولية تدور حول الرغبة في التخلص من الطغيان ، بينما في وصفه لحرب الثلاثين سنة رأى في جوستاف أودلف ، والنشتين بطلين مسرحية تاريخية عظيمة : ولنا في حاجة إلى أن نشير إلى أنه في خضم هذا العمل المسرحي القذ ، لم يكن هناك مجال، متسع لوصف العوامل الاقتصادية والثقافية وصفاً ثرياً . ولكن يعوض ذلك قوة الكاتب الهائلة على اعطاء تحليل أولى وأوضح للحركات السياسية مثل عرضه الرائع لظروف حرب الثلاثين عاماً . ولكن ما أن تبدأ القصة حتى نجد صفاته الشعرية والمسرحية تتغلب تماماً على صفاته كمؤرخ . وعلى هذا فإن شيلر مثله مثل كارليل — تسمى أعماله إلى الأدب الرفيع أكثر من انتمائها إلى التاريخ بمعناه العلمي . هذا فضلاً عما يلاحظ على أسلوبه من أنه يتبع المدرسة الإنسانية أكثر من تبعته للمدرسة العقلانية .

أما يوحنا مولر Johannes Müller (١٧٥٢ — ١٨٠٩ م) فهو من أبرز المؤرخين المعاصرين لشيلر وأقدرهم وإن كان لا يصل إلى مرتبة في كل النواحي . كان مولر يعتبر في وقت ما أقدر المؤرخين الألمان في عصره ، في حين أنه كان يعتبر نفسه تاكيتوس الثاني . وكما أن تاكيتوس مجّد الجمهورية الرومانية ، فإن مولر فعل نفس الشيء بالنسبة للعصور الوسطى فتغنى بعظمتها وترعى الرأي المنادي بالعودة إلى مثلها وأنظمتها . وأشهر مؤلفات مولر هو كتاب «تاريخ الاتحاد السويسري» . وعلى الرغم من أن مولر كان ينافس ما كولاى في قوة ذاكرته ويضاهى فوستيل دى كولانج في حماسه لدراسة المصادر التاريخية ، فإنه كان يفتقر تماماً إلى مقدرة ما كولاى على التحليل والتنظيم والسرد ، وإلى قدرة فوستيل على النقد . حقيقة أنه قرأ كل المصادر المتوافرة لديه ولكنه لم يكن يملك القدرة على حسن استخدامها أو استيعابها ، بل كان مفتقراً أيضاً إلى المقدرة الناقدة التي تجعله قادراً على اكتشاف وبالتالي استبعاد ما في سرده

من تناقض واضح ، وهو ذلك التناقض الذي يعزى بصفة رئيسية إلى طبيعة الكاتب في النقل السريع من عقدة إلى أخرى ومن هدف إلى آخر .

ولقد أضاف مولر إلى تمسك روسو بالحرية وولائه لها شيئاً آخر وهو تقليد الأسلوب البلاغي الكلاسيكي تقليداً مفصلاً . ذلك أن مؤلفه عن تاريخ سويسرا جاء بمثابة ملحة عن الحرية تجمع بين طريقتي روسو وتاكيوتوس . وبعد ذلك أصبح من المصعبين يتألبون القاصح . وقد أدى علاج مولر لتاريخ ألمانيا وسويسرا في العصور الوسطى إلى اتجاه نحو عبادة الأبطال فضلاً عن تفسير العصور الوسطى تفسيراً محلياً لا عالمياً — وهي الاتجاهات التي اتحدت شيوعاً بفضل كتابات كل من شاتوبريان ، والترسكوت الإبداعية من اتباع القذهب الرومانسي هذا كله بالإضافة إلى إعجاب مولر بالكنيسة الأم في العصور الوسطى نرى هكذا أن كتابات مولر تمثل مرحلة انتقال من للتقوية العقلانية إلى المدرسة الرومانسية في الكتابة التاريخية . ويعتبر كتابه « أربعة وعشرون سفيراً من التاريخ العام » الذي وضع خطته ولم يكمله على جانب عظيم من الأهمية لسببين هما اتساع مجاله وتأكيده فكرة أن التاريخ من صنع الرب وتفسيره . أما يوحنا جوتفريد هردر Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣ م) فهو وإن كان من تلاميذ روسو إلا أنه يمثل بصورة أكبر بعض أوجه الكتابة التاريخية عند العقلائين ، فضلاً عن أنه مؤرخ له أهمية بوصفه أحد مؤسسي فلسفة التاريخ . ولقد أحتوى كتابه الهام « آراء حول فلسفة تاريخ البشرية » عديداً من المبادئ والآراء السائدة في ذلك العصر ، فهو يجمع بين حماسة روسو المتطرفة للعودة بالإنسان إلى حياته الطبيعية الأولى وتحريره من السلطة الحاكمة وقيودها وبين مفهوم فولتير الخاص بحقيقة الطابع القومي ودوامه ، فضلاً عن عقيدة مونتيكييه التي تؤكد العلاقة بين الشخصية القومية والظروف الطبيعية والمفهوم الخيالي الذي تبناه هيجل بعد ذلك عن تطور الإنسانية تدريجياً نحو حالة الحرية . وعلى ذلك فإن جوتفريد كانت له نظرة متطورة حتى إنه يعتبر أب الحاسة التاريخية ، في ألمانيا . ولقد كان في إصراره على تمييز الشخصية القومية والوحدة العضوية للتطور الثقافي ما يؤكد ويثبت رومانتيكيته فضلاً عما في ذلك من تأكيد الاتجاه نحو تقدير العواطف القومية عند كتابة التاريخ . ووستايش فلسفة التاريخ في مكان آخر من هذا الكتاب .

أما المؤرخ فريدريك كريستوف شلوزر Freidrich christoph Schlosser (١٧٧٧/١٧٧٦ — ١٨٦١ م) فقد استوعب مفاهيم روسو عن طريق الإيمان بنظرية كانت عن « الأمر المطلق Categorical imperative » . ففي كتابه تاريخ الأباطرة الإيقونيين ، وفي كتابه الذي لم يتمه عن تاريخ العالم وفي كتابه الضخم العظيم « تاريخ القرنين الثامن عشر والسادس عشر » ، نجده وقد سبق لورد أكون في وضع مبدأ أن التاريخ ينبغي أن يحكم على

الرجال طبقاً لمعايير أخلاقية سامية . وعلى هذا الأساس حكم شلوزر على الأحداث التاريخية والشخصيات العامة طبقاً لمبادئ (كانت) الخاصة بمعايير الأخلاق الفردية . وازاء حبه الجرم لكتاب دانتي «الكوميديا الإلهية» اتسم عمله بمسحة من الكآبة فضلاً عن انتقادات سريعة ذات صبغة غير موضوعية بحته . هذا على الرغم من انه لم يكن كاتباً ناقداً وإن علاجه للتاريخ السياسي كان علاجاً سطحياً ، في الوقت الذي أغفل التاريخ الاجتماعي الاقتصادي . إما أهميته كمؤرخ فتكن في كونه أحد أوائل الكتاب المرموقين الذين أكدوا الأهمية السياسية للأدب القومي وأثر ذلك الأدب . ولم تتضح القيمة العظيمة لنظرة شلوزر إلى التاريخ إلا بعد سنوات عديدة عندما استخدمها الباحثون في تصحيح أفكار بيركهاردت ، سيمونديس عن استقلال حركة النهضة وانفصالها التام عن ثقافة العصور الوسطى .

أما كارل فون روتيك Karl von Rotteck (١٧٧٥ — ١٨٤٠ م) فهو يعكس في كتابه المطول عن تاريخ للعالم إيمان روسو الشديد بالحرية ، كما هاجم في عنف كل الحركات التي استهدفت كبت الحريات على طول التاريخ البشري . وكان يهدف من ذلك الى معارضة سياسة نابليون ومن بعده الرجعيين من أعضاء مؤتمر فينا في الانتقاص من الحريات . لذلك غدا كتابه بفضل أسلوبه الحماسي الرائع إنجيل أوروبا الحرة ، فصدرت منه خمسة وعشرون طبعة حتى سنة ١٨٦٦ وتمت ترجمته إلى عدد كبير من اللغات . وكرس روتيك حياته في أواخرها للدراسة العلوم السياسية .

وثمة مؤرخ من أقدر المؤرخين العقلانيين يصعب وصفه بأنه من أتباع هذه المدرسة أو تلك وهو المؤرخ السويسري حنا تشارلز ليوناردو سيموندي سيموندي (١٧٧٣ — ١٨٤٢ م) الذي شارك فولتير في إعجابه بالطبقة البرجوازية كما كان متأثراً برأى مونتسكيه الخاص بتأكيد أهمية العوامل التجارية والاقتصادية في تطور الحضارة . وفي نفس الوقت تأثر كثيراً بحب روسو للحرية وحماسه لها فضلاً عن انه كان معجباً إلى حد بعيد بأسلوب جيون . ومع ذلك فإنه لم يشارك كل من فولتير وجيون احتقارهما للعصور الوسطى كما أنه رفض رأى مونتسكيه الذي يؤكد تأثير العوامل الجغرافية وأهميتها ولم تعجبه في نفس الوقت آراء روسو الديمقراطية . أما نظره إلى مجال التاريخ فكانت أوسع من نظرة جيون . وهو في كتابه «تاريخ الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى» اثني على روح الاستقلال التي تمتعت بها تلك الدويلات الإيطالية وبين أثر هذا الروح في تفوقها التجاري . وكان يرى أن نشأة لقوميات الإيطالية جاءت بمثابة انبثاق الحرية الإنسانية وسط فساد الأقطاع الحقير ومظاهر الطغيان . كذلك أهتم سيموندي بالعوامل التجارية والاقتصادية أكثر مما فعل أي كاتب آخر

من المدرسة العقلانية باستثناء هيرين ، ومع ذلك فإنه لم يكن واضحاً في عرض تأثير العوامل الاقتصادية على الحياة السياسية في العصور الوسطى ، ولم يستطع أن يوضح أثرها الكامل على سياسة المدن الإيطالية في تلك العصور . وكل الذي فعله هو أنه أخذ بنظرة الثورة الفرنسية إلى إيطاليا العصور الوسطى وإيطاليا عصر النهضة مثلما فعل ميكافلي وجويكارديني في نظرتهما إلى عصرهما بروح عصر النهضة . أما كتاب سيسموندى عن تاريخ الفرنسيين فجاء عرضاً شيقاً فيما يتعلق بالعصور الوسطى . وفيه يتضح بجللاء نظرة الكاتب الواسعة الأفق إلى مادة التاريخ . ويعتبر كتابه هذا أول تاريخ كامل نسبياً عن فرنسا . وكان لـسيسموندى بالإضافة إلى ذلك اهتمام كبير بالأدب ، فألف كتاباً هاماً عن تاريخ الأدب في جنوب أوروبا ، وهو كتاب يصور تأثير مدام دي ستايل عليه . كذلك يتضح من هذا الكتاب مدى تعلقه بالمدرسة الرومانسية ، وذلك بتصويره الأدب كتحتاج للشخصية القومية ، والواقع أن سيسموندى كان عالماً شديد العناية بعصره ، وإذا كان لا ينافس جيون في موهبته الأدبية الفنية ، فحسبه أنه كتب بأسلوب واضح رائع .

من بين التطورات الهامة التي مرت بها الكتابة التاريخية في فترة أنتشار المنهج العقلاني والكشوف ازدياد الاهتمام بالتاريخ العالمي . وإذا استبعدنا السجلات التاريخية العالمية المعقدة والتي مضت على وتيرة واحدة التي كتبها أفريكانوس (الأفريقي) ، وايوزيوس ، وجيرونيم ، فإن أول كتب عن تاريخ العالم هي تلك التي ظهرت في غرب أوروبا التي كتبها أوريزيوس فضلاً عما كتب في عصر الحركة الإنسانية على يد سايليكوس ودوجليوني في إيطاليا ، وفرانسوا دي بلفورست في فرنسا ، يوحنا كلوفر في هولندا ، والسير والترالي في إنجلترا . وكلها كانت محاولات هزيلة لكتابة تاريخ عالمي .

وبعد ذلك وفي حوالي منتصف القرن الثامن عشر بدأت الكتب التي تعالج تاريخ العالم تظهر بأعداد ضخمة وفي مجلدات كبيرة . وساعد على نمو هذا الاتجاه عدة عوامل : أهمها ما أثارتته الحركة الإنسانية من اهتمام كبير بالماضي القديم وما أثارتته حركة الإصلاح اللبني والحركة المضادة لها من زيادة الاهتمام بتاريخ الكنيسة المسيحية ، فضلاً عن أن الكتب التاريخية التي ظهرت عن الكشوف أعطت المؤرخين مجالاً فسيحاً للرؤيا بحيث أخذوا ينظرون إلى العالم كله بطوله وعرضه . هذا بالإضافة إلى أن العقلانيين فتحوا باباً عريضاً للأعمال التاريخية الطموحة . وكان من الطبيعي أن يأمل كل كاتب صاحب خيال قوى في أن يعالج في كتاب تاريخي واحد قصة الإنسان كاملة على هذه الأرض .

وكانت أول محاولة لإصدار كتاب عن التاريخ العالمي من النوع التعاوني عندما اشترك عدد من الكتاب معظمهم من الإنجليز — في وضع كتاب تاريخ العالم منذ بدايته حتى الوقت الحاضر وهو الكتاب الذي ظهر بين سنتي ١٧٣٦ م — ١٧٦٥ م . ومن اشتركوا في وضع هذا الكتاب جون كامبل ، جورج سيل ، يوحنا سونيتون ، أرخبالد بور ، جورج بزالماتزر . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يكن ممتازاً أو مبتكراً ، فإنه حوى قدراً هائلاً من المعلومات عن كل الشعوب في كافة العصور ، بما في ذلك شعوب ماوراء البحار . وقد كتب أساساً من وجهة النظر المسيحية المترمة وبالتالي لم يتعرض بالنقد للمسائل المتعلقة بالكتاب المقدس والأساطير

القديمة إلا نادراً . ومع ذلك فإنه أول تاريخ كامل عن العالم . وقد ساعد بدرجة كبيرة على خلق مفهوم أكثر شمولاً لتاريخ الجنس البشرى ، مما حقق له نجاحاً لا بأس به .
وقد سبق لنا في معرض حديثنا عن المؤرخين العقلانيين ذكر أعمال أخرى هامة تناولت تاريخ العالم بأكمله ونكتفي هنا بالإشارة إليها وإلى غيرها لنعطى فكرة ولو عامة عن عددها ومقدار طموحها .

ففي المقام الأول يأتي كتاب حنا أدمز John Adams « نظرة على التاريخ العالمى » (١٧٩٥) وكتاب الكسندر تيتلر Alexander Tytler « عناصر التاريخ العام » (١٨٠١) وكلاهما من الإنجليز . وبعد ذلك يأتي كتاب أوجست شولزر - محاضرات في التاريخ العالمى (١٧٧٢) وكتاب يعقوب دانيال ويجلين « التاريخ العالمى » (١٧٧٥) وكتاب يوحنا مولز الذى لم يستكمل فى أربعة وعشرين جزءاً فى التاريخ العام (١٧٧٩) وكتاب يوحنا كريستوف جاتير « التاريخ العالمى » وقد صدر ما بين ١٧٨٥ - ١٧٨٧ م ، ثم هناك كارل روتيك « التاريخ العالمى » وقد صدر ما بين ١٨١٢ ، ١٨٢٧ . وكتاب سيزار كانتو « التاريخ العالمى » (١٨٣٧) ثم كتاب فردريك شلوزر « التاريخ العالمى للشعب الألمانى » (١٨٤٢ - ١٨٥٦ م) وكتاب ليوبولد فون رانكه « تاريخ العالم » الذى أكمله أحد تلاميذه بعد وفاته ، وكتاب فرانسوا لورنت Franeois Lurent « دراسات فى تاريخ البشرية » (١٨٧٠) . وكانت بعض هذه الكتب مطولة للغاية فمثلاً كتاب روتيك يقع فى أحد عشر مجلداً وفى كتاب لورنتس يقع فى ثمانية عشر مجلداً ، بينما يقع كتاب شلوزر فى تسعة عشر مجلداً . وتوجد كتب أخرى غير ما سبق ذكره ، لأن ما ذكرناه ليس سوى نماذج معددة . هذا إلى أننا سنشير فيما بعد إلى الاهتمام الجديد بمثل هذه الأعمال والاقبال على إنتاجها .

اتساع المعرفة وأثره فى التقوم التاريخى

أمتد الاتجاه الناقد للنشاط العلمى إلى البحث فى المادة التاريخية التى كتبت فى العهد الوثنى فضلاً عن ثقافة الأقدمين . ذلك أن الباحثين واصلوا العمل على الذى سبق أن بدأه سكاليجر ، كاسوبون وآخرون فى فترة الحركة الإنسانية . ثم كانت جهود ريتشارد بنتلى (١٦٦٢ - ١٧٤٢ م) الذى ينسب إليه ذلك التقدم الكبير فى علم نقد النصوص وتطبيقه على كتاب العصر القديم ، فضلاً عن أنه أصدر طبعات ممتازة لمؤلفات هومر وغيره من كتاب العصر الوثنى . أما ج . أ . فايريكيمس فقد وضع الاسس العلمية لدراسة الأدب الأغريقى ، كما أن برنارد دى مونتفوكون Montfaucon (١٦٥٧ - ١٧٤١ م) جمع مختارات عامة

من الأدب القديم في كتابه شرح الآداب القديمة . وكان لنشأة المذهب التقدمي الفضل في التحرر من النظر إلى الماضي الوثني بعين الاحترام التقليدي وهو ذلك الاحترام الذي فرضه رجال المدرسة الإنسانية أصحاب النظرة العاطفية . على أن هذا الاتجاه الجديد لم يكن شبيهاً بعداء أوزيوس للماضي الوثني ، وإنما كان يمثل نظرة عاقلة شلبتها النظرة التاريخية والاعتقاد في تقدم الثقافة . وسناقش فيما بعد الدراسة الناقدة لمصادر التاريخ القديم في ذلك الدور التي قام به سيجونيوس Sigonius ، بويلي Pouilly ، بيرونيوس Parizonius ، ويفورت Beaufort ، ذلك في معرض حديثنا عن نشأة المدرسة التاريخية الناقدة .

أما الدراسات المرتبطة بالتقويم التاريخي فاستمرت على نفس الاسس التي وضعها سكاليجر ، أوشر . وقد أعطى إسحاق نيوتن اهتماماً كبيراً للمشكلة في كتابه التقويم الزمني للممالك القديمة وعمل في تاريخ الخليقة بطريقة خاطئة اذ قرره خمسمائة سنة عن التاريخ الذي أعطاه سكاليجر وأوشر . وهناك آخرون ممن أحرزوا تقدماً ضئيلاً في سبيل الوصول إلى تقدير سليم لعمر الأرض . أما العلماء الربوبيون الذين آمنوا بالله عن طريق العقل وعلى رأسهم شارل بلاونت فكانوا يميلون إلى إعطاء تقديرات للزمن أطول من تلك التي اعطاها أوشر وأتباعه ، وذلك بسبب تهمهم من قيود المفاهيم المسيحية المترمة من ناحية ولتأثرهم الشديد بالعلم الجديد من ناحية أخرى . وكان أن أوضح علماء التاريخ الطبيعي وعلماء الجيولوجيا أن تاريخ بداية الخليقة كما تحدده المفاهيم المترمة لا يتماشى مع الأفكار الجديدة بالنسبة لتاريخ الأرض وعمرها والحياة عليها . وهكذا قدر العالم الطبيعي الفرنسي العظيم بوفون Buffon أن عمر الأرض لا بد وأن يكون ٧٥ ألف سنة .

وشهد ذلك العصر كذلك مولد تقسيم التاريخ إلى عصور وهي الفكرة التي مازالت تلقى قبولاً عاماً . فمن وجهة نظر المسيحية نجد اهتماماً عاماً على تقسيم ماضي البشر إلى عشرين أساسيين : العصر الوثني ، والعصر للمسيحي . ثم تحول هذان العصران تدريجياً إلى ما عرف بالتاريخ القديم والعصور الوسطى . وأشهر الكتاب الذين أسهموا في ذلك التعريف الجديد هما

أوتو أوف فريزنج ، فلانيوس بلونلوس . وقد سبق أن أشرنا إلى تقسيم بودن Bodin للتاريخ إلى ثلاث مراحل : تاريخ الشرق القديم ، تاريخ حوض البحر المتوسط ، تاريخ أوروبا . ولكن قيام الحركة الإنسانية وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي أوحيا إلى كتاب آخرين عاشوا بعد تلك الأحداث بأن عهداً جديداً قد بدأ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وبأن هذا العهد الجديد يمكن أن يعرف بالعصر الحديث في التاريخ . ومازال هذا التقسيم الثلاثي للتاريخ مصطلحاً عليه ، وقد ظهر لأول مرة في كتابات جيزبرت فوتيوس Gisebert Voëtius (١٥٨٨ — ١٦٧٨) عندما كان يعالج تاريخ الكنيسة . ذلك أنه ذهب إلى أن الفترة القديمة انتهت عند أوغسطين ، وأمتدت الفترة الوسيطة من عهد أوغسطين إلى

عهد لوثر ثم بدأت الفترة الحديثة منذ عهد أوغسطين وامتدت الفترة الوسيطة من عهد أوغسطين إلى عهد لوثر ثم بدأت الفترة الحديثة منذ عهد لوثر وطبقت نفس هذه الفكرة على التاريخ الديوى بواسطة أحد رواد المدرسة الإنسانية في هولندا وهو كريستوف كيلر الشهير بكرستيان كيلاريوس (١٦٣٤ — ١٧١٧ م) ، إذ اعتبر أن التاريخ القديم يبدأ من بدء الخليقة وينتهي عند عهد قسطنطين . واعتبر أن العصور الوسطى تمتد من عهد قسطنطين حتى سقوط القسطنطينية في يد الأتراك سنة ١٤٥٣ . وأن التاريخ الحديث يبدأ منذ سنة ١٤٥٣ م . ومازال هذا التقسيم يلقى قبولاً عاماً واسعاً يفوق أى تقسيم آخر . وجعل كثير من الكتاب في عصر رينال أن الكشوف الجغرافية التي حدثت بعد سنة ١٤٩٢ أكثر أهمية من حركة النهضة وحركة الإصلاح الدينى بالنسبة لتحديد معالم البداية للعصور الحديثة . ولكن الفكرة لم تلق قبولاً كبيراً حتى القرن العشرين .

ومن أهم واعظم ما أسهم به ذلك العصر في مجال اهتمام الدراسات التاريخية بمآخى البشرية . ظهور نظرية التقدم ظهوراً تدريجياً . ذلك أن ثمة حقيقة بارزة لها أهميتها . هي أن أكثر من تسعة وتسعين في المائة من عمر الانسان على الأرض مضى دون أى إدراك للتقدم الذى حققته الحضارة البشرية في تلك الحقبة . والحقيقة هي أن التقدم البشرى حتى القرن السابع عشر كان يتم طبعياً وتلقائياً . ولم يكن بأى حال نتيجة جهد جماعى لتحقيق تقدم جنسى أو حضارى بدافع من وعى وإدراك للوصول إلى حالة مثالية

وقد تمسك العبرانيون القدامى بنظرية خروج الإنسان من الجنة نتيجة لترديه في الخطيئة . ومن ثم اعتقدوا أن الكمال كان للإنسان في ماضيه . وأنه لآخر في مستقبله . وظهرت عند الوثنيين القدامى فكرة مشابهة إلى حد ما وهي فكرة الانحدار من عصر ذهبي . أما الإغريق والرومان فقد شاع بينهم الاعتقاد في تطور الحضارة البشرية في حركة دائرية . فهي تعلو ثم تفلو حتى تصل إلى نقطة معينة وبعدها تأخذ في الهبوط حتى تصل إلى مستوى أقرب مما بدأت منه . ومرة أخرى تبدأ تعلو لتتخفص .. وهكذا في صورة دورات متكررة .

اما المسيحيون فأخذوا بأراء العبرانيين بالنسبة لتردى الإنسان . وربطوا بين هذه الفكرة وما رددته الوثنيون من الانحدار من عصر ذهبي . وخرجوا من ذلك بأنه ليس للإنسان أن يتوقع دولة مثالية على هذه الأرض . وأن حالة النقاء والطهر الكاملين لن يصل إليها الإنسان إلا في العالم الآخر . ومن وجهة النظر المسيحية . وكما جاء في سفر الرؤيا فإن قيام القيامة ونهاية الحياة سوف يسبقه نذر على الأرض بالغة الرعب والفظاعة . ثم نشأ تدريجياً اعتقاد بأن القدر بدخر للإنسان مستقبلاً أفضل على هذه الأرض . وقد أوضح روجر بيكون في القرن الثالث عشر ما يمكن أن يفعله العلم التطبيقي من أجل الانسان . كما عرض مونتaigne

فكرة جديدة عندما اقترح بأنه ينبغي أن تهتم الفلسفة بسعادة البشر على هذه الأرض أكثر من اهتمامها بالخلاص في الحياة الأخرى . وأشترك في نفس الوقت كل من فرانسيس بيكون . وباسكال . وديكارت في الدعوة للتخلص من نفوذ الماضي وسيطرته على الحاضر . لقد اعتقد

كل من يكون ، وباسكال أن الشعوب الحديثة أرقى من الشعوب القديمة وعرضاً فكرة أن الوصول إلى الدولة المثالية يصبح سهلاً ممكناً إذا ما أستخدم العلم في حل مشكلات البشر . وبدأ ظهور نظرية التقدم بمعناها التقليدي في كتابات بعض المؤرخين مثل برنارد دي فونتيل (١٦٥٧ — ١٧٥٧ م) . الذي لم يخرج في كتابه «حوار الموقى» (١٦٩٣) عن فكرة أن القدامى لم يكونوا أحسن حالاً من المحدثين . ولكنه اتخذ بعد ذلك بخمس سنوات موقفاً أكثر تقدماً في كتابه «حديث مطول عن القدماء والمحدثين» يتشابهون بصفة أساسية من الناحية البيولوجية التي لم يطرأ عليها أى تقدم . أما في الفنون الجميلة التي هي أساساً تعبير تلقائى عن الروح والنفس الإنسانية ، فإن فونتيل يرى أنه ليس هناك أى قانون للتقدم . إذا كان للقدامى أعمالهم العظيمة في هذا المجال ، وإن أحسن أعمال المحدثين في الفن والشعر والخطابة لا تقل عظمتهم عن أكمل وأحسن ما أنتجه القدماء ، ثم قال إن الأمر يختلف تماماً في ميادين العلم والصناعة ، إذ حدث فيها تقدم وتطور ولا يزال العالم ينتظر في تلك الميادين مزيداً من التقدم في المستقبل ويضيف فونتيل أن الإعجاب بالقدماء الذي لا يسانده عقل أو منطق إنما هو عقبة رئيسية في طريق التقدم . ومن المشكوك فيه أن يكون هناك من استطاع على مر الزمن بما في ذلك زماننا أن يعالج نظرية التقدم بمثلاً عاجلها فونتيل من نجاح وتوفيق .

أما شارل برولت (١٦٢٨ — ١٧٠٣) وهو أحد معاصري فونتيل ، فقد أورد نفس الآراء في كتابه «مقارنة بين المحدثين والقدماء» وهو الكتاب الذى نُشر بين سنة ١٦٨٨ . وكانت تستحوذ عليه فكرة أن ثقافة جيله بلغت مرحلة الكمال مما جعله غير حريص على أن يأمل تقدماً أكثر في المستقبل . وقد اتخذ مقدم دير القديس بطرس موقفاً أكثر إيجابية بالنسبة للتقدم المنشود في المستقبل وذلك في كتابه «حديث حول التطور» الذى ظهر سنة ١٧١٨ م . فأوضح أن التقدم أمر واقعى وحقيق وأن ما تحقق في عصره أبرز مما تحقق في عصر أفلاطون وأرسطو . وكان مهتماً بصفة خاصة بالتقدم الاجتماعى فرأى ضرورة إنشاء أكاديمية للعلوم السياسية لرعاية التقدم الاجتماعى . وأظهر ثقة كبيرة في قدرة الحكومة الرشيدة على تحقيق ذلك التقدم . وبذلك يعتبر هذا الأب سابقاً في آرائه على كل من هلفتيوس والفلاسفة النقيين . أما هلفتيوس الذى بلغت شهرته ذروتها في منتصف القرن الثامن عشر فكان من الكتاب الفرنسيين المتفائلين في إمكان تحقيق الإصلاح الاجتماعى . وقد اعتقد أنه استطاعة البشر أن يصلوا إلى ذروة الكمال ، ورأى أن السبيل لذلك هو استنارة عالميه وتعليم عقلائى . هذا إلى أنه اعتقد في المساواة بين البشر وأن التفرقة القائمة عندئذ يمكن التغلب عليها بنشر التعليم والتربية .

وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ظهر فليسوف التاريخ الإيطالى جيوفانى باتستافيكو (١٦٦٨ — ١٧٤٤) بمفهوم جديد للتقدم ، إذ غير عن اعتقاده في أن التقدم

البشرى لا يحدث بطريق مباشر أو في خط مستقيم وإنما يأخذ شكلاً لولياً . وأوضح أنه على الرغم مما قد يبدو من وجود دورات للتطور ، فإن هذه الدورات لا تعود إلى النقطة التي بدأت منها لأن كل دورة تكبر وتعلو عن سابقتها .

ثم كان أن ظهر في فرنسا بعد فيكو بفترة بسيطة نظرية للتقدم أكثر واقعية وضاحتها هو جاك تيرجو Jacques Turgot (١٧٢٩ — ١٧٨١ م) الذي كان من الزعماء الذين أسهموا في خلق فلسفة التاريخ . ذلك أن تيرجو أكد بصفة قاطعة فكرة استمرار التاريخ والخاصية المتطورة للتقدم ، كما أوضح أنه كلما ازدادت الحضارة تعقيداً كلما ازدادت سرعة التقدم البشرى ، ولذا فإن التقدم كان بطيئاً للغاية في العصور البدائية ثم ازدادت سرعته في العصور الحديثة .

أما كوندرسيه Condorcet وهو الكاتب الفرنسي البارز في فترة الثورة الفرنسية فكان له رأى أكثر تفاؤلاً إذ أنه لم يكتف بالتعبير عن اعتقاده في أن التقدم أمر حقيقى ، وإنما قسم تاريخ الحضارة إلى عشر حلقات كل منها تمثل مرحلة من مراحل تطور الجنس البشرى والحضارة البشرية . وأوضح أن تسعا من هذه المراحل قد انقضت فعلاً ، وأن الثورة الفرنسية والعلم الحديث قادا الجنس البشرى إلى حافة المرحلة العاشرة التى سوف تخلق عهداً من السعادة والرخاء لم يعرف مثله من قبل .

ومن بين آخرين كثيرين أسهموا بأرائهم في فكرة التقدم يبرز الفيلسوف الألماني هردر الذى حاول أن يصنع قوانين للتقدم مبنية على العمل المشترك للطبيعة والعناية الإلهية . كذلك هناك عمانوئيل كانط الذى حاول إثبات حقيقة التقدم الأخلاقى . أما الانجليزى البارز ولیم جودوين (١٧٥٦ — ١٨٣٦ م) فقد اعتقد أنه يمكن الوصول إلى الكمال عن طريق إلغاء الدولة والحيازة والملك وبيئ المنطق في العقول عن طريق التربية الخاصة . وهناك أيضاً هنرى دى سانت سيمون (١٧٦٠ — ١٨٢٥ م) الذى سار على نفس منهج الأب مقدم دير القديس بطرس ، والذي أكد ضرورة وجود علم اجتماع يوجه التقدم البشرى .

وأخيراً تبلورت كل هذه الأفكار ونجسنت في الفلسفة التاريخية وعلم الاجتماع كما تناو لها أوجست كانط (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) الذى أوجد نظاماً شاملاً للقوانين الخاصة بالتقدم الفكرى ، وصاغ فلسفة عريضة للتاريخ ، يقسمها الماضى إلى عدد كبير من الفترات وأجزاء الفترات ، وموضحاً أن كل فترة ترتبط بمرحلة معينة تميزها عن مراحل التقدم الثقافى .

وعلى الرغم من أن نظرية التقدم احتفظت بذلك التأييد الحماسى الذى حظيت به منذ عهد كانط ، إلا أن بعض الاتجاهات غير المتفائلة أخذت في الظهور ذلك أن بعض المفكرين من أمثال الفلاسفة الألمان فردريك نيتشه ، وأزوالد سبنجلر ، عادوا إلى الاخذ

بفكرة قريبة من نظرية الدورات التي كانت معروفة في العصور القديمة . ومن الأمور التي شاعت كذلك الاتجاه نحو استبدال فكرة التغيير بالتقدم ، بمعنى أن الأشياء آخذة فعلا في التحسن ، ولا تستطيع الآن أن تقطع بصحة هذا القول ، لكننا ندرك تماما أن هناك تغييراً يأخذ سبيله في كل مجالات الحياة والفكر . وأهم من ذلك أننا نعترف بسرعة هذا التغيير في مجالات العلم والحضارة المادية ، وبطئه الشديد في النظم والأخلاق . وهذا التفاوت في سرعة التقدم بين كل من الحضارة المادية والنظم الاجتماعية هو ما يعبر عنه اليوم ، بالتخلف الثقافي ، وهو أن من شأنه أن يضع الحضارة الحديثة على طريق محفوف بالمخاطر .

المراجع

- 1- J.E. Gillespie: A History of Geographical Discovery 1400-1800. Holt, 1933.
2. M. W. Spiphautz: The background of Geography, Liyopin cott, 1935.
3. A. P. Newton ed... : Travel and Travellers of the Middle Ages. Knopf, 1926.
4. Guilday: Church Historians, pp. 128 - 52.
5. Smith: A History of Modern Culture vol. II chaps VII- VIII.
6. Flint: Historical philosophy in France, pp. 334- 339.
7. Ritter: Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book IV.
8. Wegele: Geschichte der deutschen Historiographie, Book III.
9. Fueter: Histoire de l'historiographie moderne pp. 361. 80. 415. 516.
10. T.P. Peardon: The Transition in English Historical writing, 176- 1830. Columbia University press, 1933.
11. Adolf Rein: Das Problem der europärischen Expansion in der Geschichtsschreibung, Hamburg 1979.
12. Geoffrey Art Kimson, Les Relations de voyages du XVII siecle et l'evolution des idées, paris 1925.
13. Gilbert Chinard: L'Amérique et la rêve exotique dans la litterature française au xvii et xviii siecle paris 1934.
14. A. C. Wilgus: Histories and Historians of Hispanic America pan American Union 1942.
15. J.B. Black: The Art of History, Grofts 1926.
16. Thompson: History of Historical writing vol. II chaps XXX VIII-XXXIX
17. H.L. Bond: The Literary Art of Edward Gibbon, oxford university press 1960.

18. **Ferdinand Scheill**: Six Historians pp. 93-122 University of Chicago press 1956.
19. **E.T. Oliver**: Gibbon and Rome, Sheed and Ward 1959.
20. **F.E. Manuel**: The Age of Reason, Cornell university press 1951.
21. **The Eighteenth Century confronts the Gods**. Harverd University press 1959.
23. **Roman Rolland et al.**: French Thought in the Eighteenth Century David Mc Kay 1953.
22. **J.S. Spink**: French Free Thought from Gassendi to voltaire, Oxford University press 1960.
24. **J.H. Brumfitt**: Voltaire: Historian. Oxford University press 1957.
25. **R.R. Palmer**: Catholics and unbelievers in Eighteenth Century France. Pincerton University press 1939.
26. **F.C. Green**: Jean - Jacques Rousseau. Cambridge University press 1955.
27. **Freidrich Meinecke**: Die Entsenhung des Historismus, Munich 1936. 2 vols.
28. **G. M. Young**: Gibbon. Appleton, 1933.
29. **B. Pier**, Roberston als Historiker Und Geschichtsphilosoph, leipzig 1929.
30. **W. C. Lohmann, Adam**: Ferguson and the Beginnings of Modern Sociology. Columbia University press 1930.
31. **J. B. Bury**: The Idea of progress. Dover 1955.
32. **C. L. Becker**: The Heavenlycity of the Eighteenth century philosophers. Yale University press 1932.

الرومانسية وفلسفة التاريخ الرومانسيه بوصفها رد فعل للمذهب العقلاني

كشفت كتابات تلاميذ روسو الذين أشرنا إليهم في الفصل السابق عن رد فعل مباشر لآراء فولتير العقلانية القديمة ، وظهر رد الفعل هذا حتى قبل أن يصدر لويس السادس عشر مرسومه الملكي بإجراء انتخابات لإختيار أعضاء مجلس طبقات الأمة . والواقع ان قيام الثورة الفرنسية جاء عاملاً مدعماً لهذا الاتجاه ضد المذهب العقلاني ، إذ بدت أحداث الثورة الفرنسية بالنسبة للعنصر المحافظ من الناس وكأنها تهدم ما نادى به العقلانيون من آراء تافهة تجعل الكوارث هي التي تصنع التاريخ ، وأنه من الممكن تغيير النظم الاجتماعية عن طريق الاستجابة لمدى العقل وتوجيهاته .

على أن سوء الحظ شاء أن تؤدي المحاولة العظيمة التي بذلت لتصحيح ما في مبادئ روسو من تصنع إلى رد فعل عكسي إسم بأنه أقرب إلى الصحة والثبات من النظريات العقلانية . ذلك أن الرومانسية في الكتابة التاريخية تعنى ارتداداً مؤكداً نحو الجهل ، وكانت هذه الحركة مرتبطة أشد الارتباط بما تعرضت له الفلسفة السياسية والاجتماعية من رد فعل أقترن أساساً بأسماء : بيرك Burke ، دي بونالد ، دي ميستير De Maistre فون هالر⁽¹⁾ Von Haller .

وكانت القاعدة الأساسية في كتابة التاريخ عند الرومانسيين هي الاعتقاد بأن التطور الثقافي لأية أمة إنما تدريجياً ولا شعورياً . هذا إلى أن الرومانسيين آمنوا بأن كل مقومات الثقافة القومية ترتبط فيما بينها ارتباطاً أصيلاً وتتخذ في تطورها طريقاً واحداً . وإمتاز تفكيرهم بعنصر خيالي جعلهم يتصورون أن هذه القوى الخلاقة اللاشعورية تتحرك وتعمل بشكل غامض

(1) F.W.A.Dunning, A History of political Theories from rosseau to Spencer (Macmillan 1920) chap .
v.

يتحدى أى تحليل فكري مباشر . ومعنى هذا أن تطور ثقافة أية أمة ونظمها إنما يخضع لتأثير تلك القوى الروحية الغامضة ، التي أطلق عليها فون رانكه فيما بعد اسم (روح العصر) Zeitgeist . وأعطى الرومانسيون أهمية خاصة للتقاليد القومية والأفكار السائدة التي تشكل روح العصر والأمة . وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه المفاهيم إلى عقيدة (القدرة السياسية) وهي العقيدة التي تصور الأمة عاجزة أمام عظمة القوى الروحية الخلاقية . وهكذا صوروا الثورة على أنها عمل آثم لا جدوى من ورائه ، تنبئ إدانته وبالتالي فقد بدأت تبرز فلسفة والمهدوء السياسي ، التي لامعت ملاعقة تامة التيار الذي نادى به انصار مبدأ الحرية من أصحاب النظريات الاقتصادية والسياسية .

وانبثق عن هذا الاتجاه - خاصة في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية - تلك الخرافة الخادعة المعجوجة التي تصور الشعوب الأنجلو ساكسونية . كأحسن مثال للشعوب المتسمة بالمهدوء السياسي ، وأنها شعوب تتسم بمقدرة سياسية أصيلة . ثم برز اعتقاد لا يقل في خطئه عن سابقه يصور الفرنسيين في صورة النموذج الصرف للأمة الثورية غير المستقرة التي تفتقر تماما إلى القدرة السياسية^(١) وكان هذا الاعتقاد الخاطئ في أساسه ميبا - أكثر من غيره - في تشويه الدقة التاريخية والفلسفة السياسية في القرن التاسع عشر . واستحال التغلب عليه تماما حتى يومنا هذا .

ثم ان انتشار فكرة ان الثقافة القومية ذات طبيعة نقية لها صبغتها الوطنية الخاصة وذاتها المستقلة ، ادت إلى تضيق وإنحسار النظرة العالمية الممتازة التي كانت لدى اصحاب المذهب العقلاني ، مما ركز الاهتمام بالتاريخ القومي^(٢) . ولم تلبث أن أصبحت العصور الوسطى هي أهم ما تدور حوله البحوث التاريخية عند كل الأمم ازاء النظرة إلى هذه العصور بوصفها ذات خصوصية خاصة بالنسبة للبحث التاريخي ، فضلا عن أن العصور الوسطى شهدت إنشقاق مختلف الثقافات القومية . هذا بالإضافة إلى أن تعاطف الرومانسية مع كثير من ردود الفعل العقلانية في العصور الوسطى فيما يتعلق بمشاكل الوجود والتطور الثقافي . ومما قوى هذا الاتجاه الأخير أن كثيرا من الرومانسيين كانوا إما كاثوليك أو ممن رجعوا إلى الكاثوليكية . واعتقد الرومانسيون ان اللغة هي أعظم سمات الشخصية الفريدة للثقافة القومية ، وهو الاعتقاد الذي تأصل في ألمانيا حيث كانت اللغة هي الرابطة الرئيسة للأمة ، مما أدى إلى وجود أبحاث عظيمة في فقه اللغة إقترنت بأسماء هامبولدت ، وولف ، وجريم ، لاشمان .

(١) رغم ان الرومانسيين كان اتجاههم إلى التركيز على الناحية القومية فإنه كانت هناك لحة عالية في فلسفتهم ترجع إلى حد ما إلى ان اهتمامهم بالثقافة الفلسفية التاريخية كان لها لطاقها العالي . ولذلك هردر وقد جمع مادة عن روح الأغاني عند كل الشعوب وشيكل كتب عن الأدب العالمي (المؤلف)

(٢) Cf. H. G. Ford, the Anglo-saxon Myth American Mercury, September 1924- and J. T. Shotwell 'The political capacity of the Franch' in political science quarterly March-1909.

وعلى الرغم من أن الكتابات التاريخية للمدرسة الرومانسية كانت تمجد الأمة التي
إتّمت إليها أولئك الكتاب ، فإنها لم ترد عن كونها مجموعة من التراجم . ويرجع ذلك إلى
حقيقة ما أحسوا به من سحر الحديث عن شخصية من الشخصيات . هذا إلى أن التراجم
كانت تتفق مع افقهم الأدبي العريض . وبين لنا هذا الاتجاه الذي بدأ — حتى في المرحلة
المبكرة من الرومانسية — كيف شاعت نظرية الشخص العظيم وانتشرت قبل عهد كارليل
بوقت طويل .

وازاء ما آمن به أصحاب المدرسة الرومانسية من أنه لا أمل يرجى وراء التحليل
الفكري المفصل لتعليل أحداث التاريخ ، فإن فلسفتهم التاريخية دارت في حلقة مفرغة .
فبدون إعطاء أى تفسير علمي لتطور روح الأمة نجدهم يعزّون خصائص النظم القومية وشرائع
الأمة وآدابها ونظام الحكم فيها إلى عبقرية الأمة . وصورت خصائص القومية على أنها النتائج
الفنى والأدبي والتشريعي والتنظيمي لبناء هذه القومية . وعلى الرغم مما يبدو من اتجاه معاد من
أصحاب المدرسة الرومانسية لحركة الامتتاع ، وعلى الرغم كذلك من أفكارهم الفلسفية
المتطرفة ، فإنه من الانصاف لهم أن نقرر ما أكدوه من أهمية العنصر اللاشعوري على التطور
التاريخي فضلاً عن تأكيدهم لحقيقة هامة وحيوية ، هي الترابط الأصيل بين مقومات الثقافة
القومية . ولا يمكن أن تغفل الحقيقة الخاصة بأن أصحاب المدرسة الرومانسية كان مفهومهم
عن تطور الثقافة وتطور الأنظمة أكثر سلامه وأوسع أفقا من مفهوم المؤرخين العقلانيين بوجه
عام . وإذا كانوا قد بالغوا في خيالهم عن طبيعة العصور الوسطى وأهميتها ، فإنهم كانوا
أصحاب الفضل في تصحيح نظرة العقلانيين إلى تلك العصور ، وهي نظرة كانت مفعنة
بالازدراء . ولم يبق على لامبرخت الذي جاء بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان أن يتناول كل ما
هو قيم حقا في المذاهب الرومانسية وأن يصيغ منها نظريته الشهيرة عن التطور التاريخي بوصفه
عملية تحول وتغير بالنسبة للأمة والبشرية جميعا .

الرومانسية والكتابة التاريخية

كان أثر الرومانسية على الكتابة التاريخية كبيرا ومتشعبا ، ذلك أن مبادئها دخلت في
مجال البحث في الأصول القانونية على يد آدموند بيرك ثم استخدمها في نفس المجال بعد ذلك
بطريقة متغلطة كل من كريستيان هوبولد (١٧٦٦ — ١٨٢٤ م) وكارل فردريك انجهورن
(١٧٨١ — ١٨٥٤ م) . وقد تناول انجهورن في كتابه (تاريخ القوانين والنظم
الألمانية) نشأة القانون الألماني بالمدرسة . وكان انجهورن إينا لأحد الأوائل الذين درسوا الحضارة

الشرقية دراسة علمية ، وأخذ عن أستاذه جوستاف هوجو (١٧٦٤ — ١٨٤٤) فكرة أن القانون هو نتاج موهبة قومية . والواقع أن الإنجهورن نفسه كان وطنيا متحمسا ، يحكم أنه عاصر الفترة النابوليونية ، وساء ما لحق ببروسيا حين إمتشقت الحسام ضد نابليون من هزائم في موقعي بينا واورشناد سنة ١٨٠٦ . وقد شرع في تطبيق تلك الآراء القومية في دراسة مسهبة قام بها عن أصول القانون الالماني . وقد عالج في هذه الدراسة القانون الالماني ككل وتناول سوابقه واتضح تأثير كل جوانب الثقافة القومية على تطور هذا القانون وأكد بصفة خاصة الطبيعة المتطورة للقانون . وقد مجد في عمله هذا القومية الألمانية ووجه الانظار نحو الدراسات القانونية الألمانية .

وسارفردريك كارل فون سافيني (١٧٧٩ — ١٨٦١ م) في نفس اتجاه الإنجهورن ، فوضع كتابا بعنوان تاريخ القانون الروماني في العصور الوسطى وأوضح تأثيره على الثقافة والنظم . وسافيني الفضل كذلك في تأسيس الجمعية العلمية التي نسبت إليه والتي نشرت زبدة الدراسات الخاصة بتاريخ القانون . وعبر سافيني عن آراء المذهب الرومانسي واتجاهاته في مناظرة شهيرة جرت بينه وبين ثيو حول موضوع تقنين القانون الالماني . ولما كانت هذه الفكرة ضد الاتجاه الرومانسي فإن سافيني عارضها بشدة . ويمثل دوره في هذه المناظرة الخالدة أعظم وأقدر دفاع عن المفهوم القائل بأن القانون ليس إلا نتاج العبقريّة القومية لأي شعب من الشعوب^(١) . ثم كان أن تجسدت نفس وجهة النظر هذه في كتاب ألفه عالم عظيم في فقه اللغة هو يعقوب جرم (١٧٨٥ — ١٨٦٣) بعنوان الآثار التشريعية للشعوب الجرمانية ، وفيه استغل المؤلف معرفته الواسعة باللغة والعادات ليثبت أن القانون نتاج لروح الشعب .

والملاحظ ان اهتمام الرومانسين حتى ذلك الحين بالقانون كان إهتماما ذا طبيعة تاريخية بحثة حتى جاء إدوارد جانز Eduard Gans (١٧٩٨ — ١٨٣٩) وخرج على التقاليد التي وضعها سافيني وأدخل لونا فلسفيا على المناقشة التاريخية الخاصة بالقانون متأثرا في ذلك بفلسفة هيغل . وعلى هذا الأساس قام جانز باستقصاء الحقائق المرتبطة بقوانين الميراث ، وذلك منذ أيام الصين القديمة حتى القانون الجرمانى في العصور الوسطى . كذلك كتب جانز عن القانون الرومانى ودخل في مناقشات عديدة مع سافيني حوله . وبدأت في ذلك الدور حركة تناولت جوانب الثقافة للقومية المختلفة بإرجاع أصولها الى العصور الوسطى . وقد تناولت هذه الدراسة كذلك أصول الثقافة الميروفنجية وتضمنت دراسة المساكن والمدن والطوائف الجرفية وماشابه ذلك . والملاحظ أن الكتاب الألمان كانوا يميلون إلى تأكيد نظرية سيادة الاصل التوتونى في حين قال الفرنسيون بأن ثقافة العصور الوسطى ونظمها أساسها غالى رومانى .

(1) Aiw Small: Oregins of Socabgy (Cunwessity of chicago pness 1925) Chap

أما في ميدان الأدب وعلم الجمال فقد ظهرت وجهة النظر الرومانسية فيما كتبه رفقاء جريم واعني شاتوبريان ، ومدام دي ستايل ، وفيلمين ، وجرفينوس ، وهم الذين جمعوا في عمل فائق غيره من كافة النواحي عددا هائلا من القصص الشعبي والخيالي وما شابه مما يعرف بأدب مارشن Marchen . أما فرانسو رينيه أوغسط دي شاتوبريان (١٧٦٨ — ١٨٤٨ م) فعلى الرغم من ميوله المحافظة فإنه عبر عن عملية تحول فكري ملحوظ عندما كتب أول مؤلف هام له تحت عنوان « بحث تاريخي سياسي وأخلاقي حول الثورات » (١٧٩٧) وجاء مؤلفه هذا من وجهة نظر معارضة للثورة الفرنسية . وقد استعرض فيه اثني عشر ثورة كبرى من الثورات التي قامت في الماضي يثبت عدم جدواها وشراستها وإنها عمل تافه لم يخلد شيئا . ومع ذلك فإنه اعترف إن الثورة الفرنسية كانت أمرا لا مفر منه . وفي عمله هذا تجده يشارك النظريات الفلسفية الفرنسية في عداوتها للمسيحية ، وإن كان قد تحول سنة ١٧٩٩ مثلا قبل أوغسطين إلى الولاء للديانة المسيحية على أثر وفاة أمه . وهكذا مر فرانسو في تحول فكري جارف وتمكنت عواطفه من أن تنطلق من معاقلها ليخرج سنة ١٨٠٢ كتابه « عقيدة المسيحية » الذي أكد فيه ما أحدثته المسيحية من إلهام قوي للفن والشعر وكيف أنها دفعت البشرية نحو التقدم والكمال . وتميز هذا الكتاب بالاستعارات والتشبيهات الجميلة خاصة فيما جاء من وصف للطبيعة . وإستفاد شاتوبريان من زيارته للعالم الجديد وما شاهد وحصل عليه من معرفة فضلا عن أنه إستغل خياله أحسن إستغلال . ثم ظهر كتابه الثاني عن المسيحية في عصرها الأول بعنوان الشهداء (١٨٠٩) وهو الكتاب الذي كان أبعد في مسحته التاريخية من الكتاب السابق ، إذ إمتاز بمسحة الورع التي برزت فيه وتجميده للمسيحية في أيامها الأولى ، فضلا عن وصفه الرائع لغابات بلاد غاليا القديمة وللحياة التي عاشها المسيحيون الأوائل والمقابر التي دفن بها شهداؤهم ، كما تناول بالوصف الحضارة الرومانية في ظل الامبراطورية . والواقع أن شاتوبريان كان له أكبر الأثر في خلق الإهتمام بالوصف التصويري وابتكار صورة عاطفية عن أصل المسيحية وتطورها . وكان لأعماله التي أشرنا إليها أخيرا أثر أكبر من غيرها في القضاء على فكرة المتعقلين في العصور الوسطى . وإمتاز كتابه (الشهداء) بنغمة قوية بما أدى إلى رواجه ، إذ مجد شاتوبريان المسيحية الفرنسية . هذا إلى أن ما كتبه عن ملك فرنسا الاسطوري فاراموند يعتبر من أروع وأبدع ما كتب . والحق أن مواهب شاتوبريان كانت أدبية أكثر منها علمية ويقول عنه الأستاذ رايت « أن شاتوبريان » واحد من أعظم الكتاب الذين يدعون لأنفسهم مالميس لهم وينسبون لأنفسهم نتاج غيرهم ، ولكنه أمتلك من الصفات ما غفر له كل ذلك ، إذ أنه ترك أثرا في عصره لم يكن لأي شخص آخر منذ أيام روسو ، فضلا عن أنه يعتبر أب الرومانسية الفرنسية (١)

C.H.C. Wright - A history of French literature (Oxford).

ثم يأتي الحديث عن مدام آن لويز دي ستايل (١٧٦٦ - ١٨١٦) Madame Anne Louise destaeuf كانت ابنة ينكر وزير مالية فرنسا فيما قبل الثورة . عشقت المذاهب الحديثة للثورة الفرنسية بتأثير من أفكار روسو . لكنها كرهت نابليون كعدو مزعوم للثورة والجمهورية . لذلك تركت فرنسا وسافرت في طول البلاد وعرضها . وتأثرت بأراء شليمل وكوتسنت . ويسبق عملها عن الثورة بما جاء به دي توكوفيل De Tocqueville من إنها (الثورة) نتاج طبيعي لظروف فرنسا في القرن الثالث عشر .

أما أعظم كتاب لها فهو ما اسمه بالأدب وعلاقته بالظروف الاخلاقية والسياسة للأمم ، والذي صدر سنة ١٨٠٠ فقد استخدمت تاريخ الأدب لتؤكد نظريتها عن أن النماذج والأنماط الأدبية هي نتاج مباشر للمحيط الاجتماعي الذي يتأثر هو الآخر في عمق بالوضع الجغرافي وخاصة المناخ . وقد استقت هذه الفكرة الأخيرة من مونتسكيو . وأكدت أن الديمقراطية هي نموذج اجتماعي جديد يحتاج إلى لون جديد من النماذج الأدبية . ولقد أوضح آخر وأطول أعمالها عن ألمانيا والذي صدر سنة ١٨١٠ أنها تأثرت كثيرا بالرومانسية المسيحية . وحاولت في كتابها الأخير أن تبث المثل الفرنسية عن القومية في ألمانيا وأن تثير اهتماما بالأدب الألماني لدى القراء الفرنسيين .

ثم لدينا ابل فرانسوا فيلامين Abel François Villemain (١٧٩٠ - ١٨٦٧) كان استاذا للأدب في السوربون وواحدا من مؤسسي الدراسات الأدبية العملاقة في فرنسا . وكانت محاضراته واحدة من المحاولات الأولى العملاقة في الأدب الأوروبي المقارن . وطبع أجزاء منها في مقتطفات من الأدب الفرنسي في العصور الوسطى ومقتطفات من هذا الأدب في القرن الثامن عشر . وقلد مدام دي ستايل وأكد بصفة خاصة القول باعتماد الأدب في كل وقت على الأفكار السائدة في المحيط الحضاري . وتتبع هذا سانت بييف وتاين Saint Beuve and Taine

وصوف تتناول فيما بعد الكاتب جرفينوس بوصفه نموذجا للكتابة التاريخية الرومانسية ، وتكفي هنا بالإشارة إلى كتابه الهام « تاريخ الشعر الألماني » الذي حاول جاهدا فيه أن يبين العلاقة بين كل مرحلة من مراحل الأدب والشعر الألماني من ناحية وبين الثقافة التي انبثق منها من ناحية أخرى . وثمة دافع سياسي معين دفع جرفينوس إلى تأليف هذا الكتاب وفضلا عما برز فيه من اتجاه خاص نحو الأدب الألماني فقد كان يرغب في أن يحث كبار مفكرى عصره للتخلص من الاهتمام بالشعر وتحويل جهودهم نحو العناية بدراسة موضوعات الإصلاح السياسي في ألمانيا وأعتناق المذهب الليبرالي . وهكذا يبدو أنه بينما امتدح كبار الشعراء الألمان في الماضي ، اذا به يخالف نفسه ويقول إن الألمان استنفذوا طاقتهم الخلاقة في مجال الشعر وأن جوته يمثل آخر العباقرة الألمان في ميدان الشعر .

وفي إنجلترا كان أبرز كتاب المدرسة الرومانسية في مجال التاريخ والأدب هو السير والتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢ م) الذي جاء انتاجه في الأدب أكبر وأهم مما كتبه عن تاريخ الأدب ولا يوجد هناك أديب فعل أكثر مما فعله سكوت بما في ذلك شاتوبريان نفسه وذلك فيما يتعلق باثارة الاهتمام بحياة العصور الوسطى ونظام الفروسية فيها . وتجلت قدرته الأدبية الفنية في القدرة على إعادة صياغة الماضي في صورة تنفق والصيغة المحلية الإقليمية . وكانت لكتبه « ايفانهو » و « تاليزمان » كذلك لرواياته عن اسكتلندا في العصور الوسطى أثر كبير لا في مجال الأدب وتذوقه فحسب بل على نظرة المؤرخين الى العصور الوسطى منذ أيام اوغسطين تيرى حتى اندرو و هوأيت . ثم إن سكوت أخرج بعض الأعمال التاريخية البحتة مثل مؤلفه الطويل بعنوان حياة نابليون ، ولكنها جاءت ضئيلة الأهمية اذا ما قورنت بتأثير رواياته التاريخية على فكر المؤرخين الجادين .

وبينا جرت العادة على إرجاع بداية الكتابة التاريخية الرومانسية إلى عهد تلاميذ والتر سكوت ، شاتوبريان ، اذا بالأستاذ بيردون وآخرين يؤكدون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية بدأها في إنجلترا قبل عصر سكوت وشاتوبريان . ودعم هذا الاتجاه الإيمان بالحياة الطبيعية البدائية فضلا عن الورع والخيال اللذين سادا بريطانيا في العصور الوسطى . كذلك لعبت العنصرية دورا هاما في هذا المجال إذ استبدلت الآراء التي سادت العصور الوسطى عن الأصل الطروادى للبريطانيين بنظرية جرمانية مفادها أن كل الأجناس الأوربية الهامة انحدرت من أصل قوطى بحيث يكون الحديث عن التاريخ الانجلوساكسونى أمرا ثانويا إلى جانب بطولات القوط واعمالهم المجيدة .

وكان أن ظهر الاهتمام الجديد بإنجلترا الأنجلوساكسونية في عدد من المؤلفات ، أهمها تلك التي وضعها جتا ويتكر John Whittaker ، شارون تيرنر . أما عن ويتكر فكان أحد النقاد والمتحاملين على كل من هيوم وروبرتسون وجييون . استهدف أن يعيد كتابة تاريخ العصور الوسطى في إنجلترا بشكل جاد . وحاول أن يحقق ذلك في كتاب مطول عنوانه تاريخ منشتر (١٧٧١ — ١٧٧٥ م) . ولكنه لم يتم منه سوى الأجزاء الخاصة بعصر ما قبل الرومان . وحاول أن يرجع الخواص المميزة للنظم الإنجليزية مثل البرلمان ، والاقطاع وحرية المواطنين ، إلى عصر ما قبل النورمان ، وبذل كل جهده ليعزز السحر الرومانسى ، لذلك الدور المبكر من التاريخ الإنجليزي ، كما نafs بوصويه إلى حد كبير في قدرته على تلمس القدرة الألهية في صنع التاريخ .

أما شارون تيرنر الذي جاء بعد ذلك ، فهو أكثر مقدرة من ويتكر ووضع كتابه الرئيسى بعنوان « تاريخ الانجلوساكسون » (١٧٩٩ — ١٨٠٥) وفيه حث على ضرورة زيادة الاهتمام الدقيق بتاريخ بريطانيا المبكر وأوصى بدراسة الأنجلوساكسون قبل مجيئهم إلى إنجلترا

دراسة دقيقة . وقد آثني على الانجلوساكسون ومجدهم وقارنهم بأسلافهم الرومان الذين كانوا قد اصابهم الوهن والانحلال . وهنا نلمس البوادر الأولى لفكرة تفوق الانجلوساكسون على الرومان وهي بداية النعرة الجرمانية العنصرية التي وجدت التعبير الكامل عنها في كتاب شارلز كنسجلى (الرومان والتوتون) . ومع ذلك فان كتاب تيرنر أول كتاب دقيق واضح عن إنجلترا الانجلو ساكسوتية وأدت به حماسته للانجلوساكسون إلى وقوعه في عدة أخطاء مثل محاولته إرجاع أصل البرلمان الإنجليزي إلى ما كان موجودا في إنجلترا الانجلوساكسونية من مجالس تضم أساقفة وبحكام المقاطعات وبغض مندوبي الملك ، ومحاولته ايضاح أن نظام المحلفين كان موجودا في إنجلترا الانجلوساكسونية وجاء هذا بادرة لتسرب الروح الجرمانية لدى مؤرخي النظم الإنجليزية . أما كتاب تيرنر عن التاريخ الإنجليزي من الغزو النورمانى حتى القرن السادس عشر فجاء أقل مستوى وإن كان إهتم إهتماما غير عادى بثقافة العصور الوسطى وآدابها ، وأوضح فيه علاقة بريطانيا بالقارة الأوروبية . وكان يشارك هويتا كره إعتقاده بأن الرب هو صانع التاريخ يدير أحداثه ، وأثنا في دراسة التقدم البشرى نجد يد الله هي الموجهة والصانعة والراعية له . ويمكننا كذلك ان نلمس بوضوح في اعمال جون بنكرتون ، ويوسف سترت أكثر من محاولة لتجسيد الثقافة البريطانية في العصور الوسطى وتصويرها تصويرا رومانسيا . ففي كتاب بنكرتون تاريخ اسكتلندا الذي ظهر بين سنتي (١٧٨٨ - ١٧٩٧ م) حماسة بالغة لإحصاء وتجميل أدب بريطانيا في العصور الوسطى وخاصة الشعر في تلك العصور . وكان بنكرتون من أوائل زعماء الدعوة العنصرية ، اذ اعتقد في الأصل القوطى للشعوب الأوربية الرئيسية ، وشبه القوط بشعب اسكتيا الذين ورد ذكرهم في الكتابات التاريخية القديمة على أنهم أصل الشعوب القديمة . بل لقد ذهب إلى حد القول بأن البكتيين وهم شعب اسكتلندا كانوا من أصل قوطى . والواقع أن هذا التمجيد للقوطية لم يكن سوى نوع من الآرية المبكرة في القرن الثامن عشر . أما يعقوب سترت Jacob Strutt فإنه اتجه بالرومانسية للدراسة تاريخ العصور الوسطى من الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وهما الجانبان اللذان سبق أن ايدى أصحاب المدرسة العقلانية اهتماما بدراستهما . وله في ذلك كتابان هما نظرة شاملة على ملابس الشعب الإنجليزي وعاداته ، وقد ظهر هذا الكتاب بين سنتي ١٧٩٦ - ١٧٩٩ م) وكتاب « رياضة الشعب الإنجليزي ووسائل التسلية عنده » وقد صدر سنة ١٠٨١ . وكان سترت مبتكرا ومعقولا في اعتقاده ان الألعاب الرياضية تعكس روح الشعب أفضل مما تعكسه الحروب التي يخوضها ذلك الشعب أو سياسته الدستورية والديبلوماسية .

ودخل الاتجاه الرومانسى الى تاريخ الكاثوليكية البريطانية في العصور الوسطى على يد مؤرخ كاثوليكي هو يوسف بيرنجتون (١٧٤٦ - ١٨٢٧) Joseph Barington فضلا عن اخوين من أسرة مياز من اتباع الكنيسة الانجليزية . أما بيرنجتون فكان قسيسا شارك الرومانسين

حماسهم للحرية . ومثلما حاول سبترل أحد رجال المدرسة العقلانية من جعل كنيسة العصور الوسطى الكاثوليكية تخدم المذهب العقلاني وتؤيده ، كذلك حاول بيرنجتون أن يبين أن الكنيسة الانجليزوية الكاثوليكية في العصور الوسطى كانت تؤيد بحماسة مبدأ حق المواطنين في الحرية ، وركز على أحداث معينة لأبواب وجهة نظره ، مثل قضية توماس بكت . كذلك لجأ بيرنجتون فيما كتبه من أبحاث وكتب أخرى مثل ما كتبه عن ايلارد ، وهلواز Heloise إلى تجميد كاثوليكية العصور الوسطى في بريطانيا والقارة الأوروبية . ومع ذلك فإنه يتقد في كتابه تاريخ الأدب في العصور الوسطى الذي ظهر سنة ١٨١٤ . الأدب والعلوم في تلك العصور . أما يوسف واسحاق ميلز فقد أظهر في كتابها (تاريخ كنيسة المسيح) الذي ظهر ما بين ١٧٩٤ - ١٨٠٩ حماسا للكاثوليكية الرومانية على الرغم من أن كتاباتها جاءت من زاوية الكنيسة الأنجليكية ، ذلك أنها حاولت جاهدين أن يوضحا أن المسيحية الحقيقية - أي تعاليم يسوع - هي التي كانت سائدة بصرف النظر عن شكل الكنيسة الخارجي ومذهبها ، وخرجا من ذلك إلى القول بأن العصور الوسطى شهدت كثيرا من خيرة المسيحيين الكاثوليك . ومن هنا فاهما حرصا على هدم وجهات نظر البروتستانت والعقلانيين سواء فيما يتعلق بالمنهجية في العصور الوسطى . وكان موقفها الرئيسي يتلخص في أن المسيحية خرجت إلى الوجود في (ثوب روماني) وأن المؤرخ الوفي للمسيحية لا ينبغي أن يتأثر بهذه الحقيقة عندما يعالج تاريخ الكنيسة .

ولم يقف أصحاب المدرسة الروائية من المؤرخين الرومانسيين عند حد التأثير بالنظريات العامة والآراء التي أوردوها فحسب ، بل أنهم تأثروا كذلك باللون الأدبي الذي تضمنته روايات والتر سكوت التاريخية بما تحويه من تأكيد وتركيز مستمرين على إبراز الطابع الإقليمي والمحلي . والحق أن هذا الاتجاه ليس الاتجاه السليم للتاريخ لأنه كان يستهدف أساسا تصوير أحداث من الماضي بطريقة تجعلها تبدو في صورة الأحداث المعاصرة في وضوحها والعيش في أجوائها ، ومن ثم فإن إنتاج أصحاب هذا الاتجاه جاء عملا أدبيا أكثر منه كتابة تاريخية بالمعنى العلمي الصحيح . ومع ذلك فإن أثر هذا الاتجاه على الكتابة التاريخية السليمة يكمن في أن عنصر التشويق الأدبي فيه أثار اهتماما كبيرا بالتاريخ في شكل لم يسبق له مثيل . وكان أن انضم إلى ميدان الكتابة التاريخية في الوقت المناسب كثير من العلماء البارزين أمثال ليوبولد فون رانكه الذي كانت جهوده وحده في ميدان التاريخ أفضل من كل ما أسهم به رجال المدرسة الروائية الرومانسية بأمرها . ومن أهم ما أنتجته هذه الباقية المتنوعة في مجال الكتابة التاريخية الرومانسية ، يحتل كتاب أوغسطين تيري Augustine Thierry

(١٧٩٥ - ١٨٥٦ م) عن تاريخ الغزو النورماني لإنجلترا وقصص عن العصر البروفنشي أهمية خاصة . هذا فضلا عن كتاب أمابل دي بارالت (١٧٨٢ - ١٨٦٦ م) - تاريخ الدويلات الإيطالية - تاريخ الأراضي المنخفضة والتاريخ العالمي لتاريخ ليو (١٧٩٩ -

(١٨٧٨) وكتاب تاريخ القرن التاسع عشر مؤلفه جورج جوتفريد جرفينوس (١٨٠٥ - ١٨٧١ م) .

أما عن ثييري Thierry فقد تأثر في شبابه بقراءة كتاب الشهداء لثاتويريان ثم روايات والتر سكوت التي قرأها بعد ذلك بوضع سنوات ، مما جعله يعطى اهتماما خاصا لإبراز الجانب المحلي في كتاباته . وعندما أخذ يكتب كانت لديه فلسفة سياسية معينة خلاصتها الاخلاص للبرجوازية والنظام الجمهوري مع كراهيه للأرستقراطية وهو الشعور الذي كان قد استقاه إلى حد ما من سانت سيمون ، ثم أنه كان يعتقد ان الطبقات الأرستقراطية قامت على القهر والغزو ومساندة الغزاة الأجانب . وعبر في كتاباته عن العصور الوسطى لكراهيته الشديدة للأرستقراطية الفرنسية القائمة في أيامه ، فصور طبقة النبلاء في العصور الوسطى في صورة جماعة وحشية مستغلة غير مهذبة . أما في كتابه عن الغزو النورماندي فقد وجد في تاريخ ولیم الفاتح والغزو النورماندي ما يدعم آرائه . كذلك في كتابته عن الميروفنجين تتبع أصول الأرستقراطية الفرنسية وبين انها تنحدر من سلسلة من الدخلاء الأجانب تبدأ بالفرنجة ثم النورمان . ولا شك في أن تعصبه العنصري زاد من كراهيته للطبقات الأرستقراطية . على أن ثييري لم تتوافر لديه قدرة ناقدة كبيرة عند رجوعه إلى المصادر التاريخية ، فعلى الرغم من انه استبعد المصادر الثانوية التي لايعتد بها ، إلا أنه لم يكن على قدر من الكفاية تمكنه من التحقق من صحة مختلف الروايات . ومع ذلك فإنه تمتع بخيال تاريخي بناء خصيب وحاسة فنية وأسلوب سلس جذاب ، وكان لفلسفته السياسية الفضل في جعل كتاباته التاريخية مقبولة لدى المفكرين البورجوازيين في فرنسا . وإذا كانت كتيبه قد لاقت رواجاً هائلاً عند صدورها إلا أنها غير مقبولة اليوم بوصفها لا تعبر عن كتابة تاريخية حقيقية مترنة عن فرنسا أو إنجلترا في العصور الوسطى أما كتاباته عن الكومونات الفرنسية في العصور الوسطى فإنها تعبر تماماً عن ميوله البرجوازية .

أما بارانت فكان بوصفه مؤرخاً أقل كفاية من ثييري ، ولكنه كان أعظم منه في قدرته على تصوير الصيغة المحلية للتاريخ ، وكان متأثراً بسكوت شأنه شأن ثييري وانجه في انتاجه إلى تقديم سرد واثق تمتع بجذاب يقوم على اساس تاريخي . واختار لدراسته تاريخ مقاطعة برجانديا في العصر الذي تناوله أقلام كبار المؤرخين فرواسار وكومين . ومن المعلومات التي استقاهها من المصادر المعاصرة لتلك الفترة حاول اخراج رواية رائعة . وعلى هذا الأساس يمكن القول ان عمله كان إعادة صياغة لحلت من الأحداث بأسلوب بلاغي . ومع ذلك فقد كانت تنقصه القدرة الناقدة التي تمكن الكاتب من تقدير مدى صحة المصادر التي استند اليها . ولم يسمح بارانت لآرائه الخاصة أن كان لديه شيء من هذه الآراء — أن تترك انطباعها على سرده التاريخي ، ولذلك فإن عمله جاء خالياً تماماً من أية تأملات أو تفسيرات أو شرح أو نظرة فلسفية . ومع ذلك فإن أسلوبه الساحر كان كفيلاً بأن يجذب إليه جمهرة كبيرة من القراء المتحمسين .

أما عن ليو Leo فانه خير نموذج يعبر عن اتجاه المدرسة الروائية في الكتابة التاريخية الرومانسية في ألمانيا . وكانت أهم اعماله هي تلك التي تناول فيها المدن الإيطالية المستقلة في العصور الوسطى فأعاد تصويرها مبرزاً اللون المحلي الذي إصطبغت به كتابات المؤرخين في العصور الوسطى . وعلى الرغم من تأثر ليو في شبابه بالمذهب الليبرالي Liberalism فانه تحول بعد ذلك إلى الجانب المحافظ . ومع أنه أحتفظ بمذهبه البروتستانتي من الناحية الشكلية ، إلا أنه سرعان ما أصبح منحازاً من الناحية العاطفية إلى كاثوليكية العصور الوسطى ، الأمر الذي جعل له نفس روح شاتوبريان تقريباً . ولم يظهر هذا الاتجاه عند دراسته للعصور الوسطى فحسب ، ولكن ظهر أيضاً في حكمه القاسي على اليهود وعلى لوثر وعلى حركة الإصلاح الديني وعلى الثورة الهولندية ضد أسبانيا الكاثوليكية . ولكنه فقد شعبيته أثر نزاعه مع فون رانكه وغيره من الأعداء الذين دخل معهم في صراع مرير . وأما أسلوبه فقد أُنصف بالوضوح وتفوق على كل من ثييري وبارانت في استخدام المصاير بشئ من القدرة على التفضيل بينها .

أما جرفينوس فكان تلميذا لشلوزر وكانت أكثر اهتماماته بالناحية السياسية على حين أنه كان أقل اهتماماً بالجانب الأخلاقي من استاذه . وكان شاغله السياسي هو تحرير ألمانيا ، ولذا فإن غرضه السياسي الواضح من وراء كتابه عن تاريخ الشعر الألماني هو إثبات أن ألمانيا انتجت ما يكفيها من روائع الشعر وأنه لم تعد هناك حاجة للمزيد منه ، وأنه على شعراء عصره أن يحولوا أنبائهم إلى السياسة . وكانت أهم أعمال جرفينوس كتاب بعنوان « تاريخ القرن التاسع عشر » تتبع فيه بصفة خاصة الحركات والاتجاهات الدستورية والديمقراطية والجمهورية . وقد اعتبر الحركة من أجل الحرية نضالاً للأفكار الديمقراطية التي صبحت حركة الإصلاح الديني ونجحت الأرستقراطية الموروثة عن كنيسة العصور الوسطى من ناحية وعن النظام الملكي وطبقة النبلاء في تلك العصور من ناحية أخرى . ويوضح ذلك أن تفهمه لحركة الإصلاح الديني كان محدوداً لأن هذه الحركة في بعض نواحيها جاءت تدعياً للحق الألهي للملوك والملكية المطلقة . ولم يكن يحفل بالوحدة الألمانية حيث أن تحقيقها يتم على اساس التضحية بالحربة .

وثمة تأكيد للجانب الموضوعي في المدرسة الروائية ، يبدو في اعمال مجموعة من الشعراء الغنائيين الموضوعيين أمثال ميشليه ، وكارليل ، وفرويد Froude . وهم الذين يعبر انتاجهم عن محاولة لإبراز الطابع المحلي على سبيل الأحداث التي يسردونها وفي نفس الوقت إبراز الإنطباعات والاتجاهات الذاتية للمؤلف . وقد استهدفوا تصوير الأحداث للقارئ وكأنها تدور فعلاً أمام عينيه حتى يشارك الكاتب إحساساته وانطباعاته .

ويعتبر كتاب تاريخ فرنسا الذي ألفه جولس ميشليه Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤ م) من أعظم الكتب الأوربية التي كتبت عن تاريخ فرنسا في أي عصر

سواء من ناحية فصاحته او من ناحية عرضه المتير . ذلك أن المؤلف تملكته مشاعر حب جارف لوطنه وتوافرت لديه قدرة خيالية خلقة رائعة ، وكتب بأسلوب اتسم برويعة وقدرته على استخدام الكلمة والتأثير بها فضلا عن المهارة في استخدام الرمزية . وظلت نظرة ميشليه الرومانسية وطريقته في كتابة التاريخ ثابتة دون أن يطرأ عليها تغيير طوال حياته ، وإن كانت اتجاهاته السياسية والدينية فضلا عن مزاجه قد انتابها التغيرات الكثيرة مما أثر على نغمة كتاباته التاريخية . ذلك أنه بدأ كاثوليكيًا مخلصا ولكنه تحول بعد ذلك إلى الليبراليه وعشق العلم والمعرفة وقد اقنعت دراسته وترجمته لكتاب فيكو عن العلم الجديد أنه من الممكن التوفيق بين العلم والعقيدة ، وهذه الروح خرجت كتاباته المبكرة ذات أهمية ضئيلة . ثم أنه نتيجة لاعتناق تلك الآراء انتقد نفسه في كتابه الكبير الذي ألفه تحت عنوان (تاريخ فرنسا) . وبعد ذلك آمن مبادئ الثورة الفرنسية وروحها ولعب دورا بارزا في سياسة فرنسا التحررية : ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية تقف من وراء الرجعية السياسية في فرنسا ، فإن ميشليه لم يتحول تدريجيا إلى ديموقراطي حرم تطرف فحسب بل إلى عدو للكنيسة وهذه الروح كتب الأجزاء الخاصة بالعصر الذي عقب العصور الوسطى من كتاب (تاريخ فرنسا) . ويعلل هذا الاختلاف الواضح بين روح الكتابة في الأجزاء الأولى وبين روحها في الأجزاء الأخيرة من كتابه .

كان ميشليه يعتبر التاريخ الرواية التي نحكي مأساة الحرية الانسانية ، ولذا لم يهتم اهتماما كبيرا بفلسفة التاريخ بقدر ما اهتم بالتعبير الفني الكامل عن الدراما الانسانية في ماضي العصور . وكتب ذات مرة يقول :

« رأى أوغسطين ثيرى في التاريخ رواية تسرد ورأى فيه جيزو تحليلا للاحداث أما أنا فاعتبره بحثا . » وكانت وطنيته قد تبلورت في صورة حب قوى « لروح الشعب الفرنسى » . والواقع أنه فعل أكثر مما فعل أى مؤرخ رومانسى فرنسى أخر لإذكاء القومية الفرنسية . ولم يفعل ذلك في كتابه عن تاريخ فرنسا والثورة الفرنسية فحسب ، بل ايضا في كتابه الشعب الذى يعتبر مثالا رائعا للقومية الرومانسية وعلى الرغم من ان ميشليه قد قلب مصادر التاريخ الفرنسى باجتهاد كبير وعلى نحو أشمل مما فعله أى مؤرخ فرنسى زوائى آخر ، فانه لم يقم بغربة تلك المصادر وتقييمها مثلا فعل فون رانكه . وكل ما فعله هو أنه تناول هذه المصادر بحثا عن ملون محلى يضيفه على سرده وهو نفس ما فعله برانت . وكان ميشليه يعتقد أن خير ما تجمع منه المادة الختام للدراما التاريخية هي المصادر . وكان كتابه « تاريخ فرنسا » عبارة عن مناظر مشيرة عظيمة متتابعة أكثر منها سردا محكما مستظلا . ومن القطع الرائعة التي تستحق اهتماما خاصا تلك التي كتبها عن الرواية وعن جان دراك . وعلى الرغم من اهتمامات الرومانسية والأدبية ، فان علاجه للأسس الجغرافية والتاريخ الفرنسى جاء خير ملخص يكتبه مؤرخ حتى الأزمنة القريه . هذا إلى ان ما كتبه ميشليه عن العصور الوسطى جاء عرضا مشحونا بالعاطفه عن اصول الأمة

الفرنسية ، كما أنه يتضمن في نفس الوقت إشادة بالكاثوليكية الفرنسية بصورة تجعل القارئ يتذكر شاتوبريان الذي اثني عليه ثناء عاطراً .

ثم كان أن حدث تغيير في مزاج ميشليه فترك العصور الوسطى في نهايتها ليستقل فجأة إلى الثورة الفرنسية . وكان كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » تحفة أدبية رائعة وجدلاً حراً مضاداً للكنيسة . وقد فسر الثورة الفرنسية على أنها العمل النبيل للشعب الفرنسي المتحرر ، وأثنى بصفة خاصة على دانتون . وصور الثورة في صورة انتصار عظيم على طغيان الكنيسة والملكية على السواء . وبعد أن انتهى من هذا الكتاب بدأ يملأ الفراغ الذي كان قد تركه في كتابه عن تاريخ فرنسا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية . وفي هذا الجزء انتقد الملكية والارستقراطية الفرنسية انتقاداً شديداً ، كما انتقد كذلك الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . وكان جريئاً ومجدداً في إدانته لمذبة سانت بارتولوميو وإلغاء مرسوم نانت . وكلا الحدثين يرتبط بالتراث القومي للأمة الفرنسية ويفخر به الفرنسيون جميعاً ويوضح ذلك مدى سلطان المذهب الكاثوليكي على النظرة التاريخية الفرنسية في ذلك العصر . ومن الطبيعي أن يكون حقد ميشليه على المستبدن مصحوباً بالعطفة على الذين وقع عليهم الغبن .

أما الكاتب الإنجليزي توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١ م) فهو لا يرقى إلى مستوى سابقيه من الكتاب ، وليست له أهمية كمؤرخ ، بل إنه على النقيض من ميشليه - لم يكن يقيم وزناً كبيراً للجواهر في الوقت الذي بالغ في أهمية الشخصيات الكبرى في التاريخ . وكان كارليل يعتقد أنه « لا بد من تدريب قطيع العامة ولا بد من قيادتهم وأن يلقوا عقابهم على أيدي من هم أسمى وأرق منهم » كذلك كان يعتقد أن التاريخ ليس إلا « ترجمة جماعية » للشخصية العامة البارزة على مر العصور^(١)

ويعتبر كارليل مسئولاً مثل أي مؤرخ آخر عن عدم الاهتمام والاحتقار التقليدي الذي صار سكينه المؤرخ الحديث لأمر الحياة اليومية العادية وهي الأمور التي كان لها في غالب الأحيان تأثير التطور الاجتماعي أكثر مما كان لكبار الشخصيات . وعلى الرغم من السمو الأدبي الذي تكشف عنه تراجمه للشخصيات التي تناولها ، إلا أن اهتمامه ظل مركزاً حول مدى ما أنجزته هذه الشخصيات من أعمال عادت بالنفع على الجميع . ومن كتبه (رسائل وخطب كرومويل) و (تاريخ فردريك الكبير) و (الثورة الفرنسية) وقد ضمنها جميعاً آراءه في مهارة فائقة . وعلى الرغم من أن هذه الأعمال ليس لها إلا قيمة متوسطة حيث أنها مصادر المعرفة

(١) قامت نظرية كارليل على أساس أن التاريخ تجميع لعدد هائل من التراجم الخاصة بالعظماء والحفراء . من هو صاحب الفضل العظيم ذلك الذي كسب معارك كاناي وقراسمين أم ذلك الفقير المهجول الذي كان أول من صنع لنفسه قلماً من الحديد . ولكن من الناحية العلمية أعطى كارليل اهتماماً للعظماء وتجاهل الرضعاء وإن لم يعبر عن احتقاره لهم . (المؤلف)

وعلى الرغم من محيز الكاتب الواضح وإفتقار كتبه الى المنهج الناقد وقلة إعتاده على المصادر جيدة النشر والترتيب ، فإنه كان على الرغم من هذا كله صاحب شهرة كبيرة « كأعظم كاتب انجليزى فى تصوير الشخصيات » .

ثم ان كتاب كارليل عن كرومويل يمثل جهدا عظيما فى الدفاع عن شخصية كرومويل . وقد نجح المؤلف فى ذلك الدفاع تماما . ولكنه لم يأت فى هذا الكتاب بجديد فى مجال التاريخ الدستورى كما أن التوفيق لحانه كلية فى تحليل العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى لازمت الحرب الأهلية وقيام الكومنولث . أما كتابه الخاص بترجمة حياة فردريك الكبير فقد تبجاء فى صورة صندوق جمع فيه صوراً عديدة من أعظم صور البلاغة التاريخية . وقد إحتوى هذا الكتاب على تصوير لأبرز الشخصيات العامة فى عهد فردريك أومع ذلك فإنه عجز عن أن يجعل من كتابه مرجعا لتاريخ النظم فى عصر الملكيات المستبدة المستنيرة أما كتاب « الثورة الفرنسية » فإنه مجموعة من « الشخصيات المصورة » مجردة عن أى فهم عميق لأصول تلك الحركة العظيمة وطبيعتها وسيرها . هذا إلى أنه يقر رأى غير السلم القائل بأن الثورة الفرنسية كانت من بدايتها من عمل الغوغاء القوميين الهمجيين . ثم إنه لم يلتزم الدقة لا فى كثير من التفاصيل فحسب ، بل وفى الفكرة العامة . ومع ذلك فإن كتابه قطعة أدبية ممتازة ويناقش كتاب ميشليه الذى يمتاز عنه بشروحه وفى تفسيره للأحداث . وقد لاقى كتاب كارليل رواجاً كبيراً فى عصره وما زالت له نفس الشهرة لدى جماهير القراء الذين يتغنون المتعة أكثر من المعرفة . وأحسن حكم على كارليل هو ذلك الحكم المختصر الذى أصدره ليزلى ستيفن عندما قال عنه . إن هناك فرقا بين من يصنع العبارة وينمقها ويضفى عليها الجمال وبين من يستهدف البحث لذاته .

ونتطرق بعد ذلك الى الحديث عن أحد تلاميذ كارليل وهو جيمس انطونى فرويد James Anthony Froude (١٨١٨ - ١٨٩٤ م) الذى اقترن اسمه بعدم الدقة فى السرد التاريخى وإن كان أكثر كفاية من استاذة كمورخ . وترجع أخطاء جيمس الى ضعف ذاكرته وإهماله المستمر ، لكنه لم يعتمد الخطأ وعدم الدقة بل كان يقدر القيمة العظيمة لمنهج النقد . وقد أنتج أول كتاب مطول فى التاريخ الانجليزى ، اعتمد فيه بصفة اساسية على الوثائق غير المنشورة . ولا يقر خيرة الناقدين له اليوم وأكثرهم حيدة التهمة التى رماه بها معاصروه ومن بعدهم فيوتر من أنه كان يغير من مصادره ويזורها عمداً لكن تتوافق مع معتقداته . وجاء كتابه « تاريخ إنجلترا منذ سقوط ولزلى حتى هزيمة الارمادا الاسباني » عبارة عن ملحمة انجليزية تصور الخلاص من عبودية روما . ويبدو تأثيره بمنهج استاذة كارليل فى حرصه على تناول الشخصيات الكبرى ، ومن ذلك علاجه لشخصية كل من هنرى الثامن ، بيرليه ، نوكس . ولا نجد من يداينه بين مؤرخى المدرسة الروائية الانجليزية سوى ما كولى وفى

هذا يقول جوش Gooch : « ليس هناك مؤرخ آخر سوى فرويد يملك أسلوبا سهلا سلسا نقيًا مثل أسلوبه » .

ولقد مرفرويد شأنه شأن ميشليه بتقلبات نفسه عميقة ولكنها غدت واضحة قبل أن يبدأ وضع مؤلفه التاريخي الكبير . ففي بداية أمره كان يعطف على الحركة المؤيدة لسلطان الكنيسة العليا في اكسفورد لكن ذلك أدى به الى اتجاه مضاد لاتجاه كل من مانتج ونيومان . فأصبح عدوا لروما ومؤيدا لحركة الإصلاح الديني في إنجلترا وشجعه كارليل على أن يكتب أول عرض مطول لثورة الكنيسة الأنجليزنية على سلوك البابوية في روما باستخدام المصادر الأصلية . وكانت هناك ثلاثة خيوط حددت الطريق الذي سار فيه أولا : حرصه على إبراز مقاسد الكنيسة في روما ، ثم ما تشربه من استاذة كارليل من تقديسه للشخصيات الكبيرة ، وأخيرا إعجابه بما كولى كروانى . والحق انه فانه كل من كارليل وما كولى في آثاره للانفعالات النفسية . هذا إلى أنه جمع الى حد ما بين قدرة ما كولى الروائية ومقدرة كارليل على تصوير الشخصيات ، فضلا عن أنه كان في مبرده أشبه بالحماسى الذى يرتب مرافقته الطويلة المليئة بالأدلة . وقد دافع بجرارة عن هنرى الثامن ولكنه لم يظهره في صورة الجدير بالثناء والمديح في مجال السياسة الواقعية ، كما أنه لم يوضح ما قام به هذا الملك في الميادين الاقتصادية والسياسية . ولم يعط فرود للملكة اليزابيث وزنا كبيرا وإنما عزا عظمتها إلى بورليه . ونظر الى جون فوكس على انه الرجل الذى ساعد حركة الإصلاح الديني في إنجلترا في حين أن نظرتة كانت عدائية الى ماري ملكة الاسكتلنديين . وعلى الرغم من كافة أخطائه فان انتاج فرويد يمثل اكمل تاريخ مبتكر قام به مؤلف على حدة لحركة الإصلاح الديني في إنجلترا . ولعلنا نجد تبريرا جزئيا لما إتسم من تطرف ومبالغة في الحقيقة الخاصة بأن حركة الإصلاح الديني في إنجلترا تعرضت على أيامه لهجمات فيها الكثير من الزيف من جانب السلطات الكنيسة العليا والمرتدين الجدد الى الكاثوليكية .

واذا ما أنتقلنا الى الحديث عن الكتابة التاريخية المتأثرة بالرومانسية في روسيا نجد هناك كتاب نيقولا كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦ م) بعنوان (تاريخ الدولة الروسية) وهو يحكى قصة الروسى حتى سنة ١٦١١ م ويعزى التقدم الذى حققوه الى عبقرية الشعب الروسى نفسه ، خاصة تلك العبقرية التى استمدتها من تراثهم الشرقى وكنيستهم الشرقية كذلك إنتقد كارامازين المذهب الحر (الليبرالى) والثقافة الغربية مما حقق لكتابه رواجاً فر دوائر مدرسة الفكر الروسى المعادى للغرب .

وفي بولندا وضع المؤرخ القومى الشهير جواكيم ليلويل Joachim Lelewel (١٧٨٦ - ١٨٢٦) كتاب بعنوان (تاريخ بولندا فى العصور الوسطى) وهو يتفق فى مادته مع المفهوم الرومانسى عن التطور الثقافى . أما فى إيطاليا فهناك كذلك سمات

رومانسية عديدة في أعمال بعض الكتاب الإيطاليين أمثال كارلو تروبا ، مويجي توسي ، سيزار باليو ، سيزار كانتو ، وسوف تتناول أعمالهم في مجال آخر .

أما في الولايات المتحدة فكان أبرز ممثلي مدرسة كارليل وفروود هو جونا لوثر روب موتلي (١٨١٤ - ١٨٧٧ م) الذي كان صديقا لبسمارك وزميلا له في الدراسة . وقد كرس حياته لسرد نضال الأراضي المنخفضة ضد اسبانيا وقيام الجمهورية الهولندية . وكان عشقه للحرية ودفاعه عنها قد فاق كل من ميشليه وفريمان ، فوجد في تتبع الثورة الهولندية وقيام الجمهورية الهولندية مادة مناسبة تماما للدفاع عن الحرية . ولا يوجد من المؤرخين الانجليز سوى كارليل من يدانيه في التصوير اللفظي وروعة الوصف ووضوحه هذا إلى ان موتلي تلمذ في صباه على يد بانكروفت ، وتعلم اللغة الالمانية ووجد من شجعه على الذهاب إلى المانيا للدراسة فيها . وفي جوثنجن قابل بسمارك . ولقد دفعه تأثيره بآراء بانكروفت وما كتبه هذا الكاتب عن الثورة الأمريكية إلى الحديث عن الحرية وتقصى نشأتها ونشأة الثورة الهولندية وعلى الرغم من ان موتلي من الموحدين المسيحيين فإنه لم يكن من البروتستانت المتعصبين انما كان مقتنعا بطغيان سلطة الكنيسة في روما ، ومن ثم فإن كتابه قيام الجمهورية الهولندية ، جاء جدلا فصيحاً مؤيدا مبدأ الحرية والنظام الجمهوري ، واستمرارا للهجوم على الكاثوليكية والاستبداد الاسباني . وكان ولیم الصامت يمثل شخصية البطل في هذا الكتاب ولذا قارنه موتلي بالزعيم الأمريكي في واشنطن . أما دور الاشرار في كتابه فقد قام به فيليب ، الفا Alva ثم أتبع موتلي هذا الكتاب بكتاب آخر لا يقبل وضوحاً عنوانه ، تاريخ هولندا المتحدة ، ثم كتاب ثالث عنوانه حياة بارنفلدت ونهايته ، وتعرض هذا الكتاب الأخير للنقد من جانب اتباع المصلح الديني كالفن في هولندا بسبب مهاجمة تطرف اتباع كالفن في تقرير شاتولور ، وموريس . والواقع أن موتلي تقب طويلا بين المصادر في صبر ولذا كان عمله دقيقا نسبيا . وإذا كان هناك خلاف حول مدى تعصبه وتحيزه ، فإنه لا يوجد خلاف حول القيمة الأدبية الكبرى لأعماله الرائعة فضلا عن قدرته على تصوير الشخصيات .

وبعد ، فإنه إذا كانت المناهج الرومانسية قد استحوذت بعض الشيء على عقول كبار العلماء أمثال فون راتكه ، فإن تلك المفاهيم ساعدت على زيادة اهتمام الكاتب بالتاريخ أكثر مما أضرب باهتمامه بالبحث . هذا إلى أن الرومانسية بما أكدته من عبقرية الأمة وبما لها من أساس عاطفي كان لها أثر كبير وبعيد في دفع عجلة التاريخ القومي الذي همس على الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر .

لم تنشأ فلسفة التاريخ لأول مرة في العصر الرومانسي ، وإنما وجدت تلك الفلسفة داخل إطار نظرية التقدم التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر والتي عالجتها في الفصل السابق . والواقع أن المؤرخين المسيحيين من إيزيوس حتى بوسويه كانت لهم فلسفة تاريخية محددة قائمة على الملحمة المسيحية . وظهرت هذه الفلسفة في أروع صورها في أعمال كل من أوتو الفريزي ، بوسويه . ولكن الرومانسية هي التي أمدت فلسفة التاريخ بطاقه كبيرة ودفعتها دفعة قوية . ولم يلبث هذا التأثير أن تخطى دائرة الرومانسيين الصرفة الى دائرة العقلانيين الذين جاءوا بعد ذلك . والواقع انه كانت لدى الرومانسية اسباب كافية ووجيه للإهتمام بالفلسفة المرتبطة بتاريخ الانسانيه ، اذ أدى اهتمام العقلانيين والرومانسيين على السواء بالتاريخ إلى توفير كمية هائلة من المعلومات التاريخية العملية التي يعتمد عليها والتي يمكن منها التوصل إلى أحكام وعموميات كثيرة . ثم كان أن أكد الرومانسيون بصفة خاصة فكرة الترابط والوحدة الأصلية بين أفرع الثقافة القومية ومبدأ التطور في الثقافة والنظم . هذا كله بالإضافة إلى أن نظرة الرومانسية إلى باقي البشرية وهي نظرة يشوبها بعض الغموض والعاطفه خلقت جوا فكريا مثاليا للتفاعل في ذلك الوقت .

وثمة جدل طويل دار حول تحديد من هو الأب لفلسفة التاريخ ، وشرح لنيل هذا الشرف العظيم عدد كبير من المؤرخين من هيروودوت حتى هيجل . ولكن يبدو من المناسب أن نرجح أكثر الآراء قبولا وهو اختيار فيكو بوصفه أول كاتب له إنتاج قيم في الفلسفة التاريخية وقد سبق أن أشرنا الى رأيه الخاص بأن التقدم يتم على شكل دائري حلزوني ، بمعنى أن التطور التاريخي في رأيه عبارة عن عمليات خلق وتغيير في فكر البشر بصفة عامة وتغيرات في سمات الروح الانسانية من عصر لآخر . وحدد فيكو ككثير من فلاسفة التاريخ اللاحقين ثلاث مراحل رئيسية للتطور التاريخي ، وهي بالنسبة له المراحل الألهية والبطولية والانسانية . اما المرحلة الألهية فأنها تميزت بسيطرة الشاعر والعواطف الجياشة في عالم الروح ، كما أن من سماتها سيادة الشيوخراطية في عالم السياسة . اما المرحلة البطولية فهي مرحلة ظهور قوة الخيال الشعري وسيطرتها على الفكر الجماعي ، وقد افسحت هذه المرحلة المجال للأرستقراطية في عالم السياسة .

وأخيرا تمثل المرحلة الثالثة المعرفة الايجابية في الفكر الجماعي وهي التي انجبت الحركة السياسية التي تجسدت في الملكيات الدستورية والجمهوريات . وكان فيكوكا سبق أن أوضحنا يعتقد أن هذه الدورات الثلاث تعيد نفسها ولكن ليس على نفس المستوى ، إذ أن هناك تقدم حلزوني الشكل في ثقافة الجنس البشري . ومن الواضح أن أفكار فيكوكا جاءت متوافقة في كثير من النواحي الرومانسية ، وعلى الأخص فكرته عن التغيرات التي تطرأ على الروح الجماعية للجنس البشري وفكرته عن يد الله في صنع أحداث التاريخ . هذا إلى أن فيكوكا سبق أن أشرنا مصدر وحي وإلهام مباشر لواحد من أبرز المؤرخين الرومانسيين هو ميشليه .

ما أسهم به الألمان في مجال فلسفة التاريخ

إذا كانت هناك تأملات فلسفية هامة حول التطور التاريخي في كتابات روسو ، تيرجو ، كوندرسيه وغيرهم ، إلا أن يوحنا جوتفريد فون هردر هو صاحب أول جهد هام في وضع فلسفة للتاريخ ، وهو الأمر الذي تم في كتابه المكون من أربعة أجزاء بعنوان (أفكار حول فلسفة تاريخ الجنس البشري) . والواقع أن منهج هرور كان حدا فاصلا بين مدرسة روسو العقلانية من ناحية والمدرسة الرومانسية من ناحية أخرى ، حتى ان البعض يضعه في قائمة العقلانيين في حين يضعه البعض الآخر في قائمة الرومانسيين . واعتقد هردر أن مسيرة التاريخ هي نتاج للعمل المتداخل والتزواج الذي يتم بين الظروف الخارجية المحيطة وبين ما يعرف بالجوهر أو الروح Geist وهي الحصلة الديناميكية للدوافع الشخصية . وليس لهذه الكلمة الألمانية Geist مقابل في الانجليزية دقيق . كذلك اعتقد هردر أن كل حضارة تنمو ثم تزدهر وبعد ذلك تنحدر طبقا لقوانين النمو الطبيعية . وقد أجمل روبرت فلنت آراء هردر الرئيسية في فلسفة التاريخ على النحو التالي :

١- إن آخر مراحل الطبيعة البشرية هي المرحلة التي تعرف بالمرحلة الإنسانية ولتحقيق الوصول إليها وضع الله مصائر الشعوب في أيديهم ..

٢- لا بد على مر الزمن من خضوع القوى المدمرة في الطبيعة للقوى التي تصون وتحفظ ، بل لا بد في النهاية من تسخير هذه القوى المدمرة نفسها لكي تبلغ البشرية مرحلة الكمال .

٣- قدر للجنس البشري أن يمر بدرجات مختلفة من الحضارة وثورات عديدة ولكن رقيه الدائم ووفائه يكمنان أساسا في الاعتماد على العقل والعدل .

٤- لا بد على مر الزمن من أن يزداد التعقل والعدل رسوخا بين الناس وذلك طبقا لطبيعة

العقل البشرى ذاته ، وهو أمر يساعد مرحلة الانسانية على أن تقوى وترسخ جذورها .

هـ — هناك قوة خيرة عاقلة تحدد مصير الجنس البشرى ، ولذلك فانه ليس شيئا أجدر ولا سعادة أفضل من تمكين هذه القوى العاقلة من ان تتصرف وتخطط لمصير البشرية .^(١)

ومنذ أيام هردر حتى زمن هيجل ظلت الفلسفة التاريخية تتأثر بآراء ونظريات المفكرين الألمان من اتباع المذهب المثالى التجريدى German Transcendental Idealists . ولم يفعل أصحاب هذه النظريات والآراء الثقيلة النطق الا الشئ القليل أكثر مما عمله اتباع لوثر ويوسويه . وكل ما هنالك هو انهم ادخلوا تغييرات على مصطلحاتهم . فالوجود المطلق عندهم هو الله عند السابقين عليهم ، والكشف عن اسرار الكون تقابل ما عبر عنه اتباع لوثر ويوسويه بأنه القدرة الالهية وتصرف الله فى هذا الكون .

وبعد مرور سنوات قليلة من قيام هردر بنشر أول نبذه عن فلسفته التاريخية ظهر رأى آخر عن نفس الموضوع ينسب الى أعظم الميافزيقين الألمان عما نويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) ذكره فى كتابه (فكرة عن التاريخ العالمى) . وهو الرأى الذى أوضحه كانط فى كتاب لاحق بعنوان « السلام الدائم » . أما خلاصة هذا الرأى فهى ان ديناميكية التاريخ ترجع الى الصراع القائم بين كل من شخصية البشر والمجتمع أو بين الأنانية والإيثار أو بين الفردية والجماعية . فالأولى ينجم عنها التقدم والثانية هى التى تحدد نظام المجتمع البشرى . وتتولد الحضارة من المزج بين الاثنين . والدولة المثالية أو التى بلغت مرحلة الكمال هى تلك التى تجمع بين الحد الأقصى من الفردية الخلاقه والحد الأدنى من سيطرة أو رقابة الدولة فى سبيل ضبط النظام . وواجب رجالات الدولة وسلطاتها هو تيسير السبيل لهذا الجمع والترابط . ويتطلب النجاح فى ذلك إنتشار السلام حتى يمكن تسخير كل خبرة جميع المواطنين وذكائهم لحل هذه المشكلة . ولهذا ذهب كانط الى أن نبذ الحروب وإلغائها أمر ضرورى لتحقيق حالة مثالية من الحضارة .

ومن ناحية أخرى ظهر مفهوم غاية فى التجريد لفلسفة التاريخ فى كتاب بعنوان (خصائص العصر الحالى للفيلسوف الألمانى جوهان جوتليب فيخته (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) . وقد نجح هذا الفيلسوف الى حد ما فى فصل فلسفة التاريخ عن التاريخ نفسه . اذ كان يعتقد أن ترتيب العصور ترتيبا تاريخيا كما أرادها الله تكمن فى خمس فقرات :

١ - عصر البراءة وكان العقل يظهر فيه بشكل غير معقول فى صورة غريزة عمياء

(1) Robert Flint, The Philosophy of History in France and Germany (Scibner 1874) p. 386.

ويوضح وجهة نظر هرور وعبريته القله فى أول كتابه الذى صدر سنة ١٧٧٤ بعنوان

Auch eine philosophic Geschichte

٢ - عصر السلطة وهو الذى تطلب ان يكون العقل عاملاً ثانوياً بالنسبة لسلطة السلبية .

٣ - عصر اللامبالاة بالحقيقة وهو الذى أُلغى فيه تحكيم العقل .

٤ - عصر العلم الذى تجلت فيه الحقيقة وعلت فيه كل شئ وبدأ الإنسان يشعر فى هذا العصر بقيمة العقل .

٥ - عصر الغنى وفيه أصبحت الانسانية حرة وبدأت تضيق على نفسها من الابداع والرواق ما يناسب عصر العقل المطلق .

وقال فيخته فى كتابه (رسائل الى الأمة الالمانية) (١٨٠٧) ان الامل فى المستقبل معقود على الشعوب الالمانية ، فهذه الشعوب مكونة من عنصر نقي غير مختلط له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة ، اما الشعوب اللاتينية فهى نتاج إختلاط اجناس بعضها ببعض وبالتالى فقد ازدهرت حضاراتها قبل الأوان : وكانت على عهد فيخته فى طريق انحدارها الفعلى . وليس عجيباً ان تكون آراء فيشيت قد ساعدت على سرعة نمو القومية فى المانيا^(١) .

أما عن فلسفة فردريك ويلهلم جوزيف فون شيلنج (١٧٧٥ - ١٨٥٤) فقد جمعت ما بين مذهب الباطنية الرشيدة وبين الإيمان بالتقدم عن طريق الرعاية السماوية . كان فون شيلنج متأثراً الى حد بعيد بآراء فيخته . فى كتابه (النظام المثالى التجريدى) إسترسل فى الجهد الذى بذله فيخته فى سبيل الجمع بين خبرة البشرية وذكائها وبين الطبيعة ومؤثراتها وبيان تعاونهما فى سبيل الكشف عن الوجود المطلق . « فالطبيعة روح منظورة والروح طبيعة غير منظورة . وكلاهما يتقدم بصفة مستمرة فى تابع متظم وعلى مراحل وصور متدرجة » . والتاريخ ليس إلا عملية رؤيا ذاتية للوجود المطلق . وفيه يتبين شيلنج ثلاث مراحل :

١ - المرحلة التى تحكمت فيها عوامل القدر أو المصير وهى فترة الإمبراطوريات القديمة .

٢ - ثم هناك المرحلة التى أفسح فيها القدر المجال للطبيعة مما أدى الى انتظام أمور البشر ، وبدأت هذه المرحلة بتوسع روما وفتوحاتها .

٣ - مرحلة المستقبل الذى سوف تثبت فيها تولى العناية الإلهية لأمر البشر .

أما يوحنا جويرس Johann Goerres (١٧٧٦ - ١٨٤٨ م) فتعتبر

آراؤه سبقاً غير دقيق للنظرية التى وصفها ارنست هيكل Ernest Haeckel

(١) C.F.H.C Englebrecht: Johann Gott lied fichte (Colmbia Press 1933)

ج. ستأني هول والتي تقول ان الجنس البشرى يمر في نفس مراحل التطور التي يمر بها الفرد .
ومن ثم فقد وجد جويرس أربع مراحل في التاريخ تمثل التقدم نحو النضوج وهي :
١ - المرحلة التي كان البشر يتجمعون فيها تجمعا طبيعيا طبقا لما تفرضه العوامل الجغرافية عليهم .

٢ - مرحلة الأجيال ذات الخصائص المميزة وفيها أخذ الناس يفصلون الى اجناس وقبائل وأمم .

٣ - المرحلة الأخلاقية السياسية التي بدأت بقيام دول متحضرة يحكمها القانون .

٤ - المرحلة الدينية وهي التي صار الإنسان فيها قادرا على إدراك الوحي الالهى ومشئته الله .

وثمة تفسير فلسفي هام آخر للتاريخ جاء في كتاب بعنوان (فلسفة التاريخ) ألفه كارل ويلهلم فردريك فون شليجل (١٧٧٢ - ١٨٢٩ م) وهو الذي ذهب الى ان المشكلة الرئيسية في الفلسفة هي التوصل الى كيفية إعادة الوحدة والانسجام لحياة الانسان الباطنية ، وكيف يستطيع الانسان في شخصيته البشرية ان يتصور الرب في صورته المفقودة . وأوضح شليجل ان مهمة التاريخ الأساسية هي تتبع ما بذله الجنس البشرى من محاولات لتصحيح تصوره للإله . كذلك أوضح نفس الفيلسوف ان الغرض الرئيسى من فلسفته التاريخية هو أظهار جهود الإنسانية في إحياء الصورة المفقودة للإله ، وذلك عن طريق دراسة ما بذلته العناية الالهية من جهد في سبيل خلاص البشرية وظهرها على مر العصور منذ الوحي الالهى الأول حتى الخلاص الأوسط (مجيئ المسيح) ومنه الى الكمال النهائى . وازاء ذلك تتبع شليجل التاريخ من العصر الصينى المبكر حتى ايامه بهدف تتبع حب البشر لله ورجوعه إليه . وقد اعتنق الكاثوليكية وهو بصدد البحث عن تأكيد لآرائه من الوجهة العاطفية ، وعند علاجه للعصور الوسطى مجدها الى مدى بعيد . وكما هو متوقع من كاتب مثله كان نقده لادعا للبروتستانتية واعتبرها من عمل الانسان في حين كانت الكاثوليكية في نظره من عمل الله .

وأكثر الفلاسفات الألمانية للتاريخ شهرة في تلك الفترة كانت تلك التي وصفها أحد رجال الجدل للدينى وأشدهم أثرا وهو ويلهلم فردريك هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) الذي جاء كتابه (فلسفة التاريخ) عملا ينم عن ذاتيته الى حد كبير . ذلك أن هذا الكتاب عبارة عن سجل لعملية الكشف عن الشعور الذاتى بالحرية في الروح البشرية . ولعل أحسن ملخص وضع له هو ذلك الذى كتبه روبرت فلت منذ أكثر من نصف قرن :

« ان مدار الشمس رمز لمدار الروح واذا كان ضوء الشمس كما هي مغروقة لنا في الطبيعة يتحرك من الشرق الى الغرب ، فان ضوء شمس النفس البشرية بذاتيتها يتحرك في

نفس الاتجاه . فآسيا هي بداية تحرك هذه المعرفة أو البداية المطلقة للتاريخ . وأوروبا هي الغرب الفاصل أو نهاية التاريخ . والتاريخ مر بثلاث مراحل أو عصور عظيمة هي : عصر المشرق ، العصر اليوناني ، الروماني ، والعصر الحديث أو الجرمانى . وكانت الروح في العصر الاول تغط في نوم عميق نتيجة للجهل وعدم الدراية بالحرية التي هي جوهر هذه الروح ، ومن ثم فقد خضعت الروح لاستبداد ديني ودنيوي ، حيث ان فرداً واحداً هو الذى نعم بالحرية في حين ان حقوق الأفراد لم تكن معروفة . ثم تنهت الروح في العصر الثانى لبعض هذه الحقوق ولكن ليس لها جميعا ، فتحرر بعض الأفراد ولكن ليس كلهم . وأخيرا جاء العصر الثالث لتعرف الروح طبيعتها تماما وتقدر ضرورة هذه الحرية وتعرف ان للجميع حقوق أصيلة في حرية الفكر^(١).

وكانت هناك دوافع قومية قوية وراء فلسفة هيجل مثلما كان الحال مع فلسفة فيخته للتاريخ . ذلك أن فلسفة هيجل نادت بأن الألمان في عصر ما بعد حركة الإصلاح الديني قد عهد الله اليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية الى الجنس البشرى . وتكشف هذه الحقيقة عن الشكل العام لنظرة هيجل للتاريخ ، إذ يرى أن التقدم نتيجة الاحتكاك والتركيب . ويرى هيجل أن الحركة أو الفكرة أو النظرية تخرج الى الوجود ثم يظهر بعد ذلك عكسها ، ونتيجة للاحتكاك بين الفكرة ونقيضتها يتولد الشكل النهائى الذى هو بمثابة خطوة الى الأمام على طريق الحقيقة . ثم يتخذ هذا الشكل النهائى صورة نظرية أخرى ويظهر لها هي الأخرى نقبض ، وهكذا تستمر العملية . والواقع أن نظرية هيجل هذه عن التقدم صار لها أثر كبير على الفكر التاريخى اللاحق ، خاصة من خلال تبنى كارل ماركس لها وتسخيرها لخدمة فلسفة التاريخ المادية^(٢) . وكان لهيجل أيضا أثر كبير في ظهور أعمال أخرى هامة في مجال البحث التاريخى وخاصة تلك الدراسات الكبرى الخاصة بالفلسفة اليونانية التى قام بها ادوارد زيلر ، والأبحاث الخاصة بالاصول المسيحية التى قام بها فرديناند كريستيان . وإذا كان تأثير هيجل على التاريخ قد ظهر في اتجاهين متضادين هما الماركسية والقومية ، فإن تأثيره في المجال الثانى أقوى اليوم وأكثر ظهورا ، حتى أن الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاة سنة ١٩٣١ كان احتفالا قوميا بحثا .

وكان لظهور علم الأحياء وفكرة الكيان العضوى للمجتمع - أى التشابه بين الكيان العضوى للفرد والمجتمع - أثر كبير على فلسفة التاريخ . وقد بين ذلك شارل كريستيان فردريك كروز (١٧٨١ - ١٨٣٢ م) في كتابه (الفلسفة العامة للتاريخ) . كان كروز تلميذا لكل من فيثيت شيلنج ، وإعتقد أن البشرية تمر بمراحل من التطور من المقيد جدا مقارنتها بحياة

(1) Flint, Op. cit 515. C. F. G. S. Morris, Hegel's philosophy of the state and of History scott Foresmand (1892).

(2) Cf. Sidney Hook, From Hegel to Marx (Reynal and 11 it ch 1. cock) 1936.

الإنسان . فتجد في البداية المجتمع البدائي الذي يقابل عصر البراءة أو الطفولة عند الإنسان يليه عصر الشباب والنمو ، ويمكن تقسيمه الى ثلاثة عصور فرعية : عصر الاشرار بالله ويمتد من الشرق القديم الى عصور اليونان والرومان ، ثم عصر التوحيد والسيادة الكنسية وهي على وجه التحديد العصور الوسطى ، وأخيرا عصر الحرية وقد زالت فيه كل سلطة خارجية على العقل . اما العصر الثالث من عصور البشرية فهو ذلك العصر الذي يسيطر فيه الانسان على كل من الطبيعة والمجتمع . وبذلك يتحقق وحدة كل الشعوب في دولة عالمية عظيمة يسودها الرخاء . ونستطيع أن نلمس في هذا الرأي عن تطور البشرية سابقة خاصة على آراء هـ.ج. ولز . أما الرد على فلسفة التاريخ الرومانسيه والمثالية في المانيا سواء بالتأييد أو المعارضة ، فقد ظهر في فلسفة فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) وهي فلسفة تشاؤمية مضادة للمسيحية ولكن نيتشه إشتراك مع الرومانسين في سمّة واحدة هي عبادة الانسان الاعلى أو الأسمى .

الكتاب الفرنسيون والبلجيكيون والاطاليون

انعكس المفهوم الرومانسي للتاريخ في فرنسا في مؤلفات عدد من الكتاب منهم فكتور كوزين (١٧٩٢ - ١٨٦٧ م) الذي تتلمذ على هيجل ، وعمل على ادخال آراء هذا الفيلسوف الألماني إلى فرنسا وقد أوضح كوزين في محاضراته التي ألقاها سنة ١٨٢٨ عن فلسفة التاريخ إن هناك ثلاث مراحل رئيسية في التطور البشري :

١ - مرحلة اللانهاية Infinite وكان الإنسان فيها يثق في الألهة ويعتقد فيها اعتقاداً كلياً

٢ - مرحلة المحدود (التناهي) Finite : وفيها نشأ التأمل الذي خلق إحساساً بالحرية الشخصية والقوة ، الأمر الذي جلب الفوضى للجميع .

٣ - مرحلة الدمج والربط والاتحاد : وهي التي نجمت عن اندماج المرحلتين السابقتين اندماجاً مثالياً . فتم الاتحاد بين الاعتقاد في وجود توجيه الهى وبين شك الإنسان بحريته .

ونهج كوزين نهجاً دينياً وكان من أنصار فكرة أن التاريخ من تدبير الله وتوجيهه فقال إن تاريخ البشر هو أساساً كشف عن قدرة الله ونظام حكمه لهذا العالم وهو الأمر الذي يظهر للعباد تدريجياً . وكان كوزين كذلك من أنصار نظرية اهتمام التاريخ بالإنسان الأسمى وهو ما نادى به معاصره الإنجليزي توماس كارليل . كما كان يرى أن عظماء الرجال يعكسون روح عصرهم وفيهم يكمن تاريخ الفرد والتاريخ العالمى وبناء على ذلك فإن تناول حياتهم يعنى تقدم الإنسان . فالتاريخ العالمى هو عدة تراجم لشخصيات عظيمة يتم الربط بينها جميعاً .

أما ثيودور جوفروي (١٧٩٦ - ١٨٤٢) فقد نهج، كتابه «فلسفة التاريخ» على فلسفة التاريخ فلسفة فكرية . كان جوفروي يعتقد - وهو سابق لعصر دراون - أن الفرق الأساسى بين الإنسان والحيوان هو أن الحيوانات لا تتغير ، بينما يتقدم الإنسان ويتطور . وكان يرى أن التغيير فى أفكار البشر يحدد كل مراحل التطور البشرى الأخرى . ولهذا فإن فلسفة التاريخ فى جوهرها ما هى إلا ملاحظات وتحليل التعديل الذى يطرأ على الأفكار وتأثيره على حقائق التاريخ الخارجية ، أى على السلوك والعادات والنظم والدول . ويذهب جوفروي إلى أنه كانت هناك ثلاث أنظمة رئيسية للحضارة فى تاريخ البشرية وهى الأنظمة البرهمية

الإسلامية والمسيحية . وأكد أن النظام المسيحي سيخوق على باقي النظم . وهناك في العالم المسيحي ثلاث أمم ينسب لكل منها رسالة معينة تؤديها من أجل تقليم الحضارة : الأمة الألمانية وهي أمة العلم والثقافة والمعرفة وتمتد البشرية بالحقائق . والأمة الفرنسية التي تركزت مواهبها في الفلسفة - أي تفسير الحقائق التي يحى بها الألمان . أما الأمة الإنجليزية فهي الأمة العملية التي تستغل الحقائق والنظريات. الفلسفية في الصناعة والنظم الدستورية والروح العامة . وواجب هذه الأمم الثلاث هو أن تدرك صفاتها ومواهبها الخاصة. وأن تتعاون جميعا من أجل خير البشرية .

ثم عادت أفكار هردر وهيجل إلى الظهور مع شيء من التعديل والمرونة. المبكرين ، وذلك في مقدمة لترجمة هردر بعنوان (مقدمة لفلسفة التاريخ) وهي الترجمة التي قلم بها ادجار كونيت (١٨٠٣ - ١٨٧٥) ذلك أن هذا المترجم شارك جوفروي زأيد بأن الأفكار هي العامل الرئيسي المسبب للتاريخ البشري والتطور الإجتماعي . هذا إلى أنه جمع في كتابته بين تعلقه الشديد بالحرية وإخلاصه ألجم للنظام الجمهوري . وكان يعتقد أن مهمة للنظام الجمهوري هي حماية الحرية . ومن ثم فإن كتابه (المسيحية والثورة الفرنسية) جلد شديد النقد لعصر الأرهاب الذي مرت به فرنسا أثناء الثورة وكان كونيت Quinet ينظر إلى التاريخ على أنه أداة لتحقيق التقدم في مجال الحرية والارادة الحرة . كللتاريخ من البداية. للنهاية عرض وتطور للحرية ، وبيان مستمر لاحتجاج عقل الجنس البشري ضد العالم الذي يطغى عليه ويقيد ، وتناك الروح حريتها غيره ، وتوسع دائرة نطاق هذه الحرية . على أن كونيت كانت متحمسا للبروتستانتية قدر حماس شليجل للكاثوليكية ، وكان ينظر إلى البروتستانتية بوصفها سبيل للتحرر الرئيسي في الأزمنة الحديثة . وكان يعتقد أن الثورة الفرنسية قبلت لأنها لم تحتصن في المقام الأول البروتستانتية وإختارت أن يكون العقل دينها وعقيدتها .

لما بقية الكتابات الهامة التي أسهم بها الفرنسيون في فلسفة التاريخ فهي من تراث عصر العقلانيين من ذلك ما جاء به تيرجو في كتابه الذي صدر في الثوربون (حديث حول التقدم التاريخي للعقل البشري) إذ سبق فيه تقسيم أوجست كونت الشهير للتقدم الفكري للجنس البشري إلى ثلاث مراحل : اللاهوتية ، الميتافيزيقية ، العلمية . يقول تيرجو :

وقبل التعرف على علاقة الحقائق الطبيعية بعضها ببعض ، كان من الطبيعي جدا أن نفترض من هذه الحقائق صنعها وأنتجتها كائنات ذكية غير منظورة . فكل شيء حدث دون تدخل الإنسان كان له ربه وصانعه الذي عبده خوفا منه أو رجاء فيه ، وهذه العبادة أشبه ما تكون بالاحترام الذي نكنه للرجال الأتقياء الأشداء البأس . وما الآلهة سوى رجال أكثر أو أقل قوة وكما لا طبقا لما أضفاه عليهم العصر الذي وجدوا فيه ودرجة الاستنارة التي توافرت في ذلك العصر وهي التي بها تبلغ الإنسانية درجة الكمال . ولكن عندما تبين للفلاسفة استحالة

قبول العقل لهذه الخرافات بدأو - دون التوصل إلى معرفة حقيقته بتاريخ الطبيعة - يعلنون الظواهر تعليلاً خيالياً وذلك بتعبيرات مجردة ، بالجواهر وبالقدرة العقلية (الملكة العقلية) . وإزاء عجزهم عن هذا السبيل في تفسيرها أخذوا يناقشونها كما لو كانت وجوداً حقيقياً . وأخيراً فقط ، أمكن من خلال ملاحظة تأثير الأجسام المتجانسة بعضها مع بعض وضع فروض أخرى استطاعت الرياضة تطويرها والخبرة اثباتها وتأكيدا .

وقد أخذ بنفس هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسي المبرز كونت كلود هنري سانت سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) الذي تميزت أفكاره بالابتكار والخصوبة ، ولا يوجد في عصره من يسبقه في هذا الشأن سوى بنتام Bentham ، وإن كان ذا قدرة ضئيلة على إبراز الآراء والعقائد وشرحها . وذهب سانت سيمون إلى هناك فترتين رئيسيتين في التطور الفكري للمجنس البشري وهي فترة الظن والتخمين اللاهوتي (Theological Conjecture) غير المبني على أدلة كافية وفترة الإيجابيه التي بدأها بكون ، وديكارت ثم أخذ سانت سيمون بالنظرية الآلية لتطور التاريخ مؤكداً التشابه بين تطور الفرد وبين تطور المجتمع . ففي عصور التاريخ المنتظمة يتحد المجتمع ويترابط سلمياً بفعل مجموعة من الآراء والنظم . ثم يأتي بعد ذلك فترة نافذة تمهد للتغير والتقدم وتتميز بالنقد الإجتماعي والمدارس الفكرية المعارضة وعدم الاستقرار العام بالنسبة للأنظمة القائمة في المجتمع ..

وفي فلسفة التاريخ التي وصفها فيليب بوشيز (١٧٩٦ - ١٨٦٦ م) وهو أحد تلاميذ سانت سيمون ، نجد اتجاهها لاهوتياً واضحاً خاصة في كتابه (مقدمة لعلم التاريخ) ذلك أن بوشيز أكد تأثير العامل الجنسي على تطور الأمم والأفراد . وسبق هربرت سبنسر عندما بين أن التقدم له صفاته العالية والبشرية . ولكنه لم يوافق سبنسر إيمانه بمذهب الطبيعة naturalism ؛ بل كان شأنه شأن بوسويه في اعتقاده الجازم في أن التوجيه الإلهي وقدرة الله هي الموجهة لتطور البشرية والحضارة . وكان بوشيز يعتقد كذلك أن هناك أربع مراحل رئيسية في التاريخ تميز كل منها بظاهرة أساسية :

- ١ - مرحلة آدم وهي التي إلى قيام النظم الإنسانية .
- ٢ - مرحلة نوح وهي التي شهدت نشأة القبائل والأجناس .
- ٣ - المرحلة التي تنسب لنبي غير معلوم من أبناء سام ، وهي تتضمن نشأة الاحساس بالرغبة في الاتصال والارتباط بين بني البشر والمساواة فيما بينهم والتخصص في العمل .
- ٤ - مرحلة الكشف عن الحقيقة والحياة عن طريق يسوع المسيح .

أما بطرس ليرو pierre leraux (١٧٩٨ - ١٨٧١) وهو من تلاميذ سانت سيمون أيضاً فقد جاء بعقيدة التضامن الإنساني وبأن التقدم ذو طبيعة عالمية مستمرة وقد شرح ذلك في كتابه الأنسانية ؛ Humanity

وتحتوي كتابات أوغسط كومت Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) جهدا يتم عن دقة في البحث - إذ جمع بين آراء سانت سيمون وبين ما ابتكره هو من أفكاره . وأهم ما ألفه كومت هو كتاب ، مبادئ فلسفة إيجابية ، ومبادئ النظام الإيجابي . أما الكتاب الأول فقد استعرض فيه كومت آراءه عن التطور الفكري في حين أنه تناول في كتابه الثاني وهو الأطول - آراءه عن التطور الفكري والاجتماعي جميعا . وكان يعتقد أن التطور الفكري للجنس البشري من خلال ثلاث مراحل : اللاهوتية ، والميتافيزيقية ، والعلمية أو الإيجابية . وقد تميزت المرحلة الأولى بحكم قوى ما وراء الطبيعة . وإمتازت الثانية بالاعتماد على المقولات والافتراضات الميتافيزيقية في حين تميزت الفترة الثالثة بازدياد تأثير الفلسفة الناقدة والمعرفة العلمية

وقسم كومت علاجه لعلم الاجتماع إلى قسمين : الاجتماعيات الساكنة والاجتماعيات المتحركة وتناول في علم الاجتماع المتحرك مناقشة مشكلة التطور الاجتماعي وبين ثلاث مراحل للتطور الاجتماعي والفكري جميعا . المرحلة الأولى وهي أساسا مرحلة المجتمع الشرقي القديم

وكانت ذات صبغة دينية في نشاطها العقلي والفكري كما كانت ذات صبغة عسكرية في نشاطها السياسي والاجتماعي . ثم تلتها المرحلة الميتافيزيقية والقانونية وهي مرحلة الإغريق والرومان في العصور الوسطى . وقد استمرت هذه المرحلة النظرة العسكرية ولكن الصناعة وحصول المواطنين على حريتهم المدنية مضيا قدما بتطور الفكر الفلسفي وساد القانون . وأخيرا وبمجيء الثورة الصناعية وتطور العلم الحديث جاءت المرحلة العلمية الصناعية التي بددت الأوهام والخرافات وكرست الجهود للتطور الصناعي . وقد اقتبس العالم الاجتماعي الأمريكي البارز فرانكلين هنري جيدنجز (١٨١٠ - ١٨٨٧) نفس فلسفة كومت مع ادخال تعديلات طفيفة عليها ، كما كان لهذه الفلسفة تأثير على المؤرخ الألماني المشهور كارل لامبرخت .

أما بلجيكا فقد أنجبت واحدا من أبرز فلاسفة التاريخ وأكثرهم إنتاجا هو العلامة فرانسوا لورنت (١٨١٠ - ١٨٨٧) الذي قضى فترة طويلة استاذًا في جامعة غنت . وعبر عن فلسفته التاريخية في الجزء الأخير من كتاب صدر في ١٨ جزءا بعنوان «دراسات في تاريخ البشرية» . والواقع إن كتابه جاء تاريخيا عالميا فيه من الجهد الشئ الكثير . كما كان لدى المؤلف من المعرفة التاريخية أكثر مما توافر لأحد غيره ممن كتبوا عن فلسفة التاريخ حتى عصره . وعلى ذلك فانه فشل في استغلال هذه المعرفة العريقة التي توافرت لديه عند تناوله لفلسفة التاريخ ، مثل الفلسفة التي بلغت فيها نظرية القدرة الإلهية في تسير دقة التاريخ ذروتها . وقد انتقد لورنت فلسفات التاريخ السابقة لما فيها من اعتراف بمذهب القضاء والقدر ، فكان فيكو في نظره صاحب النظريات القديمة في القدرية وفولتير وفردريك الأعظم دعاة قدرية الصدفة ، أما مونتسكيه فصاحب النظرية القائلة بقدرية المناخ ، في حين ان هرديك كان من المؤمنين بقدرية

الطبيعة . ورينان بقدرية الجنس . أما هييجل فكان يؤمن بالقدرية الأخلاقية بمعنى أن الله والكون شيء واحد . أما كونت فكان من دعاة القدورية الانجليكية . وبدا كل من القائلين بقدرية القوانين العامة^(١) . أما فلسفة التاريخ عند لورنت فكانت تتطوفا من الإيمان بالله بناها على أساس فكرة أن التاريخ يعزز عظمة الله وأنه «الله» هو الذى يدفع الإنسان قدما نحو الحضارة الحديثة ويعطينا لورنت بذلك مثالا رائعا للقدورية اللاهوتية ولعل أهم مظهر لفلسفة التاريخ وأكثرها متعة عند هو تأكيد تطوّر مبدأ القومية وما أسهمت به هذه القومية في مجال التطور الفكرى والأخلاقي للجنس البشرى . وقد دافع لورنت دفاعا نبيلًا عن فكرة وحدة أمم العالم المعاصر وتمازجها .

أما الايطاليون فكان لهم أيضا نصيب كبير في فلسفة التاريخ وعلى رأس فلاسفة التاريخ الإيطاليين يأتي قيصر باليو (١٧٨٩ - ١٨٥٣) الذى كان يرى أنه من حق البابوية تزعم حركة الوحدة الإيطالية ، وتضمن كتابة (تأملات تاريخية) آرائه في فلسفة التاريخ . وهو صدى لما سبق أن رددّه يوسويه فقال بنظرية الرعاية الإلهية في توجيه أحداث التاريخ . وهناك أيضا جويسيب فيراى (١٨١٢ - ١٨٧٦) الذى كان شديد التأثير بفيكو . وقد وضع فيراوى فلسفة للثورة الغرض منها التجسيم لفكرة أنه ينبغي النظر إلى الثورات على أنها جهود بناءة وليست مدمرة في مجال التطور البشرى . أما أفكاره التى ضمها كتابه (نظرية العصور السياسية) الذى ظهر سنة ١٨٧٤ فكانت أكثر أهمية ، إذ قال فيها إن التقدم البشرى جاء نتيجة جهود عوامل رئيسية معينة وقد أمكن لكل عامل من هذه العوامل أن يسود فترة ١٢٥ عاما . ولقد مرت عملية سيادة كل عامل من هذه العوامل بمراحل أربعة : الإعداد والتحضير ، الازدهار ، الارتداد، التحلل والإحلال . وسنشير فيما بعد إلى آراء بندتو كروس .

فلسفة التاريخ في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية

لم يكن هناك فلاسفة تاريخ بالمعنى المعروف في إنجلترا . حقيقة إنه ظهر في إنجلترا اتباع للمدرسة الفلسفية المثالية التجريدية كما كان فيها اتباع لهيجل وكونت ، ولكن عملهم لم يتعد دائرة إدخال تلك الأفكار الفلسفية إلى إنجلترا وإن كان بعضهم قد جاء ببعض الشروح والتأويلات التى اتقنوا بحجها ودراستها ، على نحو ما فعله فردريك هارسون ورجال فلسفة المجتمع اليقيني أو الوضعي من حيث إدخال آراء الفيلسوف كونت إلى إنجلترا ونشرها فيها^(٢) .

ولكن ليس معنى هذا أن دور الفلاسفة الانجليز اقتصر عند هذا الحد فهناك كتاب

(١) Flint Op. Cit. p. 324.

(٢) J. E. Mc Gree, Crusade for Humanity: The History of organized positivism in England (Watts 1931).

الإنجليز أنتموا خلال القرن التاسع عشر ببعض آراء متعلقة بفلسفة التاريخ ، كانت أعظم وأقيم من كثير مما إدعاه رجال الدين أو العقلانيون الذين إسمعرونا جهودهم فيها سبق باستثناء عمل أوغسط كونت الذي لا يداينه أحد في قوة آرائه . هذا إلى أن معظم أبحاث الإنجليز في هذا الصدد جاءت متأثرة بالمذهب المادى الجديد والمذهب الطبيعى فضلا عن فلسفة النشوء والتطور .

ونجد في كتابات هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) ربطا بين تاريخ الإنسانية وتطور الثقافة البشرية خاصة في الجزء الثانى من كتابه « المبادئ الأولى » وفي كتابه « مبادئ علم الاجتماع » ذلك أنه كان يرى أن التطور الاجتماعى والثقافى يتفق مع قوانين التطور الكونى - فهناك تكامل تدريجى للمادة يعقبه تمييز تام بين الأجزاء . كذلك حرص سبنسر بصفة خاصة على تلخيص التاريخ البشرى من نظرية أن أحداثه من صنع الله وتدبيره . ثم انه يرى أن التطور الاجتماعى لا يتم بتوجيه إلهى ، وأن الإنسان نفسه لا يستطيع تخطيطه أو التحكم فيه ، فتطور المجتمع عملية طبيعية تماما كتطور الكون فى مجموعه . وأوضح سبنسر أن هناك ثلاث مراحل رئيسية للتطور الاجتماعى :

- ١ - مرحلة المجتمع القبلى الذى نشأ من الجماعات الصغيرة المتشعبة .
- ٢ - عصر القوة العسكرية الذى اندمجت فيه الجماعات القبلية للصغيرة عن طريق الحرب لتكن دولا .
- ٣ - العصر الصناعى وفيه كرس الجهد الاجتماعى قبل كل شئ لتحقيق الأهداف الصناعية والإنتاجية .

أما هنرى توماس باكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) فكان أحد الإنجليز من اتباع المدرسة العقلانية فضلا عن أنه تأثر بمذهب كونت فى الفلسفة اليقينية (الوضعيه) ومذهب الطبيعة الاحيائية الجديد . لقد صاغ باكل فى كتابه « تاريخ الحضارة فى إنجلترا » بعض القوانين الطبيعية الخاصة بالتطور التاريخى وطبقها تفصيلا على تاريخ إنجلترا ولكنه توفى قبل أن يكمل هذا العمل . وكان باكل شأنه شأن هولباخ Holbach يعتقد أن الإنسان عموما ليس إلا جزءا من الطبيعة ، ومن ثم فإن قوانين التطور التاريخى يمكن إخضاعها لقوانين الطبيعة . وهذه القوانين يتم تحديددها على النحو التالى :

١ - القوانين الطبيعية التى تتعلق بتأثير التربة والمناخ والثروة وسائر جوانب الطبيعة على الإنسان . وخلاصة هذه القوانين أن التأثيرات الجغرافية تتناسب تناسبا عكسيا مع نمو الذكاء . فالذكاء كان أقوى ما يمكن فى المجتمع البدائى وأضعف ما يكون فى الحضارات المتقدمة .

٢ - القوانين الأخلاقية وهى ثانية لا تتغير . وقد فشل باكل فى تقدير اتجاه التطور فى هذا

المجال .

٣ - القوانين الفكرية وهي التي تؤكد أن التطبيق المطلق للمنهج العلمي كان نافعا للإنسان دائما كما أنه ساعد مساعدة فعالة في التعجيل بتطور الحضارة .
وقد صور بكل هذه القوانين بأسلوب مبسط مبتهجا بتاريخ كل من فرنسا وأسبانيا واسكتلندا ولكن المنية عاجلته وحالت دون اتمام خطته الكبرى ألا وهي تطبيق هذه القوانين بالتفصيل على تاريخ الحضارة الإنجليزية .

ولعل أعظم محاولة قام بها كاتب إنجليزي لتطبيق مبادئ دارون على التطور البشرى كانت تلك التي قام بها الاقتصادي والتر باجهوت Walter Bagehot (١٨٢١ - ١٨٧٧) في كتابه «العلوم الطبيعية والسياسة» وقد حاول فيه الاستفادة من مذهب دارون في التوصل إلى تفسير نفسى للتطور البشرى فقال ان هناك ثلاثة أدوار بارزة في التقدم البشرى :

- ١ - دور تكون العادات أو دور المجتمع البدائى .
- ٢ - دور التصارع بين العادات أو عصر تكون الأمم وهي الفترة التي نجمت عن الحروب التي كان من شأنها اندماج الجماعات القبلية وتكوين دول فيها .
- ٣ - دور البحث والنقاش حيث أمكن بهذا البحث التخلص من المعتقدات والشعائر الجامدة وانخضاع كل ذلك لمنطق وإحكام المناقشة الحرة .

وأوضح باجهوت ان العصر الذى تكونت فيه الأمم قد شهد قيام إمبراطوريات الشرق القديمة ، أما عصر المناقشة فقد بدأ فى اليونان وروما ولكن حدث نكوص فى العصور الوسطى وإرتداء إلى شئى أشبه ما يكون بالرجوع إلى عصر تكون الأمم فى الزمن القديم . كذلك أوضح باجهوت أن نظام الحكم الديمقراطى - وهو الذى يرجع فى اصوله إلى نظام الجمعيات القبلية لدى الألمان القدماء - قد احيا عصر المناقشة .

أما سبر ليزلى ستيفن (١٨٣٢ - ١٩٠٤) كاتب المقالات الشهيرة والمحرر والناشر البارز فقد حاز شهرة عريضة بما بذله من جهد لتخليص التاريخ من فكرة إرجاع أحداثه إلى توجيه إلهى ، فضلا عن إدخال وجهة نظر لا أدريية على الفلسفة التاريخية . وأبرز أعماله فى هذا الصدد كتابه (علم الاخلاق) الذى حاول فيه أن يتكسر نظرية طبيعية وتفسير طبيعى للأخلاقيات على أساس آراء دارون كما حاول أن يدافع عن فكرة أن الغرض الرئيسى من قوانين وشرائع السلوك السليمة هو المحافظة على حياة الجماعة ودفع عجلة التطور الاجتماعى

أما روبرت فلتن (١٨٣٨ - ١٩١٠) فيتمتع بأهمية خاصة لما له من دراسات تاريخية خاصة بتطور التاريخ وفلسفته فى العصور الحديثة ، وخاصة انه كان استاذا للاهوت فى جامعة أدنبره . وأهم مؤلفاته فى هذا الصدد كتاب باسم (فلسفة التاريخ فى أوروبا وألمانيا) وقد صدر

سنة ١٨٧٤ م . كما صدرت له دراسة عن فلسفة فيكو سنة ١٨٨٤ م . ثم وسّع الفصول الخاصة بكتابه عن فلسفة التاريخ في أوروبا وهي الفصول التي تناول فيها الحديث عن فرنسا وبلجيكا ، وكون منها مجلدا بعنوان (فلسفة التاريخ في فرنسا) وقد صدر له سنة ١٨٩٣ م . وكان من المتوقع أن يتبع هذا المجلد بمجلدات أخرى عن فلسفة التاريخ في ألمانيا وغيرها من الدول وأن يضمها آراءه بالنسبة لفلسفة التاريخ ولكنه لم يصدر شيئا مستظما عن هذا الأمر . وإستطاع فلنت في تعليقاته الناقدة أن يجمع براءة بين إيمانه الراسخ بالله وبين آراء المذهب التجريبي الإنجليزي هذا إلى انه عارض في صرامه الفلسفة المثالية التجريدية وآراء هيغل . ولعل أهم ما أسهم به في مجال فلسفة التاريخ هو إثارة اهتمام القراء الإنجليز والأمريكين بأكثبه لآخرون عن هذه الفلسفة .

ثم كان أن ظهر خلط عجيب بين المذهب الطبيعي العلمي وبين معاداة التقدم الفكري فيما كتبه بنيامين كيد Benjamin Kidd (١٨٥٨ - ١٩١٦ م) وخاصة في كتابه (التطور الاجتماعي) . وكانت نظرة كيد إلى التاريخ تشبه إلى حد ما نظرة (كونت) له ، بمعنى انه كان يعتبر التاريخ صراعا بين ما يسعى إليه الفرد من مبادرة وتححر وبين ما يفرضه المجتمع من قيود وسيطرة . ولكن بينما كان (كونت) يعتقد أن الحوافز الرئيسية للتقدم هي الدوافع الفردية فانه كان من رأي (كيد) أن ما تفرضه الجماعة من قيود على الفرد هي المصدر الرئيسي للتطور البشري . هذا إلى ان كيد رأى أن اتباع ما يمليه العقل يقوى روح الفردية ومن ثم يبعث على الفوضى ولذلك نادى بأهمية وجود قيود اجتماعية ، وضرورة ارتكاز هذه القيود على قوة أو دعامة تفوق سلطان العقل ، وهي - في نظره - قوة الدين .

ثم ان كيد تقبل آراء سبنسر عن التطور الاجتماعي ومراحله الحرية والصناعية ، ورأى أن المسيحية انقذت البشرية من خضوعها للمرحلة العسكرية (الحرية) عن طريق ما لهذه الديانة من سلطان يفوق سلطان العقل ، وعن طريق هذه العقيدة للسلوك السليم ، فضلا عن نظامها الأخلاقي المبني على عدم إثارة النفس . ولكن كان ينبغي على الكاثوليكية بعد أن ادت مهمتها وقامت بواجبها ان تفسح الطريق للبروتستانتية التي أطلقت العنان لفيض من الايثار ظل حتى ولذلك الحين مكبوتا أو وجه توجيها خاطئا . وقد تشربت الطبقات الحاكمة بهذا الايثار حتى وجدت نفسها غير قادرة على مقارنة الحركة التي استهدفت الديمقراطية والعدالة الاجتماعية . وهكذا يبدو أن كيد كان يسعى إلى انكار أو حجب النظرية الماركسية القائلة بأن المكاسب انما تحققت عن طريق كفاح الطبقات الدنيا ضد سادتهم .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد شهدت إهتماما كبيرا بفلسفة التاريخ وخاصة ما ظهر فيها من حساسة لآراء هيغل وكومت وغيرهم . والملاحظ ان المؤرخين المحترفين خاصة بعد

عصر اندرو . و . هويت لم يهتموا كثيرا بفلسفة التاريخ^(١) ، وكل ما فعله موريس ، وهاريس ، ورويس وغيرهم هو نشر فلسفة هيجل ، كما تولى حنا فيسك ترويج مذهب هيرت سبنسر الخاص بتطور الكون . كذلك طبق حنا ديوى في نفس الوقت نظريات دارون على الفلسفة ، كما اقتبس فرانكلين هـ . جيندنجز رأى كونت في تفسير التطور الاجتماعي . أما هنري آدمز فقد اقترح اخضاع المعلومات التاريخية للقوانين العلمية خاصة القانون الثاني من قوانين القوة الحرارية الخاص بليستناء الطاقة . أما اخوه بروكس آدمز فكانت أفكاره أقوى ألرا ، وهي الأفكار التي ضمنها في كتابه (قانون الحضارة والتدهور) و (نظرية الثورة الاجتماعية) . وهناك اخيرا ج . د . فورست الذي جمع بين صيغة معدلة من فلسفة هيجل وبين المعرفة الكاملة بالحقائق التاريخية وذلك في كتابه (تطور الحضارة الغربية)

والواقع ان الحركة التاريخية ذات الطابع العلمي لم تقدم في الولايات المتحدة إلا في وقت متأخر جدا . لذلك نجد أن المؤرخين من رجال الفكر كانوا مهتمين فيها بتفسير التاريخ أكثر اهتمامهم بنظريات فلسفة التاريخ^(٢) .

الاتجاهات الحديثة

وهناك أبحاث أخرى في مجال فلسفة التاريخ غير تلك التي استعرضناها بإيجاز فيما سبق فمثلا اقتبس كارل ماركس نظرية هيجل لكي يخلق تفسيراً مادياً للتاريخ حيث يصور العوامل التكنولوجية والاقتصادية بأنها العناصر الحاسمة في التطور البشري والاجتماعي . وقد بين ماركس ان الصراع الطبقي كان أقوى هذه العناصر الاقتصادية تأثيراً وان طبقة البروليتاريا (العمال) سوف تطيح في النهاية بالرأسماليين المستغلين وتخلق مجتمعا تذوب فيه الطبقات^(٣)

أما عالم الجمال الإيطالي البارز بنديتو كروس Bendetto Croce فقد أخذ بوجهة نظر هيجل للتاريخ ، ولكنه استبدل المنطق بالفن^(٤) فالتاريخ بالنسبة له ابراز الحقيقة في الوقت الحاضر ابرازاً يحمل بين طياته انطباعات الماضي ، ويضم بين ثناياه بصيص نور المستقبل . ورأى

(1) G.B Adans History and the philosophy of History in American Historical Review, January 1909.

(2) CF. shotwell: Inroduction to the History of History, Chap XXVII

(٣) M. M. Boher Karl Marx Interpretation of History (Harvard University press 1927).

American Historical January 1934 p. 230.

History: its theory and practice (Harcourt, 1921)

وانظر كذلك كتاب ركوس بعنوان

تأرجح كروس بين اتجاهات مختلفة وكان أحد هذه الاتجاهات بعيداً كل البعد عن الصيغة التاريخية (المؤلف) .

كروس أن مهمة الفلسفة هي تفسير ما غمض من حقائق كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي ، ولذلك نجده ينادى بالتوفيق بين التاريخ والفلسفة . وعلى هدى الفكرة المثالية التي تقول بأنه ليس هناك حقيقة منفصلة عن العقل أو الروح ، أعلن كروس أن التاريخ في جوهره ليس إلا قصة العقل البشري . ويبدو ذلك في نظريات الفن وأعماله وفي التصرفات العملية والأخلاقية ، ولقد أشتهر كروس بجذله المنطقي في مجال فلسفة التاريخ . فقد أوضح أن هؤلاء الذين يرفضون الفروض الفلسفية الراقية ويصدون في وجهها الأبواب سرعان ما يجدون أنفسهم وقد انغمسوا في فلسفة ضحلة وضيقة ، ولذلك يطالب كروس بأنه من الخير أن نلتزم صراحة بفلسفة التاريخ السامية ذات المكانة الراقية .

وثمة كتاب مطول ظهر بعد الحرب العالمية الأولى إحتوى من النقاش حول فلسفة التاريخ الشيء الكثير ألفه اوزوالد سبنجلر وأسماه «أصمحلل الغرب» ويستعرض المؤلف في هذا الكتاب غزارة علمه ، ولكن فلسفته التي يعرضها تتصف في بعض جوانبها بطابع تشاؤمي يبدو تأثيرها بآراء ينتشه كما يبدو فيها التأثير بنظرية التطور الدائري الحلزوني للتاريخ . لقد أوضح سبنجلر أربعة أنماط عظيمة للحضارة على الرغم من ذكره لأنماط أخرى كثيرة . وهذه الأنماط الأربعة هي :

- ١ — الحضارة الهندية التي بدأت حوالي سنة ١٨٠٠ ق . م
- ٢ — الحضارة القديمة وقد بدأت حوالي سنة ٩٠٠ ق . م
- ٣ — الحضارة العربية التي بدأت في العهد المسيحي وشملت قيام المسيحية والإسلام .
- ٤ — الحضارة الغربية وهي التي خرجت إلى حيز الوجود حوالي سنة ٩٠٠ م .

وقال ان كل حضارة من هذه الحضارات مرت بدورة رباعية كاملة : الربيع والصيف والخريف والشتاء . وأوضح سبنجلر ان الحضارة الغربية تمر الآن بشتاءها وقد تسلم هذه الحضارة الغربية الزمام إلى الجنس الأصفر .

وعلى الرغم من أن الفلسفة العامة لكتاب سبنجلر موضع شك واستنجاها محل جدل كبير فانه لا بد وان نقر أن هذا الكتاب كان له أثر كبير وأنه جاء بألاف الفروض المثيرة ، مما ترك أثر في عقول كثير من القراء . كذلك نشر سبنجلر كتاباً صغيراً عنوانه (الإنسان والتقدم الفني) أحدث دويماً كبيراً ، وظهر فيه جهله التام بأوليات علم الأحياء والأجناس البشرية^(١) . وتولى الفيلسوف الألماني لوديج شينن الرد على سبنجلر في كتابه «التطور والتفاوت» .

ثم ظهر تطور جديد في فلسفة التاريخ في أعمال المؤرخ وعالم الاجتماع الألماني بولس

(1) Henry Hazlett. in the nation, February 24, 1932.

بارث (١٨٥٨ — ١٩٢٢ م) . قام بارث بدراسة فلسفة هيجل وأتباعه دراسة عميقة وحاول أن يفصل بين فلسفة التاريخ والتاريخ ذاته ، وان يربط بين فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، حيث انه اعتبر ان فلسفة التاريخ هي جوهر علم الاجتماع ولذلك جاء كتابه الهام المطول « فلسفة التاريخ كعلم اجتماع » لا بحثا هاما لفلسفة التاريخ فحسب بل جدلا قويا لتأييد فكرة ان فلسفة التاريخ هي علم الاجتماع ، وهي فكرة رحب بها المؤرخون التقليديون .

اما كيرت بيرزج Kurt Breysig فهو احد أتباع لانبرشت وأحد العلماء المرموقين في مجال التاريخ الاجتماعي . وقد تعرض لموضوع التاريخ في كتابه (مع التفسير التاريخي) وفيه صيغ فلسفة هيجل بالفلسفة الماركسية مؤكدا أثر العوامل المادية من ناحية والمثل من ناحية أخرى . ومما تجدر الاشارة إليه تركيزه على أهمية القيادة ودورها .

أما أهم بحث في مجال فلسفة التاريخ في العصر الحديث فهو كتاب المؤرخ ارنولد ج . توينبي بعنوان « دراسة التاريخ » وهو كتاب عملاق ظهر في اثني عشر جزءا فيما بين سنتي ١٩٣٤ ، ١٩٦١ . وهناك كتاب بينم سوركن Pitirim Sorokin بعنوان القوى الاجتماعية والثقافية وقد ظهر في أربعة أجزاء بين ١٩٣٧ ، ١٩٤١ .

وقد درس توينبي قيام وسقوط اثني وعشرين حضارة وانتهى إلى حيث انتهى يوسف هيرجشمير Joseph Hergesheimer بأن يدفن الكون في ساحة أحد الكنائس الإنجليزية أما سوركن فقد صور التطور الاجتماعي بأنه يتذبذب بين فترات إزدهار وفترات ذبول وتدهور .

المراجع

- 1- G.B. Adams «History and the philosophy of History in American Historical Review january 1902.
- 2- D.S. Mugzey ed, Essays in Intellectual History Dedicated to James Harvey Robinson chapiv - x - XIII- Harper 1929.
- 3- Fueter: Histoire de l'historiographie moderne, pp. 517-73-647-57.
- 4- R. Flint: The Philosophy of History in France and Germany Scribner 1874.
- 5- Flint: The philosophy of History in France.
- 6- G.P. Gooch: History and historians in the Nineteenth century chaps II-IV, IX-X-xvii-xxvi- Longmans, Green 1952.
- 7- Thompson: History of Historical Writing vol II. Chaps XI-XIIV-XIVII-
- 8- Reinhold Aris: History of Political thought in Germany from 1789-1813. London 1936.
- 9- R.T. Clark Herder: His life and thought university of California press 1955.
- 10- H.C. Englebrecht: Johann Gottlieb Fichte, Columbia un. press 1955
- 11- J.C. Herold: Mistress to an Age: A life of Madame de Staël. Bobbs-Merrill 1958.
- 12- L.M. Young: Thomas Carlyle and the Art of History Univ. of Pa. press 1939.
- 13- T.P. Donovan: Henry Adams and Brooks Adams, Univ. of Okla press 1961.
- 14- Wegele: Geschichte der deutschen Historiographie Book IV, V.
- 15- Rudolph Haym: Die Romantische Schule, Berlin 1914.
- 16- K.H. Poetzsch: Studien zur Frühromantischen Politik und Geschichtsauffassung. Leipzig 1907.
- 17- Gottfried Salomon: Das Mittelalter als Ideal in der Romantik Munich 1922.
- 18- Peardon: The Transition in English Historical Writing.
- 19- Kenneth Bell and G.M. Margan: The Great Historians Macmillan 1925.

الفهرس

- ٥ — تصدير بقلم د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ٩ — مقدمة لطبعة دوفر (١٩٦٣)
- ١١ — مقدمة المؤلف للطبعة الأولى
- ١٥ — شكر وتقدير

● الفصل الأول : أصول الكتابة التاريخية

- ١٧ (طبيعة التاريخ)
- ١٨ — تطور تاريخ ما قبل الكتابة
- ٢٥ — إتقان فن الكتابة
- ٢٨ — اكتشاف الزمن ونشأة الترتيب الزمني للعصور
- ٣٣ — بداية الكتابة التاريخية في الشرق

● الفصل الثاني : الكتابة التاريخية عند اليونان والرومان

- ٥٩ — الكتابة التاريخية عند الرومان

● الفصل الثالث : الكتابة التاريخية في العصر المسيحي الأول
(الخلفية الثقافية للكتابة التاريخية في العصر المسيحي) ٦٥

- ٦٧ — النظرة الفلسفية المسيحية للتاريخ
- ٦٨ — تصور المسيحيين الأول للمنهج التاريخي
- ٦٩ — المفهوم التاريخي عند المسيحيين
- ٧٤ — أورزيوس وتاريخ العالم المسيحي
- ٧٦ — التاريخ الكنسي المنسق
- ٧٩ — سير مسيحية

● الفصل الرابع : الكتابة التاريخية خلال العصور الوسطى
(وجهة النظر التاريخية خلال العصور الوسطى) ... ٨٣

- الكتابة التاريخية خلال فترة الانتقال من العصور القديمة إلى ثقافة العصور الوسطى
- ٨٧ — الحوليات والمدونات التاريخية في العصور الوسطى
- ٩٥ — بعض زعماء المؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى
- ١٠٢ — أبرز المؤرخين الفرنسيين في العصور الوسطى
- ١٠٩ — بعض أهم المؤرخين الإيطاليين في العصور الوسطى
- ١١٥ — زعماء المؤرخين الألمان في العصور الوسطى
- ١٢٠ — التراجع التاريخي في غرب أوروبا خلال العصور الوسطى
- ١٢٦ — المؤرخون البيزنطيون في العصور الوسطى
- ١٣٠ — بعض المبرزين من المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى
- ١٣٧ — ملحوظات ختامية عن كتابة التاريخ في العصور الوسطى
- ١٤١

● الفصل الخامس : الحركة الإنسانية والكتابة التاريخية
(طبيعة الحركة الإنسانية وتأثيرها العام على الكتابة التاريخية)

- ١٤٥ — الكتابة التاريخية على أيدي الإنسانيين في إيطاليا
- ١٤٩ — الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية في خارج إيطاليا
- ١٦١

● الفصل السادس : الكتابة التاريخية الكنسية خلال عصر الإصلاح الديني

والحركة المضادة (الأثر العام لحركة الإصلاح الديني

- والحركة المضادة في الكتابة التاريخية) ١٧٥
- بعض الأعمال التاريخية الرئيسية في تلك الفترة ١٧٨
- اليسوعيون (الجزويت) ١٨٩
- التقويم الزمني المسيحي ١٩٢

● الفصل السابع : نشأة التاريخ الاجتماعي الثقافي -

عصر الكشف الجغرافية وغو الحركة العقلانية

(الأثر العام لحركة التوسع الأوربي على الكتابة التاريخية) ١٩٥

- المذهب العقلاني والكتابة التاريخية ٢١٠
- فولتير وخلفاؤه ٢١٦
- مدرسة مونتسكييه ٢٣٠
- تلاميذ روسو ٢٣٣
- التاريخ العالمي ٢٣٨
- اتساع المعرفة وأثره في التقويم التاريخي ٢٣٩
- منشأ نظرية التقدم ٢٤٢

● الفصل الثامن : الرومانسية وفلسفة التاريخ

(الرومانسية بوصفها رد فعل للمذهب العقلاني) ... ٢٤٩

- الرومانسية والكتابة التاريخية ٢٥١
- نشأة فلسفة التاريخ ٢٦٥
- ما أسهم به الألمان في مجال فلسفة التاريخ ٢٦٦
- الكتاب الفرنسيون والبلجيكيون والإيطاليون ٢٧٢
- فلسفة التاريخ في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ٢٧٦
- الاتجاهات الحديثة ٢٨٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٤/٣٢٧٢

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٣٥٧ - ٨

يعتبر هذا الكتاب مدخلا لتاريخ الكتابة التاريخية، والكتابة التاريخية هي أحد مظاهر التاريخ الفكرى للجنس البشرى .
والحق أن التاريخ يعمل في محيط أصعب من المحيط الذى يعمل فيه أى علم معروف مثل الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء . فإن المهمة الرئيسية للمؤرخ أن يفحص كل الوثائق بكافة أنواعها ليميز الصحيح منها من الزائف ثم ينتقل إلى التأليف التاريخى بناء على ما توصل اليه من النتائج .
ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذى يدرس تاريخ الكتابة التاريخية

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى المر بارنز

ترجمة

أ.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الثانى



المكتبة العربية

١٩٨٧

تاريخ الكتابة التاريخية

الإخراج الفني : سهير معطى شنودة

المراجعة والإشراف الفني : عفاف توفيق

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى المر بارنر

ترجمة

ا.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

ا.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الثانى



المطبعة المصرية للكتاب

١٩٨٧

الفصل التاسع

الكتابة القومية تحت تأثير التحرر والقومية القومية والكتابة التاريخية

لم يقتصر أثر حركة التوسع الأوربي على كونها عاملاً كبيراً في إثارة الاهتمام بتاريخ الشعوب غير الأوربية وكونها دافعاً قوياً على تطور العلم الطبيعي الحديث ، وما صاحبه من فلسفة الشك ، بل كانت كذلك القوة الرئيسية التي ساعدت على خلق الدول القومية الحديثة التي قامت على أنقاض الملكيات الإقطاعية التي وجدت في أواخر العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التوسع الأوربي هذه أسهمت في زيادة رؤوس الأموال ومصادر المادة التي غدت تحت تصرف الملوك ، كما ساعدت على خلق طبقة متوسطة موالية لهم مما مكن الملوك من تكوين جهاز من الموظفين الحكوميين وإقامة قوة عسكرية ثابتة استطاعوا بها سحق معارضة طبقة النبلاء الإقطاعيين وإدخال نظام الدولة القومية .

ولم تلبث أن أدت الحماسة الوطنية في الدول الحديثة إلى زيادة إنتاج الكتب التي تمجد ماضي كل دولة وتاريخها القومي . وهكذا حدث نشاط هائل في جمع الوثائق التي لا تقدر بثمن والتي تسجل تاريخ كل دولة منذ ماضيها البعيد . وعلى الرغم من أن المرحلة المبكرة لحركة الجمع والنشر هذه كانت قد بدأت في القرن السادس عشر ، فإنها أخذت شكلها الحديث بعد أن أسهمت الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وحركة بعث روسيا بدرجة كبيرة في خلق شعور قومي قوي في معظم الدول الأوربية ثم ازداد هذا الشعور القومي قوة بفعل الحركة الرومانسية وهي التي أكدت دائماً أهمية الشخصية القومية و « عبقرية الشعب التي لا تندثر أبداً » .

وكان لمذهب التحرر كذلك أثر كبير على كتابة التاريخ خاصة في تلك البلاد التي لم يكن النظام الملكي ولا الاتجاهات الاستبدادية ، المطلقة على درجة كبيرة من القوة . وازداد الاتجاه التحرري قوة وعمقاً بفعل الثورات الإنجليزية في القرن السابع عشر والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحرب التحرير في بروسيا فضلاً عن ثورات سنة ١٨٣٠ ، سنة ١٨٤٨ م .

ويتضح أثر مذهب التحرر على نشأة التاريخ القومي في كتابات عديد من المؤرخين أمثال روتيك ، جرفينوس ، ودهلان ، وثيري ، ومشيبييه ، وكوينت ، وماكولى ، فريمان ، وبانكروفت ، وموتلى .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ازداد الدافع القومي عمقاً وقوة نتيجة لرد الفعل القوي لكتاب ظهر سنة ١٨٥٤ بعنوان « بحث حول عدم تكافؤ الأجناس البشرية » بين فيه مؤلفه الكونت جوزيف آرثر جوبينو Joseph Arthur of Gobineau (١٨١٦ - ١٨٨٢ م) تأثير السلالات على التطور التاريخي ، وأكد سمو الجنس الآري على بقية الأجناس ، وأعلن رأيه الخاص بأن تدهور هذه السلالة جاء نتيجة اختلاطها بسلالات أخرى أقل منها شأناً . وكان أن لقيت هذه الآراء غير المستساغة الآن قبولاً وانتشاراً في ذلك الوقت لدى جماهير المؤرخين والساسة القوميين في ألمانيا^(١) . وبلغت هذه العقيدة ذروتها في ملاحم هوستون ستورون شامبرلين ، وأعمال موريس بايه وأناشيد النصر السكسونية ، التي نظمها كيلنج وهو مرلى . وهكذا لم يلبث أن أدى هذا الاعتقاد إلى إذكاء روح التعصب الوطني خاصة عند الأمم والأسر الحاكمة مما ترتب عليه اضطهاد الأمم التي كانت أقل شأناً وهو الاضطهاد الذي كان سبباً في إذكاء عواطفها القومية ومشاعرها الوطنية^(٢) .

(١) على عكس ما كان معتقداً ، ولم يكن لجوبيته اتباع كثيرون في فرنسا ، إذ كان ينظر إليه على أنه نيتشه الفرنسي أى شخص غير متدين يقف ضد العقيدة ضد القومية والديمقراطية . ولم يظهر أول تاريخ لجوبيته بالفرنسية إلا حديثاً (المؤلف) .

(2) Cf.F.H.Hankins, The Racial Basis of Civilization (Knopf 1926) Chaps I- V and Theophile Simar, The Race Myth (Boni 1925).

الكتابة التاريخية القومية في ألمانيا

بدأت البذور الأولى لكتابة التاريخ على أسس قومية في ألمانيا على عهد المدرسة الإنسانية وعهد الإمبراطورية القديمة . ذلك أن الإمبراطور المثقف مكسميليان الأول (١٤٩٣ - ١٥١٩ م) سار على نفس نهج شارلمان في جمع بعض كبار علماء المدرسة الألمانية في بلاطه في فيينا . ثم جاء من بعده كونراد كلتس الذى عمل على إحياء الاهتمام بكتاب « جرمانيا » الذى ألفه تاكيتوس ، وهذا أطلق الشرارة الأولى لجدل استمر قرابة أربعة قرون .

أما يوحنا سبسمر (١٤٧٣ - ١٥٢٩ م) المعروف باسم كوسبنيان Cuspinian فقد قام بدراسة ناقدة للأعمال التاريخية لكل من جوردان ، واوتو فريزينج . أما إيرنيكوس ، يويتينجر ، بيتوس ريناموس ، فهم يعكسون نفس روح بلوندوس في أبحاثهم الخاصة بالآثار الألمانية ، وإن كان نشاطهم سرعان ما طغى عليه الجدل الخاص بحركة الإصلاح الدينى ، مما أدى إلى فتور اهتمامهم بالتاريخ العلمانى والقومى .

أما حركة جمع مصادر التاريخ الألمانى فقد بدأها سيمون سكارديوس (١٥٢٥ - ١٥٧٣) ويوحنا بيستوريوس (١٥٤٦ - ١٦٠٨) وماركارد فريهر (١٥٦٥ - ١٦١٤) . ولم يلبث ملكوار جولداست (١٥٧٨ - ١٦٣٥) أن جمع في كتابه عن أباطرة الدولة الرومانية عدداً كبيراً من الوثائق التى تتعلق بتاريخ ألمانيا في العصور الوسطى فضلاً عن تاريخ القانون العام . وظل هذا الكتاب يمثل خير مجموعة لوثائق التاريخ الألمانى حتى ظهر كتاب « الوثائق الخائذة » Monumenta الذى تناول نفس الفترة وحوى نفس المادة ولكن بطريقة أكثر اتقاناً .

ثم كان أن ظهر الفيلسوف البارز جوتفريد ويلهلم لينتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وكان على درجة عالية من الطموح دفعت به إلى محاولة جمع مصادر التاريخ الألمانى في كتاب يمكن أن ينافس الكتب الفرنسية التى وضعها دوشزن في هذا الشأن . لكن لينتز لم يحصل على المساعدة المرجوة من الإمبراطور حتى يتمكن من إتمام مشروعه الكبير . ومن ثم فقد تخلى عنه واقتصر إنتاجه على كتابة تاريخ الجلفين وذلك في كتابه « حوليات برونزويك الخاصة بالإمبراطورية الغربية » وهو الكتاب الذى ظهر ما بين ١٧٠٧ - ١٧١١ م . وهو مستخلص مما كتبه لينتز عن أسرة برونزويك . وأكد لينتز ضرورة نسخ المصادر كما هى دون إدخال أى تعديل أو تصحيح عليها .

أما المجموعة الكبرى الحديثة عن مصادر التاريخ الألماني وهي التي تحمل اسم « الوثائق الخالدة عن التاريخ الألماني Monumenta Germaniae Historia » فهي جدوة فعلاً بهذا الاسم ذلك أنها كانت إنتاجاً طبيعياً لروح حرب التحرير وبدأ كتابتها رجل من أبرز رجال السياسة في عصره وهو هنريك فردريك كارل يارون قوم شتين . وقد تأثر شتين بالاتجاهات الرجعية التي سادت الفترة التي أعقبت مؤتمر فينا ، ومن ثم فقد كرس كل طاقته لإثارة الاهتمام بالتاريخ الألماني مدفوعاً إلى ذلك بعاطفة الحب الجياش نحو الأرض التي نشأ عليها أجداده وآبائه .

ولما فشل في الحصول على معونة حكومية تساعد على جمع مصادر التاريخ الألماني ، فإنه استطاع أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع من موارده الشخصية ومن أصدقائه ، حتى أنشأ مركز الوثائق التاريخية الخاصة بألمانيا . وشاء حسن حظه أن يلتقى بزميل له على جانب كبير من غزارة المعرفة والمقدرة على العمل ، وهو جورج هنريك برتز Pertz (١٧٩٥ - ١٨٧٦ م) الذي كان يعمل في دار المحفوظات بهانوفر . وقد تحمل برتز عبء العمل في كتاب « الوثائق الخالدة » مدة نصف قرن وساعده كثير من العلماء الألمان على رأسهم جورج وتيز ، وأخيراً جاء هذا الكتاب شاملاً لكل مصادر المعرفة الهامة عن التاريخ الألماني منذ عهد الكتاب الرومان الذين تناولوا موضوع الغزو والفتوحات حتى العصور الوسطى . ولم يكتمل الكتاب إلا سنة ١٩٢٥ بعد أن توالى ظهوره في ١٢٠ جزءاً . ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول رئيسية في تطور الكتابة التاريخية العلمية حيث أنه فتح الطريق أمام أجيال من المؤرخين تميزوا بوفرة الإنتاج ودقته . ثم أضيف إلى هذا العمل القومي العظيم أعمال أخرى تناولت تاريخ العديد من الولايات الألمانية فضلاً عن تاريخ ألمانيا الدينية وعلاقتها الخارجية وأعمال القادة البارزين فيها . ومن أمثلة ذلك ما قام به إردمانز درفر Erdmansdorffer من تجميع لتاريخ ألمانيا في عهد الناخب الأعظم فردريك وليم .

وفي مجال كتابة التاريخ القومي في ألمانيا لم يقف الجهد عند حد جمع المصادر ، وإنما وجد منطلقاً هائلاً في القصص الممتع الذي اتخذ من أجداد ألمانيا في ماضيها ومن أعمال أسرة هوهنزلرن العظيمة موضوعاً له . ذلك أن أسرة هوهنزلرن قامت بجهد كبير ساعد على خلق اتجاهات حماسية لإحياء أجداد إمبراطورية بروسيا في العصور الوسطى . وكان بوختا مولر أحد كبار المفكرين الذين كان لهم دور في نشأة التاريخ القومي الألماني ، فكتب عن ألمانيا العصور الوسطى بأسلوب رومانسي مؤثر أما شميدت — كما سبق أن رأينا — فقد كتب تاريخاً عن ألمانيا من وجهة نظر المدرسة العقلانية ، ولكن نظرة شميدت العالمية جعلت عمله غير مقبول لدى جماهير ألمانيا الوطنيين المتحمسين .

أما فردريك ويلكن فقد لجأ إلى كتابة القصص القومية التي تجدد بسالة الألمان في الحروب الصليبية وذلك في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » والذي ظهر ما بين ١٨٠٧ - ١٨٣٢ م . وهناك أيضاً هنريك لودن (١٧٨٠ - ١٨٤٧) الذي ألف كتاباً طويلاً بعنوان « تاريخ الشعب الألماني (حتى ١٢٣٥) » وفيه يظهر تأثيره بآراء يوحنا مولر عن العصور الوسطى . وحاول لودن في هذا الكتاب أن يشير حماساً قومه تجاه عظمة ألمانيا في العصور الوسطى .

ويأتي بعد ذلك المؤرخ يوحنا فوجت Johannes Voigt (١٧٨٦ - ١٨٦٣) صاحب كتابي « تاريخ بروسيا » و « تاريخ مارينبرج » وهما عبارة عن ملحمة عالجت فتح بروسيا ونشر الديانة المسيحية فيها على أيدي الفرسان التوتون . كذلك استعرض فردريك فون رومير (١٧٨١ - ١٨٧٣ م) ما أنجزته أسرة هوهنشتاوفن ، وبذلك اذاع شهرة أبطال العصور الوسطى الألمان . هذا في حين عالج المؤرخ جوستاف ستانزل (١٧٩٢ - ١٨٥٤) أعمال أباطرة فرانكونيا بمهارة ناقدة وعاطفية وطنية . أما المؤرخ ويلهلم فون جيزبرخت (١٨١٤ - ١٨٨٩) فقد حلل عوامل تكوين الإمبراطورية الألمانية في العصور الوسطى في كتابه الذي أسماه « تاريخ عصر الإمبراطورية الألمانية » وفيه استعرض علمه الغزير بصورة لا تقل بروزاً عن قدرته الأدبية النادرة ونحمسه وتعقبه للتوتونية .

وعلى الرغم من أن التاريخ الذي كتبه ليوبولد فون رانكه عن حركة الإصلاح الديني كان كبير الأثر في جعل لوثر بطلاً قومياً ألمانياً عظيماً ، فإنه يجب الاعتراف بأن رانكه والرعييل الأول من تلاميذه كانوا يشاركون المنعقلين نظرتهم العالمية . ولكن مع نشأة « المدرسة البروسية » أصبح التاريخ القومي في ألمانيا أكثر تعصباً وأكثر تركيزاً على الأسر الحاكمة . بل إن فون رانكه نفسه الذي كان يتصف بالتحكم في عواطفه لم يستطع أن يقلل أو يخفف من إعجابه ببروسيا وبأسرة هوهنزولن ، وبذلك جاءت كتبه العديدة عن التاريخ البروسي أقرب من غيرها من كتاباته لتكون تاريخاً قومياً . كذلك كتب لودفيج هوسر (١٨١٨ - ١٨٦٧ م) قصة ممتعة عن حرب الثلاثين سنة والإمارات الجرمانية فضلاً على ملحمة طويلة صاغها عن حرب التحرير في كتابه « تاريخ ألمانيا من ١٧٨٦ - ١٨١٥ م » وركز في كتابه هذا على دور بروسيا في تحرير ألمانيا وتوحيدها . أما ما كسيليان دنكر (١٨١١ - ١٨٨٦) مؤرخ العصور القديمة الذي نهض بمهمة نشر الأوراق الرسمية الخاصة بملوك بيت هوهنزولن ومن ثم ازداد إعجابه بهذه الأسرة وأصبح مقتنعاً بقدرتها على إحياء أمجاد الإمبراطورية الألمانية القديمة وجاء مدح لبروسيا كذلك في كتاب أدولف شميدت

(١٨١٢ - ١٨٨٢) الذى سماه « سياسة بروسيا الألمانية » وكذلك فى كتابه « تاريخ محاولات الوحدة منذ عهد فردريك الكبير » . وقد أكد شميدت اخلاص بروسيا الذى لا يتزعزع لقضية الوحدة الألمانية .

أما أول الأعمال الكبرى التى تثنى على بروسيا فهو كتاب « تاريخ السياسة البروسية » الذى ألفه يوحنا جوستاف درويسن Johannes Gustav Droysen (١٨٠٤ - ١٨٨٤ م) وقد تخلى فيه عن مذهبه الحر ليصبح مادحاً إلى درجة النفاق لأسرة هوهنزلرن . ولذلك جاء كتابه الخالد مشوباً بتحيز مؤسف لهذه الأسرة وما سماه بالرسالة التى جاءت هذه الأسرة من أجل تحقيقها . وبالإضافة إلى ذلك اقتصر كتابه على دراسة سطحية لسياسة بروسيا الخارجية واهتم اهتماماً ضئيلاً بالسياسة الداخلية . وأغفل أثر العوامل الاقتصادية والظروف الاجتماعية .

ثم بدأ المؤرخ هنريك فون تريتشك (١٨٣٤ - ١٨٩٦) من حيث توقف درويسن ويرقى كتابه « تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر إلى مستوى مؤلفات ميشليه ، ماكولى ، فرود ، حتى أنه يعتبر إحدى التحف الأدبية فى الكتابة التاريخية الحديثة . وعلى الرغم مما امتلأ به هذا الكتاب من حماسة واضحة للدور القيادى لبروسيا البروتستانتية وهى الشئ الذى يفيض به كتاب درويسن — فإن كتاب تريتشك قد أعطى كثيراً من الاهتمام للجوانب الثقافية الأساسية فى تطور ألمانيا القومى .

أما هنريك فون سييل (١٨١٧ - ١٨٩٥ م) فهو آخر الرواد الثلاثة فى المدرسة البروسية . وقد بدأ سييل عمله متعلماً على فون رانكه فوضع كتاباً ممتازاً عن الحملة الصليبية الأولى وقام بدراسة عميقة عن الملكية فى ألمانيا . ولكن الأحداث السياسية المثيرة التى شهدتها منتصف القرن التاسع عشر جعلته يتعد عن نهج أستاذه وأصبح يؤيد بقوة الوحدة الألمانية عن طريق القوة العسكرية البروسية . وجاء كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » حواراً كبيراً مضاداً لحركة الثورة الفرنسية . وكان موضوعه الرئيسى هو الاعتقاد الرومانسى السابق الذى يذهب إلى أن الفرنسيين يفتقرون إلى المقدرة السياسية . ثم تحول من هذه الدراسة إلى دراسة ما توهم أنه الشئ الذى يثبت قدرة أمته الفائقة فى الأمور السياسية ، وهو قيام الإمبراطورية الألمانية على يد بسمارك . وكشف كتابه الكبير ، قيام الإمبراطورية الألمانية على يد وليم الأول ، عن قدرة هائلة على سرد كثير من التفاصيل السياسية والديبلوماسية بصورة واضحة . ولكن منهجه كان الدفاع المتميز عن سياسة بسمارك وديبلوماسيته .

وبانتها سبيل من كتابه أصبح التاريخ في ألمانيا أداة أضعف من أن تخدم الأمان القومي . ولم يلبث أن حل محل التاريخ الإنتاج الأدبي لبيتريز Peters ، تانتيرج وسائر الكتاب من مؤيدي حركة التوسع الألماني ، هذا فضلاً عن برنهاردي Bernhardt ، وكبار العسكريين وشامبرلين وكبار المتحمسين للتيوتونية ، وهم الذين اتصفت أعمالهم بالصخب . ولقد أوضح جويلاند^(١) الدور الذي لعبته مدرسة المؤرخين البروسية في خلق هذه الحالة من الاعتزاز بالقومية والفخار بها . أما أوتوهنتز فقد بين في كتابه الكبير ، ملوك أسرة هوهنزولرن وأعمالهم ، الذي صدر سنة ١٩١٥ والذي بلغت مجلداته المائة كيف انتصرت الدراسة العلمية التاريخية على تيار القومية المتحمسة حتى عصر الحرب العالمية وذلك في أوساط المؤرخين المحترفين هذا وإن كان هذا الكتاب يتصف بالاعتزان والبعث عن التطرف . ومع ذلك فإن الفترة حتى عصر الحرب العالمية الأولى شهدت نكوصاً عارضاً في كتابة التاريخ القومي في ألمانيا . ولعل آخر المؤرخين القوميين من الألمان كان وبتريش شافر (١٨٤٥ - ١٩٢٩) الذي كان قوياً في تأييده للملكية متطرفاً في مشاعره الوطنية مما جعل كتبه « تاريخ العالم » و « تاريخ ألمانيا » تحظى بشهرة هائلة بين الوطنيين الألمان .

أما مصادر التاريخ النمساوي فقد جمعت لأول مرة بواسطة جيروم بيز (١٦٨٥ - ١٧٦٢) وهو العلامة الراهب في كتابه عن « ملوك أوستريا » ولم يقف الأمر في القرن التاسع عشر عند حد جمع وثائق التاريخ النمساوي في كتاب « الوثائق الخالدة » Monumenta وهو الكتاب الذي أسهم فيه تيودور سيكل (١٨٢٦ - ١٩٠٨) بجهود كبيرة ، وإنما صدرت مجموعات قومية مستقلة . جمع فيه هذه المصادر القومية وأصدرتها أكاديمية فيينا في أكثر من سبعين جزءاً . كذلك ساهم سيكل في إصدار الطبعة الجديدة لكتاب بوهر المعروف باسم « السجل الإمبراطوري » والذي أشرف على تحريره جوليئامس فون فيكر (١٨٢٦ - ١٩٠٢) وصدر في أينايسبروك بعد سنة ١٨٧٧ م .

وبالإضافة إلى أن المؤرخ سبيل كان علامة عظيم الشأن ، فإنه أول من خلق اهتماماً كبيراً بتاريخ النمسا في العصور الوسطى من خلال مؤلفاته وكتاباتاته عن الأباطرة السكسون . وينتمي فيكر هو الآخر إلى مدرسة كبار علماء عصره وقد دفعته دراساته في القانون المقارن إلى تناول العلاقة بين الشعوب الجرمانية المتعددة . أما أعظم تاريخ قومي عن النمسا فهو الكتاب الخالد الذي وصفه الفريد فون ارنت (١٨١٩ - ١٨٩٧ م) الذي تناول عهد ماريا تيريزا . كذلك عالج

Antoine Guillard, Modern Germany and Her Historians (London 1915)

(١)

المؤرخ أونو كلوب (١٨٢٢ - ١٩٠٣) بطولات الإمبراطورية النمساوية في حرب الثلاثين سنة وشن هجوماً على فردريك الكبير في الوقت الذي كان أعظم مدافع عن أسرة هابسبورج . أما المؤرخ هلفرت فقد تولى الدفاع عن السياسة المضادة للثورة التي سار عليها فترنج . في حين عرض فريدزنج (١٨٥١ - ١٩٢٠) بطريقة تتسم بالدقة قضية النمسا ضد بروسيا في السنين الأخيرة من الصراع بينهما أي قبل سنة ١٨٦٦ وكانت وجهة نظره متحيزة لألمانيا ضد الإمبراطورية النمساوية المجرية .

التاريخ القومي في فرنسا

بدأ الفرنسيون يتجهون نحو تحليل وجمع مصادر تاريخهم القومي بعد حوالي قرن من نشأة الكتابة التاريخية القومية في ألمانيا في بلاط الإمبراطور ماكسميليان . ذلك أن هذه الحركة بدأت في فرنسا سنة ١٥٧٤ عندما صدر كتاب (غاليا الفرنجية) Franco Gallia للمؤرخ الفرنسي فرانسوا هوتمان . على أن هناك أعمالاً أخرى مبتكرة توضح بداية كتابة التاريخ القومي في فرنسا مثل كتاب كلود فوشيه Claude Fauchet الآثار الغالية والفرنسية ، الذي صدر سنة ١٥٧٩ وكتاب بطرس بيثو Pierre Pithou الذي صدر سنة ١٥٨٨ بعنوان (الحوليات الفرنجية) ، وكتاب أبحاث عن فرنسا الذي صدر سنة ١٦١١ لمؤلفه إتين باسكوير هذا فضلاً عما تضمنه كتاب جاك بونجارز عن الحروب الصليبية في كتابه « منجزات الرب على أيدي الفرنجة » .

أما البداية الحقيقية للجمع الناقد لمصادر التاريخ الفرنسي فقد ظهرت في أعمال اندريه دوشزن (١٥٤٨ - ١٦٤٠) الذي وضع كتاب تاريخ النورمان كما ورد في المخطوطات القديمة ، وقد صدر سنة ١٦١٩ ، وكتاب تاريخ الفرنجة كما ورد في المخطوطات ، وقد صدر بعد ١٦٣٩ م . كذلك تبدو هذه البداية لجمع مصادر التاريخ الفرنسي في أعمال إخوة سانت مارث وأهمها كتاب الأنساب ، وكتاب (غاليا المسيحية) وقد صدرت في سنوات ١٥٧٢ - ١٦٥٠ - ١٦٥٥ م ، كما تبدو في الطبقات التي أصدرها شارل دي فرنز دي كانج لأعمال فيلهاردوان . وكذلك تضمن نفس الشيء كتاب إتين بالوز (١٦٣٦ - ١٧١٨) Etienne Baluze والمعروف باسم زعماء مملكة الفرنجة .

واستمر العمل في جمع مصادر التاريخ الفرنسي خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر على يد الرهبان البندكتيين الذين كانوا ينتمون إلى مجمع سانت مور والذين أقاموا في دير سانت جرمان دي بريه في باريس وهو المجمع الذي أسسه الأب مارتن ترنيير والأب جريجوار تاريز بين سنتي ١٦١٨ ، ١٦٣٠ م . وكان رائد البحث التاريخي في هذه الجماعة حنا ماييلون (١٦٣٢ - ١٧٠٧) المعروف بجهوده التي لا تعرف الكلل أو الملل .

ولا يمكننا في هذا المقام أن نتعرض لكافة أعمال هذه الجماعة ، وإنما نكتفي بذكر أبرز هذه الأعمال ، فنجد في المقام الأول الطبعة الناقدة التي أخرجها الأب تيري رونارت Dom Thierry Ruinart (١٦٥٧ - ١٧٠٩ م) لأعمال جريجوري التوري وفريدجار يوس ويلييه آدموند مارتين (١٦٥٤ - ١٧٤٩ م) الذي أصدر موسوعات ومجموعات عن أعمال السابقين وما دونوه من مخطوطات وأصدر الأب برنارد مونتفسون (١٦٥٥ - ١٧٤١) كتابه الشهير (آثار الملكية الفرنسية) في حين أصدر الأب مارتن بوكيه (١٦٨٥ - ١٧٤٩) مجموعة المخطوطات عن الشئون الغالية والفرنجية ، الذي لا يزال يستكمل تحت عنوان (مجموعة مؤرخي غاليا وفرنسا) . وهناك أيضاً الأب أنطوان ريفيه دي لاجرانج (١٦٨٣ - ١٧٤٩) الذي كان قد بدأ في وضع كتاب تاريخ الأدب في فرنسا بمعاونة كل من ديكو ، بونست ، كولومب . ونهض المعهد الفرنسي وأكاديمية المخطوطات بانغامه حتى وصل به في الوقت الحاضر إلى القرن الرابع عشر .

كذلك اهتم الرهبان من جماعة سانت مور بالكتابة عن تاريخ المقاطعات الفرنسية وظهرت لهم كتب عديدة في هذا الشأن أشهرها ذلك الذي وضعه الأب فيست والأب فيك بعنوان التاريخ العام للمقاطعات الجنوبية من فرنسا وقد صدر فيها بين ١٧٣٠ - ١٧٤٩ وهو الكتاب الذي راجعه أخيراً مولنيير .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر عاد المؤرخون العلمانيون إلى الصدارة وكان مركز نشاطهم في أكاديمية الفنون والآداب التي أسسها كولبرت في سنة ١٦٦٣ . وخير ما أصدره هؤلاء المؤرخون هو ذلك الكتاب الذي جمع مادته أج لوريير ، دنيس سيكوز ، لـج دي بركوين تحت عنوان (مراسيم ملوك فرنسا) . وقد صدر ما بين سنتي ١٧١٤ ، ١٧٩٤ م . كذلك نهض هؤلاء المؤرخون أنفسهم بدور بارز في اتمام كل من كتاب (تاريخ الأدب) وكتاب (غاليا المسيحية) . ثم أخذت الكتابة التاريخية دفعة جديدة إلى الأمام عندما عين نابليون العلامة ب . س . ف دونو P.C.F. Daunou أميناً للمخطوطات القومية . ذلك أن دونو جلب كثيراً من السجلات الأجنبية إلى باريس وساهم هو أيضاً في إكمال تاريخ الأدب ، وغيره من كتب الرهبان البندكتيين .

وقام جوردان ، ودي كروس ، واسامير بوضع كتاب عن تاريخ القوانين في فرنسا بعنوان (مجموعة القوانين الفرنسية القديمة) وقد صدر هذا الكتاب في ٢٨ جزءاً فيما بين ١٨٢٢ - ١٨٢٣ . أما القرن التاسع عشر فشهد أول خطوة كبرى نحو جمع مصادر التاريخ الفرنسي في كتاب بعنوان (مجموعة كاملة للمذكرات الخاصة بتاريخ فرنسا) . وقد قام بجمع مادته بيتو ، وموغيركيه في ١٣٠ جزءاً (١٨٣٩ - ١٨٢٩) وتناول الفترة من عهد فيليب أوغسطس حتى سنة ١٧٦٣ م .

ويقدر ما تدين به ألمانيا لليارون فوم شتين في جمعه لمصادر التاريخ القومي بها تدين فرنسا للسياسي العلامة فرانسوا جيزو الذي لم يقتصر جهده على مجرد تنظيم حركة علمية لجمع وتحرير مصادر التاريخ الفرنسي ، بل كان هو نفسه عالماً متبحراً في التاريخ له عدد من الكتب التاريخية القيمة . وقبل أن يعتزل كتابة التاريخ ويتفرغ للنشاط السياسي كان جيزو قد أصدر مجموعة من الكتب تقع في ثلاثين مجلداً تناولت التاريخ الفرنسي حتى القرن الثالث عشر . كذلك نظم في سنة ١٨٣٣ الجمعية الفرنسية وكان برانت أول رئيس لها ، ومنذ ذلك الحين وهذه الجمعية تضم في عضويتها أشهر المؤرخين الفرنسيين . وقد وصل عدد المؤلفات المطبوعة لهذه الجمعية إلى أكثر من ٣٥٠ مؤلفاً تحوى قدراً هائلاً من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسي .

وكان أهم ما فعله جيزو هو حثه لويس فيليب على إنشاء لجنة فرعية في وزارة التربية والتعليم تشرف على نشر ما لم ينشر حتى ذلك الحين من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسي . وبدأ هذا العمل العظيم في سنة ١٨٣٦ بصدر سلسلة تاريخية بعنوان (مجموعة الوثائق غير المنشورة عن تاريخ فرنسا) وقد تم حتى الآن صدور ٢٩٠ مجلداً من هذه السلسلة .

وكان أول من ساعد جيزو في هذا المشروع مينييه Mignet ، وثيري ، وجيرار ، رينوارد ، وعندما تأسست الجمعية العامة لمدرسة الوثائق في سنة ١٨٢٩ صار من المستطاع إيجاد علماء ممتازين في علم الوثائق لأن مدرسة الوثائق هذه صارت من أكبر معاهد دراسة التاريخ في العالم ، وتقوم بتدريب الطلاب على استخدام الوثائق وعلاجها . ويعتبر كتاب الوثائق غير المنشورة مناظراً لكتاب Monumenta في ألمانيا إذ إن كليهما يقتصر على عرض مادة لم يسبق نشرها من قبل ، ومنذ سنة ١٨٨١ أخذت الأجزاء الخاصة بهذا الكتاب الفرنسي تصدر تحت إشراف لجنة الأعمال التاريخية والعلمية . كذلك تجدر الإشارة إلى مجموعة المصادر التي أصدرتها مكتبة مدرسة الدراسات العليا .

كذلك خطأ الفرنسيون خطوة أبعد من أى أمة أخرى وذلك بجمع مجموعات ضخمة من مادة المصادر التي تساعد على دراسة تاريخهم في العصور الحديثة . ويرجع ذلك أساساً إلى أنه لا توجد دولة أوربية أخرى يحتوى تاريخها الحديث على حدث أو حركة قومية قرينة بالثورة الفرنسية بكل ما فيها من متعة وخيال مثيرين للاهتمام . ولذلك نجح رجل الدولة والمؤرخ الاشتراكي حنا جوريه Jean Jures في حث الحكومة على أن تنشأ لجنة في وزارة التعليم العام تقوم بالإشراف على إصدار ما لم يسبق إصداره من الوثائق التي تتعلق بالتاريخ الاقتصادي للثورة الفرنسية ، واشترك كبار المؤرخين الفرنسيين في متابعة هذا العمل العظيم . ومنذ سنة ١٩٠٦ بدأت مجموعة الوثائق غير المنشورة الخاصة بالتاريخ الاقتصادي للثورة الفرنسية تظهر في أجزاء متعاقبة حتى صدر منها حتى الآن حوالي مائة جزء . كذلك قامت بلدية مدينة باريس بإصدار سلسلة من الكتب بعنوان (الوثائق المتعلقة بتاريخ مدينة باريس خلال الثورة الفرنسية) وبدأ صدور هذه السلسلة منذ سنة ١٨٨٨ .

وهناك مجموعة أخرى من المراجع ضمت مصادر التاريخ الخاص بمراحل معينة من الثورة ، وأشرف على هذه المجموعة عدد من العلماء البارزين كان أكثرهم نشاطاً في هذا المجال (الفونس أولارد) وتلامذته وكان لأولارد دور بارز في إصدار مجموعة الوثائق المتعلقة بتاريخ باريس الذي سبق الإشارة إليه .

كذلك نافس الفرنسيون الألمان في مجال إنتاج القصص التاريخية القومي . ذلك أن نشر الكتاب الذي ألفه شاتوبريان سنة ١٨٠٢ عن عبقرية المسيحية أضفى على ماضى فرنسا في العصور الوسطى توباً رومانسياً براقاً . وتشبه كتابه شاتوبريان في هذا المجال كتابات سينتر ، وجوهانز مولر في ألمانيا . ولكتاب شاتوبريان المعروف باسم الشهداء ، نفس ما لكتابه السابق من تأثير . أما كلود فورريل Claude Fauriel (١٧٧٢ - ١٨٤٤) فقد جاءت آراؤه في كتاب تاريخ جنوب غاليا تحت حكم الغزاة الجرمان ، سابقة على آراء كل من فوستيل دي كولانج وجوليان عندما عارض الرأي القائل بأولوية تأثير الثقافة الرومانية والغالية على تأثير الثقافة الافرنجية في تكوين حضارة العصور الوسطى .

كذلك استطاع يوسف ميشو Joseph Michaud (١٧٦٧ - ١٨٣٩) أن يرسم صورة واضحة لأبجداد فرنسا في عصر الحروب الصليبية في كتابه الذي راج وذاع صيته بشكل كبير والمعروف باسم تاريخ الحروب الصليبية (١٨١٢ - ١٨١٧) وكتب فرانسوا رينوارد (١٧٦١ - ١٨٣٦) كتابي (أبحاث في تاريخ اللغة الرومانية القديمة) (والقواعد اللغوية المقارنة) ورسم

فيهما صورة زاهية لشعراء التروبادور ، كما اعرب عن اعتقاده بتفوق اللغة الفرنسية على سائر اللغات الرومانية . أما نوما دينيس فوستيل دي كولانج (١٨٣٠ - ١٨٩٩) فيعتبر رائد الدراسات الخاصة بالعصور الوسطى في فرنسا ، وقد ساعد على إذكاء العنصر الوطني في الكتابة التاريخية الفرنسية وذلك بأن دافع عن نظرية الأصل الروماني للثقافة والنظم الفرنسية ، وهاجم العقائد التيوتونية والجرمانية السائدة التي كانت شائعة في ذلك الحين . وبعد كولانج بفترة من الوقت قام كل من هانوتو ، فاجنيز Fagniez وشير ويل Cheruel بتحليل ناقد يعتمد على سعة الاطلاع والمعرفة ويصطبغ بصبغة وطنية لمركزية السلطة في عهد الملكية الفرنسية في القرن السابع عشر عن طريق كبار رجال الدولة .

أما الفونس دي لامارتين (١٧٩٥ - ١٨٦٩) فقد عرض أمجاد الثورة الفرنسية في إعجاب بالغ بهذه الأمجاد وخاصة مآثر الجيروندي ، وذلك في كتابه الذي نافس به كارليل في مجال كتابة التاريخ بأسلوب أدبي . على أن عمله كان مثل عمل كارليل عملاً غير علمي من الناحية التاريخية . وقام ميشليه بتفسير الثورة في صورة ملحمة للحرية وحملة مقدسة لتحرير الشعب . وهناك من المؤرخين الفرنسيين كذلك لويس بلان Louis Blanc الذي دافع عن فكرة أن الغرض الأساسي من الثورة كان نشر الإخاء وذلك في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ . وتاريخ عشر سنوات . وقد صدر سنة ١٨٤١ . وفي هذا الكتاب الأخير عالج الفترة من سنة ١٨٣٠ - سنة ١٨٤٠ . ويعتبر فرانسوا مينييه Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) أكثر مؤرخي النصف الأول من القرن التاسع عشر علماً . وقد ضمن كتابه (تاريخ الثورة الفرنسية) هجوماً على إعادة اسرة البوربون للحكم . وأوضح أن الثورة الفرنسية كانت التناج الطبيعي الحتمي لاتجاهات العصر وصورها في صورة فجر عهد جديد عظيم في تاريخ العالم . وبأق بعد ذلك لويس أدولف تيير Thiers (١٧٩٧ - ١٨٧٧) الذي وضع تاريخاً مطولاً وشعبياً للثورة الفرنسية من وجهة نظر المذهب الليبرالي في القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أنه تناول الإمبراطورية الفرنسية بالنقد في كتابه تاريخ القنصلية والإمبراطورية إلا أنه أثنى على القنصل الأول بوناپرت وصوره في صورة منقذ فرنسا والحضارة الأوروبية .

أما فردريك ماسون فقد أثنى على نابليون بوناپرت وعلى ما حققه بالنسبة للإمبراطورية الفرنسية ، وفعل نفس الشيء كل من إلبرت فاندال ، هنري هوساري ، وأرثر ليفي . وقد مس ماسون حياة نابليون الخاصة عن بعد وهاجم تفاهة وخيانة جوزفين وشخصية أسرة بوناپرت التافهة وهي الأسرة التي كانت دون المستوى والتي كان نابليون يدين لها بعاطفة وولاء زائدين .

أما فاندال فقد صور نابليون على أنه انسان محب للسلام دفعته الغيرة من الإنجليز نحو الحرب . كذلك دافع هوساي Houssaye عن عبقرية نابليون العسكرية في شتى مراحلها حتى في معركة واترلو وأدان بشدة إعادة أسيرة البوربون . أما ليفي فصور نابليون على أنه شخص فوق مستوى البشر منزّه عن الخطأ .

وهكذا لعبت الأسطورة التي أحاطت بنابليون دوراً كبيراً في الكتابة التاريخية القومية الفرنسية حتى يومنا هذا ، ودافع عن عديد من وجهات النظر المرتبطة بتلك الأسطورة كل من تايين Taine أولارد ، وماثييز ، ماديلين ، سيبه See ويعبر المؤرخ بولس ثيورو دانجن Paul Thureau Dangin (١٨٣٧ - ١٩١٣) في كتابه عن تاريخ ملكية يوليو عن أسفه لما للأسطورة نابليون من أصل شعبي ، وإن كان يدافع في ذلك الكتاب عن ملكية يوليو ذاتها . أما المؤرخ بطرس لاجورس Pierre de La Gorce (١٨٤٦ - ١٩٣٤) صاحب كتاب تاريخ الإمبراطورية الثانية ، فقد دافع عن الملكية والاكليروسية ، كما أنه يعتبر ممن دافعوا عن نابليون الثالث . كذلك حرص أميل اوليفر (١٨٢٥ - ١٩١٣) في كتابه ، الإمبراطوريات الحرة أن يعرض للاتجاهات الحرة في العقد الأخير من حياة الإمبراطورية مبدياً إعجابه بهذه الاتجاهات . وأخيراً يأتي اسم جابريل هانوتو ، الذي كتب واحداً من أبرز وأشهر كتب التاريخ المعاصر القومي لفرنسا وهو تاريخ فرنسا المعاصرة وصف فيه قيام الجمهورية الثالثة ودافع عنها .

ولم يكن رصيد فرنسا في كتب التاريخ العام التي كتبت من وجهة النظر القومية بالشىء القليل . فهناك شارل هينولت (١٦٨٥ - ١٧٧٠) الذي وضع أول تاريخ عام لفرنسا تحت عنوان تقويم مختصر لتاريخ فرنسا وقد ظل هذا الكتاب الذي صدر سنة ١٧٤٤ هو الوحيد من نوعه إلى أن ظهر كتاب آخر أطول منه وأكثر شمولاً وضعه المؤرخ سيسموندى في بداية القرن التاسع عشر ، وكتبه من وجهة نظر مؤرخ غيور على مذهبه التحرري ، فانتقد الملوك والأساقفة ، وأشاد بالاتجاهات التحررية في مجتمعات العصور الوسطى وينتمى سيسموندى إلى مدينة جنيف ويمثل إلى حد ما عقلانية روسو المعتدلة ، فضلاً عن أنه لم يقصد من وراء كتابه إثارة حماسة وطنية قوية . ولا يختلف الكتاب الفذ الذي كتبه ميشليه تماماً عن كتاب سيسموندى اللهم إلا من ناحية عدم تعلق ميشليه بالمذهب التحرري . ذلك أن ما عمله ميشليه لم يكن كبيراً في مجال الأدب الفرنسي فحسب بل كان عظيم الأثر في إذكاء الاعتزاز بالوطنية خاصة لدى الفرنسيين من أنصار المذهب التحرري . أما كتاب المؤرخ هنري مارتن « تاريخ فرنسا » الذي بدأ ظهوره سنة ١٨٨٣ فهو أقل كفاءة مما كتبه ميشليه وإن كان أغزر منه في مادته وعلمه . ولكنه ظل أشهر كتاب تاريخي عن فرنسا

لمدة نصف قرن وذلك لترتيبه المنطقي وعرضه الواضح السهل الفهم وما به من تعبير مهذب عن وجهة النظر البورجوازية المتمسكة بالمذهب التحرري . هذا فضلاً عن أن موضوعه الرئيسي كان النمو المضطرد لحركة الوحدة الوطنية الفرنسية وقد روجع هذا الكتاب عدة مرات وأدخلت عليه الكثير من الإضافات والتحسينات . كذلك لاقى كتاب « تاريخ فرنسا » للمؤرخ فيكتور دورى رواجاً كبيراً برغم أنه لم يركز كثيراً على الاتجاه القومي . أما الجهد التعاوني العظيم الذي أشرف عليه أرنست لافيس في سبيل إخراج الكتاب الذي عرف باسم تاريخ فرنسا فهو يتسم بسعة العلم وينتمي إلى المدرسة الناقدة أكثر من انتمائه إلى الكتابة التاريخية القومية . ومع ذلك فإن هذا الكتاب يجيش بكثير من الإحساس بالوطنية .

وزاد من تدعيم الشعور القومي في فرنسا تلك الهزيمة والخسائر التي لحقت بها سنة ١٨٧٠ . وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة من المؤرخين الفرنسيين أمثال لاجورس ، سورل Sorel ، تناولوا حرب سنة ١٨٧٠ بطريقة بعيدة عن التحيز ، وهو الأمر الذي فضح دفاع فون سيبييل المتحيز ، فإنه كانت هناك حماسة قومية مندلعة من جانب الوطنيين المتطرفين . وكان أن انعكست هذه الاتجاهات فيما كتبه بولس ديروليد Paul Deroulede الذي دعا للأخذ بالثأر من ألمانيا . وعبر عن ذلك الاتجاه في أشعاره وكتيباته التي حوت قدراً كبيراً من المديح والحوار موريس باريه Mauriee Barres الكاتب الغالي الأصل وزعيم الوطنيين المتحمسين . وكان موريس باريه شديد الإعجاب بديروليد . وقد أقنعت دراسته للتاريخ الفرنسي بأن الفرنسيين يقومون بالحرب بوصفها واجباً دينياً ، وعلى هذا فإن ديروليد وباريه كانا أول من صاغوا فكرة الحرب المقدسة وعبرا عن الاعتقاد بأن فرنسا لا تدخل أي حرب بغرض التدمير والإفساد وإنما تدخلها « من أجل تنفيذ أوامر الله ، لنقوم بدور الفارس المدافع عن العدالة . »

وعلى الرغم من أن الفرنسيين أبدوا من التحفظ بعد سنة ١٨٧٠ أكثر مما فعل الألمان فإن الآية انقلابت بعد سنة ١٩١٨ . ففي ألمانيا تضاعف الاهتمام بالإمبراطورية وبيروسيا تضاعفاً وقتياً في حين احتلت حوادث النصر والقومية في فرنسا مكان الصدارة . ومن أمثلة ذلك ما نلمسه في كتابه المؤرخ فرانتز فونك برنتانو وذلك في إعداد السلسلة التي أصدرها بعنوان « تاريخ فرنسا القومي » . ففي هذه الأعداد يظهر حماسة وطنية وكراهية واحتقاراً كاملاً لألمانيا . ولم تغب هذه النغمة الوطنية المتحمسة كذلك عن كتاب « تاريخ الأمة الفرنسية » وهو ذلك العمل التعاوني الكبير الذي ظهر بعد الحرب وأشرف عليه جابريل هانوتو .

التاريخ القومى فى انجلترا

لم تقم فى انجلترا محاولة لبذل أى جهد منظم لجمع مصادر تاريخها القومى قبل بداية القرن التاسع عشر . وكان جييون قبل وفاته قد أوصى بشدة بضرورة إنشاء لجنة تقوم بجمع ونشر أعمال مؤرخى انجلترا فى العصور الوسطى ، ورشح جييون لرئاسة اللجنة حنا بنكرتون . ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يتم بعد وفاته . ثم كان ان أنشئت فى انجلترا سنة ١٨٠٠ لجنة حفظ الوثائق . ومع ذلك فلم يشترك فى أعمالها من يمكن اعتباره مؤرخاً حقيقياً حتى عين بها فى سنة ١٨٢٥ السير جيمس ماكينتوش Mackintosh .

وفى سنة ١٨٢٥ اشار نيقولاس هارس نيقولاس Harris Nicholas إلى الحالة المؤسفة التى كانت عليها مصادر التاريخ الإنجليزى ، ونتج عن نقده أن انبثقت سنة ١٨٣٦ من لجنة الوثائق لجنة أكثر نشاطاً ونقداً . وكان من بين ما أنتجته نشر المحاضر البرلمانية على يد (بالجرين) .

وفى سنة ١٨٣٧ حلت لجنة حفظ الوثائق وأصبحت الوثائق التاريخية فى عهدة أمين السجلات . ومن ثم لم تكن هناك بداية حقيقية نشطة لجمع مصادر التاريخ الإنجليزى إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر عندما تعرض وليم ستوبز وفينوجرادوف الروسى الأصل بالنقد المر للوضع الذى عليه مصادر التاريخ الإنجليزى . واستطاع رومبلى Romily أمين السجلات بعد ذلك وعلى وجه التحديد فى سنة ١٨٥٧ أن يحصل على تفويض من الحكومة لطبع مصادر التاريخ الإنجليزى فى العصور الوسطى ، وعهد إلى أستاذ مشهود له بدقة عمله هو توماس دفس هاردى Thomas Duffus Hardy (١٨٠٤ - ١٨٧٨) بالإشراف على هذا المشروع . أما عملية نسخ هذه المصادر فقد قام بها عدد من العلماء المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى ومنهم برور Brew-er ، جايردنى Gairdner ، كانون ، روبرتسون ، جيلز Giles ، ديموك Dimock . وشارك فى ذلك العمل الأسقف وليم ستوبز (١٨٢٥ - ١٩٠١) وهو أشبه بالمؤرخ الألمانى ويتز Waitz وكرس ستوبز لهذا العمل معظم سنى عمره فى فترة زادت عن ربع قرن بعد سنة ١٨٦٣ . وأخيراً انتهت عملية تجميع مصادر تاريخ انجلترا فى العصور الوسطى سنة ١٩١١ وتمت فى ٢٤٣ مجلداً وهى المعروفة باسم وثائق وسجلات تاريخ بريطانيا العظمى وإيرلندا فى العصور الوسطى . وأحياناً تعرف باسمها المختصر « مجموعة السجلات » وهو الاسم المستمد من حقيقة نشر هذه الوثائق تحت إشراف أمين السجلات .

وتعتبر هذه السلسلة النظير الرسمي للوثائق الألمانية المعروفة باسم Monumenta ومجموعة الوثائق الفرنسية . هذا كله بالإضافة إلى ما تم في إنجلترا من عمل تقاويم لأوراق الدولة الرسمية والسجلات البرلمانية ومحاضر الجلسات وسجلات مجلس البلاط وما شابه ذلك .

ثم إن هناك أعمالاً مماثلة أقل شأنًا قامت بها جمعيات علمية مثل جمعية كامدن ، جمعية النصوص الإنجليزية القديمة ، فضلا عن جمعية سلدن التي قامت بجمع مصادر تاريخ القانون الإنجليزي .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال طبع الأصول المخطوطة للرحلات والكشوف الهامة ، وهو العمل الذي أشرفت عليه جمعية هاكلويت Hakluyt Society .

ولم تكن كتابة التاريخ القومي في إنجلترا أقل شأنًا من مثيلتها في كل من ألمانيا وفرنسا . وهنا يبدو أن السمة الرئيسية للكتابة القومية في إنجلترا كانت مغايرة لنغمة الأساطير الآرية والنوردية لأنها أكدت التفوق السياسي للشعوب الأنجلو ساكسونية وهي النغمة التي شاعت في القرن التاسع عشر . وقام هذا الاعتقاد على أساس فكرة أن الغزاة التوتون الذين غزوا إنجلترا طردوا أمامهم سكان الجزيرة الأصليين من البريطان والكلت وخلقوا من هذه الجزيرة بلدا ذا ثقافة جرمانية بعثة وجنس جرمانى صرف . وقد تضمن الكتاب المعروف الذى ألفه حنا ميتشل كمبل Kemble (١٨٠٧ - ١٨٥٧) وهو كتاب (السكسون فى إنجلترا) الذى صدر سنة ١٨٤٩ تعبيراً صريحاً قوياً عن وجهة النظر هذه . ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على بث هذه العقيدة الأنجلو ساكسونية فى عقول الإنجليز بل إنه لاقى رواجاً كبيراً فى ألمانيا وساعد على تزويد الوطنيين الألمان بمثل آخر يؤكد عقيدتهم فى (رسالة الشعوب الجرمانية) . كذلك اعتقد كمبل Kemble أن النظرية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر مستمدة بصورة غير مباشرة من مصادر جرمانية .

واستمر النقاش حول هذه المسألة فى الكتاب الذى ألفه أدوارد أغسطس فريمان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) واسمه (تاريخ الغزو النورماندى لانجلترا) . ذلك أن فريمان لم يقف عند حد قبول النظرية الانجلو سكسونية بل تتبع الأصول الحقيقية للحرية السياسية لدى المجتمعات الجرمانية وخاصة فى صورتها الإنجليزية . ومهما يكن من أمر فإن الأصول الأولى لهذه النظرية المخاطنة الخاصة بتسجيد الأصل الجرمانى ، إنما ترجع إلى كتابات راين ثوراس ومونتسكيه ، فى حين

لم يأخذ بها وفندها كل من فوستيل دي كولانج ، برنر Brunner وتشكل هذه النظرية في حد ذاتها أحد الأخطاء الكبرى التي لحقت بالدراسات التاريخية في مرحلة سابقة على الدراسات الأنثروبولوجية ولم ينتج من هذا الخطأ أكثر المؤرخين هدوءاً وحرصاً وهو الأسقف ستبس Stubbs وكذلك أكثرهم إبداعاً وهو جون ريتشارد جرين . ولكن ظهر بعد ذلك من تصدى لهذه الفكرة مثل سيبهم Seebhim . ومن وجد الجرأة على إدخال تعديلات عليها مثل متيلوند ، وفينر جرادوف Maitland and Vinogradoff .

على أن النظرية الجرمانية صادفت دفعة قوية في ذلك الكتاب السيء السمعة الذي ألفه المؤرخ الشاعر شارلز كينجزلى سنة ١٨٦٤ تحت عنوان (الرومان والتيوتون) . ومع أن هذا الكتاب جاء على قدر كبير من الإثارة ، إلا أنه لم يكن علمياً على الإطلاق ، فضلاً عن أنه ليس كتاباً تاريخياً . وكان له أثر كبير في إحداث انحرافات في تفسير تاريخ العصور الوسطى في مراحلها الأولى . ذلك أن كينجزلى مجد إلى حد كبير من أطلق عليهم « الشبان الأشداء ، أبناء الغابة التيوتونية » . وأثنى عليهم بنفس الحماسة التي صورهم بها لاس كاساس ، على عكس الرومان الذين وصفهم بأنهم كانوا ضعاف الروح والجسم ، لأنهم « أبناء إمبراطورية كانت مختصرة » . كذلك عبر عن رضاه بسقوط هذه الإمبراطورية الرومانية والدمار الذي لحق بها بفضل (الطوفان البشري) الذي اكتسحها من الشمال . ويكفى دليلاً على مدى بعد الكتاب عن الدقة أن كل علماء التاريخ المتخصصين في دراسة العصور الوسطى قد استبعدوا كافة ما جاء فيه . ومع ذلك فإن هذا الكتاب لاقى رواجاً كبيراً ولا يمكن لمواطن إنجليزي أن يقرأه قراءة جيدة دون أن تملكه رغبة في أن يرجع آباءه وأجداده إلى سلالة أرمنيوس وألريك .

وإذا ما تركنا العصور الوسطى حيث وضع التيوتون جذور النعرة والافتخار بالقومية في بريطانيا فإننا نجد أكثر المؤرخين الإنجليز تعصباً للقومية وهو جيمس أنتوني فرود Froude الذي وصف أمجاد الثورات الإنجليزية منذ عهد الإمبراطورية الرومانية . ويليهِ كارليل الذي أشاد بفضائل كرومويل ورفاقه في الكومنولث . وبعد ذلك يأتي المؤرخون لسان حزب الأحرار وهم جيمس ماكينتوش ، هالام ، توماس بابنجتون ماکولى . وقد جعلوا ثورة (١٦٨٨ - ١٦٨٩) مصدر وأساس الحريات في دول العالم . ويعتبر كتاب ماکولى ، تاريخ إنجلترا (١٨٤٨ - ١٨٦١) هو النظر الإنجليزى لأعمال تريتشك ، ميشليه ، فضلاً عن أنه أروع ما أسهمت به إنجلترا في الكتابة التاريخية حيث انه مرجع قيم من مراجع التاريخ على الرغم مما يشوبه من تحيز .

وهناك كتاب مطول لإيرل ستانجوب بعنوان (تاريخ إنجلترا منذ صلح أوترخت حتى صلح فرساي) وهو يعالج تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر من وجهة نظر محافظة مؤيدة للسياسة البريطانية في ذلك الوقت . أما الجنرال وليم نابيير فقد أشاد ببسالة الإنجليز في شبه جزيرة إيبيريا وذلك في كتابه (تاريخ الحرب في شبه الجزيرة) . وقد صدر الكتاب ما بين سنتي ١٨٥٤ - ١٨٤٠ ، ويرد فيه المؤلف فكرة الحرب بوصفها أن لها دوراً في المجتمع البشري ، وهذا الرأي هو نفس ما رآه برناردى بعد ذلك بنصف قرن أو أكثر . أما السير هربرت ماكسويل فقد أثنى على ولنجتون (اللوق الحديدي) في كتابه (حياة ولنجتون) الذي صدر سنة ١٨٩٩ . كذلك عالجت هاريت مارتينو Martineau في كتابها (تاريخ إنجلترا) الذي صدر ما بين ١٨٧٧ - ١٨٧٩ النصف الأول من القرن التاسع عشر بطريقة تؤكد أهمية تفوق حزب الأحرار في هذه الفترة . وأخيراً هناك السيرجون ر. سيلي Seeley (١٨٣٤ - ١٨٩٥) الذي جمع بين ميوله القومية وعلمه الغزير في مجال الكتابة التاريخية . ذلك أنه كتب بكثير من الفخر والاعتزاز عن نمو الإمبراطورية البريطانية في كتابه (التوسع الإنجليزي) و (نمو السياسة البريطانية) . ولم يكن سيلي مدافعاً عن القومية متعصباً لها وداعية للاستعمار فحسب ، بل يرجع إليه وإلى فريمان ما أُنْجِحت إليه الكتابة التاريخية في إنجلترا من حيث حصرها داخل نطاق التاريخ السياسي وحده . وأما أعظم كتب التاريخ القومي في إنجلترا فهو كتاب (مختصر تاريخ الشعب الإنجليزي) الذي صدر سنة ١٨٧٤ والذي ألفه جون ريتشارد جرين . وتضمن الكتاب دراسة للعقائد الجرمانية مع توضيح أثرها الأساسي في تطور الحضارة الإنجليزية بوصفها ثقافة رفيعة سادت وانتشرت . وأعطى هذا الكتاب لتطور الحياة الشعبية في بريطانيا مجالاً أكبر من المعتاد ، مما جعله من الكتب الرفيعة التي حازت إعجاب الأحرار في بريطانيا . ثم أعاد جرين كتابته على نطاق واسع تحت عنوان (تاريخ الشعب الإنجليزي) . وقد صدر هذا الكتاب المطول سنة ١٨٨٠ ولكنه لم يلق رواجاً كبيراً .

وبالإضافة إلى ذلك كله كان للحماسة القومية التي صاحبت أعمال سيسل رودس وحرب البوير أثر كبير في إنتاج مزيد من الكتابة التاريخية القومية في إنجلترا ، ولكنها كتابات لم تلتزم بما التزم به سيلي من غزارة علم ومعرفة ، مما جعلها أشبه بكتابة برناردى التي لم تلتزم بمنهج فون سيسل . لقد وجد برناردى نظيره الإنجليزي في شخص الأستاذ ج. أ. كرامب J. A. Cramb الذي قال عن حروب إنجلترا الماضية إنها أنت ببدا رئيسي هو ما للبطولة من مكانة وسلطان أعلى من سلطان العقل والمنطق .

ومن عجائب الصدف أنه كما أن تمجيد الجرمانية والاتجاه الجرمانى جاء على يد مواطن إنجليزى منشق على قومه : هـ . س تشامبرلين ، فكذلك قام مواطن أمريكى هو : هومرلى Homer Lea بربط خلاص العالم فى المستقبل بانتصار البريطانيين عن طريق تدعيم تلك الدائرة القرمزية القوية التى أحاط بها السكسون الأرض بطريقة لم يسبق إليها جنس آخر .

كتابة التاريخ القومى فى بقية الدول الأوربية

حظيت إيطاليا بشرف مزدوج فى مجال كتابة التاريخ القومى ، إذ بينما كانت أول أمة توصلت إلى ما يمكن اعتباره تجميعا كاملا لمصادر تاريخها القومى ، فضلا على أنها أنجبت من جهة أخرى أكثر المؤرخين دأبا فى تجميع مصادر التاريخ القومى وهو لودفيكو انطونيو موراتورى (١٦٧٢ - ١٧٥٠ م) وقد نجح موراتورى منذ عام ١٧٢٣ حتى وفاته سنة ١٧٥٠ فى جمع مصادر تاريخ إيطاليا من الماضى البعيد أى منذ سنة ٥٠٠ ميلادية حتى سنة ١٥٠٠ وتم ذلك فى كتاب صدر فى ٢٥ جزءا بعنوان (مادة المخطوطات الإيطالية) . وجاء عمله متقنا لدرجة أنه لم تصدر طبعة جديدة له إلا حديثا عندما أصبح ذلك ضروريا . وقد بدأ إعداد الطبعة الجديدة سنة ١٩٠٠ فى أول الأمر تحت إشراف جيوزى كارودشى Gosue Carducci ، فيتوريو فيوريني Vitorio Fiorini ثم تحت إشراف الجمعية التاريخية الإيطالية وفى سنة ١٨٣٣ ساهم شارلز إلبرت بجهده فى مساعدة حركة جمع مصادر التاريخ القومى الإيطالى ، وتم طبع ٢٢ جزءا من هذه المصادر بعنوان ، وثائق التاريخ القومى Monumenta Historiae Patriae . كما نشرت الجمعية التاريخية الإيطالية الكثير عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى تحت عنوان « مصادر تاريخ إيطاليا »^(١) .

وعلى الرغم من أن كتابة التاريخ القومى شأنه شأن جميع المصادر يرجعان فى إيطاليا إلى عهد أبعد مما عليه الحال فى أية دولة أوربية أخرى ، إذ ترجع هذه الحركة فى إيطاليا على وجه التحديد إلى عصر الحركة الإنسانية ، فإنه يمكن القول أن المرحلة الحديثة من التاريخ القومى بدأت بظهور

(١) يقع فى ٥٨ مجلداً بدأ صدوره منذ سنة ١٨٨٧ وما بعدها (المؤلف)

كتاب (تاريخ ثورة نابلي في سنة ١٧٩٩) وهو الكتاب الذي وضعه فيسنزو كوشو cucco (١٧٧٠ - ١٨٢٣) وتناول المؤلف فيه أسباب فشل هذه الثورة وعبر عن اعتقاده بأن الوحدة الإيطالية لا يمكن أن تتحقق إلا على أيدي الإيطاليين أنفسهم وأنه من الضروري خلق وعي قومي في إيطاليا وجو ذهني مناسب لقيام الثورة . ويشابه هذا الكتاب في جوهره وروحه كتاب المؤرخ كارلوبيتا Carlo Botta (١٧٦٦ - ١٨٣٧) بعنوان تاريخ إيطاليا خلال حروب الثورة ونابليون . ويقض هذا الكتاب بآراء ومعتقدات المذهب الحر المتطرف التي شقت طريقها في السياسة الإيطالية في ذلك الحين بفضل نشاط كاربوناري .

أما عن تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى فقد عالجه كارلوترويا Carlo Troya (١٧٨٥ - ١٨٥٣) في كتابه - إيطاليا في العصور الوسطى ، وكذلك عالجه لويجي توسقي (١٨١١ - ١٨٩٧) في كتابه (العصبة اللومباردية) (ويونيفرس الثامن) وتتناول هذه الكتب تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى بحثاً عن أدلة تؤيد فكرة أن الزعامة البابوية كان لها دورها الكبير في خلق الوحدة الإيطالية . كما أثنت على دانتى والكنيسة والبابوات . أما دازجليو D'azeglio فإنه تناول التاريخ المعاصر إلى جانب تاريخ العصور الوسطى ليثبت افتقار البابوية إلى الكفاية والمقدرة ، ولكي يلفت الأنظار إلى الآمال القوية في زعامة آل سافوي . ويؤكد سيزار بالبو في كتابه (تاريخ إيطاليا) الذي صدر سنة ١٨٤٦ أن البابا وبيت سافوي يمكنها التعاون معاً من أجل تحقيق اتحاد إيطاليا في صورة تحالفية وهناك أيضاً جويسيب فيراري Guiseppe Ferrari (١٨١٢ - ١٨٧٦) صاحب كتاب تاريخ الثورات في إيطاليا الذي يجد فيه النضال والعنف وسفك الدماء ، وهي الأمور التي صاحبت المعركة من أجل الحرية السياسية في إيطاليا في العصور الوسطى ، وألمح إلى أن الثورة في عصره تستطيع أن تؤدي نفس ذلك الدور البنّاء . كذلك نجد فيراري في كتاب تكبر له بعنوان « نظرية الدورات السياسية » قد تشيع بآراء فيكو وحاول أن يضع فلسفة التاريخ في خدمة حركة البعث الإيطالية .

أما المؤرخ جينو كابوني Gino Capponi فقد حاول أن يجد في عصر النهضة لمسة قومية ، ووضع كتاباً سنة ١٨٧٥ يتسم بالقدر والاسهاب عنوانه « تاريخ جمهورية فلورنسا » هذا في حين كرس المؤرخ باسكال فيلاري (١٨٢٧ - ١٩١٧) كتابته بوجه خاص لعلاج تاريخ فلورنسا في العصور الوسطى وعصر النهضة والإشادة بأعلامها أمثال سافونارولا ميكافلي ، مستغلاً الحديث عن ذكرى هؤلاء الأعلام لإذكاء حركة الوحدة الإيطالية . وجاء كتابه عن فلورنسا تحفة رائعة حقاً

لأنه من المعروف عنه أنه فعل الكثير من أجل إضفاء أهمية خاصة على تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى . وثمة مؤرخ في إيطاليا عرف أنه قام بدور شبيه بالدور الذي قام به مارتن في فرنسا من حيث ترويقه للتاريخ القومي وتقريبه من أذهان الجماهير وميولهم . وهذا المؤرخ هو قيصر كانتو (١٨٠٤ - ١٨٩٥) الذي وضع أول تاريخ قومي كامل عن إيطاليا . أما المؤرخ بطرس كوليتا (١٧٧٥ - ١٨٣١) فقد انتقد في عنف وقوة الحكم البوربونى وفساده ؛ في صقلية وذلك في كتابه (تاريخ نابولي) الذي حث فيه على التمرد على الحكم الأجنبي . وأخيراً فإن أشعار جويزي كاردوكي Carducci وجابريل دي انيونزو تمثل التعبير المتطرف عن العاطفة الوطنية الإيطالية . وبظهور الفاشية في إيطاليا لم تعد القومية مجرد فلسفة تاريخية بل انمحت على مستوى العقيدة والديانة .

أما في أسبانيا فإن أول تجميع لمصادر التاريخ الأسباني لم تكن من عمل الأسبان وإنما من إنتاج عالم انجليزي رحالة هو روبرت بيل Robert Beal الذي توفي سنة ١٦٠١ وأصدر كتاب (المخطوطات الأسبانية) وذلك فيما بين سنتي ١٥٧٩ ، ١٥٨١ . أما ج . أ . س برتودانو فأصدر موسوعته الجامعة عن مصادر التاريخ الدبلوماسي وهي المجموعة التي صدرت فيما بين ١٧٤٠ - ١٧٥٢ م . على أنه يمكن القول بأن حركة جمع المصادر الكبرى للتاريخ القومي الأسباني لم تبدأ إلا قرب منتصف القرن التاسع عشر عندما شرع بيدال Pidal وسلفا Salva وآخرون في وضع كتاب (مجموعة الوثائق غير المنشودة عن تاريخ أسبانيا) وهي المجموعة التي بلغ عدد أجزائها ١١٢ جزءاً ، صدرت بين سنتي ١٨٤٢ - ١٨٩٥ . ويركز هذا الكتاب الحديث بصفة أساسية على القرن السادس عشر . وبالإضافة إلى ذلك فإن أكاديمية التاريخ الملكية في مدريد أخذت على عاتقها منذ سنة ١٨٥١ نشر مصادر التاريخ الأسباني في كتاب بعنوان (سجل التاريخ الأسباني) . ومع ذلك فإن مصادر التاريخ الأسباني في العصور الوسطى لم تجمع أو تدون أو تنشر بطريقة منتظمة .

أما مؤرخ أسبانيا القومي العظيم فهو مودستو لافوينت Lafuente (١٨٠٦ - ١٨٦٦) الذي أصدر كتابه العظيم (تاريخ أسبانيا العام) في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٦ . وكان القصد من هذا الكتاب أن يكون امتداداً لما كتبه ماريانا . وتناول فيه تاريخ أسبانيا حتى ١٨٣٣ ، ثم قام بإكماله بعد وفاته المؤرخ جوان فاليرا . وثمة مؤرخ أسباني هو أنطونيو

كانوفاس Canovas ربط في كتابه تاريخ اضمحلال أسبانيا ، بين عظمة و اضمحلال كل من أسبانيا وروما . وقام بيرزجالدوس Perez Galdos في قصصه التاريخية الشعبية المشهورة بنفس ما قام به والتر سكوت بالنسبة لاسكتلنده وانجلترا وفرنسا .

أما في بوهيميا فلم تفلح القومية التشيكية في خلق اهتمام بالتاريخ مثلما كان الحال في دول أوربية أخرى ، بل على العكس كان التاريخ هو الذى يذكى القومية في أول الأمر . والواقع أن الروح القومية التشيكية الحديثة تدين لكتاب (تاريخ بوهيميا) أكثر مما تدين لشيء آخر ، وهو الكتاب الذى صدر ما بين سنتي ١٨٣٦ - ١٨٧٦ والذى وصفه الوطني المتحمس فرانتيسك بالاكى Frantisek Palacky . وعلى الرغم من عدم وجود معونة حكومية كحركة جمع مصادر التاريخ التشيكي قبل سنة ١٩١٩ فقد تمت أعمال كافية في هذا الشأن . ذلك أن بالاكى وآخرين من بعده نشروا الوثائق التشيكية والمورافية القديمة الخطية في ٣٢ جزءا (١٨٤٠ - ١٩١٨) . وكان انطون جندلى أقدر المؤرخين البوهيميين ، وقد نشر مجموعة أخرى من الوثائق التاريخية باسم آثار بوهيميا التاريخية فيما بين سنتي ١٨٦٤ ، ١٨٦٩ . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من اهتمام خاص بجمع المادة المتعلقة بالتاريخ الديني لبوهيميا فكتب الكونت فزانزفون لوتزو كتابا صدر قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة عن حنا هس John Huss وصوره في صورة بطل بوهيميا القومى .

على أن خير ما كتب عن تاريخ بوهيميا القومى في القرنين السابع عشر والثامن عشر هو كتاب (تاريخ بوهيميا ومورافيا في العصور الحديثة) (١٨٩٢ - ١٨٩٧) الذى اشترك في تأليفه كل من أنتال ريزيك Antal Rezek ويوسف شفاتييك Josef Svatek كذلك شارك كل من العالم الفرنسى ايرنست دينيس والأمريكى روبرت ج . كرنر Robert YKerner بأبحاث في التاريخ التشيكي وأبديا عطفًا كبيرا على آمال بوهيميا القومية .

أما في المجر فقد أخذت الحكومة على عاتقها منذ سنة ١٨٥٧ عبء نشر وثائق التاريخ المجرى في بودابست ولكن ظهر من هذه الوثائق أكثر من مائة جزء حتى الآن . ولكن من يريد دراسة المصادر التاريخية البحرية القديمة عليه الرجوع إلى عمل أصغر هو (المصادر الوطنية للتاريخ المجرى) وهى المجموعة التى أصدرها بين سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٥ المؤرخ ماتياس فلوريانوس . والواقع أن الظروف التاريخية كانت عاملا في إثارة الشعور القومى في المجر لدرجة أن أعظم علماء التاريخ المجرين غلبت عليهم الروح الوطنية . وكان أول تاريخ كبير للمجر هو

كتاب تاريخ المجر ، للمؤلف اجناس فيسلر Ignacz Fessler (١٧٥٦ - ١٨٣٩) الذي وصل بتاريخ المجر حتى سنة ١٨١١ . ثم وصل السرد التاريخي للمجر حتى سنة ١٨٤٨ في كتاب لاحق للمؤرخ جانوس ج . فون ميلاث Janos G. Von Mailath ولم يكن هناك في أوروبا قاطبة من جمع بين الأستاذية في علم التاريخ والوطنية المتحمسة مثلها فعل المؤرخ المجرى هنريك مارشزالي Henrik Marczali في كتاب (المجر في القرن الثامن عشر) الذي صدر سنة ١٩١٠ وكتاب (تاريخ المجر) وقد صدر في العام التالي سنة ١٩١١ . أما التاريخ القومي الرسمي للمجر فقد جاء في كتاب صدر سنة ١٩٠٤ للمؤرخ اجناسز اكسادى Ignacez Acsady بعنوان (تاريخ الإمبراطورية المجرية) وكانت أعظم الأعمال المهمة في هذا الشأن كتاب (تاريخ الأمة المجرية) الذي صدر ما بين سنتي (١٨٩٥ - ١٨٩٨) في عشرة أجزاء وقد اشترك في تأليفه مجموعة من المؤرخين تحت إشراف الكسندر سنريلاجي Alexander Szilagyi . وعلى الرغم من أن بولندا المعاصرة لم يكن لها حكومة مستقلة حتى سنة ١٩١٩ حتى يمكنها أن تسهم ماديا في عملية جمع مصادر التاريخ القومي البولندي ، فإن أكاديمية العلوم في كراكو بدأت جهداً منظماً في جمع المصادر في السبعينات من القرن الماضي . ومن بين الأعمال الأكثر أهمية في هذا المضمار مجموعة « المخطوطات البولندية » التي صدرت في ٢٢ جزءا ومجموعة (وثائق أعلام التاريخ البولندي في العصور الوسطى ، التي صدرت في ١٨ جزءا) ، كذلك (وثائق تاريخ أعمال البولنديين) وقد صدرت في ١٢ جزءا . ولا يخفى علينا أن تقسيم بولندا وما نجم عنه من تحمس البولنديين لتحرير بلادهم كل ذلك أدى إلى الانحياز إلى كتابة التاريخ القومي في بولندا . ويعتبر المؤرخ يواقيم ليليويل (١٧٨٦ - ١٨٦١) Joachim Lolewel أول مؤرخ قومي بولندي على جانب من الأهمية . وقد وضع كتابيه (تاريخ بولندا في العصور الوسطى) و (بولندا وتاريخها) . وعلى الرغم من أنه كان ديموقراطي النظرة وينتمي إلى المدرسة العقلانية ، إلا أنه كتب تاريخ بولندا طبقا للفكرة الرومانسية الخاصة بالروح القومية وعبقورية الشعب الجماعية . أما المؤرخ كارول شازنوخا Karol Szajnocha (١٨١٨ - ١٨٦٨) فقد اكتسب شهرة وشعبية كبيرة . بما كتبه عن عهد جاجيلوس Jagiello . كذلك تناول أمير شعراء بولندا الوطني البارز آدم ميكويش Adam Mickiewicz (١٧٩٨ - ١٨٥٥) في كتابه تاريخ بولندا الشعبي الجانب الذي قصده من عنوان كتابه ، مما جعل هذا الكتاب يساعد على إثارة الحماسة العامة لماضي الشعب البولندي . أما خير ما كتب عن تاريخ بولندا القومي فهو كتاب (تاريخ بولندا) الذي صدر ما بين سنتي ١٨٦٢ ، ١٨٦٦ للمؤرخ يوسف شوزسكي Josef Szujski وكان عمله ذا قيمة أدبية عالية أثني فيه

كثيراً بصفة خاصة على الجمهورية البولندية القديمة . كذلك ظهر في أوكرانيا مؤرخ قومي لايبارى وهو فابشزلاف لاينسكى Vyacheslov Lipinsky (١٨٢٢ - ١٩٣١) الذى أعطى اهتماماً خاصاً للدور التاريخى لطبقة النبلاء في أوكرانيا . وقد نظر إلى التاريخ الأوكرانى على أنه سلسلة متصلة من النضال لاستعادة استقلال أوكرانيا ، مؤكداً دور طبقة النبلاء القيادى في هذا الشأن .

أما في روسيا فعلى الرغم من السياسة الرجعية للحكومة الروسية وما كان من أمر الرقابة على المطبوعات والإنتاج الأدبى ، فإن الكتابة التاريخية القومية أحرزت تقدماً كبيراً في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . والواقع أن هذا النوع من الكتابة كان الوحيد الذى نِعِمَ بقدر كبير من الأمان في ظل القيصرية وقد نهضت بمسئولية جمع مصادر التاريخ الروسى بصفة رئيسية لجنة (الآثار الروسية) التى أنشئت في سنة ١٨٣٥ والتى جمعت السجلات التاريخية الروسية القديمة في مجموعة ظهرت في ٢٣ جزءاً ما بين سنتي ١٨٤١ ، ١٩١٦ . كذلك أصدرت مجموعة أخرى عن مصادر التاريخ الروسى بين سنتي ١٨٧٢ ، ١٨٩٤ في ٣٧ جزءاً وتناولت كل من هاتين المجموعتين الفترة المسكوفية . هذا إلى أن تلك اللجنة قامت بأعمال أقل شأنًا عن تاريخ روسيا القانونى والاقتصادى والكنسى . أما أعظم عمل في سبيل تجميع المادة المتعلقة بالسياسة الخارجية فهو ما قام به فيودور دى مارتنز Feodor de Martens تحت إشراف وزارة الخارجية فأصدر (مجموعة المعاهدات والاتفاقيات) في ١٥ جزءاً بين سنتي ١٨٧٤ - ١٩٠٩ . ومنذ قيام ثورة ١٩١٧ تم نشر الكثير عن تاريخ الحركات الثورية في روسيا .

أما أول تاريخ شامل لروسيا يتسم بالروح العلمية في البحث والدقة فهو كتاب (التاريخ الروسى منذ أقدم العصور) الذى وضعه ميخائيل شيربوتوف Michael Scherbotov (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وقد تناول التطور القومى لروسيا بطريقة حماسية متوهجة . وركز حديثه بصفة خاصة على دور القادة البارزين في تحقيق هذا التطور . وثمة عمل آخر أكثر إحكاماً من سابقه وأكثر متعة للقارىء هو كتاب (تاريخ الدولة الروسية) الذى كتبه نيقولا كسارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ووصل فيه بأحداث التاريخ الروسى حتى سنة ١٦١١ أى حتى ظهور الرومانوف على مسرح الاحداث . وجاء هذا الكتاب رومانسياً في طريقته ، كما كان يركز دائماً على العبقريّة القومية للشعب الروسى . ويعتبر هذا الكتاب الثقافة القومية الروسية أرقى من ثقافة الغرب بسبب ما لها من تراث شرقى وكنيسة لها طابعها الخاص ونظم سياسية أرسطراطية . هذا إلى أن كارامازين فعل مثل شيربوتوف من حيث تمجيد الحكام الروس وتصويرهم في صورة الأبطال

القوميين . ثم كان ان تناول المؤرخون الروس من أنصار المدرسة الغربية القومية الروسية بشيء من التمجيد والإطراء ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه سيرجيوس سوليف في كتابه تاريخ روسيا منذ أقدم العصور ، وصدر هذا الكتاب في واحد وعشرين جزءا بين سنتي ١٨٢٠ ، ١٨٧٩ ، وتناول التاريخ الروسى حتى سنة ١٧٢٤ في إسهاب كبير حتى انه فاق في تعمق بحثه أى كتاب آخر قبله . وكان حريصا على النظر إلى روسيا بوصفها دولة غربية ، ولذا فإنه مجد أعمال بطرس الأكبر . ولكن نظرا لطول الكتاب يكون تحفة شعبية . على أن سوليف حاز شهرته الواسعة بفضل كتاب المختصر الذى صدر في مجلد واحد وهو (مجمل التاريخ الروسى) .

أما نظرة رجال المذهب الحر الروسى إلى تاريخ روسيا القومى وتحمسهم له فقد بدأها المؤرخ نيقولا كوستوماروف (١٨١٧ - ١٨٨٥) في كتابه الذى جاء بعنوان (رسائل وأبحاث تاريخية) . وبينما ركز الكتاب السابقون حديثهم على الحكام فان كوستاماروف اهتم بحياة وسلوك وعادات الشعب الروسى في مراحل تطوره القومى ، مما جعل كتابه من أحسن المؤلفات عن دراسة تطور الشعب الروسى . هذا إلى أنه اهتم بدراسة الجهات التى تقع على التخوم الروسية ، وخاصة أوكرانيا .

أما المؤرخ الروسى فاسيليف كلوشفسكى (١٨٤١ - ١٩١١) فقد قام بدور بالنسبة للتاريخ الروسى مثل الدور الذى قام به حنا ريتشاردجرين بالنسبة للتاريخ القومى الإنجليزى ، ذلك أن كلوشفسكى تتبع تطور الحياة الشعبية في روسيا وتطور النظم والجنسية الروسية حتى جاء عمله تحفة علمية رائعة من أعظم ما أنتجته الكتابة التاريخية الحديثة . كذلك اهتم المؤلف بحركة التوسع والاستعمار الروسى على الرغم من أنه لم يكن من أنصار الحركة السلافية ورجاها المحترفين . ومنذ ثورة سنة ١٩١٧ صار هناك اتجاه عام للاقلال من شأن مكاسب روسيا في ظل الحكم القيصرى لكن المؤرخ بوكروفسكى كتب بحثا عاما عن التاريخ الروسى كما تصوره من وجهة النظر الماركسية .

أما في بلجيكا فقد بدأت الحماسة لجمع مصادر التاريخ القومى بعد أن حصلت بلجيكا على استقلالها سنة ١٨٣٠ . ولعل أعظم ما تم من تجميع لمصادر التاريخ القومى هو ذلك العمل الذى صدر منذ سنة ١٨٣٦ في بروكسل تحت إشراف الجمعية التاريخية الملكية في ١٧٩ جزءا تحت عنوان (مجموعة الوثائق البلجيكية غير المنشورة) كذلك قامت جمعية المناظرات في بروج ، بنشر ٥٦ جزءا من مجموعة السجلات التاريخية والمحفوظات ، والوثائق الاخرى المرتبطة بتاريخ وآثار الفلاندرز الغربى .

أما الفونس ووترز Wauters (١٨١٧ - ١٨٩٨) فقام بنشر مجموعة من موائيق الكومونات ، كما قام لويس جاشارد Louis Gachard (١٨٠٠ - ١٨٨٥) بنشر محتويات أرشيف الخارجية عن الفترة التي تبدأ من القرن الخامس عشر ، في حين قام بوليس فردريك بنشر وثائق مكتب الادعاء في بلجيكا وهولندا ، كما كتب ووترز Wauters بأسلوب يفيض بالمشاعر عن المجتمعات الصغيرة في بلجيكا في العصور الوسطى . أما جاشارد فقد كتب منذ عهد شارل الخامس وفيليب الثاني ، وثمة عمل صدر في بلجيكا من وجهة نظر كاثوليكية ويعتبر نظيرا لما قام به موتلي وبرنستر Prinsterer في هولندا هو ما قام به يوسف كيرفين دي ليتنهوف Lettenhove (١٨١٧ - ١٨٩١) وعالج فيه القرن السادس عشر تحت عنوان تاريخ الفلاندرز . وقد أدان ليتنهوف Lettenhove وليم الصامت ومؤيديه من البروتستانت ودافع عن موقف أسبانيا والحزب الكاثوليكي . والواقع أن كتابات بوليس فردريك الناقدة وكتابات هنري بيرين (١٨٦٢ - ١٩٣٥) ، فاقت كتابات ليتنهوف التي شابهها التعصب الوطني الاعمى ، هذا وإن كانت كتابات فردريك مليئة بنغمة فلمنيكية قومية قوية .

وعلى الرغم من أن هولندا لم تزود التاريخ بمجموعة كاملة لمصادر تاريخها القومي مثلما فعلت بلجيكا ، فإن الجمعية التاريخية في أوترخت أخذت في نشر مصادر التاريخ الهولندي منذ سنة ١٨٦٣ . كما قام المؤرخ الهولندي برنستر Prinsterer بنشر محتوى الأرشيف ذي المجلدات العديدة الخاص ببيت اورانج . وفي سنة ١٩٠٢ أنشئت لجنة ملكية ضمت أبرز المؤرخين الهولنديين لتتخذ الترتيبات اللازمة لنشر وثائق ومخطوطات التاريخ الهولندي نشرًا منظما وتولى رئاسة هذه اللجنة هـ . ت كولنبراندر H. T. Colenbrander فاصدرت ٢٢ جزءا تحوى مصادر التاريخ الهولندي من سنة ١٧٩٥ - حتى سنة ١٨٤٠ . أما أكثر الكتابات التاريخية حماسا من الناحية القومية في هولندا فقد وردت في كتاب عن تاريخ هولندا الذى ألفه وليم جروين برنستر Wil-liame Groen Van Prinsterer الذى دأب في كتابه هذا وفي كتاب له آخر اسمه موريس وبارنفلت ، على مدح المذهب البروتستانتي فضلا عن بيت أورانج . على أن كتب برنستر صارت عديمة القيمة بعد صدور الأبحاث العلمية التى دونها روبرت فروين (١٨٣٣ - ١٨٩٩) ، وهو واحد من أقدر المؤرخين الهولنديين . وبالإضافة إلى هذه الأبحاث العلمية لفروين Fruin هناك بحث للمؤرخ بطرس بلوك (١٨٥٥ - ١٩٢٩) عن تاريخ هولندا العام . وهو بحث يتميز بالدقة والاتزان .

أما بالنسبة للشعوب الاسكندنافية فإنها هي الأخرى لم تكن فقيرة في مجال الكتابة التاريخية القومية إذ جمعت مصادر تاريخها في عديد من السلاسل من بينها مجموعة المخطوطات المتعلقة بتاريخ الدانمرك في العصور الوسطى ، وهي المجموعة التي أصدرها يعقوب لانجيك Langebek وخلفاؤه . وهناك كذلك الوثائق الدبلوماسية النرويجية التي أصدرها س . أ . لانج والوثائق الخطية السويدية التي أشرف على نشرها أريك جوستاف جييجر (١٧٨٣ - ١٨٤٧) ورفاقه .

وكان أول من أدخل الكتابة التاريخية القومية في الدانمرك هو المؤرخ ورساي Worsaae وفي النرويج المؤرخان كيزار ، منح ، وفي السويد جييجر ، كارلسون ، فريك ، أما عن يوحنا يعقوب وورساي (١٨٢١ - ١٨٨٥) فقد اهتم بصفة خاصة بتاريخ الدانمرك القديم في كتاب (آثار الدانمرك القديمة) وكتابه الشمال في عصر ما قبل التاريخ ، وذلك بالإضافة إلى كتاباته عن موضوع الدانمركيين في إنجلترا . كذلك اهتم المؤرخ يعقوب روديف كيزار Keyser (١٨٠٣ - ١٨٦٣) برسم صورة رومانسية وإبراز الجوانب المشرقة عن أصل النرويج وذلك في كتابه تاريخ الشماليين ، هذا إلى أن كيزار أبدى اهتماما كبيرا في تاريخ النرويج الديني . لكن الكتاب الذي ألفه بطرس اندرياس منح Munch (١٨١٠ - ١٨٦٣) كان أكثر شهرة وأوسع نطاقا ، إذ صدر تحت عنوان تاريخ الشعب النرويجي ، وفي السويد كان لكتاب المؤرخ جييجر تاريخ السويديين (حتى عهد شارل العاشر) فضل في زيادة الاهتمام بتاريخ السويد القديم والفنون الشعبية فيها . وقام بإكمال هذا العمل العظيم المؤرخ فردريك كارلسون (١٨١١ - ١٨٧٧) . أما اندرياس فريكول (١٧٩٥ - ١٨٨١) فقد كتب بحثا من عشرة أجزاء بعنوان (دراسة عن تاريخ السويد) وهو البحث الذي حاز شهرة واسعة . ولم تلبث أن تتابعت الأبحاث المتسمة بالصفة العلمية عن التاريخ القومي للدول الاسكندنافية فكتب المؤرخ يوحنا ستين ستروب ورفاقه عن الدانمرك . وكتب يوحنا سارز ، كنت جيرسرت Kunt Gjærest الكسندر بييج Alex-ander Bugge عن النرويج وكتب هارولد هارن ، اميل هيلدبراند عن السويد .

ولو أن لدينا مجالا أفسح لأمكننا أن نوضح كيف أثرت دراسة أمجاد الماضي على نشأة الآمال القومية لشعوب البلقان منذ ١٨٢٠ ولعل أحسن مثال لذلك كتاب المؤرخ الكسندر أكرونبول وعنوانه (تاريخ الرومانيين في إقليم راشيا تراجان) History of Roumanians of Trajan وهو الكتاب الذي صدر فيها بين سنتي ١٨٨٨ - ١٨٩٣ ويعتبر نموذجا لأثر الكتابة التاريخية في إذكاء الروح القومية في البلقان .

القومية اليهودية

من المؤكد أن عرضنا للعلاقة بين القومية وكتابة التاريخ في العصور الحديثة في أوروبا لن يكون كاملاً إلا إذا أشرنا إلى الكتابة التاريخية القومية الخاصة باليهودية والصهيونية . إن ظهور القومية اليهودية في القرن الماضي جاء مرتبطاً بالتطور العام للروح القومية في أوروبا في نفس الفترة . وهو التطور الذي ساعد على تقوية الروح القومية اليهودية من خلال التقليد المباشر للحركات القومية الأخرى من ناحية . ومن خلال اضطهاد اليهود الذي جاء نتيجة للحماسة الوطنية المتزايدة في أوروبا بعد سنة ١٨٧٠ من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أصبح واضحاً أثر نحو العاطفة القومية اليهودية على تطور اهتمام اليهود بتاريخهم القومي ، فأنشئت الجمعيات التاريخية اليهودية في معظم الدول الكبرى ، مثل جمعية الدراسات اليهودية التي ظهرت سنة ١٨٨٠ ، ثم الجمعية التاريخية لاتحاد الطوائف الألمانية اليهودية التي ظهرت بعد ذلك بخمس سنين ، وفي سنة ١٨٩٥ قامت الجمعية التاريخية الإنجليزية اليهودية . وقبل ذلك بثلاث سنوات أنشئت الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية . والواقع أن هذه الجمعيات قامت بعمل ضخم في جمع مصادر التاريخ اليهودي وخلق الاهتمام بدراسته . ونخص بالذكر في هذا المقام ما نشرته الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية سنة ١٨٧٧ من بحث كبير يحوى دراسة عن اضطهاد اليهود في العصور الوسطى بقصد استثارة السخط القومي لليهود على ما لاقوه من اضطهاد في ماضيهم وحاضرهم . وبما أثار عند اليهود شعور الحماسة لقوميتهم ما كتبه أحد المؤرخين القوميين وهو هنريك جريتز Graedtz (١٨١٧ - ١٨٩١) . أما المؤرخ إسحاق م . جوست (١٧٩٧ - ١٨٦٠) فقد كتب كتابين هما (تاريخ اليهودية) (وتاريخ بني اسرائيل) ، وكانت آراؤه تتسم بالصيغة الليبرالية العقلانية غير المتحيزة إلى الحد الذي يجعل منه مؤرخاً قومياً ، وتختلف أعماله كثيراً عن أعمال جريتز الذي يشبه أحياناً بالمؤرخ تريتشك فيقال عنه (تريتشك اليهود) ذلك أن جريتز في كتابه تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر يحرص على نظراته المحافظة وآرائه المتعصبة كما يفيض حماسة لماضى قومه مستقبليهم وقد تتبع بأسلوب فصيح تاريخ اليهود منذ نشأتهم حتى سنة ١٨٤٨ . واهتم بصفة خاصة بتطورهم الأدبي والروحي - أى بالعناصر التي أسهمت بأكبر قسط في تطور ثقافة اليهود القومية وبقائها . ثم انه نظر إلى اليهود على أنهم (نمط روحي قائم بذاته) وبذلك جاء كتابه متمشياً مع تطور (الصهيونية) وأفكارها . وكان يصر على أن المسيح المنتظر بالنسبة لليهود هو

إذكاؤهم للروح القومية ، وعارض فكرة بقاء اليهود على وضعهم انتظاراً لمجيء المسيح لتخليصهم مما فيه . أما المؤرخ س . م . دينو S. M. Dubnow صاحب كتاب (التاريخ العالمى للشعب اليهودى منذ بدايته حتى الوقت الحاضر) فتتصف كتابته بالموضوعية وغزارة المعرفة مما جعلها تعلق على النزعة القومية وإن كان الكتاب لا يخلو تماماً من تلك النزعة . وإلى جانب التاريخ العام الذى أخرجه جريتر ودينو ، هناك كتابات تاريخية عالجت بشىء من الشمول تاريخ اليهود فى دول أوربية متعددة . وفى مقدمة هذه الكتابات (دائرة المعارف اليهودية) التى جمعت بين النخبة القومية والمنهج العلمى فى البحث . ثم كان أن أدى اصطهاد اليهود على يد هتلر والنازيين إلى إذكاء القومية اليهودية بصورة أقوى مما حققه أى عامل آخر فى العصور السابقة . فمنذ سنة ١٩٣٣ ظهرت مؤلفات عديدة كتبها موريس صمويل وآخرون عالجت مختلف الأطراف والمظاهر للقومية واليهودية ولم تلبث أن ازدادت هذه الدراسات قوة وكثرة بعد (اغتصاب) أرض فلسطين وإقامة دولة (مزعومة) لليهود بعد سنة ١٩٤٧ .

مادة دور المحفوظات

وفى عرضنا المختصر هذا لأثر القومية على كتابة التاريخ فى أوربا لابد أن نشير ولو بطريقة عابرة إلى نمو وتكديس الوثائق فى دور المحفوظات (الأرشيف) وزيادة اعتماد الدارسين عليها . وذلك أن تطور الدول القومية وما صاحبها من النظم البيروقراطية أدى إلى وجود قدر هائل من التقاليد الرسمية والقواعد الروتينية ، فضلاً عن نمو وتطور نظام المراسلات الدبلوماسية . ولم تكدهم تحل سنة ١٨٠٠ إلا نتج عن هذا كله رصيد هائل من الأوراق التى حوت معلومات متعددة وحفظت فى دور الحفظ القومية والدينية فضلاً عن الخاصة . ولكن قبل أن يتمكن المؤرخون من الاستفادة من وثائق دور الحفظ كان لابد من أن تصنف تلك الأوراق وتنظم وتوضع تحت تصرف المؤرخين الحقيقيين . وحتى القرن التاسع عشر كان هناك اتجاه عام واضح لعدم فتح أبواب دور الحفظ أمام المؤرخين .

كانت فرنسا الدولة الرائدة فى مجال تصنيف مادتها الأرشيفية . ولعل ذلك راجع أساساً إلى وجود عدد كبير من أمناء المحفوظات المدربين تدريباً عالياً والذين تخرجوا من مدرسة الوثائق

الفرنسية . وتعتبر إنجلترا في الوقت الحاضر الدولة الأوروبية الوحيدة المتخلفة كثيرا في مجال تصنيف المادة الأرشيفية وترتيبها وتنظيمها .

ومن نواحي النقص الرئيسية التي توجد حتى في أدق دور الحفظ تنظيمها هو افتقارها إلى ركن هام من أدق أركان الوثائق ونعني به الخطابات والمذكرات الشخصية الخاصة ، وذلك لحرص رجال الدولة والديبلوماسيين على رفعها من الملفات . ولهذا السبب أعلن بسمارك ذات مرة أن المادة الأرشيفية تعتبر ضئيلة القيمة لمن يريد أن يكتب تاريخا دبلوماسيا واقعا . وكان أن بدأ السير ادوارد جراي تقليدا حميدا عندما ترك معظم أوراقه الخاصة في وزارة الخارجية عندما اعتزل منصبه كوزير للخارجية

وكما أدى الاعتزاز بالقومية إلى التنافس بين الدول في جمع مصادر التاريخ القومي الخاص بها ، كذلك حدث بنفس الطريقة أن دفع التنافس بين الدول الأوروبية المختلفة في فترات متعددة من القرن التاسع عشر كثيراً منها إلى فتح أبواب دور الحفظ القومية فيها والسماح للمؤرخين القوميين باستخدامها . بل إن البابا ليو الثالث عشر وكان متحرراً للفكر فتح أرشيف الفاتيكان سنة ١٨٨١ وحصل العلماء من غير رجال الدين على امتياز محص ودراسة الكتوز التي احتوتها دور الحفظ في الفاتيكان والتي كان الكاردينال بارونيوس أول من استخدمها .

ومع ذلك فقد ظل الوضع حتى الحرب العالمية الأولى وليست هناك حرية كاملة في أي مكان في استخدام المادة الأرشيفية ، فضلا عن أن الوثائق الحديثة حُجبت عن أنظار العلماء والباحثين . من ذلك مثلا أنه لم يكن من الممكن الاطلاع على الأوراق المحفوظة في أرشيف الفاتيكان والتي ترجع إلى ما بعد سنة ١٨١٥ ، كما أنه سمح للمؤرخين في فرنسا بالاطلاع على الأوراق الرسمية حتى سنة ١٨٣٠ ، وفي روسيا سمح لهم بالاطلاع على الأوراق المحفوظة بدور الحفظ والتي ترجع إلى ما قبل سنة ١٨٥٤ ، وفي إنجلترا حتى سنة ١٨٦٠ . أما بالنسبة لأمريكا فقد حاول العلماء أمثال جيلارد هنت أن يصل بتنظيم المادة الأرشيفية وجمعها إلى نفس المستوى الراقى الذي وصلت إليه معظم الدول الأوروبية .

وكان أن بدأ عهد جديد في فتح أبواب دور المحفوظات على مصاريعها أما الباحثين بعد الحرب العالمية الأولى ، وذلك بدافع الرغبة في إلغاء الدبلوماسية السرية وتحديد المسئول الحقيقي عن الحرب العالمية . وكان البلاشفة هم البادئون في هذا الاتجاه وتبعهم بسرعة كل من الألمان والنمساويين ، وبعد ذلك وجد الإنجليز والفرنسيون أنفسهم مضطرين إلى السير في نفس

الطريقة . ولم يقتصر الأمر على مجرد فتح أبواب دور الحفظ بل نشرت على نطاق لم يسبق له مثيل الوثائق الدبلوماسية الهامة والخاصة بالجيل السابق للحرب العالمية الأولى مباشرة . وبعد الحرب العالمية الثانية استولى الحلفاء على كميات ضخمة من الوثائق الألمانية وقاموا بنشرها جميعا ولكن لم تكن لديهم أية رغبة في نشر وثائقهم هم . وأظهر الروس بصفة خاصة تمسكا بسرية الوثائق ، بدلا من أن يستحثوا حلفاءهم الغربيين على نشر وثائقهم مثلما حدث عقب سنة ١٩١٨ .

كتابة التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية

لم تبذل الولايات المتحدة الأمريكية أى جهد رسمى فى سبيل جمع مصادر تاريخها القومى يمكن أن يقارن بالجهود العظيمة التى بذلتها الدول الأوروبية الأخرى . ولعل هذا يرجع من ناحية إلى الخصائص الموروثة المتأصلة فى النظام الفدرالى الأمريكى ومن ناحية أخرى إلى حقيقة أن الحكومة الفيدرالية شغلتها التشريعات الروتينية ومتطلبات السياسة الحزبية بحيث حال ذلك دون أن تركز انتباهها على تدعيم مجالات الفكر واهتمامه .

وإذا بحثنا عن محاولة أمريكية يمكن أن نعتبرها نظيرة لحركة جمع مصادر التاريخ القومى فى أوروبا - وهى الحركة التى ارتبطت بأسماء مورتورى بيرنز ، جيزو ، نيقولا ، هاردى ، ستابز stubbs ، فليس أمامنا سوى تلك المحاولة التى طغت عليها الصبغة الوطنية والتى قام بها بطرس فورس Peter Force (١٧٩٠ - ١٨٦٨) فى الثلاثينات من القرن الماضى . بقصد الحصول على معونة حكومية كافية ، لنشر محتويات دور الحفظ الأمريكية ، وكانت الخطة الأصلية لهذا المشروع هى ضم كل مصادر تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عهد اكتشافها حتى عهد وضع الدستور . ويتضح ارتباط هذا المشروع تاريخيا ونفسيا بالحركة الأوروبية مما قاله فورس نفسه عن أهداف هذه الخطة (ان هذا العمل الذى أقدمنا عليه هو فى المحل الأول عمل قومى فى مداه وهدفه) . وبعد عقبات شديدة حصل فورس على معونة فدرالية مكنته من أن يبدأ نشر محتويات دور الحفظ سنة ١٨٣٧ ، لكن هذه المعونة الحكومية سرعان ما سحبت . واتضح أن ما تم عمله لم يكن سوى قشرة بسيطة من الخطة الكبيرة التى كان ينوى النهوض بها .

والواقع أن فورس لم يكن أكثر من جامع لمادة التاريخ القديمة وآثارها أكثر من عالم ناشر على مستوى ويتز Waitz ، ومينيه Mignet ، وجيرارد Guerard ، وستابز فى أوروبا . ويرجع ذلك الى

أن حركة البحث التاريخي تأخرت ما يقرب من جيل كامل عن مثيلتها في أوروبا ، ولذلك فإن الخسارة التي نجمت عن عدم استمراره في تنفيذ مشروعه أقل بكثير مما لو حدث وتوقف نشر الوثائق الانجليزية أو الألمانية أو الفرنسية .

ولم يتعد ما صدر في الولايات المتحدة الأمريكية من جمع لمصادر التاريخ القومي عمل الأفراد وشركات النشر والجمعيات التاريخية في مختلف الولايات . وكان في مقدمة ما نشر على هذه الصورة عمل بعنوان (المراسلات الدبلوماسية للثورة الأمريكية) لجيرد سبارك Jered Spark . وقد ظهرت هذه المراسلات في ١٢ جزءا ما بين سنتي ١٨٢٩ ، ١٨٣٠ . كما كان هناك إنتاج آخر لنفس المؤلف صدر في ١٢ جزءا أيضا بعنوان : حياة واشنطن وكتاباتاته وقد صدر ما بين سنتي ١٨٣٤ - ١٨٣٧ .

أما أكثر المحاولات طموحا لجمع مصادر التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية فهي محاولة المؤرخ هيوبرت هاوبانكروفت Howe Bancroft (١٨٣٢ - ١٩١٨) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ذلك أنه قام بجمع مصادر تاريخ الولايات الباسفيكية ثم استخدم هذه المادة في تأليف كتابه (تاريخ الولايات الباسفيكية) المكون من ٣٩ جزءا ولسوء الحظ فإنه لم يتبع نهج شتين ولم يسترشد بعمل برتز ، بل اعتمد في تنفيذ مشروعه على قديراته الخاصة مما ترتب عليه أن افتر عمله إلى الدراسة الناقدة وصحة النشر . وهناك عمل أكثر عمقا في البحث هو ذلك الجهد التعاوني الذي قام به عدد من الكتاب تحت إشراف جستين وينسور Justin Winsor الذي عرف به Narrative and critical history of America وعلى الرغم من أن هذا الكتاب احتوى قدرا كبيرا من مادة المصادر فإنه عمل يتضمن عرضا ناقدا للمصادر أكثر من استهدافه تجميع هذه المصادر ونشرها .

ومضت مع هذه الحركة جنبا إلى جنب حركة نشر مصادر تاريخ كل ولاية من الولايات الأمريكية وهي المهمة التي قام بها في أغلب الأحوال جماعة من علماء الآثار لا ناشرين من علماء التاريخ الناقدين ، مما أدى إلى عدم وجود تجانس في الطريقة التي اتبعت في هذا الشأن . ومع ذلك فإن بعضاً من هذه الأعمال جاءت على درجة عالية من التنظيم والدقة ، ولعل أبرزها تلك السلسلة المطولة التي تناولت اكتشاف الجزء الأوسط من أقاليم الغرب في الولايات المتحدة الأمريكية واستعمارها . وقد اشرف على اخراج هذه السلسلة روبن ج . تويتس أوف ويسكونسن G.Ro-ber Thwaites of Wisconsin كذلك ظهرت مجموعة الوثائق المتعلقة بولاية نيو يورك التي

نشرها الكسندر س . فليك Flick . يضاف إلى هذا كله نشاط الجمعيات التاريخية المحلية العديدة وهي الجمعيات التي كان لها دور كبير في جمع مصادر التاريخ المحلي ، فضلا عن دورها في مساعدة الجمعيات المركزية على مستوى الدولة لتتمكن من إنجاز أعمالها .

ومن الاتجاهات الأخرى في تجميع المصادر الخاصة بتاريخ الولايات المتحدة نشر الرسائل والأوراق الخاصة برؤساء الجمهوريات فضلا عن مكاتبات رجال الدولة وهو العمل الذي قام به عدد من علماء التاريخ ، وإن كانت هنا الأعمال قد تفاوتت من حيث المستوى . وقد بلغت هذه الأعمال ذروتها في كتاب و . س . فورد V. C. Ford الذي صدر تحت عنوان كتابات واشنطن ، وكتاب جلارد هنت « مكاتبات جيمس ماديسون » وكتاب ب . ل . فورد مكاتبات جيفرسون ، وكتاب ج . ب . مور - أعمال جيمس باكانان The Works of James Buchanan .

ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية مفتقرة إلى الإمكانيات الضخمة لإعداد الوثائق ونشرها ، إذ كان لديها من العلماء أمثال واشنطن س . فورد ، جون فرانكلين جيمسون ، بولس ليكستر فورد ، جوبلارد هنت ، وهؤلاء جميعا لا يقلون في مقدرتهم عن برتز ، ويتز ، جوبيزو ، ستايز . ولكن ما كانت تحتاج إليه الولايات المتحدة هو التخطيط المشترك . والحصول على معونة حكومية كافية ومستمرة . ومع ذلك فقد كانت هناك بداية مبشرة بأن فجرا جديدا سيبدأ في كتابة التاريخ القومي للولايات المتحدة ، وذلك عندما نشر و . س . فورد أوراق الكونجرس ومحاضر جلساته ما بين سنتي (١٧٧٤ - ١٧٨٩) وعندما نشر ماكس فاراند الوثائق الخاصة بالاتفاق الفدرالي المفقود سنة ١٧٨٧ . هذا بالإضافة إلى ما نشرته ، مؤسسة كارنيجي تحت إشراف جون فرانكلين جيمسون .

وقد بذل حنا باسيت مور جهدا صادقا وشافا لنشر المجموعة التذكارية الخاصة بوثائق تاريخ الديبلوماسية الأمريكية . وهنا ينبغي الإشارة إلى ذلك التجميع القيم للمصادر الخاصة بتاريخ العمل والعمال في أمريكا ، وهو ما قام به الأستاذ حنا . كومانز Commons ورفاقه ، كذلك كانت الآنسة أديلدهاس Adelaide Hase بإنتاج سلسلة من الكتب في وصف وتصنيف مصادر تاريخ أمريكا الاجتماعي والاقتصادي . ومع ذلك فإنه يمكن القول عموما بأن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر متخلفة إلى حد كبير في مجال جمع مصادر تاريخها القومي ، ولا يمكن تبرير ذلك التخلف بإرجاعه إلى الافتقار إلى العواطف القومية الجارحة ، أو إلى عدم وجود موارد مالية كافية لهذا الغرض .

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية لم تستطع أن تسير الدول الأوروبية في تطور حركة جمع مصادر تاريخها القومي فإن لها أن تفخر بأنها أنجبت مؤرخين لا يقلون وطنية فياضة عن نريشك ، ميشليه ، وفروود Froude . وكان من الطبعي أن تدور السياسة التاريخية القومية في أمريكا حول الفترة التي شهدت انطلاق الأحلام والآمال وهي فترة الاستعمار الأجنبي للولايات المتحدة الأمريكية ونضال الأمريكيين من أجل حصولهم على الاستقلال . ذلك أن المؤرخين الأمريكيين أحاطوا هذه الفترة بهالة تشبه تلك الهالة التي أضفاها يوحنا مولر على ألمانيا في عصرها المبكر أو تلك التي أضفاها شاتوبريان على فرنسا .

ويعتبر جورج بانكروفت (١٨٠٠ - ١٨٩١) الشخصية الرئيسية التي ابتكرت ملحمة قومية عن فترة النضال الأمريكي ونخلص أمريكا من الاستعمار ، ذلك أن بانكروفت نفسه عاش في فترة الأيام التي شهدت ازدهار الحماسة القوية وسادت فيها الديمقراطية وهي فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي . وأخرج كتابا مطولا بعنوان (تاريخ الولايات الأمريكية منذ اكتشاف أمريكا) . ويلاحظ أن بانكروفت كان أحد الأمريكيين الأوائل الذين تلقوا تعليمهم في حلقات الدرس الألمانية واعتقد بأن تاريخ إنشاء الجمهورية الأمريكية ليس جهدا عاديا تحقق في دنيا البشر ولكنه كان على حد تصويره ملحمة فرجيلية قام فيها واشنطنون بدور أوغسطس . وتعرض هذه الملحمة في مناظرها المتلاحقة « حركة القوة الإلهية وهي تضي على الكون وحدته وعلى الحوادث تتابعها وارتباطها . » .

كذلك صور بانكروفت في أسلوب بلاغي منمنق العملية التي قام بها الأمريكيون بالاستيطان في الولايات الجديدة على أنها هروب الأرواح الياسلة من الاضطهاد وصور الثورة الأمريكية في صورة حملة صليبية يقودها فرسان وطنيون متحمسون من أجل حصول الإنسانية المتحضرة على حريتها . ويصف الدستور الأمريكي بأنه نتاج لأفكار عملاقة لم ولن يوجد لها مثيل ، واعتبر أن ما أنتجته هذه الأفكار أعظم قيمة من صانعها . ويتضح مدى ما في معتقدات بانكروفت من مبالغة إذا قورنت بالدراسة العميقة الواعية لنفس هذه الفترة التي تناوها بانكروفت والتي قام بها كل من جورج لويس بير ، ك . هـ . فان نين . وكارل بيكر ، ك . م . اليوت ، م . ك . تايلر ، هـ . ل . اوزجود ، ك . و . الفوردي ، ك . م . اندروس ، س . ج . فيشر ، وماكس فرانك ، ك . أ . بيرد ، أ . م . شلزنجر وآخرون . وكانت نظرة بانكروفت للتاريخ الأمريكي هذه النظرة المقدسة سببا في ضرر بالغ وإن لم يكن من المتعذر علاجها . ذلك أن هذه النظرة الخرافية المصطبغة بصيغة دينية

انتقلت من بانكروفت إلى ما كتبه جون . و . بالفري Palofrey (١٧٩٦ — ١٨٨١) في كتابه (تاريخ إنجلترا الجديدة) ثم تكررت مرة أخرى بصورة أقل قوة في كتاب هنري كابوت لودج (تاريخ المستعمرات الإنجليزية في أمريكا) . وكان لهذا الكتاب فضل إثارة الاهتمام بفترة استعمار الإنجليز لأمريكا . أما جون لوثر ب موتلي فكان مؤمنا بدور أمريكا في نصرة الحرية والديمقراطية ولذا اتجه إلى عمل دراسة مقارنة بين دور أمريكا ودور هولندا عندما قضت على الاستعمار الأسباني وأقامت الجمهورية .

أما فرانسيس باركمان (١٨٢٣ — ١٨٩٣) فلم يسر على منهج بانكروفت في تمجيد العنصر الانجلو سكسوني في بادئ الأمر ، وانثنى على فرنسا في دورها الذي قامت به في استعمار العالم الجديد وأوضح في كتاباته أن أجداد المستعمرين ليست قصرا على الإنجليز والألمان وحدهم . وإذا كان باركمان قد ركز بحثه على الفرنسيين في شمال أمريكا وغربها فإن وليم . هـ . بريسكوت (١٧٩٦ — ١٨٥٩) الشهير بمؤرخ أسبانيا في أوائل العصر الحديث قد أوضح دور الأسبان في استعمار وسط أمريكا وجنوبها ذلك أنه وصف وصفاً رائعاً عظمة الحضارة التي كانت للمواطنين الأصليين الأمريكيين في المكسيك وبيرو . وأفاض في شرح ذلك في كتابيه « تاريخ المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ويعتبر هذان الكتابان من أروع الكتابات وإن كانا يحتاجان إلى تعديل في ضوء الأبحاث الأركيولوجية اللاحقة . أما الفريد ت . ماهان (١٨٤٠ — ١٩١٤) فكان متأثراً بدور الأسطول الأمريكي الذي لم يكن قد بلغ درجة كبيرة من التضج في الثورة ، فضلا عن دوره في حرب سنة ١٨١٢ مما دفعه إلى دراسة الدور الذي لعبته البحرية في الماضي . وكان أن كتب كتابين أولهما : (تأثير القوة البحرية ودورها فيما بين سنتي ١٦٦٠ — ١٧٨٣) وثانيهما (دور القوة البحرية في الثورة والإمبراطورية الفرنسية فيما بين سنتي ١٧٩٣ — ١٨١٢) . وكان لهذين الكتابين باستثناء كتب أخرى قليلة أكبر الأثر في لفت الأنظار نحو ضرورة الاهتمام بالتسلح البحري الحديث .

ونجد تمجيذا لدور الاتحاديين في تقوية دعائم الوحدة الوطنية الأمريكية في أعمال المؤرخين ريتشارد هيلنرث (١٨٠٧ — ١٨٦٥) وحنا تشرش هاملتون (١٧٩٢ — ١٨٨٢) ولما كان هيلنرث من المعارضين للبيوريتانية ، فإنه تولى الرد على بالفري في هذا الصدد ، وامتدح النظام الفدرالي وانتقد جيفرسون . أما هاميلتون فهو ابن أحد كبار الساسة الفدراليين ، ولذا تولى الدفاع عن سياسة أبيه في كتاب (تاريخ الجمهورية) ونجد في مقالات وكتابات بانكروفت ثناء

وإطراء على الديمقراطية التي لم تشبها شائبة في عهد جاكسون وذكر بانكروفت أنه كان يحس بتصفيق وهتافات أتباع جاكسون وكأن السماء تصفق معهم وتباركهم .

أما تيودور روزفلت (١٨٥٨ — ١٩١٨) فقد وصف في كتابه (انتصار الغرب) عملية التوسع الأمريكي غربا وصفا ينم عن إعجابه وتحمسه ، بصورة غير مستترة لهذه المناطق من غرب أمريكا وتبدو فيه وطنيته الطاغية وإعجابه بحركة الاستعمار التي قامت بها بلاده . وكان لروزفلت الفضل في أن حاز عمل ما هان رواجاً وشعبية كبيرة . أما المؤرخ الأمريكي — الألماني الأصل — هرمان فون هولست (١٨٤١ — ١٩٠٤) فيصور في كتابه « التاريخ الدستوري والسياسي للولايات المتحدة الأمريكية » الانتصار على الرق بوصفه مظهراً هاماً من مظاهر الصراع الأبدي بين الحق والباطل ، كما تأثر كثيراً بانتصار القومية في الولايات المتحدة الأمريكية ورأى في ذلك درساً لبني وطنه الأول الألمان في صراعهم من أجل الوحدة . وهناك الأستاذ حنا وليم بيرجيس Johnne Willian Burgess (١٨٤٤ — ١٩٣١) صاحب كتاب « الفترة الوسيطة » وكتاب (الحرب الأهلية والدستور) وكتاب « الدستور وإعادة بناء الوطن » وقد رأى بيرجيس في نجاح أهل الشمال في الحرب الأهلية تبريراً لفلسفة السياسة القومية ودليلاً أكيداً على العبقرية النيوتونية في مجال التنظيم والوحدة السياسية .

وجملة القول أنه ما إن أصبحت فترات الحرب الأهلية وإعادة بناء الوطن الأمريكي موضوعات للتحليل التاريخي والدراسة المجادة حتى بدأت الدراسة الموضوعية الناقدة ذات الطابع العلمي تسود تماماً بفضل جهود الأستاذ وليم أ . دانتج ، وهكذا بدأت الملحمة الأمريكية ، تختفي من الأعمال العلمية ، وإن بقيت في صورة كتب للنصوص المدرسية للأجيال المتعاقبة وكان أن تحمل المؤرخ الفيلسوف حنا فيسك (١٨٤٢ — ١٩٠١) عبء إعطاء ملحمة بانكروفت إطاراً تعقيلياً يجعلها تتناسب مع الاتجاهات السائدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولما كان هذا المؤرخ يؤيد مذهب سبنسر التعقلي وتمجيده لقيام الطبقة المتوسطة ، فإنه استطاع رسم صورة واضحة للروح السائدة للأمريكيين المثقفين في عصره . وكان أن نجح بأسلوبه الواضح الجذاب وإلمامه الكبير بفترة الكشف والاستعمار والثورة في جذب جمهور كبير إليه مما جعله من أوائل المرشحين للقب « أشهر مؤرخ قومي » في الجيل الماضي . ذلك أنه رسول العهد الجديد في فهم العلاقات الأنجلو أمريكية وتفسيرها ، فأقن بدلاً من ملحمة بانكروفت ذات الصبغة الدينية الأمريكية بملحمة جديدة عن نشأة الطبقة المتوسطة في كل من إنجلترا وأمريكا وانتصار تلك

الطبقة ، وهي ملحمة جديدة بأن تكون « ملحمة الشعوب الناطقة بالإنجليزية » ثم إن فيسك كان مقتنعا تماما مثل بيرجس - بما كان عليه الفرع التيوتوني من الجنس الأمريكى من مقدرة سياسية فائقة ، وأوضح أن أول مثال عرف عن الحكم الديمقراطي كان في نظام مجتمع القرية التيوتونية ، وهو نظام يعتبر تراثا للجنس الآرى من عهد ما قبل التاريخ ، هذا إلى اعتقاده في أن التاريخ الأمريكى سار في سلسلة متصلة الحلقات من أيام ارمنبوس القوى الذى كان يعيش في غابات شمال ألمانيا والذى تحدى بنجاح قوة الإمبراطورية الرومانية وعظمتها . ثم أن فيسك قال مؤكدا أن عنصر الحرية هو أكثر العوامل المحركة للمقدرة السياسية بدلاً من عناصر النظام والسلطة التى وضعها بيرجس في المقام الأول . كذلك رأى فيسك أن إنجلترا في عهد جلادستون تعطى مثلاً للحرية السياسية الكاملة أكثر مما تعطى ألمانيا في عهد بسمارك ، ومن ثم فإن النظرية العامة القائلة بأن إنجلترا - ذات صيغة تيوتونية بحتة والنقاش الذى دار حول ذلك الرأى - إنما كان نقاشاً اثولوجياً يؤيد وجهة نظر فيسك . ولذلك فبدلاً من أن يستلهم قيس الحرية مباشرة من « رجل الغابة الألمانى في عهد ما قبل التاريخ » ثم يصل إلى الاتفاق الدستورى الفدرالى في سنة ١٧٨٧ ، نجد فيسك يغير من خط سير هذا القبس ويجعله يهتدى وهو في طريقه إلى العالم الجديد « بثورة ١٦٨٨ المجيدة » ويرى فيسك في هذه الثورة أن الحرية السياسية والدينية سواء قامت على أساس متين راسخ لا يمكن أبداً أن يهتز أو ينال منه أى تهديد طالما أن لغة لوك ، ميلتون سيدنى ستظل حية على « السنة الناس » .

والواقع أن عمل فيسك وبالإضافة إلى عمل جورج أوتو تريفليان كان محاولة لتوضيح أن الثورة الأمريكية كانت تحقيقاً تاماً لروح ثورة ١٦٨٨ ، إذ صور هذه الثورة على أنها من عمل الأحرار على كل من جانبي الأطلنطى وأنها محاولة بطولية لصد وسحق الميول الأوتوقراطية للنظام الإقطاعى المحافظ فضلاً عن سحق طغيان لا يستند على أساس دستورى « لملك جرمانى » وبفضلها تمت صيانة حريات العالم بالصورة التى نصت عليها وثيقة الحقوق الإنجليزية . وقد استرسل فيسك في زهو في عرض لقيام الجمهورية الأمريكية الاتحادية واعتبرها من أكبر ما أسهم به العالم الغربى في سبيل حل المشاكل السياسية ، ذلك أن هذه الجمهورية الاتحادية استطاعت أن توفق بين حرية الاجتماعات في المدن الأمريكية وبين الحشود السياسية الكبيرة . كذلك تتبع فيسك في نشوة بالغة تقدم الطبقة المتوسطة وانتصاراتها السياسية والاقتصادية في القارة الأمريكية في القرن التاسع عشر وأحس فيسك قبل وفاته . أى في مستهل القرن العشرين .

بالرضا التام عندما رأى بلاده تهض في تحمل (أعباء الرجل الأبيض) وتحتفظ بسيادتها على الفيلبين . وعلى الرغم من أنه لم يكن عسكريا على الإطلاق ، إلا أنه كان يعتبر هذا العمل أهم خطوة في عملية وضع العالم تحت السيطرة السلمية « للفرعين العظيمين للجنس الإنجليزى اللذين يضطلعان برسالة إقامة حضارة عظيمة على الجزء الأكبر من سطح الارض ، وإقامة نظام سياسى أكثر دوما من أى نظام سابق » .

وإذا كان فيسك هو الذى أدخل الأسطورة الجرمانية والانجلو ساكسونية في التاريخ الشعبى للولايات المتحدة ، فإن هربرت باكستر آدمز (١٨٥٠ - ١٩٠١) وجون وليم برجس (١٨٤٤ - ١٩٣١) هما اللذان أدخلوا هذه الاسطورة في دائرة الدراسة التاريخية الأكاديمية . ذلك أن كلا من هذين المؤرخين تلقى تعليمه في ألمانيا - وآدمز هو صاحب الفضل في انشاء قسم الدراسات التاريخية المشهور في جامعة جون هوبكنز وتخرج منه على يديه عدد كبير من المؤرخين البارزين وعلماء السياسة ، ومن بينهم ودر وويلسون . وكان أحد تلامذآدمز جورج إليوت هيوارد هو خير من طبق النظم الجرمانية على النظم الأمريكية ، وذلك في كتابه (مقدمة للتاريخ الدستورى المحلى للولايات المتحدة الأمريكية » والذى ظهر سنة ١٨٨٩ . أما بيرجس فقد بدأ عمله في كلية أمهرست وأنشأ بعد ذلك مدرسة العلوم السياسية الشهيرة في جامعة كولومبيا . ولكن تلامذته كانوا على درجة كبيرة من الدقة والحرص والتحرى في أبحاثهم الأمر الذى حال بينهم وبين نقل الأسطورة التوتونية والتشيع بها . وعلى هذا فإن هذه النظرية الجرمانية انتشرت أساسا في كتاباته هو فضلا عن محاضرات نيقولا مورى بتلر العامة .

ولعل أحسن تعبير عن القومية الأمريكية المختالة بنفسها اليوم هو الذى أطلقه ديلبور كورتز آبوت عندما أطلق على الأمريكان اسم « البرابرة الجدد » . ثم إن الكتابة التاريخية للقومى ظهرت في أماكن أخرى من العالم الجديد ، فجمعت المصادر الخاصة بتاريخ كندا بطريقة طيبة ووضعت في أرشيف الدومنيون في أوتاوا فضلا عن دور المحفوظات العديدة في إقليم كندا . كذلك تناول المؤرخ فرانسوا جارتو تاريخ كندا بكثير من الإسهاب من وجهة النظر الفرنسية الكندية ، وفعل المؤرخ وليم كنجزفورد نفس الشيء ولكن من وجهة نظر موالية لكندا . ثم ظهر من الكتب ما فاق عمل كل من المؤرخين السابقين ، وتمثل هذه الكتب الدراسات التاريخية التى انتهجت منهجا علميا ، ونتجت عن جهد شارك فيه كل من جورج م . رونغ Wrong ، هيو . هـ . لانجتون Langton ، آدم شورث Short ، أرثر ج . دوهتى . أما خير تاريخ لكندا ظهر في مجلد واحد فهو كتاب (الكنديون) للمؤرخ جورج م . رونغ .

أما مصادر تاريخ أمريكا اللاتينية فقد جمعت من دور الحفظ الأسبانية فضلا عن دول أمريكا اللاتينية . ونخض بالذكر هنا وثائق الأرجنتين التي تم جمعها ونشرها تحت إشراف كلية الفلسفة والآداب في جامعة بيونس أيرس ، ووثائق شيلي التي تم نشرها تحت إشراف جوزي مبدنيا Jose Medina ووثائق المكسيك التي أشرف على نشرها م . أ . ي . بيررا M. O. Y. Berra . وهناك كتب تناولت التاريخ العام لأمريكا اللاتينية ألفها المؤرخون جوان أورتيجا ريبو- Juan Orte-gay Rubio وداجو باروس أراتا Diego Barros Arana وفرانسيسكو جراسيسا كالديرون وكارلوس نافان لاماركا Carlos Navany Lamarco وآخرون . وعن الفترة المليئة بالأحداث المثيرة من أجل تحقيق الاستقلال تبرز أعمال المؤرخ بارتولومي Mitre Bartolome وهناك كتب خاصة بتاريخ دول معينة من بينها كتب عن تاريخ البرازيل بأقلام فرانسيسكو أدلفو فارنيجان وجوامانويل بيريرا داسيلفا وجوزي فرانسيسكو داروشا بومبو ، ومانويل دي اوليفيراليا ، وفيليزيلو فيرمو دي اوليفيرد فرير أما تاريخ الأرجنتين فهناك كتب بأقلام ميتز ، ماريا نوبيلزا ، ومارتن جارسيا ميرو ، فيسنت جامبون ، فيسنت نيدل لوبيز ، ريكاردو ليفين .

وعن تاريخ شيلي هناك الكتب التي ألفها بنيامين فيكونا ماكيننا ، جوسيه توريدميدينا ، وميجويل لويس أما نتجوى ، وديجو باردس آرنا ، ودينجو أما نتجوى دي سولار ، وجونزالو بالنس أما عن تاريخ بيرو فهناك كتب من وضع ماريانو فيليب سولدان ، سيباستين لورنت ، ونيمسيو فارغاس . وهناك كذلك كتب تاريخية عن تاريخ أمريكا الوسطى ألفها لوزنزو مرنوفاري ريفيرا ماستر ، انطونيو باتريس جارجوى ، بيدرو زامورا كاستيلانوس ، جوزي ن . رودرجويز ، ولدينا عن تاريخ المكسيك كتب من تأليف لويز بيريز فيرديا ، ليز جونزاليزا أوبرجون ، نيكيتودي زاماكوا ، انريك سنتبانز santibanez ، اميليو رابسا Rabasa ، جريجيو رو كنتيرو Gregorio Quintero .

التاريخ والقومية

كان لنمو القومية تأثير متعدد الجوانب على الكتابة التاريخية كما أنه جاء نعمة ونقمة ويبدو الجانب الطيب هذا التأثير في تيسير إعداد مجموعات من المصادر التي لم يكن من الممكن توفيرها لولا ذلك الدافع القومي . يضاف إلى ذلك ما صاحب عملية جمع المصادر من تدريب كثير من

المؤرخين على أعمال جمع ونشر المصادر التاريخية . أما الجانب السيء من ذلك التأثير فيتركز حول خلق التحيز الخطير والمتطرف للوطنية . ولم يقتصر أثر ذلك على مجرد عدم إمكان تناول الحقائق التاريخية تناولا موضوعيا هادئا دقيقا ، حتى عند أرقى المؤرخين مستوى وتديبا ، وإنما أسهم بقدر غير ضئيل في إشعال روح التعصب والحماسة الوطنية ، الأمر الذي أدى إلى كارثة سنة ١٩١٤ . ويوضح الاستاذ هـ. مورس ستيفانز Stephense مسئولية المؤرخين عن هذا الشأن فيقول :
الويل لنا نحن المؤرخين المحترفين ودارسي التاريخ ومدرسيه المحترفين . ويل لنا إذا لم نر النتيجة المفزعة للتعصب للقومية وقد كتبت بالدماء وسط مظاهر الحضارة الأوربية المتداعية . وهذه النتيجة هي ما تمخضت عنه كتب التاريخ الوطنى التى كتبها نفر من أكثر المؤرخين بلاغة فى القرن التاسع عشر .

وربما هان الأمر لو اقتصر عمل مؤرخين وطنيين أمثال تريتشك ، وميشليه ، قرود وبانكروفت ، لكن هناك مؤرخون بسطاء من الدرجة الثالثة فاضت كتبهم التى وضعوها لأغراض الدراسة بالحقد والكراهية ، ذلك أن هذا نفر من المؤرخين حاكوا أساتذتهم الكبار دون أن تكون لديهم نفس فضائلهم . وتتضح طبيعة كتاباتهم وتأثيرها على الجيل الماضى مما كتبه شارل التشول Altschul ، والآنسة بيسى ل. بيرس Pierce بالنسبة للولايات المتحدة ، والأستاذ ج.ف. سكوت بالنسبة لفرنسا وألمانيا . أما انجلترا فإنها لم تكن أقل من هذه الدول نشاطا فى ذلك المجال ، إذ ترتب على قيام الحكم المستبد فى كل البلدان الفاشستية والشيوعية ومجىء الحرب العالمية الثانية أن عادت النغمة القديمة والتحيز والتعصب للوطنية إلى انجلترا على نطاق لم يسبق له منيل فى العصور الحديثة .

التاريخ الكنسى

وأخيرا فإنه لا ينبغي ألا تفوتنا الإشارة إلى أن الحماسة لجمع المصادر التاريخية لم تقتصر على مصادر التاريخ العلمانى بل شملت أيضا مصادر التاريخ الكنسى . وبنفس الطريقة التى بدأها دوشزن فى جمع مصادر التاريخ القومى فى القرن السابع عشر بدأت فى نفس الفترة جهود منظمة لجمع مصادر التاريخ الكنسى ومازالت هناك جهود تبذل فى هذا السبيل حتى الوقت الحاضر . وكان أول تجميع كامل لكتابات آباء الكنيسة من عمل جاك مigne Jacques الذى أصدر مجموعة فى ٣٨٢ مجلدا بين سنتى ١٨٤١ ، ١٨٦٤ وتشمل الكثير من مصادر تاريخ الكنيستين الشرقية

والغربية . على أن عمله هذا كان مثل كتاب بانكروفت « تاريخ الدول الباسفيلية » مشروع ناشر أكثر منه مشروع علامة ومع ذلك ظلت له قيمته العظيمة لدارس التاريخ الكنسى . ولكن نجم عن فشل ميغن في استخدام أفضل المصادر والنصوص إلى وجود محاولة أفضل لتجميع الكتابات الدينية . من ذلك أن أكاديمية فينا أخذت منذ سنة ١٨٦٦ في نشر مجموعات جديدة لكتابات آباء الكنيسة الغربية . وفي سنة ١٨٩٧ أخذت أكاديمية برلين في نشر طبعة من كتابات آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . أما عملية جمع المادة الخاصة بحياة القديسين وأعمالهم فقد بدأت في منتصف القرن السابع عشر على يد بولاند ومازالت مستمرة حتى الآن . كذلك ظهر في النصف الثاني من القرن السابع عشر كتاب جمع فيه مؤلفاه (لاب ، وكوسارت) قرارات المجامع الكنسية ، وقام اتين بالوز بإتمامه في سنة ١٧٨٣ . وفي سنة ١٦٨٥ بدأ حنا هاردوين Hardouin في جمع مجموعة أخرى . وفي منتصف القرن الثامن عشر أنتج جيان مانسى Mansi Gian ما يعتبر أكمل ما جمع عن مجامع الكنيسة وكان عنوانه « المجموعة الجديدة لقرارات المجامع المقدسة » . وقد صدر في واحد وثلاثين جزءا . كذلك صدرت طبعة جديدة منه في ستة وخمسين جزءا في باريس سنة ١٩٢٤ . وفي نفس الوقت الذي كان مانسى يجمع مادته عن المجامع الكنسية ، أصدر ميناردى كتابه عن المراسيم البابوية . وفي النصف الثاني من القرن ١٩ أخرج فيليب جافيه أوغسط بوناست كتابا علميا يحوى عددا كبيرا من الوثائق البابوية حتى سنة ١٣٠٤ وقد أكمل بولس كيهـر Paul Kehr حديثا مجموعة مشابهة لنفس هذه المادة .

وخلاصة القول إن جمع مصادر تاريخ الكنيسة تم على وجه لا يقل كمالا عن جمع مصادر التاريخ العلماني في أوروبا . وكانت الرغبة في تمجيد الكنيسة دافعا لدى المؤرخين الدينيين مثلما كانت الرغبة في تمجيد القومية دافعا لدى المؤرخين العلمانيين . فالكاردينال هيرجنروثر ١٨٠٠ قفلة نعنائف كتب عن الكنيسة الكاثوليكية بنفس الشعور الذي كتب به تريتشك عن بروسيا والأمة الألمانية بوصفه أحد أبنائها . وكان أن جمعت دائرة المعارف الكاثوليكية ، الآراء الرسمية للكنيسة الكاثوليكية فيما يختص بالمسائل التاريخية . أما البروتستانت فكانت لهم كتابات مماثلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى كتاباتهم من قبل . وثمة كاتب من كتابهم هو ميرل دوبيـه D'Aubigne لم تكن حماسه فيما كتب أقل من أى كاتب كاثوليكي ذكرناه آنفا . لقد أبدى العلامة دافيد شافـف Schaff تحيزا واضحا إلى جانب البروتستانت . هذا إلى أن وجهة النظر البروتستانتية تمثلت في دائرة معارف شان — هيرزوج .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING

SELECTED REFERENCES

- C. J. H. Hayes, *The Historical Evolution of Modern Nationalism*. Long and Smith, 1931.
- Fueter, *Histoire de L'historiographie moderne*, pp. 608, 629 - 87.
- Gooch, *History and Historians in the Nineteenth Century*, chaps. V, viii, Xi - Xv, Xvii - Xviii, XXI - XXii.
- Michael Kraus, *A History of American History*. Farrar and Rinehart, 1938.
- the Writing of American History*, chaps. iv - vi, X. University of Oklahoma press, 1953.
- H. H. Bellot, *American History and Historians*. University of Oklahoma Press, 1952.
- Harvey Wish, *The American Historian*. Oxford University Press, 1960.
- David Levin, *History as Romantic Art*. Stanford University press, 1959.
- R. R. Ergang, *Herder and the Foundations of German Nationalism*. Columbia- bia University Press, 1931.
- Milton Berman, *John Fiske: The Evuolution of a popularizer*. Harvard Univer sity Press, 1961.
- p. M. Hammer, ed., *A Guide to Archives and Manuscripts in the United States*. Yale Univefsity press, 1961.
- D. H. Thomas and L. M. Case, *Guide to the Archiues of Western Europe*. University of Pennsylvania press, 1959.
- Thomas pressly, *Americans Interpret Their Cuirl War*. Princeton University Press, 1954.
- D. R. Van Tassel, *Recording American's Past, 1607 - 1884*. University of chicago press, 1960.
- peardon, *The Transition in English Historical Writing*.

- Wegele, *Geschichte der deutschen Historiographie*, Books IV - V.
- Antoine Guillaud, *Modern Germany and Her Historians*. London, 1915.
- Gustav Wolf, Dietrich Schafer and Hans Delbruck, *Nationale Ziele der deutschen Geschichtsschreibung seit der französischen Revolution*. Gotha, 1918.
- Louis Halphen, *L'Histoire en France depuis cent ans*. Paris, 1914.
- Benedetto Croce, *Storia della storiografia italiana nel secolo decimo nono*. Bari, 1921. 2 vols.
- P. J. Blok, *Geschichtsschreibung in Holland*. Leiden, 1924.
- J. F. Jameson, *Historical Writing in America*. Houghton, Mifflin, 1891.
- J. S. Bassett, *The Middle Group of American Historians*. Macmillan, 1917.
- Thompson, *History of Historical Writing*, Vol. II, chaps. XLIII - XLV, XLVIII.
- T. Hutchinson ed., *The Marcus W. Jernegan Essays in American Historiography*. University of Chicago Press, 1937.
- John Fiske, *American Political Ideals*. Harper, 1885.
- Wilgus, *Histories and Historians of Hispanic - America*.
- B. L. Pierce, *Civic Attitudes in American School Textbooks*. University of Chicago Press, 1930.
- J. F. Scott, *Patriots in the Making*. Appleton, 1916.
- The Menace of Nationalism in Education*. Macmillan, 1926.
- Bell and Morgan, *The Great Historians*.

الفصل الخامس

نشأة المدرسة التاريخية الناقدة

أوضح الأستاذ جورج ييبودي جونغ في بحثه الذى اتسم بعمق الدراسة وسعة الاطلاع والخاص بتطور الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر أنه كانت هناك أربعة عوائق اعترضت تقدم علم التاريخ هي :

١ - فكرة أن التاريخ بأتى وليد الأحداث والكوارث Catastrophic theory of historical causation والنظرة إلى العصور الوسطى باحتقار وازدراء شديدين وهى النظرة التى حمل لواءها رجال المدرسة العقلانية .

٢ - عدم وجود تجميع جاهز للمصادر الأصلية وعدم وجود تنظيم لمادة دور الحفظ .

٣ - عدم اتباع المناهج الناقدة عند تداول المادة التاريخية .

٤ - عدم توافر التعليم المنتظم والكفاء سواء بالنسبة لموضوعات التاريخ أو مناهجه .

وقد سبق لنا أن أوضحنا كيف صحح رجال المدرسة الرومانسية بعض مثالب المدرسة العقلية وذلك حين اصرروا على أن التطور التاريخي خاضع لسنة التطور والاستمرار وحين نظروا إلى العصور الوسطى بوصفها من أخصب عصور البحث التاريخي . كذلك سبق لنا أن أوضحنا كيف أدى الاعتزاز بالقومية اعتزازاً فياضاً إلى حصيلة دسمة من مادة المصادر التاريخية وذلك فى جميع الأمم الحديثة الكبرى . وبقي الآن أن تتبع نشأة المدرسة الناقدة فى مجال التاريخ وأن نوضح كيف انتشرت المناهج العلمية وظلت على الدوام مما يتبغى أن يتحلى به رجل التاريخ المحترف وأستاذه .

وقد أوضحنا في فصول سابقة كيف بدأت المناهج الناقدة بداية مشرقة وهو الأمر الذي جاء عرضاً خلال نشاط المدرسة الإنسانية . وكان مثال ذلك ما تضمنته أعمال بلونديس ، بينوس رينانوس ، فاديانوس ، زوريتا . ثم كان أن تعرفت حركة هذه المناهج الناقدة وضائق النطاق من حولها خلال الجدل الديني الضعيف الذي صاحب حركة الإصلاح الديني والحركات المضادة لها . ومع ذلك فإنه مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ نطاق المنازعات الدينية يضيق وأصبح من الممكن مرة ثانية إلى حد ما أن يعود الاتجاه إلى اتباع الموضوعية في الكتابة التاريخية وأن يبدأ من جديد البحث المتزن النزيه عن الحقيقة التاريخية .

لقد مر المنهج العلمي للتاريخ عبر مرحلتين طبيعيتين وعاديتين : الأولى نشأة العلوم المساعدة مثل العلوم السياسية ، علم تقويم التاريخ ، علم المخطوطات ، علم النقوش ، علم المعاجم ، وكلها علوم من شأنها أن تساعد المؤرخ على الوقوف على مدى ما في الوثائق من أصالة . وأما المرحلة الثانية فهي تفضي أبعد من مجرد الوقوف عند أصالة الوثيقة لتبحث حول صاحبها ومدى الاعتماد عليه كشاهد لحدث أو حقيقة تاريخية .

وظلت الكتابات التاريخية السابقة موضع تقدير كبير ، حتى خلال الأيام الأولى لنشأة هذه المدرسة الناقدة من ذلك مثلا إن كتابات دي بولي De Pouilly ودنكر تحوى نقدا لا يخلو من الإطراء على الكتابة التاريخية عن أحداث الشرق القديم . واهتم جروت Grote وآخرون غيره بدراسة عمل كبار المؤرخين الإغريق . وتناول دي بولي ، وبيريزنيوس ، بوفر Beaufort ، نيبهر Neibuhr دراسة مؤرخي روما أما الرهبان من أتباع القديس سانت مور ورجال الدين الجزويت البلجيكيين المعروفين باسم البولنديين وموشيم وتليمونت ، فقد تناولوا جميعا مؤرخي الكنيسة . ومن جولداست إلى ويتز ، ومن فوريل إلى فوستيل ومن شارون تيرنر إلى ستبس نجد اهتماما بنقد أعمال مؤرخي العصور الوسطى . أما فون رانكه فقد ذاع صيته واشتهر نتيجة لتحليله الرفيع لمؤرخي المدرسة الإنسانية خاصة فيلاني ، وميكافلي ، وجويكارديني . وأما فوريل Fauriel ، موراتوري وليينتز ومحررو الموسوعات الكبرى فقد تناولوا دراسة مصادر التاريخ القومي . وهكذا نجد نشاط علماء المدرسة الجديدة وقد امتد إلى كل مجال .

أما أول الخطوات الهامة التي خطاها علم التاريخ ليصبح علماً بالمعنى الحديث فجاءت أساسا في عمل تلك الفئة من الرهبان البندكتيين المعروفين باسم رجال القديس سانت مور وهم الذين

نشطوا في الدور الأول من مراحل النقد التاريخي في تجميع مصادر التاريخ الفرنسي . ولم يكن قيام هؤلاء الرهبان بذلك العمل لأنهم منظمة عسكرية وهبت نفسها للدفاع عن الكاثوليكية وإنما جاء سبقهم في المدرسة الناقدة لأنهم امتازوا بما امتاز به العلماء العلمانيون من عدم الالتزام بتمجيد مدينة معينة أو إقليم أو أسرة أو بيت بذاته . وفي مكتبة ديرهم الهاديء رسموا المخطوط العربية لما ينبغي أن يكون عليه المؤرخ الحديث وبدءوا التطبيق .

وكان رائد هؤلاء العلماء المؤرخين المنتمين لهذا الدير هو حنا مايبيلون (١٦٣٢-١٧٠٧) الذي وضع مع لوك داشري Luc d'Achery أسس علم الوثائق السياسية أو الطريقة الناقدة للتحقق من صحة الوثائق . ومن سنة ١٦٧٢ أعلن المؤرخ اليسوعي دانييل فون بابيروش Daniel Von Papebroch أن معظم الوثائق التي اعتمد عليها رجال القديس مور لا قيمة لها . وكانت نتيجة ذلك أن وهب مايبيلون جهده في السنوات التالية للرد على هذا الاتهام . وفي سنة ١٦٨١ تمكن مايبيلون من تفنيد حجج خصمه بفضل ما حواه بحثه الذي سماه « الوثائق التاريخية » وظل هذا البحث هو الحجة في موضوعه حتى حلت محله حديثا تلك الأبحاث التي كتبها سيكل (Sickel) وفبكر Ficker ، جيرى (Giry) .

أما أسس علمي المخطوطات والآثار فقد وضعها الأب برنارد مونتفاكون Don Bernard Montfaucon (١٦٥٥-١٧٤١) وذلك في كتابه « علم النسخ عند اليونانيين » وكتابته « الآثار كما توضحها وتشرحها الأرقام » . وعلى الرغم من أن شارل دي فرزن دي كانج Charles du Fresne du Cange كان رجلا علمانيا فإنه وضع أسس علم المعاجم التاريخية وذلك في معجمه الذي أصدره سنة ١٦٧٨ . كما كان للرهبان البندكتيين دورهم في هذه الناحية فقام الأب كاربنتيير Carpentier سنة ١٦٧٨ في مراجعة وإطالة عمل (دي كانج) . وأخيرا فإنه بفضل العمل المشترك الذي بدأه دانتين Dantine ، ديران Durand وأتمه سنة ١٧٩٠ دوم كلمنت وظهر بعنوان « فن التحقق من تواريخ الأحداث » غدت عملية التقويم التاريخي تقوم على أساس علمي سليم يختلف عما كانت عليه طريقة أورزيوس وجيرون . أما كلمنت فقد مضى أبعد من سكاليجر في تحليله المنتظم لعملية تأريخ الأحداث تاريخيا منظما . ولم يقصر الرهبان البندكتيون جهدهم على تطوير مناهج البحث للبلوغ بها إلى مرحلة الكمال ولكنهم التزموا بهذه المناهج فيما أخرجوه من كتب عديدة وخاصة تلك المجموعات الخاصة بالتاريخ الكنسي والتاريخ القومي التي أشرنا إليها في مكان آخر من هذا الكتاب .

وليس من المبالغة في شيء أن نذكر لرهبان سانت مور من فضل على تقدم المنهج العلمي في كتابة التاريخ إذ لم تكن هناك قبلهم أية محاولة للإشارة إلى مراجع البحث وإذا وجدت إشارة فإنها كانت من النوع العقيم الذي يربك القارئ ولا يفيد . ولم يكن من اليسير على القارئ الرجوع إلى المادة الأصلية للتحقق منها ، كذلك لم تحدث محاولات لتحسين الأسلوب عن طريق ادخال تعديل أو تغيير على مادة الوثيقة . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى ليبنتز . ولكنه على عهد رهبان سانت مور صارت الوثائق تفحص للتعرف على مدى صحة مادتها وتم تناول المادة بدقة بالغة كما صار من المتبع إحالة القارئ إلى المراجع المختلفة التي استخدموها بدقة متناهية .

وعلى الرغم من ذلك وحتى لا تكون مبالغين فيما قلناه عن جهد هؤلاء الباحثين من رجال سانت مور ، فإنه يمكن القول إنهم أقرب إلى تيمائوس منهم إلى فون رانكه أوجارنر . لقد اقتصر معظم جهدهم في النقد على النقد الخارجي أي فحص مدى صحة الوثيقة وأصالتها وعدم تزويرها . ولكنهم كانوا دون مدرسة فولتير في فحص مدى صدق المراجع المعاصرة ، وكانوا يعتبرون المادة التي يحتويها أي مصدر أصلي وكأنها حقيقة مسلم بها غير قابلة للطعن هذا إلى أنه لم يكن لديهم شيء من نظرة الرومانسيين تجاه التطور الثقافي فكانوا أقرب إلى علماء التاريخ القدامى منهم إلى المؤرخين الملتزمين بالمنهج العلمي في العصر الحديث . ثم إن هؤلاء الباحثين لم يتشككوا في مادة التاريخ الكنسي وإذا كان يحدد عملهم روح الورع التي تدفعهم إلى البحث عن الحقائق التي تخدم قضايا الكنيسة . وهكذا فإنهم خدموا بمسلكهم معاصريهم من المتعقلين ومن جاءوا بعدهم لأنهم أمدوهم بالمزيد من المادة والمعرفة التي مكنت أولئك المتعقلين وغيرهم من مواجهة رجال الدين واقتلاع نفوذهم .

وخير من يمثل المنهج البندكتي هو أحد أتباع المذهب البينيني واسمه لويس سيسنيان دي تيلمونت (١٦٣٧-١٦٩٨) وقد أنتج كتابين مرموقين عن الكنيسة والامبراطورية الرومانية حتى سنة ٥١٥ م . ذلك أنه توخى الموضوعية في عمله إلى حد كبير ، وجمع بصورة منمقة ما اختاره من مصادر راعى أن يكون فيها تنسيق وبعد عن التضارب حتى جاءت أعماله واحدة من أحدث الجهود في الدراسة الناقدة للمصادر الرئيسية بكل فترة . وكان هذا العمل الذي قام به تيلمونت تدعياً كبيراً للمسيحية ، كما كانت أبحاثه إحدى المصادر الرئيسية التي استخدمها المؤرخ الشهير جيبون المعروف بدقته وتشككه .

ومن أوائل الكتب الألمانية التي تعتبر مثلاً للمناهج الناقدة الجديدة ، كتاب عن تاريخ القانون الألماني كتبه الطبيب والعلامة الألماني المبدع هرمان كونرينج Conring (١٦٠٦-١٦٨١) وأسماء (بحث تاريخي عن أصول القانون الروماني) ويرى كثيرون أن هذا الكتاب هو البداية الحقيقية للدراسة العلمية لأصول التشريع الألماني . وهناك كتاب آخر كتبه الفيلسوف الألماني جوتفريد ويلهلم لينتز (١٦٤٦-١٧١٦) أسماه (حوليات برونزويك عن الإمبراطورية الغربية) وتناول فيها تاريخ الجلفين . وقد نشر لينتز مقالا سنة ١٦٧٩ أي قبل أن ينشر ماييلون آراءه الناقدة بعامين - ضمنه نفس الأسس التي سبق أن وضعها رهبان سانت مور . ولقيت آراء لينتز استجابة على نطاق واسع لأول مرة في الكتاب الذي أصدره يوحنا يعقوب ماسكوف Mascov (١٦٨٩-١٧٦١) واسمه « تاريخ الجرمان في العصر الميسروفنجي » ذلك أن يوحنا استخدم مراجعه استخداما ناقدا ورفض الأخذ بالأساطير الدارجة ، ثم اختتم بحثه التاريخي بدراسة ناقدة عن إمبراطورية العصور الوسطى . ويعتبر كتابه خير تاريخ عن الجرمان الأوائل ظهر قبل بحث شميدت .

ثم كان أن تمت خطوة أبعد من ذلك في مجال النقد الجوهري لمادة الوثيقة نفسها ، وهو الأمر الذي تم على يد الإيطالي النعوب لودفيكو موراتوري الذي قطع شوطا كبيرا في مجال بلوغ النهج العلمي حتى فاق أستاذه ماييلون ، ذلك أنه انتقد مبدأ وجود الخوارق شأنه شأن بلونديوس ، ولكنه مضى أبعد مما وصل إليه الرهبان البندكتيون وهم الذين نظروا إلى المصادر المعاصرة للمحدث وكأنها حقيقة منزهة عن الخطأ أما راين تومراس Thoyras فقد جمع بين مناهج ماييلون ، مورتوراي فاتصف بنظرة رومانسية بسيطة بالنسبة للتطور التاريخي ، وظل كتابه (تاريخ إنجلترا) المصدر الرئيسي في القارة الأوروبية بأسرها عن تاريخ إنجلترا في القرن السابع عشر . ثم إنه شارك مونتسكييه رأيه الخاص بأن الحريات الإنجليزية إنما نبعت من الغابات والأحراش الجرمانية . وأخيرا صدر أول كتاب متكامل يتصف بهزارة المادة عن التاريخ العالمي ، هو ذلك الإنتاج المشترك المسمى « التاريخ العالمي » الذي أنتجه بعض العلماء الانجليز وهم كامبل ، سال Sale ، سوينتون ، بور ، بزالماتزر Psalmanazer .

وعلى الرغم من أن هذا العمل جاء مصطبغا بالصيغة الدينية ، فإنه جدير بما وصفه به فيوتر - وهو حجة في النقد - إذ قال عنه « إنه كتاب جدير بأن يحمل لقب أول كتاب عن تاريخ العالم » .

وإذا كان ماريانوس ، موارتورى ، تويراس قد أبدوا على الأقل نظرة أولية فاحصة في مدى صحة المصادر المعاصرة ، فإن الآباء اليسوعيين هم الذين بدءوا نقد الوثائق سواء في جوهرها أو في مادتها ، ذلك أنهم اضطروا إزاء هجوم البروتستانت عليهم إلى فحص مصادر التاريخ الكنسى لمعرفة ما إذا كانت الأساطير والأشياء المأثورة عن القدماء تستطيع أن تتصدى للاختبار العلمى الدقيق . وكان هدفهم من ذلك هو الحد من حدة النقد الهدام الذى تعرضت له الكنيسة والذى حمل لواءه المؤرخون البروتستانت فسخروا له كثيراً من تلك الأساطير الخاصة بماضى الكاثوليك وهى أساطير ليس من السهل تقبلها أو تصديقها . وخير نموذج لجهد اليسوعيين فى ذلك السبيل هو كتاب « العمل المقدس » والذى بدأه اليسوعيون البلجيكي تحت إشراف بولاند Bolland سنة ١٦٤٣ . وفيه رتب المصادر المتعلقة بحياة القديسين طبقاً لتاريخ كل مصدر ومدى صحته . ثم استطاع بطرس بول Pierre Baule (١٦٤٣-١٧٠٦) أن يضى بالحركة الناقدة فى صورة أسلم وأشمل ظهرت فى كتابه « المعجم التاريخى الناقد » فضلاً عما كتبه من نقد لتاريخ مامبورج عن مذهب كالفن . والواقع أن بول كان يجد لذة خاصة فى توضيح التناقض العميق بين وجهات نظر وآراء المصادر المعاصرة فضلاً عن أنه لم يتردد فى أن يطبق منهجه هذا عند تناوله للتاريخ الكنسى . وهكذا حطم بول فكرة أن هناك ما يمكن تسميته بالتاريخ المقدس . أما الإنجليزى الربوبى كورنر ميدلتون Conyers Middleton (١٦٨٣-١٧٥٠) فكان من اكبر من أسهموا فى التناول على ما جاء به رجال القديس مور من مثاليات . ذلك أنه أكد فى كتبه « مقدمة بحث » « استفتاء حر » عدم الاعتماد على مارواه آباء الكنيسة الأوائل عن نشأة المسيحية . وأكد أن ذلك العصر المسيحى الأول كان عصر اختلاق الأكاذيب والتلفيق .

أما الكتابات التاريخية القديمة فقد لقيت على عهد الحركة الإنسانية ما لقيه التاريخ الدينى ، إذ سبق أن رأينا كيف كان فالاً يدقق ويبحث عن مدى صحة ما جاء به ليفى . على أن أول باحث ناقد عن الآثار الرومانية كان كارل سونيو Carlo Sigonio الشهير بسونيوس Signoius (١٥٨٤-١٥٢٤) إذ أنه فى حقيقة الأمر يحظى بنفس مكانة سكاليجر ، كاسوبون . ذلك أنه تناول كل جوانب تاريخ الرومان وقوانينهم وآثارهم ودرسها دراسة قائمة على التشكك فيما سبق ذكره عن هذه النواحي ، بحيث أنه تعمق أكثر من بلوندوس . أما الهولندى يعقوب فوربرك Vourbrock المعروف بـريزنيوس Perizonius (١٦٥١-١٧١٥) مؤلف كتاب (قواعد اللغة اللاتينية) وكتاب (الروايات التاريخية) فقد قام بدراسة ناقدة لمصادر التاريخ الرومانى المبكر

وتجدي القطع بصحتها وصدقها . وثمة مؤرخ من أصحاب النظرة المثالية كان أكثر قسوة في نقده فهو المؤرخ لويس ليفسك دي بولى (١٦٩٧-١٧٥٠) الذى تناول المؤرخين في العصر الرومانى المبكر بالنقد اللاذع ، فكان أكثر تجريحا لهم من كل من يوفرت وينبور فيها بعد . ذلك أنه نادى بعدم إمكان الاعتماد على ما سبقت صياغته عن تاريخ روما في دوره الأول ، كما هاجم صحة المصادر التقليدية عن التاريخ الأشرى . ولم تلبث أن تعرضت دراسة التاريخ الرومانى في دوره الأول لنقد أكبر من الفحص الدقيق على يد لويس يوفورت (ت ١٧٩٥) وذلك في كتابه (أبحاث عن التشكك في صحة التاريخ الرومانى في القرون الأولى) . ذلك أنه أثبت في أسهاب مدى التناقض بين المصادر الكبرى الخاصة بالعصر الرومانى الأول وخلص إلى أن ذلك يوضح أن تاريخ روما قبل القرن الثالث قبل الميلاد يعتمد على الأساطير . من هذا يبدو أن عمل (يوفرت) يعتبر مناقضا لحركة الإنسانية في منهجها وأسلوبها . ولقد تناول ينبور تاريخ روما من حيث توقف به يوفرت .

أما المؤرخون الفرنسيون — من اتباع المدرسة الناقدة الجديدة . فقد التزموا بمنهجهم عند دراسة تاريخ بلادهم . ففي كتاب « تاريخ فرنسا » الذى أصدره سنة ١٧١٣ شارك جبريل دانييل Daniel مع المؤرخ ماسكوف في نقده اللاذع للأساطير والخرافات التاريخية الخاصة بالعصر الميروفنجى . أما أبرز عضو في المدرسة الناقدة في أيامها الأولى بل أقدر رجال هذه المدرسة قبل ينبور فهو حنابايتست ديبو Jean Baptiste Dubos (١٦٧٢-١٧٤٠) صاحب كتاب « نقد لتاريخ قيام الملكية الفرنسية في غاليا » وهو الكتاب الذى يعبر عن أول محاولة للانجاء بالأساليب الناقدة الجديدة إلى دراسة النظم . ذلك أنه فحص المصادر الوثائقية للتاريخ المباشر لفرنسا في دوره الأول دراسة موضوعية ، مثل دراسة فون رانكه ، وسبق فوريل وفوستيل دي كولانج في القول بأن الميروفنجيين تبناوا الثقافة الرومانسية في غاليا ولم يحلوا محلها . كذلك سبق أصحاب المذهب الرومانسى حين أشار إلى أن هناك تطورا تدريجيا وأصيلا للحضارة . وجاءت نظرتهم هذه أرقى بكثير من نظرة معاصريه من العقلانيين القائلين بأن تطور التاريخ رهن بما يحدث من كوارث ونكبات .

أما جوستس موزر Justus Moser (١٧٢٥-١٨٠٧) فيعتبره كثيرون أول مؤرخ للتاريخ الدستورى ، بسبب ما كشف النقاب عنه بالنسبة للأنظمة السياسية وتوضيحه أن تطورها مرتبط بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية السائدة في الدولة على أن يوحنا ستيفن بوتر Putter (١٧٢٥-١٨٠٧) كان أكثر كفاءة وهو خير من أخرج دراسة تاريخية متكاملة عن القانون الألمانى

النظام والنظم الإمبراطورية في تحليل اتسم بالدقة والمهارة الفائقة في تحديد تطور هذا القانون وتلك النظم . أما بارثولد جورج بنيبور (١٧٧٦-١٨٣١) وهو تلميذ موزر فيعتبر أب الكتابة التاريخية الحديثة .

وإذا ما أردنا أن نخلص بشيء مما سبق لنا ذكره ، فإننا نستطيع القول بأنه ما من شخصية ما أو مدرسة من المدارس استطاعت أن تسبق ينبور في خلق علم التاريخ الحديث . كان ينبور هذا مواظدا دافعا استعداء هامبولدت إلى جامعة برلين سنة ١٨١٠ حيث تكشفت مواهبه فصار خير من تجمعت عنده القدرة ليكون بوتقة جامعة لكل السابقين من أصحاب المذاهب الناقدة والتقدمية . ذلك أنه شابه في عمله أعمال برونزيوس ، دي بولي ، بوفر في نقده ، شككه في صحة مصادر التاريخ الروماني المبكر ، ومن ناحية أخرى فإنه تأثر بالروح الرومانسية لسافيني في دراسته لتطور الأنظمة التشريعية والسياسية ، كما سار على نهج موزر في تحليله المتعمق لتطور هذه الأنظمة . وأخيرا فإنه طبق على مصادر التاريخ الروماني المبكر المناهج الناقدة التي سرق لولف تطبيقها في دراسته لمعرفة أصول أشعار هومر . هكذا جاء كتاب ينبور « التاريخ الروماني » ال كتاب يجمع بين أحسن المناهج الناقدة وبين الأسس البناءة في دراسة تاريخ النظم ، الأمر الذي جعل من نيبور الملهم الأول لخلفائه العظام وخاصة فون رانكه وتيودور مومسن .

وقبل أن نتناول الثورة التي أدخلها فون رانكه على كتابة التاريخ علينا أن نتوقف قليلا لتشير إلى عمليتين كبيرتين قدمتهما المدرسة الناقدة لعلم التاريخ ومنهجه . أما العمل الأول فهو ما قام به العالم الألماني يوحنا مارتين خالدينى من أتباع بودان صاحب كتاب (طريقة لفهم التاريخ في سهولة) وعلى غلط هذا الكتاب جاء كتاب خالدينى Chaldini (التاريخ العام) الذي صدر سنة ١٧٥٢ وقد تناول فيه بعض المسائل بطريق ذكية ناقدة مثل خصائص الحجج التاريخية والمادة التاريخية ، دور الشخصيات ، الفروض والسياسة في التاريخ ، والتأويلات التاريخية . وأما العمل الثاني الذي له نفس الأهمية فينسب إلى يعقوب دانييل وجلين Weglin (١٧٢١-١٧٩١) صاحب كتاب (تخطيط عقلاني للتاريخ العالمي) Rational Plan for Universal history وفي هذا الكتاب فحص يعقوب وجلين المشاكل الخاصة بالتأريخ مثل نقده للمراجع تبويب حقائق المادة وتنظيمها ، ومشاكل الجمع بين أحداث التاريخ العالمي وطبيعة التطور الاجتماعي والثقافي . ثم طبق وجلين أخيرا هذه النظريات على عمله الكبير الذي أسماه « تاريخ أوروبا العالمي » .

ليوبولد فون رانكه والمدرسة الألمانية

بدأ اهتمام فون رانكه (١٧٩٥ - ١٨٨٦) بالتاريخ عند دراسته للأدب الكلاسيكي وآراء المدرسة الرومانسية فضلا عن قراءاته لأعمال نيبهر . ثم بدأ نشاطه العلمي كمؤرخ عندما كشف عن التناقض الكبير بين ما رددته المصادر المعاصرة في القرن الخامس عشر عن تاريخ إيطاليا في ذلك القرن . وكان أن نشر سنة ١٨٢٩ كتابه «تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية ١٤٩٤ - ١٥٣٥» وأبرز جزء في هذا الكتاب هو الملحق الذي عنوانه باسم (نقد كتاب التاريخ في العصر الحديث) وفيه تناول تحليل المصادر الخاصة بالفترة التي كتب عنها ونقدها نقدا جوهريا باطنيا خلاف النقد الظاهري الذي قام به مايبلون في بحثه عن الوثائق التاريخية . وبعبارة أخرى فان فون رانكه أدى خدمة كبرى لمنهج البحث التاريخي وذلك بإصراره على أن المؤرخ لا ينبغي عليه أن يقف عند حد استخدام المصادر المعاصرة للفترة التي يبعثها بل عليه أن يجري دراسة لشخصية (ميول) ونشاط وظروف صاحب هذا المصدر . ومعنى هذا أنه على المؤرخ أن يتعرف بقدر الامكان على «الجانب الشخصي» عند سرده للأحداث . هذا إلى أن فن الكتابة التاريخية عند فون رانكه يتصف بخاصتين أساسيتين الأولى هي نظريته المستقاة من الرومانسية والتي تنادي بأن لكل أمة أو عصر مجموعة من الأفكار التي تسودها والتي سماها رانكه روح العصر . والثانية هي العقيدة القائلة بأن المؤرخ ينبغي عليه أن ينظر إلى الماضي خلوا من فكر الحاضر بمعنى أنه لا يصح أن ننظر إلى الماضي بمنظار الحاضر ، وإنما على المؤرخ أن يقص أحداث الماضي كما حدثت بالفعل .

أما الأخطاء التي وقع فيها رانكه فقد حددتها الكتاب الذين جاءوا من بعده في أربعة أمور :

- ١ - فشله في مناقشة المصادر الخاصة بالموضوع الذي يكتب عنه مناقشة دقيقة .
- ٢ - اهتمامه الرئيسي بالأحداث السياسية والشخصيات الكبرى وإهماله الجوانب الهامة الأخرى الاقتصادية والاجتماعية . بل إنه أهمل جانبا هاما في الناحية السياسية وهي الأنظمة .

٣ - - تأييده لنظرية أن الله هو صانع التاريخ وأن القوة الإلهية هي التي توجهه .

٤ - - ولاؤه الذي لا حد للوثر ولأسرة الهوهنزولرن في بروسيا وإذا كان فون رانكه قد جال عبر التاريخ الأوربي بل التاريخ العلمى وترك أثرا مشرقا في كل جانب من جوانبه ، فإن ما قام به بالنسبة للمنهج التاريخى وتدرىس التاريخ ترك أثرا خطيرا في التطور الحديث لعلم كتابة التاريخ . أما بالنسبة للمنهج التاريخى فإن أهمية الدور الذى نهض به رانكه تكمن فى وضع أسس النقد الخاص بمادة الوثيقة وإصراره على خروج المعالجة الموضوعية الكاملة للماضى . أما الأثر الذى تركه على تدرىس علم التاريخ فربما فاق الأثر السابق ، لأن فون رانكه أسس ما يعرف بالسمنار - أى حلقات البحث والدرس - مستهدفاً أن يبلغ فن التدرىس لمادة التاريخ مرحلة علمية سياسية وقد بدأت حلقات البحث هذه (السمنار) على يد رانكه سنة ١٨٢٣ ولم يجعلها وقفا على المؤرخين الألمان البارزين فحسب ، بل رحب فيها بالدارسين الذين جاءوا من كل أنحاء العالم للدراسة فى تلك الحلقات التى أشرف عليها رانكه طوال نصف قرن .

وعندما تقدم العصر بفون رانكه بحيث لا يقوى على الإشراف على حلقات البحث هذه بنفس النشاط خلفه تلميذه الأول جورج وايتز ليكمل رسالة استاذة فى جامعة جوتنجن . وهكذا تم وضع أسس المدرسة التاريخية العلمية الحديثة على يد فون رانكه . ومنذ أيامه سار علم التاريخ قدما فى تطبيق المناهج الناقدة وتطويرها بعد أن شاع تدارها على يد مجموعة متزايدة من علماء التاريخ . ويرجع سر اتساع مجال البحث التاريخى على أسس علمية إلى الأخذ المباشر بمناهج فون رانكه ، نتيجة لأن تلاميذه حاكوه بطريقة مباشرة من ناحية ، ولتطور البحث فى فترة البلاد مما هيا السبيل أمام علماء التاريخ أن يتبعوا مناهج فون رانكه من ناحية أخرى .

ففى ألمانيا كان تطور المدرسة الناقدة الخاصة بعلم كتابة التاريخ من عمل فون رانكه بصفة أساسية . وظهر من بين تلاميذه كوبك Kopke ، وجافيه Jaffi ، دوتيز ، وفون جشبرخت Von Giesebrecht ، وفون سييل ، وعلى يديهم وفى كتاباتهم ومحاضراتهم شاعت وانتشرت مناهج أستاذهم فون رانكه . ونخص بالذكر ويتز بالذات لأنه يمكن القول أنه فاق أستاذة فون رانكه فى إتقانه ودقة بحثه . أما تيودور مومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣) فإنه أعطى للمدرسة الناقدة قوة دفع جديدة مستقلة عن الدفعة التى قدمها فون رانكه . وكانت نتيجة جهده أن قلبت دراسة التاريخ الرومانى رأسا على عقب .

ومهما يكن من أمر ، فإن الرواد من تلاميذ فون رانكه كانوا ، رتزم فون سبيل ، فون جيتسبرخت . ومنذ عهدهم صار المؤرخون الألمان يتبعون مناهج فون رانكه ويلتزمون بها^(١) . أما هنريك جرد Henrich Gerdes وكارل هامب Karl Hampe فقد عالجا تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى كما عالج برنارد كوجلر Bernhard Kugler تاريخ الحروب الصليبية في دقة بالغة كذلك كتب مولر بحثا يعتبر من أعظم ما كتب عن التاريخ السياسي للعالم الإسلامي وعالجه روبرت دافدسون ومعه كل من فردريك فون بيزولد جورج فون بيلو Von Below عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني . كما تناول نفس هذه الفترات كارل براندى ، وأوتوشيل Scheel ، وبيلي اندرياس ، جورج فنتز ، أدولف هوسرات Hausrath . ويعتبر هوسرات هذا خير من كتب عن سيرة مارتن لوثر وحياته . أما كتاب مورتزريتر Ritter عن الحركة المضادة للإصلاح الديني وحرب الثلاثين سنة فيعتبر عملاً نموذجياً عن تلك الأحداث . وثمة عمل رائع يشبه سابقه هو ما قام به برنارد اروماند سدورفر Bernhard Erdmannsdorffer وتناول فيه الفترة ما بين ١٦٤٨ - ١٧٤٠ م .

أما الأعمال التي قام بها كل من هانز بروتر ، رينولد كوسر Reinhold Koser ، أوتو هينتز عن تاريخ بروسيا ، فانها تبين مدى التقدم الذي طرأ على البحث التاريخي والأهمية التي صارت للأسلوب العلمي منذ درويسن . وعن حياة فردريك الأكبر أخرج كوسر أحسن التراجم لهذه الشخصية العظيمة . كذلك نجح كوسر Koser رغم حبه لفردريك في أن يزيل الهالة التي أضفاها عليه كل من كارليل وديرويسن . أما أبوجين جوجليا فقد كتبت عن ماريا تيريزا ، في حين تناول كارل فون هيجل الفترة منذ فردريك حتى نابليون بالبحث التاريخي .

أما أعظم الدراسات التاريخية العامة عن ألمانيا في القرن التاسع عشر فهي الفترة التي نهض بها ألبرت وهل Albert Wehl . أما ويلهلم اونكن ، ماكس لهمان ، فردريك مينك Meinecke .

(١) في بقية هذا الفصل لن نفيض في ذكر تراخي الكتب أو المؤلفين اقتصادا في المساحة ومن يريد الإفاضة يمكنه الرجوع إلى الكتاب المسمى باسم (A Guide to Historical Literature) ألفه G. M. Putter و W. H. Allison وآخرون (ماكيلان ١٩٣٦) .

وقد صدرت طبعة جديدة على يد G. F. Howe صدرت سنة ١٩٦١ (لؤلؤف) .

هانز دليروك Hans Delbruck، جرهارد ريتز فقد تناولوا حرب التحرير وحركات الإصلاح التي شهدتها كل من مقاطعتي شتين وهاردنبرج. ويعتبر ريتز واحدا من أوسع المؤرخين الألمان اطلاعا وأغزرهم معرفة. أما الفترة التالية من تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٨٧٠ فقد عالجها كل من إيرخ ماركس Erich Marcks، إرنولد ميار Meyer، هرمان أونكن Oncken، وكتب فيت فالتين أحسن البحوث عن ثورة ١٨٤٨. وهناك كتابات عديدة عن بسمارك والصراع من أجل الوحدة الألمانية وتكوين الإمبراطورية، أهمها تلك التي كتبها وليم سورنبرخر Maurenbrecher، ويلهم أونكن أريخ براندنبرج، جوهان زيكورش، ماكس لينز، أوتوبيك، إريخ ماركس Erich Marcks، إريخ إيك Erich Eyck.

أما أعظم التراجم عن بسمارك فهي التي وضعها ماركس وإيك إرنولد ميار Meyer. ويعتبر ما كتبه إيك نقدا جارحا من وجهة نظر رجال المذهب التحرري. أما عن الفترة من سنة ١٨٧٠ - ١٩١٤ وقد عالجها كل من جرهارد ريتز Gerhard Ritter، هرمان أونكن، براندنبرج، زيكورش Ziekursch، جوتلوب إجلهااف Gottlob Egelhaaf. أما إريخ إيك فقد كتب أحسن المؤلفات التاريخية عن جمهورية فيمار Weimar. كذلك أمدنا هانس جريم وأرغست فون سالومون بأحسن الدراسات والأحكام الأولية عن هتلر والاشتراكية القومية. أما فردريك مينك Meinecke فيعتبره كثيرون أقدر مؤرخ ألماني ظهر منذ فون رانكه وينظرون إليه بوصفه صاحب أحسن الدراسات في مجال المذاهب السياسية. وتعتبر أبحاث فرنيز هارونج أحسن الأبحاث في تاريخ الدستور الألماني. ويقال نفس الشيء عن أبحاث فرنر werner سومبارت Sombart عن الرأسمالية إذ أنها عمل مرموق في مجال التاريخ الاقتصادي. وفاق عمل هانز دليروك كل عمل آخر في التاريخ الحربي لألمانيا. وأما تاريخ السياسة الألمانية الخارجية منذ عصر بسمارك حتى سنة ١٩١٤ فقد تناولها تناولاً شاملاً كل من أوتوبيك، فيت فالتين Veit Valentin، إريخ براندنبرج. وأما عن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى فإن أحسن الأبحاث في هذا المجال هي التي كتبها ألفرد فون فجرر Von Wegerer. أما فردريك شيم فهو أعظم ناشر للدراسات التاريخية في ألمانيا الحديثة.

وكان أن دس المنهج العلمي التاريخي إلى النمسا على يد سيكل، فيكر Ficker، أرنيت. أما أقدر المؤرخين النمساويين المعاصرين فهو هنريخ ريتز فون سربك Srbik الذي وضع ترجمة لحياة مترنخ فجاء عمله شيئا خالدا، كما عالج السنوات المرحجة التي مهدت للحرب النمساوية

البروسية سنة ١٨٦٦ . أما الفونس دوبش Dopsch فهو واحد من أقدر المؤرخين الذين عالجوا التنظيم في أيامنا هذه ، وأضاف إضافات غاية في الابتكار والأهمية إلى التاريخ الاجتماعى لأوروبا الغربية منذ الإمبراطورية الرومانية حتى عصر شارلمان . أما اوزوالد ريدلخ Oswald Redilch فكان أقدر المؤرخين النمساويين الذين كتبوا عن النمسا في العصور الوسطى .

ثم إن المدرسة الألمانية كان لها دورها الرائد في تزويدنا بالمعرفة عن العالم القديم . وقاد غمار ذلك ما كسيران دنكر Dunker اذ تزعم الدراسة العلمية لآثار الشرق القديم ، في حين كان كارل ليبسيوس Lepsius مؤسس علم الآثار المصرية القديمة . أما أدولف ارمان فقد كتب أحسن الأبحاث عن التاريخ الاجتماعى في مصر في حين تخصص هوجو فنكلر Winekler في دراسة بلاد ما بين النهرين . على أن اعظم العلماء المتخصصين في الآثار الشرقية كان ادوارد ماير صاحب الأبحاث الفذة عن التاريخ القديم منذ العصر الحجري حتى ظهور المسيحية . أما اوغسط يوخ Boeckh فقد وضع أسس الدراسة العلمية للآثار الإغريقية المنقوشة . وكان أتوغريد مولر - Miil- ler أول من حاول دراسة الأساطير الإغريقية دراسة علمية وذلك في كتابه عن التاريخ الإغريقى والرومانى . وثمة أبحاث قيمة عن تاريخ اليونان كتبها أرست كورتيوس . إدولف هولم ، جورج بوسولت Busolt ، كارل جوليوس بيلوخ Beloch ، نيدكتوس نيس Benedictus Niese ، اولرخ وليام اوتز - مولندروف Ulrich Wiliam owitz - Moellendorf ، وقد كتب ادوارد زيلر عن الفلذغة الإغريقية في حين كتب جومبرز Gomperz كتابا فذاً لا يدانيه كتاب آخر عن تاريخ الفكر الإغريقى . كذلك كتب ويلهم كريست Christ بحثه الشامل المتقن عن الأدب الإغريقى .

كذلك كتب فون اناماشترنج Von Inama Sternegg بحثا يستحق التنويه عن التاريخ الاقتصادى عن ألمانيا في العصور الوسطى . وكتب أوجست فورنير Fournier أحسن التراجم عن نابليون ، في حين كتب هنريخ فريدزنج بحثا مهما عن الفترة منذ سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٦٦ كما كتب بحثا هاما عن العلاقات بين إمبراطورية النمسا والمجر مع البلقان . أما عن إمبراطورية النمسا والمجر منذ ١٨٤٨ - ١٨٦٧ فقد تناولها بالبحث يوسف ريدلخ . وعالج الفرد بريبرام Pribram لودفيح بيتز Ludvig Bittner ، هانز أوبزبرجر Hans uebersberger التطورات السياسية السابقة على حرب سنة ١٩١٤ . وكتب الفونس هوبر ، وهو جوهانتش Hantsch أعظم الأعمال التاريخية عن النمسا . أما هانز فون زويدنك شوندهرست - Hans von Zwiedeneck Sudenhorst فكتب بحثا من أعظم الأبحاث عن ألمانيا في القرن التاسع عشر .

أما أحسن الأبحاث التي تعبر عن المدرسة الألمانية بمنهجها التقليدي ، فهو العمل المشترك الذي أشرف عليه ويلهلم اونكن ، وكذلك الكتاب الذي أشرف عليه هانز فون زويدنك شوندهرست Sundenhorst. وثمة كتاب ينم عن غزارة علم ومعرفة والزام بالمنهج العلمي التاريخي ، هو الكتاب الذي كتبه ارنست برينهم وأتمه كل من جويستمان ولف ، ويلهلم بور Bauer.

وإلى جانب ما كان للمدرسة الناقدة الجديدة من نشاط في دراسة التاريخ السياسي لألمانيا ، كان لها مجالها في دراسة التاريخ الكنسي بعد أن تدفقت الأبحاث في هذه الناحية منذ ظهور كتاب «مثنويات ماجد برج» . وكان أن اهتم بالبحث في هذا التاريخ الكنسي كل من يوحنا موشيم Mosheim (١٦٩٤ - ١٧٥٥) وأوغسط نيندر August Neander (١٧٨٩ - ١٨٥٠) هذا فضلا عن الأبحاث القيمة في تاريخ الكنيسة التي كتبها كل من اميل شورر schurer ولس فرنل wern-le ، ك . م . فون ويز شاكر K. M. Vn Weizsaker ، ادوارد ميهار Edward Meyer وارنست فون دويشتر Ernest Von Dobschitz ، هانز فون شويرت schubert وهؤلاء جميعا كتبوا عن أصول المسيحية . أما كارل هاس Hase وديلهلم مولر فقد كتبوا عن التاريخ العام للكنيسة المسيحية . هذا كله بالإضافة إلى الأبحاث التي تناولت البابوية مثل أبحاث لودينج فون باستور ، أريخ كاسبر ، يوحنا هالر ، فردريك نيوبولد ، د. ف. سترأوس D.F. Strauss ، أما عن المجامع الكنسية فقد كتب عنها كارل فون هيفل Carl Von Hefe ، جوزيف هر جيزوتر Joseph Hergenrother ، هوبرت جدين Hubert Jedin ، هذا في حين كتب بولس هنشويس Paul Hinschius ، اميلوس ريشتر ، رودولف سوهم Rudolf Sohm عن القانون الكنسي . أما عن لوثر وعصره فهناك مؤلفات جوليوس كوستنبل Julius Kostlin ، وكارل هول Karl Holl . وقد كتب البرت هاوك Hauck عن الكنيسة الألمانية في حين تناول أدولف هارناك المعتقدات والمذاهب ، وكتب فرايز كراوس Kraus في الآثار والفنون المسيحية .

أما الدراسة العلمية للتاريخ الروماني فكان أول من بدأها تيودور مومسن الذي يعتبر خير من قدم دراسات مبتكرة في هذا المجال . وأمدنا العلماء منذ أيامه بمزيد من المعرفة عن التاريخ الروماني ومن هؤلاء العلماء ويلهلم ايته Ihne ، هرمان ديزو Desau ، هرمان شيلر ، فيكتور جاردتوزن Gard-thausen ، كارل نيتشه ، وارتو سيك Seek . أما بولس كروجر Kreuger فكان في مقدمة الباحثين في القانون الروماني في حين كتب لودفيج فريدلاندر في الحياة والعادات الرومانية . وكان

جورج ويسو من أوائل الدارسين للديانة الرومانية بينما تناول ويلهم توفل Teuffel تاريخ الأدب الروماني . أما أدوارد ماير فيأتي على رأس قائمة العلماء الذين اهتموا بالتاريخ الروماني بل إنه يفوق مومسن نفسه . وقد عاش ماير بين سنتي ١٨٥٥ - ١٩٣٠ واشتهر ببحثه عن تاريخ العالم القديم ، إذ اعتمد في كتابته على المصادر الأصلية وبذل فيه جهدا ذهنيا يتناسب مع العمل الذي أقدم عليه . وربما كان ماير أعظم الأساتذة الذين برزوا في ميدان الكتابة التاريخية أهمية حتى عصرنا هذا .

الكتابة التاريخية الناقدة في فرنسا

تدين المدرسة التاريخية الناقدة في فرنسا في تطورها إلى حد ما إلى تأثير المدرسة الألمانية عليها ، وخاصة أن رواد المؤرخين الفرنسيين مثل جابريل مونود Gabriel Monod تعلموا على أيدي أساتذة مثل ويتز . على أنه يمكن القول بصفة عامة أن تقدم المدرسة التاريخية في فرنسا يرجع في أساسه إلى الظروف المحلية في فرنسا ذاتها . وفي معرض المقارنة بين المؤرخين الألمان والفرنسيين يمكن مقارنة كلود فوريل بنبيهر . كان فوريل Fauriel مصدر الإلهام لجينرو ورفاقه . وإذا كان جينرو لا يقارن بفون رانكه في غزارة بحثه أو ضخامة إنتاجه ، فإنه يفوق في قدرته على الربط بين الأحداث وتحليلها . وكان لجينرو في نفس الوقت القدرة والكفاءة على النشر . ويقارن دوره في المدرسة التاريخية في فرنسا بدور فون رانكه في ألمانيا ، إذ بحث جينرو والحياة في المدرسة الفرنسية ، وإن أعوزته القدرة التي توافرت لفون رانكه في مجال الإشراف لمدة طويلة على حلقات البحث .

أما فرانسوا مينييه Francois Mignet فيشبه المؤرخ الألماني ونيز من حيث أنه قام بأبحاث عن أوروبا في القرن السادس عشر وعن الثورة الفرنسية . وكانت أعمال فرانسوا هذه هي البداية للكتابة التاريخية الفرنسية الحديثة لا بسبب قدرته الفائقة على النقد فحسب بل بسبب قدرته غير العادية في تحليل القضايا وحسن عرضها بصورة واضحة مفهومة . هذا فضلا عن أن فرانسوا مينييه كان أحد العمالقة الذين دونوا الوثائق ونشروها . وجاء من بعده فوستيل دي كولانج الذي برز بالنسبة لإثارة الاهتمام بدراسة تاريخ العصور الوسطى في فرنسا دراسة علمية مما جعل دوره في هذا الصدد مشابها لدور ويتز في ألمانيا . وبرغم ما أثاره فوستيل من استياء بسبب إنكاره لليتوتون من دور رئيسي في وضع أسس النظم البروفنسية ، فإنه كان علامة بكل ما تحويه الكلمة من معنى وله شغف لا يكمل باستخدام المراجع . على أن بلوغ المنهج التاريخي العلمي ذروته في فرنسا

لا يرجع إلى جهود أفراد قلائل مثلما كان الحال في ألمانيا عندما كان الفضل في ذلك لفون رانكه وويتز ، إنما مرجعه في فرنسا لجهود عديد من الأساتذة والعلماء الذين درسوا في أعظم المعاهد العالية المتخصصة في تدريب المؤرخين على استخدام المناهج السليمة في النقد وهي مدرسة الوثائق التي بدأت عملها سنة ١٨٢٩ . ويقرن بإنتاج هذا العهد من حيث الكيف اسم كل من ليوبولد ديلزل Leopold Delisle وبنيامين جيرارد ، جابريل مونود ، اخيل لوشير Achille Luchaire . وأوغسط بولينير ، آرثر جيري ، بول فيوليه Paul Viollet . وقد وجدت فرنسا في شخص الفونس اولارد عالما كبيرا كان لمعرفته الواسعة والتي لم يبلغها أحد عن فترة قصيرة من فترات التاريخ القومى في فرنسا ، مما جعله جديرا بأن يقارن بأعظم المؤرخين العالميين ممن هم على مستوى س . ر. جاردنر في إنجلترا . ذلك أنه نقى تاريخ الثورة الفرنسية من كل الخرافات والأساطير التي علفت به .

أما أحسن عمل يمكن اعتباره نموذجاً للمدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة فهو الكتابان اللذان اشترك في تحريرهما عدد من العلماء وأشرف على نشرهما أرست لافيس ، وأحدهما (التاريخ العام) والثاني وهو (تاريخ فرنسا) . وسوف نكتفى هنا بحصر موجز للرواد الأوائل من علماء التاريخ الفرنسيين في عصرنا الحاضر ، فنشير إلى هنرى هوبرت ، الذي عالج تاريخ الكتاتين القدماء ، وكاميل جوليان الذي اقتفى أثر أستاذه فوستيل دى كولانج فأرخ لغاليا في العصور القديمة أما فوستيل دى كولانج ، أندريه برثلو Andre Berthelot فرديناند لوت Lot ، فقد درسوا الإمبراطورية الرومانية في أواخر عصرها وفجر التاريخ الأوربي في العصور الوسطى . أما جوستاف بلوخ Bloch ، لوت Lot فلها أبحاثها الممتعة عن فترة الانتقال من الحضارة الرومانية القديمة إلى حضارة العصور الوسطى . وأما تاريخ العصور الوسطى في نهضة الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد جوستينان فضلا عن دراسة التاريخ البيزنطى ذاته فكانت موضع اهتمام شارل ديل Diehl ومجال بحثه . هذا في حين تخصص هنرى لامنس Lemmens ، واميل جوتيه Gautier ، هنرى سلادين Saladin ، وادوارد دريو Driault ، وكلمنت هوارت ، وآخرون في التاريخ الإسلامى ، واهتم بدراسة عصر الإقطاع وتحليل خصائصه كل من شارل سينبو Charles Seignobos ، اخيل لوشير ، جاك فلاش ، بول جيلهرموز Paul Guilhiermoz ، شارل بيتى دوتيه (Charle Petit-Dutaillies) أما لوشير فكان أكبر حجة في تاريخ فرنسا بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر . هذا في حين أنتج ربنه جروسيه ما يمكن

اعتباره أحسن ما كتب عن الحروب الصليبية . وتناول شارل لانجلو Charles Langlois سقوط أسرة كاييه وله بحث ممتاز عن عصر فليب الثالث وفليب الوسيم . أما عن الحياة في المدن في العصور الوسطى فكانت مدار بحث آرثر جيسرى الذى له بحث ممتاز أيضا عن العلاقات السياسية . أما ايوجيه فيوليه لى دوك Eugens Viollet le Duc فكان حجة في الفن الفرنسى والمعمارى في العصور الوسطى . ويعتبر شارل بيمونت Charles Bémont رائدا للمبجاة الفرنسين فيما يختص بتاريخ إنجلترا في العصور الوسطى . أما شارل بايه Charles Bayet فله مكانته الرفيعة بفضل دراساته عن الإمبراطورية الجرمانية في العصور الوسطى ، كما كتب كتابا ممتازا عن الإمبراطورية البيزنطية . أما الفرد كوفيل فهو أستاذ الباحثين عن فترة حرب المائة سنة . أما كريستيان بفستر فكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ العصور الوسطى وتاريخ نانسى والسياسة الداخلية لهنرى الرابع .

وكان أن حظى تاريخ القرن الخامس عشر بعناية كل من بيتى دوتيه Petit Dutailis ، وبطرس شامبيون ، في حين اهتم هنرى لامونير ، بطرس امبار ، بتاريخ مدينة تور بفرنسا . أما لوسيان روميير ، حنا ماريجول ، هنرى هاوسر فقد تخصصوا في دراسة تاريخ فرنسا في القرن السادس عشر . ويعتبر بطرس امبار Pierre Imbart من مدينة تور بفرنسا حجة في حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى . وتناول كل من جابريل هانتوت وجورج دافنيل تاريخ فرنسا في القرن السابع عشر بالبحث والتحليل ، في حين يعتبر بطرس كلمنت أحسن الباحثين عن كولبير ، وينطبق نفس القول على يوسف ديديه Joseph Dedieu بالنسبة لتاريخ الهجونت بينما كان أرست لامنيس وارثر دى بوسليزل Arthur de Boislisle رواد البحث في عصر لويس الرابع عشر . أما لامنيس فهو صاحب المكانة الأولى بين المؤرخين الفرنسيين بأبحاثه عن بروسيا وأشرف على إنتاج أحسن الأعمال التاريخية التى تعاون في كتابتها مجموعة من المؤرخين . كذلك عرف عن هنرى فاست Henri Vast عمق أبحاثه عن تاريخ فرنسا السياسى في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر عن الفترة النابوليونية . أما مؤلفات ايمه كريست Aime Cherest ، وكاميل بلوخ ، هنرى كاريه فقد أوضحت الكثير عن مفهومنا عن القرن الثامن عشر . ويضاف إلى هؤلاء فيليب ساجناك Philippe Sagnac من ناحية أهمية أبحاثه عن التاريخ السياسى لفرنسا وأوربا . وفي نفس الوقت فإن ألبرت سوريل Sorel كان أستاذاً لايبارى في موضوع العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر . أما الأبحاث الحديثة لهنرى سيبه See فقد أضافت مزيدا من المعلومات على

الدراسة الخاصة بتاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافي في القرن الثامن عشر .

وكان أن شهدت الدراسة الخاصة بالثورة الفرنسية تطورا هاما نتيجة للأبحاث التي قام بها كل من أولارد ، وسانك . أما البرت ماتيه Mathiez فقد طرح جانباً النظرية البورجوازية لاولارد ومجد رويسير وطبقة العامة . والحق أن أبحاثه أضافت الشيء الكثير إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهذه الفترة ، وشابهه في ذلك جورج ليفير George Lefebvre بأبحاثه عن الثورة . إذ نظر الأخير إلى الثورة نظرة وسطاً بين اولارد وماتيه ، مما جعله يحظى اليوم بمكانة أكثر احتراماً بين الباحثين الفرنسيين . أما أحسن بحث ناقد مختصر عن الثورة الفرنسية من وجهة نظر محافظة فهو ذلك الذي قدمه لويس ماديلن Louis Madelin الذي أصبح المرجع الأول لكل دراسة عن نابليون ، وهو أول من تناول دراسة الفترة النابوليونية على أسس علمية دقيقة ، وهو الأمر الذي كان قد بدأه إدوارد دريو Driault . أما أميل برجو ، وجورج ويل Weill ، وجورج لارونز ، فقد تناولوا بالبحث الفترة الممتدة من نابليون حتى قيام الجمهورية الثالثة . وكان أحسن الباحثين في تاريخ هذه الفترة هم جابريل هانتو ، بطرس رنوفو Pierre Renouvin ، دانييل هالفى Halvey ، جورج بونيفو أما هنري أرون فقد أخرج بحثاً تاريخياً فذا ومرتزناً عن حكومة فيشي .

ويعتبر حنا ماريجول Mariejol رائد الباحثين الفرنسيين عن أسبانيا الحديثة مثلما يعتبر جورج بلوندول Blondel نفس الشيء بالنسبة لأبحاثه عن ألمانيا الحديثة والنمسا في سنة ١٩٠٤ . أما أرنست دينس Denis ، لويس ليجير Legere فقد عالج كل منها علاجاً قديراً تاريخياً إمبراطورية النمسا والمجر فضلاً عن تاريخ بوهيميا وبولندا . هذا في حين كان إيلي هالفى بمثابة المرجع الأول في كل أنحاء العالم بأبحاثها عن تاريخ إنجلترا في القرن التاسع عشر . ولاننسى العمل المرموق الذي قام به الفرد رامبو عن الإمبراطورية البيزنطية والسلاف في أوروبا ، فضلاً عن الحضارة الفرنسية والتوسع الاستعماري . أما شارل سينوبوس Charles Seignobos فقد ألف بحثاً ممتازاً عن الحضارة وكذلك يعتبر هنري سيبه See صاحب أحسن الأبحاث عن الحياة الاقتصادية في فرنسا .

وامتاز المؤرخون الفرنسيون كذلك بأبحاثهم الهامة عن الكنيسة المسيحية . فالفردلوسى Loisy هو رائد النقد في أدب كتاب العهد الجديد ، وتعتبر أبحاثه حجة للعقائد الوثنية الغامضة التي أثرت على المسيحية . كذلك كتب شارل جوجينبر Guignebert في أسلوب رفيع - شأنه شأن رينان - بحثاً اتسم بغزارته عن المسيح وتطور المسيحية . أما لويس دوشزن فهو صاحب الأبحاث

الزمنية عن المسيحية في عصرها الأول . كذلك كتب اندريه لاجار Lagarde - واسمه الحقيقي يوسف تورنيل Turnel بحثا جديرا بالتنويه والإعجاب عن المسيحية في العصور الوسطى ، في حين كتب فيلكس روكان Felix Rocquain بحثا قيما عن تاريخ البابوية في العصور الوسطى وعن الحروب الدينية في فرنسا . أما بطرس دي لاجوري فهو صاحب البحث للتاريخ الديني القيم عن الثورة الفرنسية بينما تناول ديبيدور ، اميل شينو Chenon ، تاريخ الكنيسة والدولة في القرن التاسع عشر . أما أعظم الأعمال ذات الجهد المشترك عن تاريخ الكنيسة فهي تلك التي اشترك فيها أوغسطين فليس Augustine Fliche ، جاستون مارتن ، هذا كله بالإضافة إلى المعجم الواسع عن اللاهوت الكاثوليكي .

ثم إن المؤرخين الفرنسيين أظهروا اهتماما خاصا بحركة التوسع الاستعماري الفرنسي فهناك عدا رامبو من تخصصوا في البحث في هذا الموضوع . ومن أعظم الباحثين في هذا المجال اميل ليفاسير ، ايوجين فالكس ، ادوارد بيتي ، وارثر جيرو ، أما شارل دي لارونسير فهو صاحب أعظم الأبحاث عن تاريخ البحرية الفرنسية . كذلك كان للفرنسيين أبحاثهم الهامة عن التاريخ القديم وإعادة صياغته . ففي أوائل القرن التاسع عشر نجح جان شامبليون في فك رموز اللغة المصرية القديمة ، وبعد ذلك بنصف قرن مضى أوغسط ماريت بالدراسة المصرية من حيث توقف عندها لزيوس . والحق أن ماريت يعتبر أشهر الباحثين في الدراسات المصرية القديمة قبل ماسيرو . أما سير جاستون ماسيرو فهو أهم المؤرخين المتخصصين في التاريخ القديم قبل أن ينشر ادوارد ماير أبحاثه الرمزية في هذا المجال . وتعتبر أبحاث ايوجين كافينساك Eugene Cavignac أحسن الأبحاث في التاريخ القديم التي اقترنت من أبحاث ماير في غزارتها ووجهة نظرها . هذا في حين كتب لويس ديلاپورت كتابا طيبا عن حضارة العراق القديمة . وكشف جاك دي مورجان رموز اللغة الحامورابية . واشترك جورج بيرد وشارل شيبيرز Chipiez في عمل بحث فذ عن الفن القديم . أما بولس جيرو Giraud تلميذ فوستل دي كولانج المقرب فقد تخصص في البحث في التاريخ الإغريقي والروماني . كذلك قام جوستاف جلوتز بأبحاث تدعو إلى الإعجاب عن حضارة كريت وعن المدن الإغريقية القديمة والحياة الاقتصادية عند الإغريق . أما أوغسط بوشيه ليكلريك Auguste Bouche Leclercq فهو أستاذ الباحثين في العصر الهليني . وكذلك كتب كافينساك كتابات مستفيضة عن التاريخ الاقتصادي للإغريق . ويحتل كل من الفرد وموريس كروزييه مرتبة سامية بين الباحثين في تاريخ فكر الإغريق وآدابهم . أما فكتور دوري Duruy فله

أعظم الأبحاث عن تاريخ الإغريق والرومان من واقع مصادرها الأولى . وتناول جوستاف بلوخ ، ليون هومو ، جوزيف ديكلاريل Declareuil ، التطور السياسي والتشريعي عند الرومان ، في حين عالج فكتور شابو Chapot تاريخ الفن الروماني . ثم كان أن اتم حنا فكتور ديري Duruy وارنسنت لامنيس وشارل بيمونت وجابريل مونو Gabriel Monod ما بدأه في ألمانيا فون رانكه وويتز من تطوير تدريس التاريخ . وينسب لجابريل مونو الفضل في تطوير منهج حلقات البحث التي استحدثتها في فرنسا دوري . وتختتم هذا العرض السريع لدراسة التاريخ الفرنسي ، بالإشارة إلى أن هذا العرض لن يستكمل دون الإشارة إلى المؤرخين الفرنسيين بصورة لا مثيل لها على الربط بين غزارة البحث وشرح المادة التاريخية وتوضيحها مع روعة التصوير وسلاسته والقدرة النادرة على التنظيم المحكم .

المدرسة التاريخية الناقدة في إنجلترا

جاءت المدرسة التاريخية الناقدة في إنجلترا وليدة إنتاج قومي على عكس ما كان عليه الوضع في فرنسا . وإذا كانت هذه المدرسة استطاعت شق طريقها بفضل جهود العلماء أمثال لينجارد Lingard ، وفرغان ، وستوبس ، وجرين ، وليكي ، كريغتون Creighton ، ستيلي Steely ، فإنها بلغت ذروة نشاطها في شخص صمويل موسون جاردنر وكتابه عن الأحداث المثيرة في النصف الأول من القرن السابع عشر . ففي هذا البحث المتقن نجحت الاستفادة الكاملة من المصادر التي تناولت فترات محدودة كما عملت في بحثه المقتدرة على تنظيم تلك المعلومات الواسعة في سرد واضح مفهوم . ولا ينافس جاردنر في مكانته بين المؤرخين الأوربيين سوى ألفونس أولارد ، ومع ذلك فإن الموضوعية في عمل جاردنر فاقت تلك التي كانت في عمل ذلك المؤرخ الفرنسي .

على أنه ينبغي القول أن الانجليز برغم ذلك لم يكن لديهم ما يمكن مقارنته بمدرسة الوثائق في فرنسا أو المعهد التاريخي في فيينا من أجل تدريب المؤرخين الشبان على مناهج البحث الناقدة السليمة . وأكبر موسوعة تعبر عن روعة إنتاج المدرسة الإنجليزية الحديثة هي العمل المشترك لموسوعة كامبردج عن التاريخ القديم والوسيط والحديث . هذا فضلا عن سلسلة الأبحاث المتتابعة عن التاريخ الإنجليزي التي كتبها هنت Hunt ، بول Poole ، اومان Oman ، أما ج . هـ . كلافام J.H. Clapham فقد أنتج أبرز الأعمال عن تاريخ إنجلترا الاقتصادي .

وبالنسبة لتاريخ بريطانيا في العصر الروماني فقد بحثه بعناية فائقة كل من ت. ريس هولمز Rice Holmes T. ، ر. ج. ، كولنجوود R. G. Collingwood ، ج. ل. ميرز J. L. Myres ، فرنسيس هانرفيلد .

أما العصر الأنجلوسكسوني فقد درسه دراسة علمية كل من شارل أومان ، توماس هودجكن ، شارل بلمر Charles Plummer . هذا في حين كان ج. ه. راوند J. H. Round ، ه. و. ك. دانيز ، ف. م. بويك F. M. Powick ، ف. م. ستينتون F. M. Stenton من رواد البحث في تاريخ إنجلترا النورماندية وقد قام راوند بانتقاد فريمان نقداً لاذعاً ولكن ف. م. ستينتون F. M. Stenton صحح بعض الاستنتاجات التي توصل إليها راوند . وعن أسيرة اليلانتاجنت هناك أبحاث هامة كتبها ل. ف. سالزمان ، ك. و. ك. أومان ، ج. م. تريفرليان ، ت. ف. توت ، ف. م. بويك ، إليس . س. جرين . أما وليم . س. ماك كيكني William S. Mc Kecknie ، فقد نبذ جانباً في بحثه المتقن كل الخرافات التي أحاطت بالعهد الأعظم . كذلك أنتج جيمس ويلي James Wylie عملاً خالداً فذاً عن أسيرة لانكستر ويورك أما أعظم المؤرخين عن إنجلترا في العصور الوسطى فهو فردريك وليم ميتلاند وله في إنجلترا نفس المكانة التي كانت لويتز في ألمانيا وفوستيل في فرنسا . وغير ما أنتجه ميتلاند هو كتابه عن القانون الإنجليزي في العصور الوسطى . ولا يوجد لهذا المؤرخ من يدانيه في أبحاثه عن العصور الوسطى سوى المؤرخ الإنجليزي الجنسية الروسي الأصل ، بولي فينوجرادوف Paul Vinogradov . أما إدوارد جنكس Jenks فأعماله المبتكرة عن القانون في العصور الوسطى والنظم السياسية تعتبر في القمة . وكذلك المؤرخ الإنجليزي حنا ب. بيوري الذي تخصص في الإمبراطورية البيزنطية إذ يعتبر من أعظم مؤرخي العالم من ناحية إلمامه بالعديد من الموضوعات فضلاً عن كونه من أقدر المؤرخين على وجه الإطلاق . وعنى شارل أومان ، نورمان بينز Baynes ، بدراسة نواحي التاريخ البيزنطي . أما ستانلي لين بول ، توماس و. أرنولد ، د. س. مارجليوث ، بول دي لاسي اولري ، رينولد نيكلسون فهم أصحاب الأبحاث الرائدة في الحضارة الإسلامية . هذا في حين تخصص أرست باركر في البحث في الحروب الصليبية . ويعتبر سير ريموند بيزلي Beazley من أكثر المتخصصين في جغرافية العصور الوسطى فضلاً عن العلاقات مع الشرق الأقصى . أما جيمس بريس James Bryce ، ه. أ. ل. فيشر فدارت أبحاثها حول الإمبراطورية الجرمانية في العصور الوسطى . ومن أعظم المراجع عن حكم أسرتي لانكستر ويورك ما كتبه جيمس جاردنر .

وبالنسبة للمراجع الرئيسية عن أسرة نيودور فأهمها ما كتبه جاردنر ا. ف بولارد، ه. ا. ل. فيشر، ا. د. انيس A. D. Innes، ج. دهرنرو، ماندل كريتون. ويعتبر بولارد وفيشر من أعظم المؤرخين الإنجليز المحدثين. أما الأعمال الرفيعة عن أسرة استيوارت فهي تلك التي كتبها جاردنر، شارل فيرث. كذلك قام بدراسة نفس هذه الفترة حديثا كل من تريفلان، ف. مونتاني F. C. Montagne، ريتشارد لودج، ج. ن كلارك، كيث فيلنج Feiling. ويعتبر كتاب تريفلان «انجلترا تحت حكم أسرة استيوارت» أعظم ما كتب عن ذلك العصر منذ أخرج ماكلوي كتابه تاريخ إنجلترا. أما س. ج. روبرتسون، ا. س. ليدام Leadam، وليم هنت Hunt، لويس نامير Namier فقد كتبوا عن أسرة هانوفر. وهنا ينبغي أن نشير أيضا إلى أعمال التراجم التي كتبها جورج اوتو تريفلان والتي كتبها مورلي عن بيرك Burke والتي كتبها روز بيوري ووليمز عن بت الأكبر والتي كتبها ستانوب وهولاندروز عن بت الأصغر. وكتب عن بريطانيا في القرن التاسع عشر كل من ج. لو Low، ل. ل. ساندرز، ج. م. تريفلان، ج. ا. س. ماريوت، وسبنسر والبول، جستين ماك آرثي، جلبر سلاتر. وعن هذا العصر أيضا لدينا تراجم فذة مثل تلك التي كتبها مورلي عن جلادستون والتي كتبها موني بيتي وباكل Buckle عن دزرائيلي. أما شارل ماستران، ك. ل. موات فكنتها عن فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى في بريطانيا في حين تناول ا. ج. تايلور أصول وأسباب الحرب العالمية الثانية بالتحليل. أما تاريخ المستعمرات البريطانية وتطور الإمبراطورية وتدرج السياسة الاستعمارية لهذه الإمبراطورية فقد عالجه كل من جون ا. دويل، ه. ا. اجرتون Egerton، ارثر ب. كيث، ريتشارد جب، ا. د. انيس Innes، ج. ا. ويليامسون، هاري ه. جونستون. وأهم مرجع عن موضوع الاستعمار في أفريقيا هو ما كتبه هاري ه. جونستون. أما تاريخ الاستعمار البريطاني والإمبريالية فقد عولج في إسهاب في سلسلة من الكتب الممتازة تحت عنوان (الجغرافيا التاريخية للمستعمرات البريطانية) وأشرف على تحريرها شارل ب. لوكاس. هذا فضلا عن موسوعة كامبردج التاريخية عن الإمبراطورية التي أشرف على نشرها ج. هولاندروى ورفاقه. وهناك موسوعة أكسفورد عن الإمبراطورية البريطانية لهربرتسون وهوارث وآخرين. أما جون. و. فورساكو فهو أهم المؤرخين عن الجيش البريطاني، وكذلك وليم ل. كلوس عن البحرية البريطانية.

أما كتابات ستانلي ليتز Stanley Leathes وا. ج. جرانت، ج. س. ك. بريدج فهي

تقتل المصادر الرئيسية الإنجليزية عن تاريخ فرنسا السياسي . كذلك كتب ف . ك . مونتاج وج . س . م . م . ماكدونالد مؤلفات عن تاريخ فرنسا في القرن الثامن عشر . كذلك شرع ه . مورس ستيفنس H. Morse Stephens في عمل بحث عن الثورة الفرنسية . وإن خير من عالج هذا الموضوع من المؤرخين الإنجليز ه . ج . م . طوميسون ويعتبر ج . ه . روز Rose المرجع الإنجليزي الذي لا ينافسه مرجع آخر عن الفترة النابولينية .

كذلك تناول المؤرخون الإنجليز بحث السياسات الاوربية والعلاقات الدولية في القرن الماضي وقام بدراسات في هذا الموضوع كل من ج . ب . جوخ ، و . ا . فيليس ، س . ب . موات ، ادوارد هرزلت Herslet . وبالإضافة إلى ذلك ينبغي التنويه بالعمل المتقن الذي نهض به ادولفس و . وارد عن التاريخ السياسي لألمانيا الحديثة ، وهو عمل ينم عن معرفة واسعة غزيرة . ومثله الدراسات المفصلة التي أجراها وليم دوسن Dawson عن الإمبراطورية الألمانية في العصر الحديث وفي الوقت نفسه لا يفوتنا أن ننوه بكتابات ج . ب . جوخ عن ألمانيا المعاصرة ، وبالعمل الذي ينم عن أصالة علمية في البحث الذي قام به ر . ن . بين R. N. Bain ، ر . د . سيتون وأطسون ، د . م . والاس ، ف . ه . سكرين ، و . ميلر عن الدول الاسكندنافية والسلافية وأوربا الشرقية . أما برنارد باريس Pares ، ا . ه . كار فقد عالجا تاريخ روسيا في حين كتب ب . كنج ، وج . م . ترينليان عن الوحدة الإيطالية . وكتب م . هيوم عن اسبانيا .

ولم يغفل المؤرخون الإنجليز أمر تاريخ الكنيسة وأعظم ما تم في هذا المجال وأقواء أثرها هو الكتاب الذي كتبه هنري ميلمان في وقت مبكر واسمه تاريخ المسيحية اللاتينية (الغربية) . وهناك كتاب آخر في هذا الموضوع لا يقل عظمة كتبه ه . م . جواتكن H. M. Gwatkin ، ف . ج . فوكس جاكسون عن الكنيسة في عصرها الأول . وهناك أيضا ه . ك . مان الذي كتب كتابا عن البابوية والشخصيات التي تولت ذلك المذهب . أما ج . ج . كولتون ، ه . ب . وركمان فقد عالجا تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى وحركة الإصلاح الديني . هذا في حين كتب شارل بيرد ، ت . م . ولندساي عن حركة الإصلاح الديني بصفة عامة . أما جيمس جاردنر ، س . و . ديكسون فلها أبحاثها عن حركة الإصلاح الديني في إنجلترا . وعن الحركات الدينية في القرن الماضي فقد بحثها ر . و . تشرش ، ف . و . كورنيش Cornish . أما ه . كلارك فله بحثه عن المنشقين عن الكنيسة الإنجليزية وكذلك هناك عمل مشترك خالده عن تاريخ الكنيسة الإنجليزية واشترك في إخراجه ستيفنز وهانت .

وكان للعلماء الإنجليز أبحاثهم الهامة في التاريخ القديم ومن أعظم الرواد الأوائل للإنجليز في تاريخ الشرق القديم جورج رولنسن الذي ما زالت أبحاثه تحتفظ بأهميتها حتى اليوم أما وليم فلنדרز بترى petrie فله مكانته الكبرى حتى أيامنا هذه بوصفه باحثا في الآثار المصرية القديمة هذا بالإضافة إلى العمل الفذ عن التاريخ المصري الذي أخرجه ت. اريك بيت. أما ليونارد وولى wooley ، ليونارد هال ، سيدنى سميث فهم من أعظم من بحثوا تاريخ ما بين النهرين (العراق) في العصور القديمة. هذا في حين اهتم حنا جارتناج ودافيد هوجارت بدراسة تاريخ الحيثيين أما هارى س. ه. هال فقد تناول بالبحث والتحليل الجوانب السياسية في تاريخ الشرق الأدنى القديم. أما جورج جروت Grote فكتب أول بحث متقن عن تاريخ اليونان. ويعتبر سير آرثر ايفانز صاحب اليد الطولى في تصحيح معلوماتنا عن حضارة كريت القديمة. كذلك أخرج ج. ل. مايرز كتابا فذا عن اليونان القديمة، إذ تخصص في دراسة الأجناس التي تكونت منها الإمبراطورية الإغريقية القديمة، وندين لالفرد زيمر Alfred Zimmern ، ج. ب. ماهاى، جليوت موارى بما أضافوه من معارف عن تاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافى عن اليونان. أما المؤرخ ج. ب. بيورى فله كتابه الرائع عن تاريخ الإغريق. كذلك عاليج إريك بت Eric Peet أحوال إيطاليا في عصر ما قبل التاريخ. ويبحث ا. ه. ج. جريدنج كل جوانب التاريخ الرومانى. وأخرج وليم هيتلاند Heitland نموذجا جيدا عن التاريخ السياسى للجمهورية الرومانية. وكذلك قام وليم أرنولد بدراسة نظم الحكم فى الإمبراطورية الرومانية. أما ت. ريس هولس فيعتبر مرجعا رئيسيا عن غزوات قيصر لبلاد الغال. أما و. وارد فولر W. Ward Fowler فقد قدم أبحاثا هامة عن التاريخ الرومانى الاجتماعى والدينى. وتعتبر موسوعة كامبردج الخاصة بالتاريخ القديم التى أشرف على تحريرها بيورى وآخرون أحسن مصدر لكل الحقائق والمعلومات الخاصة بالتاريخ القديم. أما ج. ل. مايرز فقد فاق من عداه من الباحثين في التاريخ القديم، وهو الإنجليزى الوحيد الذى يطابق ادوارد ماير. أما أحسن كتاب تاريخى رفيع المستوى ويتصف بالعمق عن الدراسات القديمة من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر فهو الكتاب الذى يحمل اسم جون. ا. سانديز.

فإذا انتقلنا إلى أساتذة التاريخ الإنجليزى الذين بذلوا ما فى وسعهم لبيتوا فى تلاميذهم الروح المثالية للمدرسة الناقدة التاريخية الحديثة، فضلا عن إثارة الاهتمام فيهم لتقصى الحقائق التاريخية، فإننا نذكر منهم فريمان، سيلي، اکتون، ستيلاند، تاوت، بولارد. ويعتبر هذا الاخير

أكثرهم تأثيراً وأوسعهم نفوذاً . وكما أن كتاب روبرتسون عن تاريخ اسكتلنده يمثل طفرة واسعة بالنسبة للكتاب السابق الذى أصدره جورج بوكانان Buchanan . فإن الكتب والأبحاث التاريخية التى ألفها عن اسكتلنده كل من بطرس هيوم براون ، روبرت ماكى ، جون هيل بيرتون تعتبر طفرة بالنسبة لكتاب روبرتسون . أما غير ما كتب عن تاريخ إيرلنده فهى الكتب التى كتبها ادوارد دالتون ، فلورنس ريت Florence Wright ، آدموند كورتز ، روبرت دنلوب ، جيمس بيكت ، ماري ت . هايدن ، اليناور هل Hull .

المدرسة التاريخية الناقدة في بقية البلدان الأوربية

حال « سلطان الرقابة » في روسيا دون تطور المدرسة التاريخية الناقدة فيها . ونذكر مثالا لذلك كيف حيل بينى ، فازليف بليازوف Vasiliev Bilasov وبين المضى في مشروعه الطموح لعمل ترجمة دقيقة لحياة كاترين الثانية . وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر عدد من الأساتذة المؤرخين الروس على أرفع مستوى علمى . ومن بين هؤلاء الذين تخصصوا في دراسة التاريخ العام لروسيا سرجيوس سولفييف ، وسرجيوس بلاتانوف ، فاسيليف كولشفسكى . أما سولفييف فأنشج أول دراسة تاريخية متكاملة ومتقنة عن روسيا اتبع فيها المنهج العلمى الحديث . وأما إنتاج كولشفسكى فلعله أحسن دراسة للنظم في روسيا . وعن السياسة الداخلية لروسيا الحديثة كتب الكسندر كورنيوف دراسة تاريخية على أرقى مستوى . هذا في حين تناول م . ن . بوكروفسكى التاريخ الروسى بأسره من وجهة النظر الماركسية في عمل ينم عن تعمقه في البحث وقدرة على الخلق والتصوير والإبداع . كذلك يبدو أن بولس ميلنخوف Paul Milinkov استطاع في كتابه أن يفوق كل ما سواه في نظره للنخط العام الذى تطورت فيه السياسة الروسية التى نظر إليها من وجهة نظر متحررة . أما مكسيم نونالسكى فإن عمله يدل على نبوغ كبير إذ حلل الأسس الاجتماعية لتطور الانظمة السياسية الروسية ، هذا في حين عالج فاسيليف سرجيفيتش التطور القانونى والسياسى في روسيا . وكتب لوديك كولكزيكى Ludwik Kulezycki بحثا حدد فيه معالم ثورة سنة ١٩٠٥ وأخرج ليون ترونسكى تاريخا خالدا عن ثورة سنة ١٩١٧ .

ثم إن المؤرخين الروس كانت لهم أبحاثهم الهامة التى عالجوا فيها تاريخ باقى دول أوروبا . ومثال ذلك ما كان لبحث إيفان لوشسكى من فضل في تغير معلوماتنا عن حالة الفلاح الفرنسى

قبل الثورة . وكذلك ألقى الكسندر سافن Savin الضوء على تاريخ الأرض الزراعية الإنجليزية في العصر الحديث ، بينما استطاع بولي متروفانوف Paul Mitrofanov أن يقدم أحسن الأبحاث عن عهد جوزيف الثاني إمبراطور النمسا . وقد تمكن عدد من المؤرخين الروس ممن نفوا من بلادهم من إنتاج عدد من الدراسات القيمة . فعين فر بولس فينوجرادوف من ظلم القياصرة أصبح أقدر مؤرخي العصور الوسطى في إنجلترا ، بعد موت مانيلاند هذا فضلا عما كان لفينوجرادوف من إنتاج ممتاز في مجال التاريخ العام والأنظمة التشريعية وعن تاريخ القانون . كذلك فر ميخائيل روستوفتسف والكسندر فاسيليف Vasiliev من اضطهاد البلاشفة لهم وصارت أبحاث الأول أحد المصادر الكبرى عن التاريخ القديم وبخاصة التاريخ الاقتصادي للفترة الهلينية وروما . في حين كتب الثاني أحسن الأبحاث في التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية . وقد ظهر في عهد البلاشفة أكبر حشد من المؤرخين الماركسيين عرفهم العالم . وهؤلاء أشرف على أبحاثهم وتولى توجيهها بوكروفسكى وخلفاؤه مثل م . ن . تيكوميروف Tikhomirov ، م . ا . الباتوف .

وحين ننقل إلى أسبانيا نجد أنها أنجبت مؤرخين علماء مثل ميندز بيدال Menedez الذى تعتبر كتاباته المنشورة حجة في تاريخ القرن الحادى عشر . أما بيلاستيروزي بيرتا Bellaster-osy Beretta فألف أحسن الأبحاث عن التاريخ العام الأسباني ، بينما عني روفائيل التاميراي كرفيا بالتأريخ للحضارة الأسبانية . أما ادواردو بيجول بيرز Eduardo Pujol Perez فيعتبر حجة في الأنظمة الاجتماعية ، ويقال نفس الشيء عن ادوارد هينوجوسا بالنسبة لأبحاثه عن القانون الأسباني . هذا كله بالإضافة إلى المؤرخ الاقتصادي القدير جاييم بوجال .

أما إيطاليا فتدين ببعض الشيء لموراتوري Muratori ولكنها تدين أكثر لفون رانكه والمدرسة الألمانية نظرا لما ظهر في إيطاليا من أبحاث تنتمى إلى هذه المدرسة الناقدة . وقد كتب روملو كاجسى Rommelo Caggese أحسن كتاب عن تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى . أما جوسيب دى ليفا فقد كتب بمهارة فائقة عن إيطاليا خلال حكم شارل الخامس . كذلك أخرج الفردو كافيريني أول عمل ينم عن علم غزير عن إيطاليا خلال القرن التاسع عشر . أما فرانسكو روفيني Ruffini فكان أستاذ الباحثين في عصر كافور . كذلك كان لعلماء التاريخ في إيطاليا أبحاثهم عن التاريخ الروماني . فكتب جيتانو دى سانكتس خير بحث عن تاريخ الجمهورية الرومانية ، وأعاد كورادو بارياجلو بحث موضوع مدى حجة المصادر التاريخية عن فجر تاريخ روما . أما جو جليلمو فيرورر Guglielmo Ferrero فقد أثار إعجاب علماء التاريخ

بأبحاثه عن التاريخ الروماني وتعليقاته واستنتاجاته التي اتسمت بالجرأة والابتكار ، في حين اتصفت أبحاث اميلو كوستال Emilio Costal واريجو سولمي Solmi عن القانون الروماني بالمتعة وقوة التأثير .

كذلك وجدت المدرسة التاريخية الحديثة من يمثلها في سويسرا ، فأنتج كل من يوحنا ديراور ، وكارل داندليكر ، وبارثولد فان ميودن أبحاثاً عن تاريخ سويسرا العام تتم عن مقدرة كبيرة . أما ادوارد هيس His فقد كتب أحسن الأبحاث عن تاريخ القانون العام السويسري . ونجد لالفرد شترن Stern أعظم ما كتب عن تاريخ أوروبا السياسي في الفترة من ١٨١٥ - ١٨٧٠ وأخرج إدوارد فيوتر بحثه الهام والمبتكر عن تاريخ سويسرا وأوروبا منذ الثورة الفرنسية فضلاً عن كتابه عن تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة .

وفي بلجيكا أنتج هرمان فان دور ليندن Herman Van der Linden ، هنري بيرن ، ما يمكن اعتباره خير ما كتب عن التاريخ العام لبلجيكا . أما بيرين Pirenne فهو صاحب الدراسات الفذة عن المدن في العصور الوسطى وعن الديموقراطية في بلجيكا ، وعن التاريخ الاقتصادي في العصور الوسطى . ونذكر أيضاً من بين المؤرخين البلجكيين إسحق جوسس Isaak Gosses ب . ج . بلوك P. J. Block ، بطرس جبل Pieter Geyl وجميعهم كتبوا مؤلفات قيمة عن تاريخ الأراضي المنخفضة . أما هرمان كولنبراندر Colenbrander فهو رائد علماء التاريخ في هولندا وأستاذ الباحثين في تاريخ هولندا في عهد الثورة الفرنسية وعصر نابليون . وكذلك روبرت فرون Fruin الذي تعتبر كتاباته من أهم المصادر عن التاريخ الدستوري في الأراضي المنخفضة . أما خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية في الدانمرك فهو يوحنا ستنسروب Johannes Steenstrup آجا فريس Aage Frus ومساعداهم .

وفي الترويج نجد خير من يمثل هذه المدرسة هالفون كوهو ، الكسندر بوج ومساعدوه . وفي السويد يبرز اسم مؤرخ الثقافة السويدية يوحنا شك Johannes schuck كما توجد أحسن الأبحاث المشتركة في تاريخ السويد التي أشرف عليها اميل هليد براند . ويوجد في بولندا مؤرخون ينتمون لهذه المدرسة فحل محل كتاب مدرسة التاريخ القومي من أمثال ليلويل مؤرخون يتبعون المنهج العلمي أمثال أوغسط سوكولوسكي August Sokoluski ، أدولف اميلندر . أما كاميل كاتناك Katnak فهو صاحب العمل التاريخي المشهود له بالدقة والصحة عن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في بولندا ، وقد كتب بحثه من وجهة نظر مؤيدة للكاثوليكية .

وفي تشيكوسلوفاكيا حلت محل أعمال المدرسة التاريخية القديمة التي مثلها بلاكي أبحاث اتبعت المنهج العلمي السليم مثل تلك التي كتبها يوسف بيكار Peckar . فاكلاف نوفوتيفي Vac- lav Novotny . وفي المجر كانت أعظم الأعمال أهمية في مجال الكتابة التاريخية في القرن العشرين هي ما كتبه فالدمين هومان عن التاريخ المجري بالاشتراك مع جوليوس سركفو Jufuis Szekfu . أما ابوجين هورفات فقد أخرجت أحسن الأبحاث عن المجر وعن أصول الحرب العالمية الأولى . أما في رومانيا فإن مدرسة اكزينوبول حلت محلها أبحاث العلماء العملاقة مثل نيقولا يورجا . وفي بلغاريا كان خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية م . س . درينوف ، ف . ن . زلاتارسكي . في يوجسلافيا فقد مثلها ستويان نوكوفيك ، جوفان رادونك ، ستانجو ستانجوفك Stonoyie Stanoyevic .

الكتابة التاريخية الناقدة في الولايات المتحدة الأمريكية

ترجع نشأة المدرسة التاريخية الناقدة في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حوالى وقت انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية . وتدين المدرسة الأمريكية الحديثة في بدء وجودها إلى حد كبير إلى الأثر الذي أحدثته المدرسة الألمانية حيث ان جورج بانكرفت استمع في الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى محاضرات هيرمين في جامعة جوتنجن ، ثم درس بعد ذلك في برلين وأصبح صديقا لفون رانكه . وإذا كان بانكرفت ليس له إلا تأثير ضئيل على المناهج العلمية التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب عدم شغله لإحدى وظائف التدريس بالجامعات ، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يحول دون الاعتراف بأنه صاحب الفضل في نقل نشاط المدرسة الألمانية إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

أما البداية الحقة لتطبيق المناهج الألمانية السليمة في الولايات المتحدة فترجع إلى سنة ١٨٥٧ وذلك حين بدأ ثلاثة من أساتذة الجامعات نشاطهم في ثلاث جامعات أمريكية أولهم هنرى كورى الذى خلف سباركس في جامعة هارفارد وفرانسيس ليبر الذى شغل منصب الأستاذية في كولومبيا ، واندرو هوايت الذى قبل أن يشغل كرسي للتاريخ في جامعة ميتشجان . والمهم هو أن هؤلاء الأساتذة الثلاثة تلقوا تعليمهم جميعا في ألمانيا وعلى أيديهم وجد رباط بين المدرستين التاريخيتين الألمانية والأمريكية . وبالإضافة إلى ذلك فإن أندرو هوايت تأثر بالمدرسة الفرنسية في

شخص جيزو . ولم يقصر تدريسه على نطاقه السياسي الضيق بما يحويه من تقسيم زمني فحسب ،
وهي الطريقة التي التزم بها أشد الناس التزاما بمنهج فون رانكه والتي سارت عليها المدرسة
البروسية .

ثم كان أن لقيت المدرسة التاريخية النافذة في أمريكا دفعة قوية بفضل قيام هربرت
باكستر آدمز بتدريس التاريخ في جامعة هوبكنز في سنة ١٨٧٦ بعد أن أنهى نشاطه مباشرة في
جامعات جوتنجن ، هيدلبرج وكلها جامعات ألمانية . ولا ينسب لآدمز فقط إدخاله طريقة حلقات
البحث للدراسة والتعليم في أمريكا على غرار حلقات البحث الألمانية ، وإنما ينسب إليه أيضا
إنشاؤه وتنظيمه أول مدرسة لتدريب المؤرخين في الولايات المتحدة الأمريكية . ومع بداية القرن
العشرين أصبح من النادر وجود جامعة أمريكية كبيرة ليس بقسم التاريخ فيها واحد أو أكثر ممن
تدربوا في حلقات بحث هوبكنز . وكانت الأبحاث التي قدمت في حلقات البحث تمثل أول حصيلة
مدونة من نتاج المدرسة التاريخية النافذة في أمريكا وللنظريات التاريخية الممثلة للمدرسة الألمانية .

ويمثل الأستاذ جولد وليم برجس شخصية لها دورها القيادي في إدخال مناهج المدرسة
الألمانية والافتداه بها في أمريكا . وكان برجس قد بدأ عمله في جامعة أمهرست سنة ١٨٧٣ بعد
دراسته التي تلقاها في جامعات جوتنجن ولبيزج وبرلين . وإليه يرجع الفضل في تأسيس كلية العلوم
السياسية الشهيرة التابعة لجامعة كولومبيا سنة ١٨٨٠ وهي التي ناقشت في أبحاثها بل تفوقت على
أبحاث حلقات بحث جونز هوبكنز . وإذا كان آدمز قد قدر قيمة المناهج السليمة للمدرسة
الألمانية ، إلا أنه كان وافر الثقة في قدرة الأساتذة الأمريكيين على شرح وتطبيق استيعاب هذه
المناهج . لكن الأستاذ برجس على العكس من ذلك كان مقتنعا بأن الأمريكيين على أحسن
الفروض لن يكونوا سوى محاكين لنتائج العبقرية الألمانية ومقتبسين منها ، من ثم فإنه نصح طلبته
بأن يتموا دراستهم في ألمانيا . وكان أن استجاب طلبته لنصيحته وذهبوا إلى ألمانيا في حشد كبير على
حد قول الأستاذ آدمز حتى أصبحوا معروفين هناك (في ألمانيا) «بكلية الأستاذ برجس وتلاميذ
مدرسته » . وقد قصد هؤلاء الطلبة ألمانيا للاستماع إلى محاضرات درويزن وعادوا من هناك مشبعين
بالروح الألمانية وبروح درويزن في الاهتمام بدراسة التاريخ السياسي وبآراء ليوبولد فون رانكه
في كتابة التاريخ .

وبالإضافة إلى جهود كل من جون هوبكنز وجامعة كولومبيا فإن المناهج الحديثة برزت في
جامعة مينشجن تحت إشراف شارل ك . آدمز ، وفي جامعة كورنل تحت إشراف الرئيس الأمريكي

هويت ، ول . ك . آدمز ، م . ك . تايلر ، ج . ل . بير Burr . هذا في الوقت الذي حمل افرام امرتون Ephraim Emerton ، ادوارد شانتج في جامعة هارفارد عبء المضي قدما بهذه المناهج الحديثة التي حمل لواءها هنري آدمز في السبعينات من القرن الماضي . أما في الوقت الحاضر فقد بسطت المدرسة الحديثة لواءها على كل جامعات أمريكا ولم يعد الطلبة الدارسون للتاريخ بحاجة على حد قول الأستاذ جوخ لتلقى تعليمهم بالخارج . ففي حلقات البحث التي أدارها عدد من كبار الأساتذة الأمريكيين لم يعد الطالب الأمريكي الجاد في بحثه بحاجة إلى تلقي تدريبه بالخارج ، إذ صار مستوى هذه الأبحاث لا يقل عن مستوى مثيلتها بالخارج . ومن هؤلاء الأساتذة نذكر هربرت . ل . اوزجود ، وليم ا . دانتج ، جورج بيرتون آدمز ، ج . ف . هميسون ، فردريك جاكسون تيرنر ، جورج لتكولن بير ، ادوارد شانتج . أما ادوارد حـ . بورن ، دانا ك . مونرو Dana C. Munro ، شارل هـ . هاسكنز ، فرديناند شيفل ، كارل بيكر ، ك . هـ . ماك ايون ، جيمى س . فورد Guy S. Ford ، و . س . موزى ، ايفارتس جرين وغيرهم كثيرون .

ثم كان أن حل النفوذ الفرنسي إلى حد ما محل النفوذ الألماني على المدرسة الأمريكية في السنوات الأخيرة ، وأصبح معظم الباحثين الأمريكيين في تاريخ العصور الوسطى ينهون تدريبهم في مدرسة الوثائق الفرنسية وهي المدرسة التي لا نظير لها في أمريكا . وقد بذل عدد من الأساتذة الأمريكيين أمثال آدمز وبورن وماسي وفنستنت وايرل دو ، وفوستر وآلن جونسون وهوكت وترون R. M. Tryon جهدهم للارتفاع بمستوى منهج البحث لكن خير ما أتجوه في أمريكا لا يمكن أن يرقى إلى مستوى انتاج برنا نهايم أو وولف ، أو لانجلوا أو سيجنوبوس Seignobos .

ويصبح الكلام عن إدخال المناهج الحديثة في الكتابة التاريخية مبتورا ما لم نشر إشارة عابرة إلى انتاج الأستاذ ألبرت بوشنل هارت الأستاذ بجامعة هارفارد . حقيقة أنه لم يساهم بشيء يستحق التنويه من ناحية تطوير المنهج العلمي النقدي في كتابة التاريخ ، ولكن مما لا شك فيه أنه رائد رواد تطوير الأبحاث العلمية في مجال التاريخ الأمريكي ونظام المحكم في أمريكا ، فضلا عن مقدرته كمؤلف وفيما أحدثه من نشر المناهج التعليمية في البحث . والواقع أنه جمع في مقدرة تامة بين ما يحرص عليه الأمريكيون من ضخامة الإنتاج واهتمام بالكم ، وبين التزام هذا الإنتاج بمنهج البحث التاريخية .

وهناك من الأبحاث الأمريكية ما التزم أصحابها بالمنهج النقدي حتى بلغت من المستوى ما يجعلها جديرة أن تقارن بأحسن الأبحاث في أوروبا . وكان لهذه الأبحاث فضل في تصحيح

الأفكار والآراء الخاصة بالتطور القومي الأمريكي . فالاستاذ هربرت ليفي اوزجود تناول في كتابه فترة خضوع الولايات المتحدة الأمريكية للاستعمار الأجنبي . وكان اوزجود قد درس على يد برجس وفون رانكه ، واعتبر كتابه الخالد الذي يقع في سبعة مجلدات والذي صدر باسم (تاريخ المستعمرات البريطانية في أمريكا) من أرقى ما يمكن أن يصل إليه بحث التزم بمنهج المدرسة الأمريكية وهو كتاب جدير بأن يقارن بكتابات جاردنر ، أولارد . كذلك كتب جورج لويس بير بالاشتراك مع ل . هـ . جيبسون Gipson وآخرين كتابا في عدة مجلدات لدراسة علاقة المستعمرات البريطانية في أمريكا بالسياسة الخارجية البريطانية . أما شارل م . اندروز فقد جمع بين النظرة الناقدة الباحثة والمفهوم الواسع للتاريخ الذي يفوق دائرة مفهوم اوزجود . وكان ذلك كفيلا بأن يجعله على رأس قائمة المؤرخين الذين عالجوا فترة الاستعمار البريطاني للولايات المتحدة الأمريكية . كذلك أكمل جيمس ترسلو آدمز عمل شارل فرانسيس آدمز للإجهاز على أسطورة البيورتان . جاء كتابه عن تاريخ استعمار ولاية ماسوشيت بأمريكا أحسن ما كتب في هذا الموضوع . أما ا . جـ . بورن E. G. Bourne ، وهربرت ابوجين بولفن فقد قدما وجهة نظر جديدة بالنسبة لدراسة تاريخ الاستعمار وذلك بأن جمعا بين ما اهتم به المؤرخ بريسكوت وبين المتمسك بالمنهج العلمي مع تأكيدهما أهمية دور الاستعمار الأسباني بالنسبة لتاريخ أمريكا الشمالية في دوره الأول . أما ايفارتس ب . جرين فقد نجح بوصفه مؤرخا متحفظا مدققا في أن يرقى إلى المركز الذي وصل إليه من قبل الأستاذ اوزجود ، وذلك في الكتاب الذي ألفه عن عصر الاستعمار الأجنبي في أمريكا . وثمة كتاب ألفه الأستاذ كلارنس و . الفورد واتسم بالابتكار والتعمق - هو الكتاب الذي يحمل اسم «وادي المسيسي في السياسة البريطانية» . وقد أوضح كلارنس في هذا الكتاب لأول مرة المشاكل الإدارية بالنسبة للاستعمار البريطاني في غرب ألجني وذلك في الفترة الأولى لقيام الثورة الأمريكية . واستطاع أن يغير في بحثه من المفهوم الدارج بأن بداية الصراع بين الاستعمار والثورة كان في ميناء بوسطن . كذلك أوضح ارثر م . شليزنجر الأسس الاقتصادية والتجارية للثورة الأمريكية . أما س . هـ . منستر ، ا . كـ . فليك ، جـ . هـ . سيبير ، م . كـ . تايلر ، كـ . هـ . فان تين ، فقد أنصفوا في دراستهم أولئك الموالين للاستعمار خلال الثورة الأمريكية ومنزل ذلك يقال عن فان تين الذي أنتج أفضل كتب التاريخ عن الثورة الأمريكية . وكتب كارل ل . بيكر هو الآخر أعظم الكتب المبتكرة عن الأسس الثقافية للثورة ، كما شرح موضوعها . أما الأستاذ ماكس فراند Max Farrand فعالج فترة تكوين الدستور الأمريكي في كتاب مفصل ناقد . كذلك تعرض الأستاذ بيرد في بحث ممتع لنفس تلك الفترة عندما تناول

الأسس الاقتصادية للدستور . واستعرض الأستاذ حنا باخ ماك ماستر في كتابه فترة السبعين الأولى من الاستقلال الأمريكي وهو كتاب يدل على علم صاحبه فضلا عن اتساع أفقه بدرجة لم تتوافر لأى باحث أمريكى آخر . ذلك أنه ضحى بالشىء الكثير لكى يجعل البحث فى التاريخ الاجتماعى أمرا مطروقا شائعا فى الولايات المتحدة الأمريكية وثمة كتاب مفصل لهنرى آدمز عن السياسة الأمريكية الخارجية على عهد جيفرسون وماديسون . ومع أن موضوع الكتاب محدود وضيق إلا أنه يتصف بالعمق أكثر من غيره . كذلك جمع الأستاذ فردريك جاكسون تيرنر ومن خلفه من الكتاب مثل باكسون ، بيلنجتون ، بيللى بين عمق البحث الذى انتصف به اوزجود وبين ما انتصف به ماك ماستر من قدرة على الخلق والابتكار وتعدد الاهتمامات . وظهر ذلك فى أبحاثهم عن استعمار الجزء الغربى من الولايات المتحدة الأمريكية واتساع حدود أمريكا فى ذلك الجانب . وفاقّت أبحاثهم من جميع النواحي العلمية بحث تيودور روزفلت الممتع والمفيد .

والواقع أن مدرسة تيرنر Turner فى أمريكا تمثل أحسن النماذج فى القدرة على الربط بين البحث المتعمق السليم وبين الاتجاه الحديث فى كتابة التاريخ من حيث مراعاة جودة الصياغة والإبداع فى الإخراج . أما ملحمة فون هولت التى هاجم فيها الرق فقد عدل فيها كل من وليم ا . رود ، ألرخ ب . فيلس وأخرون بإدخال وجهة نظر الولايات الجنوبية وتناول جيمس فورد رودس فى بحث يجمع بين الاتزان والإسهاب موضوع الحرب الأهلية الأمريكية ثم مدة التعمير والبناء التى أعقبتها . أما مقدمات هذه الحرب فضلا عن الحرب نفسها فإنها كانت موضع بحث محكم من إنتاج آلان نينين وج . راندال . ثم تناول الأستاذ وليم ا . داننج وتلاميذه الفترة التى أعقبت الحرب الأهلية بالمراسة ، كما عالجت أليس ب . أوبرهولتز - وهى تلميذة الأستاذ ماك ماستر - تاريخ شعب الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية ، واتسم بحثها بالابتكار واستهداف الكمال . ثم أوجز جيمس شولز بطريقة ممتعة كل مراحل التاريخ القومى للولايات المتحدة الأمريكية ، واتسم بحثه بالاتزان . أما الأستاذ شاننج فقد نهض بجهد ضخم لتتبع تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عصر الاستعمار حتى الوقت الحاضر وذلك فى عمل جدير بأن يعتبره الأمريكيون تاريخهم القومى العظيم ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . أما خير الأبحاث الموجزة عن التاريخ الأمريكى التى جمعت بين مزيد من المعرفة ووفرة للمادة وبين المنهج العلمى فتكاد تتمثل فى كتاب د . س . موزى muzzey وعنوانه (الولايات المتحدة الأمريكية) وعن التاريخ الدستورى للولايات المتحدة الأمريكية فقد بحثه فى مقدرة فائقة كل من ا . ك . ماك لالين

Laughlin ، ا . س . كورون E. S. Corwin ، ج . س . لاندون J. S. Landon أما العمل المشترك الذى أشرف عليه جوستين ونسور فيمثل قمة ما بلغته المدرسة التاريخية الأمريكية من مستوى في عهدها الأول ، حين تشرب رجالها بالمناهج النقدية الحديثة . وهناك نموذج متكامل يصور المدرسة الأمريكية في أحسن صورها وهو ما كتبه الأستاذ ألبرت بوشنل هات hart ، تحت عنوان الأمة الأمريكية . وهناك عمل أكثر شمولاً قام به ألن جونسون وأسماء (أحداث أمريكا التاريخية) أما ه . س . كوماجر ، س . ب . موريس ، فقد أقما عن قريب عملاً جديداً أسمياه (الأمة الأمريكية) .

وبالإضافة إلى أبحاث المؤرخين الأمريكيين عن تاريخ بلدهم فإن لهم أبحاثهم الهامة عن عصور أخرى ومراحل عديدة من التاريخ فالأستاذ جيمس هنرى برستد له مكانته بين رواد الباحثين الرئيسيين في التاريخ المصرى القديم والأثرىات المصرية . وكان برستد أول من استخدم الأجهزة الميكانيكية في الكشف عن آثار الشرق الأدنى القديم . وكذلك قام جاك فنجان بتصحيح التواريخ الخاصة بالعصر القديم وتلك المنطقة بالذات - وتبرز أسماء ر . و . روجرز ، موريس جاسنرو ، أ . ت . أولستد ، ج . س . جودسبيد ممن ينبغى الإشارة إليهم لما لهم من أبحاث قيمة عن تاريخ البابليين والآشوريين . أما الأستاذ و . س . فرجسون فتعتبر أبحاثه من أهم المراجع العالمية عن الامبراطورية الإغريقية وأثينا الهيلىنة . وإذا ما انتقلنا إلى و . ل . وسترمان نجده تناول في صورة مبتكرة دراسة نظام الحكم في الولايات الإمبراطورية الرومانية ودراسة التاريخ الاجتماعى القديم مع العناية بموضوع الرق في العصور القديمة . أما تبنى فرانك ، فرانك ف . ابوت . جرانت شويرمان Showerman فكانت لهم أبحاثهم التى تتم عن دراسة واسعة بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لروما . كذلك تناول ج . د . بوستفورد ، ه . أ . كالدول ، دراسة التاريخ القديم دراسة اتسمت بنفاذ البصيرة وتعمق البحث ، أما ج . و . سوان Swain ، أ . أ . تريفر AA Trever ، رالف تيرنر فقد تناولوا في أبحاثهم كل جوانب التاريخ القديم .

أما في مجال تاريخ العصور الوسطى فهناك جورج لنكولن بير الذى يعتبر حجة الباحثين عن العصر الكارولنجى وثقافة العصور الوسطى ، كما أنه لا يوجد من يناافسه في أوروبا أو أمريكا في دراسته لموضوع حق الأفراد في إبداء آرائهم وحرية معتقداتهم الدينية . كذلك بحث ل . م لارسون تاريخ انجلترا في أوائل العصور الوسطى كما تناول جيمس وستفال طومسون موضوع نشأة الملكية الفرنسية على عهد لويس السادس ، مثلما بحث تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى كذلك كان دانا

Dana مونرو واحداً من أقدر المؤرخين الأمريكيين الذين تخصصوا في دراسة تاريخ العصور الوسطى وخاصة موضوع الحروب الصليبية . أما شارل . هـ . هاسكنس فقد بحث تاريخ النورمان ودورهم في أوروبا في العصور الوسطى واتصف بحثه لهذا الموضوع بالإتقان والدقة التي لا يدانيه منها أى باحث آخر أمريكياً كان أو أوروبياً . ولا نجد بين علماء الإنجليز من يقارن بجورج بيرتون آدمز سوى القلة القليلة وذلك بالنسبة لتعمقه في دراسة التاريخ الدستوى لـ إنجلترا في العصور الوسطى أما أرنيست ف . هندرسون فقد أوجز النتائج التي وصلت إليها الأبحاث الحديثة عن تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى والحديثة . كذلك نهج أفرانيم امرتون منهجاً علمياً في أبحاثه المسهبة عن تاريخ العصور الوسطى في كافة مراحلها أما لين ثورنديك فانصفت أبحاثه في تاريخ العصور الوسطى بالمنهج العلمى والابتكار وخاصة كتابه الكبير عن الحياة الفكرية والعلمية في العصور الوسطى . واستطاع هنرى اوزبون تايلور أن يكتب كذلك خير كتاب عن تاريخ الفكر في العصور الوسطى . أما جيمس رستفال طومسون فقد عالج تاريخ أوروبا في العصور الوسطى من كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية علاجا موجزا مركزا جعل له مكان الصدارة لا بين المؤرخين الأمريكيين فحسب بل بين غيرهم ممن تخصصوا في تاريخ تلك العصور . وهناك من المؤرخين الأمريكيين فرديناند شيفل الذى أبدع في كتابه عن التاريخ الثقافى لعصر النهضة كما أنه خير من كتب عن تاريخ فلورنسا .

أما الأستاذ بريزر فـدسميث فقد تصدر الباحثين الامريكيين الذين عالجوا عصر الإصلاح الدينى ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخ . م . هولم Hulme إذ أوجز العلاقات الخاصة بعصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى .

وإذا كانت لدينا الآن نظرية مبتكرة ومقبولة بوجه عام تنادى بأن بداية العصر الحديث إنما ترجع إلى حركة الاستعمار الأوربي أكثر مما ترجع إلى عصر النهضة أو عصر الإصلاح الدينى . فإن هذه النظرية كانت مدار الأبحاث الممتعة التي كتبها كل من و . ر . شيفرد ، و . ك . ابوت ، ج . ب . بوستفورد ، ج . ا . جيليسى ، ا . ب . شينى ويعتبر ما قام به الأستاذ شيفرد من دراسات عن حركة الاستعمار الأوربي - وذلك بالإضافة إلى عمل ف . ج . تيرنر - من أحسن ما قام به أى مؤرخ أمريكى آخر من حيث الاستفاضة والشرح المبتكر أما أبحاث كل من هـ . م . ستيفنس ، ف . م . فلنج ، و . م . سلون ، هنرى . ا . بورن ، كارل بيكر وتلامذته ليو جيرشوى Gershey ، لويس جوشول ، فقد أضافت الشيء الكثير إلى معلوماتنا عن عصر الثورة الفرنسية و نابليون .

وعالج ولیم روسکو تیر **Thayer** تاريخ إيطاليا منذ نهاية عهد نابليون حتى إتمام وحدتها . وكذلك فعل كل من هندرسون ، وشيفلر ، و . ج . س . فورد بالنسبة لتاريخ ألمانيا الحديثة . أما ر . ف . ميرمان **R.B. Merriman** فقد بحث في كتاب على جانب كبير من الأهمية تاريخ الإمبراطورية الأسبانية وثمة كتاب ممتاز عن التاريخ الإنجليزي كتبه ا . ب . شيني **W.B. Cheyney** وا . ل . م . لارسون ، ا . ل . كروس ، و . ا . لنت **Lunt** وآخرون . كذلك كتب المؤرخ شيني بحثا له قيمته وعلى مستوى كبير من الناحية العلمية عن السنوات الأخيرة في حكم اليزابيث . وأنتج س . هـ . ماكلوين **MacLwain** عدة أبحاث علمية عن تاريخ النظرية السياسية وجذور الحكم النيابي . أما ا . هـ . ليبير فكان المؤرخ الأمريكي الرئيسى الذى اختص بعنايته بتاريخ الحضارة البيزنطية والأتراك وأسهم س . م . اندروز ، س . د هازن ببعض القصص السياسى عن تاريخ أوروبا الحديث .

وشهدت الولايات المتحدة الأمريكية في شخص الأستاذ جون باست مور باحثا له من غزارة المعرفة ما جعل منه حجة في تاريخ القانون الدولى والدبلوماسية . أما أبحاث كل من د . ج . هيل ، ج . فوستر ، أ . ك . كولدج ، ل . ر . فيش ، ك . ك . تانسفيل ، و . ل . لانجر ، ج . د . سوان **Swain** ، ر . ج . سونتاج ، باركرت ، مون ، ر . ل . بل **Buell** ، ح . هـ . بلاكسلى **Blakeslee** ، س . ف . بيمس **Bemis** فقد تناولت العلاقات الدولية المعاصرة .

أما عن الأحداث السياسية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى فقد بحثها ر . ب . لانجر ، س . ب . فای ، ر . ج . سونتاج ، أما خير مرجع عن دخول أمريكا الحرب فهو ذلك الذى كتبه ك . ك . تانسيل بعنوان « أمريكا تدخل الحرب » ، وأخيرا فإن د . ل . هوجن **D.L. Hoogean** أخرج الكتاب الوحيد الشامل عن أسباب الحرب العالمية الثانية .

ومن بين المؤرخين الأمريكيين الذين أبدوا مقدرة فائقة بصفة خاصة في مجال دراسة تاريخ أمريكا اللاتينية تبرز أسماء و . س . روبرتسون ، ج . ف . ريبى **Rippy** ، هـ . أ . برستلى ، برنارد موسس ، ل . و . هاكت ، ك . هـ . هارنج ، أ . ك . باركر ، ك . أ . شامبان ، فرانك تاننوم ، د . م . دوز ، ج . مونرو . هيوبرت هيرنج ، ك . ك . جونز **Jones** .

كذلك كتب المؤرخون الأمريكيون أبحاثا تاريخية علمية أخرى عن أمريكا الأسبانية نختار منها بصفة خاصة كتابات باروس آرانا ، أورتهجاي رويو ، الجاندرو الفاريز ، أوليفيا إليها وآخرون . أما كارل ونيك **wittke** ، ج . ب . بربر **Brehner J.B.** فلها أبحاثها عن تاريخ كندا . كذلك

قام ج . ت . شوتويل بعمل سلسلة مستفيضة من الدراسات عن العلاقات الأمريكية الكندية .

وعن تاريخ الشرق الأقصى هناك عدة كتب ممتازة ألفها س . ك . هورنبيك **Hornbeck** ،
تايلر دينت ، ك . س . لاتوريت ، أ . ت . وليامز ، ه . م . فيناك ، ب . ج . تريث **Treat** ، و .
جريرز ولد ، ناثينال پفر **Nathaniel paffer** ، ب . ه . كليد **Clyde P.H.** ، و . ل . نيومان .

كذلك كان تاريخ المسيحية والكنيسة موضوع اهتمام عدد كبير من الباحثين الأمريكيين .
ومن الأبحاث التي كتبت في هذا الشأن أبحاث هنري شارل وهي أبحاث عديدة وممتازة ومتخصصة
تناولت تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى وجعلته على مرتبة كبار العلماء الأوروبيين أمثال هارناك
Harnack ، دينقل ، دوشزن . كذلك عرض على كل ن ج . ب . فيشر ، فيليب شاف ، ولسن
والكر في إيجاز تاريخ الكنيسة المسيحية باسمه . أما أ . ك . ماك جيفر فله شهرته الدولية لما كتبه
عن ايزيوس ، وكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ الكنيسة في أيامها الأولى وعن تاريخ الفكر
المسيحي . أما عن نشأة الكنيسة في العصور الوسطى فهناك عدة أبحاث هامة كتبها كل من ج .
ك . اير **Ayer** ، أ . ك . فليك ، وقد كتب فليك خبر ما يمكن كتابته عن المدخل إلى انهيار سلطان
الكنيسة في العصور الوسطى . كذلك عالج كل من بريمز فندسميث ، امرتون ، س . م جاكسون ،
ه . أ . جاكوبرز ، حركة الإصلاح الديني وبحث في هذا الجانب أيضا داود شاف ، جاكسون ، و .
و . روكويل ، وكان لهذا الأخير (روكويل) الفضل في إطلاع الأمريكيين على أحدث أبحاث
الأوروبيين في هذه الناحية . كذلك كان شاف **schaff** ، بورتر جاكسون **Potter** أبحاثهم التاريخية
المستفيضة عن الكنائس الأوربية . وكان اهتمام المؤرخين الأوروبيين بدراسة التاريخ القديم
والوسيط — وهو أحد الانطباعات التي تركتها المركتان الإنسانية والتعقلية على المؤرخين —
صدي ردود فعل في المدرسة الأمريكية إذ أدى ذلك إلى إهمال دراسة التاريخ الحديث لفترة معينة .

لكن جهود الجيل الجديد من المؤرخين الشبان تنبئ بأنهم سيعوضون هذا النقص في التاريخ
الحديث وأنهم سيخرجون عن نطاق المؤلف عند من سبقهم من المؤرخين . بحيث لا تكون
أبحاثهم من حيث الكم والكيف أقل من أبحاث أساتذتهم السابقين الذين تخصصوا في دراسة
العصور الوسطى . ومصدق ذلك سلسلة الأبحاث التي أخرجها و . ل . لانجر . عن نشأة أوربا
الحديثة ، إذ تعتبر خير نموذج وأحسن شاهد على صدق هذا القول . ويقال نفس الشيء عن أبحاث
التاريخ الحديث التي قام بها ل . ب . هايبي وآخرون سنة ١٩٢٩ إذ شجعت هذه الأبحاث حركة
البحث في هذا الجانب .

أما كتابة التراجم التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية فقد ظهرت في صورة غزيرة واتخذت شكلا موجزا ومن أمثلتها - مجموعة رجال السياسة الأمريكيين ، (مجموعة تراجم ريفرسيد **Riverside Biographical series** و (قاموس التراجم الأمريكية) ولم تقتصر التراجم على سرد سيرة كبار رجال الدولة الأمريكيين وإنما شملت كثيرين غيرهم . ومن أحسن التراجم تلك التي كتبها س . م . موريسون عن كولومبوس ، وكارل فان دورن عن فرانكلين ، و . س . فريمان عن واشنطن ، أ . ج . بفردج عن مارشال ، ناثان شاشبر وهروس ميتشل عن هاميلتون ، جلبرت شينارد عن جون آدمز ، دوماس مالون عن جيفرسون ، ارفنج برانت **Arving Brant** عن ماريسون ، و . ب . كريسون عن مونرو ، س . ف . بيمس عن جون كينكي آدمز ، ج . س . باست عن جاكسون ، ك . م . ولتر **Wiltse** عن كاهون ج . بفردج ، ج . ج . راندال عن تكولن . فريمان عن لي **Lee** ل . ب . ستريكر عن جونسون ، الآن نيفنس عن كليفلاند ، ونيفتس و . ج . ت . فلين **J.T. Flynn** عن روكفلر ، هربرت كرولي عن مارك هانا ، مارجريت ليش **Leach** عن ماك كيلي ، ه . ف . برنجلي ، ه . ك . بيل عن تيودور روزفلت ، برنجل عن تافت ، أ . س . لنك **Link** عن ووردولسن ، فرانك فريدك **Freidel** و . أ . م . شيلزنجير عن ف . د . روزفلت .

وكما صار الحال في العلوم الطبيعية وبقية فروع المعرفة ، لم يلبث أن غدا علم التاريخ يخضع من نواحي البحث والإشراف لجهود مشتركة تنهض بها جمعيات تاريخية قامت بدور البوتقة التي تنضج فيها الأبحاث والمناقشات التاريخية . وكان أن ظهرت المجلات التاريخية التي تنشر هذه الأبحاث ، الأمر الذي يسر سبل التعاون بين الباحثين على نطاق دولي . ففي سنة ١٨٥٩ أسست الجمعية التاريخية الألمانية . وفي سنة ١٨٦٦ أصدرت الجمعية التاريخية الفرنسية مجلتها . وفي سنة ١٨٨٤ أصدرت الجمعية الإيطالية مجلتها ، كما صدرت المجلة التاريخية الإنجليزية في سنة ١٨٨٦ والأمريكية في سنة ١٨٩٥ .

كذلك تم تبادل الأساتذة بين الجامعات خلال الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى وازداد هذا التبادل بصفة خاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية وهو اليوم أكثر منه في أي وقت مضى .

ولكن إذا كانت المدرسة الاستقصائية الحديثة في التاريخ تفتخر بأنها تجنبت الناحية الفلسفية واستندت للموضوعية في بحوثها ، فإن هذه (الموضوعية) نفسها سرعان ما غدت لها جوانبها

الفلسفة التي أصبحت لها نتائج أشار إليها شارل أوستن بيرد في مقال له نشرته المجلة الأمريكية التاريخية في عدد أكتوبر ١٩٣٥ بعنوان (ذلك الحلم الجميل) . وعن هذا الموضوع بالذات ينبغي أن تنتقل الآن لإبداء بعض الإشارات والتعليقات والفروض القائمة خلف الموضوعية في كتابة التاريخ .

الفروض القائمة خلف الموضوعية في كتابة التاريخ

سنوجز فيما يلي ما نستطيع قوله بشأن فحص مبادئ المدرسة الاستقصائية الحديثة في كتابة التاريخ (Erudite School) فحصا ناقدا ، ذلك أنه كان مفروضا لوقت طويل أن الكمال في علم التاريخ لا يتأتى إلا بتحقيق مزيد من مبادئ فون رانكه ومدرسته واتباع أصوله وتعاليمه . كذلك كان يظن أنه طالما أصبح في الإمكان نقد الوثيقة من حيث شكلها وجوهرها ، فإنه صار من الميسور أن نعيش في الماضي الذي تحدثنا عنه تلك الوثيقة ونعيد تصوير وبناء ذلك الماضي كما كان بالضبط . ولكن تجمع لدينا من إمكانيات النقد العلمي ما يكفي لهدم جميع الفروض السابقة ففي المقام الأول استطاع علم النفس الحديث أن يقوض تماما افتراضات أولئك الذين يحملون بتحقيق موضوعية تاريخية تامة . ذلك أن علم النفس أوضح أنه ليس في الإمكان إنتاج عمل ثقافي على مستوى رفيع دون أن يكون للقائم به اهتمام حقيقي واقتناع سليم بما يعمل به ، وأن الرأي القائل بأن فكر الإنسان قادر على العمل في حيوية وهو في حالة فراغ عاطفي ودون هدف ، أمر يناقض تماما المبادئ الأولية في علم النفس . وإذا كان علماء المدرسة الاستقصائية في التاريخ ينادون بأنه ينبغي عدم الالتزام بفكر أو رأي معين عن أي موضوع قبل الإقدام على بحثه وهو الرأي الذي أصبح مقبولا تماما . ولا يشك في صحته كافة المشتغلين بعلم التاريخ ، فإننا نؤكد هنا مرة أخرى القول بأنه على الرغم مما للحقيقة التاريخية من (قداسة) لدى رجال هذه المدرسة فإن هذا لا يحول دون وضع الحقيقة التاريخية موضوع التحليل الناقد .

إن كل حدث تاريخي هو بالضرورة فريد في ذاته وليس له شبيه ولا يتكرر كلية مرة ثانية وأن كل حقيقة تتسم بهذا الانفراد وعدم التشابه مع غيرها من الحقائق وذلك بالنسبة للظروف الأخرى التي أعاطت بها وارتبطت معها . فالحقيقة التاريخية تعبر عن توافق مجموعة ظروف خاصة ولدت وانتهت بوقوع الحدث . ومعنى ذلك أنه عندما نقول إننا اكتشفنا حقيقة تاريخية فمعنى هذا أنه

توافر لدينا من المعرفة ما يجعل في مقدورنا أن نعيد صياغة أو بناء عنصر أو أكثر من العناصر التي أحاطت بهذه الحقيقة وأن هذه الصياغة تتم على وجه ناقص في ظروف تختلف تماما عن الظروف التي أحاطت بتلك الحقيقة . ومعنى هذا أنه ليس في مقدور أحد أن يعيد خلق العناصر التي وجدت عند وقوع الحدث كما كانت ساعة وقوعه ، وكل ما نفعله الآن بخصوص الحقيقة التاريخية هو أننا نضع فيها نتائج تصورنا الذاتي . وأن ما يعتقد كثر من المؤرخين بأن هناك عددا من الوقائع المترابطة والملموسة التي يطلق عليها اسم (حقائق تاريخية) وأن السبيل إلى الوصول إلى هذه الحقائق التاريخية لا يتها إلا بجمع العديد من المصادر التاريخية ، هذا الاعتقاد ليس في الواقع إلا اعتقادا ساذجا غير مقبول . ولسوء الحظ لم يتبدد هذا الاعتقاد بدخول التفكير الحسمى الناقد إلى مجال التاريخ . ويمكن تشبيه هذا الاعتقاد لدى أولئك المؤرخين بالنظرة التي كانت لدى رجال العلم عن الذرة إذ كانوا يعتقدون أنها شيء بسيط لا ينقسم ثم اتضح أنها في تعقدها تبلغ ما يبلغه عالمنا من تعقيد .

وفي بحث ممتع عنوانه «ما هي الحقائق التاريخية؟» أنقاه الأستاذ كارل بيكر أمام الجمعية التاريخية الأمريكية في روشستر بنيويورك في ديسمبر سنة ١٩٣٦ تم القضاء تماما وإلى الأبد على الهالة الكاذبة والخرافة التي كانت تحيط بالحقيقة التاريخية . ذلك أن بيكر أوضح مدى ما تقع فيه من خطأ فادح حين نقول عن حقيقة من الحقائق التاريخية إنها حقيقة ثابتة . وقال البروفسور بيكر : (إنه إذا ما قلنا ذلك تبدو الحقائق التاريخية في النهاية وكأنها أشبه بالأشياء الطبيعية شيئا صلبا وثابتا ، شيئا له شكله المحدد الواضح ، شأنها شأن الطوب والصخور . ومعنى ذلك أن يصبح في المسور تصور المؤرخ وهو يتجول بين حقائق الماضي ، وكأنه يتجول بين أشياء صلبة جامدة تصطدم بها أرجله إذا كان غير محترس منها) .

وأخذ بيكر حقيقة من أبسط حقائق التاريخ والتي لا نزاع بشأنها ولا خلاف حولها . ولننقل عبور قيصر للنهر الإيطالي روبيكون ^(١) Rubicon . في التاريخ القديم . وأوضح بيكر مدى الصعوبة التي تحول دون الوصول إلى رأى قاطع يفسر لماذا عبر قيصر النهر وكيف تم هذا العبور . وتناول في بحثه التباين الشاسع بين الآراء التي تناولت هذه الحقيقة لأن من يسردها لا بد أن يظنى

(١) أحد أنهار إيطاليا القديمة عبره قيصر في سنة ٤٩ ق.م وكان معنى عبوره هو إعلانه الحرب على بومبي وعلى السناتو ، وأصبح الاصطلاح «عبر قيصر النهر» تعنى أن دولة ما استعنت للحرب . المترجم

عليها ذاتيته . كذلك تناول بيكر الأسباب الأساسية التي تثبت عدم صحة هذه الحقيقة اللهم إلا في كونها تكون عنصرا من العناصر التي تؤلف رواية تاريخية يستحيل تنسيقها وتجميعها من جديد كما كانت وقت وقوع الحدث «وهكذا فإن حقيقة وألف حقيقة من الحقائق البسيطة الفرعية تجمعت لتتألف منها تلك الحقيقة الخاصة بعبور قبصر الروبيكون . ولو كان لدينا شخص مثل جيمس جويس حاول أن يجمع هذه الحقائق التاريخية المرتبطة بتلك الحقيقة البسيطة لتطلب الأمر منه كتابة ٧٩٤ صفحة ليوضح حقيقة عبور قبصر نهر روبكون» .

وبمعنى آخر فإن ما حرصت عليه المدرسة الاستقصائية في التاريخ وما جعلته هدفها الرئيسى وهو الوصول إلى الحقيقة التاريخية البسيطة المجردة أصبح شيئا خرافيا ينطلى على بسطاء الفكر وقليل الخبرة . ثم مضى بيكر يقول : «إن هذه الحقيقة التاريخية البسيطة حين تكتشف فليس معنى ذلك أن نتوقع وجودها بحدود واضحة ثابتة كالقطعة من الطوب أو الصخر . إن هذه الحقيقة التاريخية ليست إلا تعميماً لألف حقيقة من الحقائق الأبسط منها . وهذه الحقائق الأبسط لاتعينا في حاضرتنا ، كأننا في سردنا للتاريخ لا نستطيع أن نتناول الحقيقة الكلية مجردة من هذه الحقائق الأصغر منها العالقة بها . وجملة القول أنه كلما كانت الحقيقة التاريخية أبسط ما تكون كلما كانت أكثر تحديدا ووضوحا . لكنها في نفس الوقت تصبح بالنسبة لنا أقل قيمة وفائدة في مجال بحثنا . وعلى هذا الأساس ربما كان أكثر فائدة أن نقيم الحقيقة على أساس مدى فائدتها لنا بدلا من تقييمها على أساس صحتها أو عدم صحتها» .

وهكذا غدا الركن الأول الذى قامت عليه المدرسة الاستقصائية واهى الأساس ، الأمر الذى يجعلنا لا نستطيع أن نسلم ببقاى أفكارهم ومفاهيمهم الأخرى . ذلك أن نظرتهم ينبى أن يعاد النظر فيها على أنها تحوى قدرا كبيرا من الخيال والوهم ، وإن كانت تمثل خير ما لدينا الآن .

وكانت الآراء التى خرج بها الأستاذ بيكر من بحثه كفيلة بأن تهدم أسس نظريات فون رانكه وتابعيه ، وذلك مثلما حدث عندما هدم علماء الطبيعة أمثال : اينشتين ، بلانك ، شرودنجر ، هيرندبرج النظريات القديمة فى علم الطبيعة التى ظلت قائمة منذ نيوتن حتى هيلمهولتز ذلك لأنه من المتعذر تماما إعادة خلق الماضى كما كان بالتمام والكمال .

ولاشك فى أن هذا البحث الذى نشره بيكر احتل فى علم التاريخ ما احتلته نظرية اللانهاية فى علم الطبيعة المعاصر . ومن الواضح إذا أن المحور الأساسى الذى قامت عليه المدرسة

الاستقصائية ، ونعني بهذا المحور : إمكان اكتشاف حقائق التاريخ على وجه الإطلاق والتحديد ، وإظهار الحقائق في صورة واضحة محددة لاشبهة فيها ولاجدال حولها ، بحيث تظل هذه الحقائق في ظل كافة الظروف ومن وجهة نظر جميع المؤرخين هي نفسها دون تغيير ؛ هذا هو المحور الأساسي الذي قامت عليه المدرسة الاستقصائية في علم التاريخ إنما يصور وهما من أوهام عصر ما قبل علم النفس . ولخص الأستاذ أ . أ . جولد نوزر A. A. جوهر هذا الموضوع في قوله :

« إن عمل المؤرخ لا يخرج عن كونه اختياراً للأحداث التي يريد الحديث عنها . ولا يمكن أن تنفصل نظراته عما يختاره من أحداث . فنظرته إليها تؤثر على اختياره إياها ولو تأثيراً جزئياً . وعندما يقول لنا المؤرخون إنهم مجرد ساردين للأحداث وأن الحقائق التاريخية تتكلم عن نفسها ، فإنهم بكل بساطة لا يصدقون سوى أنفسهم إن الحقائق لا تتحدث عن نفسها ولكن المؤرخ هو الذي يتكلم عنها ويتحدث ، وإن الذي تعبر عنه هذه الحقائق إنما يعتمد على سحر عصاه » .

وهناك تغير جذري آخر يحصل دون تأليه الحقائق التاريخية ، ونعني به : أن المؤرخين الاستقصائيين تناولوا هذه الحقائق وجمعوها دون أن يعملوا حساباً للعامل البشري ، وهو عامل قوى له تأثيره ذلك أن كثيراً من علماء التاريخ في الماضي والحاضر عالجوا الأحداث دون أن يكون لديهم أدنى استعداد لفهم هذا العامل البشري ، بل إنهم في الحقيقة وفي غالب الأمر كانوا لا يتعمرون بضرورة ذلك . فإذا اقتصر عملهم على جمع الحقائق وسردها فإنه عمل تستطيع القيام به الكائنات المادية على اختلاف مراتبها أو أي لعبة من اللعب الخشبية يحركها صاحبها فتبدو وكأنها تتحرك من تلقاء نفسها .

وبمعنى آخر : فإن المؤرخين الجماعين للمعلومات مع اهتمامهم بسرد أعمال البشر في الماضي ، إلا أنهم أهملوا العنصر الرئيسي في هذا العمل وأعنى به مسلك الجنس البشري وطبيعته وحتى عندما تظاهر المؤرخون بأنهم يكتبون تاريخ الإنسانية ، فإنهم أبعدوا الإنسان خارج الصورة التي يرسمونها . ولم يكتفوا بتركيز اهتمامهم بصفة أساسية في تفاصيل الحقائق التاريخية وإنما أهملوا العناصر التي يمكن أن تكسب هذه الحقائق سندا كبيرا من الصحة والحقيقة ، وأعنى بها العلوم البيولوجية والاجتماعية التي تساعدنا على فهم طبيعة الإنسان الذي كان مسلكه في الماضي سببا في وجود العناصر التي تجمعت منها وتكونت بفصلها الحقيقة التاريخية . ويقول جيمس هارفي روبنسون « إن عملنا بدون هذه المعرفة الهامة بمسلك الإنسان في الماضي لا يعدو أكثر من الوقوف عند شكل الأشياء وظواهرها في الماضي ، بينما نظل نجهل كل الحقائق الكامنة والهامة في التاريخ » .

إن المؤرخ الحقيقي ليس كالعامل الكادح أو الكاتب الجامع للحقائق من المصادر المختلفة إنه أكثر من ذلك ، إنه الشخص الذي يأخذ هذه المادة الخام ، ينقيها ويغريبلها وينظمها بطريقة يستطيع بها أن يضيء أفكارنا عن الماضي وكيف تمخض الماضي عن الحاضر . وهذه المهمة تحتاج الى مقدرة كبيرة من نشاط الفكر للوصول الى التحليل والربط التاريخيين أكثر من مجرد المضي في عمل بحث تاريخي فحسب . ولهذا السبب وحده نجد هناك كثيرين ممن ينتمون الى مهنة التاريخ ولايتعدى دورهم طلاب بحث ، بحيث لايمكن أن نطلق اسم مؤرخين حقيقيين الا على قلة منهم .

ولكن هذه المدرسة التي اهتم اصحابها بالمزيد من تحصيل المادة واتسمت بالاستقصاء وجمع المادة ، فإنها فيما فعلته حاولت أن تجعل من الحفار وصانع الفولاذ ، وصانع الطوب ومساعد البناء مهندسين . لقد حاولت هذه المدرسة أن تجعل من مهنة المؤرخ مهنة ضئيلة بحيث يقنع بما جمعه من مادة تاريخية وبذلك أضعفت الاهتمام بالنسلك التاريخي الصحيح .

أما إصرار المدرسة الاستقصائية على أن الموضوع الأساسي في دراسة التاريخ هو الجانب السياسي ، فإن هذا الرأي تعرض لهجوم واسع ونقد في الصميم ، بحيث إنه من السخف ومضية الوقت أن نسوق الأدلة لمناقشته وتفنيده . وخير مانقول في هذا المقام هو أن نردد قول فردريك هاريسون من أن ما اعتبره فريمان Freeman جانباً مثالياً في دراسة التاريخ ، إنما أغفل تسعة أعشار ماضى البشر ، وإنه من الأمور الواضحة تماماً أن الجانب السياسي لا يمثل من نشاط البشر سوى نسبة ضئيلة . وعلى هذا الأساس فإنه إذا كانت مهمة التاريخ هي تسجيل كل ما فعله الإنسان وكل مشاهدته وابتغاه ، فإن أبعد الأمور عن الواقع أن نقصره على تسجيل الجوانب السياسية . ولما كان التاريخ السياسي ليس له سوى قيمة ثانوية ويأتى نتيجة لعوامل أخرى فإنه لايمكن أن يكون بمثابة الإطار الذي يضم بين جوانبه مواد التاريخ الأخرى غير السياسية .

أما أهم ماينسب إلى المدرسة الاستقصائية من القول بأن البحث وتجميع الحقائق هو واجب المؤرخ وخير ما يحققه ، فإن هذا القول في ذاته كفيلاً بأن يكون سلاحاً يشهر ضدهم . فحقيقة الأمر هي : أن البحث التاريخي ليس سوى المرحلة الأولى والمبدئية من العمل التاريخي وأن البحث لازمة من لوازم التاريخ ، لكن ليس بالبحث فقط يكون التاريخ بأى حال من الأحوال . فالتاريخ لا يكون الا حين تنسق نتائج البحث التاريخي - ونحلل وننظم ثم ندرس بعقلية موهلة تماماً لديها القدرة على تفهم طبيعة البشر ونظمه الاجتماعية . وبهذا يمكن القول إن البحث التاريخي أصبحت له صفة الكتابة التاريخية الفريدة .

وطالما اعتبر البحث التاريخي والتنقيب بين أحداثه المقياس النهائي للمقدرة في علم التاريخ ، فإن الأمل صار ضعيفا في أن تتعدى الغالبية الكبرى من الباحثين في مجال التاريخ هذا النطاق ، وصار من غير الممكن أن يشعروا بأن مهمة المؤرخ تختلف عن مهمة كاتب الأرشيف .

ولا يقل عن ذلك سوءاً كذلك تلك النظرية التي تنادى بها المدرسة التقليدية من أنه ليس هناك فروق جوهرية بين ماتصل إليه الأبحاث التاريخية من نتائج وقيم . ومعنى هذا القول أن العمل التاريخي يقاس فقط بمدى دقة الحقائق التي يتضمنها بصرف النظر عما تلقى من ضوء على تطور المجتمع والحضارة . وإذا كان للتاريخ مغزى عدا التظاهر بالمعرفة ، فإن علينا أن نعترف بأن المادة التاريخية لا قيمة لها إلا بقدر ماتلقى من ضوء على الحاضر . وليس معنى هذا القول أننا ندعو إلى إهمال البحث في بعض الجوانب الخاصة التي لها أهمية معينة عند الباحث في مجال محدد ، لكننا نقول إن دراسة الديبلوماسية البروسية في القرن السابع عشر لا ينبغي أن يخصص لها من الجهد والوقت ما يخصص لدراسة العوامل التي أدت إلى نشأة الرأسمالية والطبقة الوسطى والقومية في غرب أوروبا في نفس القرن .

ومن الواضح لدى رجال الفكر أن الحقائق التاريخية لا قيمة لها ما لم يتم ترتيبها وفحصها بدقة وتحليلها وتوضيح مضمونها بهدف إظهار تأثيرها على سير الحضارة . أما الوقوف عند مجرد جمع الحقائق وسردها ، فإن ذلك شبيه بدور عالم الطبيعة عندما يكتفى بإجراء التجارب في معمله ليدون نتائجها في مفكرته الخاصة ولا شيء أكثر من ذلك . ومن المنطق عليه عالميا أن النتائج العلمية تؤدي دورها عندما نصل عن طريق مجموعة كبيرة من الأبحاث إلى ما يسمى بقانون العلم التجريبي . وعلى نفس المنوال فعلى أن نعترف أن قيمة التاريخ الحقة تتحقق عندما نستطيع من مجموعة الحقائق التاريخية أن نصل إلى خلاصة تاريخية سليمة من ناحية وعندما يتم شرح هذه الحقائق ودراستها بطريقة تجعل في الإمكان أن نلم بمدى تأثير الماضي على الحاضر من ناحية ثانية ..

وهناك نقد آخر يوجه إلى المدرسة الاستقصائية في التاريخ بسبب حرصها الشديد ومبالغتها في الحذر عند استخلاص النتائج التاريخية . وثمة مبدأ تأخذ به كل المدارس التاريخية التي لها مكانتها هو أنه ينبغي أن تقتصر الأبحاث التاريخية باستنتاجات حتى ولو لم تتجاوز صحتها نسبة ٧٥٪ . وعلينا أن نعترف أن الأمل في الوصول إلى الحقيقة التاريخية الصرفة محض خيال وأن أسمى ما نتطلع إليه هو الاقتراب من الكمال . ويتحقق ذلك إلى حد ما عن طريق البحث الدقيق ، وإلى حد آخر عن طريق التوفيق في الشرح والتحليل ثم أخيراً بفضل عبقرية ومهارة المؤرخ

المتخصص . وفي نفس الوقت فإن النتائج التي تقل نسبة الحقائق التاريخية فيها عن ٧٥٪ لا تقل خطورة عن النتائج التي تزيد نسبة الحقائق فيها عن ٧٥٪ ذلك أن المنطق التاريخي الذي يقلل من نسبة الحقائق يكون شأنه مثل من يزعم أن برميل البنزين يحتوى على عشرة جالونات بدلا من ٣٤ جالونا أو من يزعم أن محيط دائرة الأرض ألفان من الأميال بدلا من ٢٦ ألف ميل . إن الاقتراب من الدقة وليس مجرد المبالغة في الحذر من الخوض في أى استنتاج ينبغى أن يكون هدف المؤرخ .

ويرتبط بهذه الأفكار ذلك الاعتقاد الشائع أن امتناع الشخص عن نشر أبحاثه إنما هو دليل على ارتفاع مستواه العلمي . وليس معنى ذلك أننا نقر نشر العمل الذى لم يكتمل نضجه والبحث غير المتقن . فذلك أمر آخر يختلف بالنسبة للقول بأن الدليل على بلوغ الشخص مستوى العلماء هو امتناعه عن نشر أبحاثه . ذلك أن رفض شخص نشر أبحاثه قد يكون دليلا على خموله وجوده . وإن كانت هذه الدلالة ليست مطلقة لأن هناك علماء على أعلى مستوى يترددون في نشر أبحاثهم . ومن ثم فإن الأمر بالنسبة هؤلاء لا يعدو مشكلة من مشاكل علم النفس المرضى ، وهى في غالب الأحيان حالة (قلق عصبي) فكتير من تلك الأبحاث الخاصة بأولئك العلماء عبارة عن محاضرات ألقوها على طلبتهم . فإذا كانت هذه الأبحاث قد أقيمت على طلبة متخصصين في قاعات الدرس فمن باب أولى أن ترى الضوء وإن تنشر . أما إذا أحس الأستاذ بأن هناك من الحقائق ما لا ينبغى نشره فعليه أن يعترف بذلك وبأن أبحاثه ليست صالحة للنشر في أى صورة من الصور . ولكنه ينبغى أن نفرق بين هذه الحالة وبين الأبحاث التي يحول دون نشرها إعدادها على عجل أو افتقارها إلى كفاية العمل التاريخي .

ولعل من الميسور أن نظهر سذاجة النظرة المثالية التي تفترضها المدرسة الاستقصائية في المؤرخ المثالي . فإذا ما كانت هذه المدرسة تنظر إلى المؤرخ المثالي بوصفه الشخص المثالي من الإحساس والعواطف ، الذي لا تسيطر عليه فكرة سابقة ، فإن معنى ذلك أنها تفترض في هذا المؤرخ المثالي حالة من الغباء الذهني . ذلك أن الحياة البشرية في حقيقتها تتصف بالحيوية والديناميكية وتحتاج فيمن يشرحها ويفهمها ويتناولها إلى شخص له نفس هذه الصفات . وإذا ما زعم المؤرخ التقليدي بأن علينا أن نبحث عن الضوء دون أن نتمسنا حرارته ، فإن زعمه هذا وإيضعيف . فعلى حد علمنا لا يوجد شيء يشع منه الضوء دون أن تتولد عنه حرارة سوى حشرة النار أو ما تعرف بال (الحبيعب) . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقارن بين ذلك المؤرخ التقليدي وهو

يبحث بلا هدف وسط المادة التاريخية الواسعة والمتناثرة وبين تلك الحشرة الضعيفة التي تنتقل بلا هدف موضوعي أو نتائج محددة . وقد جمع الأستاذ فرديناند شيفل كل خصائص المؤرخ الناجح كما تراه هذه المدرسة التاريخية . ولكنه تجاهل الحديث كثيرا عن تلك القيود التي التزمت بها .

وفي تلخيصه لآراء تلك المدرسة قال : هل من الممكن أن نجعل من كاتب التاريخ شخصاً ذا نظرة غير منحيزة وموضوعية ؟ فلكي يكون موضوعياً صرفاً لا بد أن يكون جافاً لا روح فيه شأنه شأن الآلة الحاسبة الجامعة وهي منالية في الكفاية يرفضها كل من المؤرخ والقارىء . إن من حقنا أن نطلب من المؤرخ أن يكون أميناً ، قادراً على إخضاع كل عواطفه لعقله وفكره ، متعرساً على قراءة ناقدة ، لديه الاستعداد للتعمق في بحثه فضلاً عن الجلد بهدف الوصول إلى الحقيقة ، بحيث يصدر أحكامه على هذا الأساس .

ونعل من أسوأ ما أصاب الكتابة التاريخية تلك الفكرة المسيطرة القائلة : بأن تلك الكتابة ينبغي أن تكون مهذبة منسقة ، الأمر الذي أساء إلى حيوية وفعالية الكتابة التاريخية . وإذا كان المؤرخون من رجال هذه المدرسة الاستقصائية كثيراً ما يغلب عليهم الميل العاطفي إلى موضوع معين أو مذهب ديني فإنهم يعترفون أنفسهم ولو من الناحية النظرية أن مثل تلك الأشياء هي من أسوأ مدخر بوضوح الرؤيا وصدق التحليل ، وهما من أهم لوازم المؤرخ .

وإذا كانت المجاملة وحسن الذوق في كتابة التاريخ وتحليل أحداثه هي أهم ما يتباهى به المؤرخ التقليدي ، فإنه مما لا شك فيه أن حسن الذوق كما أدركه المؤرخون التقليديون ، أساء إلى كتابة التاريخ أكثر مما فعله التعصب والتحيز وهما الأمران اللذان جاهد المؤرخون سنين طويلة في سبيل القضاء عليهما . ذلك أن الرجل (الجنتلمان) طبقاً للخصائص التي يراها المؤرخون الأمريكيون يستحيل عليه أن يكون مؤرخاً له دوره الفعال في مجال التاريخ ، شأنه شأن اليهودي الذي يستحيل عليه بنزواته أن يشتري حق الدخول في جنة الله .

ثم إن هناك موضوعاً آخر هاماً . لقد أصبح من المعلوم لدى دارس علم النفس الحركي أن بعضاً من نواحي حياة الإنسان التي يتعرض لها في دراسة التراجم التاريخية لها دورها الهام في تفسير شخصية الإنسان وسلوكه في ماضيه وحاضره . ولانقص بذلك الأمور المرتبطة فقط بالناحية الجنسية والغريزة . والمؤرخ التقليدي حين يمجّد شخصية أسطورية ويجعل منها مثلاً أعلى إنما يخلق شخصيات أسطورية ليجعل منها موضوعات لجهوده في الترجمة . هذا فضلاً عن أنه في كتابته

المهذبة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وما ينبغي أن تكون عليه الطبقة البرجوازية المثالية في ذهنه ، يتناول بمنتهى الدقة والمجاملة أهمية العوامل المادية على التطور التاريخي ، وما دامت الاشتراكية والحديث عنها يرتبطان بالتواحي الاقتصادية فإن ذلك كفيلاً بأن يجعله يعتبر الخوض في هذه الموضوعات وكأنه شيء يتنافى مع الذوق بدرجة كبيرة .

ويرتبط بذلك ما يفترضه المؤرخ في حديثه عن شخصية من الشخصيات من ضرورة مراعاة إظهارها في صورة نبيلة من ناحية الهدف والطبيعة ، فضلاً عن الحرص على الارتفاع بتلك الشخصية عن توافه الأمور ، كل هذا جعل من البداية أن أي مجهود يبذل في مجال التراجم ، أو أي مادة تستخلص من مادة التراجم ، عديمة القيمة ولا فائدة تجني من ورائها ، إن ما ينبغي أن يفترض في مؤرخ التراجم الحديث والموثوق فيه هو أن يجعل من دراسته دراسة حية متكاملة عن الإنسان الذي يدرسه على النحو الذي عاشه هذا الإنسان ، ومعنى هذا أن تكون النظرة إليه بوصفه إنساناً لا يختلف عن بقية البشر في كل ما اتفق عليه علماء وظائف الأعضاء وعلماء النفس وعلماء الأمراض العقلية بخصوص تصرفات البشر وأهدافهم . وقد عبر جيمس ترسلو آدمز في كتابه الحافل الذي أسماه : « فلسفات حية » عن الخلاف بين أصحاب النزعة الطبيعية من ناحية ، والمؤرخ الغامض من ناحية أخرى ، وذلك عندما شرح في ذلك الكتاب مدى تفهم العصور الوسطى وإداركها للصفات البشرية . إن الذي يعالج شخصية من الشخصيات ينبغي عليه الإلمام بالجوانب الإنسانية في الشخصية التي يدرسها مع توفر الاستعداد الفنى لديه لمعرفة دوافع السلوك الإنساني . ثم عليه بعد ذلك أن يمضي قدماً في جمع الحقائق وتنظيمها وتفسيرها مستهدفاً بذلك شرح الطريقة التي عمل بها ذلك الفرد الذي يترجم له منذ مولده حتى وفاته سواء أكانت شخصية تفيض بالنبل والإخلاص التامين وعاش يدافع عن العدالة الإنسانية . أم كانت نموذجاً فريداً يتصف بالغرور والأنانية والفساد والظلم .

ثم هناك فكرة أخرى خاطئة وهو ما جرت عليه العادة من عدم تناول أعمال المؤرخين بالدراسة إلا بعد وفاتهم فنحن نكتب في حرية تامة عن رالف الأصيل لأنه مات ولا نكتب عن واحد من المؤرخين الأحياء . ومعنى ذلك أن للمؤرخين الأحياء أن يفعلوا ما يشاءون ، وأن يأتوا بما شاءوا من آراء ونظريات باطلة تستطيع أن تجد مكانها وتبقى مدة تزيد عن الأربعين عاماً قبل أن يظهر من يتناولها بالبحث والنقد . وبصرف النظر عما لذلك من أثر سيء على التاريخ فإنه اتجاه غير شريف وغير رياضي . فمن أعدل الأمور أن نهاجم المؤرخ وهو حي حتى نمكنه من الدفاع عن نفسه .

ومن أسوأ نتائج مسألة مراعاة الذوق في الكتابة التاريخية أن نجد علماء المؤرخين وقد صار لهم وجهتا نظر متناقضتان عن مسألة من المسائل . مثال ذلك : موضوع من هو المسئول عن الحرب العالمية ، أو طبيعة التجربة الشيوعية في روسيا السوفيتية وكيف انتشرت . نجد الأستاذ الفطن له وجهة نظر أمينة ومنطقية قائمة على الحقائق يدلى بها صراحة لأصدقائه المقربين وطلبته حين اجتماعه معهم في قاعات البحث ، فإذا ما نشرت أبحاثه وكتبه تجده وقد ترك جانباً آراءه ومعتقداته الخاصة التي أدلى بها في قاعات البحث ليدلى بآراء مخالفة تتماشى مع الآراء التي يجمع عليها أبناء مهنته وزملاؤه من المؤرخون . وقد تجد هناك فارقاً كبيراً بين الرأيين . فهل يحدث مثل هذا في العلوم الطبيعية مثلاً ؟ هل يحدث أن يدلى عالم من علماء المواد الطبيعية في مجال خاص برأى عن تطور فإذا ما طلب منه نشره أعطى رأياً مخالفاً ؟

إن بعض المؤرخين المتشددين في الاتجاه القومي مثل دروبسن ، فون سبيل ، فون ترتيشك كانوا في وضع أحسن من أولئك الأساتذة أصحاب الرأيين ، لأنهم مع أنهم ذهبوا بالتاريخ في مجرى غير مجراء الصحيح كانوا متحمسين لوطنهم في السر والعلن . وقد يكونون على خطأ لكنهم لا ينافقون فيما دافعوا عنه .

ويمكن القول في صدق إن عقدة المجاملة ومراعاة الذوق هي بلا نزاع التي حالت بين المؤرخين ذوى المكانة المحترمة وبين الإفصاح عن الحقيقة . وكانت عقدة مراعاة الذوق هذه هي الحائل دون إبراز الحقيقة والتزام الأمانة في القول والإخلاص والدقة ، فكان شأنها على هذا النحو شأن التحيز والتعصب للوطن عندما حلت في الماضي دون سرد الحقيقة . وليس معنى ذلك الدعوة الى الكتابة المبتذلة الجارحة . فليس هناك من يؤيد هذا الاتجاه وليس هناك من يأبى أن تكون الكتابة مهذبة . لكن ممكن الخطورة على الكتابة التاريخية هو أن تتسبب مراعاة الذوق في مصادرة الأمانة والصراحة وقول الحق . ولا يدخل في هذا كل المؤرخين الذين اتسمت كتاباتهم بالدقة . فمؤرخون مثل جيمس هارفي روبنسون ، كارل بيكر ، وبريزر فريد سميت ، فرديناند شيتل ، مثلاً كانوا من أصرح المؤرخين ومع ذلك فإن كتاباتهم اتسمت بالدقة والدمانة .

والحقيقة المفروغ منها هي أن هذه المدرسة الاستقصائية في التاريخ لم يصل أصحابها في مراعاتهم لحسن الذوق في الكتابة حد السيطرة على المشاعر والانفعالات ، لكن كل ما فعلته هذه المدرسة هي أنها تمشت مع اتجاهات رسمية وأقرت آراء معينة من فترات التاريخ . ومثال ذلك مالقيته هذه المدرسة من تأييد حار من جانب المؤرخين الذين اتسم موقفهم بالتحيز والتعصب فيها

بين الحريين العالميتين . وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان الرأي السائد هو إرجاع أصول التاريخ الأوربي والأمريكي الى منبع أنجلوسكوني . وكان الشخص الذي يجزو على عرض وجهة نظر مخالفة وينادي بأن الحضارة الغالية هي أصل الحضارات الحديثة يتهم بالزيف والانحراف عن الصواب . لكنه منذ سنة ١٩١٤ صار من المؤلف أن نجد من يرفض وجهات النظر التيونونية والأنجلوسكونية ووجدنا من يقول : إن فرنسا هي المنبع الحقيقي وهي مستودع الحضارات عبر الأزمان .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

- H. B. Adams, *Methods of Historical*. Johns Hopkins press, 1884.
A. W. Small, *Origins of Sociology*, chaps. iii - v. University of Chicago press, 1924.
Guilday, *Church Historians*, pp. 212 - 415.
Wegele, *Geschichte der deutschen Historiographie*, Book V.
Ritter, *Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft*, Book V.
Fueter, *Histoire de l'historiographie moderne*, pp. 387 - 99, 574 - 614.
Gooch, *History and History and Historians in the Nineteenth Century*, chaps. vi - vii, xii, xviii - xxvii.
Thompson, *History of Historical writing* Vol. II, chaps. xxxvii, xli - xlii, xlv, xlvii.
Schevill, *Six Historians*, pp. 125 - 190.
B. E. Schmitt, ed., *Some Historians of Modern Europe*. University of Chicago press, 1942.
S. W. Halperin, ed., *Some Twentieth century historians*. University of Chicago press, 1961.

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING

- Herman Ausubel et al., *Some Modern Historians of Britain*. Dryden press, 1951.
Historians and Their craft. Columbia university press, 1950.
R. L. Schuyler, ed., *Frederic William Maitland*. University of California press, 1960.
Gettrude Himmelfarb, *Lord Acton*. University of Chicago press, 1952.
H. F. Helmolt, *Leopold von Ranke's Leben und Werke*. Leipzig, 1921.
S. Steinberg, ed., *Die Geschichtswissenschaft der Gegenwart in Selbstdarstellung*. Leipzig, 1925-26, 2 vols.

- Guiland, *Modern Germany and Her Historians*.
- G. A. H. von Below, *Die deutsche Geschichtsschreibung Von Befreiungskriegen bis zu unseren Tagen*. Munich 1924.
- Gustav Wolf *Einführung in das Studium der neueren Geschichte*. Berlin, 1910.
- Halphen, *L'Historire en France depuis cent ans*.
- Louis Halphen, et al., *Historie et historiens depuis cinquante ans*. Paris, 1927-28. 2 vols.
- Croce, *Storia della storiografia italiana*.
- P. N. Miliukov, *Main Currents of Russian Historiography*. Moscow, 1898.
- Kraus, *A History of American History*.
- The Wrinting of American History*, chaps. viii, ix, xi-xii.
- M. E. Curti, ed., *Theory Practice in Historical Study*. Social Science Research Council, 1946.
- Elizabeth Stevenson, *Henry Adams: A Biography*. Macmillan, 1955.
- J. R. Cameron, *Frederick William Maitland and the History of English Law*. University of Oklahoma Press, 1961.
- Henri Marrou, *De la connaissance historique*. Paris, 1956.
- William Dray, *Laws and Explanation in History*. Oxford University Press, 1957.
- Fritz Wagner, *Geschichtswissenschaft*. Berlin, 1951.
- Moderne Geschichtsschreibung*. Berlin, 1960.
- H. W. Odum, ed., *American Masters of Social Science*. Holt, 1928.
- A. M. Schlesinger et al., *Historical Scholarship in America*. American Historical Association, 1932.
- J. M. Vincent, *Historical Research: an Outline of Theory and Practice*. Smith, New York, 1929.
- G. G. Crump, *History and Histoical Research*. London, 1928.
- Allen Johnson, *The Historian and Historical Evidence*. Scribner, 1926.
- G. V. Langlois and Charles Seignobos, *Introduction to the Study of History*. Holt, 1912.
- Ernst Bernheim, *Lehrbuch der historischen Methode und Geschichtsphilosophie*. Leipzig, 1908.
- H. C. Hockett, *Critical Methode in Historical Research and Writing*. Macmillan, 1955.
- Heinrich Srbik, *Geist und Geschichte vom deutschen Humanismus his zur Gegenwart*. 2 vols. Munich, 1951.

الفصل العاشر عشر

الحربان العالميتان : انهيار الدراسة التاريخية ثم نهضتها .

الحربان العالميتان والصدام بين القومية والمنهج العلمي في الكتابة التاريخية .

بدأت حركة البحث التاريخي وكأنها وصلت في سنة ١٩١٤ إلى أسمى درجات الموضوعية وعدم التحيز . فاستهدف الباحثون التحرر عن الحقائق أكثر من استهدافهم التعبير عن مشاعرهم الوطنية . ولكن هذا لم يحل دون ظهور بعض الأعمال التاريخية الهامة التي طغت عليها الصيغة الوطنية وإن كانت هذه الظاهرة — خروجاً على القاعدة العامة . ذلك أن المؤرخ الذي سمح لمشاعره الوطنية أن تطفئ على أحكامه أو تنال من اتزان فكره كان موضع نقد شديد ، في حين أن المؤرخ الذي توافرت لديه القدرة على عدم التحيز — خصوصاً في الموضوعات ذات الآراء المتضاربة أو الأبحاث التي تمس عزة وطنه كان موضع احترام وتبجيل كبيرين .

ولكن حدث مع مجيء الحرب العالمية الأولى أن انبعثت المشاعر القومية من عقالها مما أدى إلى نكوص الكتابة التاريخية إلى الوراء ، أي إلى العهد السابق لفون رانكه .

وإذا قارنا كتابات المؤرخين عن الحرب العالمية بين سنتي ١٩١٤ ، ١٩٢٠ بكتابات مؤرخ مثل فوستيل دي كولانج عن العنصر الجرمانى أو بكتابات فون سيبل عن الحرب الفرنسية البروسية ، لوجدنا أن هذه الكتابات الأخيرة تتصف بأنها من النوع الهادئ الذى يتبع التحليل التاريخي . والحق أنه ليس من المبالغة في شيء أن نقول إنه منذ أيام ماجدبرج ، بارونيووس ، فوكس Khox وميمبرج Maimburg لم تشهد الكتابة التاريخية ما شهدته على أيام الحرب العالمية من عنف وغلظة

وبعد عن الهدوء ، فرجل مثل أدوارد ماير من أعظم المؤرخين الذين بقوا على قيد الحياة ، وشهدوا هذا العهد ، نراه وقد تخلى تماما عن اتزانه وابتعد عما يفرضه شرف مهنته فاستسلم للهستيريا الوطنية التي أصابت كافة المؤرخين في كل البلدان . ثم كان أن أخذت مختلف الحكومات في نشر « وثائق رسمية » عن أزمة سنة ١٩١٤ مستهدفة بذلك تبرير سياستها وللأسف امتدت يد التزييف والتزييف إلى هذه الوثائق ، وأسهم المؤرخون أنفسهم في هذا التزييف ، ولم يحدث منذ العهد المسيحي الأول أن شهدت الوثائق التاريخية تزييفا على هذا النحو الواسع المدمر .

وفي بداية الحرب أصدر عدد كبير من الأساتذة الألمان البارزين « بيانا » يوضح وجهة النظر الألمانية في مشكلة الحرب وأسبابها . وكان من بين الموقعين عليها عدد من المؤرخين ، شامت الصدقة وحدها أن تؤيد ما قالوه وأذاعوه . ومعنى ذلك أن اقترابهم من الحقيقة لم يكن مرجعه أنهم نبذوا العاطفة جانبا مما مكنهم من أن يكونوا خيرا من الأساتذة الذين بحثوا الاتفاق الودي مثلاً . هذا فضلا عن أنهم لم تكن لديهم معرفة بخبايا الوثائق التي أبدت ادعاءاتهم فيها بعد . أما أدوارد ماير فقد ترك العمل في مؤلفاته العلمية لكي يصدر المقالات التي يهاجم فيها الامبراطورية البريطانية وينتقدها نقداً لاذعاً . هذا في حين تولى ديتريخ شافر Dutrich Schafer الدفاع في حماسة عن برنامج الحركة الجرمانية وكان هذا هو أبرز ما قام به العدو الألماني حين لجأ إلى التاريخ يستخدمه لمساندة القضية الجرمانية .

أما المؤرخون الفرنسيون فكانوا أكثر نشاطاً وتحمساً وإثارة من الألمان . وكان أرنست لافيس هو عميد المؤرخين الفرنسيين على الإطلاق بالنسبة لما كتبوه عن حرب ١٩١٤ . وترجع شهرته في هذه الناحية إلى تحمسه السابق للثقافة الألمانية ثم نزعه لحركة تحرير الألمان بعد ١٩١٤ . ذلك أنه رفض علانية في إبريل ١٩١٥ اقتراحا محايدا بأن يتولى رجال الفكر في الدول المتحاربة دراسة قضية الحرب وشروط السلام . وهاجم الألمان في كثير من خطبه ومقالاته حتى قال في خطبة له عن ألمانيا في جامعة السوربون : إنها (ألمانيا) تسمم الفكر مثلما تسمم الماء والهواء . إنها أكبر مفسدة على وجه الأرض » . ثم إنه خاطب المندوب الألماني في مؤتمر الصلح في باريس قائلاً : « انتم هنا أمام قضائكم للإجابة عن أكبر جريمة ارتكبتها في التاريخ . إنكم ستكذبون لأن طبيعتكم الكذب . ولكن كونوا على حذر . إن الكذب مهلكة خصوصا إذا عرفتم الذين يسمعون لكم وينظرونكم يعرفون أنكم تكذبون » .

أما الفونس أولارد المؤرخ العالمى الشهير عن الثورة الفرنسية ، فكتب عن الألمان قائلا : « إن الكذب هو المهنة القومية للألمان . وعليه يقوم نظام حكمهم . لقد أسس الهونزلرن الحكومة البروسية على أساس الكذب . وأخيراً وعلى نفس الأساس ولمصلحة بروسيا أسست الحكومة الألمانية . وتأسف أولارد لعقد هدنة مع الألمان ، لأنه رغب في ذبحهم واقتنائهم . أما هنرى هاوس Henri Hauser المؤرخ الخبير في دراسة القرن السادس عشر فقد هاجم في عنف روح الاستسلام عند الألمان ، كذلك استفز جورج بلوندول Blondel - وهو المؤرخ الفرنسى الرائد في دراسة المانيا الحديثة - الألمان في كتابات مطولة منها إياهم برغبتهم في إقامة دكتاتورية عسكرية تفرض سيطرتها على كل انحاء العالم . وتطوع المؤرخ لافيس في نشر كل أبحاث الألمان غير المؤمنين بالمبادئ الجرمانية مثل ريتشارد جريلنج واستبعد من مهنته نشر ما أصر عليه الكتاب الألمان الذين بقوا على ولائهم وإخلاصهم للنزعة الجرمانية مثل الكونت ماكسبلان مونتجلاى . وحرص أميل بورجوى Burgeois وهو المؤرخ والناشر الشهير على الدفاع عن روسيا وعدم إدانتها بالنسبة لهذه الحرب . أما جورج رينارد Renard وهو صاحب المذهب الاشتراكي والمؤرخ الاقتصادى البارز فقد أسهم في الدعاية لصالح الحلف المعادى لألمانيا والذي كان من سياسته مقاطعة كل ما هو ألماني .

وفي انجلترا كتب ويكهام ستيل Wickham steel قصصا لا تستند إلى الحقيقة عن جذور الحرب . وادان النمسا ومجد الصُّرْب . أما ر . و . سيتون واطسون فقد دافع عن السلاف الجنوبيين وأدان سياسة الامبراطورية النمساوية المجرية . اما ج . و . هيدلام الذى كتب سيرة بسمارك فقد اشترك مع هـ . ج . ولز Wells في تنظيم وإخراج الدعاية المضادة لألمانيا . وفي مقابل هذه الخدمة أنعم عليه بلقب سير وأصبح يعرف بالسير جـ . و . هيدلام مورلى J . W. Headlem - Mor- ley كذلك سقط المؤرخون الانجليز في هذه الهوة فيما عدا قلة قليلة مثل ريموند بيزلى Raymond Beazley ، ف . و . هيرست ، ف . ك . كونير . كان هيرست أساسا رجل اقتصاد وكونير متخصصا في دراسة الانجيل . بل إننا نجد رجلا مثل المؤرخ الاقتصادى العظيم ذى الشهرة الواسعة اركبيديكون وليم كتنجهام Archdeacon William Cunningham يهاجم النزعة المسالمة عند الانجليز ، ويرى أن واجبه أن يتعقبوا من يسعى لاستئصال الخير من هذه الدنيا ، ويقول انه من الواجب على الجنود الانجليز ان يقتلوا الألمان قدر استطاعتهم . وقد جمعت نداءاته التي تنادى بمزيد من دم العدو وطبعتها جمعية نشر الإنجيل .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد خرج عدد كبير من المؤرخين على ما سبق أن التزموا به فكريا وفاقوا باتكروفت في حماسهم الوطنية . ومرجع ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بعيدة عى أى خطر حقيقى . وفى غياب طلقات المدفع ، كان على الجماهير الأمريكية ان تتأثر بطلقات ملتهبة من البلاغة والبيان . ثم إنه لم يكن هناك غنى عن الدعاية لبناء معنويات الأمريكيين وجعلهم يستعدون للتضحية بالدم . وهكذا تعرض المؤرخون الأمريكيون القليلون الذين التزموا بالموضوعية التي كانوا عليها قبل الحرب للامتهان . واتهموا في بعض الأحيان بأنهم منشقون على الفكر الأمريكى . ومن هؤلاء سيل Sill شيفل ، طومبسون ، هندرسون ، شيفرد Shepherd ، بريزر فند سميت وآخرون . لكن الهجوم كان أقوى على أولئك الذين أيدوا الألمان مثل الأساتذة برجس ، سلون Sloane وأنتخب وليم روسكو ثاير رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية مرتين لأنه كان من أكثر من ساهم في مجال استخدام التاريخ للدعاية الحربية . ولم تجد التحذيرات التي أطلقها هـ . مورس ستيفنس H. Morse Stephens في خطابه الذي ألقاه يوم انتخب رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية قبل الحرب بعام .

أما من تزعم حركة التنديد بالألمان من المؤرخين الأمريكيين فهم وليم روسكاثاير ، شارل دونر هازن Charles Downer Hazen وليم ستيرنس دافيس William Stearns Davis مونرو سميت ، البرت بوشنل هارت ، إيرل ا. سبرى Earle E. Sperry ماك نت ماك الروى R. Mc Nutt Mc Elory ، ا. رايجوند تيرنر ، برنادوت شمت ، كلود هالستد فان ثين . ومن أعجب الأمور حالة المؤرخ جورج لنكولن بير الذى كان واحدا من أبرز ستة مؤرخين في أمريكا وكان من دعاة التسامح . ولكنه وقد جرفته نيار التعصب برغم تقدم سنه ، ارتدى البدلة الكاكية وتدريب مع الشباب في معسكرات كورنل . كذلك ساهمت جامعات معينة في إخراج دراسات تاريخية عن فلسفة الكراهية للألمان . وأبرز مثل لذلك ما أصدرته جامعة وسكونستين بعنوان (كتاب الحرب) . هذا عدا وثائق مشابهة أصدرتها جامعات أخرى . وخير دليل على التحول عن الموضوعية كان ما انتجته منظمة الهيئة القومية لرعاية التاريخ (The Organization of the National Board For Historical service التي كان يشرف عليها الاساتذة جـ . ت . شوتويل ، جاى س . فوردر Gay S. Ford وما قامت به هذه المنظمة من تعاون مع مكتب كريل وهو الفرع الرسمى الحكومى المختص بأمور الدعاية . وكان أن ناقس شوتويل جيمس هارفى روبنسون في زعامة المدرسة الجديدة في التاريخ . وساعده في الهيئة القومية من سجلت أسماؤهم في

لوحة الشرف مؤرخون سبق أن كانوا من أبرز المؤرخين الأمريكيين تجلت فضائلهم فيما قاموا به من أبحاث تاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا انجذبت الكتابة التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية لخدمة شئون الدعاية وأخذ المؤرخون الأمريكيون المشهورون يسهمون فيما تنشره هذه الجمعيات التي يغلب عليها الطابع الوطني مثل مجلس الأمن القومي وجمعية الدفاع الأمريكية ولم يقتصر الأمر على ما وجه للألمان من كونهم أمة صغيرة أقل شأنًا من الأمة الأمريكية بل صار هناك تركيز حول ما لبريطانيا من فضل على الأمريكيين . وكان معنى ذلك أن الثورة الأمريكية صارت خطأ ينبغي استهجانه . واستمرت رئاسة اتحاد الجمعيات التاريخية مدة عشر سنوات بعد الحرب يتولاها أولئك الذين يكرمون مقابل ما أدوه من خدمات لقضية الحلفاء .

ثم أقبل الفجر

وإذا كانت العاطفة والولاء ظلتا تستحوذان على عقول معظم المؤرخين لمدة عشر سنوات أو أكثر بعد سنة ١٩١٨ ، فإن هناك تحولاً محدوداً سرعان ما ظهر بين قلة من المؤرخين ذلك أنه ظهرت مصادر جديدة يسترشد بها الباحث بدلاً من تلك الوثائق الرسمية المنتقاة بعناية والتي طبعتها الحكومات المختلفة خلال الحرب . وتوفرت هذه المصادر نتيجة لما قام به عدد من الأساتذة العلماء الذين لم يجرّفهم تيار العاطفة خلال الحرب أو من بين أولئك الذين تخلصوا من هذا التيار بعد الحرب . وهؤلاء وهبوا أنفسهم لدراسة الوثائق التي صدرت عن الحرب . وكانت النتيجة أنه خلال عشر سنوات أصبح لدينا معرفة متكاملة ودقيقة عن أسباب الحرب العالمية الأولى أكثر مما لدينا في سنة ١٩١٤ عن أسباب الحرب البروسية الفرنسية .

وإذا كانت الكتابة التاريخية خلال الحرب قد تركت أثراً عميقاً على خط سير الأبحاث التاريخية ، فإن الجهد الذي بذله عدد من أقدر المؤرخين بعد انتهاء الحرب في الدراسة التي قاموا بها وتناولوا فيها مقدمات سنة ١٩١٤ يعتبر من أبرز الأمثلة على عظمة ما ظهر من أبحاث تاريخية في مدى قرن كامل .

وعلىنا الآن أن نتقصى أسباب هذه النهضة التي لحقت بالكتابة التاريخية في إيجاز والتي خرجت إلى حيز الوجود بعد انتهاء الحرب . ذلك أنه كان من المعتاد حتى الوقت الذي اندلعت فيه نار

الحرب العالمية الأولى أن تخفى الحكومات الوثائق المتعلقة بالأحداث الخاصة بسياساتها الخارجية لمدة أربعين أو ستين سنة من تاريخ حدوثها .

فمثلا في سنة ١٩١٤ لم تنشر كل من فرنسا أو ألمانيا الوثائق الخاصة بالحرب البروسية الفرنسية التي وقعت سنة ١٨٧٠ . فكيف أمكن اذا للمؤرخين في مدى ربع قرن فقط منذ ١٩١٤ أن يفرغوا من دراسة تلك الوثائق التي جاءت بها الحرب العالمية دراسة لا مزيد عليها ؟ الواقع أن الموقف كان يشكل تماما تجربة جديدة بالنسبة لتاريخ البشرية ، ذلك أنه نجم عن الثورات التي تأججت في كل من النمسا ، وروسيا وألمانيا في سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ قيام حكم جديد في كل منها لم يكن له مصلحة في إخفاء الحقائق بل كان نشرها أمرا يساعد على زعزعة الثقة في النظام الملكي السابق على وجود هذه الأنظمة . وقد استهدفت هذه الأنظمة الجديدة في تلك البلدان من وراء نشر تلك الوثائق الموجودة في وزارات الخارجية ، إبراز الحقيقة الخاصة بأن الحكومات الإمبراطورية هي المسؤولة عن إشعال نار الحرب العالمية . واعتقد الحكام الجدد أن ذلك أمراً من شأنه أن يدعم الحكم الثوري الجديد . كذلك أحس هؤلاء الحكام أن كراهية الناس للأنظمة القديمة تأق من خلال معرفتهم بأن الحكومات الملكية هي المسؤولة عن الدمار المخيف الذي لحق بالعالم من جراء الحرب العالمية .

وهكذا تطوعت الحكومات النمساوية والألمانية في نشر طبعة كاملة للوثائق الموجودة في وزارات الخارجية لديهم والتي تناولت حرب ١٩١٤ ونشرت هذه الوثائق في النمسا تحت اسم « الكتاب الأحمر » وفي ألمانيا عرفت باسم Kantsky Documents ثم نشر الألمان فيها بعد كل الوثائق الخاصة بالفترة منذ سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . كما أصدر فريدريك ثيم Thimme وآخرون الكتاب الشهير باسم « السياسة الكبرى » Gross Politik تاركاً الوثائق تتكلم عن سياسة ألمانيا الخارجية في نصف القرن السابق على قيام الحرب ومتحدية الدول الأخرى أن تفعل ما فعلته ألمانيا . ونشرت النمسا هي الأخرى فيها بعد تجميعها مختصراً في ثمانية أجزاء للوثائق الخاصة بالفترة منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ . وقام بتدوين هذه الوثائق لودفيج بتر Ludwig Bittner وهانز اوبرسبرجر Hans Übersberger . وكشفت هذه الوثائق عن العلاقة بين النمسا والصرب فضلاً عن أنها تضم فعوى ما تدعيه النمسا ضد الصرب والروس .

وبالمثل حدث تقدم كبير في وزارات الخارجية في دول الحلفاء من أجل نشر الوثائق وكانت روسيا أولى الدول التي نشرت وثائقها بادئة بنشر مواد المعاهدات السرية للاتفاق الودي بين دول

الحلفاء الذى وقع فى نوفمبر ١٩١٧ . ولم تنتظم الحكومة الروسية البلشفية فى طبع وثائقها وإنما سمحت للدارسين الفرنسيين والألمان مثل رينيه مارشان Rene Marchand وفردريك ستيف Fredrich Stieve أن يطلعوا على الارشيف ويأخذوا منها ما يرونه مناسباً لأبحاثهم . وكان أن جمع ستيف الوثائق التى أمكنه الاطلاع عليها ونشرها فجاءت شيئاً لا نظير له من حيث تحرى الأمانة والدقة . كذلك قام ب . دى سيبير B.de Siebert سكرتير السفارة الروسية فى لندن بنسخ الوثائق المتبادلة بين سانت بطرسبرج ولندن فى السنوات السابقة على الحرب . وأعد الوثائق للنشر . أما إ . أ . اداموف E.A. Adamov فقد أعد للطبع الوثائق الخاصة بصراع روسيا للسيطرة على المضائق .

وكانت الحكومة البريطانية أول حكومة غير ثورية تنطوع بنشر وثائقها الخاصة عن نشوب الحرب العالمية ، فبدأت ذلك فى خريف ١٩٢٦ . وصدر من هذه الوثائق الرسمية عن أصل الحرب أحد عشر جزءاً تناول الأحداث من سنة ١٨٩٨ - ١٩١٤ . وقد قام بإعدادها للطبع ج . ب . جوش ، G.P. Gooch / هـ . و . ف . تمبرلى . وإذا كانت الحكومة الفرنسية لم تنشر وثائقها إلا بعد عام ١٩١٤ بما يتجاوز عشر سنوات فإننا نستطيع أن نتعرف على الحقائق الأساسية المتعلقة بالدبلوماسية الفرنسية من واقع الوثائق الروسية والبريطانية ، لأن الفرنسيين كانوا حلفاء الإنجليز والروس فى تلك الحرب . وقد أوضح ما قام به ديمارتال Demartial فون فرجر von Wergerer وآخرون معها أن الوثائق الفرنسية التى صدرت باسم الكتاب الأصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى باسم الكتاب الأصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى صدرت خلال الحرب ما يضاهاها فيما حوته من تحريف . ولا يقارن بها فى ذلك الاتجاه سوى ما أصدره الروس باسم الكتاب البرتقالى .

وبناء على طلب الباحثين المعايدين من كل أنحاء العالم وبناء على طلب عشاق الحقيقة فى فرنسا ، أعلنت الحكومة الفرنسية أخيراً فى سنة ١٩٢٨ أنها ستطبع الوثائق المحفوظة فى وزارة خارجيتها والمتعلقة بأزمة ١٩١٤ وعن التيارات السياسية المتعلقة بسنوات ما بعد ١٨٧١ . وأوضح روبرت ديل Dell فى بحث له دقيق نشر فى لندن بتاريخ ١٤ يناير ١٩٢٨ فى صحيفة الأمة أن اللجنة التى عهدت إليها الحكومة الفرنسية باختيار الوثائق وإعدادها للطبع لم تهتم بالدقة والأمانة

ومراعاة الترابط والتكامل فيما تنشر . ولم تضم اللجنة أحداً من المعارضين للحكومة أو المؤرخين بقصد مراجعة هذه الوثائق ، وقال ديل ما نصه : « إن الحكومة الفرنسية اعترفت أخيراً بأنها لا يمكن أن تمتنع وتقاطل أكثر من ذلك في طبع وثائقها الدبلوماسية المتعلقة بأصل الحرب . ولذلك ألقت لجنة من ٤٨ شخصاً للإشراف على عملية النشر وتضم هذه اللجنة أربعة أمناء كان ثلاثة منهم موظفين حكوميين كما ضمت اللجنة بين أعضائها ثلاثة عشر من المرطفين الدائمين في وزارة الخارجية الفرنسية ومن رجال السلك السياسي ، معظمهم كان من له اهتمام عن قرب بالأحداث التي أدت إلى الحرب . وتشكيل اللجنة على هذا النحو يؤكد سوء قصد الحكومة الفرنسية ويوضح أن الحكومة الفرنسية لن تنشر كل وثائقها لأنها إن فعلت ذلك سيتضح أن كثيراً من الحقائق حذفت واستبعدت من كتابها الأصفر . وقد أثبت ذلك من قبل م . ج . جورج ديبارتيال في كتابه الصغير (انجيل وزارة الخارجية الفرنسية) وهو الكتاب الذي لم يصدر عليه تعقيب ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التعقيب .

وفي سنة ١٩٢٩ ظهرت الأجزاء الأولى من الوثائق الدبلوماسية الفرنسية ١٨٧١ - ١٩١٤ وأخذت طابعاً معيناً في اختيارها وإعدادها للنشر . لكن هذه الأجزاء التي صدرت فاقت في دقتها أي كتب أخرى صدرت عن هذا الموضوع .

وكان أن أغار الألمان خلال الحرب على الأرشيف البلجيكي ونشروا مجموعة الوثائق الدبلوماسية البلجيكية تحت إشراف برنارد شورتفجر Bernhard Schwertfger أما مجموعة الوثائق الخاصة بالتاريخ الدبلوماسي للعرب فقد قام بنشرها ميلوخ بوجهتشوش Milosh Boghitschewitsch ذاتها . وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بنشر وثائقها الدبلوماسية عن فترة الحرب وكان فيما قامت به الحكومات في هذا المجال ما جعل في الإمكان أن نتكلم عن جريمة الحرب فور انتهائها مباشرة مستندين إلى مصادر عن جريمة الحرب . ولأول مرة في التاريخ البشري يستطيع جيل عاش حرباً عظيمة أن يعرف الحقائق من مصادرها .

وبالإضافة إلى الوثائق التي يستند إليها في معرفة تاريخ حرب ١٩١٤ ، فإن معظم كبار الدبلوماسيين الذين نهضوا بدور هام في تلك الحرب نشروا ذكرياتهم أو يومياتهم التي تتضمن آراءهم بالنسبة للأزمة . ومن هؤلاء القيصر ، فون بثمان هولوج Von Bethman Hollweg ، فون جاجو von Jagow ، فون مولنكا ، فولكتهاين ، بورتاليز Pourteles ، فون شون Von

Schoen ، ليكنوسكى Lichnowsky ، هويس Hoyos ، كونراد ، موسولين Musulin ، ساراتون ، شيلنج ، روزن ، ديرورسكر ، توناكاريه ، فيفالي ، بالبولدج اسكويث ، جري Grey ، نشتشل ، برتي Bertie بوكاتان Buchanan ، هالدين Haldene ، نيتي Nitti ، وقد حل الموت بين ايزفوسكى وبين إتمام مذكراته ولكن رسائله التي حفظت بالكامل ، سرحت بعد ذلك ، وأوضح هذه الرسائل كثيراً من الحقائق التي تفوق ما كان منتظراً أن تكشف عنه مذكراته . وكذلك ، يتمكن ليوبولد بيركتولد Berchtold من إتمام مذكراته لأنه حبل بينه وبين استخدام الوثائق المحفوظة في فيينا استخداماً حراً .

ومع أنه ينبغي أن تستخدم هذه الكتب بحذر ، إلا أنها غالباً ما تساعدنا على تفهم الوثائق تفهماً أعمق ، وعلينا أن نعي تماماً الدوافع التي سيطرت على الدبلوماسيين الذين شنوا الحرب ، أولئك الذين فشلوا في منع اندلاعها ومع ذلك فإنه من مصلحة الكاتب في الوقت الحاضر أن يلتقي بنفسه مع الدبلوماسيين الهامين المسئولين عن أحداث سنة ١٩١٤ ويستجلي منهم الكثير من النقاط الناقصة أو المتضاربة .

وقد تناول جورج بيبودي جوش Gooch الحديث عن المادة الخاصة بأحداث الحرب وهي المادة الغزيرة المتسعة ، وذلك في كتاب له صدر سنة ١٩٢١ سماه (أحداث الكسوف في ميدان الدبلوماسية) وروجع هذا الكتاب وأضيف إليه وهو يمتاز بالاتزان والدقة واتزان الأحكام حتى إنه يفي بالفرض إلى حد كبير ، وإن كان في بعض الأحيان قد غالى في احترام تجار الكذب الذين يشغلون مناصب عليا .

وكان من الطبيعي أن تبدأ في ألمانيا قبل غيرها دراسة جذور الحرب العالمية الأولى دراسة قائمة على النقد والبحث . وذلك أن مؤرخي دول التحالف اضطروا إلى انتقاء بعض الحقائق وطمس بعضها الآخر من أجل الدفاع عما كان بينهم من اتفاق وتحالف . وسبق أن أشرنا إلى الجهود التي بذلت من أجل نشر الوثائق الألمانية من سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . وكان أن تناول عدد من الباحثين تاريخ الدبلوماسية الألمانية في فترة ما قبل الحرب . وخيرة هذه الكتب وأفضلها هو كتاب ايرك براندنبرج Erich Brandenburg الذي يعتبر من أحسن الدراسات عن الدبلوماسية في الفترة السابقة للحرب العظمى كذلك تناول نفس الفترة كتاب فيت فالنتين Veit Valentine وهو الخاص بسياسة ألمانيا الخارجية . أما الفترة المخرجة في تاريخ ألمانيا وهي التي شهدت تولي ييلوف Bulov منصب رئاسة الوزارة الألمانية فقد تناولها يوحنا مالر Johannes

Haller . على أن أقوى هذه الدراسات تكاملا عن الدبلوماسية الألمانية في فترة ما قبل الحرب هي ما كتبه اوتو هامان Otto Hammann وتقع في عدة أجزاء ، حيث ان اوتو هامان كان وثيق الصلة لفترة طويلة بوزارة الخارجية الألمانية .

أما هرمان لوتز فقد أعطانا أعظم دراسة لسياسة إنجلترا على عهد السير ادوارد جراي ، كما أنه أنجز دراسة من أعظم الدراسات المختصرة المتقنة والدقيقة عن بداية الحرب العالمية الأولى واستند في كتابتها إلى أحدث الوثائق . كذلك قام فريديريك استيف بالكتابة عن سياسة ايزفولسكي وبونكاريه من واقع المعلومات التي توفرت له من دراسة الوثائق الروسية . وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك دراسة قام بها ماجورجيتز فرائتر عن مراحل دخول روسيا الحرب العالمية وضمن دراسته هذا أمر التعبئة التاريخي الذي صدر في ٣٠ يوليو ١٩١٤ . أما أكثر الدراسات دقة عن ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فهي تلك التي قام بها الكونت ماكسميلان مونتجلاس Monteglas إذ لا يباريه أحد في حسن السرد ووضوح العرض . واستطاع ماكسميلان معتمدا على دراسته للوثائق البريطانية الحديثة أن يقوم بعمل موجز قد عن سياسة سير ادوارد جراي . أما الفرد فون فجرر Alfred Von Wegerer فقد بذل ما في وسعه في دراسة تستهدف إعادة النظر في مشاكل مسئولية الحرب ، ووجه ضربة عنيفة لرجال السياسة الذين ادانوا ألمانيا في مؤتمر فرساي .

أما خير ما يقرأ من بين ما كتبه الألمان عن أصل الحرب فهي ما كتبه تيودور ولف Theodore Wolff بعنوان (عشية حرب ١٩١٤) The Eve 1914 وهي كتابة دقيقة يرغم ما فيها من قسوة على بركتولد . وأكثر هذه الكتابات متعة هو الكتاب الحديث الذي كتبه لودفيج رينير Ludwig Reiner باسم « انطفأت الأنوار في أوروبا » وقد صدر سنة ١٩٥٥ . وهناك كتاب ألمان مثل هرمان كانتوروتز Hermann Kantorwitz كان لكرهيتهم لأسرة الموهنزلرن أثرها فيها أصدره من أحكام فضلا عن تفسيرهم لأحداث الحرب وتميزت كتابة كانتوروتز بنشيعه للإنجليز .

أما عن دور النمسا في أحداث ١٩١٤ فقد تناولها الفرد بريبرام Alfred Pribram لودفيج بيبتر Ludwig Bittner هانز اوبر سيرجر Hans Ubersberger أي ويدل O. H. Wedel . ولكننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الدراسة بالنسبة لقضية النمسا وبركتولد .

وفي هولندا كان رائد الباحثين في فترة ما قبل الحرب ودبلوماسيتها هو نيكولا جايكس Nicolaus Japikse وقد ظل المؤرخون الرسميون والأكاديميون في فرنسا ملتزمين

بالموقف السليم من الوجهة الرسمية وفي دراساتهم لقيام الحرب العالمية بمعنى أنهم تولوا تبرئة فرنسا من مسئولياتها عن الحرب . وخير ما لدينا من هذا النوع من الكتابة هو ما سرده اثنان من أبرز المؤرخين المتخصصين في دراسة الدبلوماسية هما بورجو Burgeois ، باجيه Pages أما بالنسبة للعمل الذي قام به بطرس رينفر Pierre Renouvoïn والذي حظى بثناء عريض فلا يعدو أن يكون أكثر من تبرير ودفاع عن موقف فرنسا خلال الحرب . وشبيه بعمل رينفو عمل جولس اسحق Jules Isaac .

وإذا كان المؤرخون الفرنسيون لم يتمكنوا من استعادة اتزانهم من أثر صدمة الحرب فإن كثيرين من الصحفيين والناشرين الذين اتسموا بالشجاعة قد نجحوا في ذلك ومن أبرز هؤلاء بيفيه Pevet ، دويان Dupin ، مورهاردت Morhardt مارجريت Margreitte جوديه Judet ، لازار Lazare ولكن أكثرهم كفاءة ومثابرة على العمل هو ذلك الموظف السابق في وزارة المستعمرات الفرنسية جورج ديمارتيال Demartial الذي كان غصة في حلق أولئك الرسميين الذين انبروا يزورون الحقائق ويختلقون المبررات دفاعا عن فرنسا واتصف عمله بمعرفة دقيقة بالوثائق والدقة المتناهية في سرد الحقائق .

أما جورج ميشون Michon فقد كتب أحسن ما يمكن كتابته وأحسن ما يمكن الاعتماد عليه بالنسبة لتطور التحالف الفرنسي الروسي وهو التحالف الذي لعب دورا كبيرا في دفع أوروبا إلى حافة الحرب وهناك الناشر الفرنسي ألفرد فابر لوسي Alfred Faber Luce الذي امدنا بأحسن ما كتبه فرنسي متزن عن حرب ١٩١٤ أما السيد ابراي Alcide Ebray فقد تداول معاهدة فرساي وأوضح ارتباطها بالأخطاء التي حدثت بسبب الدعاية للحرب كذلك درس بأسهاب حوادث انتهاك المعاهدات في أوروبا منذ عام ١٨١٥ مفنداً الزعم الشائع أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي لم تحترم أية معاهدة وأنها كانت تحيلها إلى « قصاصة ورق » .

وظل الصراع من أجل الوصول إلى الحقيقة قائما في إنجلترا خلال الحرب وبعدها وهي الحركة التي تزعمها كل من فرانسيس نيلسون Neilson ، أ . وموريل Morel واشتهر الأخير بتعريضه بالأعمال غير المشروعة التي قام بها ليوبولد ملك بلجيكا في الكونغو أما أول دراسة ناقدة واسعة تتضمن وجهة النظر البريطانية الرسمية عن أسباب الحرب فقد جاءت في كتاب لورد لوربيرن Loreburn بعنوان « كيف بدأت الحرب » How the War Came وهي الدراسة التي استشهد فيها مؤلفها بالوثائق البريطانية على نطاق واسع كذلك بذل ج.ب جوش Gooch جهدا

كبيراً في هذا الصدد وكان نشطاً وجاداً بوجه خاص في الوصول إلى منطق سليم للأسس السياسية للحرب العظمى ذلك أنه كتب أول دراسة لا نظير لها عن السياسة الأوربية منذ عام ١٨٧٨ حتى عام ١٩٢٠ وقدم خير عرض في مؤلف حديث اتسم بالبحث القائم على الأسانيد والبراهين كذلك كتب لويز ديكسون Dickenson أحسن بحث موجز يفي بالغرض عن التيارات السياسية في عام ١٩١٤ والفترة السابقة لها أما سير ريموند بيزلي فقد كتب خير الكتب الموجزة عن الحقائق المتعلقة بحرب ١٩١٤ وليس لما كتبه شبيه بأي بلد آخر كذلك كتبت إيرين كوبر ولز Irene Cooper Willis ، وكارولين أ. بلاين Playne أعظم الأبحاث عن هستريا الحرب العالمية والدعاية في إنجلترا خلالها وكما كان الحال في فرنسا كان معظم علماء التاريخ في إنجلترا متشابهين في التعبير عن وجهة النظر الرسمية فيما يختص بكيفية قيام الحرب وخير من يمثل المؤرخين الإنجليز في ذلك أحسن تمثيل ر.ب. موات R.B.Mowat ومن أحدث الكتب الإنجليزية الهامة عن أصل الحرب العالمية ما كتبه ه. ر. ولسن H.W.Wilson بعنوان « إثم الحرب » The War Guilt وقد ضمنه كافة الأكاذيب والدعاية التي ترددت أثناء الحرب . أما كتاب جون مورلي بعنوان « مذكرات عن الحرب » فقد تضمن ما يثبت أن بريطانيا قررت الدخول في الحرب قبل أن تثار مسألة بلجيكا في اجتماعات مجلس الوزراء وأحسن ما كتبه كندى عن حرب ١٩١٤ وسوابقها الدبلوماسية هو ما ألفه المحامي الكندي الشهير ج. س. إيوارت J.S.Ewart .

وفي روسيا لم تهتم الحكومة بتبرئة النظام القيصرى البالى ومن ثم فقد يسرت أمر البحث في أصل الحرب وتزعم حركة البحث هذه ادانوف وبوكر وفسكى Adanov and Pokrovsky أما ميلوش بوجهتشوش Milosh Boghits cheuitsch وهو من الصرب ومن رجال السلك السياسى السابقين فقد كتب عدة كتب عن مسئولية الصرب في الحرب العالمية وإن لم يسمح له بالاطلاع على دور الحفظ فيها . ذلك أن الدوائر الرسمية في الصرب تمكنت من صيانة أسرارها الخاصة بسياسة ما قبل الحرب ولو أن مؤرخاً صربياً هو الذى كشف أن باشيتش Pashitsch ومجلس وزراء الصرب كانوا يعلمون بمؤامرة اغتيال ارشيدوق النمسا قبل وقوعها بعدة أسابيع . وعلى الرغم مما تعرضت له إيطاليا من حكم فاشستى ورقابة صارمة فإن المؤرخين الإيطاليين استطاعوا أن يدلوا بدلوهم في مجال المعرفة عن بداية الحرب وكان الباحثون الرواد في هذا المجال هم كورادو بارباجلو Corra-do Barbagallo واغسطين تور Augustine Torre الكونت البرتو لامبروسو واشتهر الأخير بتركيزه البحث على العوامل الاقتصادية والتجارية التي تسببت في حرب ١٩١٤ وتناوله الدبلوماسية الانجليزية بالنقد .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن رجال الصحافة كانوا أول من انتقد وجهة نظر الدولة الرسمية عن أسباب الحرب العالمية الأولى ودخول الولايات المتحدة الأمريكية فيها . ونشير هنا إلى ما قام به فرانسيس نيلسون ، البرت جاى نوك ، جون كينث تيرنر . وكان سدفى برادشو فاي Bradshaw Fay أول مؤرخ هام فند أسطورة الاتفاق الودى وأثارت مقالاته في المجلة الأمريكية التاريخية في أعدادها الصادرة سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ اهتماماً ودهشة بين العالم المتحضر . ثم نشر الأستاذ فاي بعد ذلك بشمافى سنوات أحسن وأكمل بحث عن الأسباب السياسية للحرب العالمية الأولى ولم يؤخذ عليه سوى عدم قدرته على دراسة قضية النمسا دراسة كافية . ثم عولجت هذه السقطة إلى حد ما في طبعات الكتاب التالية وتضمن كتاب المشرع الأمريكى فردريك بوزمان Bausman هجوما هو الأول من نوعه من جانب أمريكى على الدعاية الخاصة بالتحالف وذلك في كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٢ بعنوان : « دع فرنسا تشرح » وكان للعلماء الأمريكيين ابحاثهم في دراسة الدبلوماسية الأوربية قبل ١٩١٤ . فلدينا التحليل الذى قدمه ميلنرد ورثمر Mildred Wertheimer عن العصبة الجرمانية . وهناك كذلك بحث وليم ل . لانجر عن بداية التحالف الروسى الفرنسى . لدينا العرض المتقن الذى قدمه لنا شومان F.L.Schuman عن الدبلوماسية الفرنسية وما قام به أ . ف هندرسون عن نقد لسيرة ادوارد جراى . وهناك الملخص العظيم لفترة ما قبل الحرب أعده ر . ج . مونتاج . أما أحسن الأبحاث واكفوها عن تاريخ أوربا الدبلوماسية قبل ١٩١٤ فهو العمل الذى لم يكتمل بعد والذى قام به وليم لانجر Langer وكان ما تم إنجازه . من هذا العمل ينهى بأنه سيكون أحسن تاريخ دبلوماسية بالنسبة لكل اللغات طيلة نصف قرن قبل ١٩١٤ . كذلك ثمة خلاصة على أعلى درجة من الكفاءة كتبها ج . و . سوين Swin بعنوان بداية القرن العشرين Beginning the twentieth century .

وكان الأمل معقودا بدرجة كبيرة على شميت Schmitt بوصفه أحد الدارسين لدبلوماسية ما قبل الحرب ، ولكن عمله الذى أتمه تحول إلى دفاع من وجهة النظر الرسمية الخاصة بجريمة الألمان وأكاذيبهم ، وهو الأمر الذى نقده في إسهاب م . هـ . كوشران Cochran كذلك هاجم الكتاب الأمريكيون وجهة النظر التقليدية الخاصة بأسباب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . وأعظم الكتب في هذا المجال هي كتب ك . هـ . جراتان C.H.Crattan ووالتر ميليز Walter Millis ، وما كتبه بصفة خاصة ش . ك . تانسفيل Tansville ، وثمة نقد على نطاق واسع وجه إلى ما زعمه ج . ك . تيرنر من أن العوامل الاقتصادية وخاصة مسائل البنوك

كانت الدافع الذي دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى دخول الحرب العالمية الأولى وتم تغيير هذا الرأي استناداً إلى ما حوته الوثائق من معلومات ، وخاصة تلك التي كشفت النقاب عنها لجنة ناي Nye كذلك أنكر نيوتن د . بيكر Newton D. Baker بعد عشرين عاماً من ١٩١٨ — أن عامل البنوك كان له أثر في دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . هذا إلى أن الدراسة التي جاءت من عدة أجزاء عن دور ولسن والتي قام بها راي ستاندر بيكر Baker تضمنت أعظم المعلومات عن هذا الموضوع .

أما عن نشاط كلود كيتشن Claude Kitchin خلال سنوات ١٩١٤ إلى ١٩١٨ فإن الأستاذ الكس . ارنت Arnett قام بدراسة عن حقيقة مؤتمر سنريس الشهير Sunrise Conference وأثبت أن ولسن قرر الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء قبل عدة شهور من إقدام ألمانيا على حرب الغواصات . ومع ذلك فإن المؤرخين الأكاديميين ظلوا غالباً سلبيين أو تقليديين . من ذلك أن شارل سيمور بصفة خاصة دافع عن الادعاءات التي ترددت أثناء الحرب . وخير ما ينقل لنا صورة ما تردد وقت الحرب هو ما قرره جيمس طومسون شوتويل أمام اتحاد رجال المال في نيويورك في سنة ١٩٣٦ إذ قال : « لقد قامت هنا الأمة بما ألقاه عليها التاريخ من عمل ، دون أن يكون سبب دخولنا الحرب الحفاظ على أموالنا ، وإنما كان السبب هو الاعتداء على علم بلادنا في أعالي البحار وعندئذ لم نتردد في الرد على ما وجه إلينا من إهانات . »

على أن ما قاله شوتويل لم يشرح السبب الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية تحجم عن الرد على هجوم بريطانيا على العلم الأمريكي في أعالي البحار ، بل حين حرق العلم الأمريكي وتطايرت شظاياها فوق السفن البريطانية . ولم يحدث أن قام أستاذ بحاث حتى ١٩٣٦ بنشر بحث دقيق عن سبب دخول الولايات المتحدة الحرب حتى أصدر شارل ك . تانسفيل كتاباً بعنوان أمريكا تدخل الحرب ، وهو كتاب جدير بأن يقارن بعمل فاي .

وهناك سبب هام يكمن وراء عدم قدرة المؤرخين الأكاديميين في دول التحالف على التعبير عن وجهة نظرهم في مسئولية الحرب . وهو أن كثيراً منهم قد عينوا مستشارين فنيين لأولئك الذين عهد إليهم وضع المعاهدات التي أنهت الحرب . وشعر هؤلاء المؤرخون بنوع من المسئولية تجاه معاهدة فرساي والمعاهدات الأخرى التي عقدت في ذلك الوقت لأنهم اعتبروا هذه المعاهدة من صنع أيديهم ومن ثم يمكن القول إن أولئك المؤرخين الذين اشتركوا في صياغة هذه المعاهدات وجدوا أن مصلحتهم تتطلب الدفاع عن وجهات النظر التقليدية في هذه المسائل .

وجهات نظر الباحثين عن مسئولية الحرب

يمكن تصنيف الكتاب الذين تناولوا المشكلة العامة لمسئولية الحرب إلى ثلاث فئات :

- ١ - الملزمين بفكر معين سابق .
- ٢ - المتحفظين .
- ٣ - المنقحين والمصححين للآراء السابقة .

ولقد استخدم الكتاب المحدثون هذه المعايير الثلاثة عند الكتابة عن إثم الحرب وبحث مسئولية هذا الإثم . وسواء أكان هذا التصنيف مفيداً أم لا ، فإن استخدامه أصبح دارجاً في تصنيف وتمييز المجموعات العديدة من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع .

أما المجموعة الأولى فهم أولئك الكتاب الذين برغم اطلاعهم على الوثائق الحديثة ، فإنهم مازالوا ملتزمين بوجهة نظر معينة كانت سائدة أيام الحرب عن مسئولية دول المحور عن قيام الحرب العالمية . ويتزعم هذه المجموعة من الكتاب هنريك كانر . **Heinrich Kanner** هرمان كانتوروكز ، اميل لودفيج ، ريتشارد جريلنج ، اميل بورجو **Burgeois** ، جورج باجيه **Pages** ، انطون ديبودور **Antouin Debidour** ، ويكهام ستيد ، وستون واطسون ، ج . وهيرلام مورلي ، هـ . و . ولسن ، شارل دونرهازن ، أ . رايموند تيرنر ، وليام ستيرنز ديفز **Stearns Davis** ، إيرل أ . سيري **Earl E sperry** ، فرانك مالوني اندرسون .

أما المجموعة الثانية فيمثلون الكتاب الذين يستشهدون في أبحاثهم بأحدث الوثائق بالنسبة لمسئولية الحرب ومع ذلك فهم يميلون إلى الأخذ بوجهة النظر التي تجعل دول المحور هم أصحاب المسئولية في بدء الحرب . ويأتى في مقدمة هذه المجموعة بطرس رينفو **Pteier Renouvin** ، ر . ب . موات **R. B. Mowat** ، برنادوت شميت **Schmitt** ، شارل سيمور ، بريستون **Preston** ، و . سلوسن **W. slosson** ، م . ت . فلورنسكى **M. T. Florinsky** ، ايوجين فيشر **Eugene Fischer**

وأما المجموعة الثالثة من الكتاب فهم أولئك الذين فحصوا ما أدلت به الوثائق المعاصرة وماشهدت به عن مسئولية جريمة الحرب وقاموا بتعديل النظريات التي ترددت وقت الحرب عن

هذه الجريمة ، وبالتالي فقد صححوا الآراء الخاصة بأسباب هذه الحرب . وهناك من وضع خطأ ضمن هؤلاء الكتاب مثل جون ماينارد كينس **John Maynard Keynes** وغيره من الذين أوصوا بإعادة النظر في معاهدة فرنسا على أساس فساد الجانب الاقتصادي فيها . وإذا كانت هذه المجموعة من الكتاب قد طالبت بإعادة النظر في معاهدة فرساي فإنهم فعلوا ذلك ضمن ما طالبوا به من إعادة النظر في الآراء السابقة الخاصة بمسئولية الحرب . أى أن مطالبتهم بإعادة النظر في المعاهدات التي أنهت الحرب تعتبر جزءاً مما التزموا به من إعادة النظر في موضوع الحرب بأسره .

وتنقسم هذه المجموعة إلى معسكرين : فريق معتدل يعتقد أن المسئول عن الجريمة الكبرى التي وقعت سنة ١٩١٤ هم دول الحلفاء لكن ذلك لا يمنع من تحميل دول المحور نصيبها في المسئولية هي الأخرى ، ومن بين هؤلاء المعتدلين من الكتاب سيدنى ب . فاي **Fay** ، ج . ف . سكوت **J. F. Scott** ، س . ايوارت ، هرمان لوتز ، ح . لويس ديكنسون ، ج . ب . جوش ، كورادو بارباجلو **(Corrado Barbagello)** ، اوبسطو تور **Augusto Torre** فكتور مارجريت .

أما الفريق الآخر فهو الذى ينادى بأنه لو كانت ألمانيا والنمسا تنقصها الحذقة وحسن التصرف سنة ١٩١٤ فإنها غير مسئولتين عن الحرب الأوربية . ويعتقدون أنه يمكن تبرير هجوم النمسا على الصرب وتأييد ألمانيا للنمسا أيسر مما يمكن تبرير هجوم روسيا على النمسا وتأييد فرنسا روسيا . هذا إلى أنهم يعتقدون أن المسئول أساساً عن هذه الحرب هو ما حدث قبلها من تعبئة الجيش الروسى . وهذه المجموعة تضم كتاباً مثل مكس مونتيغلاس ، فردريك ستيف ، جنر فرانز ، اريك براندنبرج ، بولى هير **Paul Herre** ، الفردفون فجرر **Alfred Von wergerer** ، هرمان آل **Hermann Aall** نيولا جايبيكس ، جورج ديمارتيال ، ماثياس مورهاردت ، جوستاف دوبان **Dupin** الفرد فاير لوس **Luce** ، ف . جونتواردى تورى **F. Gouthenoire de Toury** ، البريتو لمبروسو ، م . ن . بوكروفسكى ، أ . أ . آدموف ، أ . د . موريل **Morel** ، راموند بيزلى **Beazley** ، م . ادبث ديرهام **Durham** ، ايرين كوبر ولز **Willis** ، فرديناند شيفل ، و . أ . لنجلباك **Lingelbach** . م . ه . كوشران **Cochran** ، ت . مون **P. T. Moon** ، و . ل . لانجر ، أ . ه . ليبر **Lybyer** ، جوزيف واردسوان **Joseph Ward swain** ، فردريك بوسمان **Bous-man** وصاحب هذا الكتاب .

وكانت النهضة التى عمت حركة البحث التاريخى سبباً فى إخراج دراسات تاريخية متقنة وموضوعية . ومن هذه الدراسات الكتب التاريخية التى كتبها عن الحرب مؤلفون منفردون مثل

جون بوشان ، هرمان ستجمان ماكسييلان مونتجلاس . وهناك كتب ألفها أكثر من مؤلف مثل تلك التي نشرها ماكس شوارت **schwarte** وثمة مذكرات تاريخية ناقدة مثل تلك التي كتبها الجنرال ماكس هوفمان **Hoffmann** ومن أعظم المؤلفات التي كتبها مؤلف واحد مؤلفات جبريل هانوتو وإن كان يعيبها مسحة من الوطنية الغالبة عليها ودفاعه عن أخطاء القيادة العليا الفرنسية عند بداية الحرب .

وهذه المناسبة فإن هناك كثيرين من الكتاب الذين حرصوا على تبرير سوء تصرف كثير من القيادات العليا أثناء الحرب ومن ذلك ما كتبه ب . هـ . ليدل هارت ، ج . و . هويلر بنت وآخرون وهي دراسات ممتعة شبيهة بتلك الدراسات التي قامت بها مجموعة الكتاب المعروفين بالمنقحين المصححين أو وهي المجموعة الثالثة من الكتاب الذين سبق أن أشرنا إليهم عن ديبلوماسية ما قبل الحرب على أن أفضل الكتب عن الحرب العالمية بلا استثناء في مجال الكتابة التاريخية هو الكتاب الخالد الذكر « التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للحرب العالمية الأولى » الذي نشره جيس ت . شوتويل في أكثر من مائتي مجلد بمعاونة أساتذة باحثين من كل الأقطار . وتعتبر هذه الموسوعة الكبيرة أعظم مثل على نجاح العمل المشترك في مجال الكتابة التاريخية . وأنفق على هذا المشروع وساهم فيه جمعية كارنيجي الخيرية السلام العالمي بوصفه أحد المشروعات التي تخدم قضية السلام . أما الفائدة العلمية لهذا المشروع فهو أنه استخدم مرشدا لأولئك الذين أداروا دفعة الحرب العالمية الثانية . أما أحسن بحث مختصر تناول بالدراسة ذلك الجيل الذي شهد بداية الحرب ونهايتها فهو البحث الذي قام به ج . و . سوان **Swain** بعنوان (بداية القرن العشرين) .

أما الدول التي تحكمت فيها الفاشية فقد طغت فيها القومية الجارفة على اتجاهات الكتابة التاريخية في حين مضت فيها بقية الدراسات التاريخية التي لا ترتبط بالقومية في طريقها الجاد قدماً إلى الأمام . على أنه لم توجد في تلك البلاد دراسة قائمة على البحث العلمي بالنسبة للفترة المعاصرة ، ومن ذلك ما يروى عن هيجل قوله : أنه يؤمن بأن الدرس الوحيد الذي يتعلمه من التاريخ هو أنه لا تعلمنا شيئاً ولا ينطبق هذا القول على أحد مثلاً ينطبق على مسلك المؤرخين في كافة الدول خلال الحرب العالمية الثانية بما فيهم أولئك المؤرخين الذين كانوا حديثي العمر عندما (نشبت الحرب العالمية الأولى) وكان بعضهم من المنادين بضرورة إعادة النظر في الآراء والنظريات التي سادت الحرب الأولى . وفي هذه الحرب الثانية - وعلى نطاق أوسع مما كان في الحرب الأولى - اشترك كل المؤرخين في كافة الدول على اختلاف نظمها ، الشباب منهم والشيوخ ،

في الدعاية ، ولم يهتموا سوى قليلا بالحقائق التاريخية . وظهرت كتبهم ومقالاتهم وتقاريرهم وقد اصطبغت بنفس الصبغة التي ميزت الأبحاث التي صدرت فيما بين سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، فكل من الجانبين المتحاربين صور الحرب في صورة ، (حرب مقدسة) بالنسبة له . ولم يشذ عن ذلك مؤرخ في أي بلد من البلدان التي اشتركت في الحرب .

وكانت فكرة المراجعة والعودة للموضوعية بعد الحرب الثانية أصعب من تلك التي كانت بعد ١٩١٨ إذ ساد ما يعرف ، بالإفلام التاريخي ، ولم تتجاوز الكتب التي نادت بإعادة النظر فيما قيل وكتب أثناء حرب الولايات المتحدة الأمريكية أعداداً قليلة . فألف الأستاذ تانسيل Tansill كتابه (الباب الخلفي للحرب) وفاق هذا الكتاب كتابه « أمريكا تشارك في الحرب » *America Goes to War* وذلك بسبب موضوعيته وتعمقه في البحث . ولم تظهر كتب أخرى في أوروبا حتى صدرت في سنة ١٩٦١ طبعة كتاب تايلور « أصول الحرب العالمية الثانية » وكان المأمول أن تكون هناك عودة إلى التمسك بوقائع التاريخ وحقائقه عندما يسمح الوقت بذلك ، لكن الحرب لم تكد تنتهي حتى بدأت الحرب الباردة خلال حكم ترومان في ١٢ مارس ١٩٤٧ . ومن ثم فإن كراهية روسيا الشيوعية أو الدفاع عنها داخل روسيا أضيفت إلى الكراهية المتبقية لألمانيا وإيطاليا . وبالنسبة لروسيا وحلفائها الغربيين (من جانب أعدائها الألمان) وعلى حد قول المؤرخ البريطاني الشهير تايلور في المانشتر جارديان ، « قد يبدو أنه خلال الحرب الباردة لا يوجد شيء يلزم البعثة بالتزام معين . فقد يستطيع المؤرخون الأكاديميون الدفاع عن آرائهم حتى وهم يشغلون وظائف في حكومات دولهم . لكن المشكلة جاءت من أنهم شركاء في هذه الحرب وبذلك صار شأنهم شأن المؤرخين الألمان الذين استخدمهم دكتور جوبلز في دعايته أثناء الحرب »

المراجع :

- M.H. Cochran: Germany Not Guilty 1914 Chap. Stratford press 1931
H.E. Barnes : The Genesis of the world war Chap i.
App. Knopf 1929.
World politics in European Civilization.
Chaps xxi-xxiii Knopf 1930
In Quest of the Truth and Justice. part II Nat. Hist. Soc. 1928
ed. Perpetnal War for Perpetual Peace Caxon Printers 1953.
G.P. Gooch : Recent Revelations of EurOpean Diplomacy Longmans 1928
and later supplements
Arthur Ponsonby : Falésehood in Wartime Allen and Unwin 1928.
J.C. Willis : England's Holy war knopf 1928.
George Demartial : Comment on mobilisa les Consciences paris 1926.
H.C. Peterson : Propaganda 1914-1919 Yale University press 1941.
Russel Grenfell: Unconditioned Hatred, Devin Adair 1953.
Rene Wormser : *The myth of the Good and Bad Nations*, Regnery 1954
Hermann Lutz : German French Unity, Regnery 1957
D.F. Fleming : The Cold war and its origins 2 Vols, Doubleday 1961
Louis Morton : Pearl Harbour in perspective A Bi Bliographical survey
V. S. Naval Institute Proceeding, April, 1955.

الفصل الثاني عشر

اتساع أفق المؤرخ وتعدد ميوله امتداد جوانب النشاط التاريخي في الأزمنة المعاصرة

لقد أتقن مؤرخو المدرسة الناقدة والمدرسة الاستقصائية فن الوصول إلى الحقائق التاريخية السليمة بنفس القدرة التي أتقن بها عالم التاريخ إعادة بناء تلك الحقائق . لكنهم لم يفعلوا سوى القليل من أجل توسيع نظرة المؤرخ ليعرف كيف ينتقى الحقائق التي تستحق البحث . ذلك أنهم ظلوا إلى درجة كبيرة قانعين بالاتجاهات القديمة الخاصة بموضوع التاريخ ومادته . وكانت القاعدة العامة هي : أن المسائل الدينية والسياسية ظلت تحظى بالنصيب الأوفر من اهتمام المؤرخين طوال مرحلة تطور الكتابة التاريخية . فعند اليهود انجذبت الكتابة التاريخية إلى إثبات أن الله اختص بعطفه ورعايته ذرية سيدنا إبراهيم . وفي عصور فجر المسيحية والعصور الوسطى وعصر حركة الإصلاح الديني ، كان الاهتمام بإلغاء القوى الخارقة للطبيعة ، مع السعي لإثبات أن قدرة الله لا يمكن أن تتحداها أو تقارن بها قدرة الإنسان . وسيطر هذا الدافع على الأعمال التي ظهرت خلال تلك العصور من خلال سفرى عذرا ونحميا ثم كتابات القديس أوغسطين ، واروزيوس ، واوتو المنسوب إلى فريزبرج ، بارونيوس ، بوسويه ، بالي ، ميرل دويني ، مونتاج سومر ، هنري اوزيرن تايلور .

وحق في أيامنا هذه يحرص المؤرخون البارزون على تأكيد وجود الله عن يقين ويفصلون في أسمائه وصفاته . من ذلك أن هنري اوزيرن تايلور مثلاً وهو من رواد التاريخ الثقافي الأوربي ورئيس سابق للجمعية التاريخية الأمريكية أكد هذه الحقائق في كتاب من أحدث كتبه حيث قال (إن الله موجود ، وعلينا أن نتأكد من وجوده دائماً وأبداً . وإن البراهين الفعلية على وجود الله هي التي تتغير وتفقد قوتها ؛ أما هو فباق لا يتغير . إن الإحساس بوجود الله وما ينبجم عن ذلك من قوة

وراحة هي أعظم حقيقة في الحياة البشرية . وستظل الأمور تثبت لنا وإلى الأبد أن الأعمال الطيبة التي يرضى عنها الله هي تلك الأعمال التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالله وبقدرته وحبه . كذلك سيبذل التقدم البشري يتحقق تباعاً بفضل العبقرية المتحررة والعزيمة التي لا تعرف الكلل وبفضل رضى الله ومحبة الإنسان . وكان يحدث دائماً خلال الأزمات التي تعترض طريق الإنسان إلى الحرية أن ينتج الإنسان بروحه إلى الله حيث الرحمة والخلود .

ويتصف النصف الأخير من القرن الماضي بوجه عام بأنه عصر الكتابة التاريخية المرموقة ذات النظرة الدنيوية السليمة . فلم يقف الأمر عند حد ضعف الاهتمام بمسائل الغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة ، بل ضعفت كذلك قوة اليقين في طبيعة الله وقدرته الخارقة تجاه القوى البشرية . إن اكتشافات العلم الحديث والنقد الموجه إلى ما احتواه الإنجيل لم يضعف من شأن المعتقدات الدينية القديمة والتفسيرات الراسخة فحسب ، بل أوضحت على نطاق واسع عدم ملاءمة بعض النظريات الدينية المتزمنة للمسائل المتعلقة بحجم الكون وطبيعة نظامه . وأمام هذا الموقف ، فإن المؤرخ المطلع والمفكر أخذ يتردد بين أن يحرر نفسه من آراء اللاهوت أو أن يفترض الثقة بالله ، حتى مع اعترافه بأن مشاكل الكون غدت في هذه الأيام أكثر إثارة للتفكير وأكثر أهمية مما كانت عليه بالنسبة لشخص مثل أوغسطين أو لوثر . أما الأفكار الأخرى التي تسلطت على فكر المؤرخ التقليدي وهي اهتمامه بشئون السياسة وأحداثها — فقد مائت هي الأخرى ولكن في صورة أبطأ — وإن ظلت لها قوتها ووزنها الذي يحول دون تطور الكتابة التاريخية لتطابق العقل وتسم بالشمول . هذا مع ملاحظة أن الرواية السياسية كان لها تراث لا يقل في مكانته عن الرواية اللاهوتية ، فحدث خلط عند اليهود بين مسائل الدين والسياسة . واتسع أفق الاهتمام التاريخي عند هيرودوت بعض الشيء وتركز نسبياً على الموضوعات السياسية ، ولو أن أبا التاريخ ، كان أقل تعصباً في هذا المجال من أي مؤرخ آخر من المؤرخين القدماء ، فاهتم بصورة لا بأس بها بالعناصر المكونة للثقافة كما اهتم بالمقارنات . وكانت غالبية المؤرخين المشهورين — منذ ثوكيديدس حتى فريمان ، درويزن ، روس وغيرهم ممن لم يهبوا أنفسهم لدراسة قضايا المسيحية أو دراسة أحد مذاهبها وقرقها العديدة — يتجهون لدراسة الأحداث المختلفة والروايات المتداولة عنها أو تتبع الطرائف المرتبطة بالتاريخ السياسي والديبلوماسي والتاريخ العسكري . بل إننا نصادف مؤرخين مثل درويزن ، فريمان ، سبيلي ، شفر **Schafer** يعلنون في صراحة وفي تحج أن التاريخ ليس إلا دراسة السياسات القديمة ويرون أن هناك من أخطأ من المفكرين فشغلوا أنفسهم

بدراسة تاريخ الحياة الاقتصادية والنظم الاجتماعية فضلا عن الأدب والفنون الرفيعة الأخرى وغيرها من النواحي الهزيلة في نظرهم .

ويرجع الالتزام بهذا المنهج السياسي في العصور الحديثة إلى حد كبير إلى تأثير عاملين غير واضحين تماما ، أولهما رأى هيجل في الدولة وثانيهما الروح القومية . ذلك أن فلسفة هيجل أكدت أن الدولة هي أسمى شيء خلقه الله على هذه الأرض . ولا يخفى علينا أن فلسفة هيجل كان لها أنصار وأتباع كثيرون بين العلماء الألمان الذين وضعوا أسس علم التاريخ في صورته الحديثة في النصف الأول من القرن الماضي . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من إحساس بالقومية ، وهو الإحساس الذي ازداد قوة وبلغ أشده خلال الثورة الفرنسية وعهد نابليون بوجه خاص والذي استند إلى أسس تكنولوجية خلال الثورة الصناعية . وكان أن تجتمعت عدة أحداث قومية أثارت حماسة المؤرخين في القرن التاسع عشر منها ذكريات الثورة الفرنسية والانتصارات التي حققها بوناپرت ثم بزوغ الروح الجرمانية بعد حرب التحرير وتوحيد الإمبراطورية ، والشعور الذي طغى على الإيطاليين في إحساسهم القوي نحو الحاجة للوحدة الإيطالية ، وهو الشعور الذي ملك كلا من مشاعر دانتى وميكافلى ومازيني ، ومشاعر الإنجليز تجاه المعارك التي خاضوها في أسبانيا فضلا عن موقعة واترلو وكذلك التوسع الذي تحقق لإمبراطوريتهم بعد سنة ١٨٧٠ ، وزهو الأمريكيين بقيام الجمهورية الفيدرالية وانعزالها عن الحرب الأهلية الكبرى . وبالإضافة إلى هذه المسائل القومية ذات الصبغة السياسية وجد مجال آخر ذو صبغة سيكلوجية وثقافية مثل نظرية التفوق العنصري والثقافي . وهكذا كانت فلسفة هيجل من ناحية والحركة القومية من ناحية أخرى كفيلا مع بعضهما البعض بجعل معظم المؤرخين يقصرون نشاطهم على التاريخ السياسي .

وكان من الممكن ألا نشكو من انصراف هؤلاء لخدمة التاريخ السياسي وحده لو أنهم طوروا دراسة النظم السياسية وأضافوا إلى معلوماتنا الشيء الجديد عن تطور الدولة وأجهزتها المختلفة . ولكن الملاحظ هو أن الشطر الأعظم من هذا التاريخ السياسي انحرف عن اتجاهه الصحيح نتيجة عاملين تبعاً أساساً من تأثير الحركة الرومانسية على الكتابة التاريخية . وأول هذين العاملين هو النظرية الرومانسية التي نادى بأن التاريخ ينبغي أن يتضمن الحياة والمتعة ، ومن ثم فإن الأحداث المثيرة تعبر عن أجمل حلقات المادة التاريخية . وأما العامل الثاني فهو وجهة النظر المستقاة إلى حد كبير من كارليل وتلاميذه القائلة بأن التاريخ ليس إلا مجموعة تراجم شخصية . ومن ثم فقد برز إلى حد كبير عامل الاهتمام بالأشخاص في الكتابة التاريخية على اختلاف أنواعها . ونتيجة لهذه

الاتجاهات والمثل العليا اتجه معظم التاريخ السياسى فى القرن الماضى إلى أن يكون أساسا تاريخ تراجم وسرد أحداث ، وبذلك لم يلق إلا قليلاً من الضوء على المشاكل المتعلقة بأصول الأنظمة السياسية الكبرى وتطورها . حقيقة أن هناك كتابات خاصة بالتاريخ الدستورى مثل تلك التى كتبها ويتز Waitz ، فوستيل ، ماتلاند ، لوشير ، ازمن Esmein ، فيوليه Viollet ، فلاش ، برونر Brunner ، ج.ب.آدمز . ولكن من المغالطة أن نقول إن الأعمال التاريخية بوجه عام والمتعلقة بالتاريخ الدستورى بوجه خاص كانت أكثر توضيحاً عن تاريخ الدولة من تلك التى كتبها أساتذة التاريخ السياسى فى ذلك العصر . وكانت السمة الغالبة على الكتابة التاريخية المحترمة فى القرن الماضى هى سرد تفصيلات لا داعى لها لكنها تستثير دهشة القارئ .

وفضلاً عن ذلك فإن الكتابة المتسمة بالديناميكية والحياة فى التاريخ السياسى وتاريخ القانون — مثل كتابات برونر ، ايزمن ، فلاش ، مايتلاند وآدمز — كانت هى الأخرى مما يصعب الدفاع عنها . فالدولة ليست هى كل مجال المجتمع البشرى ولا هى الوعاء الوحيد للثقافة ، ولكنها ليست سوى الفصيل فى عملية التطور الاجتماعى والحكم بين المصالح الاجتماعية والثقافية المتضاربة والتى لأكثرها دور جوهري أكثر من الدولة ذاتها . وتفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض يؤدى إلى إعداد العناصر الديناميكية والمخلقة فى تطور الإنسان والمجتمع . هذا وإن كان ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن دور الدولة فى إبراز حيوية هذه العناصر وتفاعلها وتصارعها المستمر يفوق كونها عامل اضمحلال وهدم .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإنه كان ينبغى أن تكون الدراسة التفصيلية عن تطور الدولة مجالها فى العلوم السياسية أكثر منه فى علم التاريخ ، وبرغم ما يقال من أن معظم كبار المؤرخين فى كافة الدول الحديثة وخاصة فى أوروبا ظلوا على ولائهم التام للمنهج السياسى ، إلا أنه حدث تقدم ثورى فى النصف الأخير من القرن الماضى استهدف توسيع مجال اهتمام المؤرخ . وربما كان مرجع ذلك إلى التطور الثقافى الملحوظ فى تلك الفترة وإلى التقدم الذى حدث فى العلوم الطبيعية والاجتماعية فضلاً عن عدم التزام العلماء الباحثين ورغبتهم فى التحرر ، وهو الأمر الذى مكن المؤرخين القادرين والمبتكرين من تنفيذ إرادتهم والتعبير عن رغباتهم فى حرية كبيرة . هذا إلى أن التقدم الملحوظ فى العلوم والتكنولوجيا والنظم الاقتصادية وما نجم عن كل ذلك من تغيرات اجتماعية وثقافية ، أدى إلى تزايد الاهتمام بتاريخ العلم والتكنولوجيا والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى . هذا إلى نشأة علوم النفس والأجناس والاجتماع التى أدت إلى طرق جديدة

ساعدت على دراسة الإنسان وأوجه نشاطه في المجتمع ويسرت السبيل أمام من يرغب في الإقدام على مثل هذه الدراسات . ومع أن هناك ثمة مبالغة في اهتمام بورخهاردت ، وسيموندس ، بدراسة حركة النهضة فإن هذا الاهتمام في حد ذاته كان دافعاً إلى إثارة اهتمام أكبر بتاريخ الأدب والفنون الرفيعة . وبرغم ما كان للحركة الرومانسية من آثار سيئة سبق أن أشرنا إليها ، إلا أن هذه الحركة كان لها الفضل في توسيع دائرة معرفة المؤرخ وذلك عن طريق إثارة اهتمامه في العقيدة الدينية بوصفها شريعة عالمية فضلاً عن إثارة اهتمامه بالفلسفة والفن والأدب . وبالإضافة إلى ذلك كله ينبغي أن ندرك الأثر الذي أحدثه تزايد الحاصلين على درجات الدكتوراه في الفلسفة على تطور التاريخ في صورته الجديدة . وكان التحول في أول أمره جافاً ، بطيئاً وتقليدياً . لكنه مع الزمن أصبح من الضروري وجود عدة موضوعات جديدة وجد فيها أساتذة التاريخ المتبرمون مادة للكتابة التاريخية هم مرغمون على قبولها رغم أنها خارج النطاق المألوف للتاريخ السياسي والدبلوماسي . ويحدث الفجوة (في المنهج القديم) أصبح الانطلاق سهلاً منها . على أنه ينبغي أن ينسب شرف هذا الاتساع في أفق الدراسات التاريخية إلى بعد نظر وابتكار وجسارة أولئك المؤرخين أصحاب نظرية التجديد في علم التاريخ . ذلك أنه إذا ما نظرنا إلى ما حدث من تغيير بوجه عام دون أن يكون من وراء هذا القول حماسة أو اعتزاز قوى لوجدنا أن هذه الحركة التي استهدفت ديناميكية التاريخ واتساع أفقه قد وجدت أرضاً صلبة في الولايات المتحدة أكثر من أي مكان آخر بينما صادفت أكبر معارضة لها في بريطانيا العظمى .

أما وجهة نظر أولئك الذين اعترضوا على توسيع أفق البحث التاريخي فقامت على أساس أن عمل المؤرخ وواجبه يقتضيان أن يقوم بوصف كل طور من أطوار تطور الثقافة والنظم لشعب ما من الشعوب فبينما المؤرخ المخصص في جانب معين ربما يقتنع باختيار ذلك الجانب من جوانب تاريخ الحضارة الذي يهسه أكثر . وكان معنى هذا التحول أن المؤرخ المهتم بتاريخ الأدب الأنجلو سكسوني أو فنون المعرفة عن الأيرلنديين في القرن السادس ينبغي أن ينظر إليه على أنه مؤرخ حقيقي شأنه شأن المؤرخ الذي يتتبع تطور الـ Witangemont أو التحولات التي طرأت على الأسرة السكسونية . ولا نقصد بذلك أن على المؤرخ ألا يهتم بالأحداث وقيمتها ، ولكن ما نقصده هو أن الفكرة بالنسبة للكتابة التاريخية الديناميكية تتعارض في قوة مع الرأي القائل بأن دراسة مظهر معين من مظاهر نشاط البشر من شأنه أن يطنى على الأنشطة الأخرى وأن لا ينبغي أن نركز على دراسة مظهر معين من مظاهر الثقافة ونهمل ما عداه .

إن ما يطالب به المؤرخ الجديد هو ألا يحل اهتمامات جديدة محل الاهتمام بالموضوعات السياسية المألوفة ولكن عليه أن يقر بضرورة وصف كل جانب من جوانب الحياة والثقافة في المجتمع . ومن الواضح أنه مع اتساع مجال التاريخ بهذه الطريقة تصبح عملية الإلمام الشامل بكل جوانب تاريخ دولة قومية بمفردها أمراً يستلزم تعاون عدد كبير من الخبراء المتحمسين الدائمين . ولا ينبغي أن يعتقد فرد واحد أن في إمكانه أن يلم بكل نواحي التاريخ لمجتمع معين ولو عن فترة قصيرة . وهكذا أصبحت الأعمال التاريخية العظيمة في حاجة في المستقبل إلى جهود مشتركة .

وما دام كثير من المؤرخين صاروا غير قانعين بالتأريخ للشخصيات السياسية في المجال السياسي . فإن ذلك جعلهم أكثر اهتماماً بكل المكاسب التي حققها البشر على الأرض . سواء كان ذلك في مجال الثقافة أو الاقتصاد . والاجتماع أو السياسة أو العلوم الطبيعية أو الدين . وساعد على ذلك تقدم علم الفلك الحديث وما أتى به هذا العلم من أبعاد جديدة بالنسبة للكون . كذلك ساعد في هذا المجال تطور وجهة النظر تجاه الحياة والثقافة ونشأة علم النفس وعلم الاجتماع فضلاً عن تقدم الحركة الصناعية الحديثة والحياة المدنية وتقدم الدراسات العديدة في مجالات مختلفة في عصرنا الحاضر . ومع أنه كانت هناك جهود يعتد بها في هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ خلال فترة العقلانية والرومانسية إلا أن التطورات المعاصرة جاءت في صورة أكبر وأضخم تنوعاً وأكثر تعدداً . ذلك أنها قامت على أساس من المعرفة أوسع وأكبر ، فضلاً عن دراسة أدق في مجال البحث التاريخي .

تاريخ الفكر

كان تاريخ الفكر من أولى الجهود المتعددة الجديدة بالإشارة لأنها استهدفت الخروج بالتاريخ عن دائرة الأحداث السياسية وجعله يهتم بدلاً من ذلك بتطور الثقافة البشرية . ونعني بتاريخ الفكر الجهود التي بذلت لاستعراض انتقال أفكار ومعتقدات وآراء الطبقات المثقفة منذ العصور البدائية حتى عصرنا الحاضر . وينادي المتحمسون لهذا الاتجاه في التاريخ بأنه كما يقال بأن عقل الإنسان هو العامل المكمل لشخصيته وسلوكه فكذلك الاتجاهات الثقافية المتنوعة في كل عصر هي أكثر الأمور أهمية في مجال التأثير الموحد والمنظم على تطور الحضارة البشرية .

ولقد أوضح فرنسيس هاكون في كتابه « تقدم المعرفة » الخصائص المختلفة لهذا اللون من التاريخ حين كتب يقول : « لم يحدث أن اقترح شخص على نفسه أن يقوم بدراسة الخصائص العامة للمعرفة ووصفها من عصر لآخر على غرار ما فعله كثيرون من وصف الطبيعة وخصائص الدولة المدنية والدينية . وبدون الاتجاه لدراسة المعرفة يظل تاريخ العالم أشبه شيء بتعتال بوليفيمبوس ذي العين الواحدة ، لأنه لا غنى عن هذا الجانب من التاريخ الذى يوضح روح الإنسان وحياته » . وعبر الدكتور صمويل جونسون عن نفس هذه الحقيقة عندما قال فى بعض كتاباته : « ليس هناك جزء فى التاريخ مفيد بوجه عام مثل ذلك الجزء المرتبط بتقدم الفكر البشرى وتدرج الرقى العقلى والتقدم المتوالى للعلم ودورات المعرفة والجهالة التى تعتبر دورات نور وظلام بالنسبة لفكر الأحياء ، وظهور وإحياء الفنون وثورة عالم الفكر » . أما عالم الاجتماع الفرنسى أوغسط كونت فقد أشار إشارة طيبة إلى ذلك ، هذا فضلاً عن أنه أخرج فى فلسفة التاريخ بحثاً يقوم إلى حد ما على نظريته العامة عن المراحل الكبرى لتطور الاتجاهات الفكرية ، والتى أطلق عليها علوم الدين ، الميتافيزيقا ، والعلوم التجريبية .

كذلك قام ج . ستانلى Stanley بعمل ربط أكثر أهمية فى دراسته لتطور علم النفس الوراثى الذى بناه على أساس فكرة أنه ينبغى دراسة العقل البشرى تاريخياً من أصوله فى الحياة الفكرية عند الكائنات الأولية إلى أن نصل إلى أوجه نشاطه فى الإنسان الحديث . ثم إن علم النفس الاجتماعى أيد علم النفس الوراثى وذلك فى الأبحاث التى قدمها باجهو Bagehot ، تارد Tarde ، دركهيم Durkheim وآخرون . أما أبحاث كل من و . ا . هـ . ليكى W.E.H. Lecky ، اندرو هوايت ، جون و . دراير ، ويوسف ماك كاب Joseph Mc Cabe فقد أثارت اهتماماً كبيراً فى هذا الميدان حيث انهم عرضوا بعصور الجهالة فى عرضهم للتقدم الفكرى فى أوروبا . وكان أول مؤرخ معاصر أولى قدراً من الرعاية المنظمة فى هذا المجال هو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦-١٩١٥) ، ذلك أنه اعترف بالنتائج التى قام بها كونت فى هذا المجال ، ولكنه أتم عملاً أكثر من عمل كونت إحكاماً . وإلى لامبرخت تنسب فكرة تقسيم التاريخ إلى فترات طبقاً للمؤثرات النفسية السائدة فى كل فترة والتى تتابع وتتابع واحدة بعد الأخرى فى التاريخ ، فضلاً عن أنها تعطى خصائص الثقافة لكل عصر وتهىء الطريق لثقافة العصر الذى بعده ، وإذا كان لامبرخت قد وضع هذه القاعدة لتتمشى فى جوهرها مع التاريخ الألمانى وحده فإنه كان من دواعى الغبطة له فيما بعد أن يرى هذه القواعد تصلح لأن تكون إطاراً ينتظم داخله التاريخ العام للثقافة

البشرية . ثم كان أن خصص تلميذه كورت بريزج جهوده الأخيرة في دراسة تأثير المعرفة على مجرى التاريخ .

ومع أن كثيراً من المؤرخين المتفقيين مع لامبرخت في نظريته العامة أكدوا أن تفسيره الخاص متزمت وغير موضوعي أو منهجي بحيث يصعب تطبيقه حرفياً على تفسير التاريخ الثقافي في أوروبا ، إلا أنهم أقرّوا صلاحية نظريته العامة القائلة بأن السمات الاجتماعية والنفسية السائدة في أي زمن تمثل أعظم الأسس قوة لتنظيم اتجاهات التطور الثقافي بوجه عام . وقد نظر هؤلاء المؤرخون إلى تفسيراته الخاصة بوصفها مثلاً من أكبر الأمثلة على مدى ما فعلته الجهود الذاتية والمصطنعة لتقسيم تاريخ البشر إلى مراحل من التطور ، وهو الأمر الذي اتسمت به معظم كتابات الباحثين وخصوصاً الألمان منهم عن التطور الاجتماعي والثقافي ، وذلك في مجال الأنثروبولوجيا والاجتماع . وهكذا اتهم لامبرخت بأنه ضحى بالدقة في سبيل رتابة الموضوع ووحدة العرض وبساطة التنظيم . وكان أن نجم عن هذا النقد تطوير ذو طابع عملي وأكثر مرونة في تنظيم التطور الفكري وعرضه في أوروبا ، ونعني به دراسة طبيعة الأفكار السائدة والتغيرات التي طرأت عليها والاتجاهات الفكرية في المجتمع الغربي منذ العهود الأولى في الشرق القديم حتى أيامنا هذه . وروعي في هذه الطريقة الجديدة الالتزام بنوع معين من التفسير أو أي تنظيم جامد معد من قبل .

وكان الأستاذ جيمس هارفي روبنسون (١٨٦٣-١٩٣٦) أحد أساتذة جامعة كولومبيا السابقين — أبرز شخصية تناولت هذا الاتجاه الأكثر جدة وارتباطاً بالمنهج العلمي . ذلك أن روبنسون استطاع أن ينمي اهتمامه بهذا المجال عندما قام بدراسة مبتكرة عن تاريخ طبقة المفكرين في أوروبا ، وهي الدراسة التي أجراها بشكل تجريبي منذ جيل مضى . ولم يلبث أن أصبح بحثه أكثر الدراسات شيوعاً وأكبرها أثراً في هذا النوع من الدراسات التاريخية . ويمكن التعرف على الخطوط العامة لأرائه وطبيعة هذه الآراء ومجالاتها بالرجوع إلى موجز تلك الدراسة التي أعطاها اسم « موجز لتاريخ الفكر في أوروبا الغربية » ثم إنه تناول هذه الدراسة بقدر من التفصيل في أبحاثه « الفكر في دور التكوين » وكتابه « تهذيب المعرفة » و « الكوميديا الإنسانية » . وكان لهذه الأبحاث الفضل في إثارة اهتمام كبير على نطاق واسع في هذا المجال . أما الدراسة التي طالمنا وعد بها عن تاريخ الفكر في أوروبا باسم « العمل الكبير » فإنه لم يقدر لها أن تنشر^(١) .

(١) لصاحب هذا الكتاب دراسة موسوعة عن تاريخ الفكر والثقافة في غرب أوروبا في ثلاثمائة أجزاء طبعة دوفر سنة ١٩٦٤ .

ولم تلبث أبحاث روبنسون أن أثرت عندما تركت صدى لها في إنتاج طلبته وتلاميذه ، وعلى رأسها تلك الأبحاث الشهيرة التي كتبها بريزر فلد سميت عن عصر الحركة الإنسانية والإصلاح الديني فضلاً عن كتابه باسم « تاريخ الثقافة الحديثة » . ومن تلاميذ روبنسون كذلك لين ثورنديك الذي وضع كتاباً بعنوان « تاريخ السحر والعلوم التجريبية في العصور الوسطى » . هذا في حين ألقت الآنسة مارثا أورنشتين كتاباً عن نشأة الجمعيات العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . أما هوارد روبنسون فقد كتب عن بيل Bayle ، وكتب كارل بيكر عن الفكر السياسي الفرنسي والأمريكي ، في حين كتب ج. هـ راندال عن تاريخ الفكر الحديث . ثم ظهرت حديثاً دراسات عن تاريخ الفكر الحديث كتبها ف.ب. ارتز F.B. Artz ، كران برنتون Crane Brinton ، إيوجين وير Eugene Weber ، إ.ن. جونسون ، م. . كورقي ، ه.س. كوماجر H.S. Commager ، ج.ج. مارتن وغيرهم .

وإذا كنا ندين للأستاذ روبنسون وأتباعه بتجديد دراسة التاريخ الفكري ووضع معالمها بوصفها واحدة من أعظم الدراسات التاريخية ، فإن هناك دراسات عديدة جديدة في هذا الموضوع كتبها بعض من كانوا أحياناً لا يشعرون بأن هناك كيانات معترفاً به لهذا النوع من الدراسات التاريخية . وقد اهتم هؤلاء الباحثون بمظاهر أو مراحل معينة من تاريخ الفكر . ونخص بالذكر من تلك الأبحاث ما كتبه كل من ليفي بروهل ، فوندت ، جولدنوزر ، بارتلت ، بول رادين Radin ، ماريت Marett وزلر Wissler عن الفكر البدائي للأبحاث التي أسهمت في إثراء حصيلة التاريخ الفكري . كذلك ينبغي الإشارة إلى جهود كل من بريستد ، وارمان ، وروجرز ، وجاسترو ، وروبرتسون سميت ، وورنكلر عن الفكر في الشرق القديم . وهناك دراسات عن الفكر القديم قام بها جومبرز ، كريست ، كروزيه Croiset وواست Aust ، زيلر ، وويصوا Wissowa ، فولر Fowler وغيرهم . هذا عدا البحث القيم الذي كتبه هارناك عن تاريخ العقيدة المسيحية وبحث ليا Lea عن محاكم التفتيش في العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن نشير كذلك إلى أبحاث تابور Taylor ، بول Poole ، رشدال ، هاسكنز ، دي ولف عن الفكر في العصور الوسطى . أما ما كتبه فواج Voigt وسانديز عن المدرسة الإنسانية فتعتبر من الأبحاث الخالدة . وكتب كل من ليكي Lecky ، مورلي ، بن Benn ، ستيفن ، روبرتسون عن نشأة وتأثير الحركة العقلانية الحديثة ويعتبر البحث الذي كتبه مرز Merz من الأبحاث الفريدة عن الفكر الأوربي في القرن الماضي (التاسع عشر) . كذلك هناك دراسات عن العلوم العقلانية كتبها ديلتي Dilthey ، ريكتر Rickert ، فيندالباند Vindelband . أما بحث مينك Meineck فهو من الأبحاث المبتكرة في

مجال التاريخ الفكرى نظراً لأنه تناول السياسات الحديثة وهناك توارىخ الفكر الاجتماعى التى كتبها شتين ، بارنز ، بكر Becker ، سوروكين Sorokin وهناك الدراسات التاريخىة للفكر القومى التى كتبها باحثون أمثال شميدت ، فيشر ، ليفى بروهل ، فاجيه Faguet ، كروس Croce ، ستيفن ، باترن ، ريلى ، يارنجتون ، كورتى وغيرهم . ولا يوجد فى أى ميدان آخر من ميادين البحث التاريخى ما هو أغنى بالمصادر من ميدان التاريخ الفكرى ، فضلاً عما للكتب السابق ذكرها من مكانة لا يعلى عليها .

تاريخ العلم

يرتبط تاريخ العلم ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ الفكرى . والواقع أن هناك فى معظم الأحيان ارتباطاً سببياً بينهما : لأن الاتجاهات الثقافية السائدة تحدد بوجه عام طبيعة تطور العلم ومكانه فى الإطار الثقافى . وعلى الرغم من ذلك فإنه كان من الطبيعى ألا يجذب تاريخ العلم انتباه المؤرخين المحترفين إلا بقدر قليل تافه . ذلك أن المؤرخين كانوا أكثر ارتباطاً بالمناهج الأكاديمية والأدبية التى ظلت حتى عهد قريب جداً تنظر باحتقار للعلوم الطبيعية .

وكان أن أصبح من العسير على المؤرخ أن يتجاهل الأهمية الزائدة لأثر العلم على تطور الإنسان والمجتمع وخاصة بعد الثورة الصناعية وما صاحبها من تطبيق لمعارفنا العلمية المتطورة مما أحدث انقلاباً فى الثقافة المادية الحديثة — ولم يلبث أن اشترك قلة من المؤرخين الأكثر تطوراً من غيرهم مع العلماء فى علاج أسس هذا الجانب البالغ الأهمية من جوانب التاريخ الثقافى . ولكن معظم الأبحاث فى هذا المجال ظلت من نتاج العلماء الذين لم يوفقوا فى الوصول إلى خير النتائج بسبب نقص تدريبهم على منهج التاريخ وعدم درايتهم بالأسلوب التاريخى . وعندما أقدم المؤرخون على اقتحام ميدان تاريخ العلم اعترضتهم الصعوبة الناشئة عن قلة محصوهم من العلوم الطبيعية . وهكذا صار مطلوباً أن يتدرب كل العلماء والمؤرخين لاستكمال الجانب الذى ينقصهم .

وما تجدر الإشارة به من الأبحاث الهامة فى تاريخ العلم من جانب العلماء والفلاسفة تلك الأبحاث التى قام بها دنيحان Dannemann ، وجنزبرج Ginsburg ، سيدجوك Sedgwick ، تايلر (Tyler) ، لىبى Libby ، دامبير هويتهم Dampier Whetham ، جورج سارتون

وغيرهم . وهناك ما كتبه دكتور سنجر من أبحاث قيمة عن الجوانب المختلفة لتاريخ العلم والفكر وهناك كذلك البحوث الخاصة بالعلم في العصور القديمة من إعداد كانتور ، ميلهود ، بوشيه لبكر ك ، برتولن دوهم Berthelot Duhem . أما الأبحاث الخاصة بالعلم في العصور الوسطى فقد قام بها دوهم ، كما ألف شيبلي وولف Shipley wolf أبحاثاً موجزة عن نشأة العلم الحديث . ووضع مرز Merz بحثاً جديراً بالتنويه عن تطور العلم في العصر الحاضر وذلك في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ الفكر الأوربي في القرن التاسع عشر » .

وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال الخاصة بدراسة فترات معينة عن تاريخ العلم ظهرت هناك أعمال خاصة بتاريخ بعض العلوم ، مثل أبحاث أوزبورن ، وسنجر ، ولو كي Locy ، كاجورى ، ماش Mack ، ثورب ، بوير Bauer ، جارسون ، سودهوف ، سيجرس Sigeris سيجرس وهى الأبحاث التى تناولت تاريخ البيولوجيا والرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب ، وتنهى الإشارة بوجه خاص إلى العمل العظيم لجورج ساريون وفردريك براش Brasch إذ يرجع الفضل إليهما في جذب انتباه كل من العلماء والمؤرخين للبحث في تاريخ العلم فقد كان لساراتون جهوده الهامة بوصفه كاتباً وباحثاً في تاريخ العلم . كما كان للدكتور اسكل ح.س. جوسفسون Josephson . فضله العظيم في عمل بيولوجرافيا عن تاريخ العلم .

وهناك عدد كبير من المؤرخين التقدميين أظهروا حماسة شديدة للاشتغال بتاريخ العلم مثل لامبرخت وأتباعه في ألمانيا ، وهنرى بير Burr ومجموعته في فرنسا ، أما في إنجلترا فهناك ف.س. مارفن . وجيمس هارفى روبنسون في الولايات المتحدة الأمريكية . ويضاف إلى الأخير في الولايات المتحدة الأمريكية اسم كل من بريستد ، هاسكنز ، ثورنديك ، سميث ، راندال . وثمة كتابان كبيران لهما أهمية خالدة ، كتبهما مؤرخون محترفون في مجال تاريخ العلم أولهما لين ثورنديك ، وعنوان كتابه « تاريخ علم السحر والعلم التجريبي خلال الثلاثة عشر قرناً الأولى من المسيحية » والآخر بحث للمؤرخ ك.ه. هاسكنز ، بعنوان « دراسات في تاريخ العلم في العصور الوسطى » ويمكننا التنبؤ بأن المؤرخين لن يظلوا طويلاً على إهمالهم لتاريخ العلم . ففي مدى جيل قادم سوف ينال ذلك الفرع من اهتمامهم قدر اهتمامهم بدراسة تاريخ التطور الدستورى . وقد بدت بشائر ذلك الاهتمام فيما قامت به الجمعية التاريخية الأمريكية من تخصيص جزء من نشاطها لدراسة تاريخ العلم .

تاريخ التكنولوجيا

من الواضح أن تاريخ التكنولوجيا وثيق الصلة بتاريخ العلم بسبب ما تحدته من تغيير في الثقافة والأنظمة الاجتماعية . وإذا نظرنا إلى التكنولوجيا نظرة واسعة وجدنا أنها التطبيق العملي لمتطلباتنا من العلم . ذلك أن العلم الطبيعي يتصل اتصالاً أساسياً بحياتنا العملية وثقافتنا . ويتم هذا الاتصال عن طريق التكنولوجيا . وتتضح أهمية التكنولوجيا بوجه خاص بالنسبة للتاريخ من الحقيقة القائلة بأن تاريخ التقدم الذي يتحقق في ميدان الحضارة المادية هو في أساسه تاريخ وسجل لتقدم التكنولوجيا . إن التقدم الفني الآلى في العصور الحديثة هو الذى يقرر مدى قدرة الإنسان على قهر الطبيعة واستغلالها وتسخيرها لخدمته . وسواء أكان الرأى القائل بخطورة الأثر الذى تحدته الحضارة المادية على النواحي الثقافية الأخرى وعلى الأنظمة البشرية موضع قبول أو رفض ، فإنه لا يمكن أن ننكر تأثير الحضارة المادية بوصفها عاملاً هاماً على كل مظاهر الحياة البشرية وأنشطتها .

إن المرحلتين الكبيرتين في تقدم التكنولوجيا هما :

١ - تطور الآلة

٢ - إحلال الأدوات الميكانيكية محلها .

ولا جدال في أن الثورة الصناعية تمثل أبرز صورة للأثر الفردى الذى ترتب على التغيرات التى طرأت على التكنولوجيا . ذلك أن الثورة الصناعية قامت على أساس عدد من التغيرات العلمية والتكنولوجية في الغزل والنسيج وصناعة الصلب ، ووسائل النقل والمواصلات . وكان ذلك كفيلاً بتغيير ملامح الحضارة الحديثة ومسيرتها . وعلى الرغم من أهمية تاريخ التكنولوجيا بوصفها أساساً لفهم التطور الثقافى وتطور الأنظمة فإنه يجب الاعتراف بأن جماعة المؤرخين لم يشغلوا أنفسهم جدياً بالبحث في هذا المجال . وتبدو هذه الحقيقة عندما يستعرض الفرد كتب التاريخ الحديثة إذ نجدها خصصت فصولاً عدة لأحداث سياسة غير هامة نسبياً — مثل عصر الثورة الفرنسية — بينما كان أول مرجع عام في تاريخ أوروبا الحديث يتضمن فصلاً عن الثورة الصناعية هو كتاب روبنسون وبيرد الذى صدر سنة ١٩٠٧ بعنوان « تطور أوروبا الحديث » . هذا وإن كانت هناك عدة أبحاث سابقة على ذلك الكتاب تناولت تلك الثورة الصناعية من عدة جوانب .

وقد بذل علماء الحفريات وعلماء الحضارة البشرية كثيراً من الجهد لامتدادنا بمعلومات عن أصول التكنولوجيا المادية — مثل ظهور وتطور الأدوات المختلفة — وبعض القوانين الفنية أو اللوائح التي تحكم في أصول الحضارة المادية وتطورها وانتقالها . وكان أن جمع أوتيس ت . ماسون Otis T. Masm في كتابة أصول الاختراعات ، سجلاً عن هذه المواد في أشكالها الأولى وشرحها في صورة وصفية وعلى شكل نظريات . ثم كان أن انتشرت هذه الأبحاث وشاعت بطريقة أحدث في مؤلفات كوينيلز وويسلر Quennelles and Wissler . ومن العصر الذي يعرف بعصر ما قبل التاريخ حتى الثورة الصناعية لم تكن هناك سوى دراسات ضئيلة في الجانب التاريخي الخاص بالأوجه المختلفة للتقدم التكنولوجي . أما عن تاريخ التقدم الميكانيكي الذي جاءت به الثورة الصناعية فقد كتبت عنه بعض الكتب مثل تلك التي ألفها أوشر Usher ، كايمبر Kaempffert ، مونفورد وآخرون . هذا بالإضافة إلى ما ظهر من دراسات أخرى هامة عن تاريخ جوانب معينة من التقدم الفني مثل صناعة الصوف والحديد والتصدير ووسائل النقل براً وبحراً والصناعات الكيماوية الحديثة وصناعة الفحم والمطاط والوسائل الحديثة لاستغلال الكهرباء وغيرها .

وقمت دراسات عامة عن تاريخ التكنولوجيا أصدرها فيرنندل Vrendel ، أوشر ، ديرى ووليام ، ميسك ، كلم Klemm . هذا فضلاً عن الموسوعة المشتركة التي أصدرها شارل سنجر وزملاؤه . كذلك هناك مجهود مفيد مبتكر قام به ثورستين فييلن متأثر بآراء كارل ماركس حيث حدد مراحل التطور التكنولوجي بوجه عام ووضع في موضعه الصحيح بالنسبة للتاريخ الثقافي والتطور الاجتماعي والاقتصادي . هذا بالإضافة إلى أنه حاول أن يضمن بحثه حلولاً لبعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبرى في وقتنا الحاضر . وقد نهج بعض الكتاب نهجة ولكن بصورة أقل دقة وعمقاً مثل هوبسون ، سومبار وأوجيرن Sombart and Ogburn .

وشهدت السنوات الأخيرة جهداً قام به مجموعة من الباحثين لحياء هذه الدراسات ونشرها على نطاق واسع وخاصة أولئك المؤمنين بمبدأ التخصص .

وربما لا نكون مجازفين إذا قلنا إنه ينتظر في مدى جغرافيته أن يظهر عدد من المؤرخين المحترفين الذين يتعمقون في جدية وانتظام العلاقة بين التقدم الفني والتطور البشرى والثقافي ، وتبدو ملامح هذا الاتجاه في بعض الاهتمامات التي أبدتها حول هذا الموضوع

بعض المؤرخين مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، مارفن ، شوتويل وغيرهم . ولو أن اهتمامهم لسوء الحظ لم يتمخض سوى عن القليل من المؤلفات . ويعتبر كتاب لويس لامنورد الذى كتبه باسم /التطبيقات الصناعية والحضارة ، أول محاولة نرضى عنها لتتبع تطور التكنولوجيا . كذلك طور كمبر واعوانه هذا الموضوع كما تناوله سيجموند جيدون Siegfried Giedion فى كتابه سيطرة نظام الآلهة ، وكان لروجر بيرلنجام Roder Burlingame الفضل فى المام الكثيرين بهذا الموضوع بفضل كتابه الذى يدل على مقدرة والذى اسماء «الآلات التى اقامت امريكا» .

التاريخ الاقتصادى

يرتبط تاريخ المسائل الاقتصادية والنظم الخاصة بها ارتباطا شديدا بتاريخ التكنولوجيا بالقدر الذى تكون حياتنا الاقتصادية وليدة التطبيق للتكنولوجى الآلى القائم على استغلال الطبيعة فى الحدود التى ترسمها الاتجاهات الاجتماعية والأنظمة التشريعية ، خصوصا ما يتعلق بمسائل ملكية الثروة ووضع الطبقات والتمييز بينها من الجانب الاقتصادى . وعلى هذا فإن المؤرخ الاقتصادى يبدأ مهمته مستعينا بالفنيين وينهيها بمعاونة رجال الاجتماع . ويكاد يقتصر تاريخ الحياة الاقتصادية لشعوب العالم على التطورات التى شهدتها القرن التاسع عشر .

ذلك أن البحث فى الحياة الاقتصادية — شأنها شأن تاريخ العلم — لم يكن أمراً مألوفاً — اذ نبذ المؤرخون هذا الجانب وانحصر تصورهم الرومانسى للتاريخ ومجال كتابتهم فيه على انتصارات الملوك وأخبار القادة العسكريين ورجال الدولة والسياسيين والاعيان . وظهر أول اهتمام منظم بالتاريخ الاقتصادى بوصفه أحد جوانب العلوم الاقتصادية بصفة عارضة خلال نشاط الحركة التجارية وتقدم البحث فى العلوم الطبيعية . وذلك أن الكتاب عالجوا هذه الموضوعات مع الإشارة فى قليل أو كثير للتاريخ الاقتصادى . وأحسن الأعمال التى يظهر فيها ذلك بصورة عرضية ما كتبه آدم سميث بعنوان «ثروة الأمم» . أما مونتسكيه فقد شعر بأهمية العلاقات التجارية على تطور الانسان والثقافة . ثم حاول رينال Raynal بعد ذلك بقليل ان يحيط بمظاهر التوسع الاوربى والثروة التجارية فى التاريخ الأوربى .

وتشيح هيرن Heeren وهو الأستاذ النابعة من مدينة جوتنغ بالمانيا بروح مونتسكييه وذلك عند كتابته أول كتاب عظيم عن التاريخ الأقتصادي ، وذلك انه كتب عن التاريخ القديم في ضوء العلاقات بين الحياة الاقتصادية والنشاط التجاري في تلك العصور . ثم ازداد الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي إلى مدى أبعد من ذلك بفضل التصارع بين السياسات التجارية في النصف الأول من القرن التاسع عشر من ناحية ونتيجة للتقدم الذي وصلت إليه مدرسة مؤرخي الاقتصاد الألمانية من ناحية أخرى . وعلى كل فإن الاهتمام الحقيقي بالتاريخ الاقتصادي ظهر بعد ان وجهت الثورة الصناعية الازدهان إلى أثر العوامل الاقتصادية في التاريخ .

وكانت هناك مرحلتان أو نموذجان بالنسبة للتطور الخاص بالتاريخ الاقتصادي . اما المرحلة الأولى تتمثل في اتباع نظرية ومناهج التاريخ السياسي الوصفى ، وذلك بأن سلكت الابحاث العامة طريقاً اخبارياً صرفاً عند وضعها أو تأريخها لتتابع الأحداث الاقتصادية . أما المرحلة الثانية للأبحاث الصغيرة المقتضبة حول مشكل ما في التاريخ السياسي أو الدبلوماسي فإن ما يقابلها في التاريخ الاقتصادي كان يدرس دراسة مستفيضة تتناول تطور بعض الأنظمة أو الأنشطة الاقتصادية الخاصة أو عرض موضوع معين في فترة خاصة . ولكن بالنسبة لكلا النموذجية فإن البعثة عليه أن يكون بالغ الدقة واسع الاطلاع وله اهتمام حقيقي ولو محدود بما يدرسه . ومع هذا كله فإن الجهد كان ضئيلاً بالنسبة للربط بين الأنشطة الاقتصادية وأنظمة الحياة العامة للمجتمع ككل ، وبالنسبة لتصوير التطور التاريخي للإنسان والمجتمع مع بيان نتيجة تفاعل وتأثير العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل على التطور الثقافي .

ونجد نماذج لهذا النوع المبكر من دراسة التاريخ الاقتصادي في الأبحاث الشهيرة لروجرز ، جينس Gibbins ، اشلي Ashley ، كنتجهام ، اونوين Unwin ، ليسون ، كلاهام Clapham ، فارنر Warner ، اناما شترنج Inama Shrnegg ، مافور Mavor ، أوشر Usher ، هيتون Heaton ، بوجارت Bogart ، لينكوت Lippincot ، كومان Coman ، كارمان Carman . هذا بالإضافة إلى رسائل وابحاث عديدة لا يتسع المجال لذكرها هنا . ومن خيرة المؤلفات المجادة في هذا المجال الكتاب الذي ألفه جورج رينارد وزملاؤه بعنوان

«تاريخ العمل». كذلك أخرج هنري دافيد وزملاؤه عملاً عظيماً آخر مشتركاً عن (التاريخ الاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية).

وثمة نوع آخر من أنواع كتابة التاريخ الاقتصادي أعظم من سابقه وأكثر منه حيوية يمتاز بجودة الربط فضلاً عن أنه يقتصر على سرد المسائل الاقتصادية وإنما وصف تطور الأنظمة الاقتصادية ذاتها. وجاءت أول خطوة هامة في هذا المجال على يد مؤرخي الاقتصاد من رجال المدرسة الألمانية ورائدهم في هذا السبيل روشر Rosher.

ولم تلبث أن جاءت خطوة أخرى أكثر تقدماً عندما بذلت محاولة على قدر المستطاع لتوضيح الترابط بين تطور الأنظمة الاقتصادية والأنظمة الاجتماعية الأخرى. وعلى الرغم من أنه كانت هناك جهود مبكرة في هذا المجال منذ عهد أرسطو وما بعده، إلا أن الإنتاج العظيم في هذا الموضوع تمثل فيما أسهم به كارل ماركس إذا حكمنا على مجهوده في هذه الناحية بصرف النظر عن النظرية الاشتراكية التي نادى فيها بإعادة البناء الاقتصادي. ويؤكد هذه الحقيقة عديد من الكتاب الذين تزعم بعضهم حركة النقد لمذهب ماركسي المتطرف مثل كوفالفسكي، شومولر Schomoller، سومبار Sombart، بوشر Biicher، وبر Weber، ليفاسير Levasseur، هوبسون Hobson، وب، هاموند، تاوون، فييلن، كونبر Connors، جراس Cras، فولكبر Faulkner، كيركلاند Kirkland، دورفمان Dorfman، كوشران Cochran، ميلر Miller، كلف Clough.

ومن الواضح أن هذا النوع المتطور من كتابه التاريخ الاقتصادي يبنى أن يقوم على معرفة واسعة بعلم الاجتماع، الذي يستطيع وحده أن يمد الكاتب بإلمام واسع وكافي بالقوانين ومظاهر التطور في الأنظمة الدولية، وذلك حتى يتمكن من دراسة هذه المسائل الاقتصادية بنجاح. ويمكن القول إن مدى نجاح الكاتب في موضوع التاريخ الاقتصادي إنما يتوقف على قدر إلمامهم بالمسائل الاجتماعية. ويمثل هذا النوع من الكتابة التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية ثورنن فيبلن Thorstein Veblen وتلاميذه الذين جعلوا من هذا الربط بين التاريخ الاقتصادي وعلم الاجتماع لوناً أساسياً من ألوان علم الاقتصاد الحديث أو الأنظمة الاقتصادية الحديثة. هذا مع ضرورة ملاحظة أن تناول التاريخ الاقتصادي بنوعيه إنما جاء على أيدي رجال الاقتصاد أكثر من كونه نتيجة لجهود المؤرخين. ولم يكن من قبل الصدفة وحدها أنه يوجد أقسام ذات كراسي خاصة بالتاريخ السياسي

والدبلوماسية والدستورى عن كل بلد وعصر فى حين أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر ما يصل إلى ستة كراسى خاصة بالتاريخ الأقتصادى فى جميع أقسام التاريخ فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية . ولا يعرف مؤلف هذا الكتاب من هذه الكراسى سوى ذلك الوجود فى جامعة مينوستا Minoesta.

التاريخ الاجتماعى

أما التاريخ الاجتماعى فكان أحد الإضافات الرئيسية نسبيا التى جعلت علم التاريخ أكثر تحولا فى نظره وأكثر حيوية فى مضمونه . وقد بدأت هذه الحركة منذ قرن تقريبا ببعض الدراسات مثل تلك التى قام بها ريل Reill، وفريتاغ Freytag، وكلاهما حاول إثارة الاهتمام بماضى ألمانيا لا عن طريق إحياء ذكرى الانتصارات الباهرة التى حققتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو تلك التى تحققت لأسرة الهوهنزولرن وإنما عن طريق الدعوة لإعادة بناء الحياة الاجتماعية والتمسك بالعادات التى كانت سائدة فى ألمانيا فى العصور الوسطى والحديثة . على أن العمل الذى قام به فريتاغ على وجه الخصوص لا يعتبر تناولا منتظما لتطور النظم الاجتماعية بقدر ما كان تجميعا لصور ناطقة مصحوبة بالرسوم والمناظر والقصص والأحداث التى تصف دقائق الحياة اليومية للشعب الجرمانى . ثم تطورت هذه الطريقة فى معالجة التاريخ الاجتماعى عن طريق عديد من الدراسات التى عالجت السلوك والعادات فى عصور وأزمنة مختلفة . وكان طابع هذه الدراسات الاهتمام بالقديم أكثر منه إنجاز دراسة تاريخية واسعة الأفق .

وخير نموذجين لهذا النوع من التاريخ الاجتماعى هذا ما كتبه لودنيج فريد لاندر عن الحياة فى الإمبراطورية الرومانية وما كتبه بولى لأكرد Paoul Lacroix عن العادات والأخلاق فى العصور الوسطى . ثم لم تلبث أن تحققت خطوة أكثر تقدما على أيدى أولئك الكتاب الذين حاولوا أن يعطوا مجالا أوسع واهتماما أكبر لدور العوامل الاجتماعية فى تاريخ الشعوب وذلك فى مؤلفاتهم التى كانت نوعا من القصص الوصفى ، لكنها صممت ونفذت لتعبر غرض تاريخى من ورائها أكثر من مجرد اهتمامها بالماضى القديم . وكان أن تحقق هذا النوع من الكتابة فى بعض الأعمال الشهيرة مثل من التى قام بها تريل Traill،

ومان Mann بعنوان (مجتمع انجلترا) ، وما كته رامبر Rambaud عن الحضارة الفرنسية وبلوك Block بعنوان (تاريخ الشعب الهولندي) ، فضلا عن الموجز الذي وضعه التاميرا عن الحضارة الأسبانية . وهناك أيضاً الكتاب الذي ألفه ماك ماستر McMaster عن الدور الوطني في تاريخ تطور أمريكا ، وهو العمل الذي اكده تلميذه اوبرهلتزر Oberholtzer عن الفترة منذ قيام الحرب الاهلية الامريكية . أما أعظم الأعمال في مجال كتابة التاريخ الاجتماعي فهو ذلك النوع الذي يحاول أن يوضح المظاهر العامة للتطور الاجتماعي طبقاً لما أحدثته وعدلته فيه العوامل المختلفة من نظم وقوى وصدام بين الطبقات والهيئات الاجتماعية المختلفة . ويتناول هذا النوع من الكتابة التطور الاجتماعي بوصفه عملية وراثية ذات أصول قديمة . أما الكتاب الذين طوروا بدرجات متفاوتة هذه الكتابات المتنوعة من التاريخ الاجتماعي المتطور فهم لامبرخت ، شنتها وزن ، جوشن ، جوتز ، نيتشه ، كلهم من علماء المانيا وفي فرنسا فوستيل دي كولانج وبيير وزملاؤه . أما في انجلترا فقد ظهر جون ريتشارد جرين ، وماتيلاند ، فينوجرادوف ، بولارد ، سلوتر ، باربارا هاموند ، سيدني ويتنرس وب Sidney and Beatrice Webb ، كلافام Clapham . وفي ايطاليا ظهر بارباجلو ، وفيرورو Ferrero . وفي روسيا كلوشفسكي Kluchevsky . أما في الولايات المتحدة فهناك شوتويل ، تيرنر ، سيمونز ، فوكسي ، كيندرك ، هاجر ، كارمان ، بيكر ، ودد ، هايز شيني ، شيلزنجر ، فولكبر Foulkner ، وبودن Bowden . ولقد امدنا العمل المشترك عن التاريخ الاجتماعي والثقافي في امريكا والذي ألفه ا . م . شيلزنجر بالاشتراك مع د . ر . فوكس D.R.Fox بأحسن المعلومات عن مكانة الكتابة التاريخية في التاريخ الاجتماعي في الولايات المتحدة الامريكية في الوقت الحاضر .

ثم كان أن مضى بعض الكتاب — وأكثرهم اجتماعيون مؤرخون أكثر منهم مؤرخون اجتماعيون . بهذا التطور قدما ، وحاولوا الكشف عن قوانين التطور الاجتماعي فنقبوا عن الظواهر الاجتماعية التي كررت نفسها في التاريخ حتى يكتشفوا الحقائق المبنية على الاسباب والنتائج . وبمعنى آخر فانهم حاولوا ان ينزلوا بالتاريخ ليجعلوا منه فرعاً للعلم الاجتماعي الوراثي . وتبدو الامثلة على هذا النوع من الكتابات في مؤلفات كل من كومت Comte ، باكل Buckle ، هوبوز ، جيرنجز ، مولر لاير Muller.Iyer ، بريزج Breysig ، الفرد ويبر Alfred Weber ، تيجارت Tegart ، والاسي Wallace ، فورست وسوردكن Forest and Sorokin .

تاريخ النظم السياسية

كان للاتجاهات الجديدة التي تمثلت في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي أثرها على التاريخ السياسي وتاريخ القانون . واتجهت أرقى أنواع الكتابة التاريخية بالنسبة للتاريخ السياسي في القرن التاسع عشر نحو علاج أخبال هذا التاريخ وأحداثه ، ولكنها قلما أبرزت صورة واضحة للتطور السياسي ، فضلا عن أنها لم توضح سر تجاهلها للعلاقة بين النظم السياسية والقوى الأخرى في مجال التاريخ القومي . والحاصل أنه حين كان المؤلف على دراية واسعة بعلم السياسة ، فإن مادته كانت تضم بين طياتها اتجاهات التطور الدستوري وتطور النظم وتطفي على كتابته مادة التراجم والقصص وسرد الأحداث . ولم يكن في إمكان القارئ . إلا إذا كان مثابرا . أن يستفيد مما يقرأ . ومن أحسن الكتب في هذا المجال ذلك الكتاب الذي ألف س . ر . جاردنر عن تاريخ إنجلترا والذي اشتهر بين الطلبة بوصفه مرحب في موضوعه .

أما أصحاب النظرة الواسعة القادرين على ربط الأمور بعضها ببعض والذين نظروا إلى التطور السياسي على أنه إلى حد كبير نتاج حتمى لما يتعرض له المجتمع من صراع وضغوط وقوى وتعديلات فهؤلاء هم أصحاب الفضل في ظهور ما يسمى بتاريخ النظم السياسية . وهنا برزت مسألة الجانب التكويني وتركز الاهتمام على التغييرات في النظم أكثر منه على الأحداث والشخصيات كما برزت أهمية توضيح المراحل الرئيسية في التطور السياسي واتسع ذكر الاسس الاقتصادية والاجتماعية للاتجاهات السياسية وقد نهج موسر Moser منهجا يمس هذا الاتجاه مساهمينا في وقت مبكر في النصف الأخير من القرن الثامن عشر وذلك في كتابة تاريخ أونرنبروك ، كذلك نهج نفس هذا المنهج كل من دي كوكوفيل ، فوشيل دي كولانج ، لاكومب ، لوشير ، فيوليه ، فلاش ، بيتي دوتيه Petit Dutellis . أما شوملر فعلى الرغم من أنه اقتصادي أكثر من كونه مؤرخ فإنه شجع هذا النوع من الكتابة التاريخية في ألمانيا . كذلك تعتبر مؤلفات نيتشه خير مثال لهذا القسم من الدراسات . وقدم لنا برونر ، وتيز ، جنست Gneist ، ديجو Duguuit مثل هذا النوع من العناية بالاتجاهات التشريعية والدستورية . أما ماتيلاند ، فينو جرادوف ، ادوارد جنكس Jenks ، بولالا ، وبز Webbs فكانوا من رواد هذه الدراسات في إنجلترا . وفي روسيا نجد ميليكوف خير من عني

بهذا النوع من الدراسة ، ومثله في ذلك فيروردو Ferr oro والذي أخذ أساساً لدراسة التحليلية للتاريخ الروماني السياسي . أما في أمريكا فتتمثل أبرز الجهود في مجال تاريخ النظم السياسية فيما كتبه أوزجود عن تاريخ المستعمرات الانجليزية حتى قيام الثورة الأمريكية . ولو أن دراسته أصبحت بالية لفشلها في إبراز تفاعل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعضها مع بعض . ذلك أنه فضل تاريخ الاستعمار عن الاتجاه السائد لطمس تطور النظم الاستعمارية تحت حشد ضخم من التفاصيل من التراجم والاحداث والقصص بحيث صار ذلك الحشد بمثابة قوقعة يصعب اختراقها أو الوصول إلى ماورائها . ولكن هذه الدراسة التي قام بها أوزجود أثارت اهتمام طلاب البحث بدراسة النظم في الوحدات السياسية المحلية . أما ماك الوان Mc Ilwain فله كتاب العظيم عن نظام الحكومة في العصور الوسطى ، وعما في تاريخ النظم الأمريكية من جذور وأسس انجليزية . وتنادل ك . م . اندروز ، ج . ت . آدمز دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في فترة وجود المستعمرات واعطيها قدر زائداً من الاهتمام . أما أقرب الأبحاث في أمريكا كذلك التي قام بها في أوروبا ، هاتيرلامد ومدرسة ويبس Webs فهي التي كتبها آدمز عن تاريخ الدستور الانجليزي وما أخرجه بيرد Beard من أبحاث متخصصة عن فترة وضع الدستور وفترة حركة القومية في دورها الأول . ولهذا المؤلف الأخير (بيرد) محاضراته التي لم تنشر عن تاريخ الدستور الأمريكي . وهناك الكتاب الذي ألفه هاكر ، وكندريك بعنوان «تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب الأهلية» . ومثله كتب ومحاضرات و . ا . دود W.e.Dodd ، بيلنجتون . ويعتبر ما كتبه تيرنر ، بيرد ، شيلزنجر ، بيكر من أعظم الدراسات التي أبرزت تاريخ النظم السياسية الأمريكية . ثم أنه علينا أن نعرف بأنه لا يوجد مؤرخ سياسي استطاع أن يبرز ما أبرزته تلك الدراسات التي قام بها بيجهو Begehut ، وجو مبلو ووكز Gum plowicz ، راتزنهورم Ralzenhofer ، وميشيل ، وبير Webber ، واوبنهر Oppenheimer ، وكوفالفسكي ، لوريا ، نينلي .

تاريخ القانون

أدى علاج تطور الأنظمة السياسية علاجاً جاداً عميقاً يستند على أساس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي إلى التأثير على تاريخ القانون والنظم التشريعية . ذلك أن كتاب

هذه المدرسة حرروا دراسة القانون من المفاهيم الميتافيزيقية واللاهوتية وأظهروا ما للاصول القانونية من طبيعة دنيوية واجتماعية وما طرأ عليها من تحولات موضحين كيف ان القانون يكيف نفسه إلى حد كبير مع التغيرات الاجتماعية — اما أولئك الذين ندين لهم بمعظم ما نعرفه عن هذا التحول في دراسة تاريخ القانون بالنسبة لكافة العصور فهم جوميهكوليز في النمسا، جيرك Gierke، ايهرنج، برنر Brunner، كوهلر، كانتوروتز Kantorowtz، بيرولزيمر Berolzheimer في ألمانيا. وفي انجلترا لدينا ابحاث مايتلامذ، بولوك Pollok، جنكز، فينوجرادوف، لاسكى Luski. وفي فرنسا هناك ازمن Esmein، دوجو Duguit، شارمونت Chormont، وفي ايطاليا نجد فاشارو Vaccaro، وفي الولايات المتحدة هولمز Holmes، ويجيمور Wigonore، كاردوزو، روسكو بدند Roscoe pound وتلاميذهم.

التاريخ العالمى ووجهة النظر العالمية

ويرتبط ارتباطا قويا بالتطور العلمى الاقتصادى الذى شهده القرن الماضى اتجاه جديد نحو التخلص من العزلة والاقليمية التى اصطبغت بها الكتابة التاريخية فى الماضى واحلال وجهة النظر العالمية محلها. ذلك أنه صار من الأمور الواضحة أنه حتى التاريخ السياسى المحلى لدولة من الدول لم يعد من الميسور فهمه دون معرفة المؤثرات التى طرأت عليه من الخارج. ولعل الأمر الذى يبدو أشد وضوحا هو أن هذا العصر شهد سهولة وسرعة الاتصال بين شعوب العالم، وهو أمر فرض على كل أنواع الكتابات التاريخية الحديثة بمعناها الحقيقى أن تكون تاريخا عالميا وأن تأخذ بوجهة النظر الدولية. وتحقق هذا الاتجاه المحمود على ايدى عدد من الكتاب الذين تناولوا السياسات العالمية والعلاقات الدولية فى السنين الأخيرة. من ذلك أن ه. ج. ولز Fl.G.Wells حاول ان يكتب تاريخا عالميا ملتزما بوجهة النظر هذه السائدة فى كل وقت. وثمة محاولة أخرى لتطبيق نفس هذه النظرية على تاريخ العصور الحديثة نهض بها بعض مؤرخو العلوم مثل فسك Fiske، سيلى، هايز، بوستفورد، أبوت، جيلبس، فيوتر، فلك Flick، أما المحاولة الاساسية والشاملة لابراراهمية التاريخ العالمى بالنسبة لتطور الحضارة الحديثة تقام بها الاستاذ و. ر. شيفرد W.R.Shepherd الاستاذ بجامعة كولومبيا فى محاضراته عن حركة الاستعمار

الأوربي . ومنذ ذلك الحين أصبحت كل الاعمال التاريخية على اختلاف أنواعها لابد وان تكون ذات نظرة عالمية . وهناك ابحاث تاريخية عظيمة في التاريخ العالمي ذات جهد مشترك قام بها ويلهم اونكن ، والتر جوتز ، جوستاف جلوتز ، لويس هالفن ، هنرى بير ، ابوجيه كافيناك ، موريس كروازيه . ثم تجسدت ذروة هذه الجهود في مشروع اليونسكو عقب الحرب العالمية الثانية وهى المشروع الذى نهض بتنفيذه جوليان هاكسلى ، والف ا . تيرنر .Turner

التاريخ الثقافى العام

من أهم العوامل التى أسهمت فى توسيع دائرة التاريخ ازدياد الإلمام بالثقافة فى أوسع معانيها ، مثل تاريخ الفن والأدب والسلوك والعادات والطباعة والموسيقى وغيرها من الجوانب الأخرى عن الثقافة القومية . وازاء هذا المزيد من الاهتمامات التى وجد المؤرخ نفسه أمامها مضطراً بقبولها المفاهيم الجديدة لعلم التاريخ صار من الواضح ان الكتابة التاريخية ستقوم فى المستقبل على أساس التعاون المشترك بحيث يسهم كل كاتب بما يتفق ودراسته وتخصصه وخبرته . وبذلك لا يمكن إلا قول من شأن أى عمل جماعى طالما أن إنتاج المجموعة يتصف بالرقه ويمكن الاعتماد عليه .

التاريخ والادراك الاجتماعى

أما آخر مظهر ينبغى ان نشير إليه من مظاهر الاتجاهات الجديدة فى علم التاريخ ، فيبدو فى تلك الجهود الحديثة لجعل التاريخ ذا صيغة علمية وذات فائدة عملية ، بمعنى ان يصبح مفيداً لنا نحن أبناء اليوم . والحق ان الطابع العلمى للتاريخ ظهر فى الماضى فى صورة أو أخرى ، وهناك امثلة معروفة توضح هذه الحقيقة أهمها سفر عزرا ونحميا ، وكتاب أوزلوسى الذى عنوانه سبع كتب فى التاريخ ضد الوثنيين ، كذلك هناك جهود أحدث تناولت التاريخ من وجهات نظر مختلفة بهدف تعميمه وإخراجه من نطاق المذاهب التاريخية المعروفة إلى حيث تجعل منه أداة يستعين بها السياسى والمصلح والفكر . ومن أشهر الامثلة لهذا النوع كتاب

مارفن ، الماضى الحى ، وكتاب قرن الأمل كذلك هناك ما كتبه روبنسون ، الفكر فى دائرة التكوين ، وكتاب الكوميديا الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه والاس بعنوانه اتجاه التاريخ وولز بعنوان ، موجز التاريخ . أما فان لون Van Loon فقد سعى كتابه «قصة البشرية» . على أنه ربما كانت أكثر الكتابات فى هذا المجال إثارة للاعجاب هى كتابات روبنسون وبمجموعة سلسلة كتب الوحدة التى اشرف عليها ف . س . مارفن . ومهما يحدد الانسان مدى لنجاح هذه الجهود الأولى فى ذلك المجال ، فإنه سيبدو أنه ما لم يكن للتاريخ مثل هذه الفائدة العملية عند علاجه فى موضوعية وعناية فإنه يصبح امرا لا حاجة إليه إزاء احتياجات الانسان العملية . حقيقة إنه فى هذه الحالة يصبح شيئا مفيدا ولكنه سيحظى بالإحترام ولكنه يبقى نوعا قاحلا من أنواع المتعة الثقافية . ويبدو أنه بقدر اهتمامنا اليوم ، فإن الفائدة العملية الأساسية التى نرجوها من التاريخ هى ان يبرز تطور ثقافتنا من اصولها الاولى وان يدفعنا إلى التقدم بصرف النظر عما شهدته البشرية من بعض التقلبات الهامة والنكسات وان يؤكد لنا ان الحاضر مختلف عن الماضى ، ومن ثم يحول دون أقتباس جيلنا أقتباسا مباشرا ومطابقا لتجارب أسلافنا الماضية . ومعنى آخر فإنه من المحتمل أن تكون الفائدة العملية الرئيسية من التاريخ هى ان يفيد بجهوده فى التقليل من تأثير خطر أولئك الذين ينبغى عليهم الآن ان يخططوا لمستقبل أكثر كفاية وسعادة بالنسبة للبشرية .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

- C. L. Becker, "Some Aspects of the Influence of Social Problems and Ideas upon the Study and Writing of History" in Publications of the American Sociological Society, 1912.
- I.H. Robinson. The New History. Macmillan, 1911.
— ,Mind in the Making. Harper, 1921.
— ,The Human Comedy. Harper, 1987.
— , "New Ways of Historians", American Historical Review, January, 1980.
- W.G.Beasley and E.G. Pulleyblank, Historians of China and Japan, OXFORD, 1961.
- H.K. Beale, ed, Charles A. Beard. University of Kentucky Press, 1954.
- C.W. Smith, Carl Becker: On History and the Climate of Opinion. Cornell University Press, 1956.
- Thompson, History of Historical Writing, Vol. II, chaps. ii-iv. Kraus, The Writing of American History, chap. xiv.
- Howard Odum, ed., American Masters of Social Science. Holt, 1927.
- H.E. Barnes, History and Social Intelligence. Knopf, 1926.
- ,The New History and the Social Studies. Century, 1925.
— ,Social Institutions. Prentice-Hall, 1942.
- F.J. Teggart, Prolegomena to History. University of California Press, 1916.
— ,Processes of History. Yale University Press, 1918.
— ,The Theory of History. Yale University Press, 1925.
- A.A. Goldenweiser, History, Psychology and Culture. Knopf, 1933.
- White, The Evolution of Culture.
- G.E. Dole and R. L. Carneiro, eds., Essays in the Science of Culture. Grwell, 1960.

Joseph Dorfman, *The Economic Mind in American Civilization*. 5 Vols., Viking, 194-1959.

E.R.A. Seligman, *The Economic Interpretation of History*. Columbia University Press, 1907.

T.K. Derry and T.I. Williams, *Short History of Technology*. Oxford Univ. Press, 1961.

Crane Brinton, *Ideas and Men*. Prentice-Hall, 1950.

H.G. Wells, *Experiment in Autobiography*. Macmillan, 1934.

W. W. Wagar, *H. G. Wells and the World State*. Yale University Press, 1961.

Lewis Mumford, *Technics and Civilization*. Harcourt, Brace, 1934.

C.A. Beard, *The Economic Basis of Politics*. Knopf, 1922.

H.J. Laski, *A Grammar of Politics*. Yale University Press, 1925.

Fritz Berolzheimer, *The World's Legal Philosophies*. Macmillan, 1912.

Rocoe Pound, *Interpretations of Legal History*. Macmillan, 1923.

الفصل الثالث عشر

نشأة تاريخ الحضارة : تاريخ الحضارة والثقافة ظهور الاهتمام بتاريخ الحضارة

يمثل الاهتمام المتزايد بتاريخ الحياة البشرية والثقافة الإنسانية أكثر التطورات أهمية وأحدثها في تاريخ الكتابة التاريخية في العصور الحديثة . وقد أوجزنا في الفصل السابق الخصائص المتنوعة لاتساع مجال الاهتمامات التاريخية خارج نطاق الكنيسة والدولة . وسنحاول في هذا الفصل استعراض بعض ما قدمه المؤرخون المتقدمون فكرياً في مجال تاريخ الحضارة .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أنه يؤرخ للبداية الحقيقية لما عرف حديثاً بتاريخ الحضارة -Kul-turgeschichte بظهور كتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » وكتابه « مقال عن سلوك الأمم وروحها » وهو ما سبق أن تعرضنا له . وكان ان احتوت الكتب التاريخية التي تناولت تاريخ العالم — وهي الكتب التي شهدت تطوراً كبيراً منذ نشأة الرومانسية — مادة كثيرة عن تاريخ الحضارة . أما الجهد العظيم الذي تلى ذلك بالنسبة للتاريخ الثقافي فقد جاء في الكتاب المشهور الذي كتبه يوحنا يواقيم وينكلمان (١٧١٧ — ١٧٦٨) وصدر في جزءين سنة ١٧٦٤ بعنوان « تاريخ الفن في العهود القديمة » فكان أول عمل تاريخي عظيم لتاريخ الفن ركز تركيزاً على الفن عند الإغريق . فلقد أوضح وينكلمان الظواهر العامة لهذا الفن وما بلغه من رفعة وعدم أخذه عن غيره وقدرته الكبيرة على التمييز بين النسب وتحديداتها . وكان لهذا الكتاب أثره الكبير على الباحثين والشعراء والفنانين وبصفة خاصة على الرومانسيين من دارسي التاريخ الثقافي . ولكنه لم يكن عظيم الأثر على المؤرخين المحترفين الذي ظلوا ملتزمين منهج الكتابة التاريخية القائمة على سرد الأحداث الهامة والشخصيات المرتبطة بتلك الأحداث .

وفي بداية القرن التالي نهضت مدام دي ستيل De Stael وسيسموندى بجهود ضخمة لجعل تاريخ الأدب فرعاً من تاريخ الحضارة الاجتماعى . ثم ظهر بعد ذلك جرفينوس الذى كتب عن تاريخ الشعر الألمانى ، ثم أعقبه هيرين Heeren ليؤكد أهمية التجارة على تاريخ الثقافة والنظم فى المجهود القديعة . أما ادوارد زيلر Zeller فقد وهب شطراً كبيراً من حياته لكى يؤلف — مشبعاً بروح هيجل — كتابه العملاق عن تاريخ الفلسفة الإغريقية . ومن أوائل الأعمال التاريخية التى عالجت تاريخ الحضارة علاجاً صريحاً كتاب المؤرخ والناشر الفرنسى فرانسوا جيزو Guizot (١٧٨٧ — ١٨٧٤) واسمه « التاريخ العام للحضارة الأوربية » وظهر الكتاب فى سنة ١٨٢٨ وتناول التطور الأوروبى منذ نشأة الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثامن عشر ، وركز بصفة خاصة على نشأة الأفكار البرجوازية وتطور الحكم النيابى مع الحرص على إعطاء صورة تاريخية واضحة عن الطبقة الوسطى المحافظة فى فرنسا ومثلها العليا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم شهد تاريخ الحضارة تلك التطورات التى تربطها بهنرى توماس باكل Buckle وأكبر تلاميذه جون وليام دراير . ولقد سبق أن تعرضنا لجهود باكل فى التاريخ وهى الجهود التى تضمنت اطرائه الحرية الفكرية مع تركيزه على أهمية العوامل الجغرافية والموارد الغذائية وأثرهما على تطور الثقافة . وبفضل هذه الجهود السبّاقة أمكن للعالم الطبيعى والكيميائى الأمريكى جون وليام دراير (١٨١١ — ١٨٨٢) ان يكتب بحثه الشامل عن تاريخ التطور الثقافى فى أوربا سنة ١٨٦٣ ، ويتصف هذا الكتاب بمسحة واضحة من التشكك ومع ذلك فإنه دون المستوى فى التعبير عن تاريخ أوربا الثقافى . أما بحثه المتعارض مع الدين فكان أكثر عنفاً من سابقه وأطلق عليه اسم « تاريخ الصراع بين العلم والدين » . وعلى نفس هذا النمط الفكرى هناك كتابان لمؤرخ أيرلندى هو ادوارد هارتبول لكى Hartpole Lecky (١٨٣٨ — ١٩١٣) كتبها عن تاريخ نشأة النقل وأثره فى أوربا ، وقد صدر سنة ١٨٦٥ تاريخ السلوك الأدبى فى أوربا منذ أوغسطس حتى شارلمان ، History of European Morals from Augustus to charlemagne وقد صدر سنة ١٨٦٩ . ويمثل هذان الكتابان أعظم الجهود الموفقة بين المؤلفات التاريخية فى التاريخ بأسره ، بل إن بحثه عن العقلانية يعكس جهداً بارزاً مميزاً لما أسهم به الغرب فى التاريخ الثقافى ، ويقارن دوره فى هذا المجال بما أحدثته آراء وأفكار أوغسطين وكالفن فى هذه الناحية . وهناك عالم انجليزى يمثل الفكر الحر وجانب الإلحاد هو سير ليزلى ستيفن (١٨٣٢ — ١٩٠٤) الذى اشتهر بكتابة تاريخ الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر . وكتابه « اتباع المذهب النفعى فى انجلترا The English Utilitarians » . وبين هذه المؤلفات يبرز مؤلف هام فى هذا المجال وهو الكتاب الذى ألفه الأستاذ

الأمريكي اندرو ديكسون هوايت (١٨٣٢ - ١٩١٨) وكان مديراً لجامعة كورنل إلى جانب كونه ناشراً ومحاضراً من أجل قضية الثقافة وحرية الفكر . ولعله أكثر المؤلفات التاريخية أهمية على الإطلاق في مجال الفكر الحر وواحد من أكثر المؤلفات التاريخية تحقيقاً للمنفعة ومن أعظم الكتب التاريخية التي تأخذ بالألباب .

ونلمس تطوراً آخر في هذا المجال في بعض الأعمال التاريخية الهامة وبصفة رئيسية الألمانية منها التي وجهت اهتماماً خاصاً لتاريخ الحياة والسلوك والعادات . وتبدأ هذه المدرسة بيعقوب جريم Jacob Grimm ومؤلفه التاريخي عن اللغة الألمانية والعادات المشروعة والقصص الشعبية والرويات السحرية وما شابهها . كذلك من أوائل هذا النوع من الكتاب وأكثرهم أهمية وليلهم هنريك ريهل Wilhelm Heinrich Riehl (١٨٢٣ - ١٨٩٧) وهو كاتب ألماني تعمق في كل من تاريخ الحضارة الألمانية وعلم الاجتماع الوصفي . ولم يجمع مادته من الوثائق فحسب بل شيدتها على أساس رحلاته العديدة في ألمانيا . كذلك أنتج كتابه العظيم الذي أسماه التاريخ الطبيعي للشعب الألماني بوصفه أساساً لسياسة الاجتماعية في أربعة أجزاء بين سنتي ١٨٥١ - ١٨٦٤ . أما مبادئ ريهل التاريخية فقامت على أساس افتراض أن العوامل الجغرافية مثل المناخ والطوبوغرافيا وما شابهها هما الأساس في تنوع الثقافات . وخرج بأن العوامل الاجتماعية والسكانية تلعب دورها في هذه الناحية ، وأن الفلاحين بطبيعتهم إقليمية يكرهون التنقل في حين أن سكان المدن تقدميون ولا يرتبطون بإقليم معين . كذلك اعتقد ريهل أن الاسرة هي الخلية الاجتماعية التي تثبت أركان المجتمع . وبلغ ريهل غاية الروعة في وصفه الحي لخصائص الحياة الألمانية المحلية والثقافية في ألمانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر . لكن كان ضعيفاً جداً وغير كفء فيما أصدره من أحكام تاريخية عامة وكذلك بالنسبة للتطور التكويني الوراثي للثقافة . والواقع أنه كان قبل كل شيء مؤرخاً اجتماعياً وصفيًا . وتأثر ريهل كثيراً بالأهمية الثقافية للفن والموسيقى وخصص جزءاً كبيراً من اهتمامه لهما في مؤلفه الرئيسي وفي مؤلفاته الأخرى عن الفن الألماني والموسيقى . وبالإضافة إلى مؤلفاته الخاصة فإنه اشترك مع غيره في تحرير عدة أبحاث متسلسلة عن طبيعة البلاد والناس في بافاريا .

وتعتبر كتابات جوستاف فريتاغ Freytag (١٨١٦ - ١٨٩٥) عن مزيج من التاريخ القومي والثقافي . وذلك أنه بدأ بدراسة التاريخ الألماني - الاجتماعي والثقافي - بعد دراسة علمية لأصل اللغة وتاريخ الدراما . أما مؤلفه العظيم في مجال التاريخ الثقافي فلقد أسماه (صور من التاريخ الألماني) وصدر في خمسة أجزاء بين سنتي ١٨٥٩ ، ١٨٦٢ . وتناولت تاريخ حياة الشعب

الجرماني منذ نشأته حتى القرن التاسع عشر ، مع الاهتمام بالتركيز على الطبيعة الأساسية للثقافة القومية . فكان في هذا شبيها بالعقلانيين . واتفق فريتاغ مع جيزو أن الطبقة الوسطى هي عماد الحياة القومية في المجتمع . كذلك ضَمَّن كتابه الكثير عن التاريخ السياسي والحربي بنسبة أكبر مما جاء في كتابات رهيل ، وقدم صوراً حية لأبطال الشعب الجرماني العظام مثل شارلمان وباربا روسا ولوثر وفردريك الأكبر وغيرهم . لكن فريتاغ لم يقُدس الماضي تقديساً عاطفياً كما فعل رهيل إلى حد كبير . وأوضح أنه كلما توغلنا في الماضي وجدنا الحياة أكثر قسوة وذات طابع إقليمي . كذلك اتسم عمل فريتاغ بالمتعة والتعمق في أخبار الدسائس والتآمر .

وهناك ثلاثة مؤلفات أخرى عن الحضارة الألمانية اتسمت بأنها فاقت غيرها في انتمائها إلى مدارس البحث التاريخية بالمعنى التقليدي وبأنها أعمال تاريخية بالمعنى الدقيق وأول هذه المؤلفات كتاب كارل نيتشه (١٨١٨ - ١٨٨٠) وعنوانه (تاريخ الشعب الألماني حتى صلح أوجزيرج) . لكنه لم ينشر إلا بعد وفاته في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ . وأعطى نيتشه اهتماماً للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري فضلاً عن السياسي . والواقع أنه امتلك قدرات غير عادية في علاجه للأنظمة الجرمانية في العصور الوسطى . كذلك كتب نيتشه كتاباً تاريخياً عاماً عن الجمهورية الرومانية ولو أن هذا الكتاب لا يعتبر إسهاماً في مجال التاريخ الثقافي . أما أعظم مأسهم به كاثوليكي في تاريخ الحضارة فهو ما ألفه يوحنا جانسن Johannes Janssen . (١٨٢٩ - ١٨٩١) باسم (تاريخ الشعب الجرماني في نهاية العصور الوسطى) . وهو الكتاب الذي صدر في ثمانية أجزاء بين سنتي ١٨٥٧ ، ١٨٩٤ . واتخذ محوراً له دراسة حياة الجماهير مع العناية بتاريخ الحياة الاجتماعية والثقافية . وكان رائعاً في تصويره للمجتمع الجرماني قبيل حركة الإصلاح الديني وإن كان الباحثون يتشككون فيما ذكره من أن الحضارة الجرمانية بلغت ذروتها في نهاية العصور الوسطى .

أما آخر ما أنتجت مدرسة رهيل وفريتاغ فهو ما قام به جورج شتيناوزن Steinhausen (١٨٦٦ - ١٩٣٣) الذي كان معجباً بكل من الكاتبين السابقين وأخرج كتاباً ينم عن مقدرة كبيرة سماء تاريخ الثقافة الجرمانية ، وصدر سنة ١٩٠١ . هذا إلى أنه كتب عدداً من الكتب المتخصصة عن مراحل وفترات مختلفة من تاريخ الثقافة الألمانية وإذا كان جورج شتيناوزن يختلف عن فريتاغ في عدم إعطاء الدولة وزنها الكبير في مجال التاريخ الثقافي ، إلا أنه يتساوى معه في قدرته على توضيح وتقصى معظم التفاصيل وأدقها عن الحياة اليومية . لكنه فيما يتعلق بتاريخ علم

الجمال كان دون بوركهاردت في الابتكار وإن كانت حصيلة العلمية من الحقائق المعترف بها أحسن حصيلة من بوركهاردت . ثم كان أن انعكس هذا اللون من الاهتمام التاريخي الذي ساد منذ ريل حتى شتهاوزن في كتاب (تاريخ الحضارة الفرنسية) الذي ألفه الفرد رامبو (١٨٤٢ — ١٩٠٥) وفي الكتب الشعبية التي ألفها جون ريتشارد جرين : عن التاريخ الإنجليزي وفي العمل الذي اشترك فيه كل من هـ . ر . ترال Traille ، جـ . س . مان Mann والذي نشر في ستة أجزاء بين سنتي ١٩٠١ ، ١٩٠٤ عن التاريخ الاجتماعي في إنجلترا . كذلك انعكس هذا اللون من الاهتمام التاريخي على الكتاب الضخم الذي وضعه جون باتش ماك ماستر عن تاريخ الشعب الأمريكي .

وهناك من اهتم بالآداب وعلم الجمال أكثر من اهتمامه بالحياة والنظم ، ومن هؤلاء العملاق السويسري يعقوب كريستوف بوركهاردت (١٨١٨ — ١٨٩٧) صاحب أروع الأبحاث عن النهضة وأدق الدراسات عن الحضارة الإغريقية . وقد درس بوركهاردت التاريخ على يد بوخ Boeckh ورائكه ودرس الفن على يد كوجلر وتأثر بما حققته الحركة الرومانسية في مجال الفن والأدب . أما العمل الذي كان سببا في شهرته فهو بحثه عن حضارة النهضة وهو البحث الذي نشر سنة ١٨٦٠ وفيه ركز بوركهاردت على ما اعتقد أنه السمة المميزة الأساسية في عصره وهي بروز الفردية — وعالج ذلك بنجاح في براعة عظيمة . وظل هذا الكتاب طيلة ثلاثة أرباع قرن أعظم عمل مبتكر قام به مؤلف بمفرده من المتخصصين في عصر النهضة . أما نقطة الضعف الرئيسية فيه فتكمن في فشل المؤلف في أن يبرز ملامح التطور التدريجي لحركة النهضة من بين ثنايا العصور الوسطى .

ذلك أنه صور النهضة على أنها حدث مفاجيء يثير الحيرة وذلك بصورة أكثر مما أوضحت الحقائق . لكن بوركهاردت لم تفتنه بدرجة كبيرة كل مظاهر عصر النهضة واعترف تماما بجانبها غير الإنساني وجوانبها القاتمة ولكنه اعتقد أن هذا ثمن ما حققه من أبحاث في مجال علم الجمال .

أما كتاب بوركهاردت عن تاريخ الحضارة الإغريقية ، فهو أطول من الكتاب السابق ، كما أنه جهد تاريخي ممتاز . ذلك أنه أعرض عن تمجيد الإغريق رومانسيا وتناول الحضارة الهلينية من زاوية معتدلة واقعية . على أن كتابه هذا لم يحظ بالإعجاب والإثارة مثل كتابه السابق عن الحضارة . وكان اهتمام بوركهاردت بالتاريخ الثقافي على مجال واسع المدى ، وهي الحقيقة التي تكشف عندما طبع تلاميذه مجموعة أبحاثه ومحاضراته سنة ١٩١٨ بمناسبة الذكرى المئوية لمولده .

وقام جون أدنجتون سيموندس John Addington Symonds (١٨٤٠ — ١٨٩٣) وهو الإنجليزى المعجب ببوركهاردت بالتعبير في صورة كاملة متزنة عن وجهات نظر أستاذه عن الحضارة . وسيموندس هذا هو صاحب تراجم دانتي وميخائيل أنجلو ومؤلف كتاب النهضة في إيطاليا الذى طبع في سبعة مجلدات بين سنتي ١٨٧٥ ، ١٨٨٦ . ومع أنه درس دانتي وعصره بما هو كفيل أن يجعله يفوق أستاذه في معرفته بعصر النهضة ، ألا أنه أكد ، ما سبق أن ردهه بوركهاردت من وجود هوة سحيقة بين العصور الوسطى وعصر النهضة . ولم يكن عصر النهضة في نظر سيموندس هو عصر الربيع والازدهار للبشرية في الغرب فحسب ، لكنه كان عصرا استهدف تطوير الحرية وإسعاد الانسانية . ورأى سيموندس أن هناك تدهورا مباشرا فكريا وخلقيا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية عبر حركة الإصلاح الديني ، وأن كلا من هذه العصور متشابهة من الناحية الروحية واتسم وصفه لثقافة عصر النهضة وشخصية ذلك العصر بالقوة والمتعة . وقد تعرضت نظرياته العامة عن مكان النهضة في التاريخ الغربى لكثير من التعديل .

أما لودفيج فريدلاندر Friedlander (١٨٢٤ — ١٩٠٩) فقد ألقى مزيداً من الضوء على جوانب التاريخ الثقافى القديم . وقد وجه اهتمامه في أول الأمر إلى مدرسة هومر وإن كان قد وقع تحت تأثير طومسون وريهل وفريتاخ وبوركهاردت . وأخرج كتابه (حياة الرومان وسلوكهم في أوائل عصر الإمبراطورية) في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٦٢ ، ١٨٧١ . وتتصف هذه الدراسة بأنها تعطى صوراً غير متعادلة لجوانب عدة من حضارة عظمى هي حضارة القرنين الأولين من عصر الإمبراطورية الرومانية . وجاء وصفه للسلوك والعادات والحياة والأشعار والفن والكتابة القديمة وغيرها من مظاهر تلك الحضارة العديدة وصفا ممتعا متعمقا حيا . واتسمت دراسة فريدلاندر بأنها تبرز الصورة الناطقة الحية من العصر القديم أكثر من كونها تأريخاً للحضارة .

فاذا ما انتقلنا إلى الحديث عن السير صمويل ديل Dill (١٨٤٤ — ١٩٢٤) وجدنا أنه عالِم في كتبه الثلاثة فترة أطول من فريدلاندر لكنه كان أقل حرصا على إثبات التفاصيل . أما مؤلفاته فهي المجتمع الرومانى منذ نيرون حتى ماركوس أوريليوس ، و (المجتمع الرومانى في القرن الأخير للإمبراطورية الغربية) والمجتمع الرومانى في غاليا في العصر الميروفنجى ، وكتب ديل بطريقة واضحة وجذابة فضلا عن قدرته الفائقة في شرح مادته . وكانت آخر مؤلفاته أقلها جودة إذ جاء كتابه الأخير دون ما كتبه المؤرخ الفرنسى فرديناند لوت ودون العمل الفذ الذى أنتجه الفونس دوبش Dopsch عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر الكارولنجى . أما

تاريخ روما الثقافي والسياسي منذ سقوط الإمبراطورية حتى عصر النهضة فقد عالجه فرديناند جريجورفوس (١٨٢١ - ١٨٩١) في كتابه (تاريخ مدينة روما في العصور الوسطى) الذي صدر في ثمانية أجزاء بين سنتي ١٨٥٩ ، ١٨٧٢ . كذلك كتب جريجورفوس Gregorovius كتاباً أقل تكاملاً من سابقه وهو (تاريخ مدينة أثينا في العصور الوسطى) . والحق أنه كان مؤلفاً قديراً وكانياً عظيماً غزير الإنتاج عالج كثيراً من الموضوعات من العصر الأول للتاريخ الإغريقي حتى مسألة الاشتراكية كما تبدو في كتابات جوته . أما عن التقدم الاقتصادي فقد تم تناوله في مجال تاريخ الثقافة ضمن عدد من المؤلفات الهامة مثل تلك التي أنتجها فون اناما شترنج - Karl von Inama Sternegg (١٨٤٧ - ١٩٠٨) وماكسيم كوفالفسكي Kovalevsky (١٨٥١ - ١٩١٦) إذ كتب الأول كتاباً خالداً عن التاريخ الاقتصادي في ألمانيا وركز اهتماماً خاصاً على أهمية التطورات في ميدان الزراعة وأما الثاني فقد تأثر بنظريات سبنسر عن التطور وأخرج مؤلفاً أكثر طموحاً . فجاء كتابه تاريخاً اقتصادياً شاملاً لكل أوربا . هذا إلى أنه كتب في إسهاب عن نشأة الديمقراطية الحديثة ، وعن مدى ما اشتقته النظم الروسية الحديثة من قوانين الروس وعاداتهم القديمة .

أما أعظم جهد مؤرخ يستحق التقدير قبل لامبرخت — وذلك في ميدان كتابة تاريخ عام عن الحضارة — فهو ما تضمنه كتاب العالم السويسري اوتوهن أم رهن Otto Henne - Am - Rhyn (١٨٢٨ - ١٩١٤) وهو الكتاب الذي صدر في سبعة أجزاء بين سنتي ١٨٧٧ ، ١٨٩٧ بعنوان (التاريخ الثقافي العام منذ العصور الأولى حتى الوقت الحاضر) . ويعتبر هذا الكتاب بالقياس إلى المجال الذي تناوله والفترة التي تم إعداده فيها من أعظم الأعمال التي أنجزها فرد في مجال التاريخ الثقافي والتحليل التاريخي . ذلك أن هن — أم — رهن كان كاتباً دسم الانتاج في ميدان التاريخ الثقافي في صورة تدعو إلى الإعجاب . وبالإضافة إلى هذا الكتاب الضخم فإنه كتب عن التاريخ الثقافي للشعب الجرمانى ، وعن التاريخ الثقافي للشعب اليهودى ، وعن التاريخ الثقافي للحركة الصليبية . هذا كله فضلاً عن كتابه الذي عالج فيه مكانة المرأة في التاريخ الثقافي وبحثه عن الأهمية الثقافية للقصص الشعبية الألمانية . أما بولس هنبيرج Paul Henneberg فهو معاصر للكاتب لامبرخت وإن لم يتأثر به في شيء ، وكتب كتاباً عظيماً سماه ثقافة الحاضر (أصولها ومصيرها) وهو الكتاب الذي نشر في سبع وثلاثين جزءاً بين سنتي ١٩٠٥ - ١٩٢١ .

وكان أن ظهر أثر علم الاجناس البشرية الجديد على التاريخ الثقافي في ألمانيا في كتابات جولويس ليبيرت Lippert (١٨٢٩ - ١٩٠٩) وخاصة في كتابه الذي يترجم إلى الإنجليزية

باسم (تطور الثقافة) . ذلك ان ليبيرت أوضح بطريقة ممتازة دلائل التطور التي تحققت في التاريخ الثقافي على يد الكتاب المختلفين مثل مورجان ، وسبنسر . فضلا على أنه ركز على أهمية انتشار الثقافة . وكان يؤمن بأن العوامل الديناميكية في تاريخ البشر هي في حقيقتها عوامل ثقافية أكثر منها عوامل بيولوجية أو جغرافية ، ولذا فإنه من أوائل القائلين (بمذهب الحتمية الثقافية) . وفي خلال عرضه للمراحل الثقافية ، حرص على أن يؤكد تأثير الأفكار في كل مرحلة منها . كذلك كتب ليبيرت مؤلفات أخرى عن تطور الآراء الدينية والطقوس وعن تاريخ الأسرة وتاريخ سلوك الألمان وعاداتهم . وإذا كان التاريخ الثقافي يدين له بالشىء الكثير فإن علم الاجتماع التاريخي يدين له أيضا نظرا لما أحدثته كتاباته من تأثير عليه . وأما أبرز الأبطال جهداً في مجال تاريخ الحضارة وأعظمهم بحثاً في تطور هذا التاريخ في العصور الحديثة فهو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبيرج (١٨٥٦ - ١٩١٠) .

كان أول بحث هام قام به لامبرخت كتابه المفصل والمبتكر عن تاريخ ألمانيا الاقتصادي في العصور الوسطى مع تركيزه بصفة خاصة على إقليم موزل . وفي هذا الكتاب أوضح لامبرخت اهتمامه بتاريخ الطوائف ذات النشاط الاقتصادي والحركات الاقتصادية الرئيسية بوصفها صورا مؤثرة على التاريخ الاجتماعى لأى شعب . ومن الواضح أنه استقى هذا الاتجاه إلى حد كبير من كارل ماركس رغم أن لامبرخت لم يكن ماركسي النزعة . كذلك تأثر لامبرخت بنيتشه وبوجهة نظر أوغسط القائلة بأن التاريخ ينبغي أن ينظر إليه في صورة مراحل متتابعة في مجال السيكلوجية الكلية للإنسانية . هذا كله فضلاً عن تأثير لامبرخت بنظرية التطور . وكان أن عبر لامبرخت عن كل أفكاره هذه في كتابة الخالد (التاريخ الألماني) الذي نشر في اثني عشر جزءاً منذ ١٨٩١ حتى ١٩٠٩ . ثم أضيفت إليه أجزاء عن الفترة الحديثة جدا . ونظم لامبرخت مادته حول المحور الأساسي القائل بأن كل عصر كبير له سمة سيكلوجية شاملة وغالبة . وهذه السمة هي التي تسود في عصرها ، وأن التاريخ ليس إلا سجلاً لتأثير وتتابع هذه السمات السيكلوجية السائدة . فالعصر البدائي كانت سمته السيكلوجية السائدة هي الرمزية ، والعصر الوسيط المبكر كانت سمته المثالية ، أما العصر الوسيط الأخير فكانت سمته المحافظة . أما عصر النهضة والتنوير فكانت السمة السائدة فيه هي الفردية . وفي العصر الرومانسي كان الخيال والتصور بينما كان العصر الذي أعقب الثورة الصناعية هو عصر توتر الأعصاب . ولم يهمل لامبرخت التاريخ السياسي وإنما جعله تابعا للتاريخ الاقتصادي والثقافي . وأدى اهتمامه بالتاريخ الاقتصادي إلى تركيزه الخاص على العوامل الاقتصادية وذلك عندما عالج تطور الشعب الألماني . كذلك اهتم اهتماما غير عادي

بتاريخ الفن والموسيقى . ولم تتسم كتابه لامبرخت بالاستفاضة فحسب ولكنه كان أيضا صاحب حوار ممتع شائق . والواقع أنه فعل الكثير لتطوير وجهات نظره عن التاريخ . وكان له تأثيره الكبير على لاكومب وبير في فرنسا وفيرورو وبارباجلو في إيطاليا ، وبيرين في بلجيكا في حين ظهر تأثيره في الولايات المتحدة على كل من و . أ . دود ، كارل بيكر .

وإذا كان لامبرخت لم يؤسس مدرسة رسمية في ألمانيا فإنه ترك أثراً قويا فيها . وفي سنة ١٩٠٩ عاونه المعجبون به على تأسيس معهد للحضارة والثقافة العالمية في ليبزج تكون مهمته إعداد الباحثين على نفس منهجه . وظهرت لعدد من تلاميذه أعمال هامة فكتب كيرت بريزج بحثا عن التاريخ الثقافي في العصور الحديثة ضمنه آراء لامبرخت العامة في عرض منتظم للتطور الثقافي في العالم الحديث . ولقد جاء منهج بريزج واستنباطاته في عمله أكثر دقة من لامبرخت كما أنه وهب جهده في أواخر سني عمره لعلاج التاريخ الثقافي وفلسفة التاريخ ، فأخرج كتابه الذي أسماه « تغير التاريخ » . أما إبرهارد جوتن Eberhard Gothen فقام بجهود قيمة في دراسة عصر النهضة وتاريخ اليسوعيين والحركة المضادة للإصلاح الديني ، كما أسهم بالكتابة في سلسلة هينبرج . وهناك أيضا والتر ويلهلم جوتز الذي أصدر (سجل تاريخ الحضارة) كما كتب أبحاثا متخصصة هامة عن عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني ووصفا للتاريخ الثقافي في أسيسي ورافنا فضلا عما كتبه عن التاريخ الثقافي في ألمانيا . وله كذلك كتاب عن التاريخ الثقافي للعالم جاء عرضا ممتازا مليئا بالشروح . أما رادولف كوتز شك Rudolph Kotschke فكان خبيراً بجوانب التاريخ الاقتصادي في العصور الوسطى وخاصة عن التاريخ الزراعي في تلك العصور . فإذا انتقلنا إلى برنهارد جروثيوزن Bernhard Groethuysen وجدناه واحدا من أبرز الباحثين الذين كتبوا أحدث الإيضاحات عن عصر النهضة والحركة الإنسانية ، كما كتب وصفا لنشأة الروح البرجوازية في فرنسا . وهكذا تم دفع حركة التقدم في التاريخ الثقافي في ألمانيا بفضل عمل لامبرخت وأتباعه . وكان أن أدى هذا بالاضافة إلى ما كان له من تأثير في الخارج إلى تحويل الاهتمام السابق بالتاريخ الثقافي من مرحلة الاهتمام الفردي المشتت إلى مرحلة التنظيم المحكم الدقيق .

أما عن فرانز كارل مولر ليار Carl Müller Lyer (١٨٥٧ - ١٩١٦) وهو أستاذ علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع التاريخي فإن كتاباته جمعت بين علم الاجتماع التاريخي والتاريخ الثقافي لألمانيا . وكان منهجه التاريخي مزجياً بين نظرية سبنسر في التطور ونظرية (التطور المرحلية) عند علماء الأجناس والنظرية المادية لماركس في التاريخ . ذلك أنه اعتقد أنه يمكن

للإنسان أن يخضع التطورات التاريخية الخاصة بالنظم والثقافة لقوانين محددة . ورأى أن هناك وحدة عامة شكلية للتطور الثقافي وتطور النظم في سائر أنحاء العالم ، وأن الاختلافات بينها إنما هي اختلافات محلية ذات خاصية ضئيلة الأهمية نسبياً . وجاء تناوله للتطور التكنولوجي والاقتصادي على وجه ممتع ، تضمن كثيراً من الأفكار والآراء . وكثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والتاريخ يتقبلون اليوم آراءه ونظرياته في تحفظ شديد ، ولكنه تناول الحقائق الواقعية بمهارة وعلى نحو ممتع . وكتب عن تطور كل الأشياء من الآلات حتى الحب . وقد ترجمت أعظم كتبه أهمية إلى الإنجليزية ، وهو كتاب تاريخ التطور الاجتماعي . أما الفرد وير Weber فله كتابه الذي أسماه تاريخ الحضارة والاجتماع الذي صدر في سنة ١٩٣٥ .

وجاء هذا الكتاب أدق من سابقه في تخطيطه فضلاً عن أنه أكثر شمولاً ، فضلاً عن أن مادته التاريخية أكثر جدة . بل ربما كان هذا الكتاب الأخير أكبر الجهود التي أثبتت قدرتها على مزج التاريخ الثقافي بتفسيرات اجتماعية عامة لتطور النظم البشرية . هذا كله بالإضافة إلى أنه تناول تطور الحضارات المعروفة من وجهة نظر اجتماعية .

فيما ما انتقلنا للحديث عن فرنسا ، وجدنا أن المبادئ الخاصة بالتطور الثقافي كما تضمنتها كتابات أوغست كومت عن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع التاريخي ظلت حية على يد رينيه ويرمز Rene Worms وغيره من تلاميذ كومت الفرنسيين . أما الجهد الهام الذي أعقب ذلك في مجال التاريخ الثقافي فقد تضمنه عمل عديد من الطلبة القادرين والمبتكرين في مجال الأدب والنقد الأوربي مثل هليوبولت تين Hippolyte Taine وشارل سانت بييف وارنست رينان . من ذلك أن تين وهو مؤرخ الأدب الانجليزي والثورة الفرنسية اعتقد أن التاريخ ينبغي أن يكون علماً وأن الثقافة البشرية تتكون بفعل عوامل ثلاثة هي الجنس والمحيط الاجتماعي والظروف التاريخية . أما سانت بييف وهو الناقد الأدبي القدير فقد كتب تاريخاً ثقافياً جديراً بالإعجاب عن اليسينيين Jansensits في كتابه الذي أسماه تاريخ بورت رويال History Of Port Royal . أما رينان فكان رجلاً عقلانياً هادئاً الطبع صاحب أبحاث ممتعة وعالمًا عظيمًا من الجنس السامي . وقد عمل الكثير لكي يربط بين الفكر الحر والتاريخ الثقافي .

ثم كان أن وجد التاريخ الثقافي دفعة قوية في فرنسا في إنتاج جاك فيليب تاميزي دي لاروك Jacques philippe Tamizey de Larroque (١٨٢٨ — ١٨٩٨) الذي أوضح العلاقة بين علم الآثار والأدب من ناحية والتاريخ الثقافي من ناحية أخرى . وكانت معظم كتاباته الهامة عن الآثار

الفرنسية والتاريخ الاجتماعى والدينى فى العصور الوسطى . وعالج هذا الموضوع أيضاً علاجاً يتصف بالحيوية بول لاقومب Paul Lacombe (١٨٣٤ - ١٩١٩) الذى كانت أهم أعماله كتاب (التاريخ كعلم) الذى صدر سنة ١٨٩٤ . وأكد لاقومب الفكرة القائلة بأن التاريخ هو العلم الذى تفرع منه علم تطور النظم كما قارن فى وضوح بين التاريخ فى صورته للتقليدية مع ذكر الأحداث وبين ما كان يعتبره أهم وجه للتاريخ وهو دراسة تطور النظم البشرية . هذا إلى أنه آمن بوجود تداخل بين التاريخ كما هو معروف وبين علم الاجتماع التاريخى ، كما أعطى اهتماماً أثناء سرده للرواية التاريخية لتاريخ الأدب والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية . ولم يكن للاكومب أى تأثير ولو ضئيل على هنرى بير Berr . وهنرى بير هذا هو أحد أصحاب الدور الرئيسى فى فرنسا فى فكرة التحليل التاريخى ومؤلف واحد من أعظم الأعمال المشتركة متعة عن تاريخ الثقافة . وهناك اثنان من أعظم علماء التاريخ الفرنسيين قنوة واتساعاً فى أفق التفكير هما الفرد رامبو Rambaud (١٨٤٢ - ١٩٠٥) وشارل سينبو Seignobos اللذان كتباً أشهر الكتب فى تاريخ الحضارة .

أما رامبو فأخرج أحسن عمل عن تاريخ الحضارة الفرنسية فى حين كتب سينبو مدخلاً تاريخياً للحضارة الغربية . وهناك أيضاً جورج رينارد George Renard الذى كان حجة فى التاريخ الاقتصادى من العصور القديمة حتى العصور الحديثة ، إذ كان صاحب فضل كبير فى الإشراف على أحسن كتاب اشترك فى تأليفه عدد من الباحثين وعالج التاريخ الاقتصادى العام منذ الأزمنة المبكرة حتى عصرنا الحديث وهو الكتاب الذى عنوانه (تاريخ العمل فى العالم) . واتجه هذا العمل نحو التحقيق من شأن التاريخ وإثارة الاهتمام بتطور الأشياء المادية ومصير الرجل العادى . وكان معنى ذلك أنه جاء مناقضاً إلى أقصى حد للمثل التاريخية التى نادى بها بوفندورف Pufendorf وروبرتسون وجيبسون والتى عرفت التاريخ بأنه سجل لأعمال الشخصيات البارزة ورجال البلاط والقصور . ولرينارد كذلك بعض البحوث الهامة عن الأسس الاجتماعية والتنظيمية للأدب القومى . ويعتبر هذا علاجاً علمياً حديثاً للاتجاهات التى كانت أول من بدأتها مدام دى ستيل وسيسموندى .

أما أئمة الباحثين الفرنسيين فى التأليف التاريخى وتاريخ الحضارة فى فرنسا فهو هنرى بير Berr الذى عبر عن وجهات نظره فى كتابه الذى نشر فى سنة ١٩١١ بعنوان (التأليف التاريخى) . ثم نشر نظرياته بعد ذلك بعشرة أعوام على نطاق واسع ورد على ناقديه فى كتابه الذى

أسماء « التاريخ بمعناه التقليدي والتأليف التاريخي ». وقال بير بوجود فرق أساسي كبير بين التلخيص من ناحية والتأليف العلمي التاريخي من ناحية أخرى . وجاء تمييزه بين الاثنين قبل أن يصبح ما يعرف باسم فلسفة التاريخ . وأخذ بير على عاتقه مسئولية الإشراف على إعداد ما يعتبر أكثر المؤلفات المشتركة طموحاً والتي بذل فيها أعظم الجهود في كل العهود حتى عهده عن تاريخ الحضارة . وعرف هذا الكتاب الذي صدر في مائة جزء باسم تطور الإنسانية .

وقد تضمنت مقدمة هذا الكتاب عرضاً لنظريته عن التأليف التاريخي في صيغة غاية في الإحكام إذ يقول : « بدون الادعاء بأن منهج التأليف والتحليل العلمي يمكن أن يطبق على التاريخ بصورته المحددة ، فإنه يمكن الاعتراف على الأقل - كمحاولة يفترض صحتها - أن نسج الحقائق الخاصة بالتطور البشري يمكن تجميعه في ثلاث طرق متميزة عن بعضها تماماً الأولى : هي الطريقة الافتراضية ، والثانية : هي الطريقة الاضطرارية ، والثالثة : تلك الجوانب المرتبطة بالمنطق الباطن . وسنحاول هنا أن نستفيد وأن نقارب بين التفسيرات المتباعدة للغاية والتي ظهرت حول هذا الموضوع وذلك بأن نحاول أن نوضح أن كل نواحي التطور الإنساني تقع في ثلاثة تقسيمات عامة هي الافتراضية ، والاضطرارية والمنطقية . ويبدو لنا أنه بهذا التقسيم الثلاثي نضع التاريخ في إطار دورته الطبيعية وتفسيره العام ، فضلاً على أن هذا الترتيب يعطينا في الحقيقة نظرة أعمق من السببية ويدعونا إلى أن نفحص في مجموعة الحقائق التاريخية وأن نحاول أن نميز بين ثلاثة أنواع من العلاقات العلوية الأولى هي التابع المجرد حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم التابع والثانية هي الصلة الدائمة حيث ترتبط الحقائق بغيرها بحكم الضرورة والاضطرار ، والثالثة هي الاتصال الباطن حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم العقل . ومن هذه النظرة لطبيعة المسببات التي تعمل في التاريخ ، لا يبدو التأليف سهلاً ولكنه يبدو على الأقل مفهوماً يمكن تصوره .

ومع أن هذه المنظومة تبدو ذات طابع علمي عميق ، إلا أنها لهذا السبب لن نعلم طويلاً . ذلك أنه افترض خطأ أن تطبيق العلم على التاريخ اتجه مضاد للحياة وأن الفائدة المرجوة من وراء هذا الفن (التاريخ) هو إحياء الماضي . ولكن التحليل هو الذي يحول الماضي إلى مجرد أكوام من الحقائق يعلوها التراب ، وما يجمعه العلم يتم إنقاذه لا من الفناء وإنما من النسيان . إن التأليف يحيي الماضي أكثر مما تفعله البديهة بلى خير منها . وإن مهمة التأليف كما حددها ميشليه هي « بحث الحياة في كل جوانب الماضي لا في بعض مظاهره السطحية فحسب وإنما في جوانبه الداخلية العميقة . ولا يمكن تحقيق ذلك بالمعبرية ، وإنما يستطيع العلم أن يفعل ذلك بتعميق نظريته عن السببية وهي النظرية التي يمكن عن طريق التأليف إعادة بنائها »

ويمكن القول أن هذه السلسلة من الكتب حققت آمال صاحبها فعاشت إلى أقصى ما تصور لها صاحبها أن تعيش . وبصرف النظر عن الطبعة الإنجليزية التي انتشرت على نطاق واسع ، فإنها تمثل أعظم الجهود في تاريخ الحضارة الإنسانية . وكان معظم من شاركوا بجهودهم فيها من الفرنسيين الذي تخصص كل منهم في جانب معين أو مرحلة محددة من تاريخ الحضارة .

وهناك مؤلف فرنسي معاصر كان له اهتمام إيجابي بالتأليف التاريخي هو لويس هالفن Louis Halphen الذي يعتبر حجة في الحضارة الرومانية وحضارة الشطر الأول من العصور الوسطى . واشترك مع فيليب ساجناك في عمل تاريخي كبير عن الحضارة أسماء (الشعوب والحضارات) صدر في عشرين جزءا ، أما جوستاف جلوتز وهو واحد من أهم الباحثين الذين اشتركوا في الموسوعة المسلسلة التي أشرف عليها بير فقد أعد هو الآخر عملاً اتسم بالدقة والجهد البالغ عرف باسم (التاريخ العام) وركز بصفة خاصة على تاريخ الحضارة . وألف موريس كروازيه كتاباً تاريخياً في سبعة أجزاء عن تاريخ الحضارة ركز فيه على الاتصالات الحضارية وانتشار الثقافة . أما أحدث الأعمال عن تاريخ الحضارة في فرنسا التي نهض بها مؤلف واحد فهو (تاريخ الثقافة العالمية لمؤرخ العلوم والأستاذ في علم وظائف الأعضاء شارل ريخت Charles Richet . وينظر ريخت إلى تاريخ العلم على أنه أهم العناصر في تطور الثقافة البشرية . والملاحظ أن الجزء الأول من كتابه الذي يقع في جزئين عن التاريخ العام للحضارة وصل بقصة الحضارة حتى سنة ١٧٨٩ . ذلك أن الشطر الأكبر مما تم إحرازه من تقدم في التاريخ البشري سواء أكان تقدماً علمياً أم فنياً بارزاً أخذ سبيله منذ هذا التاريخ . ولا يخلو أي بحث ولو كان موجزاً عن التاريخ الثقافي لفرنسا دون الإشارة إلى العالم سالومون ريناخ Salomo Reinach (١٨٥٨ - ١٩٣٢) وهو مؤلف كبير وغير ملتزم كتب في مجال تاريخ الفن والأدب والدين كما أسهم في عديد من الأجزاء التي تناولت هذه المجالات كلها إسهاماً ينم عن قدرة بالغة .

أما في إنجلترا فإن فراتسيس سيدني مارقن وأرنولد توينبي فهما من أصحاب الجهد الرئيسي في مجال التحليل التاريخي منذ أيام باكل Buckle . ويعتبر كتابا مارقن ، الماضي الحرف ، و (قرن الأمل) The Century of Hope مداخل تتسم بالقدرة في مجال التأليف والشرح التاريخي . ويصفته بحجة لقضية السلام قام بإعداد عدة أجزاء بالاشتراك مع غيره في الموسوعة التي صدرت باسم (سلسلة الوحدة) والتي استهدفت تتبع تاريخ الحضارة وركزت على الخصائص الدولية للحضارة الغربية .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن كتاب أرنولد توينبي (دراسة في التاريخ) وجدناه أعظم المشروعات الطموحة التي أقدم عليها مؤلف بمفرده في مجال التأليف التاريخي . كذلك أدى ج. ب. بيوري J.B. Bury - وهو الذي ألف كتاباً صغيراً ممتعاً عن تاريخ حرية الفكر وصاحب بحث أكبر عن نظرية التقدم - جهداً هاماً لتاريخ الحضارة بما أبداه من مقدرة على التخطيط والإشراف على أعمال كبرى . ذلك أنه أفسح مجالاً واسعاً حين خطط لموسوعة كامبردج في التاريخ القديم وموسوعة كامبردج في التاريخ الوسيط أمام علاج التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفلسفة والعلم والفن والدين . على الرغم من أن هذه الموسوعات في أساسها تستهدف التاريخ السياسي . كذلك تضمنت السلسلة التي عرفت باسم (التراث) مختصراً مفيداً عن التاريخ الثقافي اشترك في وضعه أكثر من باحث ، فقام ادوين بيفان ، وشارل سنجلا بإعداد ما عرف باسم (تراث إسرائيل) . وأعد ر. واليفنجستون ما عرف باسم (تراث الإغريق) . وأعد كيريل بايلي Cyril Bailey ما عرف باسم (تراث روما) . واشترك ت. و. أرنولد ، الفرد غليوم Guillaume في إعداد (تراث الإسلام) . في حين كتب الفصل الخاص بتراث العصور الوسطى كل من ك. ج. كرمب C.G. Crump ، ا. ف. جاكوب . وقد عمل سيرجون هامرتون الكثير من أجل تطوير العمل في التاريخ الثقافي . ذلك أنه وضع مجموعات فاخرة مصورة تناولت الماضي مثل تلك التي أسماها (عجائب الماضي) وما شابهها من أعمال أخرى . هذا إلى أنه نشر أعظم ما صدر باللغة الانجليزية في تاريخ الحضارة والذي عرف باسم (التاريخ العالمي للعالم) وهو الكتاب الذي جاء في ثمانية أجزاء تفيض بالشروح . كذلك اشترك ك. ك. أوجدن Ogden مع بارنز - مؤلف هذا الكتاب - في إعداد عمل أكثر اكتمالاً من ذلك الذي قام به بير ، باسم (تاريخ الحضارة) . وتضمن هذا الكتاب كل ما جاء في سلسلة بير ورينار Berd - Renard . ثم اضيفت إليه عدة أجزاء كتبها بعض الباحثين الإنجليز والأمريكيين والألمان . ويعتبر هذا الكتاب من أعظم الأعمال المشتركة عن تاريخ الحضارة قوة وشمولاً^(١) . وتعتبر المجموعة المشتركة التي قام بإعدادها ه. د. تريل Traill ، ه. س. مان Mann والتي عرفت باسم (إنجلترا من الجوانب الاجتماعية) من أعظم ما كتب عن تاريخ الحضارة الإنجليزية . أما ه. ج. ولز Wells في كتابه (الإطار العام للتاريخ) فقد فعل أكثر مما فعله أي باحث آخر منذ جون ريتشارد جرين لإثارة اهتمام القراء الإنجليز بالتاريخ غير السياسي .

(١) انظر ه. أ. بارنز التاريخ والإدراك الاجتماعي (طبع Knopf ١٩٣٦) وقد توقف العمل فيه بعد بدء الحرب العالمية الثانية

(المؤلف) .

كذلك أسهم المؤرخون في أجزاء أخرى من أوروبا في تطور الاهتمام بتاريخ الحضارة . وثمة كتاب من خيرة الكتب وأكثرها ابتكاراً في مجال التاريخ الثقافي القومي ، وهو الكتاب الذي يحمل اسم (تاريخ الحضارة الأسبانية) لمؤلفه رفائيل التاميرا : أما الكتاب الذي قام به أنطونيو باليسترورس Ballesteros والذي عرف باسم (تاريخ أسبانيا وتأثيره في تاريخ العالم) فإنه أكثر تكاملاً من كتاب التاميرا وإن كان أقل اهتماماً منه بالتاريخ الثقافي . وفي إيطاليا أكد باسكال فيلاري Pasquale Villari صاحب الأبحاث الهامة عن التاريخ الثقافي في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى وعصر النهضة - أهمية التحليل التاريخي . فإنه أوضح أن عمل المؤرخ لا يكمل إلا إذا نظم مادته في صورة منطقية مرتبة . كذلك أسهم بنديتو كروتشه Bendetto Croce في تاريخ الفن الأوربي والإيطالي ، والأدب ونظرية علم الجمال وذلك في الوقت الذي حاول فيه من جهة أخرى أن يلبس الفلسفة القديمة للتاريخ ثوباً جديداً ويجعلها أكثر ملاءمة . وانعكس في كتاب جييجيليمو فيرورو Guglielmo Ferrero الذي أسماه (عظمة روما وضمحلها) صورة التواحي التي ركز عليها لامبرخت وهي التواحي الخاصة بأهمية العوامل السيكلوجية مجتمعة على التطور التاريخي . وكتب كورادو بارباجلو وهو المشرف على المجلة الإيطالية الرئيسية المتخصصة في التاريخ الثقافي كتاباً من أمتع الكتب التي كتبت في تواريخ الحضارة .

أما هنري بيرين Henri Pirenne فقد تأثر بلامبرخت ولاكومب وأخرج دراسة تاريخية واسعة الأفق عن تاريخ بلجيكا كما أسهم بسهم رامز في بحث تاريخ الحياة الاقتصادية والمدنية في العصور الوسطى .

وفي رومانيا لم يكتف الكسندر زينوبول (١٨٤٧ - ١٩٢٠) بكتابة تاريخ قومي ممتع ، بل أخرج كتاباً هاماً أيضاً ناقش فيها طبيعة علم التاريخ ومشاكله أسماء (الأسس الرئيسية للتاريخ) و (نظرية التاريخ) وميز في وضوح بين طبيعة كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ومن جملتها التاريخ ، وأوضح أن التاريخ ينبغي النظر إليه على أنه في أساسه علم اجتماعي ، وأن قوانين السببية التاريخية يمكن تطبيقها على الحالات التاريخية العامة إذا لم يمكن تطبيقها على الأحداث المرتبطة بالأفراد وأن الحقائق التاريخية الهامة فقط هي تلك التي لها معدلات وتناج اجتماعية هامة . وهناك واحد من أبرز تلاميذ زينوبول وهو نيقولا ايورجا Iorga الذي حاول في كتابه الذي أسماه (بحث في تركيب تاريخ الإنسانية) Essay on the Synthesis of the History of Humanity أن يتناول التاريخ العام للحضارة وتقدم البشرية . ويدل عمله على نظرة واسعة وتعمق في بواطن الأمور وقسط كبير من التعليم .

ويعتل اهتمام الروس بالتاريخ الثقافي في أعمال كثيرة . سنت الإشارة إليها مثل مؤلفات كونالفسكى التاريخية في النواحي الاقتصادية وتلك الخاصة بالنظم . كما تتمثل في أعمال فينوجرادوف Vinogradov عن التاريخ الاجتماعى في العصور الوسطى وتاريخ القانون ، وفي كتابات بولس ميلخوف Milukov عن تاريخ النظم وتاريخ القانون الروسى . ويتمثل كذلك في العمل الكبير الذى قام به روزتوفتسف Rostovtsev عن التاريخ الثقافى القديم لروسيا الجنوبية والتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العالم القديم وأما عن تشيكوسلوفاكيا فلدينا الأبحاث القيمة الجديدة بأن تحمل اسم العالم توماس مازريك عن الفكر والأدب السلافى .

وقد سبق أن أشرنا إلى الدلائل الأولى للاهتمام بالتاريخ الثقافى فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى التى ظهرت فى أعمال درابر ، م. س. تايلر ، هوايت ، هنرى آدمز . وتعتبر الشخصية الرئيسية فى القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية التى وهبت نفسها للرقى بالتاريخ الثقافى هى شخصية جيمس هارفى روبنسون James Harvey Robinson (١٨٦٣ - ١٨٣٦) الذى تأثر قليلاً بلامبرخت وبالمجدين الأوربيين وإن لم يمنع ذلك من إلمامه بأعمالهم . ويقول روبنسون عن نفسه : إن التقدم والتطور الذى طور به نفسه من مجرد باحث تقليدى فى ميدان التاريخ الدستورى إلى أن أصبح معلقاً غير متأثر برأى الغير على ما أسماه ، بالكوميديا الإنسانية ، إنما تم بصورة تدريجية وبصفة غير رسمية وكان أمراً شخصياً بحثاً^(١) . ذلك أنه استقى وجهات النظر الخاصة بالوراثة من علم الحيوان وطبقها على تفسير المادة التاريخية . وعندما كان مهتماً بالثورة الفرنسية عاد من تلك النقطة إلى دراسة الماضى تدريجياً ، أو كما قال هو نفسه أنه رجع من الجولتين أو المقصلة إلى البليطة الصغيرة . ولخص وجهة نظره فى كتابه الذى منه انتشرت الأبحاث التى تضمنها على نطاق واسع والذى عرف باسم « التاريخ الحديث » والذى صدر سنة ١٩١١ . ووضع تأثير ما نادى به بصورة رئيسية فى كتيبه التعليمية عن التاريخ الأوروبى وهى الكتب التى أحدثت انقلاباً كبيراً فى الأفكار ، كما وضع تأثيره كذلك فى تدريسه الفريد والمتع . وكان أن شرع فى وضع كتاب كبير عن التاريخ الثقافى ، لكنه لم يكمله . ثم قام طلبته بمهمة الكتابة فى صورة

(١) ارجع إلى هـ . ا . بارتر فيها نشره H. W. Edit أسانذة علم الاجتماع الأمريكىون طبعة هولت Holt (١٩٢٧) صفحات ٣٢١ وما بعدها ، وكذلك روبنسون : الكوميديا الإنسانية طبعة هاربر ١٩٣٧ وكذلك : L.V.Hendricks James Harvey Robinson (N.Y. 1946)

غزيرة دسمة . فجمع جيمس ت. شوتويل مجموعة كبيرة من المصادر عن تاريخ الحضارة سميت « سجلات الحضارة » . وكان من رواد الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى الولايات المتحدة . كذلك كتب لين ثورنديك أعظم الأعمال تكاملاً عن العلم والفكر فى العصور الوسطى ، وله مقدمة عامة موجزة عن تاريخ الحضارة . أما كارل بيكر Becker الذى تتلمذ على كل من روبنسون وتيرنر فكتب أبحاثاً تتم عن فهم كبير للحالة الفكرية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وامتاز بربرزفد Smith Preserved بما كتبه عن التاريخ الثقافى فى عصر حركة الإصلاح الدينى وأنتج ما يمكن أن يعتبر أعظم ما قام به مؤلف بمفرده فى مجال تاريخ الثقافة الحديثة . أما هوارد روبنسون فبحث عصر العقل وكتب أحسن الكتب الإنجليزية عن بطرس بايل Pierre Bayle وردد كل من شارل أوستن بيرد ، بنجامين ب . كندريك ، ا.م شلزنجر ، و.ر. فوكس ، هارودل فولكبر Faulkner ، هارى ج. كارمن وغيرهم وجهة نظر روبنسون واهتمامه وطبقوها على التاريخ الأمريكى . وألف فوكس وشلزنجر Fox and Schlesinger ما يعتبر أعظم الكتب التاريخية تكاملاً وأحدثها عن الحياة الأمريكية الاجتماعية والثقافية وهو الكتاب الذى يحمل عنوان « تاريخ الحياة الأمريكية » ووضع فرديناند شيفل الذى لم يتأثر بروبسون والذى يمكن القول بأنه أكثر الناس إحساساً وتفهماً لتاريخ الحضارة فى الولايات المتحدة الأمريكية - مؤلفات تتم عن مقدرة كبيرة عن مدينتى سبينا وفلورنسا فى إيطاليا . ويعتبر ما كتبه عن فلورنسا بالذات ذا أثر فى تفهم الأمريكين لثقافة عصر النهضة . أما فردريك ج . تيجارت فقد كتب أعظم ما يمكن كتابته بالتفصيل عن الأسس النظرية والفروض فى التاريخ الجديد . ويتمثل خير ما أنتجته أمريكا اللاتينية فى ميدان التاريخ الثقافى فيما كتبه فنسنت ريفا بالاشيو Vincente Riva Palacio وجيمس رومرو فلورس Jesus Romero Flores ، كما يتمثل فيما كتبه روملود. كاريبا Cariba عن الحضارة الأرجنتينية .

التاريخ الثقافى والمراحل الكبرى فى التاريخ البشرى

وبعد أن تتبعنا الآن تطور التاريخ الثقافى عن طريق عرضنا للسلمات البارزة المميزة لهذا التطور ، بقى أن نشير إلى بعض الجهود الهامة فى مجال التاريخ الثقافى فى مختلف مراحل التقدم البشرى منذ عصور ما قبل الكتابة وسنكتفى هنا بالإشارة فقط إلى بعض الأعمال الكبرى التى

سوف نختارها بين عديد من المجلدات التي تناولت هذا المجال . ومهما يقال عن قلة الكتب التي اختارت الاتجاه إلى الكتابة في تاريخ الحضارة ودعمت هذا الاتجاه في قوة ، وبرغم حداثة الاتجاه في هذا السبيل بوصفه حركة تاريخية منظمة . فإن هناك عديداً من الأعمال الخاصة التي تناولت جوانب معينة في تطور الثقافة . وعلى القارئ الذي ينشد الاقتراب من الكمال الرجوع إلى ما كتب تحت عنوان : « التاريخ الثقافي في الفصول المتتابعة في المرشد إلى الكتابة التاريخية » .

إن المدخل لكل التاريخ الثقافي ينبغي التماسه بالطبع في الأنثروبولوجيا الثقافية أعني قصة التطور الثقافي في المرحلة الطويلة للتطور الإنساني التي نتعارف عليها الآن بمرحلة ما قبل الكتابة . وتعتبر الأعمال الخاصة بعلم الآثار في عصر ما قبل الكتابة التي سبقت الإشارة إليها في إيجاز هي الأساس الرئيسي لدراسة التاريخ الثقافي . فعورخ مثل تيودور مومسن لم يسمع مطلقاً عن « عصر الجليد » إلا قرب نهاية حياته . بينما تبدأ كل الكتب القيمة عن التاريخ القديم بالسرد لعصر ما قبل الكتابة . وضمن ادوارد ماير في كتابه فصلاً افتتاحياً بأكمله عن الأنثروبولوجيا . كذلك تبدأ موسوعة كامبردج في التاريخ القديم بفصلين عظيمين عن ثقافة ما قبل الكتابة من وضع ج.ل. مايرس Myres وأوجز جورج جرانت ماك كردي في كتابه « أصول البشرية » الجهود التي حققتها مدارس البحث في هذا المجال وذلك على نحو رائع . وعلينا أن نرجع إلى المؤلفات عن النظم والثقافة في العصور الأولى وإلى مبادئ التطور الثقافي التي كتبها المتخصصون في الثقافة الأنثروبولوجية .

ويمكننا البدء بالإشارة هنا إلى كتاب ا.ب. تايلور القديم عن الأنثروبولوجيا - ثم تنتقل منه إلى المؤلفات الحديثة . فهناك كتب مثل تلك التي لفرانز بوس Franz Boas بعنوان « فكر الإنسان البدائي » والأنثروبولوجيا والحياة الحديثة . وكذلك مؤلفات ا.ك. كروبر A. K. Kroeber « الأنثروبولوجيا » وهناك كتاب ر. ه. لوي R. H. Lowie « المجتمع البدائي والمدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية » . أما الكسندر جولدنوزر فله كتابان هما « الحضارة القديمة » و « التاريخ وعلم النفس والحضارة » ولدينا كذلك كتاب ل. ا. هويت « تطور الثقافة » وكتاب كلارك ويسلر Clark Wissler « الإنسان والثقافة » وكتاب ام. تودر « الأصول الاجتماعية والترباط الاجتماعي » . وهناك أيضاً كتاب هارولد بيك Peake « الخطوات الأولى في التقدم البشري » وكتاب ، جوستاف شوالب Schawalbe « الأنثروبولوجيا » وتعتبر هذه الأعمال جميعها مدخلا

إلى التاريخ كما أنها تلقى كثيرا من الضوء على عصر « فجر التاريخ » . وقد سبق أن تناولنا بالوصف ما أنجزه الإنسان وتمكن بفضل من بلوغ حضارة عصر الكتابة وحللنا سلوك الإنسان والجماعات وأوضحنا مبادئ التطور الثقافي ونماذجها بالقدر الذي سمحت به المصادر المعروفة . وأجاد جاك دي مورجات تلخيص الفترة الانتقالية من المجتمع البدائي إلى حضارة العصور القديمة ، وذلك في كتابه « عصر ما قبل التاريخ في الشرق » . كذلك هناك كتاب ماكس بلانكهورن Max Blanckenhorn « العصر الحجري في فلسطين وسوريا وشمال أفريقية » وكتاب ف جوردن شيلد V. Gordon Childe « فجر الحضارة الأوربية والشرق القديم » وكتاب موريه ودافى Moret and Davy « من القبيلة حتى الإمبراطورية » .

أما أدولف ارمان Adolph Erman فكتب عن الحياة اليومية في مصر القديمة كتابه الذي سماه « الحياة في مصر القديمة » . وما زال كتابه أقدم ما كتب في هذا الموضوع . وقد أعيد طبعه على يد أحد الباحثين البارزين . بعد مضي ثلاثين سنة على ظهور الطبعة الأولى . وتناول ارمان كذلك في إيجاز الأدب والفكر في مصر القديمة . وهناك ما هو أكثر إيجازا وإن كان أحدث من سابقه في موضوع الثقافة المصرية وهو كتاب جورج شتندورف George Steindorff باسم « الإمبراطورية الفرعونية في بدايتها » . ولم يقتصر جهد جيمس هـ . برسند على إخراج كتب تاريخية تتم عن مقدرة فترة في تاريخ مصر ، ولكنه كتب الكثير في التاريخ الثقافي ، كما كتب أبحاثا متخصصة في الديانة والفكر في مصر القديمة وعن فجر الحركات الأخلاقية والخيرية في مصر . أما كتاب موريس جاسترو « حضارة بابل وآشور » فهو عمل ميسور الفهم وحجة في موضوع العقيدة الدينية في أرض ما بين النهرين في العصور القديمة على أن البحث الذي أعده الأستاذ يرونوميسبر Bruno Meissner تحت عنوان « البابليون والآشوريون » يعتبر أتم وأحدث دراسة عن حضارة ما بين النهرين . كذلك عالج كل من ر . و . روجرز R.W. Rogers ، كلمنت هوارت Clement Huart ، م . ن . دهلا Dhalla ، ب . م . سيكس R.M. Sykes ، ا . ث . و . جاكسون Jackson وآخرون مدى أثر حضارة الفرس القديمة على الحضارة الغربية . وأما عن الفن في الشرق الأدنى القديم فعازالت الفصول التي كتبها جورج بيرو Perrot وشارل شيبز Chipiez في كتابها « تاريخ الفن » تعتبر أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، ولو أن هناك كتيبات أحدث في هذا المجال مثل ما كتبه حنا كابارت Jean Capart باسم « محاضرات عن الفن المصري » وكذلك تعتبر الأجزاء الأولى من موسوعة هامرتون « التاريخ العالمي للعالم » أحسن علاج للتاريخ الثقافي في

عصور ما قبل الكتابة والشرق الأدنى القديم . وهناك أبحاث حديثة ومبتكرة تضمنتها الأجزاء التي كتبها موريه Moret ، دافي Davy ، ديلاپورت Delaporte ، هوارت Huart وآخرين عن الشرق القديم في « سلسلة تاريخ الحضارة » كذلك نجد موسوعة كامبردج للتاريخ القديم وفيما كتبه رالف تيرنر بعنوان التراث الثقافي الكبير كثيرا من المادة القيمة عن الثقافة . أما ماكس وبر Weber وج . و . هيرتزر Hertzler فقد عالجا التفكير الاجتماعي في الشرق القديم .

فإذا ما انتقلنا إلى بلاد الإغريق القديمة نجد لدينا دراسة رائعة عن حضارة كريت وحضارة إيجة في ذلك الكتاب الذي صدر حديثاً لجوستاف جلوتر . ويعتبر العلامة الأيرلندي سيرجون ب . ماهافي أعظم من أدلوا بدلوهم الغزير في تبسيط الثقافة الإغريقية وشرحها ، إذ كتب تقريرا عن كل جوانب الثقافة في التاريخ الإغريقي وإلى هذا العمل الذي نهض به ماهافي - وهو عمل اتمم بالجهد والحماسة الكبيرة - يرجع الفضل في إثارة الاهتمام على نطاق واسع بثقافة الإغريق القديمة وإن كان يؤخذ عليه أنه لم يضع إلى حد ما خطأ لما يعالجه فضلاً عن إسرافه في الإطراء .

وانتمت أبحاث الكتاب الإنجليز من المدرسة الإنسانية بقدرتها على المعالجة الدقيقة المميزة والمعيرة . مثال ذلك ما كتبه ماري ، ج. لويس ديكنسون . أما أحسن مدخل للثقافة الإغريقية ظهر في مجلد واحد فهو الإنتاج المشترك الذي أشرف عليه ليونارد وهبلي Leonard Whibley وصدر بعنوان « المرشد إلى الدراسات الإغريقية » . ويعتبر العمل الذي قام به باللغة الألمانية الفرد جرك Gercke ، ادوارد فوردن « دراسة العصور القديمة » أكثر اكتمالا من سابقه . وهناك السلسلة الممتازة لجورج د. هادزستس Hadzsits ، داودم. روبنسون عن حضارة الإغريق والرومان باسم « ما ندين به للإغريق والرومان » ، وشبيبته الألمانية التي أعدها اوتوايمش Otto Immisch . وكتب كل من ادوارد . زيلر Zeller ، فيودور جومبرز ، ويلهلم ويندليند دراسات موجزة يعتمد عليها في دراسة الفلسفة الإغريقية . كذلك كتب ارنست باركر كتابا خالدا عن فلسفة الإغريق السياسية وتناول كل من هوجر برجر Berger ، أوجست بوشيه ليكلرك Auguste Bouche Leclercq ، بطرس دوهم Pierre Duhem ، العلم عند الإغريق . أما اوتو كرن Otto Kern ، جان هاريسون ، لويس ر . فارنل Farnell ، ارون رود Rohde فكانت لجهودهم القيمة في الموسوعات التي كتبوها عن تاريخ الديانة الإغريقية . وتناول الفرد موريس كروزيه ، وويلهلم فون كيرست تاريخ الأدب اليوناني بالتفصيل . واستعرض بيرسي جاردنر وماكسيم كولينسون وجوهان اوفريك الفن الإغريق وتناولوه بالبحث والشرح . أما الأجزاء الخاصة بهذا الموضوع في

سلسلة هامرتون التي عنوانها « تاريخ الحضارة » وفي موسوعة كامبردج للتاريخ القديم فهي ذات قيمة كبرى بالنسبة للتاريخ الثقافي في كل من بلاد الإغريق والرومان .

وبالنسبة لروما هناك مقدمة عامة لا غنى عنها ، تناولت كل جوانب الثقافة الرومانية وصفها السيرجون إ. سانديز Sandys تحت عنوان « المرشد إلى الدراسات اللاتينية » . وتناول ماريون بارك Marion Park بالبحث التاريخ الاجتماعي الروماني ، كما عالجه كل من فرانك ف. ابوت F. Frank Abbott ، وليام وارد فولر Fowler ، صمويل ديل Dill ، لودفيج فريدلاندر Ludwig Friedlander . ولدينا الكثير من المؤلفات عن الديانة الرومانية ، ومن جملة هذه المؤلفات الأبحاث المثالية التي قام بها جيس ب. كارتر Jess B. Carter ، وارد فولر Warde Fowler جورج ويصوا George Wissowa ، جاستون بوسير Jaston Bossier ، الفرد لوسي Loisy ، فرانز كومونت Franz Cumont ، تيرو. جلوفر Terror Glover . وللدراسات التي كتبها الثلاثة الأواخر قيمتها الخاصة في الإحاطة بموضوع تصارع الأديان في الإمبراطورية الرومانية .

أما عن مراحل تطور الأدب الروماني فنجدتها في أبحاث جون و. دوف ، ادوارد فورتن ، ويلهلم س. نوكل Wilhelm Teuffel ، ودرس هنري ب. والترز Walters الفن الروماني دراسة تتم عن عبقرية كبرى ، كما درسه كذلك رينيه كاجنات ، فيكتور شابو Chapot ، فرانز ويكهوف Wickhoff ، ه. ت. ريفورا G. T. Rivoira ، وتناول جون ر. سانديز Sandys تاريخ البحث العلمي في العصور القديمة منذ أيام الإغريق والرومان . أما فترة الانتقال من الحضارة الرومانية إلى حضارة العصور الوسطى فقد جذبت انتباه كل من هنري بيرين Pirenne ، فرديناند لوت Lot ، الفونس دوبش Dopsch ، كريستوفر داونسون Christopher Dawson ، م. ل. و. ليستر M. L. W Laistner ، إ. ك. راند Rand ، إيلينور دوكت Eleanor Duckett ، ه. و. تايلور وآخرون غيرهم .

وينبغي ملاحظة أن كل ما كتب من مادة عن أحوال المسيحية وتطورها إنما هو بالضرورة من جوانب التاريخ الثقافي . ويمكننا أن نشير في هذا المجال إلى بعض الأعمال التي تفوق غيرها في الأهمية . فهناك عدد من المؤلفات التاريخية العامة الجديرة بالاعتبار عن الكنيسة المسيحية ، ويعتبر ما قام به وليم مولر Moller نموذجاً لهذه المؤلفات ولدينا عن تاريخ المسيحية بصفة عامة ما كتبه شارل جوجنبر Guignbert ، عن المسيح وتطور المسيحية . وكتب إميل شورر Schurer كتاباً

يعتمد عليه في دراسة تاريخ اليهود في العهد المسيحي الأول . أما كلا من لويس دوشسن Duchesne ، ارثر ك . ماك . جيفر Giffert ، هنري م . جواتين ، فقد عالجوا تاريخ الكنيسة في عصرها الأول كذلك هناك كتابات شيرلي جاكسون كيس Shirley Jackson Case عن المسيحية في عهدها الأول وهي كتابات دسمة وبخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي والثقافي ومازالت مؤلفات هنري شارل ليا Lea عن الكنيسة في العصور الوسطى تعتبر أعظم ما كتب في هذا الموضوع . وأمدنا والتر اديني Adeny بأعظم الأبحاث المفيدة عن الإغريق والكنيسة الشرقية . أما العمل المشترك الذي قام به جورج جويو George Goyau فهو خير ما كتب عن التاريخ الثقافي للكنيسة الكاثوليكية . وتناول الكسندر فليك Flick انهيار نفوذ الكنيسة في العصور الوسطى بالتحليل . أما توماس م . لندساي Lindsay ، بريزرفو سميث ، لودفيج فون باستور ، ارنست تروليتش Troeltsch ، ماكس وبر Max Weber وآخرون غيرهم فاهتموا بمصر الإصلاح الديني اهتماما أثمر عن مجهود طيب في هذا المجال . وأخرج جورج ب . فيشر ، وادولف هارناك ، وارثر ك . ماك جيفر أعظم الأعمال التاريخية عن الفكر والمذاهب المسيحية . أما جوستاف كروجر Kruger فهو أستاذ الأدب المسيحي في عصره الأول . وجاء جوزيف ستروزيوسكي Strozyowski بوصف ممتع للفن المسيحي أما التاريخ الثقافي للعقيدة الإسلامية التي ظهرت في صورة منافس كبير للمسيحية فقد عالجها كل من ستانلي لين بول ، وسير توماس أرنولد ، دي لاسي أورلي ، دنكان ب . ماكدونالد ، رينولد نيكولسن ، ادوارد ج . برون ، سير ريتشارد . برتن Burton هنري لومس Lummens ، هنري سالادين ، كلمنت هوارت ، اجناز جولدهر ، برنارد كارادي دي فو Bernard Carra de Vaux وغيرهم .

وتضمن كتاب هنري آدمز الذي حمل اسم « دير القديس ميخائيل ووثائقه » دراسة ممتعة وعميقة عن طبيعة الحضارة في العصور الوسطى وروحها أما تاميزي دي لاروك Tamizy de Laroque فله كتابه الهام عن الآثار الفرنسية وعن تاريخ القومونات^(١) في العصور الوسطى وعن التاريخ الثقافي والديني في تلك العصور . وتناول بحث السلوك والعادات في العصور الوسطى

(١) هي المدن ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل ، ظهر في أواخر العصور الوسطى وخاصة في إيطاليا وفرنسا والأراضي المنخفضة (المراجع) .

بالتفصيل بولس لاکروا في كتبه العديدة التي تنم عن مقدرة فائقة أما الدراسة التي قام بها هنري اوزبورن تايلور في كتابه عن الفكر في العصور الوسطى فلها أهميتها فيما يختص بالتاريخ الثقافي في تلك العصور . وينطبق نفس القول على كتاب ريجنالد لين بول وعنوانه « أضواء على تاريخ الفكر في العصور الوسطى » وأخرج موريس دي ولف Maurice de Wulf أحسن الكتب عن الفلسفة في العصور الوسطى . وساهم شارل هومر هاسكنز ، لين ثورنديك مشاركة فعالة في دراسة تاريخ الفكر والعلم في العصور الوسطى . ويعتبر كتب كل من ستيفن ديرساي D' Irsay ، هاستنجز رشدال ، هنريك دينيفل Heinrich Denifle ، هاسكنز أئمة المراجع الموثوق بها فيما يختص بدراسة التعليم في العصور الوسطى فضلاً على المدارس والجامعات في تلك العصور . وأما وليم ماكسيلانوس مانتييوس فقد قدم لنا أحسن عرض شامل للأدب اللاتيني في العصور الوسطى . وكذلك جاء كتاب كارل كرومباستر عملاً مثالياً عن الأدب اليوناني ، والبيزنطي في العصور الوسطى . وأنجز وليام ليتابي William Lethaby خير بحث عام عن الفن في العصور الوسطى . أما شارل ديهل Charles Diehl ، و . م . دالتون فقد كتبوا كتيبات بلغت أرقى مستوى عن الفن البيزنطي ، بينما قدم رالف آدمز كرام Cram ، سيرتوماس ج . جاكسون ، ايوجين فيوليت ليدوك أعظم البحوث عن فن العمارة في العصور الوسطى ، أما أحسن الأعمال التي تنم عن أرقى مستوى من القدرة على النقد لكل جوانب التاريخ الثقافي في العصور الوسطى فهي ما قام بها جورج جوردن كولتون George Gordon Coulton .

ويتضمن كتاب جون هرمان راندال وعنوانه « تكوين الفكر الحديث » مقدمة عن التاريخ الثقافي للعصور الحديثة . كذلك هناك بحث كان من المنتظر أن يصبح أروع الأبحاث التي كتبت بكافة اللغات عن التاريخ الثقافي في العصور الحديثة وعنوانه « تاريخ الثقافة الحديثة » تأليف المؤرخ بريزرلد سميت الذي فاقت قدرته كل حد ، لكن عمله توقف بعد أن نشر منه فصلان . ويتضمن كتاب أجون فريدل Egon Friedell الذي أسماه « التاريخ الثقافي في العصور الحديثة » كثيراً من الأحكام العامة الفذة والشروح المبتكرة . ولكنه ليس على نسق واحد من حيث الجودة ويعتمد إلى حد ما على فروض ونظريات أوزوالد سبنجلر وهي نظريات مشكوك في صحتها . وهناك كثير من المادة عن التاريخ الثقافي في السلسلة التي أصدرها وليم ل . لانجر William L. Langer باسم « نشأة أوروبا الحديثة » . ويعتبر هذا العمل أقرب علاج للتاريخ الثقافي في العصور الحديثة باللغة الإنجليزية . وتناول عصر النهضة بالبحث على أحدث طراز كل من جوثن Goethein وجونز ، جروثيوزن Groethuysen ، براندي Brandi وغيرهم وذلك في كتبهم التي

سبق أن أشرنا إليها . أما أميل جيهارت فقد ألقى مزيداً من الضوء عن العلاقة بين العصور الوسطى في مرحلتها الأخيرة وعصر النهضة وأوضح السبب الذي من أجله بدأت حركة النهضة في إيطاليا . هذا بالإضافة إلى ما له من فضل بصفة خاصة في وضع كتابه الهام عن العلاقة بين ما ظهر في أواخر العصور الوسطى من مذاهب الزهد والورع وبين حركة النهضة المسيحية في عصرها الأول . وأنتج روبرت دافيدسون وفرديناند شيفل أعظم ما كتب عن النهضة في فلورنسا . أما هنري أزبورن تايلور وفرديناند شيفل ، هما Hyma وادورد ب . شيني Cheyny فهم رواد الأمريكيين بالنسبة للدراسات الحديثة في هذا العصر . وأمدنا بريزر قد سميت وارنست ترولتش بعمل رائع عن التاريخ الثقافي في عهد حركة الإصلاح الديني ، كما ألف والتر جوتز عن الحركة المضادة لحركة الإصلاح الديني . أما أكثر الأعمال العامة مقدرة في مجال التاريخ الاقتصادي في العصور الحديثة فهي تلك التي تنسب إلى كافولفسكي ، فرنر سومبارت Sombart .

وثمة دراسات عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عن الدول الكبرى تتم عن مقدرة كبرى منها ما وصفه تلاميذ لامبرخت في ألمانيا وفي إنجلترا آل ويس وآل هاموند وليفا سير في فرنسا ، ودور فمان ، وداود ومساعدوه في الولايات المتحدة الأمريكية .

أما في مجال الفلسفة الحديثة والفكر والعلم فإن أعظم الكتب أهمية هي تلك التي وصفها هارالد هوفدنج Hoffding ، ابراهام ولف ، جون مورلي ، عن المدرسة العقلانية في فرنسا ، والدراسة الواسعة التي قام بها جون ت ميرز عن الفكر والعلم في القرن التاسع عشر . ووضع ف ج . ك . هيرنشاو سلسلة من الكتب ذات الفائدة العظيمة عن الفكر الاجتماعي والسياسي منذ العصور الوسطى حتى القرن العشرين . وتبدو عظمة هارولدج . لاسكي تكافؤاً في تاريخه للفكر السياسي الحديث خصوصاً عن نشأة الحركة الليبرالية . ووصف برنارد برينسون وآخرون غيره الفن في عصر النهضة ، كما وصف فرانك م . ماثرجر Frank M. Mather Jr. الرسم في العصر الحديث .

وتناول الفن الحديث بالبحث كل من توماس كرافن ، كليف بيل ، ك . ج . بوليه Bulliet وآخرون غيرهم

أما تاريخ الأدب فقد تم بحثه في عدة مراجع هامة تخصصت في الأدب القومي مثل موسوعة كامبردج في تاريخ الأدب الإنجليزي وتاريخ الأدب الفرنسي لإميل فوجيه وتاريخ الأدب

الأسباني لفرانسيسكو بارشيا بلانكو ، كما عالج فرانسيسكو دي سانكتس De sanctis تاريخ الأدب الإيطالي . وبحث ويلهلم شيرر تاريخ الأدب الألماني خلال عصر جوته . وقام ويلهلم ديبلت وهنريك ريكرت بمحاولات جادة ومبتكرة لوضع التاريخ الثقافي على أسس علمية رغم أنها فرقا تماماً بين العلوم الطبيعية والاجتماعية . أما فريدريك مينك Freidrich Meinecke فقد أتم عملاً فذا تناول فيه بالدراسة الحركات الليبرالية والقومية بوصفها نظريات فكرية سادت في القرن التاسع عشر . كذلك عمل كارلتون ج . هـ . هايز الكثير لخلق مزيد من الاهتمام بتاريخ القومية في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم تقم دولة ما من الدول بجهد منظم لخدمة تاريخها الثقافي مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية . من ذلك أن آرثر م . شيلزنجر ، ديكسون ر . فوكس كتبها كتاباً أسماه « تاريخ الحياة الأمريكية » وقع في اثني عشر جزءاً ويعتبر تاريخاً حقيقياً للحضارة على أعلى مستوى . أما رالف هـ . جابري فقد وضع كتاباً باسم « العرض المسرحي في أمريكا » وقع في خمسة عشر جزءاً ، وهو كتاب عظيم في صورته ومادته . وكتب دودبريدج ريلي أحسن الكتب عن تاريخ الفكر والفلسفة الأمريكية . أما فرنون ل . بارنجتون فكتب بحثاً تاريخياً مبتكراً لا قرين له عن الأدب الأمريكي مستنداً إلى أسسه الاجتماعية . وانسجت كتابات فان ويك بروكس عن الأدب الأمريكي بأنها كانت تنبئ بصفة خاصة عن فكر عميق وبأنها ممتعة . أما كتاب كامبردج في تاريخ الأدب الأمريكي Cambridge History of American Literature فهو أكثر دقة من غيره . وعالج صمويل ايشام وفرانك ج . ماثر وجـ . لورادو تافت Taft ، وفيسك كيمبال Kumball ، ت أ تالمداج وأوليفر لاركن Larkin تاريخ الفن الأمريكي من جوانبه المتعددة .

ولا شك في أن هذا العرض السريع الموجز والضروري لبعض الجهود التي بذلت في التاريخ الثقافي سوف يترك انطباعه على القارئ بإحساسه بعظمة الكتابة في هذا الميدان وضخامتها وتنوعها وخاصة إذا ما تذكر أن هذه الأعمال التي أشرنا إليها آنفاً تمثل أكثر ما كتب في الموضوع أهمية وأحسنها . وقد اخترناها من بين مؤلفات عدة في العصور الحديثة . وسيخرج القارئ عن إلمامه بهذه المؤلفات العديدة بالحقيقة الخاصة بأن التاريخ الثقافي تغلب على كل من التاريخ السياسي والحربي اللذين هما أقدم منه . ولكنه ينبغي أن نتذكر أن معظم هذه المادة لم يكتبها مؤرخون أكاديميون محترفون ، وإنما كان غالبيتهم أشخاصاً درسوا الأدب والفن والديانة والاجتماع والاقتصاد والعلوم والفلسفة وما شابهها . ومع ذلك فإننا نتقن على هذه المادة القيمة

سواء كتبها مؤرخون محترفون أم كتبها غيرهم . وإن أعظم ما ينبغي به ذلك التطور هو ازدياد عدد من المؤرخين المحترفين الذين يهتمون بالجوانب المختلفة للتاريخ الثقافي . وتعتبر هذه الحقيقة هي الدعامة الرئيسية التي نبنى عليها أملنا في أن التاريخ سوف يرتبط ارتباطاً متزايداً بتاريخ الحضارة والثقافة . وأن أعظم الجهود الجديرة بالثناء في وقتنا الحاضر في مجال وصف الحضارة البشرية عن كافة جوانبها هو الجهد الذي بذله ويل ديورانت Durant في كتابه المتعدد الأجزاء بعنوان « قصة الحضارة » ، وهو الكتاب الذي وضعت خطته على أساس صدوره في عشرة أجزاء ظهر منها فعلاً سبعة . ومن المشكوك فيه أن يستطيع مؤرخ آخر أن يقدم على هذا المجال بمثل تلك القدرة الفائقة .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

- Gooch, History and Historians in the Nineteenth century, chap. XXVIII
 Fuotat, Histoire de l'historiographie au dix-neuvième siècle, pp. 652 - 57, 708 - 52.
 Ritter, Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft, pp. 421 - 61.
 Becker, " Some Aspects of the Influence of social problems and Ideas upon the study and Writing of History " loc. cit.
 Guilday church Historians, pp. B321 ff.
 Robinson, the New History.
 Bamos, the New History and the Social studies.
 Muzzey, Essays in intellectual History Dedicated to James Harvey Thompson Son, History of Historical Writing, Vol. 11, chap. 1v. of the American Masters of social science, chapters on James Harvey Robinson and Frederick Jackson Turner.
 L. V. Hendricks, James Harvey Robinson.
 M.E. Cuthi, Frederick Jackson Turner. Mexico City, 1949.
 Beado, Charles A. Beard.
 Smith, Carl Becker: on History and the climate of opinion.
 Schmitt, Some Historians of Modern Europe, chaps. i, x, xix - xxi.
 Halperin Some Twentieth Century Historians, PP. 1 - 39, 277 - 298.
 Ansabel et al., Some Historians of Modern Britain, chaps. 8 - 10, Kram, the writing of American History, chap. xiv.
 J.C. Lovenson, the Mind and Art of Henry Adams. Houghton Mifflin, 15, 20, 22. Philip Bagby, Culture and History. University of California press, 1957. 1960.

Ernst Schaum Kell, Geschichte der Deutschen Kultur geschichtschreibung.
loipzig, 1905.

R. Kitzschke and A. Tille, Karl Lamprecht. Gotha, 1915.

E. J. Spiess, Geschichtsphilosophie von Karl Lamprecht. Erlangen, 1921.

Steinberg, Die Geschichtswissenschaft der Gegenwart in Selbstdarstellungen.

Halphen et al., Histoire et historiens depuis cinquante ans.

Halphen, L'Histoire en France depuis cent ans.

Henri Berr, L'Histoire traditionnelle et la Synthèse historique. Paris, 1921.

Croce, storia della storiografia italiana.

Blok, Geschichtschreibung in Holland.

Miliukov, Main currents of Russian historiography.

Karl Bruns, Die Meister der entwickelnden Geschichtsforschung. Berlin,
1936.

J. B. Bury et. Evolution in Modern Thought, chap. ix. Bon. and Liveright,
1915.

H. G. Wells, the science of Life. Doubleday, Doran, 1931. 2 vols.

Clark Wissler, Man and Culture. Crowell, 1923.

W. F. Ogburn, Social change. Viking press, 1922.

الفصل الرابع عشر

التاريخ وعلوم الإنسان الاتجاه الكوني الجديد

سوف نتناول في هذا الفصل التطورات الفكرية والثقافية وكذلك التقدم في المعرفة البشرية . وهي الأمور التي ساعدت على توسيع مجال مادة التاريخ وزيادة خصوصيتها ، كما ساعدت المؤرخ على إعادة صياغة حضارة الماضي . وعلمنا أولاً أن تناقض رد الفعل الذي أحدثته النظرة الفلكية الجديدة بالنسبة لمفهوم المؤرخ .

لقد كان لعلم الفلك الجديد وحركة الأجرام السماوية التي بدأت بنظريات نيوتن الأولية أكبر الأثر في إثبات صحة ما قال به جيوردانو برونو Giordano Bruno دون أن يستمد أى دليل من حيث تعدد العوامل والتشابه بين الأجرام السماوية والأرض من حيث تكوينها المادى . هذا إلى أن اكتشاف كواكب أخرى بعيدة مثل أورانس ، نبتون ، كان أكبر دليل على اتساع النظام الشمسى بشكل لم يكن يتوقعه أحد . ولعل الأهم من ذلك كله كلن التوصل إلى صنع الآلات والأدوات التي مكنتنا من أن نكشف عن نظم شمسية لا حصر لها ، ومعظمها على حرجة من البعد والتعقيد لا يمكن حسابها . وهكذا كان لابد من تعديل نظرة الإنسان إلى الكون ليس فقط تحت تأثير فكرة تعدد العوالم ، ولكن أيضاً بفعل مفهوم جديد بالغ الأثر ، مؤدله أن هناك عدداً مطلقاً لا نهاية له من الأكوان . وأدى هذا إلى مراجعة دقيقة جداً لجميع نظريات الإغريق عن الكون وتراث الفيلسوفين والملحمة المسيحية ، كما أدت إلى إلغائك عنى حدادته كوكب الأرض ومآلته نسبياً . وبنالزدياد الاعتراف بهذه الحقيقة جاء البرهان العلمى على ما أبداه نيوتن من تشككه في أنه من غير المحتمل

أن تكون كل فكرة عابرة تافهة . وكل تصرف عارض للفرد من البشر موضع اهتمام الله . وهكذا أصاب علم الفلك الجديد في الصميم فكرة إرجاع أحداث التاريخ إلى قوى ما وراء الطبيعة والقوى الإلهية . وكانت هذه أخطر أثراً من تلك التي وجهها علم التطور البيولوجي لنفس هذه النظرية .

يضاف إلى ذلك أن التأريخ على أساس الحسابات الكونية الجديدة وما ترتب على ذلك من ضخامة عنصر الزمن جعل الافتراض القائل ببدء الخليقة في سنة ٤٠٠٤ ق . م يبدو مفهوماً ساذجاً غير مقنع ، مثله تماماً مثل أية حكاية بسيطة حول الخليقة عند أي شعب من الشعوب البدائية المعروفة . والحق أن النظرية الزمنية الجديدة للكون التي أتى بها علماء الطبيعة الفلكية كانت أبعد أثراً من المفهوم الجيولوجي القديم ، وهي بالنسبة لهذا المفهوم تعادل تماماً ما كان هو عليه بالنسبة للتقويم الموسوي . ويعني هذا أن اكتشافات كل من فردنهورفر ، ميشلسون Michelson ، اينشتين ، شابل جينز Jeans ، لم تحمل محل الآراء المرتبطة بآدم ونوح وموسى فحسب ، بل حلت كذلك محل أفكار لاييل ، شامبرلين Chamberlin ، جيكي وآخرين وذلك بوصفها أساساً يبنى المؤرخ عليه أفكاره عن النسبية التاريخية والمفهوم الزمني .

وكان ما فعله علم الفلك بالنسبة للكون شبيه بما فعله علم الجيولوجيا والحفريات بالنسبة لمفهومنا حول عمر وتكوين كوكبنا الذي هو من وجهة النظر الكونية كوكب حديث العمر بالغ الضآلة . هذا إلى أن الجيولوجيا التاريخية والتركيبية أظهرت حقيقة التطور الطبيعي والفترة الزمنية الطويلة التي تطلبها هذا التطور ، كما أثبتت أن الفترة الجيولوجية التي سبقت بدء الحياة على هذا الكوكب يحتمل أن تكون أطول بكثير من الفترة التي انقضت منذ بدء الحياة عليه (حتى الآن) . كذلك كشف علم الحفريات — الذي هو الأساس التاريخي الحقيقي لعلم التطور البيولوجي — عن ظاهرة التطور التدريجي للحياة العضوية على الأرض — وكذا عن التطور الذي طرأ على أنماط النباتات وحياة الحيوان والعلاقة الوراثية بين الكائنات المفترضة ، وبين الكائنات القائمة . وفوق كل شيء فقد كشف هذا العلم عن موقف متناقض إلى حد ما بالنسبة للإنسان ، فمن وجهة نظر تطور الحياة العضوية ككل نجد أن حياة الإنسان على الأرض أمر حديث نسبياً بدرجة تبعث على الدهشة . ومع ذلك فهي بالغة في القدم إذا ما قورنت بالاعتقاد الراسخ بفترة وجود الإنسان على الأرض . وكان أن تلقى المؤرخون المفاهيم الكونية والزمنية الجديدة في وقف ذهول فكرة إرجاع الأحداث إلى قوى ما وراء الطبيعة وهي الفكرة التي كانت تساند الافتراضات القديمة الخاصة

بالخلقية ، والتي كانت تقف وراء التاريخ التقليدى حتى الجبل الحالى . وقد صادفت هذه الفكرة تحدياً مباشراً خلال الدراسة التاريخية الناقدة للوثائق المقدسة التي تضمنت « افتراضات ما وراء الطبيعة » كما صادفت تحدياً غير مباشر لها في مرحلة تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية . وترتب على هذا كله انهيار الأساس الوثائقي المزعوم لفكرة ما وراء الطبيعة انهياراً تاماً . وبذلك انتهت الحرب بين العلم واللاهوت إلى لا شيء بالنسبة للفئات المتعلمة .

نظرية التطور ومغزاها بالنسبة للتاريخ

لا شك في أن نظرية التطور كانت من بين المؤثرات الفكرية والعلمية التي أحدثت ثورة في وضع الكتابة التاريخية وحركتها ومنهجها واتجاهاتها . وهنا ينبغي أن يتخطى مفهومنا عن التطور القيود البيولوجية لمدرسة دارون ليشمل التطور الكوني بمفهوم سينسر . ويبدو بوجه عام أن افتراض التطور مجرد إصرار على أن كل ما هو معروف لنا في هذا الكون — صغيراً كان أو كبيراً — قد حدث بفعل مسببات طبيعية هي المسثولة عن التقدم والنكوص على السواء . كذلك يتضمن هذا الافتراض — وهذا ما يتفق مع وجهة نظر هيراكليتوس القديمة — أن التغير هو المبدأ الأساسي العظيم في الكون . وهكذا نجد أن افتراض التطور لم يتعرض بأي شكل من الأشكال للجدل الديني اللاهوتي ، كما أنه لم يشيد على موقف عقائدي فيما يختص بالدور الذي قام به الله في هذه العملية الخاصة بتطور الكون . كذلك فإن هذا الافتراض لا ينم عن أن صاحبه قد تلقى أى إحاء من قبل الله يوضح هدفه (عز وجل) من إيجاد الأجرام الكونية الضخمة التي تشكل محتويات هذا الكون . ومن الممكن أن يكون لهذا الرأي الخاص بأصل الكون وتركيبه مغزى كبير بالنسبة لأولئك الذين يهتمون بالحواري ولكن مناقشة المضمون الديني لافتراض التطور إنما هي مشكلة الفلاسفة وفقهاء الدين وليست مشكلة المؤرخين وعلماء الأحياء .

ثم إن نظرية التطور لا تمثل — بطبيعة الحال — مرحلة جديدة تماماً في المجرى الفكري للحضارة الغربية — لأن تاريخها قديم قدم التفكير التأملى ذاته ، وهذا بدوره يبدأ من عصر الفلاسفة السابقين على سقراط في بلاد اليونان القديمة . وحتى هيربرت سينسر نفسه لم يتحدث عن المفاهيم والمضمونات العامة بالتطور الكوني بنفس القدرة والكفاءة التي تحدث بها لوكريتيوس Lucretius في عهد شيشرون . هذا مع العلم بأن لوكريتيوس أكد أن عَرَضَهُ لفكرة التطور

الكونى لم يكن سوى صورة أقل إحكاما من معتقدات أستاذه ابيقور Epicurus الذى عاش قبله بثلاثة قرون . وكان أن بعثت فكرة هذا التفسير لتطور الطبيعة مرة أخرى فى أعقاب نمو العلوم والحركة الرومانسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وإن كان هذا الاتجاه الفكرى لم يثر كثيرا من الجدل إلى أن دَخَلَ الإنسان ذاته فى دائرة نظرية التطور . وقد أوضح سبنسر نظرية التطور الكونى وأضاف إليها كثيرا وبين انطباقها على عديد من أوجه النشاط الفكرى البشرى . أما دارون فقد كرس نفسه للنواحى البيولوجية من المشكلة . وأوضح أن الأدلة على ارتقاء الإنسان من أشكال أدنى فى الحياة العضوية أكثر اقناعا من أية أدلة أخرى يمكن أن تساند الرأى الراسخ — حتى ذلك الوقت — والقاتل بأنه كانت هناك عملية خاصة حديثة نسبيا هى عملية خلق الإنسان . وكان أن قوبلت نظرية دارون بالترحيب من جانب عدد من العلماء البارزين أمثال هيكل Haeckel ، هاكسلى ، رومانس ، ولاس ، وهم الذين دافعوا عنها بشدة وعملوا على نشرها . أما المضمون الثقافى والتاريخى للأفكار الخاصة بالتطور فقد تولى شرحها كتاب متباينون أمثال ج . م . روبرتسون ، ر . ا . ه . ليكى W.E.H. Lecky ، ليزلى ستيفن ، كارل لامبرخت Lamprecht ، ح . و . دارير ، اندرود . هوايت ، هنرى آدمز ، وهؤلاء جميعا كانت جهودهم ذات أثر بعيد وكبير لأن مفهوم التطور هو على الأرجح أقدر الافتراضات وأكثرها فائدة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، ولا يعارض هذا الرأى أو يشك فيه سوى الجوهريون المتشبعون لفكرة الأصل الثابت للإنسان مثل وليام جينجز براين ، جون روسن سترانون ، جاسبار كورتينوس ماسيه Cortinus Massee وبعض الكتاب الكاثوليك المتحمسين ذوى المزاج الفكرى المتشابه ، وهم وإن كانوا حسنى النية إلا أنهم قليلو المعرفة .

وتنصف الجوانب الرئيسية لمغزى نظرية التطور بالنسبة للتاريخ بأنها عديدة ومؤثرة ولعل أهمها هو عدم الاعتراف بالفلسفة الاستعلانية وإذا كان أفلاطون قد أحس بأن نظرياته الخاصة بالجمال وبالمعرفة قد تعرضت لصدمة شديدة من جانب المفهوم الخاص بالواقع المتغير ، إلا أن هذا فيها يبدو هو طبيعة الأشياء ، فحتى الآن لم يكشف أى متخصص فى أى فرع من فروع المعرفة وجود شيء فى مجال الطبيعة له صفة الكمال والاكتمال وعدم التغير ، فى حين أن مبدأ التغير فى حد ذاته هو المبدأ الأوحى فى الكون الذى لا يتغير ولا يتبدل .

على أن هذه النظرة إلى الموضوع لا يرضى عنها أولئك الذين يغلب عليهم طابع الورع وذلك إذا انتقل تطبيقها من النطاق الطبيعى إل النطاق الاجتماعى . فالتقول بأن الصخور والنباتات قد

يطرأ عليها تغيرات إنما هي فكرة أقل تأثيراً وأقل جاذبية من الحقيقة الخاصة بأن النظم والأفكار والعقائد البشرية لها طابع التطور وإنما جميعاً تنصف بالنسبية في قيمتها ودوامها . وقد يرى كثيرون سخافة لا مثيل لها في فكرة أن عقائدنا الخاصة بالله والوحي بالإنجيل وشرعية الزواج ودوامه والديمقراطية والرسوم الجمركية المفروضة لحماية الإنتاج والتنازل غير المحدد قد تكون جميعاً من صنع البشر وأنها تناقض تماماً آراء آخرين حول هذه المعتقدات ، بل إنها يمكن أن تكون خاطئة كل الخطأ . ولكن هذه هي الخلاصة التي تفرضها علينا عقيدة التطور والتي لا يمكن تجنبها بأي حال . والواقع أن نظرية التطور تبدو أكثر قوة وإقناعاً إذا ما طبقت على تطور أنظمتنا الاجتماعية ، لأن ثقافتنا ونظمتنا تمثل جهود المجتمع — في كافة صورها البسيطة والمعقدة — ليكيف نفسه مع ظروف الحياة في أية جهة . ولا توجد هناك أنظمة بشرية بدأت بنفس صورتها الحالية لأن كل النظم ليست إلا النتائج المتغيرة لعملية التكيف المستمرة مع عوامل البيئة والتكنولوجيا المتغيرة . وهكذا نجد أن السلوك والنظم ذات أصل (دنيوي) وأنها ليست سماوية ولم تأت عن طريق الوحي والإلهام . والحل السليم الوحيد الذي تقاس به كفاءة أي نظام وكفايته هو مدى ملاءمته لاحتياجات جماعة معينة في منطقة معينة في زمن معين . فالأخلاق والنظم أمور نسبية ومتغيرة ، وهي من إنتاج الإنسان والمجتمع ، كما أنها عرضة للتغير الإنساني في المصطنع إلى ما هو أحسن أو أسوأ .

وهناك وجهة أخرى لا تروق للبعض وتفسر الحقائق السابقة في ضوء مبدأ الوراثة ، وهو المبدأ المناقش للعقيدة القائلة بأن الله هو مصدر الأشياء والمنسبب في حدوثها وقد اتضح الآن أن كافة الظواهر التي لدينا معلومات عنها في الوقت الحاضر إنما هي نتيجة مسببات طبيعية تعمل بشكل تطوري . وكل مرحلة تمثل النمو الطبيعي للمرحلة السابقة عليها ، فإذا كانت هناك مجموعة محددة من العوامل التي تؤثر على أشياء مادية تحت ظروف معينة ، فإن هذا سيؤدي إلى شيء ثابت لا يتبدل . وقد يستطيع الإنسان أن يغير إلى حد ما في المواد والظروف التي تعمل القوى الطبيعية تحت تأثيرها ولكنه دائماً عرضة للتأثر بنتائج تفاعل العوامل الطبيعية مع عقله هو ، وهكذا فإنه يمكن أن يركن بأمان إلى الوهم الذي يعود به إلى القول بأن الله بالتأكيد هو راعيه ومدير أمره^(١) . وإذا كانت هذه الفكرة لا تروق للبعض ، فإنها بالنسبة للآخرين تمثل تحدياً ديناميكياً قوياً بعقيدة الإنسان وقدرته على الابتكار والتصرف . وكان التطبيق المباشر لمبدأ التطور البيولوجي في مجال

(١) يلاحظ هنا أن المؤلف يعبر عن وجهة نظره الخاصة وهي تحوى قدراً من الإلهاد لا نقره عليه (المترجم) .

المشكلات التاريخية أكثر وضوحاً وملاءمة في ميادين علم النفس وعلمى الوراثة وتحسين النسل . ذلك أن ج . ستانلى هول وغيره من الكتاب اللاحقين أوضحوا في مؤلفاتهم الممتازة أنه لا بد من النظر إلى الفكر البشرى على أنه نتاج للتطور شأنه شأن الجسم ، وبذلك جعلوا علم النفس الوراثة هو المدخل الطبيعى للتاريخ الفكرى .

والمعروف أن المبادئ المسيحية والآراء الديمقراطية القديمة قامت جميعاً على أساس فكرة الاعتقاد بضرورة المساواة بين جميع الناس ، ولكن علماء الأحياء والنفس أثبتوا أنه ليس هناك خطأ أوضح وأخطر من مثل هذا الاعتقاد ، فإذا كان التغير هو المبدأ الرئيسى فى الكون ، فإن الاختلاف والتميز هما الأصول للحياة العضوية بما فيها حياة الإنسان . ومن ثم فإن أوضح الحقائق بالنسبة للبشر هى تباين القدرة على بذل الجهد وعدم تكافؤ هذه القدرة بين فرد وآخر . وهذه الحقيقة من العناصر طالما تجاهلتها الفلسفة الاجتماعية والتاريخية . وعلى الرغم من أننا لا بد وأن نقف موقفاً حذراً من التطرف الذى يبدو فى آراء مدرسة جالتون بيرسون وهى الآراء التى تبالغ فى تأكيد أهمية العوامل البيولوجية البحتة على حساب قوة التأثيرات البيئية والتربوية — على الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن تفوق شعب ما فى القدرة البدنية هو أحد عاملين أساسيين فى التقدم الاجتماعى ، إذ لا يوجد هناك ما يدل على وجود شعب قوى أو حضارة متينة ذات عمر طويل بنيت على سلالة من البشر ضعاف البنية والصحة . كذلك ثبت أن تغير نسبة المواليد هو من بين الأسباب القوية لدورة الحضارة ونهضة الثقافات واضمحلالها . ذلك أن تغير هذه النسبة يتسبب فى تناقص نسبة الإنجاب بين الطبقات الحاكمة وتزايد المواليد بين الطبقات الأدنى بيولوجياً مما يترتب عليه حدوث ما يسمى الانتقاء البيولوجى المضاد . ولا يمكن اعتبار أى مؤرخ فى الوقت الحاضر معداً مهنيًا وفكرياً لأداء عمله إذا كان يجهل الفلسفة البيولوجية لكل من فرانس جالتون وكارل بيرسون وفاشردى لا بوج واوتو آمون .

وعلى الرغم من أهمية العوامل البيولوجية فى المجتمع البشرى ، فإن هناك خطراً فى محاولة نقل المفاهيم البيولوجية نقلاً مباشراً لتطبيقها فى مجال النظم الاجتماعية ، كما أن هناك خطراً مماثلاً فى افتراض أن التفاعلات الهامة التى تحدث فى الحياة العضوية للفرد يمكن تطبيقها دون تحفظ أو تمييز على المجتمع حقيقة إننا لا ننكر وجود قدر من التشابه بين الحياة العضوية والمجتمع البشرى ، ولكننا نقول إن هذا التشابه قد لا يكون له من الأهمية العملية أكثر مما هناك من تشابه بين الذرة والنظام الكونى كله . هذا بالإضافة إلى ما قد يكون هناك من بعض التفاعلات

البيولوجية التي تنطبق على حياة المجتمع البشرى . ولكن ما نريد أن نؤكد أنه هو أن نضع في الاعتبار الفروق الواضحة بين الموقفين وأن نعمل لها حساباً قبل أن نقر أوجه الشبه بينهما . ولعل أخطر الأخطاء التي نجمت عن تلك المحاولات لتطبيق المفاهيم البيولوجية بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية هو الافتراض القائل بأن الحرب تلعب دوراً بناءً في التطور الاجتماعى والثقافى لا يقل عن الدور الذى يلعبه الصراع من أجل الوجود فى مجال الحياة العضوية .

وهناك شك كبير فى سلامة هذا الافتراض الذى يبدو أكثر سخافة إذا ما طبق على الحرب فى ظل الظروف والأحوال الحديثة وفى ظل الإطار الثقافى الحالى .

وكان لنظرية التطور أثر كبير على أفكار بعض الباحثين فى مجال التاريخ كما يبدو ذلك فى كتابات سبنسر ، دراموند ، ليكى ستيفن ؛ الن Allen ، لانج ، شورمان ، كيد Kidd هيوهاوس ، فيسك ، سترلاند فى مجال تاريخ الدين والأخلاق . كذلك يبدو هذا الأثر فى كتابات بوست ، مين ، ماكليان ، باجهو Bagehot ، ليتورنو ، كوفالفسكى ، رينشى ، مورجان وغيرهم فى مجال تاريخ القانون والسياسة . ومهما يكن من أمر فإن الانطباع العام الذى تركه تطبيق مبدأ التطور على التاريخ ينحصر فى خلق مفهوم عن الطبيعة الوراثية للتفاعل الاجتماعى فى عقل المؤرخ الميقظ وإرساء أساس راسخ من النظرية السليمة الخاصة بالتطور التاريخى أو كما عبر جيمس هارفى روبنسون فإن علماء البيولوجيا هم الذين أعطوا المؤرخ فكرة التطور أو بمعنى آخر رسموا له الاتجاه الحقيقى للتاريخ .

ما أسهمت به الأنثروبولوجيا فى خدمة علم التاريخ

إن مناقشة أهمية نظرية التطور بالنسبة للتاريخ تؤدي بنا مباشرة إلى مناقشة العلاقة بين علم الأجناس البشرية والتاريخ الجديد « الديناميكى » . والواقع أن مفاهيم التطور حققت بعض الارتباطات الهامة للفكر المعاصر عن طريق مختلف مجالات علم الأجناس البشرية ، مما جعل الاستاذ ماريت Marett يصف هذه العلاقة بعبارة مناسبة هى :

« إن علم الأجناس البشرية هو التاريخ الإنسانى بأكمله الذى دعمته فكرة التطور . فأقصى

ما يستهدفه موضوع التاريخ هو دراسة تطور الإنسانية أو علم الأجناس البشرية يدرس الإنسان كما وجد في كل العصور المعروفة وكما وجد في كل أجزاء العالم ، كما أنه يتناول الإنسان جسداً وروحاً بوصفه جهازاً عضوياً يخضع للظروف والأحوال السائدة في زمان معين ومكان محدود . ثم إن جسد الإنسان على علاقة وثيقة بحياته النفسية التي تخضع هي الأخرى من البداية حتى النهاية لنفس الظروف والأحوال . والعلم الذي يرقب هذه الظروف من البداية حتى النهاية يسعى إلى تحديد السلسلة العامة للتغيرات البدنية والعقلية التي طرأت على الإنسان خلال تاريخه الطويل . إن دارون هو حقا أبو علم الأجناس البشرية حيث إنه هو الذي هباً له سبل الظهور . فإذا ما رفضنا الاعتراف بوجهة نظر دارون فمعنى ذلك أننا نرفض الاعتراف بعلم الأجناس البشرية ونحن الأثروبولوجيين نضع مذهب دارون نصب أعيننا ونقول : لندرس كل جزء أو أى جزء من التاريخ البشرى في ضوء تاريخ الإنسان بأكمله . وفي ضوء تاريخ الكائنات الحية عموماً . ان ما يهمنا هو إبراز عقيدة دارون وليس هناك من الآراء الخاصة لدارون ما سوف يجتاز بالضرورة اختبار الزمن والتجربة لأن هذه الآراء سوف تنصهر في البوثة التي يرى رجال العلم صهرها فيها ولكن نظرية دارون في تناولها للطبيعة تجعل من العالم شيئاً متقارباً لن تندثر . ومهما يكن من أمر فإن علم الأجناس البشرية يرتفع وينخفض بارتفاع وانخفاض افتراضات دارون الذي يذهب إلى أن هناك علاقة أساسية بين كل صور الحياة البشرية ، كما أن هناك قرابة وصلات بين كل صور الحياة البشرية يبدو خلال ما يعترى سلك الحياة من تغيرات . وتتضح أهمية علم الأجناس البشرية بالنسبة للتاريخ في صور عديدة واسعة النطاق . فهناك أولاً وقبل كل شيء الحقيقة الخاصة بأن هذا العلم هو وحده الذي يستطيع أن يزودنا بالمعلومات الخاصة بالتطور المبكر للإنسان . وهو الشيء الذي لا غنى عنه في أية دراسة أصيلة لما يسمى بالتاريخ القديم . فمنذ قرن مضى كان المدخل التقليدى لأى كتاب عن التاريخ القديم يتضمن مناقشة تفرق أبناء نوح وإعادة تعمير الأرض نتيجة للجهود البطولية التي تنسب لها ذرية نوح وسلالته . وورد هذا المدخل في عدد من الكتب التي أشار مؤلفوها في صفحات لاحقة من نفس الكتاب إلى أن الحضارة المصرية القديمة وصلت ذروة درجاتها قبل التاريخ المحدد تقليدياً لمسألة « المخلق » بعدة سنوات . ومن الممكن محو هذا التناقض وهذا الارتباك محو تاماً عن طريق نبد التقويم العبرى الذي التزم به كل من جوليوس افريكانوس (الإغريقى) ، ايزبيوس ، أوشر ، والأخذ بان الأساس الحقيقى للتاريخ القديم هي الحقائق التي أثبتت صحتها علم الأجناس البشرية والتي تتعلق بوجود فترة طويلة جداً من التطور سبقت فجر التاريخ المعروف . ويساعد هذا الاتجاه الجديد في التاريخ ليس فقط على تنقية فجر

التاريخ مما علق به من عناصر غريبة وغامضة ، بل أيضا على جعل نفس هذا الاصطلاح الخاص بفجر التاريخ شيئا مفهوماً ، إذ لم يكن هناك فاصل بين ما يسمى عصر ما قبل التاريخ وبين عصور التاريخ ذاته . ومعنى ذلك أن ثمة تطوراً بطيئاً مستمراً لم ينقطع وان لم يجر على وتيرة أو صورة واحدة منذ ظهور الإنسان على هذا الكوكب أى منذ مليون سنة أو تزيد . وإذا كان فن الكتابة هو العمل الأساسى الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصر التاريخ وعصر ما قبل التاريخ ، فإن هذا الفن لم يكن سوى مرحلة من مراحل ما أنجزه البشر فى المجال الثقافى ولم يتم إتقان هذه المرحلة تماماً إلا بعد قرون من ظهور الكتابة ، وقبل ذلك لم يكن هذا الفن قادراً على إحداث أى تأثير ثورى على الثقافة البشرية والسلوك البشرى .

فإذا ما حاولنا أن نضع سجلاً للتقدم الثقافى قبل اختراع فن الكتابة ، فإن هذا السجل سوف يضم أساليب صيد الحيوانات والأسماك واستئناس الحيوان وبداية الزراعة وأساس صناعة الغزل والنسيج والتقدم الهام فى الفنون ونشأة الحياة المستقرة والبيئات المصطنعة والصور الراقية من التعاون الاجتماعى وظهور الملكية الخاصة للمنقولات وربما للأراضى وكذا التقدم الهائل فى نظام الحكم والقانون . إن محاولة وضع مثل هذا السجل يجعلنا على طريق يؤدى إلى فهم الأهمية الحيوية للتراث الثقافى الذى خلفته لنا فترة ما قبل الكتابة وكذلك إلى فهم المغزى الكبير للمادة التى كانت تحذف من كتب التاريخ المدرسية منذ جيل واحد مضى .

وهناك عامل آخر يفسر قيمة المعرفة بعلم الأجناس البشرية بالنسبة للمؤرخ ، ويبدو فى الحقيقة الخاصة بأن روح النظم البدائية وسماحتها النفسية لم تندثر ، بمعنى أنه لا يوجد نظام معاصر لا يرجع أصله إلى جذور بدائية أو يمكن فهمه وتفسيره بدقة بدون معرفة كافية لأصله وجذوره . إن نظمنا الخاصة بالدين والملكية والجنس والحكم والقانون والأخلاق ليست قائمة على أساس من نظم بدائية فحسب ، بل نلصق فى أشكالها وصيغها الحالية جزءاً كبيراً من التراث البدائى وإذا ما فهمنا هذه الحقائق حق الفهم فسوف يضيق مجال التعصب الوطنى والغرور الثقافى ، كما يؤدى إلى إضعاف الاتجاهات المحافظة لأن الحقائق كفيلة بأن تجعلنا نعتقد بأن نظمنا تفتقر إلى الكمال والتمام ، وهى فى نفس الوقت ليست فريدة أو موصى بها من قبل الله . وهذا ما نحاول دائماً أن نضيفه عليها لتجميلها وتزيينها . ولذا فإن قراءة كتاب « أيام الخلود والراحة » الذى ألفه هوتن وبستر يسبب ضيقاً يفوق ما يسببه أى قدر من الجدل الدينى ، وذلك بالنسبة لمن يفسر التشريع الخاص بالطقوس الدينية الخاصة بيوم الأحد ، إن لمعظم مظاهر الطقوس الدينية فى الحياة المعاصرة أصولاً وجذوراً

بدائية وليس هناك على وجه التقريب ما هو أكثر تشويقاً وتشويقاً من عرض هيرت سبنسر للأثار الثقافية في الجزء الثالث من كتابه « مبادئ علم الاجتماع » .

كذلك يلاحظ أننا لا نخلو من بعض الصفات النفسية التي نشارك فيها الجميع والبرابرة ، مع بعض التعديلات والتغيرات . من ذلك الرغبة في الوصول إلى النتائج مباشرة وبلا مقدمات ، والميل إلى تحميل الأشياء أكثر مما تحصل ، والجنوح نحو التفكير بطريقة رمزية والاتجاه إلى النظر إلى مراحل معينة من الخبرة مليئة بالزهد الخالص ، والثقة في فاعلية الألفاظ والعبارات والإبقاء على بعض صور الاعتقادات البدائية في عالم الأرواح والطواطم ، وفعل الأرواح الشريرة ، هذا كله بالإضافة إلى الأشياء المحرمة بحكم الدين والتقاليد والخرافات الساذجة . وجميع هذه النواحي من السمات النفسية للشعوب البربرية . ولا يمكن بأي حال تحديد مدى تأثير الفكر البدائي في العصر الحديث ، وذلك لأن استمراره يختلف اختلافاً كبيراً من مرحلة إلى أخرى من مراحل الثقافة المعاصرة . أما في مجال العلم فقد تم نبذ النظرة البدائية وما ارتبط بها من طرق تفكير نبذاً تاماً . أما بالنسبة للدين والأخلاق فلا يزال المحافظون يتمسكون بكثير من حياة الزهد والنسك والايان بوجود المعجزات . فإن وجود العنصر البدائي يتراوح بين هذين الحدين . ففي السياسة على سبيل المثال لازلنا نعتمد على البلاغة ، وهذه الظاهرة ليست إلا شكلاً هيلينياً مطوراً لبعض تقاليد الخطب الرسمية لزعماء القبائل وشيوخهم وهكذا نرى أن فهم حقيقة بقاء هذه الظواهر البدائية واستمرارها في حياتنا الفكرية وتفسيراتنا النفسية أمر ذو قيمة هائلة بالنسبة للمشتغلين في مجال التاريخ الفكري . كما نجد أن علم الأجناس البشرية يربط بين علم النفس الوراثي وبين التطور الفكري للجنس البشري ولا شك في أن تلك الكتب أمثال التي ألفها وندت Wundt ، ليفي برون Levy Bruhl ، بول رادين Paul Radin ، جولدنويزر Golden Weiser وغيرهم تمثل المدخل المنطقي للتاريخ الفكري تماماً كما تمثل كتب ادزبورن ، بيركت ، بيك Peake ، تايلر ، ديكليت Dechelette ويلدير Wilder كليلاند ، ماكري ، المقدمة المناسبة لتاريخ الثقافة المادية البشرية .

وكان أن أسهم علماء الأجناس البشرية إسهاماً عظيماً هائلاً في فن التحليل التاريخي وذلك على وجه التحديد عن طريق تفسير تطور البشرية وشرح أوجه التشابه فيها ، فضلاً عن توضيح تنوعها والفروق بين نواحيها المختلفة . ومن الطبيعي أن يكون هذا الأسلوب غير ذي موضوع بالنسبة للدارس التقليدي للتاريخ الذي لا يهتم إلا بالأحداث الفريدة ولكن لا غنى عن هذا الأسلوب للمؤرخ الذي يسعى إلى علاج تاريخ الحضارة والثقافة علاجاً علمياً .

ثم حدث أن اجتذبت دراسة أوجه الشبه والخلاف بين ثقافات المناطق المختلفة انتباه الدارسين من أيام هيرودوت بل حتى قبل ذلك الوقت . ذلك أن أوجه الشبه بين تلك الثقافات خلقت أعظم المشاكل في مجال الشرح والتفسير ، وإن كانت أقل إثارة للاهتمام من أوجه الخلاف لأن التنوع يكون مقبولا وميسور الفهم إذا كان مرتبطاً باختلاف الرنس والبيئة الجغرافية والصلة بين الشعوب بعضها ببعض ومراحل التطور الثقافي . أما بالنسبة لأوجه الشبه في الثقافة فالأمر غير ذلك ، إذ كيف نفسر على سبيل المثال وجود أهرامات في كل من مصر وأمريكا الوسطى أو تشابه الأسلحة والأوعية الفخارية في مناطق بينها وبين بعض فواصل شاسعة ؛ وكان أن اقترنت أولى محاولات علماء الأجناس البشرية لشرح ظاهرة التشابه الثقافي بأسماء سبنسر ، تايلور ، مورجان ، ليتورنيه Letourneau ، وجميعهم عملوا على أساس نظرية باستيان Bastian الخاصة بوحدة العقل البشري ، وعلى أساس الاعتقاد الذي يؤكد التأثير الحاسم للبيئة الجغرافية ، فضلاً عن افتراض التطور القائم على ارتقاء النظم ارتقاءً تدريجياً من صورتها البسيطة إلى صورة أخرى أكثر تعقيداً . وقد وضع هؤلاء العلماء بعد ذلك نظاماً مفترضاً يفسر التطور في النظم ، وفي النهاية كرسوا أنفسهم للتوصل ولو بشكل عشوائي إلى معلومات مادية تثبت وتدعم وجود مثل هذا الوضع بالنسبة للتطور الاجتماعي . وهكذا وضعت هذه المدرسة افتراضاً عاماً مؤداه أن التشابه الثقافي يرجع إلى أسباب داخلية أكثر مما يرجع إلى اتصالات خارجية بين الجماعات . وبهذا أكدوا فكرة التطور المستقل وخصوصية قدرة الإنسان على الاختراع حتى ولو كانت هذه القدرة تتأثر كثيراً بالطبيعة المحيطة وسمات معينة للعقل البشري . وهناك نظرية أخرى تتخذ اتجاهاً مضاداً لاتجاه المدرسة السابقة وهي من وضع جوليوس ليرت ، ا . ب . تايلور ، وآمن بها راتزل وطورها كل من فريتز جواهر ، وسيرج . اليوت سميث ، فوي Foy انكرمان ، و . شميث ، و . ج . بري Petty ريفر وتعتقد هذه المجموعة من العلماء أن التشابه الثقافي يرجع في مجموعه إلى اتصال الجماعات بعضها ببعض ، الأمر الذي يترتب عليه انتشار الثقافة . ودفعهم إلى هذا الاعتقاد تكرار حدوث اختراع الأدوات وابتداع العادات بشكل مستقل . ثم ذهب بعض المتطرفين من أعضاء المدرسة أمثال جرايبر Graebner ، سميث إلى أن انتشار الثقافة قد تحقق حتى بين الجماعات التي تفصل بينها مسافات شاسعة ومواقع كثيرة كان اجتيازها أمراً عسيراً . وعلى الرغم مما في آراء هذه المدرسة من مبالغات ما إنها ألفت كثيراً من الضوء على انتقال الثقافات والنظم وكان للجهود التي بذلها علماءها أهمية خاصة في مساعدة الباحثين الذين تناولوا موضوع انتشار الثقافة المادية .

ولعل الاتجاه نحو التحليل السيكولوجى الذى وضعه الأستاذ بوس Boas وتلاميذه فى الولايات المتحدة الأمريكية والذى قبله إلى حد كبير بعض علماء الأجناس البشرية فى أوروبا أمثال ماريت ، ابرنريك Ebbrenreich يكون أكثر إقتناعاً من رأى المبالغ فيه القائل بالتطور المستقل أو من الاعتقاد المبالغ فيه أيضاً القائل بفكرة الانتشار . وليس لمدرسة بوس أية افتراضات سابقة ، فهى تهدف أساساً إلى بحث الحقائق الموجودة فعلاً والمتعلقة بطبيعة أى تركيب ثقافى محدد وأصل ذلك التركيب . ونتيجة لذلك وجدت هذه المدرسة أن التطور المستقل والانتشار قد اشتركا معاً فى خلق معظم الأوضاع الثقافية . ولكن قدرة أية وحدة ثقافية على تقبل واستخدام جهود ثقافة أخرى تختلف اختلافاً بيناً طبقاً لنوع ودرجة الثقافة المستعارة . فالشعوب تستعير بترحيب كبير مختلف جوانب الثقافة المادية ولكنها لا تشعر بالرضا أو الارتياح بالنسبة لاستعارة العقائد والشعائر الدينية .

وكان من نتيجة غرس هذا المنهج الناقد أن بدأت حركة كبيرة لمراجعة النظريات السالفة الخاصة بالتطور الاجتماعى . ذلك أنه اتضح أن كثيراً من التشابه المزعوم كان تشابهاً سطحياً فقط . كما ثبت فى نفس الوقت أن كثيراً من أوجه الشبه الحقيقية لا تعنى بالضرورة تشابهاً فى السوابق أو فى التطورات اللاحقة . وبمعنى آخر فإن هذا المنهج عدّل إلى حد ما الآراء القديمة الخاصة بالطابع الموحد المنظم لتطور النظم ، كما تبدو هذه الآراء ملخصة فى كتاب (المجتمع القديم) الذى ألفه لويس هـ . مورجان . فالقاعدة الطبيعية هى التنوع الملحوظ كما يبدو فى ظاهرة التطور الاجتماعى على الأرض . وفى كتاب (تطور الثقافة) نجد هوايت يطابق بين نظريات مورجان وبين المضمون الحقيقى لعلم الأجناس البشرية . وهكذا ينبغي أن يكون واضحاً أمامنا أن الباحث الذى يتناول موضوع تاريخ الثقافة والنظم لا يعتبر مؤهلاً تأهيلاً كافياً لهذا العمل إذ لم يعر تماماً نوع المادة التى تحتويها مؤلفات مثل كتاب بوس « عقل الإنسان البدائى » وكتاب ويزلر Wissler (الإنسان والثقافة) وكتاب كروبر Kroeber (علم الأجناس البشرية) وكتاب لوى Lowie (الثقافة وعلم الأثنولوجيا) وكتاب (المجتمع البدائى) وكتاب جولدن ويزر (الحضارة المبكرة) وكتاب ديكسن Dixon (بقاء الثقافات) وكتاب مولر لاير Muller Lier (تاريخ التطور الاجتماعى) كتاب لينتون Linton (دراسة الإنسان) وكتاب هويت White (تطور الثقافة) . وأدى الأستاذ أ. ل . كروبر خدمة جليلة لتحقيق الهدف العظيم الخاص بربط علم الأجناس البشرية بالتاريخ حيث تضمن الفصلان الأخيران من كتابه الرائع عن

الأجناس البشرية عرضاً مبتكراً للتاريخ البشرى من العصر الجيرى القديم حتى الحضارة المعاصرة ونشره في ضوء الاتجاهات الأنثروبولوجية . وعلى الرغم من أن هناك كثيراً من المؤرخين الفلاسفة مثل باكسل Buckle ، دراير ، سينجلر ، شيني Cheyney ، ممن عرضوا قوانين افتراضية متعددة بخصوص تقدم البشر أو اضمحلاله ، فإن مدرسة لامبرخت ، بريزج هي المدرسة الوحيدة التي أسهمت بصورة جدية في هذه الناحية . ويشعر الكثيرون من أن قدراً كبيراً مما صاغه لامبرخت وبريزج يتضمن في افتراضاته المنهجية كثيراً من نفس الأخطاء التي وقعت فيها مدرسة مورجان عن علم الأجناس البشرية . ومن بين المؤرخين القلائل الذين أتقنوا أحدث المناهج في دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية إدوارد ماير ، ج . ل . مايرز ، جيمس طومسون شوتويل ، جيمس هارفى روبنسون ، ت . ف . ج . تيجارت .

هذا إلى أن علم الأجناس البشرية فيما يختص بمسائل الجنس والدين ساعد على تحرير المؤرخ من التعصب الوطنى والفكرى ، فمئذ جيل واحد مضى كان أبرز المؤرخين وأكثرهم موضوعية واقعا تحت تأثير جوبينه Gobineau بنظرياته الشاذة غير المقبولة القائلة بتفوق الجنس الأبيض وتفوق المجموعة الآرية من بين هذا الجنس الأبيض . ولم يكن هناك تأثيراً أكثر ضرراً وإساءة بالموضوعية التاريخية من تأثير الأساطير المتعلقة بفكرة وحدة الجنس وثباته (البرهان) على ما يترتب على هذه الفكرة من الإحساس بتفوق جنس أو تخلف آخر . ويستثنى من ذلك الشعور بالتفوق القومى الذى نما من نفس هذه الخرافة .

وكان أن أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية الناقدة الحديثة كيف أن مفهوم الجنس مطاط لا يسهل تحديد مدلوله ، كما تبين صعوبة اكتشاف أى معيار طبيعى ثابت ذى أهمية كافية يمكننا من تحديد هذا المفهوم وأثبتت هذه الدراسات كذلك مدى الخلط الكبير بين الأقسام المتفرعة من الجنس وكذلك درجة التنوع الكبيرة للفروع الموجودة داخل كل قسم من هذه الأقسام الفرعية . يضاف إلى ذلك . ما أكدته هذه الدراسات من أنه ليس هناك جنس آرى متفوق له السيادة ، كما أنه لم يكن هناك وجود لهذا الجنس فى أى وقت مضى . وقد أوضح الأساتذة بوس .. أ . ف . شامبرلين ، أن الفروق بين الأجناس المختلفة فى مستواها الثقافى يمكن أن تفسر تفسيراً كافياً دون التورط فى فروض حول وجود فروق فى المقدرة العنصرية المتأصلة كذلك أوضح هذان الأستاذان صعوبة إثبات التفوق الشامل للأجناس إذا ما أخذ فى الاعتبار عنصر التكيف مع البيئة . وباختصار فإن مشكلة الجنس فى الوقت الحاضر غامضة ومتداخلة وغير محددة بحيث ينبغى

بل يشتم أن يتناولها المؤرخ في حذر بالغ ، مهما يكن من أمر تلك الحقائق المؤكدة التي يمكن أن ينتزعها علماء النفس والأحياء من وسط هذا الغموض .

ويعتبر الملخص التالي الذي كتبه كارل بيرسون Karl Pearson عن شارل دارون برهانا قاطعا على عدم جدوى الافتراض العنصري في التاريخ : (لقد شاعت فكرة الارتباط الوثيق بين الحالتين العقلية والبدنية عند القيام بتحديد أصول أفراد معينين يعيشون داخل مجتمع بشري ، بمعنى إرجاع كل فرد إلى الجنس الذي ينتمي إليه من جملة الأجناس التي يتألف منها شعبنا . ونحن نتحدث كما لو كان شعبنا هو الذي تحقق فيه هذا المزج بصرف النظر عن موضوع الوراثة . وبعبارة أخرى فقد جرت العادة أن نتحدث عن نموذج من المواطنين الإنجليز وليكن هذا النموذج هو شخص شارل دارون الذي نعتقد أن عقله يعتبر نموذجا لعقل الإنجليز) .

ولكن عندما ندرس أصل دارون وسلالته نجد أنفسنا نبحث دون جدوى عما نسميه (نقاء الجنس) ذلك أن هذا الإنجليزى ينحدر من أربع سلالات متباينة من صغار الملوك الأيرلنديين ، فضلا عن عدد مماثل من سلالات الاسكتلنديين الذين يرجعون إلى الأصل البكتي فضلا عما يجري في عرقه من دم ألماني . كذلك تربطه ثلاثة خطوط على الأقل بالملك الفرد العظيم . ومن ثم فهو يرتبط بالدم الانجلو سكسونى وكذلك يرتبط بصلات مع شارلمان . والكارولنجيين ، كما ينحدر من أباطرة ألمانيا السكسونيين وكذلك بارباروسا والهوهنشتاوفن . وجرت في عرقه دماء فرنجية ونورمانية كثيرة وله صلة قرابة بدوق بافاريا وبدوق سكسونيا ودوق فرنדרز وأمراء سافوى وملوك إيطاليا كما جرت في عروقه دماء فرنجية وألمانية وبرجندية ولانجوباردية وله أيضا قرابة مباشرة مع حكام المجر من الهون واباطرة القسطنطينية البيزنطيين . وإذا كان تقديرى سليما فإن إيفان المخيف يمثل صلة دارون بالروس ، وليس من المحتمل أن يكون هناك جنس أوروبى لم يشترك في نسب شارل دارون . وإذا كان من الممكن أن نتبين مثل هذا العدد الهائل من خطوط الأنساب في شخص مواطن إنجليزى واحد ، ومثل هذا الاختلاط الكبير في جنسه فانه يمكننا أن نؤكد أنه لو توافرت لدينا معلومات مماثلة لتبيننا أن الدماء التي تجري في عروق أى مواطن إنجليزى ليست أكثر نقاوة من دماء دارون .^(١)

(١) (المجلة العلمية الشهرية نوفمبر ١٩٢٠ صفحات ٤٢٥ ، ٤٣٦ Scientific Monthly . أما أحسن دراسة تاريخية ناقدة فتبدر في كتابه : . F. H. Hankins : The Racial Basis Of Civilization Knoff 1926 .

وعليها أن نحذر بصفة خاصة من كتابات المدرسة الجونبكية الجديدة لأنها تنافي المنطق وتتسم بالسخافة ومن أمثلتها كتاب ماديسون جرانث (نظرة على الجنس العظيم) والواقع أن هذه المؤلفات التي تعبر عن المذهب العنصري الزائف لا تقل سوءاً عن المعتقدات الآلية لماكسي مولار Max Muller وجيله وهي العقائد التي أحيها هتلر والنازيون في ألمانيا .

ومع ذلك فإن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية والباحثين في مشكلة السكان من وجهة النظر البيولوجية قد لفتوا النظر إلى أهمية الفوارق في السمات والقدرات بين أفراد الجنس الواحد والجماعة الواحدة ، وهذا يقودنا إلى أصل مشكلة الديمقراطية . هذا إلى أن علماء الأجناس البشرية أوضحوا — علاوة على ذلك — أنه قد توجد مادة تاريخية وثقافية هامة في تلك العمليات الاجتماعية مثل اختلاف معدل المواليد والاختلاط العنصري والهجرة .

كذلك فإن علم الأجناس البشرية فعل الكثير من أجل الإقلال من التعصب عند تناول مشكلة تاريخ الدين من ذلك أن التحليل الأنثروبولوجي للأصول الدينية أوضح أن هناك تشابهاً كبيراً يظهر في أصول الديانات وفي الأشكال التي اتخذها رد الفعل تجاه مسائل ما وراء الطبيعة عند شعوب الأرض قاطبة فضلاً عن أنماط السلوك النفساني المرتبط بالظواهر الدينية . وقد أوضح العلماء كذلك مقدار التجانس الكبير في الجوهر والأساس للنظم والشعائر الدينية رغم اختلاف أشكالها وصيغها الخارجية وطبق هذا الأسلوب التحليلي على كل من اليهودية والمسيحية هيوبرت Hubert ، موس Maus ، جاردنر Gardner ، كونيبيير Conybeare وغيرهم ودلت أبحاثهم على أنه لا يوجد سند من الحقائق يثبت أو يؤيد استعلاء ثقافة أو تاريخ شعب من الشعوب وبمعنى آخر فإن تطبيق الأنثروبولوجيا على دراسة الظواهر الدينية يزودنا برؤيا طويلة الأمد كما يزودنا بوجهة نظر مقارنة ، وبشكل هذان الأمران معاً أحسن قاعدة ممكنة للتسامح الديني وعدم التعصب . وإذا كان علم الأجناس البشرية يثبت أن ما يوجد من تعصب واستعلاء في نظرة اليهود إلى غيرهم وفي نظرة كل من البوذيين والمسلمين إلى بعضهم البعض أمر لا أساس له على الإطلاق ذلك أنه كم تتنافى مع العقل تلك الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الميثوديين والمشيخيين وبين المعمرانيين الشماليين والجنوبيين . وتعتبر المؤلفات التالية خير مرجع لمن يريد تتبع تاريخ النظم الدينية عند أي شعب (كتاب الديانة البدائية) للكاتب لوي Lowie ، وكتاب (المدخل إلى العقيدة) وكتاب (طقوس الجماعات البدائية) للكاتب ماريت Marett وكتاب (أورفيوس لريناخ Reinach) ، وكتاب الديانة المقارنة لكابنتر Carpenter ، وكتاب تاريخ الدين لمور Moore ، وكتاب ديانة الغرب للارسون Larson .

التاريخ وعلم الآثار

أدى الجانب المتبقى من علم الأجناس البشرية وهو الجانب المعروف بعلم آثار ما قبل التاريخ خدمات عظيمة للتاريخ . ذلك أن هذا العلم كشف لنا عن تاريخ الفترة الطويلة التي سبقت عهد الإنسان بالكتابة وهي فترة أطول بكثير من عصر التاريخ المدون ، ولها تقريبا نفس الأهمية من حيث التقدم الكبير الذي حققته البشرية وهذا العلم الذي غرست بذوره في الفترة من عهد طومسون وبوشردى برثر إلى عهد ديكيلت وما كردهى وهو على الأرجح أدق فروع ما قبل التاريخ وأعظمها تأثيرا كما أنه في الحقيقة يؤدي وظيفة الجسر الذي يربط بين علم الأحياء المتطور والثقافة البشرية حيث إنه يتعقب الدلائل المادية التي تثبت التطور التدريجي للإنسان من مرحلة القرد إلى مرحلة البشرية بخصائصها الطبيعية والثقافية الواضحة . ففي المقام الأول نجد أن علم الآثار القديمة يعطينا برهانا قاطعا على وجود طويل الأمد للحياة والثقافة البشرية قبل نشأة التسجيلات المدونة . ومهما تكن الطبيعة الحقيقية لخلق الإنسان أو أصله فإن علم الآثار القديمة قد بين لنا أن أكثر الحكايات الرمزية والدينية بطولية لا يمكنها حتى أن توفق بين التاريخ المسيحي من ناحية وبين ما ثبت وجود أدوات إنسانية يرجع تاريخها إلى عدة مئات من ألوف السنين من ناحية أخرى . وفي المقام الثاني فقد اتضح من خلال السجل الموجز للجهود الثقافية في فترة ما قبل الكتابة أن علم الآثار القديمة قد زودنا بعرض رائع للأدوات الثقافية للإنسان والتي استخدمها تقريبا في نفس الوقت الذي قبل أنه تاريخ خلق آدم . ولم يدخل على هذه الأدوات أى تطور مادي كبير إلا في أيام الثورة الصناعية ومن ثم فإن العلم الذي يدرس الآثار القديمة لعهد ما قبل الكتابة هو المصدر الأساسي لذلك النوع من المعرفة الذي يجعل علم الأجناس البشرية المدخل إلى التاريخ فالكاتب من أمثال تلك التي ألفها كونيلى هارولدليك Harold Peake عن الحياة اليومية في عصور ما قبل الكتابة تشكل المقدمة المثالية المقبولة لتاريخ المجتمع والثقافة المادية ، فضلا عن أنها في نفس الوقت وكما أوضحنا آنفا تزيل كل ما هنالك من غموض واضطراب حول (فجر التاريخ) .

والحق أن ما أسهم به علماء الآثار في سبيل الوصول إلى فهم أفضل للعصور التاريخية أمر معروف تماما . فمنذ قرن مضى كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم لا تتعدى إشارات معينة غامضة وردت في العهد القديم وفي كتابات بيروسوس وهيرودت ويوسيفوس ، فضلا عن أعمال بعض المؤرخين الأقدمين . أما الآن فلدنيا سجل مؤكد تام إلى درجة كبيرة عن حضارة مصر وبلاد

ما بين النهرين وبلاد الأناضول والشام وبحر إيجه وجزيرة كريت . ويرجع الفضل في الحصول على الجزء الأعظم من هذه المعلومات القيمة إلى الحفريات التي قام بها علماء الآثار . وفي دراسة الحضارة الكريتية والأتروسكانية نجد أن علم الآثار هو مرشدنا الرئيسي حيث إن العلماء لم يتمكنوا من حل رموز تلك اللغات حلا كاملا . وعلى الرغم من أننا نستطيع الاعتماد على المصادر المدونة في دراستنا للتاريخ اليوناني والروماني القديم بدرجة أكبر مما نستطيع ذلك في حالة تاريخ الشرق القديم . فإن كثيراً من معلوماتنا الدقيقة عن التاريخ الإغريقي قبل هيرودوت وعن التاريخ الروماني قبل سنة ١٩٠ ق . م يعتمد قليلاً على أعمال علماء الآثار . ومن كبرى الخدمات التي أداها علم الآثار - وإن كانت هذه الخدمات يعرفها الكثيرون - مؤلف ديكليت عن (آثار بلاد غاليا) إذ بين هذا الكتاب الحضارة الغالية في تلك البلاد قبل عهد قيصر ، كما أنه أزاح عن بلاد الغال كثيراً من الغموض الذي أحاط بها نتيجة لأعمال أولئك الذين غلبوا مصالحهم الذاتية وكرسوا جهودهم للطعن في يوليوس قيصر فضلاً عن احتقار المؤرخين التوتون لبلاد الغال . أما الآن فقد أصبح المدخل المقبول لدراسة تاريخ أوروبا الغربية هو البحث في الحضارة الغالية القديمة شمالي جبال الألب . وهي الحضارة التي استمرت من عصر سكان البحيرات إلى أيام كلوفس ملك الفرنجة والتي أسهمت بشكل رائع في تاريخ الثقافة في أوروبا . كذلك أحدث إيليس هـ . مينز Ellis H. Minns ثورة في معلوماتنا عن روسيا الجنوبية بكتابة (الشعوب الاسكتية والإغريق) . هذا بالإضافة إلى ما أمدتنا به دراسة الآثار الأمريكية من معلومات هائلة عن ثقافة السكان الأصليين لأمريكا من الهنود وأن كانت هذه المعلومات أقل قيمة من الناحية التاريخية بسبب دخول الثقافات الأوربية عليها وفشل الثقافة الهندية الأصلية في التطور والامتداد نتيجة لذلك .

نظرة أحدث عن تطور التاريخ

لعل أعظم الفوائد التي جناها علم التاريخ من علمي الأحياء والأجناس البشرية هي تلك النظرة الجديدة للتطور التاريخي ، أي تلك التغيرات التي تجلت في ظهور اتجاهات جديدة في نظرتنا إلى ماضي الإنسان ومستقبله .

لقد كان الرأي القاطع الذي تقبله معظم العلماء حول أصل الإنسان حتى الجيل الماضي هو ذلك

الذى وضعه كبير الأساقفة جيمس أوشر في كتابه « حوليات العهدين القديم والجديد » وهو الكتاب الذى صدر سنة ١٦٥٠ وما لبث هذا الرأى أن نقحه بعده بوقت قصير الأستاذ لا يتفوت Lightfoot ، وكيل جامعة كامبردج وهو الذى ذهب إلى أن ظهور الانسان كان نتيجة عمل خلاق تم فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . . ويعنى هذا أن الإنسان له أصل إلهى مؤكد كما أن ما يحيط به وما سخر له من أدوات كانت هى الأخرى من صنع الله وحكمته على أن النظرة البيولوجية والأنثروبولوجية للتاريخ جاءت على النقيض من ذلك تماماً ، إذ تركز وجهة النظر الحديثة على الرأى القائل بوجود حياة طويلة جداً للإنسان على الأرض وأن أسلاف الإنسان من الكائنات الأخرى غير البشرية أكثر قدماً ، كذلك ثبت أن التطور البيولوجى والتقدم الثقافى للإنسان كان تطوراً تدريجياً . وفى تعقبنا لخطوات التطور البشرى والاجتماعى لانصاف جنة دائماً خالية من الحيوانية ومع الاعتراف بوجود حالات من التخلف الأكيد فى الماضى وبصرف النظر عن المشكلة الجدلية الخاصة بتحسين الجنس من الناحية البدنية إلا أنه لا يوجد شك فى إمكان تحقيق التحسن المطلق فى الثقافة والنظم إذا ما تيسر استغلال الامكانيات المتاحة للعقل البشرى استغلالاً كاملاً . وبدلاً من ذلك التخلف الناتج عن الجمود يمكن أن تكون النظرة إلى التاريخ حركية مفعمة بالتفاؤل . هذا على الرغم من أنه يستحيل علينا أن ندافع بنجاح عن وجهة النظر الغائبة أى التى تستهدف الغاية . كما يستحيل أن نقول إن كوكبنا لا يمكن فى وقت ما أن يتلاشى من الوجود نتيجة لقدر بسيط من الاضطراب فى نظام الكون أو تغيير طفيف فى نظام الوراثة وحتى وقت يقدر بأربعين أو خمسين الف سنة مضت كان التقدم الثقافى يسير فى خط متواز أو ربما متساو مع التطور البيولوجى ولكن لا توجد هناك أدلة كافية على حدوث أى تحسن بيولوجى وعصبى منذ وقت ظهور النوع الكرومانيونى Cro-magnon type ونتيجة لذلك فإن التطور البشرى صار يعتمد أكثر وأكثر على التقدم فى ميادين الثقافة والفكر ، الأمر الذى أدى بالإنسان إلى الاعتماد بصورة أكيدة على إعداد القوت بدلاً من التقاطه من الطبيعة على أن هذا لا يعنى إنكار قوة الأنواع البشرية الراقية أو فاعلية برامج تحسين النوع إذا ما أخذ بها فعلاً فيما يتعلق بإمكان زيادة سرعة التقدم البشرى بطرق صناعية فليس هناك شك حول قدرتنا على تحسين ثقافتنا المادية من ذلك أن إنجازاتنا منذ الثورة الصناعية مذهلة إلى أقصى حد ولكن المشكلة الكبرى هى كما عبر عنها فيبلن Veblen وأوجبرن Ogburn هى هل يمكننا أن نضمن تحسناً متشابهاً فى تراثنا الاجتماعى وبصفة خاصة فى نواحي النظم أم أن الحضارة سوف تندثر بسبب ذلك التفاوت المميت بين التكنولوجيا ونظمنا الاجتماعية .

ومع ذلك فإن الاتجاه التاريخي يعطينا قاعدة قوية تلهمنا الصبر عندما نحاول أن نجري تحسينات في نظمنا الاجتماعية . ذلك أن الوقوف على التفاعل الطويل الممل في بعض الأحيان والذي أدى بنا إلى الحالة التي نحن عليها الآن يحول بيننا وبين المبالغة في التشاؤم عندما نلمس كيف نسير في ببطء على طريق الإصلاح والتحسين . فنحن نتحرك في معظم النواحي بسرعة أكبر من أي وقت مضى حتى ولو لم يكن هناك ما يؤكد أننا نسير في الاتجاه الصحيح أو بالسرعة الكافية . ولا توجد هناك حضارة استطاعت أن تفر وتوقف في أمان ؛ فالتقدم والاضمحلال هما سنة الطبيعة ولعل مكن الخطر في موقفنا الحالي هو ذلك العنصر الذي لم يوجد من قبل والذي يتمثل في قدرة التكنولوجيا الجديدة على تدمير البشر والثقافة فإذا أمكننا تجنب الحرب حتى نتبع لقدراتنا الذهنية فرصاً أخرى لمعالجة مشاكلنا الحالية المعقدة فقد نتمكن من الارتقاء بنظمنا إلى مستوى الكفاية الذي تتميز به التكنولوجيا الآن .

هذا إلى أن المفهوم الجديد للتاريخ يزودنا كذلك بإحساس سليم لمعالجة مشكلة التقدم وهو أساس أعظم بكثير مما توفر لكتاب مثل فيكو Vico وتيرجو Turgو وكانط ، كوندورسيه Con-dorcet وهم الكتاب الذين أرسوا في القرن الثامن عشر قواعد نظرياتنا الحديثة عن التقدم . ذلك أن الأمر لم يقتصر على جهل أولئك الكتاب بعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية الحديثة ، بل إنهم كانوا يفتقرون كذلك إلى المعرفة بالتطور البطيء الذي حققته الثقافة البشرية في المليون سنة السابقة على آدم . يضاف إلى ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على التنبؤ بالتقدم المذهل في العلم والتكنولوجيا الذي أخذ يظهر منذ زمانهم وكان أن أعطى علم الأجناس البشرية الحديث وعلم التاريخ — بموازرة التقدم الهائل في العلوم الطبيعية والاجتماعية — الأساس لنظرية تخريرية للتقدم . وذلك على الرغم من أننا نعترف صراحة بأن التقدم في مجالات معينة من الثقافة كان أكثر وضوحاً عنها في غيرها هذا بالإضافة إلى أنه من الطبيعي جداً أن تكون كافة معايير التقدم شخصية وذاتية إلى حد ما .

عملية تقويم التاريخ وتقسيمه إلى فترات

يشكل التقويم الزمني للتاريخ في حد ذاته جزءاً ممتعاً في عملية تطور التاريخ . وقد سبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع . ولذا فإنه لا يسعنا سوى أن نمر عليه مروراً عابراً في هذا الجزء ذلك أن

الاهتمام العام بالتقويم الزمني للتاريخ ظل ضئيلاً حتى عهد الآباء المسيحيين الأوائل — لأنه حتى المؤرخين أنفسهم — لم ينجحوا بصفة عامة في اكتشاف الماضي وكان القسيس وليس المؤرخ — على حد ما أوضحه الأستاذان ويبستر وشوتويل — هو الذي اكتشف عنصر الزمن وكيفية حساب التواريخ كذلك كانت الكتابة التاريخية في خالبيتها العظمى حتى العهد المسيحي عبارة عن تاريخ معاصر وإذا تعرضت بإشارات إلى الماضي فإنها كانت غالباً إشارات غامضة وغير دقيقة من وجهة النظر التاريخية . وإذا كان مؤرخ اليوم قادراً على وضع تقويم زمني مقبول لتاريخ الشرق القديم عن طريق الاستعانة بقوائم الملوك وغيرها من سجلات البلاط ، فإن الشعوب نفسها في تلك العصور لم يكن لديهم أى تقييم زمني منظم للتاريخ ولم يتوصل المؤرخون الإغريق إلى أكثر من ذلك التقويم الأولي الذي أدخل في عهد طيماوس حوالي سنة ٢٣٠٠ ق . م والذي كان يعتمد على السنوات الأولمبية في تحديد التواريخ أما المؤرخون الرومان فكانوا أكثر نجاحاً في هذا المجال إذ ابتكروا تقويمياً علمياً معقولاً حين أرخوا لحوادثهم على أساس التاريخ المزعوم لإنشاء روما سنة ٧٥٣ ق . م . ولكنه من الواضح أن هذا النظام كان لا يمكن المؤرخ من أن يحول ببصيرته في ذلك الماضي العميق الذي يبدأ بفجر التاريخ ، هذا على الرغم من أن نيبوس Nepos ابتدع طريقة جداول تاريخية مقارنة .

وعلى الرغم مما يحتويه التقويم الذي وضع على عهد آباء الكنيسة الأول من غرابة وشذوذ إلا أن هذا التقويم له فضل محاولة إيجاد نظام تقييم زمني يضم كل العصور التاريخية . ومن الثابت أن الافتراض المسيحي القائل بأن خلق الإنسان تم في فترة لا تبعد عن ستة آلاف سنة عن مولد المسيح كان غير كاف بأي حال للتوصل إلى تقويم زمني شامل ، وكذلك فإن اختيار التاريخ العبراني أساساً لوضع جداول تاريخية مقارنة قد أعطى مكانة مبالغاً فيها لتاريخ اليهود على حساب بقية تاريخ الشرق القديم . ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين المسيحيين هم الذين بحثوا بدقة مشكلة تقويم الماضي ، وحتى الآن والجهو تبذل لزيادة تحرى الدقة في التقويم الذي وضعه جوليوس افريكانوس ، ايزيبوس ، وجيروم . وهذا العمل من جانب الدارسين يأخذ في بعض الأحيان شكلاً أكثر تحديداً كما في حالة أوشر ولايتفوت وأحياناً أخرى يتخذ شكلاً علمياً يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر كما في حالة سكاليجر وكليمنت .

وجملة القول أن جميع أنواع التقويم التاريخي حتى وقتنا الحاضر تتصف بعدم الدقة وعدم القدرة على توجيه الباحث توجيهها صحيحاً . ذلك أن المعايير التي اتخذتها هذه التقاويم أساساً

كانت إلى حد كبير ترتكز عادة على حادث ديني أو قومي خاص مثل ميلاد المسيح أو الهجرة المحمدية أو قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى في الشرق الأوسط وليس لأى من هذه الأحداث من الموضوعية أو القيمة الثقافية العالمية ما يجعل منه أساساً مناسباً لتقويم التاريخ العالمى ، بل إن عدم كفاية هذه الأحداث من ناحية عنصر الزمن كفيل بأن يزيد الموقف تعقيداً . يضاف إلى ذلك أنها وقائع حديثة نسبياً إذا ما أخذنا في الاعتبار أن سنة ٦٠٠٠ ق . م هي أقدم ما افترض من تاريخ للخلقة في أكثر التقاويم امتداداً وتساهلاً . ويمكن أن يعاد بناء تقويم التقدم البشرى على أساس ما تحقق من معرفة بيولوجية وأنثروبولوجية على النحو التالى : ذلك أن الأساس العام للتقويم التاريخى يقوم غالباً على المعرفة الفلكية ، لأن الفلك هو الأساس الذى يكشف عن الامتداد الهائل للكون وضآلة حجم كوكبنا وقصر عمره نسبياً . وهذه بلا شك أخطر المراحل وأقلها وضوحاً في تطور البشرية . ثم يلي ذلك مرحلة العصور الجيولوجية في تطور الأرض ، وهي الفترة السابقة على نشأة الحياة والتي تثبت بالتأكيد أنها أطول بكثير من تلك الفترة التي انقضت منذ بداية ظهور الأحياء الأولية . وبعد ذلك تأتى مرحلة بداية الحياة وأصلها . ولدينا بالنسبة لهذه المرحلة مرشد يتمثل في سجلات علم الحفريات ، وهي فترة تتناول حقبة زمنية أطول من أن يجرؤ أى جيولوجى على التعبير عن طولها بالنسبة لأنها تزيد عن مليون سنة . وتأتى بعد ذلك مرحلة متأخرة جداً عن ذلك من وجهة النظر الجيولوجية وهي التي تمثل العصر التلثى الذى خرج فيه الإنسان إلى الوجود وكان ذلك منذ حوالى خمسة ملايين سنة .

ومن الآن فصاعداً نجد تحت أيدينا التقويم الذى اعتمد حفريات عصر ما قبل الكتابة والذى يستند إلى البحوث التي أجراها الباحثون من « طومسون » حتى « تورتيليه » ، « ديكليت » ، « ماكردي » . وينقسم هذا التقويم إلى العصر الحجري وعصر المعادن . أما العصر الحجري فينقسم بدوره إلى أقسام ثلاثة هي العصر الأيلوتى — الباليوتى — النيولوتى [القديم — الأوسط — الحديث] ولكل قسم منها فروعته التي يطلق عليها العلماء أسماء معقدة وصعبة . وأما العصر المعدنى فينقسم بدوره إلى عصور النحاس والبرونز والحديد والصلب . وتجري الآن مراجعة تاريخ العصر الحجري . وترجع بداية العصر الحجري القديم إلى أكثر من مليون سنة ، في حين ترجع بداية العصر الحجري الأوسط إلى أكثر من مليون سنة والحديث إلى ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين ألف سنة . أما عصر النحاس فمن المرجح أن يكون قد بدأ في مصر حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م . وظهر عصر البرونز الحقيقي في منطقة بحر إيجه حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م ، بدأ

عصر الحديد في الأناضول حوالى سنة ١٣٥٠ ق . م عند الهيتيين . ويمكن أن يقال إن عصر الحديد يضم الحضارة الغربية ابتداء من القرن الرابع عشر ق . م حتى الثورة الصناعية التي انتجت العصر الحقيقى للصلب بكل متضمناته وأقسامه . ولعل التقسيم الأساسى لتاريخ الجنس البشرى منذ بداية العصر المعدنى هو كما يلى :

١ - عصر الرعى والزراعة الذى يتميز أساساً بالعزلة النفسية والثقافية والركود والتكرار وهى الأمور التى تحكممت فى المجتمع حتى مجيء الثورة الصناعية .

٢ - عصر الحركة المعاصرة الذى شهد الرأسمالية والتصنيع وحياة المدن .

ومع ذلك فإنه من السهل جداً ملاحظة أن هذا الملخص المعقول للتقويم الأحداث والأكثر شمولاً ليس إلا موجزاً جزئياً غير تام حيث إنه يركز أساساً على الثقافة المادية . ففى مجال هذه الثقافة حدث أكبر تقدم كما أن فيه أيضاً يمكن بسهولة اقتفاء أثر التطورات والتغيرات . وهكذا يتضح أنه بالنسبة لجوانب معينة أخرى من التطور الثقافى يلزم نظام آخر للتقسيم الزمنى . وعلى الرغم من أن النظام الذى عرضناه فيما سبق ربما تضمن عدداً من جوانب التطور الحضارى أكثر من تضمنه أى نظام آخر فإن التقويم المعترف به لا يزال يقوم على أساس الحادث الذى انفرد باختياره كل من ديونيريوس اجزيجيوس Dionysius Exigieus ، وبيد Bede . ونعنى بهذا الحادث على وجه التحديد ميلاد المسيح . وإذا كان هذا الاختيار يعنى بالأغراض العملية كإى اختيار آخر ؛ فإن الأسباب الخاصة التى دعت إلى استخدامه - كما تراءت لكتاب العصور الوسطى - لا تبدو معقولة أو وجيهة على الإطلاق بالنسبة لمعظم المؤرخين التقدميين . أما التاريخ الذى يبدو أكثر صلاحية ليكون أساساً للتقويم فهو على الأرجح سنة ٤٢٣٦ ق . م أى التاريخ الذى اتخذ فيه قدماء المصريين التقويم الشمسى أساساً لحساب الزمن ، وهذا هو أقدم تاريخ مؤكد ثابت فى تاريخ البشرية ، ولا يمكننا أن نتوقع وجود تواريخ محددة سابقة عليه . وكل الذى نصادفه لا يتعدى فترات أو عصوراً وحقياً .

وينبغى أن يكون واضحاً لكل فكر أن هذه المفاهيم الجديدة الخاصة بالتقويم الزمنى كان له تأثير ثورى على الجهود التقليدية فى مجال تقسيم التاريخ إلى فترات . ذلك أن طريقتنا الحالية لتقسيم التاريخ إلى عصور وفترات نشأت بشكل عشوائى وبالتالي فليس هناك أساس معين لنجاحها أو استمرارها . ولم يكن عند الآباء المسيحيين سوى فترتين هامتين فى التطوع البشرى .

١ - العصر الوثني الذي انقضى منذ آدم حتى ميلاد المسيح والذي لا يخفف من وزره سوى وجود الثقافة اليهودية ذات التوجيه الإلهي .

٢ - العصر المجيد الذي لاح فجره بميلاد المسيح .

وكان أن استمر الأخذ بهذا التقسيم طوال العصور الوسطى وذلك بفضل ما فعله « اورزيوس » من أجل تثبيت التراث الثقافي الأوربي إذ ظل مؤلفه حول التاريخ العالمي هو الكتاب المقبول حتى وقت ظهور « سايلكوس » في عصر الحركة الإنسانية . ونلاحظ في كتابات « أوتو » المنسوبة إلى « فريزنج » الجمع بين نظرة « أورزيوس » والإدراك الضئيل لمغزى الفترة التي وصلت بين « أوتو » والعصر الأوغسطيني . أما فيلافوس بلوندوس « غربا كان أول من نظر إلى العصور الوسطى على أنها فترة متميزة إلى حد ما ، فترة اتصفت بقيام الدول الجديدة في شمال غرب أوروبا في أعقاب اضطحلال قوة روما .

وهناك أيضاً حنا بودين Jean Bodin الذي قسم التاريخ البشري إلى التاريخ الشرقي وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتاريخ أوروبا الشمالية . ويبدو أن التقسيم الحالي الثلاثي التقليدي الذي يقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث إنما يعزى إلى تأثير كاتب هولندي من أتباع المدرسة الإنسانية هو كريستون كيلر « (كيلاريوس) .

ويبدو ما في هذا التقسيم من نقص أمام كل مؤرخ عَميق التفكير ، فهو في المقام الأول يتجاهل أكثر من تسعة أعشار فترة الوجود البشري على الأرض . وفي المقام الثاني فإنه لا يوجد توافق زمني عام بين مختلف ثقافات شعوب الأرض مما يسمح بمثل هذا التقسيم المحدد للتاريخ العالمي ، فأي مقارنة بين حالة الثقافة في كل من مصر وبلاد ما بين النهرين الهند والصين وبريطانيا وكاليفورنيا في سنة ٤٠٠٠ ق.م سوف تظهر التنوع الهائل في الثقافة التي تنطوي تحت قسم زمني واحد . وكذلك تظهر نفس الحقيقة عند مقارنة حضارة اكس لا شابل بحضارة القسطنطينية سنة ٨٠٠ ميلادية ، أو عند مقارنة حضارة كل من إنجلترا وروسيا والصين سنة ١٨٢٥ ميلادية . وفي المقام الثالث نجد أن مثل هذا التقسيم ليس كافياً حتى بالنسبة لتاريخ دولة واحدة كما يتضح ذلك من مقارنة ثقافة ألمانيا سنة ٥٠٠ ميلادية بثقافة بلاط الإمبراطور فيردريك الثاني . وكلا منها تقع في الفترة المسماة بالعصور الوسطى .

وإذا كنا سنختار الاحتفاظ بهذه الاصطلاحات والتقسيمات القديمة ، فإن علينا أن نوسع مجالها بحيث تغطي فترات أطول . فمن الأمور المنطقية بوجه عام القول بأن التاريخ القديم يتضمن الفترة من وقت ظهور الإنسان حتى نهاية العصر الحجري الأوسط ، ويضم تاريخ العصور الوسطى فترة العصر الحجري الحديث ، في حين يضم التاريخ الحديث الفترة من عصر المعادن حتى الثورة الصناعية . أما التاريخ المعاصر فيشمل الفترة ما بين الثورة الصناعية ووقتنا الحاضر . ولكن المشكلة تكمن في ما إذا كنا بحاجة على الإطلاق للاحتفاظ بهذا النظام العتيق لتنمية العصور . يضاف إلى ذلك أن أى تقسيم علمي للتاريخ في المستقبل لابد وأن يكون متعدد الجوانب ، له حدوده المتميزة الفاصلة وخصائصه الواضحة . ففي بعض مراحل الثقافة مثل التكنولوجيا والنظم الاقتصادية تبدو أنماط معينة للتجمع والتقدم ولكن يبدو أن الدين والفن لا يخضعان لهذه القاعدة ولذا فإنه سوف يكون هناك دائماً تفاوت كبير بين ثقافات دول العالم المختلفة . وهكذا فإن تقسيم التاريخ في المستقبل لابد وأن يقتصر على نمط معين من التطور الثقافي في دولة معينة أو حقبة ثقافية محددة .^(١) وقد يترتب على ذلك ارتباط في ناحية التعليم ، ولكنه نظام أدعى إلى دقة تاريخية أكبر وتميز أعظم . ويبدو اقتراح « لامبرخت » على قدر كبير من الوجاهة ، وهو الاقتحام الذي يقضى بنحو الطرق القديمة لتقسيم التاريخ إلى فترات . ويدعو إلى الأخذ بطريقة جديدة تقوم على تنابع أنماط سائدة من السيكولوجية الجماعية . وهذا الاقتراح جدير بأن يزكى لدى المؤرخ سواء قبل أم لم يقبل رأى « لامبرخت » الخاص بالتقسيم الاجتماعي السيكولوجي للتاريخ . وأخيراً فإن مفهوم استمرار التاريخ يمثل تحدياً ظاهراً لأية خطة تستهدف تقسيم التاريخ إلى فترات محددة .

العوامل الجغرافية في التطور التاريخي

ذكر الفيلسوف الألماني « هرر Herder » أن التاريخ البشرى ليس في أساسه سوى التعبير المتغير للفكر البشرى " Geist " كما حورته وعدلت منه الظروف الخارجية المحيطة . وأهم هذه الظروف الخارجية هي البيئة الطبيعية . ذلك أن المؤرخين تأثروا كثيراً بـ « هيجل » وبحماسه

(١) انظر كتاب الفنون والحضارة لمؤلفه ليون مافورد Lewin Mumford (طبعة هاركويت براس ١٩٣٤) .

للمطلق والدولة ، كما تأثروا بـ « كارليل Carlisle » ورأيه القائل بأن عظماء الرجال هم مبعوثو العناية الإلهية . لذلك نجد التاريخ في القرن التاسع عشر قد سيطرت عليه إلى حد بعيد ظاهرة التمسك بالمفاهيم الدستورية والقومية والتأثر بذكر أحداث البشر وقصصهم ، ولذلك لم يشعر بأهمية « كارل ريتز » سوى قلة قليلة ، كما لقي « باكل Buckle » كل استهزاء ، ولم يعبأ أحد . بـ « راتزل Ratzel » . بل إنه حتى في أيامنا هذه كشف مؤرخ أمريكي النقاب عن انتقال المؤثرات الفكرية عبر القارة الأمريكية بصرف النظر عن المصالح الاقتصادية أو الفواصل الجغرافية^(١) . وهكذا أصبح المؤرخون تدريجياً أكثر إدارة للحقيقة الخاصة بأن تصرفات الإنسان لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً أو توصف وصفاً دقيقاً إذا ما فصلت عن إطارها الطبيعي . ولدينا بعض الأمثلة الواضحة لازدياد تقدير المؤرخين لمغزى وأهمية المعلومات الهائلة التي وضعها تحت تصرفهم الباحثون في الجغرافية الطبيعية والجغرافيا البشرية .

والواقع أن الاهتمام بعلاقة العوامل الجغرافية بالنظم الاجتماعية والثقافة البشرية أمر قديم قدم التاريخ ذاته « فأبوقراط » أبو الطب — كان معاصراً « لهيردوت » و« ثيكوديدس » — كان أول من كتب عن هذا الموضوع ولو بشكل عارض عندما كان يصدد توضيح أثر المناخ وبعض العوامل الطبيعية الأخرى على أنواع الأمراض ومسبباتها ، كذلك فإنه توصل إلى اكتشاف الأسباب التي جعلت الإغريق — وهم سكان منطقة المناخ المتوسط أو المعتدل — أرقى من الضعفاء في الجنوب أو الشعوب الهمجية في الشمال . وقد أعرب « أرسطو » عن اقتناعه بهذا التفسير كما عزا « شيشرون » عظمة الرومان وتفوقهم إلى نفس هذا السبب . وفي العصور الوسطى بحث « اكويناس » « مفاهيم » « أرسطو » وبعد ذلك أشار إليها « ابن خلدون » (١٣٣٢ — ١٤٠٦) في كتاباته . وجاءت إشارات أكثر وضوحاً بفضل معرفة المسلمين بعلم الجغرافيا . كذلك أوضح « بودان Bodin » كيف اتفقت الجغرافيا مع قدرة الله لتجعل من الفرنسيين أمة عظيمة ووضع بعض الاقتراحات التي تحدد كيف يستفيد الساسة من دراسة الجغرافيا في تجنب قيام الثورات أما « ريتشارد ميد Mead » و« جونا ارثنوت John Arbuthnot » وهما طبيبان إنجليزيان عاشا في النصف الأول من القرن السادس عشر — قد استغلا الاكتشافات الجديدة في علوم الطبيعة

(١) ارجع إلى E.D. Adams : The power of Ideals in American History ويعتبر الفيلسوف الإيطالي بـ . كروش هو أحد أنباع هيجل من ناحية رأيه في التاريخ .

والأرصاد الجوية وفي وضع تفسيرات ممتعة وإن لم تكن مقنعة فيما يتعلق بتأثير المناخ والطقس على الإنسان .

وظهرت بعد ذلك جهود « مونتسكيه » العظيمة في بناء فلسفة للتاريخ وعلم القانون على أسس جغرافية . وارتكزت هنا الجهود على نظريات «أريستوتل» والمادة الوصفية التي احتواها كتاب الرحلات « تشاردن Cherdin » وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر أسس « كارل ريتار » علم الجغرافيا البشرية بمعناه الحديث وكانت القاعدة التي ارتكز عليها هي المعلومات السليمة التي تجمعت نتيجة للجهود التي بذلها مكتشفون أمثال « ألكسندر فون هومبولدت -Alexan- der von Humboldt » والتي كانت باعثاً على اهتمام من جاءوا بعده وأخذوا بمذهبه أمثال « بيشل Peschel » و« جيوت Guyot » و« بصفة خاصة » « فردريك راتزل » و« اليزيه ريكلو Elisee Reclus » وبالإضافة إلى العمل النظامي الذي قام به كل من « راتزل » « ريكلوس » وكتاب لاحقون أمثال « ريتشوفن Ri chthofen برونيه Brunhes » ، فالوا Vallaux ، فيدال دي لابلاش Vidal dela Blache « سمبل Semple » « هنتجتون Huntington » فإنه كانت هناك إلهامات هامة في نواح معينة من الموضوع أتى بها كل من « ديمولتز » ، كوان ، ميتشنيكوف Metchinekoff ، ماكنسر ، « لي بلاي Le play » « جيدز Geddes » ، « هاهن Hahn » ، هنتجتون ، وارد ، دكنسر ، « هلباخ Hellpach » وغيرهم .

ويبدو تأثير هذه الأعمال على عرض التاريخ وتفسيره أمراً غاية في الوضوح ، إذ عالج علماء الجغرافيا البشرية المذكورون آنفاً كل عوامل البيئة التي تؤثر على المجتمع ، وأمدونا بصورة دقيقة للعلاقة بين الإنسان والطبيعة ، ومن هؤلاء « ديمولتز » « وكوان » اللذان أكدوا أهمية الطوبوغرافيا والطرق التي يسلكها المسافرون والمواقع الطبيعية التي تعترض الغزاة وتجعل الاتصال صعباً وشاقاً . أما « لي بلاي » و« جيدز » فقد حددا حوض النهر بوصفه أساساً للإقليم الجغرافي الطبيعي في المجتمع الصناعي الحديث . كما أوضح « فاكنسر » أهمية الموقع الجغرافي الاستراتيجي في تاريخ التوسع القومي والعلاقات الدولية . وبالمثل فقد زودنا كل من « هان » ، ودارد بأبحاث تحس كل جوانب تأثيرات المناخ على الإنسان . أما ألزوارث هنتجتون فأضاف إلى ذلك كله فرضاً جزئياً أصيلاً حول التذبذب المناخي الذي قد يكون مسئولاً عن كثير من موجات هجرة الشعوب واضمحلال الثقافات عبر التاريخ . وأما هلباخ ، و« ونكستر » و« هنتجتون » و« ليفنجول Leffingwell » فقد بدأوا البحث الخاص بتأثير الطقس والتغيرات الفصلية على

الطاقة البشرية والنشاط البشرى . وفي كتابه « الأرض والشمس » أتى « يهنجتون » بنظرية تأثير الشمس والمناخ والطقس على مجرى الحضارة .

وبالإضافة إلى هذه الأعمال التي تناولت التأثيرات الجغرافية العامة على مجرى الحضارة ظهر عدد من الجغرافيين الذين كرسوا أنفسهم لدراسة العلاقة المحددة بين عوامل البيئة والتاريخ من ذلك أن « ريكلو » و« فيرجريف Fairgrieve » أوضحا العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ العالمى وهو العمل الذى قام به مؤخراً جداً وبشكل أكثر شمولاً « برونز وقالوا » ، « لوسين فبفر - Lu cien Febvre » . كذلك حلل « ليون ميتشكوف » أهمية وضع وادى النهر بالنسبة للحضارات الشرقية المبكرة . أما فيليبون Philippon » فقد قام بدراسة تاريخية عظيمة لتأثير العوامل الجغرافية لحوض البحر المتوسط على التاريخ الشرقى والكلاسيكى . وتبعه فى نفس هذا الاتجاه كل من « سمبل » ، « نيوبيجن Newbigin » .

وقد حلل الأخير بالتفصيل العلاقة بين جغرافية البلقان وتاريخها . وهناك أيضاً « نيسين - Nis sen » الذى زودنا بدراسة دقيقة لجغرافية إيطاليا . هذا إلى أن «فيدال دى لابلش » ، و« برونز » وضعاً دراسة جغرافية لبريطانيا بينما وضع كل من « ريتهوفن » ، « بارتش Partsch » ، « بنك Penck » ، « جوتز Goetz » مؤلفات هامة عن الجغرافيا التاريخية لأوروبا الوسطى . وبالمثل عالج كروبتكين Kropotkin وآخرون العوامل الجغرافية التى يتضمنها تاريخ أوروبا السلافية . وفى أمريكا بُحث تأثير العناصر الجغرافية على التاريخ الأمريكى فى دراسات قام بها « سمبل » « بريجهام Brigham » ، « ج . راسل سميت J. Russel Smith » . ولابد أن نشير كذلك إلى ما أسهم به الجغرافيون الاقتصاديون أمثال « شيزهولم Chisholm » ، وماكفارلين Mac Farlane » ، وجوتز ، ج . راسل سميت ، فى دراسة التاريخ الاقتصادى .

وسار المؤرخون على نفس نهج الجغرافيين فى الاهتمام بالتأثيرات الجغرافية التى حددت صورة التطور فى مناطق لها خصائصها التاريخية المميزة أو فى دول قومية معينة . ومن ذلك أن هـ.ب. جورج ، ج.ك. رايت Wright بذلا جهداً طيباً لبيان التأثير العام للجغرافيا على التاريخ وبصفة خاصة التاريخ العسكرى والسياسى . وقدم ج . ل . مايرز G.L. Myres عرضاً متمماً للأساس الجغرافى لقيام الحضارات التاريخية المبكرة . كذلك قام مؤرخو الحضارات الشرقية القديمة بدراسة دقيقة لبيئة وديان الأنهار التى شهدت نشأة هذه الحضارات بحيث أصبحت أودية أنهار النيل ودجلة

والفرات نماذج قديمة لأثر البيئة الجغرافية . وبالمثل فقد أوضح « كورتبوس » ، و « زيمرن Zimmern » بالتفصيل العلاقة بين جغرافية شبه الجزيرة اليونانية ونشأة الحضارة الإغريقية وطبيعتها أما دورى Duruy فقد أمدنا منذ نصف قرن مضى بعرض لجغرافية إيطاليا وعلاقتها بالتاريخ الرومانى . وبالمثل أوضح « هارناك Harnack » العوامل الجغرافية التى أثرت على انتشار المسيحية كما أمدنا « بيزلى Beazley » بدراسة قيمة تدور حول الأساس الذى قامت عليه الجغرافيا التاريخية للعصور الوسطى . وهناك أيضاً ميشليه ، جوليان Gullian اللذان وصفا بشكل كامل الأسس الجغرافية للتاريخ الفرنسى فى حين قدم « جرين Green » أعظم عرض لتأثير المعالم الطبيعية لبريطانيا على التاريخ الإنجليزى . وأوضح « لوكاس Lucas » كيف أن العوامل الجغرافية أثرت على طبيعة وسير حركة التوسع الإمبرالية الإنجليزية . وكذلك أوضح « ريهل Riehl » العلاقة بين جغرافية الوطن الجرمانى وتطور المجتمع الجرمانى وثقافته . كما أوضح « سبيل هاوس Spilhaus » الأصول الجغرافية للتوسع الأوروبى واضطراب حركة الاستعمار . وفيما يتعلق بالولايات المتحدة وصف « باين Payne » العلاقة بين المعالم الطبيعية وفترة الاكتشافات والاستيطان كما أوضح « وندسور Windsor » الأهمية التاريخية لحوض نهر الميسسى . وفى نفس الوقت أمدنا « هالبرت Hulbert » بتفاصيل وصفية عن المسالك التى استغلت فى غزو القارة . ثم جاء « فردريك جاكسون تيرنر » وتلاميذه الذين أوضحوا بتفاصيل مقنعة العلاقة بين الأقاليم الجغرافية للولايات المتحدة وبين تاريخها القومى والإقليمى . وأخيراً فإن هناك العلامة الألمانى « هلمولت Helmolt » الذى أصدر تاريخاً عالمياً ممتازاً بناء على تقبل معتدل لآراء « راتزل » الخاصة بالعلاقة بين الجغرافيا والتاريخ .

وعلى الرغم من وجود مثل هذه البداية المبشرة على طريق إقرار أهمية البيئة الطبيعية بالنسبة للتطور التاريخى لكل شعب فإن معظم المؤرخين التقليديين لم يعضوا عناية كافية بالعوامل الجغرافية . والحق أننا نشك فيها إذا كان الكثير من المؤرخين يشعرون بوجودها أو بقوة تأثيرها . وحتى هؤلاء الذين أعطوا الموضوع شيئاً من الاهتمام ؛ قلما أدركوا أن الخريطة الطبوغرافية والاقتصادية — وليست الخريطة السياسية — هى التى تساعد على كشف تأثير العوامل الجغرافية على التطور التاريخى . وإذا ألقينا نظرة على معظم المؤلفات التاريخية الحديثة فإننا نجد عشرين خريطة سياسة مقابل خريطة طبوغرافية واحدة . فالجغرافيا التاريخية لازالت بالنسبة لمدرس التاريخ العادى شيئاً لا يزيد على كونه تلويحاً للسياسات التى تعرضت وفق ترتيب زمنى . وتبرز بصفة أساسية التغيرات التى تطرأ على الحدود السياسية .

وإلى جانب الاهتمام السائد بالأحداث فإنه من المحتمل أن يكون السبب الرئيسى لهذه اللامبالاة بالجغرافيا ، إن لم يكن شعور النفور منها من قبل المؤرخين هو ذلك الانطباع الخاطيء بأن الاهتمام بالجغرافيا إنما يتضمن قبولاً للعقيدة المادية الخاصة بالهتمية الجغرافية . ولكن لا ينبغي أن تعالج المشكلة على هذا النحو ، إذ إن المسألة مسألة الإنسان والطبيعة كما يتطوران معاً أو على حد قول راتزل فإن : « كل مشكلة جغرافية يجب أن تدرس تاريخياً كما أن كل مشكلة تاريخية يجب أن تدرس جغرافياً ثم إن التأثيرات الجغرافية المتنوعة تبرز وتعمل بشكل مختلف في كل فترة من الفترات المتعاقبة للتطور التكنولوجى . يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك أساس للاعتقاد بوجود هتمية جغرافية مطلقة ، كما أوضح الناقدون من علماء الأجناس البشرية الذين ينتمون لمدرسة « بوس » . ولا يمكن أن نصل إلى تعميم أبعد من قولنا بأن تصميمات الأزياء عند سكان الكنفو لا يمكن أن تناسب سكان المنطقة القطبية الشمالية . كذلك توجد ثقافات مختلفة اختلافاً كبيراً في بيئات متماثلة إلى حد بعيد ، كما أن هناك حضارات قوية الشبه ببعضها مع أنها توجد في بيئات طبيعية متباينة . ويبدو أن الثقافة هي العنصر الديناميكى أو المحركى في التاريخ ، أى العنصر الذى يتفاعل مع عوامل أخرى كثيرة أقواها البيئة والموارد الطبيعية المحيطة .

وإذا كانت الاعتبارات الجغرافية لها أهميتها في كل أوجه التاريخ فإنها تبدو أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ الاجتماعى المتصف بالحركة والتغير . فالثقافة المادية وما يصاحبها من نظم اجتماعية هي فيها يبدو وليدة تطبيق تكنولوجيا معينة على الموارد الطبيعية ولا غنى أبداً عن كل من التكنولوجيا والموارد الطبيعية لازدهار الاقتصاد . فإيطاليا الحديثة مثال طيب لدولة متخلفة نسبياً من الناحية الاقتصادية على رغم من وجود فنيين ممتازين بين أبنائها . ويرجع هذا التخلف إلى افتقارها إلى الموارد المعدنية اللازمة لنمو وتطوير صناعات الحديد والصلب والعكس صحيح في حالة روسيا قبل سنة ١٩١٧ (أو قبل ١٩٢٨) حيث كان السبب في التخلف الصناعى هو الافتقار إلى تكنولوجيا حديثة يمكن بها استغلال الموارد المعدنية غير العادية منها . ولدينا كذلك مثال واضح لتغيير التأثيرات الجغرافية بفعل التطور العلمى والتكنولوجى وهو تأثير البحر المتوسط والمحيط الأطلسى اللذين كانا في يوم من الأيام من أخطر العقبات في سبيل السفر والترحال . ومن أكبر أسباب الانعزال الثقافى ، إذ أصبح منذ اختراع قن الملاحة — أولاً بواسطة السفن العادية ثم بعد ذلك بالسفن التجارية — من أكبر البواعث المشجعة على نمو الحضارة ونشاطها وذلك اعتباراً من بداية الألف الثالثة قبل الميلاد حتى يومنا هذا . وبالمثل فإن مواقع القوى المائية التى كانت ذات

يوم عديمة الفائدة بسبب بعدها أو تعذر الوصول إليها يمكن أن تستغل الآن في توليد ونقل الطاقة الكهربائية .

ومن أروع وأحدث أمثلة التقارب المتزايد بين التاريخ والجغرافيا ذلك الاهتمام بالجغرافية الإقليمية والتاريخ الإقليمي ذلك أن الجغرافيين الفرنسيين ساروا على نفس نهج « فيدال دي لابلاش » وفعلوا الكثير من أجل الارتقاء بالدراسة المتعمقة للمناطق الجغرافية الطبيعية التي تمثل الأساس المنطقي والمثالي لنمو الوحدة الثقافية والاجتماعية . وكان أن لقي هذا المفهوم قبولاً واستحساناً من قبل تلاميذ « لي بلاي » في فرنسا و « باتريك جيدز » في اسكتلندا إذ اعتبر أساساً لنظرية خاصة بالإصلاح الاجتماعي . وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين الأوربيين أمثال « لامبرخت » ، « شمولر Schmolter » ، قاموا بتحليل العلاقة بين مناطق جغرافية معينة وبين الحياة الاقتصادية فيها ، فإن العالم الذي أسس هذا الفرع من الدراسة العلمية وخطا فيه خطوات بعيدة هو الأستاذ « فردريك جاكسون ترنر » الذي كان مفتاح تفسيره للتاريخ الأمريكي نظرية مؤداها أن هذا التاريخ كان أساساً عملية توسع في اتجاه الغرب وإنشاء مجتمع رائد من ساحل الأطلسي إلى المحيط الهادي . وأوضح « ترنر » كيف أن هذه الحركة العامة تنوعت مظاهرها وتعددت في الأقاليم الجغرافية الكثيرة التي تم اجتيازها . وإذا كان تطور الولايات المتحدة يعتبر مسألة توسع في المساحة والقوة فهو من ناحية أخرى يتميز بالتنوع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي ، وهو التنوع الذي يرجع بصفة أساسية إلى الاختلاف في الوضع الجغرافي والموارد . وكان هذا التنوع الإقليمي مصدراً من مصادر القوة لأنه ساعد على خلق تعاون وثيق ، ولكنه مع ذلك كان سبباً في خلق كثير من الصعاب بالنسبة لمسألة الحفاظ على الوحدة السياسية والولاء للسلطة الحاكمة . ويمكن التنبؤ بأن المؤرخين في المستقبل سوف يحولون اهتمامهم من التركيز المطلق على الوحدات المصطنعة في الولايات إلى التركيز على محاولة تتبع تاريخ الأقاليم الجغرافية وإنجازاتها الاجتماعية والثقافية والتفاعل بينها . وقد يحدث في المستقبل أن يتمشى تقسيم الوحدات السياسية على الوضع الجغرافي الملائم بدلاً من تركه على هذه الصورة تحدده اعتبارات الاعتزاز القومي ومطامع الأسر الحاكمة .

وأخيراً ولكي تنتقل من الوحدة الجغرافية الأساسية في الإقليم الطبيعي إلى الطرف الآخر الذي يمثل الاتجاه العالمي ينبغي أن نذكر أنه منذ عهد التوسع الأوربي فيما وراء البحار - اعتباراً من سنة ١٥٠٠ م فصاعداً وعلى الأخص منذ سنة ١٨٧٠ أصبحت جغرافية العالم مادة ذات أهمية

كبيرة ومتزايدة بالنسبة للمؤرخ . ولا يوجد هناك من يستطيع أو يأمل أن يكتب كتابة ممتازة عن التوسع الأوربي ما لم يكن على دراية تامة بعالم وموارد المناطق التي تم اكتشافها واستعمارها واستغلالها ، وإلى حد ما يمكن القول بأن هذا الاهتمام بجغرافية العالم قد ساعد على توسيع مجال التاريخ ، بالضبط مثلما ساعدت علوم الجيولوجيا والأحياء والأجناس البشرية على توسيع نطاقه الزمني .

تفسير التاريخ

سبق أن أوضحنا أنه تجمعت قرب نهاية القرن التاسع عشر مجموعات كبيرة من مادة المصادر التاريخية التي تم تنسيقها والربط بينها ، كما تم الوصول بتناهج البحث التاريخي وطرق علاج المعلومات التاريخية إلى مرحلة الكمال . كذلك سبق أن أوضحنا كيف تمت هذه التطورات وإن كنا نلمس في معظم الحالات أن جهود المؤرخين اقتصرت على جمع الحقائق التاريخية . وهكذا فإن دارس التاريخ وجد نفسه في موقف لا يختلف عن موقف الكيميائي أو أخصائي علم الفيزياء أو الأحياء إذا ما زود بعدد هائل من المذكرات المترتبة المنمقة التي تحوى عدداً ضخماً من التجارب والملاحظات ولكنها لا تتضمن مع ذلك أية محاولة حقيقية لتفسير مغزى هذه المادة الكبيرة أو استنباط قوانين علمية يمكن أن تكون لها صفة التعميم والحق إن إصرار معظم المؤرخين على مدومه يـ حروج عن الخط الرئيسى الذى اختاروه لأنفسهم — وهو انكشف عن الحقائق وسرد الحوادث المتعاقبة — كان له ما يبرره منذ قرن مضى عندما كانت ماثلة في أذهانهم ذكرى تلك المحاولات المفتعلة من جانب الفلاسفة لاستغلال حقائق التاريخ في دعم آرائهم الغريبة حول التطور التاريخي هذا بالإضافة إلى أن الحقائق التاريخية التي يمكن أن يبنى عليها أى تفسير سليم لم يكن قد تم جمعها على الوجه الأكمل .

ومع ذلك فإننا نجانب الصواب لو اعتبرنا أن جمع الحقائق بهذه الصورة يمثل نهاية عمل المؤرخ . بالضبط مثلما يبتعد عالم العلوم التجريبية عن الصواب إذا ما اعتبر أن عمله ينتهى عند حد وضع مذكراته في جداول . ذلك أن التفسير الدقيق المضنى لمادة التاريخ — وهو عمل علمي لا ينفصل عن مهمة المؤرخ — يمثل في الحقيقة التطبيق السليم للمنهج العلمى فى التاريخ ويعطى

بعض المعنى والأهمية لذلك الحشد الهائل من الحقائق المتجمعة . ولقد عبر الأستاذ « جيمس هارفي روبنسون » ، « ا.ف. بولارد » عن هذه الحقيقة في العبارة الآتية : « حتى يصبح التاريخ شيئاً علمياً كان لابد وأن يكون في أول أمره شيئاً تاريخياً » . وإنه لأمر غريب حقاً أن ما نعتبره اليوم اهتماماً تاريخياً أيضاً كان بعيداً عن أذهان المؤرخين قبل القرن التاسع عشر عندما كانوا يسردون أحداث الماضي بالطريقة التي اعتقدوا أنها ترضى لقارىء . وكانوا يعلقون على هذه الأحداث بهدف تعليم القراء . كذلك فإنهم لم يبذلوا كل ما في وسعهم لكي يكتشفوا حقيقة الأمور في الماضي . هكذا وإلى هذا الحد . كانوا علميين ولو أن دوافعهم كانت في المقام الأول أدبية أو أخلاقية أو دينية . هذا إلى أنهم لم يحاولوا بصفة عامة أن يحددوا كيف برزت الأمور إلى الوجود . ولذلك فإن التاريخ ظل لفترة ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مجرد سجل لأحداث الماضي . ولا يزال هذا التعريف للتاريخ يرضى البسطاء ، ولكن وصف ما حدث شيء ، ومحاولة تحديد كيف حدث شيء آخر .

« وإنتى وأنا أجهر بهذا الرأي أخاطر لأننى سوف اتعرض لسخرية أذعياء العلم ، أقول إن الحقائق من وجهة نظرى ليست إلا اعتباراً ثانوياً ولا ينبغي أن تستخدم إلا كأمثلة . وقد لا أكون موفقاً في اختيار العبارة التي قد تثير على الأقل شيئاً من الضحك البريء . حقيقة إن الحقائق لا بد وأن تكون صحيحة ولكن مغزى الحقائق التاريخية أعظم بكثير من الحقائق ذاتها . والذي يعنى الآن هو مغزى الحقائق فعندما ننفذ من قشور الحقيقة التاريخية نستطيع أن نصل إلى لبها . والحقيقة في حد ذاتها قد تكون قليلة القيمة إذا لم تحمل في طياتها معنى ما . وهناك بالتأكيد مغزى وراء كل الحقائق وواجبنا هو اكتشاف هذا المغزى . ومع ذلك فإن اكتشاف مغزى الحقائق هو بصفة عامة آخر ما يهدف إليه مؤلفو الكتب الدراسية حيث نذكر الحقائق كما لو كان ذكرها أكثر أهمية من فهمها ، وكما لو كان غرض التعليم هو جعل العقل الناضج مخزناً للحقائق بدلاً من جعله أداة عالية الكفاءة وتدريبه على أداء واجبات الحياة واكتشاف معالم الحقيقة » .

وكما أوضح كل من « كومت » والأستاذ « شوتويل » فإن الأنماط السائدة في تفسير التاريخ خلال العصور المتعاقبة قد عكست في صدق الاهتمامات الفكرية الغالبة في تلك العصور المتعاقبة . فالملاحم التي تناولت قوى الطبيعة الخارقة والتي سادت في شرق القديم ، حلت محلها التفسيرات الأسطورية والفلسفية التي وضعها مفكرو العصور الكلاسيكية القديمة . وما أن انتشرت المسيحية حتى استبدلت هذه الأساطير الكلاسيكية بمفهوم ثنائية العاثم (الدنيا والآخرة) كما ظهرت فكرة الآخرة والوجود الإلهي المشتقة إلى حد ما من الفكر الفارسي والتي سيطرت على عملية تفسير

التاريخ منذ « أوغسطين » حتى عهد « بوسويه » . وبالمثل فقد صحت حركة التوسع الأوربي هزة هائلة تعرض لها الوضع الفكري القديم مما ترتب عليه نشأة المدرسة العقلانية الناقدة على يد « بيكون » ، « وديكارت » ، « وفولتير » « وهيوم » « وجييون » . وبسبب سبق هذه المدرسة للجو الفكري العام لعصرها فإنها تحولت إلى ثنائية « كانط » ومثالية « هيردر » ، « فيخته » ، « وشليجل » ، « شلينج » ، « وهيغل » . وقد لاحظنا فيما سبق أثر جميع هذه التغيرات على الكتابة التاريخية . هذا إلى أن نحو القومية في أعقاب الثورة الفرنسية ساعدت على إعطاء أولوية مؤقتة لتفسير التاريخ تفسيراً سياسياً وإن كانت التحولات العظيمة التي شكلت الثورنتين العلمية والصناعية قد حكمت بالفناء على مثل هذه النظرة السطحية . فعمق المعرفة الحديثة وكذا الاهتمامات الفكرية أدت إلى عدد من التفسيرات للتطور التاريخي يمثل معظمها النمو الهائل لبعض الاتجاهات البارزة في المائة سنة الماضية .

وبنمو العلوم الطبيعية الحديثة وازدياد الاتجاه الناقد في تناول المعرفة قل الجهد المبذول لوضع وصياغة نظام فلسفي لتنسيق التطور التاريخي وعرضه وهو الجهد الذي اشترك فيه كل من « أوغسطين » و« أوتو » المنسوب إلى « فريزنج » ، « بوسويه » و« هيغل » . ويبدو أن التشكك في أية فلسفة شكلية للتاريخ كان أمراً مصاحباً لتزايد معلوماتنا عن التعقيد المتناهي للظواهر الاجتماعية والتاريخية . وهذه الجهود العظيمة التي استهدفت وضع التاريخ في إطار بسيط كهذا إنما يشتم منها المنهج القائم على الإلهام والمعرفة السابقة على التجريب وهو المنهج المرفوض تماماً الآن .

وكان أن حل محل المذهب القديم لفلسفة التاريخ ما يمكن أن يسمى « تفسيرات الحقائق التاريخية » . وهذه التفسيرات تختلف عن فلسفة التاريخ الأقدم منها في عدم احتوائها على أي عنصر غرضي ليوضح الغاية والغرض منها . فضلاً عن رفضها المنهج الاستقرائي . أما الهدف الوحيد لهذه التفسيرات فهو إبراز وتأكيد تلك العوامل التي تجمع مدارس التفسير المتعددة ، على أنها كانت عظمة الأثر في إنتاج حضارات الماضي والحاضر . وبمعنى آخر فإن هدف التفسير هو محاولة إتمام بحث « رانكه » غير الهادف عما حدث في الماضي بإضافة جهد متواضع لشرح كيفية نشأة النظام الحالي . وهذا الجهد يمثل اكتمال المنهج العلمي في التاريخ ، تماماً كما تمثل صياغة القواعد العامة والقوانين في العلم الطبيعي التكملة المنطقية للمرحلة الخاصة بجمع المعلومات عن طريق الملاحظات الميدانية والتجارب العملية .

وتوجد في الوقت الحاضر سبع مدارس محددة للتفسير التاريخي تتضح من خلال جهود مثليها الذين درسوا الظواهر التاريخية على نحو حديث ، وقد أضافت كل من هذه المدارس الكثير إلى معلوماتنا عن التطور التاريخي . ونظرة بسيطة نلقيها على هذه المدارس تظهر أنها وإن كانت منفصلة فإنها تكمل بعضها البعض بدرجة كبيرة . ويمكن تصنيف هذه المدارس كما يلي :

١ - مدرسة التراجم الشخصية أو نظرية (الإنسان العظيم) .

٢ - المدرسة الروحانية أو المثالية .

٣ - المدرسة العلمية التكنولوجية .

٤ - المدرسة الاقتصادية .

٥ - المدرسة الجغرافية .

٦ - المدرسة الاجتماعية .

٧ - المدرسة التركيبية أو النفسية الجماعية .

وينبغي أن نذكر أن المؤرخ التقليدي يتمسك إما بالنظرية البالية التي ترجع تطور التاريخ إلى أسباب سياسية أو بالنظرية القائلة بأن التطور التاريخي أمر لا ضابط له . ومن ثم فهو لا يخضع لأيّة قوانين مؤكدة .

وأشهر هذه المدارس - وهي الوحيدة التي أضفى عليها المؤرخون التقليديون كثيراً من الاعتبار هي تلك التي يمثلها اثنان من أبرز الرومانسين هما « كارليل » ، و« فرود Froude » اللذان قالاً بأن الشخصيات الهامة في التاريخ هي المحاور الرئيسية في عملية التطور التاريخي ، بمعنى أن التاريخ ليس إلا تراجم مجمعة . وهذا الرأي يتفق إلى حد بعيد مع فكرة تفسير حدوث التاريخ في ضوء ما يجري من كوارث ، وهي الفكرة التي شاعت بين العقلانيين في القرن الثامن عشر وأبرز مؤيدي هذا الرأي من المعاصرين هم : « إميل فوجيه » ، و« هـ . مالوك W.H Mallock » ، « كارل بيرسون : Pearson » ، « وليام روسكو » ، « ثيار Thayer » ، « وليام دانيخ » ، « أميل لودفيج » ، « كلود بوارز Claude Bowers » ، « آلان نيفنز Allan Nevins » . وفي ذلك التفسير المسمى بالتفسير الروحاني نجد صورة للنجاح المتأخر لمثالية شيلنج ، شليجل « ويمثل هذا الاتجاه بحماسة بالغة كل من « رودلف ايوكن Rodolph Eucken » « شليمر ماثيوس Shailer Matheus » ، هـ . أ . تايلور H. A. Taylor » ، ر . و . ماكلوجن R. w. Mc laughlin » ويعرف الأستاذ « ماثيوس Mathews » هذا الرأي في تواضع إذا يقول : « إن التفسير الروحاني للتاريخ لا بد وأن يكمن في اكتشاف العوامل الروحانية التي تتعاون مع العوامل

الجغرافية والاقتصادية في إنتاج اتجاه عام نحو أوضاع هي في حقيقتها شخصية وهذه الأوضاع لن توجد في قواعد عامة متصلة بعالم الغيب وما وراء الطبيعة وإنما تبدو هذه الأوضاع في جهود الرجال البارزين الذين عبروا عن جهودهم في ميدان العلاقات الاجتماعية والذين كرسوا تلك الجهود لإخضاع عالم الطبيعة إخضاعاً تاماً لأجل رخاء البشرية^(١). وإذا ما نظرنا إلى هذا النوع من التفسير في ضوء هذه العبارة التي تبعد كثيراً عن الفلسفة الاستعلانية السابقة، فإنه يمكننا أن نحكم بأن هذا التفسير يتشابه إلى حد كبير مع نظرية الإنسان العظيم وأنه فيما يبدو يستهدف التوفيق بين هذه النظرية وبين التفسير الكلي الناقد تحت ستار اتجاه لاهوتي عام. ومن دعاة هذا النوع من التفسير د. آدمز «الذي حاول أن يربط التطور التاريخي للولايات المتحدة بعدد من المثل القومية المتعاقبة والغالبة التي لم يتم تفسير أساسها وأصلها تفسيراً كافياً. كذلك هناك «كروش» (Croce)، الذي بذل جهداً للدفاع عن تفسير التاريخ تفسيراً مثالياً.

أما كوندرسيه Condorcet، فكان أول من حاول النظر إلى التقدم البشري على أنه وثيق الصلة بالتقدم في مجالات العلم الطبيعي والتكنولوجيا. وقد تبعه في هذا الاتجاه وعمل على إحيائه كل من «كومت» (Comte) و«باكل» (Bakel). وباستثناء العناية التي أولاها دارسو تاريخ العلوم أمثال «دانيمان» (Dannemann)، «ساراتون» (Saraton)، «دوهم» (Duhem)، «تانيري» (Tannery) وغيرهم من اهتمام لهذا الجانب من تفسير التاريخ، فإنه لقي إهمالاً مؤسفاً من جانب المؤرخين المعاصرين، وإن كان «ف. س. مارفن» (F. S. Marfen)، «لويس، مامفورد» (Lewis, Mumford)، «لين ثورندريك» (L. Thorndike)، «س. ه. هاسكنز» (S. H. Haskins)، «أ. ولف» (A. Wolf)، «أ. ب. اوشر» (A. P. Usher) وشارل سنجر (Charles Singer) قد أوضحوا جميعاً الآفاق الواعدة والإمكانات الحقيقية لهذا النوع من التفسير. هذا فضلاً عن أن «لامبرخت» (Lambricht)، «سجنوبوس» (Schnobius)، «شوتويل» (Schutwill)، «روبنسن» (Robinson)، «بريزر فدميث» (Brizer Fdsmith)، قد أكدوا هذا التفسير بشكل عابر في تفسيراتهم الشاملة للتاريخ. ومع ذلك فإنه لم تتم الاستفادة من هذا التفسير بشكل كامل، مع كونه أوسعها أفقاً. ويذهب دعاة إلى أنه - أي التفسير العلمي - يستحق أهمية أكبر من تلك التي يحظى بها التفسير الاقتصادي، لأن الحالة السائدة للمعرفة العلمية وتفسيرها التكنولوجي هي التي تحدد أساليب الحياة الاقتصادية والنشاط الاقتصادي. وهذا الرأي هو الذي أقر «كارل ماركس» نفسه بصحته.

(١) Shailer Mathews: The Interpretation of History (Harvard press Uni 1916)

أما ما أسهمت به المدرسة الاقتصادية في تفسير التاريخ ، وهو التفسير الذى وضع أساسه كل من « فيرباش » ، « ملركس » وتبعهما في نفس الاتجاه عدد كبير من الكتاب اللاحقين أمثال « روجرز » ، « أشلى » ، « تونى Tawney » ، مدرسة « وب Webb » ، « هاموند » ، « شمولر » ، « جيد Gide » ، « لوريا Loria » ، « فييلن Veblen » ، مدرسة « سيمونس Simons » ، « بيرد Beard » ، « هاكر Hacker » ، « سيمكهوفيتش Simkhovitch » فأمر معروف لا يحتاج إلى مزيد من الإيضاح وينادى أصحاب هذا المذهب ؛ بصفة عامة وفى أوضح صورة ، أن النمط السائد فى المجتمع من النظم الاقتصادية والنشاط الاقتصادى هو الذى يحدد وبدرجة كبيرة طبيعة النظم الاجتماعية والثقافية فى هذا المجتمع . وعلى الرغم مما شاب هذا التفسير الاقتصادى للتاريخ من مبالغات ، فإن أى تفسير آخر لا يدانيه إنتاجاً وأثراً .

ويتصل بهذا التفسير وبشكل مباشر التفسير الجغرافى الذى يرجع إلى عهد أبو قراط والذى يبدو فى أعمال الكتاب المتعاقبين ابتداء من « سترابو » حتى « فتروفوس Vitruvius » « بودان Bodin » ، « مونتسكيه » ، « باكل » ، وقام بإحياء هذا التفسير وأضفى عليه صبغة علمية كل من « ريتز Ritter » ، « ريكلوس Reclus » ، « سمبل Semple » ، « برونهس Brunhes » ، « فالوا » ، « ديمولنس Demolins » ، « هنتجتون » ومنذ أيام « ريتز Ritter » عنى المؤرخون التقدميون فيها عدا قلة قليلة بالوقوف على الأوضاع الجغرافية لأى بلد من البلاد قبل محاولة كتابة تاريخه . وقد سبق أن أوضحنا أهمية ومغزى هذا الاتجاه .

أما التفسير الاجتماعى للتاريخ فإنه بدأ على يد العلامة العربى « ابن خلدون » ثم تطور على يد كل من فيكو وتيرجون وكومت وسبنسر وكان أقدر المفسرين . الاجتماعيين للتاريخ فى العصر الحديث هم « جيدنجز » « أو جيرن » ، « توماس » « هوبهوس » ، « مولر لاير » و« الفردوير » . ويصف جيدنجز هذه النظرية ببراعة إذ يقول « إنها محاولة لتعليل أصل نشاط المجتمع فى ضوء أسباب طبيعية وحيوية ونفسية وهى العوامل التى تشترك معاً فى عملية التطور » ويعمل علم الاجتماع باعتبار أحد العلوم الاجتماعية على أساس التعاون التام مع علم الأجناس البشرية حيث إن كلاهما يعمل جاهداً لتفسير التكرار والنشابه فى تعليل أحداث التاريخ وتطوره .

وأحدث أنماط التفسير التاريخى وأكثرها شمولاً وأهمية هو التفسير الكلى أو السيكلوجى الجامع وهو التفسير الذى يمثل بشكل تام التاريخ الجديد . وطبقاً لهذا التفسير فإن نوعاً واحداً من المسيبات لا يكفى لتفسير كل جوانب وفترات التطور التاريخى . ولأقل من أن تكون

السيكولوجية الجامعة لفترة ما هي التي لها من القوة ما يجعلها تنحكم في التطور التاريخي لتلك الفترة . ولذا فإن واجب المؤرخ ينحصر في اكتشاف وتقويم وعرض العوامل الرئيسية التي تخلق وتشكل النظرة الجماعية للحياة وتحدد طبيعة النضال الجماعي من أجل الوجود والتقدم . ولعل أحسن صياغة مختصرة لهذا الاتجاه هي أن الأحوال الفكرية العامة هي التي تحدد عادة الاتجاه السائد نحو العلم والتكنولوجيا . فالعلم والتكنولوجيا يخلقان النظم الاقتصادية ويتحكمان فيها وهذه بدورها تبني تدريجياً مجموعة من نظم الربط أو الدفاع التي تكتسب طابعها المميز من خلفية الحياة الاقتصادية التي تستند إليها . ونظم الربط هذه هي العادات الاجتماعية وأشكال وسياسات الحكومات وأنماط التشريع والقضاء ونظريات التربية والرأي العام والتعبير عن طريق الصحافة وأنماط السلوك المقبولة من المجتمع والمفهوم العام للحياة . وهكذا فإن كل عصر يضم تراث الماضي وبذور التغير بالنسبة للمستقبل ولكن أكثر العوامل حركة وهو تسرب الأفكار الجديدة عن طريق الاتصال الثقافي الخارجي . وأبرز قادة هذه المدرسة لامبرخت ، فيررو Ferrero ، تارد Tard ، ليفي بروهل Bruhl ، فوللي Fowlli ، سيجنيوس ، دركهايم Durkheim ، مارفن روبنسون ، شوتويل ، بيكر ، بريزرفد سميث ، راندال ، ج . ل . هارت . ويلاحظ أن هناك اختلافات واسعة بين مبادئ ووجهات نظر هؤلاء المؤرخين على الرغم من انتمائهم جميعاً لنفس المدرسة .

التاريخ والعلوم الاجتماعية

من أعظم التطورات الحيوية في دراسة التاريخ تقدمية ذلك الاهتمام المتزايد بالعلوم الاجتماعية أو الدراسات الاجتماعية كما تعرف في الأوساط التعليمية . وجاء هذا الاهتمام من جانب المؤرخين نتيجة طبيعية لظهور وجهة أكثر حركة في مجال كل من التاريخ والعلوم الاجتماعية . فالعلماء الذين يشتغلون بالعلوم الاجتماعية لا يمكنهم تجاهل التاريخ وذلك لأن المسائل المرتبطة بأصل الإنسان وتكوينه لها أهمية بالنسبة لكافة العلوم الاجتماعية فتاريخ النظم الاجتماعية والعمليات الاقتصادية وكذا تاريخ الدولة وتاريخ القانون وتاريخ أنماط السلوك السائدة والمقبولة إنما هي من أكثر الجوانب الحيوية في علوم الاجتماع والاقتصاد وفي العلوم السياسية وعلم فلسفة القانون وعلم الأخلاق . وأية دراسة حقيقية يعتد بها لا بد وأن تهدف إلى

تزويدنا بمعلومات كافية عن هذه الأمور ومن المؤكد أن كثيراً من الكتابات التاريخية في الماضي لم تضع ذلك في حساباتها كما أنه من المؤكد أن السعي وراء تحقيق هذا الغرض كان أمراً صعباً . ولكننا نتوقع أن عدداً أكبر من المؤرخين سوف يدركون تمام الإدراك أن عملهم سيكون غير مجد إلى حد ما إذا لم يلقوا الضوء الكافي على أصول النظم المختلفة المألوفة لنا اليوم .

وكذلك فإنه إذا كان على المؤرخ أن يصف تطور الأنماط الرئيسية من النظم فإنه لابد وأن يكون لديه معرفة كافية بالعلوم الاجتماعية التي ترتبط بتلك النظم . ومن بين الأسباب التي أدت إلى تفاهة عدم جدوى كثير من الكتابات الوطنية لأحداث التاريخ السياسي فضلاً عن خروج بعضها عن الموضوع هي الحقيقة الخاصة بأن المؤرخين كانوا مجهلون بشكل يدعو إلى الأسف والحزن العلوم السياسية التي كانت بين أيديهم . ولو كان الأمر عكس ذلك لما أضاعوا وقتهم في سرد الحوادث والقصاص على ذلك النحو المسهب ، ولأعطوا شيئاً من الانتباه لتلك الجوانب التي تصور تطور مختلف النظم والدساتير وأجهزة الحكم ونظام الأحزاب وسائر جوانب الحياة السياسية . ولا يعني هذا بطبيعة الحال إهمال العنصر الشخصي في التاريخ الوصفى إهمالاً كلياً ، وإنما يعني أنه ينبغي تخير الإنجازات الشخصية بشيء من الدقة والتمييز ، بحيث يكون لما يوصف بعض العلاقة بمختلف نظم الحياة ، وبحيث يصور نوعاً معيناً من رد الفعل بالنسبة للشخصيات . وباختصار فإنه من الضروري بالنسبة للمؤرخ الذي يود أن يكتب كتابة طيبة عن تاريخ المجتمع والدولة والقانون أو عن الحياة الاقتصادية ، أن يكون ملماً بعلم الاجتماع والعلوم السياسية والقانون والاقتصاد ، بالضبط مثلما تتطلب الكتابة عن تاريخ علم الكيمياء بعض المعرفة عن هذا العلم ذاته . ويرجع السبب الذي عاق إدراك الحقيقة الخاصة بأن المعرفة بالعلوم الاجتماعية هي إحدى مقومات الكتابة التاريخية إلى انتشار فكرة القياس التقريبي ، والاجتهاد الشخصي في مجالات التاريخ والعلوم الاجتماعية وهي الأمور التي لا يمكن تقبلها في مجال العلوم الطبيعية ومن المتع والمؤسف في آن واحد أن نلاحظ :

١ - اصرار المؤرخ على ضرورة التدريب العميق الطويل في علم المخطوطات وعلم المراسلات الدبلوماسية وعلم المعاجم ومبادئ النقد الداخلي والخارجي بقصد ضمان تقديم نصوص دقيقة وسرد سليم .

٢ - وفي الوقت نفسه تجاهل المؤرخ ضرورة تحقيق تدريب كاف في مجموعة من الدراسات هي الوحيدة التي تمكن المؤرخ من أن ينظم مادته ويفسرها بطريقة حاذقة .

وأبرز الدلائل على حدوث تغير في اتجاهات المؤرخين نحو العلوم الاجتماعية ، تشكيل لجنة للدراسات الاجتماعية في المدارس سنة ١٩٢٩ تحت رعاية الجمعية التاريخية الأمريكية وبعد أن حصلت هذه اللجنة على مبلغ كبير من المال من مؤسسة كارنيجي بدأت في تنفيذ برنامج هائل للبحث وأصدرت عدداً من الكتب المصريحة الميثة بالاقتراحات . وكان هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف المؤرخين سنة ١٩٠٣ عندما أظهروا عداً واضحاً لحركة العلوم الاجتماعية التي عبر عنها الأستاذ فرانكلين هنري جيدنجز في خطاب ألقاه أمام المؤرخين بقوله ، هذه هي نظرية السببية الاجتماعية . وكان علم النفس في وقت من الأوقات لا يعتبر واحداً من العلوم الاجتماعية ، وإنما يعتبر مجرد دراسة للعمليات الجارية في عقل الفرد . ولكن لم يمض وقت طويل حتى ساد الاعتقاد بأن أية دراسة للعمليات العقلية الفردية لا يمكن أن تكون كاملة أو مرضية إذا لم تأخذ في الاعتبار النشاط العقلي المتداخل والتفاعل بين العقول بعضها وبعض داخل المجتمع . وأدى هذا الاعتقاد إلى نشأة فرع خاص من فروع علم النفس يركز على العلاقات بين العقول وهو على وجه التحديد علم النفس الاجتماعي .

ويستطيع التاريخ أن يستقى من علم النفس معظم المعلومات الهامة المتعلقة بطبيعة دوافع وأنماط وضوابط العقائد والتصرفات البشرية . فالعقل هو العامل الموحد والمنسق في الفرد والمجتمع على السواء . وينبغي أن نتبين أنه يستحيل على المؤرخ أن يفهم أنماط سلوك الناس في الماضي دون أن يكون مزوداً بقدر كاف من المعرفة عن السيكولوجية العامة للسلوك البشري . حيث إنه لا يبدو وأن ثمة تغيرات أساسية قد حدثت في الأساس السيكولوجي للعقل ولا في أنماط السلوك الرئيسية منذ فجر التاريخ المكتوب ، فإن سيكولوجية إنسان اليوم يمكن أن تفيد في تحليل الشخصيات التاريخية التي عاشت في الماضي ، فضلاً عن تحليل المواقف الجماعية . على أن هذا لا يتأتى بدون معلومات وبيانات كافية . والواقع أنه لا يعيب الكتابة التاريخية التقليدية أكثر من افتقارها المؤسف إلى المعرفة بعلم النفس العملي ، وهي الظاهرة التي تبدو واضحة في معظم كتاب التراجم ، الأمر الذي ترتب عليه كثرة التفسيرات السطحية التي فسرت بها التصرفات والدوافع الشخصية . ولاتبالغ إذا ذكرنا أن الترجمة التاريخية العادية لا تقل غرابة عن ترجمة فرويد لشخصية ليوناردو دافينشي ، وإن كانت الطريقة مختلفة تماماً . ويتضح تأثير علم النفس على التراجم في كتابات ليتون سترانشي Lytton Stratchey ، اندريه موروا Andre Maurois ، جماليل برادفور Gamaliel Bradford وغيرهم وإلى جانب ما يقدمه علم النفس من معرفة

الوصول إلى فهم أفضل للسلوك الشخصي ، فإن علم النفس بالاشتراك مع علم الاجتماع - يوضح كيف يتعدل السلوك الفردي تحت تأثير الأوضاع والاتصالات الاجتماعية والعادات والتقاليد .

وهذا التداخل بين التاريخ وعلم النفس ينبغي أن يكون مفيداً لكل من العلميين ، فالتاريخ يزود المشتغلين بعلم النفس بكثير من المادة التي تصور السلوك البشري في الماضي من عصر الهمجية حتى يومنا هذا ، كما أنه يعطى أمثلة لكل صور الشخصية التي تهتم علماء النفس ويزودهم بشيء من المساعدة من أجل التعرف على أنماط سلوك هذه الشخصيات تحت تأثير الظروف المتغيرة . ويزداد المصادر فإننا نأمل أن يصبح التاريخ في النهاية معملاً رئيسياً للمشتغلين بعلم النفس .

وبالفكر الذي عاش به الناس على هيئة جماعات كبيرة أو صغيرة ، نجد أن لعلم الاجتماع أو علم نشاط الناس داخل الجماعات قيمة كبيرة بالنسبة للمشتغلين بالتاريخ فهذا العلم يحاول أن يصنف ويحلل مختلف القوى الجغرافية والبيولوجية والسيكولوجية والاقتصادية التي تؤثر على مكان ما وشكل الحياة الاجتماعية فيه ، كما أنه يهدف إلى وصف وتفسير نتائج هذه الحياة الجماعية ، كما تبدو في أنماط السلوك وفي العادات والضوابط التي توجهها النظم . وبما أن علم الاجتماع يتضمن كلاً من أسباب ونتائج الحياة الجماعية ، ولذلك فإنه العلم الاجتماعي الأساسي والوحيد الذي يمكن أن يعطى فكرة عامة عن التفاعل الاجتماعي وعن السببية الاجتماعية ككل ، ولما كان التاريخ يهتم بدرجة ليست ضئيلة بوصف سلوك الجماعات في مختلف المواقف الاقتصادية والسياسية والجمالية والدينية فإنه من الواضح أن دقة المؤرخ وبصيرته يزدادان لو أنه تعرف على المبادئ الأولية لعلم الاجتماع . ومن الناحية الأخرى فإن التاريخ يمكن أن يكون ذا قيمة عظيمة بالنسبة لعلم الاجتماع لأنه يزوده ببيانات ومعلومات قيمة عن أي قطاع في أي مجتمع في عصر معين ، فضلاً عن الجوانب الحركية للتغير الاجتماعي وتبدل النظم . وإذا كان كثير من المؤرخين التقليديين ذوي الميل الأدبي يفتنون هذا الرأي الخاص بوظيفة التاريخ وعلاقته بعلم الاجتماع ، فإنه ليس هناك شك في أن جمع المادة الخام لعلم الاجتماع الحركي بطريقة شعورية أو غير شعورية ، هو أحد الخدمات الجليلة التي يؤديها التاريخ وكلما ازداد التاريخ دقة وتميزاً لما يتضمنه من حقائق ، كلما ازدادت اكتشافاته واستنتاجاته صلة بعلم الاجتماع . وكلما ازدادت قيمتها في عملية تنوير الجنس البشري والسير به قدماً .

أما علم الاقتصاد فهو ينبثق عن علمي النفس والاجتماع وذلك بوصفه العلم الذي يعالج حصول الإنسان على الحاجيات المادية واستفاداته منها . فالذواقع البشرية التي تنصل بنشاط الإنسان الذي يستهدف الحصول على الثروة لا يمكن أن تفهم فهماً سليماً إلا على أساس من الإدراك الكافي للحوافز البشرية بوجه عام . وكذلك فإن العمل الجماعي من أجل الكسب المادي وزيادة الطاقة الإنتاجية ، يدعو إلى تحليل دقيق وفهم جيد للمبادئ والقوانين العامة المتعلقة بالعمل الجماعي . وإذا كنا لانستطيع أن نقبل نظرية التفسير الاقتصادي للتاريخ على علته بمعنى أننا نرفض التسليم بفكرة الحتمية الاقتصادية الكاملة ، فإن أى شخص عاقل لا يساوره شك حول الأهمية العظمى للعوامل الاقتصادية فى المجتمع . وكان لهذه العوامل فى بعض العصور فعلاً صفة الحتمية وخاصة الفترة من سنة ١٧٥٠ حتى الآن . وعلى الرغم من أن التفسير الاقتصادي لنشأة المجتمع الحديث والمجتمع المعاصر لا يتعرض لكثير من العوامل التشويقية ، فإنه بلا جدال أقرب إلى الحقيقة والواقع من أى تفسير آخر . وهكذا فإنه لا يمكننا بأى حال من الأحوال إنكار أو تجاهل تأثير العوامل الاقتصادية على المجتمع فى أى عصر من عصور تاريخ البشر .

وإذا كان الحال كذلك فإن المؤرخ لابد وأن يتعرض للنشاط الاقتصادي ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يكون لديه بعض المعرفة بذلك العلم الذى يبحث فى خلق واستغلال الثروة المادية . وهذا أمر ينطبق بصفة خاصة على التاريخ الحديث والمعاصر والحق أن المؤرخ الذى لا يلم بالنظريات والنظم الاقتصادية لا يمكنه أن يقدم فى هذا الشأن أكثر من وصف سطحي لنظامنا الاقتصادي البالغ فى التعقيد . وبالمثل فإن التاريخ يقدم خدمات جليلة للمشتغلين بالاقتصاد ، إذ يضع بين أيديهم العوامل التى تحرك التطور الاقتصادي ، ليس فقط فى العصور الحديثة بل فى العصور القديمة أيضاً . فعلى سبيل المثال نجد أن معهد الدراسات الشرقية فى شيكاغو كشف حديثاً عن معلومات كثيرة خاصة بالأسعار والضرائب فى حقبة طويلة من التاريخ الآشورى وهذه المعلومات أهمية كبيرة للمشتغلين بعلم الاقتصاد والمؤرخين الاقتصاديين . وكان أعظم ما أسهمت به مدرسة الاقتصاديين التاريخية فى ألمانيا هو إصرارها على فكرة ما للنظم الاقتصادية من طبيعة متغيرة ونسبية ، وهى الفكرة التى كانت بمثابة رد الفعل لما انتصفت به المدرسة الكلاسيكية من جمود عقائدى . والواقع أن النظريات الاقتصادية فى مجموعها تعتبر تفسيراً وتبريراً للأنظمة الاقتصادية المختلفة . وهذه النظريات نفسها ليست إلا مسائل نسبية ، فالتاريخ فى الماضى كان يتصف بسطحية مذهلة وبعدم وضوح الرؤيا لأنه أهمل الحياة الاقتصادية وركز اهتمامه على سرد الأحداث

الهامة والمنظيرة ، مما جعله لا يعنى إلا قليلاً بصغائر أمور الحياة اليومية . ومن بين الأشياء الهامة بالنسبة للاقتصاديين المهتمين بأصول الدوافع والنظم الاقتصادية تلك المادة التي وردت فيها أنتجه تلاميذ كلبو من أبحاث ودراسات . وعلى الرغم من أن المعلومات المتوفرة لنا في الجانب التاريخي قد تكون غير كافية ، فإنه من المتعذر أن نفهم الحياة الاقتصادية الحاضرة فهماً كاملاً دون الرجوع إلى الماضي ، أى بدون الاستعانة بما يقدمه التاريخ من معلومات هو وحده الذى يملكها . هذا إلى أن التاريخ يزود الاقتصاديين في كثير من الحالات بأمثلة مفيدة توضح العلاقة بين النظم الاقتصادية وغيرها من النظم الأخرى . وقد أكد جوزيف دورفمان صحة ما أوردناه من مبادئ عامة حول هذا الموضوع في كتابه الرائع « الفكر الاقتصادى في الحضارة الأمريكية » .

أما العلوم السياسية أو علم الدولة وأجهزتها ووظائفها فهو أيضاً من العلوم التي لا بد وأن تقام على علمى النفس والاجتماع ، لأن أسس الولاء السياسى لا يمكن اكتشافه وتفهمه إلا من خلال دراسة سيكولوجية الخوض والعادات المرتبطة بالقيادة والمحاكاة والانصياع للنظم كما تتمثل في ردود فعل المواطنين نحو الدولة ، مما يتطلب هو الآخر تدخل المشتغلين بعلم الاجتماع ، لكى يمكن تفسير الجذور الأساسية التي تشكل تلك العادات . هذا إلى أن الحياة في المجتمعات السياسية لا يمكن تفسيرها دون فهم الطريقة التي تطورت بها الحياة الاجتماعية وكيف نشأت الدولة تدريجاً من النظم الاجتماعية الأولى . وقد أقر المؤرخون بما فيهم أولئك الذين ينتمون إلى المدرسة السياسية التقليدية أهمية العلوم السياسية بالنسبة لأى فرع آخر من العلوم الاجتماعية . وبينما ركز غالبية مؤرخى القرن الماضى البارزين اهتمامهم على أوجه النشاط في المجال السياسى ، فإن قلة منهم هي التي تمكنت من العلوم السياسية المنهجية ، ومن جملة هؤلاء المؤرخين القانونيين والدستوريين وتيز ، برونر ، فلاشن ، فيوليت Viollet ، ميتلاند Maitland ، فينوجرادوف ، آدمز ، وهم الذين اهتموا فعلاً بتتبع تاريخ التطور السياسى . ولكن أغلب المؤرخين اكتفى كما ذكرنا بسرد الأحداث التي وقعت في حياة رجال السياسة والدبلوماسيين . ومع ذلك فإن المؤرخ السياسى الذى يسير اليوم على منهج علمى يدرك تماماً أنه لمن السذاجة أن يحاول باحث علاج النظم السياسية قبل التزود بمعلومات كافية عن طبيعة المبادئ السياسية والأشكال الرئيسية للنظم السياسية . وكذلك نتج عن طول فترة اتباع المنهج السياسى في التاريخ أن غداً في وسع المؤرخ أن يزود عالم السياسة بمعلومات عن أصل مادته أكثر مما يستطيع أن يزود المشتغل بأى علم اجتماعى آخر . ولكن حدث لسوء الحظ أن كثيراً من التاريخ السياسى ، الذى كتب في الماضى كان على

درجة عالية من الإثارة والتركيز على الأحداث والقصص بحيث صار الجزء الأعظم منه قليل الفائدة من الناحية العملية .

وما يقال عن العلوم السياسية ينطبق بنفس القدر على القانون . فالقانون ليس إلا تعبيراً عن الإرادة الجماعية كما يعبر عنها كيان الدولة . ولما كان جزء كبير من كتابات المؤرخ السياسي التقليدي ينصب على معالجة موضوع التشريع ، فإن هذا المؤرخ لم يرتض لنفسه أن يكون جاهلاً بعلم القانون . وفي الوقت نفسه فإن دارس القانون يمكنه أن يتحاشى عقم القانون الطبيعي ، والندارس التحليلية إذا ما تمكن من إدراك مغزى أهمية الوقوف على أصل الإنسان وطبيعة نشأته وتطوره .

وأخيراً نتطرق إلى علم الأخلاق فنقول إنه مع أن السير على منهج تاكيتوس ، شلوزر ، لورد أكتون بالنسبة لإصدار أحكام حاسمة على شخصيات التاريخ على أسس أخلاقية شخصية بحثة لم يعد من مهام المؤرخ ، فإنه من الأفضل للمؤرخ أن يلم بالطرق التي يتم بها وضع وتطبيق معايير السلوك البشري . ومما يؤسف له أن علم الأخلاق لم يصل بعد إلى المستوى الذي وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة من ناحية الإنجازات الثابتة المؤكدة ، لأن كل ما تم في مجال هذا العلم في الماضي بلا استثناء يكاد يكون عديم القيمة ، لسبب بسيط هو أن مقومات العلم البيولوجية والسيكولوجية الاجتماعية وعلم الأجيال الوصفية لا وجود لها . وهكذا فإن ما بدا وكأنه علم للسلوك كان مجرد تخمين وكلام غير قائم على التجربة . وفي معظم الحالات نجد أن هذا العلم لم يتعد كونه دفاعاً عقلياً عن التعصب العقائدي والتحيز والعقد عند الكاتب المعين . ولكن بظهور كتابات أمثال ليترنو Letourneau ، راتزل ، سمر Summer ، وستر مارك Westermarck ، هوبوس Hobhouse ، كروبوتك Kropotk دخل علم الأخلاق عهداً جديداً ، إذ ظهرت مادة في وصف الأجيال عظيمة الفائدة لما تحويه من تعدد اللوانح الأخلاقية وجذورها . هذا إلى أننا نجد في أعمال ستيفن . دوبرات Duprat ، اليس Ellis ، ديوي ، هيز Hayes ، جروفرز Groves ، جيلفر Gilver ، تافتس Tuftes ، دريك Drake وغيرهم محاولة لبناء النظرية الأخلاقية على حقائق مستمدة من علمي النفس والاجتماع . ويتضح هذا الاتجاه الجديد كذلك في الهجوم على قواعد الفلسفة الاستشراقية والبيورتيانية التي بدت في كتابات شو Shaw ، ومنيكن Mencken ، جود Joad ، الدوس هكسلي Aldous Huxley وتلاميذهم حيث تلمح فجراً جديداً لعلم السلوك . والواقع أنه من الخير للمؤرخ أن يظل على دوام الاتصال بهذا

العلم ، وساعد المؤرخون وتلامذتهم المشتغلين بعلم الأجيال الوصفى مساعدة قيمة وذلك بتزويدهم بمعلومات قيمة عن مختلف أنماط السلوك التي سادت بين البشر . ولكن خدمات المؤرخين في هذا المجال جاءت أقل مما كان ينبغي أن يكون ، إذ قلما اهتم المؤرخون بالسلوك والعادات ، فضلا عن أنهم لم يكونوا في العادة موضوعيين عندما تناولوا السلوك الخلقى ، إذ كانوا يحكمون على السلوك بمعايير مصطنعة بدلاً من معالجته بطريقة غير عاطفية . يضاف إلى هذا أن المؤرخين طالما تمسكوا بالمبدأ الأخلاقي البروتستانتي البيوريتاني في نظرهم إلى الأخلاق بوصفها ظاهرة ترتبط بالجنس والجنس وحده . ثم كان أن توافرت مادة قيمة ليست شديدة الارتباط بالحماسة المسيحية في مؤلفات ليكي ، ميارز ، ماك كيب Mc. Cabe ، وغيرهم . وهناك أعمال عديدة للمؤرخين تناولت تاريخ السلوك في عصور مناطق معينة على الرغم من أنه لا يوجد جهد منظم لإنشاء قسم خاص للدراسات التاريخية المتعلقة بتطور أنماط السلوك المتعددة وعلاقتها بمفاهيم الجنس والملكية والترفيه والنظرة العامة إلى الحياة .

أحدث المناهج في أسلوب تعليم التاريخ ودراسته

على الرغم من أن الجانب الرئيسي في التقدم الذي طرأ على الكتابة التاريخية منذ عهد رانكه يبدو في اتساع نظرة المؤرخ ، إلا أن هناك نواحي تحسن هامة في الجوانب التقليدية القديمة من التطور . ففي المقام الأول نجد أنه على الرغم من أن مدارس البحث لم تأت بشيء جديد يذكر لم يتضمنه منهج رانكه ، ألا أن هناك أوجه تحسن هامة طرأت على مجال كل من النقد التاريخي وطرق تدريس التاريخ منذ أيام رانكه . هذا إلى أن المبادئ الرئيسية للنقد التاريخي هذبت كثيراً ونظمت في تلك المؤلفات الممتازة التي وصفها برنهييم Bernheim ، ولف Wolf ، لانجو Langois ، سيجنوبوس Seignobos ، وغيرهم حتى أصبح المبتدئ في الدراسة في هذا المجال يجد تحت تصرفه أبحاثاً طويلة للمدارس التاريخية وطرق تدريس التاريخ . كذلك هناك فهارس كاملة بأسماء كتب التاريخ الخاصة بدول متعددة ، وصفها كل من بيتو Peatow ، لانجلو Langlois ، مولنير Molinier ، مونود Monod ، دهلمان ويزر Dahlman Waitz ، جروس Gross ، وليامز ، شاننج ، هارت ، ترنر Turner . وقد أضيفت إليها قوائم حديثة تضم كل الأعمال التي جددت في هذا المضمار والتي ظهرت في المجلات الدورية التاريخية التخصصية . وهكذا يستطيع طالب التاريخ

أن يلم بكل ما كتب في مجال تخصصه . ومن أدق الكتب وأشملها التي ترشدنا إلى الحصيلة الهائلة لمصادر التاريخ القومى والدينى التي جمعت في خلال القرن التاسع عشر تلك التي وضعها بوناست Potthast، شيفاليه Chevalier، جروس Gross وغيرهم .

ويستطيع طالب التاريخ في عصرنا هذا أن يتصفح في دقائق قليلة بقضيتها في أى مكتبة كبيرة مصادر للتاريخ كانت تكلف الباحثين في الأجيال السابقة شهورا من البحث المضى غير المثمر . يضاف إلى ذلك أن الأرشفات ودور الحفظ الخاصة والعامة على السواء فتحت أبوابها على نطاق واسع أمام الباحثين في التاريخ وذلك منذ أيام الحرب العالمية الأولى ، وبخاصة بعد أن حدثت ثورة حقيقية في اللوائح منذ سنة ١٩١٨ . هذا إلى أننا في بعض الأحيان نجد كتباً إرشادية خاصة بهذه الأرشفات أعدت بكل عناية وينبغي ألا ننسى ما حققه البحث التاريخي من زيادة كبيرة في الدقة والكفاية والسرعة . نتيجة لاستخدام الفهارس المعدة على بطاقات ونظام الحفظ وفي الملفات والمذكرات غير المنشورة والمشروعات المتقنة المتضمنة إعداد فهارس مزودة بالإحالات . وأروع من ذلك كله الوسائل الخاصة قبل تصوير الوثائق ونقلها على الميكرو فيلم مما ساعد على اتساع نطاق توزيع وتبادل وحفظ الوثائق مما لا يعرضها للخطر .

ولا يقل التحسن الذى طرأ على مهنة التدريس في التاريخ أهمية عن التقدم الذى حدث في الحرث وسائر المساعدات الآلية الأخرى . فتحت اشراف وتوجيه الأساتذة المدربين ، أمكن خريجو أقسام التاريخ - مهما يكن من أمر مقدرتهم المحددة في التأليف - أن يقدموا معلومات أكثر دقة في مجال التاريخ من خلال أبحاثهم ووسائلهم العلمية الدقيقة ، أكثر مما فعلت في الماضى مجلدات كثيرة عاجلت التاريخ . وبوجه عام لم يطرأ سوى تغييرات طفيفة على الشكل الخارجى لتدريس التاريخ في الجيل الأخير وما زالت طريقة المحاضرة وحلقات البحث تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل التعليم العالى . ولعل أهم تجديد حدث في هذا المجال هو تطبيق الطريقة التي تسمى طريقة المشروع ، وهي التي تقوم على أساس فكرة أن تدريس التاريخ في العصور السابقة ينبغي أن يوجه أساساً لتوضيح علاقة الماضى ، بالمشكلات الرئيسية للحاضر وتأثيره عليها . وعلى الرغم مما يمكن أن تنزلق إليه هذه الطريقة من مبالغة وتشويه فإنها - إذا استخدمت بحذر - تضىء نوعاً من الحيوية على دراسة التاريخ وتدرسه ما تعجز معه أى طريقة أخرى ومع ذلك فإنها لم تحظ بتقدم كبير في الجامعات والكليات حيث استطاع الأساتذة أن يقاوموا أى اتجاه يقلل من قيمة التاريخ بدعوى جعله عملياً ومفيداً بدرجة أكبر في تعليم الجنس البشرى وتوجيهه .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يشك في أن علم التاريخ قد أفاد كثيراً من النشاط المنظم والتعاوني الذي شهده مجال تعليم التاريخ في الجامعات ، إلا أنه كسائر أشكال الجهد المهني المنظم لا يخلو من جانب سلبي مؤسف . وأهم ما نلاحظه في هذا الشأن هو أن النظام الجامعي لتدريس مادة التاريخ يعرقل تقدم وانتشار المفاهيم الجديدة المتعلقة بطبيعة التاريخ وغرضه وأهم وأنجح الطرق لتدريسه . ويرجع هذا الموقف بصفة أساسية إلى الحقيقة الخاصة بأن الثورة العظيمة في موقف العلماء من التاريخ ، كانت إلى حد كبير من عمل الشباب في حين أن المؤرخين القدامى القائمين بالتدريس الآن كانوا قد أمّوا تدريبهم وتعليمهم قبل حدوث هذه الثورة . وهكذا يجد المؤرخون الشباب أنفسهم قائمين بالتدريس في أقسام يرأسها في كثير من الحالات مؤرخون ذوو آراء ومعتقدات عتيقة ويبجلون تلك الآراء ويحترمونها ، مما يضطر الشباب في كثير من الحالات إلى كبت آرائهم التاريخية غير التقليدية الخاصة بطرق تدريس التاريخ وتفسيره .

ومن بين الأمور التي استغلت في تعجيز المدرسين التقدميين ذلك الإشراف الحثيث على أنواع الدراسات والمناهج التي يقترحونها ، مما يجعل من المستحيل إدخال كثير من المادة المستخدمة . ولكن بمرور الزمن سوف يتم معالجة هذا الموقف . وإنه لشيء له مغزاه أن نجد معظم الرجال الذين صاغوا أو يقومون بصياغة التاريخ الجديد لا يشتغلون بتدريس التاريخ في الجامعات . وهناك جانب آخر لعملية فرض فضائل المحافظة والثبات على المؤرخين التقدميين من الشباب ، وهو ما يحدث من تفضيل أصحاب الذوق السليم من ذوي الآراء التي تنزل التاريخ منزلة رفيعة ، وتعطيه قدراً هائلاً من الاحترام وذلك عندما تقدم الجمعيات التاريخية منحها الدراسية . وموقف التعليم الجامعي من مادة التاريخ ليس موقفاً فريداً إذ إنه يشبه ما يحدث في كافة مجالات التعليم الأخرى ، فعند أيام ابيلارد والنجاح الرسمي يكون من نصيب أولئك الذين لا يأتون بأفكار جديدة مزعجة ، والذين يتقبلون الأوضاع كما هي ، أو أولئك الذين كان لديهم من الكفاءة واللباقة ما يمكنهم من تطبيق تلك القاعدة المفيدة الملائمة التي أخذها ديكارت عن أوفيدو والتي تقول «إن الذي يستطيع أن يخفي أفكاره بنجاح هو الذي يحيا كأحسن ما تكون الحياة» .

التكنولوجيا الحديثة والمستحدث في كتابة التاريخ

من أروع وأبرز التطورات الحديثة في ميدان التاريخ ما نجم عن جوانب متعددة من التكنولوجيا الجديدة . ومعظم هذه التطورات يتعلق باستخدام وسائل أكثر شمولاً وسرعة لتصوير الأحداث التاريخية مثل الصحف والإذاعة والصور المتحركة خاصة الحربية الناطقة .

فالصحيفة الحديثة تقدم عرضاً شاملاً للتاريخ الجارى المحلى والقومى والأجنبى على السواء ، وهى تعرض الأحداث للقارئ بعد وقت قصير جداً من وقوعها . ففى خلال أربع وعشرين ساعة يمكن للقارئ المعاصر أن يعرف عن شئون العالم الهامة من خلال صحيفة ، أكثر مما كان يمكن معرفته فى سنة كاملة فى وقت الحرب الأهلية الأمريكية . يضاف إلى ذلك أن اختراع الصور المرسلة بالراديو قد ساعد على تعزيز الأخبار بصور حية للأحداث والشخصيات . ومن الممكن الاعتماد نسبياً على المعلومات الصحفية . وعلى الرغم من السرعة المطلوبة من المراسلين مما يضطرهم إلى اختيار الأخبار قبل أن يتم صفها فى أعمدة الجريدة . وندين بهذه السرعة للتقدم التكنولوجى الهائل الذى حدث فى عالم الطباعة فضلاً عن الوسائل التى تساعد على إرسال المعلومات بسرعة والعمل المنظم الخاص بجمع الأخبار ، وهو الذى تقوم به وكالات الأنباء مثل النيويورك تايمز والاسشيتد برس وغيرها من تلك الوكالات التى ينتشر مراسلوها فى كل أرجاء العالم ، ويقفون على أهبة الاستعداد لكى ينقضوا كالصقور على كل ما يمكن أن يكون خبراً . وهكذا نتبين أن مؤرخ الشئون الجارية يجد تحت تصرفه أداة كاملة على درجة عالية من الكفاءة هى الصحيفة الحديثة ، وهذا أمر لم يتوفر لسلفه الذى عاش وكتب منذ قرن مضى . وحتى إذا لم يجد مؤرخ الشئون الجارية وقتاً كافياً لتصفيف وترتيب ما يجده من معلومات فى الصحف ، فلا أقل من الرجوع إلى المجلات الأسبوعية التى تقوم بذلك العمل نيابة عنه حيث إنها تنهض بمهمة تفسير الأخبار اليومية بطريقة عارضة .

وتعتبر مجاميع الصحف فى الوقت الحاضر من أخصب مصادر المعلومات التى يستخدمها مؤرخو العصور التى تبدأ من الوقت الذى أصبحت فيه الصحف أداة هامة لجمع الأخبار . ويسوقنا هذا إلى مسألة الدقة النسبية للصحافة والتاريخ الرسمى . فكثيراً ما يستخدم المؤرخون عبارات مثل مجرد صحافة أو مجرد صحافى لوصف كثير من الانتاج والشخصيات الصحفية . ومع ذلك يمكن

الاعتماد على الكتابة الصحفية الجيدة بقدر الاعتماد على السرد التاريخي الذي ينسخ منها ، لأن الصحفي المدرب تدريباً جيداً يستطيع أن يجمع وينظم مادته بما له من خبرة طويلة في الملاحظة السريعة والتسجيل الدقيق ، وبما له من خلفية وبصيرة وأساليب متخصصة تمكنه من أداء واجبه أداءً ناجحاً كاملاً . ومن ثم فإن إنتاج مثل هذا الصحفي في الظروف العادية يمكن أن يكون نقلاً أميناً للأحداث . وحتى في وسط ظروف الاضطراب العام — كتلك التي تعقب الحروب العالمية — نجد أن الصحفي لا يزيد عن المؤرخ المحترف وقوعاً تحت رحمة العواطف . وهذا الإنتاج الصحفي يوضع في ملفات أو مجلدات ويحفظ في مكتبات الصحف ، حتى إذا ما مضى جيل أو نحو ذلك اتجه المؤرخون إلى هذه المجلدات يقلبون صفحاتها بعد أن يكون لونها قد اصفر بفعل الزمن . وينسخون ما شاء لهم النسخ ويعيدون كتابة ما يريدون من مادة وهكذا وعلى المدى البعيد يجد المؤرخون أمامهم خليطاً هائلاً يمثل خلاصة جهود مئات المراسلين الصحفيين ، وإذا كان المؤرخ يمتاز بقدرته على إلقاء نظرة فاحصة على ما تتضمنه الصحف من أحداث ، وهي نظرة تفوق نظرة الصحفي كما أنه يستطيع مقارنة ما ورد في الصحف المختلفة عن الحدث نفسه أو الموضوع ، فإن النتائج التي يتوصل إليها في النهاية لا يمكن أن تكون أكثر دقة من المصادر التي استخدمها .

على أنه إذا كان للمؤرخ نظرة أفضل إلى الأحداث ، فإن للصحفيين بعض المزايا الخاصة أهمها أنهم شهود عيان للأحداث ، فهم أخصائيون في فن مشاهدة الأحداث وأنهم يعيشون وقت وقوعها ويلمكون تمام الإلمام بالإطار العام الذي يحيط بالأحداث التي تتضمنها تقاريرهم وتحقيقاتهم الصحفية . أما المؤرخ فإنه يظهر على المسرح بعد ذلك بكثير ولذلك فهو يفتقر إلى ذلك الاتصال النفسي بالشعوب والأحداث المعينة . ولا يمكن أن يكون له أكثر من اتصال غير مباشر وبعيد بالقضايا والشعوب والأحداث التي يسعى إليها جاهداً لوضعها . وهكذا يبدو أن الصحفي المدرب يمتاز عن المؤرخ إذا ما قورن الاثنان من الموقع نفسه الذي يقف عنده كل منهما ولا يمكن لنظرة المؤرخ الأبعد في مداها الزمنية أن تميزه وحدها عن الصحفي . لهذا كله فإن من العدل أن نقول إن التاريخ الذي يعتمد على الصحافة لا يمكن أن يكون دقيقاً ويمكن الاعتماد عليه مثل الصحافة المعاصرة الجيدة ذاتها .

ويمكننا أن نصور ميزة الأساليب الصحفية تصويراً أفضل إلى أولئك الصحفيين الذين تحولوا إلى مؤرخين مثل الأستاذ آلان نيفنز Allan Nevins (من جامعة كولومبيا) وهو الذي كان لعدة سنوات صحفياً بارزاً ولم يقدره المؤرخون المحترفون تقديراً جيداً ، إلا بعد أن أصدر عدداً من

المؤلفات التاريخية الممتازة ضمته إلى صفوفهم ، حتى أصبح يعتبر بحق وعن جدارة علماً بارزاً من أعلام المؤرخين . وقد ظل بين منصب أستاذ الصحافة في جامعة كولومبيا ومنصب الصحافي في صحيفة نيويورك ورلد Newyork World . وشبهه بحالته حالة الأستاذ هانز كوهن .

وتعزز الجريدة السينمائية الناطقة العمل الصحفي ، حيث إنها من أسرع الوسائل لعرض الأحداث التاريخية في صورة مرئية أمام ملايين الناس الذين يشاهدونها كل أسبوع في إطار جذاب ، دون أن يبذلوا أى جهد ذهني ويتجه المؤرخون في الوقت الحاضر إلى السينما لتقديم العرض المسرحي التاريخي لا للأحداث الجارية فحسب ، بل إنهم يستخدمونها أيضاً في عملية النقل الأمين للأحداث التي مضى عليها الزمان .

أما المذيع (الراديو) فقد دخل حديثاً إلى الميدان كوسيلة لنشر الأخبار نشرأ سريعاً . وقد ساعدت الإذاعة بدرجة كبيرة على نقل الأخبار العالمية فور حدوثها . وأحسن تصوير لفاعلية الإذاعة في مجال نشر الأخبار هو ذلك الخبر الخاص برحلة أدميرال بيرد Byrd عبر القطب الجنوبي سنة ١٩٣٠ حيث استطاعت صحيفة نيويورك تايمز عن طريق محطاتها اللاسلكية الخاصة في نيويورك أن تعرف كل شيء عن مغامرة بيرد بمجرد أن علم بها رفاقه . وقد التقطت هذه المحطة رسالة بيرد التي بعث بها من طائرته إلى القاعدة التي أقبل منها . هذا إلى أن نشرات الأخبار التي تذاع مراراً كل يوم من محطات الإذاعة تنقل أنباء الأحداث المحلية والعالمية إلى ملايين الناس . دون الحاجة إلى خروجهم من منازلهم . ولا نجد في البرامج الإذاعية مثل برنامج عملية الزمن March of Time عرضاً للتاريخ الجارى فحسب ، بل نجد أيضاً نقلاً أميناً لأحداث التاريخ في الماضي . واستمع مئات الملايين من الناس في الإذاعة إلى مراسم الاحتفال بتتويج الملك جورج السادس وبعد ذلك بست عشرة سنة شاهد عدد أكبر من الناس على شاشة التليفزيون الاحتفال بتتويج ابنه .

وبدأت الجمعية التاريخية الأمريكية أخيراً ترعى برنامجاً إذاعياً تاريخياً . وإنه لشيء ممتع أن نلاحظ في هذا الشأن أن التاريخ — وهو الذي بدأ في صورة سرد شفوي وجزء من الحكايات الشعبية — يعود الآن ولو بشكل جزئي إلى طريقة التناقل باللسان . وعندما يحدث في المستقبل تصوير عمليات اختراق الحدود وبدء الحرب وتصوير عملياتها وعمل تسجيلات صوتية لها ، فإننا سنتمكن على نحو أبعد مما وصلنا إليه فعلاً من حفظ الحقائق التاريخية ، مما يتيح للمؤرخين فرصة إعادة تصويرها .

وفي سنة ١٩٣٠ كتب كارل بيكل Carl Bickel مدير وكالة اليونيتديرس أنثذ يقول « إن إدارة قرص أو مفتاح سوف يمكنك وأنت في حجرة جلوسك أن تسمع وترى سباق كنتاكي . وأن تشاهد بوضوح المباريات الرياضية بل من أن تدور حول العالم وتحضر العروض المسرحية وتشاهد الأوبرات ، والولائم الكبرى وأن تجلس في قاعة الكونجرس في واشنطن وأن ترى استقبال طائرة في أفريقيا وعندما كتب بيكل هذا التنبؤ بدا للناس غريباً كغرابة رحلة القمر ولكن كل ذلك وأكثر منه قد أصبح اليوم شيئاً عادياً في كل بيت به جهاز للتلفزيون .

وكذلك أحدثت التكنولوجيا ثورة هائلة في طريق الحصول على معلومات عن الحضارات القديمة ، فطريقة البوتاسيوم ارجون تجعل من الممكن تحديد عمر البقايا حتى مليوني سنة مضت كما أن المسح الجوي يجرى قبل البدء في عمليات التنقيب الهامة عن الآثار . والحق أن كثيراً من مواقع الآثار الهامة تكتشف في أثناء الاستطلاع الجوي . ومن ناحية أخرى فإنه حدث تقدم هائل في عمليات الحفر ذاتها بعد أن حل الحفار البخاري محل الجاروف ، مما جعل العمل أكثر سهولة ونظافة وسرعة . وبالمثل فإنه يمكن أخذ صور جوية للآثار التي يتم الكشف عنها بالحفر وهذا يساعد بدوره على رسم صورة أكثر اكتمالاً ودقة للإنجازات في ميدان الدراسات القديمة والآثار . وكان آخر مشروع تاريخي قام به المرحوم هنري بروسنيه هو جمع وعرض صور جوية لآثار الشرق الأدنى القديم .

وخلاصة القول أنه إذا كانت التكنولوجيا قد خلقت للمؤرخ عالماً اجتماعياً جديداً عليه أن يتناوله بالبحث فإنها أسدت إليه خدمات جليلة وساعدته في معالجة الكثير من المشكلات التاريخية من عهود الحضارات القديمة في أرض ما بين النهرين ويوكافان في أمريكا الوسطى حتى آخر الأحداث في القرن الحالي .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING
SELECTED REFERENCES

- Robinson, The New History.
Shotwell, An Introduction to the History of History, chap. xxvii.
H.E. Barnes, Historical Sociology, Philosophical Library, 1948.
The New History and the Social Studies.
H.E. Barnes and Howard Becker, Contemporary Social Theory. Appleton-Century, 1940.
Social Thought from Lore to Science, Vol. II.
E.C. Hayes, ed., Recent Developments in the Social Sciences, Lippincott, 1927.
W.F. Ogburn and Alexander Goldenweiser, The Social Sciences, Houghton Mifflin, 1927.
Pendelton Herring, The Social Sciences in Historical Study, Social Science Research Council, 1954.
H.M. Parshley, Science and Good Behavior, Bobbs-Merrill, 1928.
E.P. Cheyney, Law in History and other Essays. Knopf, 1927.
Dray, Laws and Explanations in History.
Patrick Gardiner, The Nature of Historical Explanation. Oxford University Press, 1957.
Harlow Shapley, of Stars and Men. Beacon, 1958.
White, The Evolution of Culture.
Jacques Barzun, Race, A Study in Supersitition.
R.G. Hoxie et al., A History of the Faculty of Political Science, Columbia University. Columbia University Press, 1955.
B.F. Hoschitz, ed., A Reader's Guide to the Social Sciences. Glencoe Free Press, 1959.
Paul Tillich. The Interpretation of History. Scribner, 1936.

Muzzey, *Essays in Intellectual History Presented to James Harvey Robinson*.
 V.F. Calverton, ed., *The Making of Man*. Modern Library, 1931.
 Goldenweiser, *History, Psychology and Culture*.
 F.H. Hankins, *The Racial Basis of Civilization*. Knopf, 1926.
 MacCurdy, *Human Origins*.
 Grahame Clark, *World Prehistory*. Cambridge Univ. Press, 1961.
 R.V.D. Magoffin and E.C. Davis, *The Romance of Archeology*. Holt, 1929.
 Stanley Casson, *The Progress of Archeology*. McGraw-Hill, 1935.
 C.R. Knight, *Before the Dawn of History*. McGraw-Hill, 1935.
 J.C. McDonald, *Chronologies and Calendars*. London, 1927.
 Franklin Thomas, *The Environmental Basis of Society*. Century, 1925.
 Seligman, *The Economic Interpretation of History*.
 R.W. McLaughlin, *The Spiritual Elements in History*. Abingdon Press, 1926.
 C.A. Beard, *A Charter for the Social Sciences in the Schools*. Scribner, 1923.
 The Nature of the Social Sciences. Scribner, 1934.
 P.V.N. Myers, *History as Past Ethics*. Ginn, 1913.
 R.M. Tryon, *The Social Sciences as School Subjects*. Scribner, 1935.
 Paul Klapper, *The Teaching of History*. Appleton, 1926.

الفصل الخامس عشر

التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

اعتبارات قهيدية

سنحاول في هذا الفصل أن نعرض تقييماً متفقاً عليه للتاريخ الجديد وأن نجعل البرنامج المقترح له والآمال المرجوة منه ونوضح ما ينبغي عمله لكي يزدهر هذا العلم وينمو . ومهما يكن من عيوب هذا العرض فإن ذلك أمر له أهميته نظراً لأن التاريخ الجديد لا يمكن أن يقرس بطريقة غير هادفة أو غير معتن بها ، فنحن لا بد وأن نعرف ما نريد تحقيقه وكيف نتوصل إليه بنجاح .

وأول ما يواجهنا في هذا الصدد هو ذلك التساؤل الذي أثاره بلباقة وقوة الأستاذ كارل بيكر عند استعراضه كتاباً للمؤلف بعنوان « التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية » في مجلة Satur-day Review Literature في عددها الصادر يوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٢٥ . وانصب تساؤل الأستاذ بيكر على طبيعة التاريخ الجديد ومجاله ومدى انطباق صفة « جديد » عليه . وهناك اعتقاد عام بأن التاريخ الجديد يعني ذلك النوع من الكتابة التاريخية الذي يطرح جانباً المفهوم الذي يرى أن خير ما يناسب التاريخ هو أن يكون علاجاً « للسياسات الماضية » يقوم على أساس اختيار الأحداث وشرحها . وقد جرى الاصطلاح على أن يقصد بالتاريخ الجديد طريقة العرض التاريخي التي تحاول بصفة عامة أن تعيد صياغة تاريخ الحضارة ككل بوصفه على حد قول الأستاذ روبنسون كل ما نعرفه عن كل شيء فعله الإنسان أو فكر فيه أو أمل فيه وأحس به . ويعتبر هذا المفهوم للتاريخ الجديد كافياً ودقيقاً على وجه العموم . ولكن الشيء الجوهرى في هذا الموضوع هو المفهوم القائل بأن التاريخ الجديد هو اتجاه للبحث عن الأصل Genetic Orientation .

ويحمل هذا المفهوم الموسع والمنقح لمجال التاريخ وعمله في طياته متطلبات رئيسية ، وهي على وجه التحديد نوع من التدريب يمكن المؤرخ الطموح من أن يقوم بأعباء مهنته في ثقة ونجاح . ولا بد أن يشتمل هذا التدريب الموسع في المحل الأول على إلمام كامل بطبيعة الإنسان وعلاقاته ببيئته الطبيعية والاجتماعية الأمر الذي يمكن المؤرخ من معالجة مشكلة صعبة ، هي إعادة صياغة الأوجه المختلفة لتاريخ الحضارة . كذلك لا بد وأن يعد المؤرخ لتحليل التطور في النظم ، وهو التطور الذي يحفظ سجل سيطرة الإنسان تدريجياً على بيئته المادية ونجاحه المضطرب في تنظيم الجهود التعاونية لبنى جنسه . وبمعنى آخر فإن على هؤلاء الذين يتطلعون إلى العمل في مجال التاريخ الجديد ، أن يكونوا مزودين بأساس من علم الأحياء وعلم الأجناس البشرية وعلم النفس وعلم الاجتماع . كذلك فإن عليهم أن يتدربوا تدريباً خاصاً في العلوم الاجتماعية وفي بعض فروع العلوم الطبيعية وعلم الجمال وهي الفروع التي تتصل بهذا الجانب أو ذاك من الكتابة التاريخية التي ينوون الاشتغال بها^(١) .

وسوف تناقش في جزء لاحق من هذا الفصل ما ينبغي إعداده للاستفادة الكاملة من التاريخ الجديد . ولكن يجدر بنا في البداية أن نصر على حقيقة أن أفكارنا الجديدة عن طبيعة التاريخ لا تتطلب امتداداً بعيداً لمدى اهتمامات المؤرخ فحسب ، وإنما تتطلب كذلك توسعاً شاملاً في الإعداد اللازم للاشتغال في هذا المجال اشتغالا يوحى بالثقة ويحظى بقيمة ثابتة . ولقد نادى البعض بأن كل ما يلزم لكتابة التاريخ الجديد هو تغيير القلب بمعنى أن على الفرد أن يغير من عقله إذا أراد أن يتحول من معالجة أصول الحلف المقدس أو انقسام حزب الأحرار إلى تحليل الصراع الطبقي في العصور القديمة أو تاريخ العلم الطبيعي في العصور الوسطى ، أو تحليل نفساني لشخصية فولتير ، واقتصاديات النظام القاري ، أو تطور النظام القضائي الحديث ، أو التقدم في علم الطب منذ سقوط المدرسة الأبيقراطية ، وجاء في الأسفار المقدسة أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يزيد قامته ذراعاً واحدة بمجرد الشروع في التفكير^(٢) في ذلك ويمكننا أن نقول باطمئنان إنه من الصعوبة بمكان أن يحول الفرد نفسه من راوية تقليدية إلى مؤرخ للثقافة أو النظم وذلك بمجرد إمعان الفكر .

(١) ناقش المؤلف هذه النقطة بالتفصيل في كتابه ، «التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية» .

(٢) انجيل متى . الاصحاح السادس ، (المراجع) .

فالتاريخ الجديد يتطلب شيئين معاً : برنامجاً جديداً بمضمون التاريخ ومجموعة جديدة من المؤهلات اللازمة للاشتغال بالتاريخ .

هذا عن مجال التاريخ ، ولكن ماذا عن شرعية نعته بصفته جديد ؟ الواقع أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء جديد أو فريد حتى في اتساع مجال التاريخ وتعديه دائرة الأحداث السياسية . فأول عمل تاريخي شامل ، وهو الذي وضعه هيرودوت تحت عنوان تاريخ الحرب الفارسية كان كما رأينا في التاريخ الثقافي وفي كل عصر من العصور التي أعقبت عصر هيرودوت كان هناك كتاب تعدى اهتمامهم بالماضى مجرد الحملات العسكرية والصراع بين الأحزاب والجماعات ، حتى ولو اقتصر نشاطهم على ذكر المعجزات التي جاء بها قديس أو الشرور التي جلبها ساحر . أما الشيء الجديد حقاً في التاريخ الجديد من ناحية الموضوع ، فهو ازدياد قبول المفهوم الموسع للتاريخ في العصر الحالي . ففي الأزمنة الماضية كان الكتاب الذين يتناولون تاريخ الثقافة أناساً منعزلين ، يتعرضون لعدم التقدير . أما اليوم فإن الغالبية العظمى من المؤرخين الشبان الذين آمنوا باتساع مجال التاريخ الجديد ، فضلاً عن أن بعض مؤيدي الكتابة التاريخية التقليدية بدأوا يستسلمون للاتجاه الجديد أو بدأوا على الأقل يجاهرون بالترجع ، وهو أمر يدعو للاهتمام والقبطة ، وأكثر أهمية من مجرد تحول تسعة وتسعين في المائة من الشباب إلى الاتجاه الجديد . فانتصار وجهة النظر القائلة بالتطور والاتجاه نحو البحث عن أصل الإنسان ، وهي النواحي التي تتطلب من المؤرخ أن يكون مهتماً أساساً بتبيان كيفية مجيء النظام الحالي إلى الوجود يعتبر شيئاً جديداً وفريداً حقاً وهو يمثل التاريخ الجديد في أبهى صوره . ولم يكن في تاريخ هيرودوت من هذا القبيل سوى النزر اليسير .

وأصبح هناك بالنسبة للمفهوم الخاص بالإعداد الأولى اللازم لدراسة التاريخ وكتابته أمور جديدة لا خلاف حولها . ذلك أن الاعتقاد السائد حتى عصر فون رانكه هو أن الطموح الأدبي والأسلوب السليم يؤهلان أي فرد كي يضع نفسه على قمة التاريخ بصورة ناجحة . وكان على الرغم من ذلك قلة من الكتاب أمثال بوليبيوس ، مايبلون ومن أصروا على تدريب المؤرخ تدريباً خاصاً وتزويده بمؤهلات معينة لا بد من توافرها فيه . وكا أن أوضح رانكه ومن أتوا بعده أنه لا بد من إعداد الفرد قبل أن يشتغل بالتاريخ وذلك بتدريبه تدريباً طويلاً على مبادئ نقد الوثائق وعمل الفهارس التاريخية . أما الرأي القائل بأن المؤرخ لا بد وأن يلم إلماماً كاملاً بالعلوم الاجتماعية فهو اتجاه حديث نسبياً . ولم تصل هذه العلوم ذاتها إلى المستوى الذي يجعل مادتها

أساساً يعتمد عليه في قوة الإدراك والتحليل التاريخي إلا حديثاً . ولم يتم التوصل إلى فكرة اعتماد التاريخ على العلوم الاجتماعية قدر اعتماده على العلوم السياسية والديبلوماسية وعلم المخطوطات إلا في وقت متأخر جداً . ونخرج من هذا كله بأن أكثر الأجزاء جدة وأصاله في الكتاب الذي أحدث ثورة كبرى والمعروف بالتاريخ الجديد للأستاذ روبنسون هو ذلك الفصل بعنوان « حلفاء جدد للتاريخ » وهو يبين واضح للنظام التاريخي الجديد . فالتاريخ الجديد يعتبر جديداً من حيث قبوله مجموعة أوسع وأكبر من اهتمامات معظم المؤرخين ، كما أنه جديد كذلك من حيث اتجاهه إلى البحث عن أصل الإنسان وإقراره ضرورة إعداد المؤرخ إعداداً شاملاً يمكنه من أداء مهنته بكفاية ونجاح .

بعض ملامح انتصار التاريخ الجديد

جاء تطور التاريخ الجديد فيها يبدو نتيجة لعوامل وتأثيرات عديدة مختلفة . فهناك في انقاف الأول عدد من الكتاب جمعت اهتماماتهم الفردية بين الشغف العميق بالماضي والنظرة إليه من زاوية أكثر اتساعاً من زاوية السياسة الدبلوماسية والاستراتيجية العسكرية أو من هؤلاء ويلهلم ريهل Wilhelm Riehl الذي كان قاصاً خيالياً اهتم بالتاريخ القومي في ماضيه ، وكذلك فر فريتاغ Freytag الذي تناول التاريخ ببصيرة خلاقة نفذت إلى ماضي تاريخ بلده . أما بيركهاردت فإن اهتمامه بالتاريخ جاء في صورة تقدير واستحسان للأعمال الفنية في العصر الذهبي للفن الإيطالي . وأظهر كل من فولتير ورينان واندرو د. هويت حباً يعكس حب العقلايين الجارف بالحقائق المتعلقة بالتححرر الفكري للجنس البشري . ونطلع جرين Green بروح حساسة وعقلية متقنة للوصول إلى صورة أكثر دقة للأساس الاجتماعي لعظمة بلده . وأخيراً فإن ماكماستر Mc Master أخذ الاهتمام بالتاريخ عنده صورة تقدير مهندس عمل الفكر للطبيعة الملحة لقصة التطور القومي كما تصوره مصالحي كل الطبقات وحياتها .

أما التأثير القوي الثاني فجاء نتيجة لافتراض التطور وعلى الأخص اهتمام علماء الأحياء بمسألة أصل الإنسان . ذلك أن علماء الأحياء — كما أوضح ذلك الأستاذ روبنسون مراراً — هم الذين علموا المؤرخين مبدأ التطور والاتجاه نحو البحث عن الأصل ، وهو أمر لابد وأن يعتبر

حجر الزاوية للجوانب الأكثر حيوية من التاريخ الجديد^(١) . ويعزى الاهتمام الكبير من جانب مؤرخ التاريخ الجديد بكيفية تطور الأمور ووصولها إلى ما هي عليه أساساً إلى تأثير فلسفة التطور على العقلية التاريخية الأكثر تفتحاً وتقبلاً لكل ما هو جديد . وهكذا نرى أنه لمدة ثلاثة آلاف سنة ظل المؤرخون يميلون عن وجهة النظر التاريخية إلى أن جاء العلماء الطبيعيون وزودوهم بها . هذا على الرغم مما أمسك به مقدم دير القديس بطرس وتيرجو وكوندورسييه في القرن الثامن عشر من خيوط ضئيلة لعلم يتناول التغيير الاجتماعي .

وجاء الاهتمام بتتبع أصول الأشياء في وقت كانت الحضارة توج بتغيرات ثورية بفضل التحول العلمي والتكنولوجي والاقتصادي العظيم . وهكذا لم يعد إيضاح تطور الثقافة والنظم يعني مجرد التاريخ الدستوري وتطور الأحزاب وأصول المشكلات والمنازعات الديبلوماسية أو سلالة الأسر الحاكمة ، بل أصبح لابد من أن يشمل أموراً عديدة أخرى مثل اختراع المولد الكهربائي والتخدير الجراحي ، والمقايضات العالمية واشعاعات الراديو ، وعلاج الزهري والصحة العقلية ، والاختراعات الميكانيكية ونظام المصانع وآلة الاحتراق الداخلي ، وعملية بسم في صناعة الصلب وفن الطباعة ، وغير ذلك من الإنجازات التي لم تشغل قط فكر فريمان وهو الذي كان يعتقد بما يعرف . ومعنى آخر فإن الباعث على اكتشاف النظام الحالي جاء في وقت لم تعد الحضارة السائدة فيه كما كانت من قبل تظهر متنكرة خلف جهود بعض السادة الذين يناضلون من أجل امتيازات اقتصادية أو هيبة سياسية أو قوة يحافظون بها على أنفسهم على حساب أولئك المساكين مسلوبى الإرادة الذين كانوا يشكلون الجيوش النظامية الثابتة لحكام مطلقين زاد أو قل كرمهم . وعن اتجاه البحث عن الأصل نجم اهتمام بتاريخ الحضارة .

وكان أن حدا منهج البحث عن الأصل وهو المنهج الذي تتبعه الدارسون الأذكياء إلى السير قدماً نحو الخطوة التالية والأخيرة في تطور التاريخ الجديد ، وهي على وجه التحديد تفسير التطور التاريخي بطريقة تمكن من اكتشاف ما لتحول الحضارة وأصول النظم الاجتماعية من أهمية

(١) يجب أن يكون واضحاً أن تعليم وجهة نظر البحث عن الأصل من قبل علماء الأحياء وغيرهم من العلماء الطبيعيين كان تعليمياً في معظمه غير مباشر وغير مقصود وقليل من العلماء الطبيعيين هم الذين طبقوا مبادئ علمهم على الظواهر الأخيرة . وعندما ينصل الأمر للمواد الاجتماعية نجد العلماء قلما ينحسرون بنفس الاتجاه وغالباً ما يكونون جامدين أو حتى رجعيين . وكان المرحوم هنري برهفليد بورن خير مثال في هذا الشأن . (المؤلف) .

ومغزى . ولم يعد المؤرخون المحدثون يهتمون باكتشاف إرادة الله أو المصير النهائى للجنس البشرى من واقع سجلات الماضى ، كما فعل السابقون الذين نظروا إلى التاريخ على أنه فلسفة تلقن عن طريق سرد الأمثال . ومع ذلك فإنه لا بد من أن نقر بأن أهم أحداث الماضى هى التى لها شأن فى توجيه الأجيال الحاضرة أو المستقبل . يضاف إلى ذلك أن القيمة الحقيقية للتاريخ فيما يمكن أن يقدمه عون مادى يساعدنا على التوصل إلى فهم أفضل لحضارتنا ، ومن ثم إلى السيطرة عليها وإعادة توجيهها .

ومن أبرز الشخصيات التى أوضحت الدوافع المتعددة التى انبثقت عنها التاريخ الجديد . نذكر أسماء كارل لامبرخت ، هنرى بير ، جيمس هارفى روبنسون ، ت تيجارت ، ف . س . مارفن ، ارنولد توينبى ، والسيرج . أ . هامرتون .

أما مذهب لامبرخت فقد جاء وليد اهتمامه بعلم الأجناس البشرية ، وباتجاهات وندت Wundt السيكلوجية ومحاولة كومت Comte تفسير التقدم البشرى تفسيراً سيكلوجياً فضلاً عن الثقافة الشخصية الواسعة التى امتدت من التطور الاقتصادى إلى تاريخ الموسيقى . ومهما يكن حكمنا على مذهب لامبرخت وصيغه التاريخية فإن عمله كان أول الأشياء التى أثارت على نطاق واسع ذلك الجدل الذى انتهى بالانتصار المؤكد للتاريخ الجديد .

ولم يقتصر هنرى بير على الكتابة عن الجوانب النظرية للتركيب التاريخى ، ولكنه كما رأينا من قبل - أشرف على إصدار سلسلة عظيمة تحت عنوان تطور البشرية ، وهى التى كان الغرض منها فعلاً التوصل إلى هذا التركيب . وتكمن أساس نظريته فى وجهة نظره الاجتماعية عن التطور فى النظم ، ورغبته فى تقديم اتجاه علمى فيما يتعلق بالسياسة التاريخية ، ووضع منطق للتركيب التاريخى من وجهة نظر عالية . وكان حرياً بهذا كله أن يجعل مفهومه الخاص بالتركيب التاريخى يمتد جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ الإنسانية ككل .

أما جيمس هارفى روبنسون فإنه على عكس لامبرخت ، وبير . ولم يخرج تيجارت بأى مذهب خاص يتضمن مبادئ نظريته فيما يتعلق بالتاريخ . وجاء تحوله إلى التاريخ الحركى تحولاً تدريجياً ويجد المؤلف تفسيراً لذلك فى الحقيقة الخاصة بأن روبنسون كان إنساناً فعلاً يبحث عن الحقيقة دون ملل أو كلل . وما التاريخ الجديد إلا تاريخ متميز بغزارة الفكر . وقد تجلت بداية انفصال روبنسون عن التاريخ التقليدى فى نظراته الأصيلة إلى الثورة الفرنسية حيث وجد نفسه يعود إلى الوراء بحثاً

عن أصل الإنسانية . وعبر هو نفسه عن ذلك بقوله إنه في العشرين سنة التي أعقبت وظيفته الأولى محاضراً في جامعة بنسلفانيا انتقل من الاهتمام بمزائق السياسة الحديثة إلى المادة الفطرية الأولى التي نشأت منها الحياة ذاتها . كذلك فإنه تأثر بدرجة كبيرة بالاتجاهات الثورية التي تسعى للبحث عن أصل الحياة والإنسان . التي نادى بها علماء الأحياء . وازداد اهتمامه بمغزى التطور التاريخي بازدياد تحسن فهمه لكيفية تطور الفكر والثقافة . وهذا هو الذي جعله يتحول إلى الرأي القائل بأهمية تفسير مادة التاريخ . وتعزيز أهمية وعظمة الدور الذي لعبه روبنسون في حركة التاريخ الجديد في الولايات المتحدة إلى ماحظيت به مؤلفاته الدراسية من قبول ورواج ، فضلاً عن نجاحه كأستاذ في أحد معاهد الخريجين الكبرى في بلده وقدرته العظيمة على الإقناع بوصفه من دعاة الاتجاهات الجديدة . هذا فضلاً عن كثرة أتباعه وإخلاصهم له وصمودهم في الدفاع عن آرائهم .

وليس هناك بين كافة كبار الكتاب الذين عالجوا موضوع المناهج والاتجاهات الجديدة في التاريخ من حرم من التقدير مثلها على الأستاذ تيجارت . فعلى الرغم من أنه يأتي بلا جدال في مقدمة الكتاب الذين عالجوا الأساس النظري للتاريخ الجديد في الولايات المتحدة — إن لم يكن العالم كله — إلا أنه ظل مجهولاً وانعدم تأثيره خارج دائرة تلاميذه القلائل . ويرجع ذلك إلى تفضيله للعمل المستقل وإنكاره لأهمية ما فعله معظم الآخرين ورفضه ربط نفسه بأولئك الذين نجحوا في إرساء قواعد التاريخ الجديد .

ولم يكن ف. س. مارفن مؤرخاً محترفاً وإنما كان فيلسوفاً اجتماعياً مستتبساً ذاتع الصيت ، ومع ذلك فإنه فعل الكثير من أجل إثارة الاهتمام بالتاريخ الجديد في إنجلترا ودفع عجلة تطويره وعلى أساس من إيمانه بواقعية التقدم وبمعرفة العلم والتكنولوجيا الهائلة في تحقيق الرخاء البشري ، والحاجة إلى علاقات دولية سليمة ؛ وضع مارفن سلسلة الكتب المعروفة بسلسلة الوحدة ، بالإضافة إلى ما كان قد ألفه من كتب أهمها « الماضي الحر » . وكان لهذا الجهد المرموق أكبر الأثر في تعزيز موقف التاريخ الجديد . أما برنامج توينبي ونظريته الخاصة بمقارنة قيام وسقوط الحضارات فقد تحطمت على صخرة افتراضاته اللاهوتية المتطرفة التي جعلت عمله الضخم عملاً روحانياً أكثر منه تاريخياً . ونهض السير ج. أ. هامرتون بدور هام في وضع حركة التاريخ الجديد قدماً من خلال عمله كناشر ؛ وأشهر كتبه هو ذلك الذي أسماه التاريخ العالمي للعالم وهو الذي ظهر سنة ١٩٣٣ في ثمانية مجلدات ويعتبر أقيم المطبوعات في مجال التاريخ الجديد في إنجلترا .

وأخيراً فإن التاريخ الجديد لقي حديثاً تأييداً مدهشاً في إيطاليا حيث بدت بشائره في كتاب طالما كثر النقاش حوله هو عظمة روما واضمحلالها كما أنه لاقى تأييداً كبيراً من الفيلسوف البارز بندتو كروز. وقد سار المؤرخون الإيطاليون من أصحاب النزعة التقدمية وراء زعيمهم كواردو بارباجلو — الذي ألف واحداً من أعظم الكتب عن تاريخ الحضارة — وأنشأوا لهم في سنة ١٩١٧ مجلة بارزة أسموها « المجلة التاريخية الجديدة » Nouva Revista Storica .

برنامج التاريخ الجديد

ساد اعتقاد في وقت من الأوقات بأن من لديه قليلا من المعرفة يمكنه أن يكون مؤرخاً إذا ما تمكن من نسخ بعض الكتابات والنقوش المدونة على الأحجار في إحدى المقابر المحلية أو من كتابة مقال عن كليوباترا يقرؤه أمام ندوة محلية للحياكة . وهناك بين المؤرخين والمفكرين التقدميين في يومنا هذا من يندد بأي جهد يبذل لتحديد مجال التاريخ بل ويشجعون كل من يقحم نفسه في هذا المجال يتناول أية مشكلة تاريخية تروق له .

ويبدو لنا أن هذا الاتجاه لا يمكن أن نقبله بأي حال إلا إذا اعتبرنا كل شخص يقوم بخلط المساحيق طبياً أو كل من زود نفسه بسكين حاد ينبغي أن يشجع على ممارسة الجراحة بل إنه حتى التاريخ في الماضي — الذي لم يتعد مرحلة سرد الأحداث والقصص — كان يعاني من افتقاره لمنهج البحث السليم . وسيكون هذا هو وضع التاريخ الجديد إن لم يكن هناك اتفاق عام حول برنامجهِ وحول التدريب اللازم لتحقيق ما يرجى منه . ويحتاج الآن إلى اتفاق ووحدة وتعاون بالضبط كما هو الحال في مهن أخرى كالطب والمحاماة والهندسة .

وللتاريخ الجديد فيما يتعلق بمجال اهتماماته برنامج شامل وذلك بحكم تعريفه بأنه تسجيل لكل ما حدث في الماضي دون استبعاد أي شيء حدث في الماضي بحجة أنه غير تاريخي بالمعنى الحرفي ، أو غير ذلك من الحجج . ولكن ليس معنى هذا أن تكون هناك لا مبالاة تامة أو فوضى عامة فالحقيقة الخاصة بأن المؤرخ الجديد يقرأ الطبيعة التاريخية ككل ما حدث في الماضي ابتداء من تعاويد البدائيين وعادات التزين عند زوجات سليمان إلى اختراع الآلة البخارية إلى نسيج الفراش الذي كان يتمدد عليه واشنطون بجسده الفارع ، وهو في طريقه من فرجينيا إلى

ماساشوست كل هذا لا يعنى أبداً أن المؤرخ الجديد يطالب بأن يعطى قدراً متساوياً من الاهتمام لكل هذه الأمور أو أنه يعتقد في أنها متساوية الأهمية . ومما لا شك فيه أن الإنسان يأتي بنتائج طيبة إذا ما عمل في الحقل الذي يفضلُه ويهتم به . فإذا ما أراد الفرد أن يكون مؤرخاً وكانت لديه حماسة كبيرة لتتبع تطور الاستراتيجية البحرية في سويسرا فإنه ينبغي أن يشجع على ذلك . ولكنه لا ينبغي أن يعتبر ذلك العمل على قدر مساوٍ من الأهمية مع الدراسات المتعلقة بالثورة الصناعية ، أو مع الأبحاث الخاصة بتاريخ العلم الحديث . ومعنى هذا أنه لا بد من أن يكون هناك قدر من حسن الإدراك فتحدد الأهمية النسبية للمادة التاريخية بطبيعة الفترة التي تقع فيها ثم يمدى انعكاسها على الحياة المعاصرة . وفي كل من الحالتين يعتمد هذا التحديد بشكل مباشر وعمل على الغرض الماث في ذهن الكاتب . وأما المهمتَان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما :

- ١ - تصوير وإعادة بناء الحضارات في العصور الرئيسية في العصور الماضية تصويراً إجمالياً .
- ٢ - تتبع جذور الثقافة والتنظيم الحديثة .

وتتحدد في المهمة الأولى من هاتين المهمتين الأهمية النسبية للجوانب المتعددة للثقافة البشرية بما كان لها من مكانة واقعية في العصر الذي تريد تصويره . فإذا أردنا على سبيل المثال أن نصور حضارة عصر بركليز ، فإن المعيار الذي نقيس به أهمية الأحداث والاتجاهات ينبغي أن يكون من واقع عصر بركليز نفسه وليس من عصر المؤرخ . وهذه الحقيقة هي التي تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أستاذ وِرع للتاريخ في كلية من الكليات الدينية في كانساس يتصف بالتدين والظهر والجحود والافتقار إلى الإحساس الجمالي أن يصور في مهارة حضارة عصر الإسكندر أو أوغسطس . ذلك أن هذا الأستاذ سوف يصدم بالمعايير الجنسية عند الإغريق والرومان قدر اصطدامه بانعدام وجود مدارس الأحد أو القوانين التي تحرم الخمر وتفرض قيوداً على التدخين . وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت المؤرخين المسيحيين يرسمون صورة مشوهة عن الثقافة الوثنية . إذ لا يمكن لعصر كان جل هم أن يعد الناس لكي يموتوا موتاً هادئاً آمناً من أن يقدر أو يستحسن حضارة كانت فلسفتها تهتم بتعليم الناس كيف يحيون حياة سعيدة .

ومن ناحية أخرى فإن علاج المهمة الثانية من مهام التاريخ الجديد وهي سلى وجه التحديد تتبع تطور السمات المميزة للحياة المعاصرة ونظمها يتطلب معياراً لقياس الأهمية النسبية للجوانب المختلفة للثقافة بما يتفق مع العصر الحاضر فالدين مثلاً كان من أهم خصائص العصور الوسطى وكان دون شك أكثر أهمية من العلم ، ومع ذلك فإن من وجهة نظر الحضارة المعاصرة نجد أن تاريخ

العلم في العصور الوسطى أكثر أهمية من دراسة الحياة الدينية في تلك العصور . إذا كان علينا أن نعطي صورة حقيقية للحضارة الهيلينية ككل ، فإن علينا أن نختص المنجمين بقدر من العناية أكبر بكثير من تلك التي نخصصها للفلكيين ، ولكن إذا كنا نهتم أساساً بتوضيح أصول الحضارة المعاصرة ، فإن أعمال أريستارخوس Aristarchus وهيبارخوس Hyparchus تكون أكثر أهمية من أعمال كافة منجمي العصور الوسطى الكلاسيكية جميعها . وإذا كان علينا كذلك أن نعطي صورة حقيقية للاهتمامات الفكرية في حركة الإصلاح الديني البروتستانتية فإننا نحتاج إلى التركيز على مسائل التبرير بالإيمان ، أكثر من التركيز على الآراء الاقتصادية المعارضة لكل من لوثر وكالفن وغيرها من زعماء تلك الحركة . ومع ذلك فإنه من ناحية تطور ثقافة اليوم يبدو أن ابتعاد البروتستانت عن الآراء والعادات الاقتصادية الخاصة بالكاثوليك ، كان أمراً أعظم وأكثر أهمية من كافة المشكلات الدينية في ذلك العصر بأكمله . فروجر سيكون كان يبدو في نظر رجل العصور الوسطى شخصية تنتمي إلى تلك العصور في اهتماماته ونشاطه ، ولكنه لا يبدو كذلك للمؤرخ الباحث في أصل الإنسان لأنه يجد أن أبرز جوانب شخصية بيكون هي البصيص الضئيل من الجدة وإشاراته العابرة لفضائل طريقة الاستقراء والتجربة والملاحظة وتلميحاته الخاصة بالاختراعات الميكانيكية في المستقبل .

وتكفي هذه الأمثلة القليلة لتوضيح أن الأهمية العلمية للأحداث التاريخية والظواهر الثقافية ليست أمراً مطلقاً ، وإنما هي ذات أهمية مزدوجة ، بل ربما كان لها أكثر من أهمية واحدة . ذلك أن كل حقيقة من حقائق التاريخ لها أهميتها النسبية من النواحي التالية :

- ١ - أهميتها في العصر الذي كانت جزءاً منه
- ٢ - انعكاسها على جذور الثقافة المعاصرة .

وليس هناك باحث في التاريخ يستطيع أن يتناول المشكلات التاريخية دون أن يدرك تماماً حقيقة تلك الأهمية النسبية للمادة التاريخية ودون أن يوجهه الغرض المائل في ذهنه هو . وثمة اعتقاد ساد بأن المؤرخ الواحد يستطيع أن يضطلع بكلتا المهمتين أي أن يعيد تصوير وبناء حضارة ما وفي الوقت نفسه يوضح علاقتها بالعصر الحاضر . ولكننا نشك في صحة ذلك الاعتقاد لأن التباين في الأهمية النسبية بالنظر إليها من هذه الزاوية أو تلك من زوايا الاهتمام يحتمل أن يؤدي إلى تشويه خطير لهذا الجانب أو ذاك من جوانب العمل ذي الوجهين إن لم يكن للجانبين معاً .

كذلك لابد من أن يكون واضحاً أنه إذا كان الفرد مهتماً بأصول حضارة لا ينتمى إليها ، فإن معيار الأهمية النسبية للمادة ينبغي أن يتمثل في صلة هذه المادة بالحضارة التي يجري البحث عن أصولها . وهكذا فإن الوضع بالنسبة للمؤرخ الذي يبحث عن أصول الحضارة الإغريقية يكون الاهتمام بالمعلومات التي لديه عن مصر بقدر ما لها من مشاركة وصلة بالحضارة الهيلينية ، أكثر من اهتمامه بالحضارة المصرية في حد ذاتها .

وقد يشكو البعض من أن هذا المقياس لاختبار أهمية المادة التاريخية أمر نسبي وعملى ويتساءلون عما إذا كان هناك مقياس آخر مطلق مثالي . وفيما يبدو ليس هناك مثل هذا المقياس المطلق ، وكل ما هنالك حقاً هو أنه في التحليل الأخير نجد أن قيمة المادة التاريخية في شرح حضارتنا المعاصرة تعلو أية قيمة أخرى بها .

وتقودنا هذه المناقشة الموجزة لأبعاد واهتمامات المشتغل بالتاريخ وفق نهج المدرسة الجديدة ، كما يقودنا هذا العرض المبسط للمعيار ذي الوجهين لاختيار أهمية المادة التاريخية بطريقة طبيعية إلى مشكلة تنظيم المادة التاريخية في ضوء المفاهيم والاتجاهات الجديدة .

والواقع أن الأمر كان بسيطاً في الأيام الغابرة عندما وجد هيكل للتاريخ السياسى والعسكرى واعتبر هذا الهيكل دائماً يكفى تماماً ليكون إطاراً عاماً لنظم الملحة الكاملة للبشرية ، ولكن مفاهيم التاريخ الجديد كان لها من التأثير الهدام ما اتصفت به المدرسة التاريخية القديمة من بساطة بدائية ، مثلما كان لعلوم الطبيعة الفلكية والتطور البيولوجى ونقد الكتاب المقدس على ما اتصف به إيمان الآباء ومعتقداتهم المبسطة التي تبعث على الراحة والطمأنينة . وعلينا الآن أن ندرك أن الأحداث السياسية لا تكفى إطلاقاً لتشكيل البناء الكامل للتاريخ فحسب ، بل لا توجد مجموعة واحدة من الأحداث أو الحقائق التاريخية يمكن أن تستخدم لتنظيم المادة التاريخية . ذلك أنه لا يوجد مفتاح واحد يحل لغز السببية في التاريخ . وقد يبرز في بعض الأحيان عامل أو آخر يحظى بأهمية كبرى . ولكن لا يوجد هناك سبب أو تأثير واحد كانت له صفة الدوام على طول التاريخ البشرى بأكمله .

ويمكن القول بشكل نسبي وعام أن سلسلة السببية التاريخية إنما تسير على النحو التالى تقريباً : لدينا عاملان دائمان نسبياً في التاريخ هما الطبيعة الأصلية للإنسان والبيئة الجغرافية لمنطقة معينة . ولكن هذين العاملين ليس لهما صفة الجمود التام ، لأنها يرتبطان بعوامل مؤثرة أخرى

بحيث يتغير نظامهم بصفة مستمرة كي يحفظهم ويدعمهم . فالكيفية الأصلية للإنسان في تعاملها مع

كون معين من ألوان البيئة الجغرافية تؤدي إلى نظرة خاصة للحياة . وهذه النظرة شأنها أن تحكم بدرجة عظيمة في مدى انبثاق وتطور العلم والتكنولوجيا . ثم إن المستوى التكنولوجي يحدد طبيعة الحياة الاقتصادية التي يمكن أن توجد في أي عصر أو إقليم . هذا في حين أن النظم الاقتصادية تتجه لترك أثر قوى إن لم يكن فاصلاً في تكييف النظم والعناصر الثقافية الأخرى : « الاجتماعية والسياسية والقضائية والدينية والأخلاقية والتربوية والأدبية » .

على أن هذه في الحقيقة مبالغ في تبسيط العملية التاريخية ، لأن السبب والأثر ينشطان ويتفاعلان بصفة مستديرة . فعلى سبيل المثال نجد أن عدداً قليلاً من الاختراعات الميكانيكية مثل الطباعة أو الطرق الحديثة لتبادل المعلومات قد تحدث تغييراً في حياة الإنسان من شأنه أن يسبب تحولاً كاملاً في السيكولوجية السائدة لأي عصر وتؤكد مرة أخرى أنه في بعض الأحيان قد تكون هناك عوامل سيكولوجية وثقافية معينة لها من القوة ما يكفي لعرقلة ما تفرضه المزايا الاقتصادية والرخاء المادي . وهكذا نرى أن نسيج التطور التاريخي شائك ومعقد ، وأن المؤرخ الذي يستطيع أن يحل مشكلات السببية التاريخية في أي عصر بذاته دون أن يستعين بتفسير عالمي مقبول للتاريخ البشري يكون مؤرخاً عظيماً حقاً .

وسوف يجد بعض من هم على قدر من اليقظة ما يمكنهم من ملاحظة انهيار الدعامة السياسية — التي كانت تسند ظهر المؤرخ المجتهد — شيئاً من العزاء في فكرة أنه إذا تعذر علينا استخدام الأحداث السياسية كإطار للأعمال التاريخية ، فإننا يمكننا على الأقل أن نركز على الكيان القومي وأن نكتب قصة تطور الثقافة الفرنسية والإيطالية والثقافة الأسبانية وغيرها . ولكننا هنا نجد أنفسنا مرة أخرى وقد جردنا الحياة من بهجتها وذلك أن مفهوم التاريخ القومي بأكمله ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة الرومانسية القائلة بالعبقريّة القومية . وعندما ننظر إلى التاريخ من وجهة نظر تطور الثقافة والنظم يصبح واضحاً لنا أنه لا يمكن أن يوجد شيء اسمه التاريخ القومي . فتغير الأسر الحاكمة والسياسة الحزبية والدساتير الدبلوماسية ، يمكن أن تعرف أنها أدوار قومية على الرغم من أنها ليست كذلك من الناحية العملية . أما تطور الثقافة والنظم فلم ولن يمكن أن يكون مسألة قومية بحتة .

ولا يقل غرابة عن كتابة تاريخ بحث للثقافة الفرنسية أو الألمانية مجرداً من كل شيء آخر ، التفكير في كتابة تاريخ للسيارات أو الطباعة أو المجهر من زاوية قومية . ويجد الباحث إرضاء

لفضوله التاريخي في دراسة تلك الجوانب من الثقافة ذات الأصل العالمي وكيفية نموها أو تقييدها داخل هذه الدولة أو تلك . والواقع أن أى تاريخ قومى للثقافة سيكون حتماً شيئاً نافهاً مصطنعاً إذا ما قورن بدراسة الأصول الثقافية دراسة لا تعترف بوجود حدود مصطنعة فرضتها طموح الأسر الحاكمة أو الحرص الاقتصادى .

وهكذا يتضح أننا نستطيع الاستمرار في دراسة الجوانب القومية في الثقافة ولكننا بالتأكيد لا نستطيع دراسة التطور القومى للثقافة . فالتاريخ القومى سوف يهوى إلى عالم النسيان في ظل التاريخ الجديد بدرجة لا تقل عن التاريخ السياسى ، وذلك إذا اعتبرناه الأساس الذى بنى عليه تنظيم وعرض الحقائق التاريخية . وقد اعتبرت الأمة في يوم من الأيام كياناً سياسياً . ثم جاء رينان ، زانجويل ، زيمرن Zimmern وغيرهم فأنكروا ذلك الأساس واعتبروا الأمة وحدة ثقافية وربما كان علينا أن نذهب خطوة أبعد من ذلك ونصف الأمة بأنها وهم ثقافى مضلل أو نوع من البلاهة الثقافية . ولهذا الاعتبار السابقة مغزى أعمق بالنسبة للمهتمين بمشكلة القومية ومسائل الحرب والسلام ولكننا لا نستطيع الخوض في هذه الأمور في هذا الفصل .

وإذا كان المؤرخ الميليل الفكر الذى ينتمى إلى المدرسة القديمة الذى أبعد عن معقله السابق — وهو الإطار السياسى للتاريخ والطريقة القومية في التنبؤ — سيحتفى بالتقسيم التقليدى للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث . إلا أنه كما سبق أن أوضحنا سوف لا يهتم دعاة التاريخ الجديد بأن يعطوا ذلك الحل من اعتبارهم أكثر مما أعطوا لنظرية السببية التاريخية والاتجاه القومى في التاريخ إن لم يكن أقل .

ومن الواضح جيداً أن أى تاريخ يبنى ببساطة على تسلسل عدد من السنين الرئيسية يكون عديم الأهمية على الإطلاق . فصفا الاستمرار في التاريخ تثبت عدم جدوى التقسيم إلى عصور وفترات ، فضلاً عن أن علمى الأجناس البشرية والتاريخ الثقافى يشبان أن العناصر المختلفة في التركيب الثقافى لا تخضع لأى قانون من قوانين التطور أو التقدم . وإذا كنا نعنى بالتجديد الضبط الاجتماعى والدقة العلمية فإن أخلاقيات الإغريق كانت أحدث كثيراً من أخلاقيات جون س. سمر Summer Gohn S أو الأسقف ماننج Manning . هذا إلى أن الحياة الفنية في عصر النهضة أغنى وأوسع من حياتنا الفنية اليوم . ويتضح من ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك أى نوع علمى من التاريخ ، يقوم على افتراض وجود معدل موحد للتطور والنمو لكافة أنماط الثقافة والنظم . فضلاً عن ذلك فإن سرعة التطور الثقافى تختلف كثيراً من منطقة إلى أخرى . ولنتخيل مثلاً أننا

نحاول في موضوع تحت عنوان « الحضارة القديمة » أن نصف ثقافات الصين واسكتندناوة وأمريكا الجنوبية وغاليا وأرض ما بين النهرين والهند في سنة ١٠٠٠ ق.م . وأن نصف في موضوع تحت عنوان « الحضارة المعاصرة » ثقافات الصين وانجلترا وألمانيا وروسيا والبرازيل في سنة ١٨٩٠ ميلادية . وإنه ليبدو كما سبق أن أوضحنا في الفصل السابق أن التاريخ الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لابد وأن يكون على درجة عالية من التخصص ولا يبنى على أكثر من وصف تطور نواح معينة ومحددة من الثقافات أو أنظمة محددة تقع داخل نطاق منطقة ثقافية متجانسة . وربما يرد المؤرخ التقليدي بأنه لا داعي بالمرّة في هذه الحالة لاستخدام أي تقويم ، وهو رأى قد يكون له ما يبرره .

وإذا احتج مؤرخ المدرسة القديمة في شيء من اليأس على هذا الوضع بوصفه يؤدي إلى اضطراب وفوضى وتعقيد ليس من الممكن احتماؤها ، فإن علينا أن نعترف بأن هذا صحيح في الوقت الحاضر . ولكن دعاة التاريخ الجديد ليسوا بأي حال مسئولين عن هذا الموقف . وكل ما هنالك هو أن المؤرخين بدأوا ينتبهون إلى حقيقة الموقف الذي يواجهها في كل ركن من أركان الحياة اليوم . وهذا يعني أن التاريخ صار معاصراً في نظرنه ، كما أنه في سبيله إلى الاعتراف بما سبق أن أدركه واعترف به علماء اللاهوت والفلاسفة وعلماء الاجتماع ودارسو علم الأخلاق . ولن يؤكد هذا شيئاً أكثر من أن النعامة التاريخية الرمزية رفعت رأسها أخيراً من رمال العصور الوسطى والحركة الإنسانية . وأعطت عالم القرن العشرين حقه كاملاً . إن هذه الثقافة تشهد اليوم الحضارة المدنية الآلية وهي تتغير في سرعة ، وحضارة العصر الصناعي التي حلت محل بساطة المعيشة الريفية لم تتغير إلا قليلاً من قرن لآخر والتي تميزت بإحساس وهمي بالأمن والطمأنينة مصورة الاعتماد على الإيمان الأعمى بفهم بدائي للكون وعدد قليل من المعتقدات الدينية الساذجة . وتشهد هذه النعامة اليوم كوناً متسعاً ومراجعة شاملة جادة لكل الافتراضات التي وصفها الإنسان في الماضي لتبرير مكانته في الكون ، ولكل آرائه عن الطمأنينة في عالم الأرض وعالم ما وراء الطبيعة . كذلك تبعث هذه التغيرات المذهلة في الأحداث والمواقف التاريخية على ثورة مشابهة في مفاهيم التاريخ وأهدافه . وليس عجيب أن يكون الدافع الأول لدى هذه الثقافة التاريخية هو أن تغوص مرة أخرى في الرمال .

وبمعنى آخر فإن المؤرخ يواجه متطلبات إتمام وتنفيذ مهمته في ضوء علم القرن العشرين ، ومناهجه بنفس الشكل والقدر الذي تواجه به جميعاً التعديلات والتغيرات التي تفرضها علينا المدنية في عصرنا هذا . فمئذ خمسين سنة مضت كان المواطن المثقف في الولايات المتحدة يشعر

بالكفاية والأمن الكاملين في ظل إيمانه باللغات الكلاسيكية ، وعقائد التفكير ، والتعريفية الجمركية الواقية ، والحزب الجمهورى . ولكننا نجد المواطن نفسه اليوم يواجه متناقضات واضطرابات يفرضها علم الطبيعة الفلكية المعاصر الذى أثبت ضالة كوكبنا وبالثالى ضالة الإنسان نفسه كما يفرضها عليه أيضا التشكك في التركيب الاجتماعى الاقتصادى بأكمله ، وهو ذلك التركيب الذى يعتمد عليه نظام التعريفية الجمركية . ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر مدى تأثير إدراك المواطن الأمريكى المتزايد لانعدام كفاية وقدرة الحزبين الجمهورى والديمقراطى على السواء إن لم يكن لانعدام قدرة الإنسان السياسية في ظل الجو المعقد الذى ساد المجتمع المعاصر . فها بالنا إذن بالتغيرات في الاتجاهات التى فرضتها على كل أستاذ جامعى فطن يشغل بالتاريخ تلك التحولات العديدة التى حدثت في الخمسين سنة الأخيرة . وإذا كان هناك من يزعم أن قليلا من العقول الممتازة فقط هى التى تستطيع التجاوب مع ما يتضمنه هذا الرأى حول مهام وواجبات المؤرخ ، فإن الرد عليه هو أنه على الرغم من أن ربة البيت لا تستطيع أن تقارس الطب أو أن الحلاق لا يستطيع أن يمارس مهنة الجراحة فإن الطب والجراحة ازدهرا بدرجة لم يكن يتوقعها أحد منذ أن فرضت قيود عملية في ممارسة هذه المهنة أو تلك . وسيكون علينا في المستقبل أن نميز بدرجة من الدقة بين المؤرخ الحقيقى وكاتب السجلات .

وفي تأكيدنا لأهمية اتجاه البحث عن أصل المجتمع البشرى ، فإننا نحس عدداً قليلاً من الدروس التى يلقنها التاريخ للجنس البشرى . ولابد من أن يكون واضحاً لكل ذوى الفكر أن المواقف الاجتماعية والثقافية في الماضى تختلف عن مثيلاتها في القرن العشرين ، إلى الحد الذى يجعل استفادتنا من خبرات العصور التاريخية السحيقة أمراً ضئيل القيمة . ومع ذلك فإن العودة إلى الوراء وتبني ثقافتنا ونظمنا من بدايتها تجعلنا نتوصل إلى فهم أحسن لعصرنا ، وفي الوقت نفسه يمكننا ذلك من تحطيم ذلك الاتجاه الذى يقدر الماضى ويمجده ، والذي كان العقبة الرئيسية في سبيل التقدم الاجتماعى والفكرى مما جعل منه أخطر تهديد يواجه المجتمع .

وينبغى أن نذكر هنا أنه إذا كان التاريخ سيهتم أساساً بتتبع أصول الثقافة والنظم المعاصرة ، فإن كثيراً من المشكلات التى ذكرت آنفاً فيما يتعلق بالتنظيم العام للمادة التاريخية والنظريات المتضاربة الخاصة بالتقويم ، سوف تختفى تلقائياً لأن المشكلة في كل حالة ستنصب على نشأة وتطور نظام بعينه ، أو جانب واحد من جوانب الثقافة ، على الرغم من أن تاريخ هذا النظام أو الجانب سيرتبط عادة بتاريخ النظم والجوانب الثقافية الأخرى .

التدريب المرغوب فيه بالنسبة للتاريخ الجديد

إذا كان للتاريخ الجديد أن يتجح فلا بد أن تعد جماعات أكبر من العاملين المتحمسين في هذا الميدان ، وأن يوجه أعدادهم بحيث يجعلهم قادرين على القيام بأبحاث على درجة عالية من الكفاية والتكامل ، وإذا كان التاريخ في المدرسة القديمة قد عانى كثيراً من عدم تدريب المشتغلين به تدريباً كافياً ، فإن التاريخ الجديد سيكون في حال أسوأ إذا لم يدرّب المشتغلون به تدريباً كافياً ، لأنه يتطلب دراسات دولية واسعة المدى . وقد ينادى البعض بأن الشخص الملهم يستطيع أن يقوم بأعمال عظيمة في مجال التاريخ الجديد دون الحاجة إلى تدريب واسع المدى ، ولكن كلامنا هنا ليس عن العباقرة ، وإن كان نجاحهم في هذا المجال أمراً بالغ الصعوبة . فالتاريخ الجديد تماماً — كالتاريخ القديم عليه أن يعتمد بدرجة كبيرة على تلك الفئات الجادة المخلصة من الباحثين الذين لا بد وأن يدعموا ويوجهوا بتدريب شامل دقيق يؤهلهم لممارسة مهنتهم .

وعليتنا أن نصر دائماً على أن التاريخ الجديد هو أساساً علم إعادة بناء الثقافة والبحث في أصل النظم . ومن ثم فإنه يمكن القول بحرية بأن المؤرخ الممتاز في المدرسة الجديدة هو ذلك المؤرخ الذي يستطيع أن يضيف إلى الدقة العلمية والمعرفة قدراً أكبر من المهارة الفنية الخلاقة اللازمة لإعادة بناء المحاضرات بناء دقيقاً ، مع تنبع حريص لأصول الأفكار والنظم وذلك مثلما فعل روبنسون ويكر ويرد . ويطابق هذا القول في وضوحه القول بأن الشخص العظيم في ميدان الطب شيء أعلى وأكبر من الطبيب الفني المدرب ، ولكنه لم يكن يرقى إلى هذه المكانة لولا أنه كان في يوم من الأيام عالماً طبيباً . وينبغي ألا نخلط بين الفن الأدبي والمقدرة التاريخية^(١) . فالكاتب القدير لا يمكن أن يعتبر مؤرخاً إلا بالقدر الذي نعتبر به الشخص الذي يرسم رسماً يحاكي فيها شكل القديس بطرس أو الملك شارل الأول فناً . ففان ديك كان يستحق لقب مؤرخ بالقدر الذي يستحق به كارليل ذلك اللقب . كما أن هوجارث كان مؤرخاً حقيقياً تماماً مثله مثل ماكولي .

وقد قيل إن السبب الرئيسي في ضعف تأثير التاريخ على الحياة العامة والرأي العام هو افتقار الكتاب المحدثين إلى الأسلوب الممتاز . ولكن هؤلاء الكتاب يدفعون بأن السبب الحقيقي هو

(١) انظر للرأي المناهض ، كتاب تريفلان كليو : الإلهام (المؤلف) .

العقبات التي تفرضها المفاهيم العتيقة الخاصة بطبيعة الكتابة التاريخية ومجاهاها وهدفها ، مثلما يفرضها كذلك ادعاء المعرفة ، والحرص على استعراض المعلومات ، واختيار موضوعات غير مألوفة ، فضلاً عن المجاملة في الكتابة واستغلال الكتابة التاريخية في تحسين الأوضاع الأكاديمية والصداقات المهنية بدلاً من محاولة تنوير البشرية وتحقيق مزيد من التقدم لها ؛ ولن يكون للكتاب أمثال سومبارت ، فيبلن جمهور من القراء إذا لم يكن هناك مكافأة مادية تعوض عن الجهد المبذول في قراءة كتبهم . حقيقة إنه لا سبيل إلى إنكار الحاجة إلى كتابة ممتازة ، ولكن المطلوب هو كتابة ممتازة بأقلام مؤرخين ممتازين ، أى أن المطلوب هو كتابة تاريخية ممتازة بأفضل ما تحمل الكلمة من معان .

ولا بد على وجه الخصوص من مناقشة ما تتصف به المواقف التاريخية الهامة من طبيعة خاصة فريدة وغامضة في الوقت نفسه وهي النظرية التي تقر الطابع الفريد الخداع ، للحقائق التاريخية التقليدية . إن ذلك الشيء الذي يسمى مسرحية التاريخ ليس إلا سجلاً لاستجابات الوجود الكيميائي الحيوي للمؤثرات الأرضية وليست الاستجابات البشرية فريدة في نوعها أو أكثر غموضاً من سلوك الحيوانات الأخرى ، أو سلوك الأنسجة العضوية والمواد غير العضوية كما تدرس في المعمل فمداولات الجمعية الوطنية التأسيسية في عهد الثورة الفرنسية كانت نتاجاً طبيعياً تماماً يشبه استجابة القردة في حديقة حيوان برونكس بارك وقد يكون الموقف التاريخي فريداً في معناه الزمني البحث . ولكنه لا يمكن أن يكون فريداً من وجهة النظر العلمية ، لأنه نتاج السلوك الإنساني الذي يمكن تحليله علمياً . يضاف إلى ذلك أنه ليس باستطاعتنا أن نؤكد أن تلك الجوانب من الموقف التاريخي التي يزعم البعض أنها فريدة هي الجوانب الهامة فيه . فالظواهر التاريخية لا تفهم إلا بمقدار انطوائها تحت لواء التحليل العلمي المقنع الذي زودتنا به العلوم الطبيعية والاجتماعية الثابتة .

ولا يمكن أن نأمل أنه يكفي لإعداد المؤرخ مجرد القيام بأبحاث في الماضي أو تحصيل قدر كبير من الحقائق التاريخية التقليدية . فالشخص الذي يقوم بجمع وتحرير عدد كبير من النقوش لا يعتبر مؤرخاً مهماً تبلغ قيمة خدماته بالنسبة لتعلم التاريخ . إنه لا يزيد عن ذلك الشخص الذي يجمع قطع الأثاث القديم ويصنفها لوضعها وعرضها في متحف للفنون الجميلة . كذلك فإن الشخص الذي يعي ويحفظ كتاب و . ل . لانجر — دائرة معارف التاريخ العالمي — لا يصبح مؤهلاً بفضل هذا العمل وحده لكي يكون مؤرخاً .

وسبظل أساس كل التدريب الفنى فى المدرسة الجديدة فى التاريخ هو الدراسة التقليدية الخاصة بأسلوب البحث فى الوثائق وتناولها . كذلك إن التدريب فى هذا المجال سيزداد بكل تأكيد اتساعاً وشمولاً عن ذى قبل . فدارس التاريخ القديم اليوم مطالب بالتعرف على كل ما أمكن جمعه من نقوش ، وأكثر من ذلك فهو مطالب بأن يكون ملماً إلماماً كاملاً ثابتاً بآثار ما قبل التاريخ وبكل ما يتعلق بأوراق البردى . وهى النواحي التى لم يكن يهتم بها كورنيوس ومومسن مثلاً . وقد يكون على المؤرخ المبتدىء كذلك أن يلم بأساليب الحفر الميكانيكى والتصوير الجوى ، ومعنى هذا كله أن هناك حاجة ملحة فعلية عند دراسة التاريخ الجديد لقدر من المعلومات الفنية يفوق كثيراً ما كان مطلوباً لدراسة العصور الوسطى عندما كان أهم شيء هو إتقان اللغتين اللاتينية واليونانية ، فضلاً عن الإلمام باللغة العربية والعلوم الثانوية الأخرى اللازمة لدراسة الوثائق ونقدها . وإذا ما توفر ذلك يستطيع الفرد أن يمضى قدماً فى التاريخ مستعيناً بقائمة مصطلحات اللاهوت وكتاب دى كانج ليرشده إلى مصطلحات العصور الوسطى . أما الباحث الذى يبحث فى التاريخ المعاصر فسوف يواجه عدداً أكبر من المطالب ، إذ لا بد وأن يكون ملماً بمسك الدفاتر والمحاسبة وبأسس التكنولوجيا وأركان النظام الحالى للمؤسسات ومصطلحات العلوم السياسية المعاصرة وأسس النقل ومبادئ علم التطور البيولوجى وأسس علم الطبيعة الكهربائية العلمية ، فضلاً عن عدد كبير آخر من مظاهر الحضارة المعاصرة . هذا إن أراد أن يقرأ بشيء من التمعن تلك الوثائق التى تحتوى على المادة الخاصة بمهنته .

ثم يلى هذه الخطوة الأساسية الخاصة بالإلمام بأسلوب البحث فى الوثائق ، خطوة أخرى هى اكتساب النظرة التاريخية الحقة . والسبيل السليم لهذه النظرة هو الإلمام الكامل بوجهة النظر الخاصة بالتطور . فالمؤرخ لا بد وأن يفكر وفى ذهنه صورة واضحة لأصل الحياة البشرية بالضبط مثلاً يقوم الطبيب بالعلاج فى ضوء التشخيص والأعراض معروفة له . ومن ثم فإن المؤرخ لا بد وأن يكون ملماً إلماماً كاملاً بعمليات التطور الكونى والبيولوجى والثقافى فضلاً عن تطور النظم . كذلك عليه أن يعود نفسه على التفكير فى الإنسان فى ضوء عمليات ومصطلحات التطور . فالتطور إذا بالنسبة للمؤرخ شأن الديناميكا . أو علم القوى بالنسبة لعالم الطبيعة . وبمعنى آخر فإننا ينبغي أن نصر على أن الشخص الذى يريد أن يكون مؤرخاً لا بد وأن يكون من البداية ذا عقلية تاريخية .

وبعد ذلك فإنه على المؤرخ أن يلم بالمبادئ والحقائق الرئيسية لعلم الأجناس البشرية من الناحية الجغرافية ؛ أى كما يفسرها أحدث علماء الجغرافيا الأقليبية الذين يشاركون علماء الفرع

الثقافي لعلم الأجناس في وجه نظرهم . ويوضح كتاب المدخل الجغرافي للتاريخ . ما تعنيه العبارة :
فالمؤرخ لابد وأن يدرس جيداً ويأمعان الجغرافيا الطبيعية والاجتماعية للمنطقة التي يسوى
التخصص فيها . وعلى أساتذة التاريخ الجديد أن يدركوا من البداية أن ما كان يسمى بالجغرافيا
التاريخية في الماضي وهي التعرف على التغييرات التي طرأت على الحدود السياسية ، والتعرف على
الأماكن التي شهدت المعارك لا يعتبر بأي حال دراسة جغرافية للتاريخ مهما تكن قيمة وفائدة
المعلومات التي زودتنا بها هذه الدراسة . كذلك على المؤرخ في هذا الصدد أن يعتاد التفكير في ضوء
المراحل الثلاث الرئيسية لتأثير الجغرافيا على التاريخ كما بينها ليون متخوف Leon Metch-
nikoff والأستاذ ج . ك . رايت J.K.Wright ونعني بهذه المراحل المرحلة النهرية والمرحلة
القارية والمرحلة المحيطية هذا فضلاً عن أنه على المؤرخ أن يعطى اهتماماً كافياً لنظرية س . س .
جلفيلان S.C.Gilfillan المتعلقة بأن التقدم مرتبط بالمناطق الباردة ويضاف إلى ذلك ضرورة إلمامه
بالأهمية التاريخية الأساسية باتصال الثقافات على المستوى العالمي وهو الأمر الذي وصفه بإيضاح
الأستاذ و . ر . شيفرد W. R. Shepherd في دراسته عن الأهمية التاريخية لحركة التوسع الأوربي .

وينبغي أن يلم دارس التاريخ الجديد إلماماً كاملاً بالإنسان وسلوكه العادي والشاذ ، وأن يلم
كذلك بأسس علم الكيمياء الوظيفية وعلم الغدد الصماء . فالشخص الذي لا يدري شيئاً عن
الأساس العادي للسلوك الإنساني لا يستطيع أن يفسر هذا السلوك تفسيراً سليماً في الماضي أو في
الحاضر سواء . ولا بد من أن يلم دارس التاريخ بعمل وتأثير الغدد فوق الكليتين قدر إلمامه
بغيرها من غدد الإنسان . إذ من المحتمل أن تكون الغدة الأدرنالية (فوق الكلية) قد لعبت دوراً
في قرار سارازنوف بإعلان الحرب في يوليو ١٩١٤ لا يقل عن الدور الذي لعبته حركة التضامن
السلافية في إصدار القرار نفسه ولا بد من أن يعد المؤرخ الحصيف والمعد تماماً لمهنته بأنماط من
السلوك غير العادي الأكثر شيوعاً والتي ترتبط بالأنواع المتعددة من الحالات المرضية لدى
الإنسان . ولما كان رجال السياسة والديبلوماسيون ورجال القضاء عادة من المتقدمين في السن .
فإنه ليس من الممكن فهم سلوكهم إلا في ضوء أنواع السلوك المرتبطة بالأمراض البشرية
الرئيسية المتعددة كذلك فإن أي شخص لا يعلم شيئاً عن تأثير مرض الزهري لا يمكنه أن يعطى
تفسيراً كافياً لأعمال وتصرفات بعض الملوك والساسة والديبلوماسيين الأقدمين . فأمراض مثل
الالتهاب المزمن وعسر الهضم كثيراً ما تساعد عادة على تفسير سلوك الشخص أكثر من معرفة
تعليمه أو ديانته أو سياسته أو نشاطه الاقتصادي . كذلك فإنه لا غنى للمؤرخ عن فهم كاف لأنماط

السلوك المرتبطة بالأمراض النفسية والعصبية . ولا يمكن فهم السلوك البشري إذا فصل فصلاً تاماً عن سلوك الحيوانات الأخرى وعلى الأخص عن سلوك القردة . وهكذا يبدو ضرورة الإلمام الكامل بعلم النفس المقارن ، وهنا نجد أن كتاب (إنسان تقريباً) Almost Human للكاتب يرك Yerke يعتبر أحسن عرض لسيكولوجية القردة يمكن الاعتماد عليه ، وهو كتاب لا غنى عنه لأي فرد يبغي الوصول إلى تفسير واقعي للسلوك الإنساني وينبغي على المبتدئ الذي يمتلك قدراً كافياً من خفة الدم والروح أن يضيف إلى هذا الكتاب كتاباً آخر هو « عالم القردة » The Simian World لمؤلفه كلارنس داي Clarence Day فالحقيقة الثابتة القائلة بأن الإنسان ليس إلا حيواناً في مرتبة أعلى من القردة حقيقة ذات أهمية خاصة ومغزى هام بالنسبة للمؤرخ ، لأنها تفوق في أهميتها ومغزاها التأكيد بأن الإنسان أقل درجة من الملائكة . ثم إن سيكولوجية السلوك بما تؤكد من التأثير الاجتماعي عنصر هام جداً بالنسبة للمؤرخ الذي يرغب في تفسير شخصية الفرد في ضوء حياته المبكرة والظروف الاجتماعية المحيطة به . ولا بد أن يضاف إلى ذلك عنصر آخر هو علم النفس التحليلي الذي يلتقي كثيراً من الضوء على الحركة اللا شعورية للسلوك . والذي يصر على البحث حول الحقائق الخاصة بحياة الفرد الشخصية واليومية من أجل التعرف على الدوافع الخفية لسلوك أي فرد . وأخيراً فإنه لا بد من أن يكون المؤرخ ملماً إلماماً كافياً بحقائق علم النفس الاجتماعي حتى يتمكن من توضيح تأثير سيكولوجية الجماعات على الإنسان وإبراز التفاعل المتعدد الجوانب بين الجماعة والفرد .

أما علم الأجناس البشرية فينبغي على المؤرخ دراسته ولما يحتويه من ما نريد لأساس تطور الإنسان ونظمه ، وما يتضمنه من توضيح النظرة الزمنية الجديدة للتطور والنمو البشري . ولكن علاوة على هذا وذاك لما يحتويه من إيضاح لقوانين التقدم الثقافي وعملياته . وتزودنا كتب مثل كتاب (تطور الثقافة) لـ هـايت White وكتاب (الإنسان والثقافة) لـ ريزلر Wissler وكتاب (التاريخ وعلم النفس والثقافة) لجولدن ويزر Golden wiser وكتاب علم الأجناس البشرية لكروبر Kroeber بقدر من المبادئ الرئيسية لتطور التاريخي يفوق ما تزودنا به أحسن الكتب التي ظهرت حتى الآن في موضوع المنهج التاريخي .

والواقع أن علم الأجناس البشرية يفوق غيره من العلوم الفرعية الأخرى في أهميته كمدخل للتاريخ وذلك من ناحيتي المنهج والتقويم الزماني .

ولا يمكن للفرد أن يشتغل بكفاءة بالتاريخ الجديد دون أن يكون على دراية بعلم الاجتماع سواء أسس هذا العلم أو مبادئه وذلك بوصفه مقدمة للعلوم الأخرى كذلك لا بد من أن يلم بالعلوم الاجتماعية الخاصة مثل الاقتصاد والسياسة والقانون والأخلاق وما إليها فالتاريخ ليس إلا سجلاً لتطور الإنسان كما كيفته بيئته الاجتماعية ومن ثم فإنه يتعذر تماماً فهم هذا السجل فهماً سليماً دون أن تكون هناك معرفة علمية بحقائق الحياة الجماعية وتفاعلاتها كما يشرحها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا كان الشخص ينوى القيام بعمل يتطلب أكثر من مجرد معرفة متوسطة بواحد أو آخر من العلوم الاجتماعية الخاصة ، فإنه لا بد له من أن يكون متمكناً من هذا العلم ، فعلى سبيل المثال لا يمكن لأى شخص أن يحاول القيام بوضع مؤلف تفصيلي عن التاريخ الاقتصادي ودون أن يكون قد ألم إماماً كاملاً بكل فرع من فروع علم الاقتصاد والحديث فضلاً عن الإحصاء الاقتصادي ، كذلك إذا أراد الفرد أن يكتب عن تاريخ العلم أو الجمال فلا بد أن يضيف إلى تدريبه العام تدريباً خاصاً في العلوم الطبيعية أو الفنون الجميلة .

وكثير ممن يقرون سلامة هذا البرنامج الطموح لإعداد المؤرخ في المدرسة الجديدة للتاريخ سوف يذهبون إلى أنه من المتعذر أن تتوافر كل هذه الشروط والمتطلبات في فرد واحد . ولكن هذا الاعتراض يبدو للمؤلف صاحب هذا الكتاب خداعاً وغير دقيق ، فمن السهولة بمكان تحقيق مثل هذا الإعداد إذا ما أدركت ضرورته بالقدر نفسه الذي ندرك به ونقر ضرورة الإعداد الخاص لمن يمارس مهنة الطب أو الهندسة . فهناك في جامعات كالولايات المتحدة الأمريكية مناهج تعد الطالب للإقدام على دراسة الطب . ثم هناك ما يلي هذه الدراسة من تدريب طبي مهني . وبمرور الزمن سوف تكون لدينا مناهج (ما قبل الإقدام في دراسة التاريخ) فضلاً عن مدراس التاريخ المحترفة ومدراس العلوم الاجتماعية التي يمكن فيها وبواسطتها تحقيق ذلك البرنامج التعليمي الذي سبق أن تحدثنا عنه . ولن يحتاج الأمر إلى وقت أكثر مما يضيع فعلاً في تلك الجهود غير المخططة أو غير المنسقة التي تبذل في الكليات والجامعات . وكل ما هو مطلوب من طالب التاريخ الناجح أن يمكن في سهولة في فترة السبع سنوات التي يقضيها دارسو التاريخ في دراستهم التقليدية للحصول على درجة أثليسانس أو درجة الدكتوراه . وسوف يكون في أيدينا شيء مادي عندما نبدأ هذا البرنامج الإعدادي . وعندئذ لن يكون طلاب الدراسات العليا في التاريخ على درجة من ادعاء العلم وضيق الأفق مثلما وصفهم كلارنس لينل المدير السابق لجامعة ميتشيجان ، إذ قال عنهم إنهم يعلمون عن حملات هنري الثامن أكثر مما يعلم أى شخص آخر على قيد الحياة ، ولكنهم لا يهتمون بمعرفة أى شيء آخر .

وقد يقول البعض على سبيل الاعتراض بأن قليلاً من دعاة المدرسة الجديدة في التاريخ أنفسهم هم الذين يستطيعون اجتياز الإعداد المرغوب فيه للمؤرخ وهو الإعداد الذى وصفناه آنفاً . وربما كان ذلك صحيحاً ولكن لا يوجد شك فى أن الأستاذ روبنسون ربما كان أول من أقر أنه لم يكن سوى مبتدئاً متواضعاً فى كل جانب من جوانب الإعداد الخاص بطلاب التاريخ فى المدرسة الجديدة كما سبق أن أشرنا ، ولكنه كان يتمنى لو عاش حياته مرة أخرى ليعيد نفسه إعداداً كافياً . وربما أضاف كذلك فى إنصاف أن ما أنجزه عن إعداد غير كاف يعتبر دليلاً على النتائج الممتازة التى لنا أن نتوقعها فى المستقبل من الطلاب المدربين تدريباً كافياً ونافياً .

خلاصة القول فيما يتعلق بالتاريخ الجديد

فيما يلى النقاط الرئيسية التى حاولنا إبرازها فى هذا الفصل :

أولاً : أن التاريخ الجديد أكثر من مجرد مفهوم جديد حول التاريخ وهدفه لأنه يحمل معه إلزاماً بضرورة إعداد المؤرخ لمهنته إعداداً أكثر عمقاً وتنوعاً .

ثانياً : أن التاريخ الجديد جديد من ناحية قبول مبدأ اتساع مفهوم التاريخ ، وازدياد الاعتراف بأهمية العلوم الاجتماعية فى تدريب المؤرخ وإعداده ، وكذلك من ناحية غزو التاريخ لاتجاه البحث عن أصل الإنسان وهو الاتجاه المأخوذ عن علماء البيولوجيا وفلاسفة التطور .

ثالثاً : ويجد دعاة التاريخ الجديد حتى وقتنا هذا ضرورة القيام بحملة دعائية وتعليم حقيقية ، وارتبطت هذه الحملة ببعض الأسماء مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، تيجارت ، مارفن . وكان أن حقق دعاة التاريخ الجديد نصراً مؤكداً ، ومن ثم فهم يستطيعون الآن أن يركزوا جهودهم للوصول بأساس التاريخ الجديد إلى مستوى الكمال ولتعليم وتدريب أولئك الذين سوف تكون لهم القدرة على ممارسة التاريخ الجديد .

رابعاً : أما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما تصوير حضارات الماضى وإعادة بنائها على خير صورة ثم تتبع تطور النظم الاجتماعية الرئيسية القائمة اليوم . وتعتبر المهمة الثانية أهم بكثير من الأولى لأن ما يرمى منها أساساً هو ما يمكن أن تسهم به فى الوصول إلى فهم أفضل لعصرنا الحالى ، إن لم يكن هو الشيء الحقيقى الوحيد المطلوب من التاريخ . وقد يضيف البعض مهمة ثالثة وهى صياغة نظرية السببية الاجتماعية أو عمل دراسة عامة

للتغير الاجتماعي . ولكن الأفضل أن ينطوي هذا النوع من البحث تحت لواء علم الاجتماع التاريخي .

خامساً : لا يمكن اعتبار فئة واحدة من الأحداث التاريخية كافية لوضع إطار لتنظيم القصة الكاملة للتطور التاريخي للثقافة البشرية ، وينطبق هذا الكلام بصفة خاصة على الأحداث السياسية ، إذ لابد وأن يذوب في عالم النسيان ذلك الإطار السياسي للتاريخ ، وكذلك التاريخ التقليدي الخاص بالأمم ونظام التقويم الزمني السائد والمعترف به ليمسح المجال أمام نشأة تاريخ الثقافة والنظم .

سادساً : لا يوجد هناك سبب واحد يحدد مجرى الأحداث التاريخية . وعلى المؤرخ أن يتخذ موقفاً تجريبياً من السببية التاريخية وأن يتقبل النظرة ذات الجوانب المتعددة .

سابعاً : لابد من التخلي عن النظرة الساذجة غير الواقعية والقائمة على أساس غير تاريخي ، وهي نظرة المدرسة القديمة إلى التاريخ .

كذلك فإن ما يواجه مؤرخ اليوم من مشكلات حية وتعقيدات ، وحالة الضياع والاضطراب التي يجد نفسه فيها ليست إلا مظاهر للعصر بأكمله ككل ، والنتيجة الحتمية لأن المؤرخ اكتشف أنه يعيش فعلاً في القرن العشرين .

ثامناً : من الضروري عند تدريب من يرغبون بممارسة التاريخ الجديد أن نستبعد من البداية فكرة أن التاريخ فن أدبي أو ترفيهي يستهدف البحث في سجلات الماضي . فالأديب الذي يستخدم المادة التاريخية لا يمكن اعتباره مؤرخاً شأنه شأن الرسام الذي يرسم منظرًا لموقف تاريخي . فالتاريخ هو علم تفسير الحضارات الماضية والكشف عن أحمل ثقافته اليوم . ومن ثم فإن على هؤلاء الذين يرغبون الدخول في مهنة المؤرخ أن يلتموا إلماماً تاماً بكل أنواع المعلومات اللازمة لتصوير ماضي البشرية وتتبع التطور الذي أتى بحاضرهم . ويتطلب ذلك تخطيطاً جيداً للدراسات منذ أن يلحق الطالب بالجامعة فصاعداً كما هو الحال في إعداد الأطباء والمهندسين . وباختصار فنحن لا نستطيع أن نستمر في كتابة التاريخ وتعليمه دون أن نأخذ في الاعتبار طبيعة الإنسان وسلوكه^(١) .

(١) إذا أراد القارئ مزيداً من هذا عن التاريخ الجديد فعليه الرجوع إلى مقال للسوفت ماكربين مرنون في مجلة « الفلسفة الاجتماعية » عدد يناير ١٩٢٦ . (المؤلف)

الاتجاهات الحديثة والاحطار التي تتعرض لها الكتابة التاريخية

لقد جرى العمل في إعداد الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ بعد فترة وجيزة من صدور كتابي (تاريخ الحضارة الغربية) وهو الكتاب الذي حظى بقدر من الاهتمام وأثار من الجدل والمناقشات في الولايات المتحدة طوال الثلاثينات مثلما كان لكتاب ويلز Wells (موجز التاريخ) . وبعد أن قرأت مئات التعليقات عن كتابي هذا اقتنعت بأن أكبر خطر يهدد سلامة الكتابة التاريخية يكمن في الصراع القائم بين العقائد المتعارضة . وستظل هذه الحقيقة قائمة طالما أننا ننظر إلى العالم المتحضر ككل . وإذا ما نظرنا إلى الصراع بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية سنجد أن الصراع الأيدلوجي يزداد حدة ومرارة . والواقع أن الضغوط الأيدلوجية التي تأثرت بها في سنة ١٩٣٦ كانت في داخل العالم الغربي ذاته بين الفاشية والشيوعية .

وكان الحكم على الكتب التاريخية يتم بصفة رئيسية عندئذ في ضوء ما إذا كان مضمونها يتماشى مع مبادئ الفاشية أو مبادئ الشيوعية . ولما لم يكن في الولايات المتحدة من العلماء من يؤيد الفاشية ، فإن التقدير الأيدلوجي لكتابي هذا بنى أساساً على مدى تمثيه مع العقيدة الماركسية . وهذا الحكم ينطبق بصفة خاصة على نظرة المؤرخين الشباب للكتاب . ولا أبالغ إذا ذكرت أن نصف من تعرض من النقاد لكتابي (تاريخ الحضارة الغربية) باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل الجدلية إنما أخذوا على فشلي في اتباع ماركس بإخلاص . هذا على الرغم من أنني أعطيت كثيراً من الاهتمام للعوامل والقوى الاقتصادية ، وهو أمر لم يرض عنه كثير من المؤرخين التقليديين .

والآن اختفى تماماً وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية هذا التهديد الأيدلوجي المتنوع للكتابة التاريخية الموضوعية وهو التهديد الذي كان سائداً في الثلاثينيات . وإذا كان هناك مؤرخون لا يزالون يحترمون الأيدلوجية الفاشية ، فإنهم يحتفظون بأفكارهم ولا يعلنونها . كذلك فإن الحرب الباردة وضعت حداً للاتجاه الخاص يجعل التوافق مع الماركسية مقياساً لسلامة الكتابة التاريخية خارج الستار الحديدي .

ولما كان الجزء الأول من هذا الفصل قد خصص لمعالجة نشأة التاريخ الجديد وتطوره ، فإنه يجدر بنا وقد وصلنا إلى هذه النقطة أن نوضح أن الحماسة للشكل والمضمون الأوسع للتاريخ قد تضاءلت بوضوح في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة .

وتعزى الشعبية المتزايدة للتاريخ الجديد فى أواخر العشرينات وفى خلال الثلاثينيات فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما إلى حركة العلوم الاجتماعية التى كان يطورها بقوة مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ، وهو الذى كان يحصل على معونة من صندوق روكفلر ومنحة مؤسسة كارنيجى وهى تلك المنحة التى كان الغرض منها تمويل الدراسات الخاصة بعلاقة العلوم الاجتماعية بالكتابة التاريخية وتعليم التاريخ بصفة عامة . وكان أن شجعت حرية الجيل الجديد واهتماماته الاجتماعية على الاهتمام بالحضارة ككل .

وبقيام الحرب العالمية الثانية بدأ الانغماس فى الشئون الحربية والسياسية والميل العام نحو الأخذ بالاتجاه المحافظ ينعكسان فى اتجاهات المؤرخين . وبانتهاء الحرب أصبح أكثر الكتب الدراسية عن تاريخ الحضارة رواجاً وشهرة هو ذلك الكتاب الذى يحمل فى صدر صفحاته كلمة الحضارة والتى تعتبر مناهجه أقل بكثير فى تمثيلها للتاريخ الجديد من كتاب جيمس هازفى روبنسون الذى ظهر سنة ١٩٣٠ بعنوان (تاريخ أوروبا الغربية) يضاف إلى ذلك أن الصحف بزعامة نيويورك تايمز هاجمت الميل نحو الدراسات الاجتماعية ودعت فيما يتعلق بتدريس التاريخ وكتابته إلى العودة إلى الجوهر والإطار السياسى السليم .

على أننا نبتعد عن الحق والصواب إذا قلنا إن نهر التاريخ الجديد قد جف ونضب وإن كنا نعتبر أنه من المؤكد أن سرعة النهر وشدة تياره قد تضاءلا بشكل ملحوظ . ومن العجيب أن يزداد الإعجاب بالعسكرية والاهتمام بالشئون الحربية فى ضوء افتتان المؤرخين بالحرب الأهلية فى عقدها الثانى . ومع ازدياد التعصب الوطنى الذى تميزت به فترة ما بعد الحرب نجد تأكيداً ملحاً على التاريخ المعاصر الذى يمثل النقيض لاتجاه المدرسة القديمة التى تدعو للوقوف بالتاريخ عند الثورة الفرنسية أو الوصول به حتى سنة ١٨٧١ .

والحق أن ما اعتبر منذ الحرب العالمية الثانية أنه التهديد الرئيسى للتكامل والنبات التاريخى أمر لا يتعدى دائرة الخيال والوهم لأنه نتج عن الهروب من الواقع والاحساس بالذنب الذى نشأ لدى المؤرخين نتيجة لعدم رغبتهم فى الاعتراف بالأخطار الحقيقية التى تهدد التكامل التاريخى وعدم استعدادهم للإفصاح عنها . وأشار هنا إلى ما يعرف عند المؤرخين (بالنسبية التاريخية) إذ يقال إن الشخصيتين الرئيسيتين على هذا الطريق الخطأ هما المؤرخان البارزان اللامعان كارل ل . بيكر وشارل أ . بيرد وهما من الرؤساء السابقين للجمعية التاريخية الأمريكية .

وتتلخص أسس هذه (النسبية) اللعينة عند بيكر ويبرد وغيرهما من يعطف على وجهة نظرهم فيها يلي :

١ - أن الأحداث التاريخية على درجة عالية من التعقيد والحداد لدرجة أن المؤرخ مهما يكن تدريبه وإخلاصه واجتهاده فلن يتمكن من تحقيق حلم ليوبولد فون رانكه الخاص بتصوير الماضي تماماً كما كان .

٢ - أن ما يقبله المؤرخون والجمهور على أنه حقيقة تاريخية في أى وقت إنما يتوقف على المناخ الفكرى الذى يسود ذلك العصر . فضلاً عن صلابة الحقائق التاريخية نفسها .

٣ - أن ما يقبل على أنه حقيقة تاريخية من قبل المؤرخين والجمهور سوف يتغير من وقت الى آخر طبقاً لعوامل عاطفية .

٤ - تكمن القيمة الرئيسية لمثل هذه الحقائق فى مدى ما يمكن أن تقدمه لنا من عون لفهم الماضى والحاضر والتخطيط للمستقبل . ولم يتحمس بيكر للحديث عن هذا البند الرابع على الإطلاق وذلك عند تقديمه لتلك النظرية النسبية ولكن يبرد فعل ذلك وخاصة فى السنوات المتأخرة من حياته .

وقد سبق أن رأينا يبرد Beard يفصح سنة ١٩٢٦ عن معتقداته الخاصة بالطبيعة المخادعة غير المكتملة والمعقدة التى تتصف بها الحقائق التاريخية^(١) ولكنه عبر عنها بشيء من التفصيل والشرح فى خطابه الرئاسى أمام الجمعية التاريخية سنة ١٩٣٣^(٢) كما أنه تولى توضيحها فى مقالات لاحقة^(٣) .

(١) القى يبرد بياناً أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٣١ بعنوان Everyman His Own Historian ثم أعد هو نفسه بحثاً لم ينشر يتضمن تفصيلاً لما ألقاه أمام الجمعية التاريخية وقد سمي هذا البحث Histoical Evidence وراجع كذلك لما كتبه صاحب هذا الكتاب معه Crane Brinton بعنوان The New History Twenty Years After ونشر فى مجلة Journal of social Philosophy يناير ١٩٤٦ (المؤلف)

(٢) نشر هذا البحث فى مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية يناير ١٩٣٤ بعنوان :
Written History as an Act of Faith

(٣) منها مقال بعنوان ذلك العلم الجميل فى المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٣٠ ومقال آخر بعنوان ما جدّ على الكتابة التاريخية عدد أبريل ١٩٣٧ أحسن المراجع عن ما كتبه يبرد ما كتبه G.P. Nash: Self Education in Histor-
iorography: The Case of Charles A. Beard Pacific North West Quarterly July 1961.

وكان شائعاً في أوساط العلوم الاجتماعية وخاصة بين علماء النفس الاجتماعي ، أن المتعارف عليه بأنه الحقيقة التاريخية هو ما يقبله الناس في أي وقت على أنه الحقيقة ، وظل ذلك طيلة جيل بأكمله على الأقل قبل أن يناقش بيكر (الحقائق) التاريخية في سنة ١٩٢٦ . ففى سنة ١٩١٣ ذكر وليم أ . داينج William A.Dunning في خطابه الرئاسي أمام الجمعية التاريخية الأمريكية أن ما يظنه عصر أو شعب معين أنه الحقيقة فهو كذلك بالنسبة لذلك العصر أو « الشعب » وأن أي مؤرخ يدعى أن المؤرخين ليس لهم أن يأخذوا بهذا الذي أجمع عليه الرأي العام ليس له أن يتوقع أكثر من سخرية أولئك الذين يعرفون جيداً سلوك المؤرخين منذ عام ١٩٢٤ ، أي بعد أن أرسيت قواعد التاريخ العلمي الموضوعي ، وتم قبوله طوال ربع قرن ، ومن الصعب أن نفهم لماذا تسوء أي فرد معرفة هذه الحقيقة .

وإنها لمسألة رأي تلك التي تتعلق بالنظر إلى الحقائق التاريخية سواء أكان تقديرها لما لها من دور عملي في مساعدتنا على فهم الماضي والحاضر والتخطيط للمستقبل ، أم لما تثيره من فضول وكبرياء مهتمين لدى المؤرخ . ولكن المؤكد أن الاتجاه العمل هو الأكثر فائدة وتنويراً . وقد قطع روبنسون شوطاً أبعد من بيرد في تأكيد النظرية النفعية العملية للحقائق التاريخية حيث أوضح أن المؤرخ الموضوعي هو ذلك الذي لا هدف له . ومن ثم فهو إلى حد ما إنسان لا يرجي منه فائدة إلا إذا ظهر شخص آخر يستطيع استقلال ما جمعه من حقائق .

وفي رأي مؤلف هذا الكتاب أن كل ذلك الخلاف حول النسبية لم يكن سوى زوبعة في فتجان هدفها إلى حد ما تحويل الانتباه عن عدم رغبة المؤرخين في مواجهة التحديات الخطيرة الحقيقية التي تواجه مهنتهم . ويشبه هذا الأمر انزعاج الفرد إزاء ظهور حالة حصبة ألمانية أو جدري في الوقت الذي ينتشر فيه التيفوس أو الطاعون . ونجد وصفا رائعا لتلك الطبيعة غير المعقولة للتيارات الفكرية التي كثيراً ما تؤثر على الأحكام العامة والتاريخية في الخطاب الرئاسي الذي ألقاه وليم ل . لانجر عن (المهمة التالية) أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٥٧^(١) .

(١) لمناقشة مسألة النسبية أرجع إلى الأبحاث التي نشرتها المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٥٦ لكل من :

Perez Zagoru, Loe Coershy, W.A. Willian

وإلى ما كتبه Cushing Strout بعنوان الثورة العملية في التاريخ الأمريكي Pragmatic Revolt in American History

أرجع كذلك إلى Carle Becker. Charble Beard yale uni, pren

B.T.William : Carl Becker

C. W. Smith : Carl Becker: On History and the Climate of Opinion

وهذا الكتاب الأخير من أحسن الكتب التي حاولت أن توائم وتحدد التشابه بين النسبية عند بيكر وعند Ingsoc

وهناك تهديد أشد خطراً على الدقة والبصيرة التاريخية والصالح العام يتمثل في الاتجاه نحو النكوص إلى الظروف التي سادت زمن انحلال الامبراطورية الرومانية عندما فقدت الطبقة الرومانية المثقفة المفكرة السيطرة على أعصابها على حد وصف جلبرت مراى إذ تحولت تلك الطبقة إلى دعاة ديانات عصرية غامضة تبشرهم بتخليصهم وتطهيرهم من خطايا الدنيا وتعدهم بالنعيم الدائم في الآخرة ، فضلاً عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي شاعت وأدت إلى نبذ العقل والإقلال من شأن العلم وتمجيد العقيدة والإيمان . ونستطيع اليوم أن نرى ميلاً مماثلاً لدى المفكرين المضطربين الذين يحتمون بفلسفة معينة كالوجودية أو الديانة المتزمتة . وأدى انهيار فكرة وجود قوى غيبية خارقة للطبيعة من ناحية ، والأخطار التي تواجه الاتجاهات القوية والديمقراطية المعاصرة إلى خلق اضطراب فكري ، لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى صاحب سقوط الحضارة الكلاسيكية القديمة .

وخير مثال لهذا الاتجاه في مجال التاريخ هو ذلك الكتاب الذائع الصيت الذى ألفه أرنولد توينبى بعنوان (دراسة التاريخ) وعلى الرغم من الحقيقة المعترف بها بأن توينبى هو دون شك أكثر المؤرخين الأحياء علماً ، فإن الإطار التاريخي لأعماله يركز على الانحراف الديني والاعتماد تماماً على الشواهد الغريبة مما ينفر منه أى باحث جامعي واسع الاطلاع كذلك تنكشف تماماً ضعف الدعامة الفكرية اللاهوتية للتاريخ في كتابين للمؤرخ الهولندي بطرس جيل Pieter Geyl أولهما (فوائد الحضارة ومضارها) وقد صدر سنة ١٩٥٥ وتانيهما (مناظرات مع المؤرخين) وقد صدر سنة ١٩٥٧^(١) .

وثمة تهديد أكثر خطورة لمستقبل التاريخ يكمن في الطريقة التي بعثت بها الحماسة للحرب وما صاحبها من عواطف تجيش في صدور المؤرخين منذ سنة ١٩٣٩ . ولم يسمح المؤرخون هذه المرة لتلك العواطف أن تفتر وتسرد حالة التوازن مثلما حدث بعد سنة ١٩١٨ ، وهو الموقف الذى تناولناه بالتفصيل في صفحات سابقة . وفيما يلي ما كتبه مؤرخ البحرية الإنجليزية البارز رسل جرنفيل Russel Grenfell موضعاً تأثير ذلك الموقف على صحة المثل التاريخية وسلامتها . « سوف يبدو لي ولك — نحن الذين عشنا في العالم المنحدر فكراً إلى هنا عالم ما قبل ١٩١٤ — اندفاع المؤرخين المتعمد إلى بحر الزيف والتشويه مما يعتبر ظاهرة خطيرة . من منا كان يستطيع أن

(١) أحسن المراجع عن توينبى ما كتبه المؤلف بعنوان مقدمة للتاريخ وعلم الاجتماع ونشرته جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٨ .

يصدق في العقد الأول من هذا القرن أن القيم التي كانت تبدو راسخة في أعماق مهنة التاريخ سوف تختفي بهذه السهولة وهذه السرعة تاركة وراءها فئة قليلة من المحتجين الذين لا يعبأ بهم أحد ، والذين سيكون على ضياع هذه القيم ؟^(١) .

والسبب الرئيسي في عدم تماثل أي فرصة أمام المؤرخين للعودة إلى الموضوعية المعقولة منذ سنة ١٩١٩ هو أنه ما أن وضعت الحرب الساخنة أوزارها سنة ١٩٤٥ ، حتى بدأت الحرب الباردة في أوائل سنة ١٩٤٧ أي في خلال حكم الرئيس ترومان . وهذا امتد تحيز المؤرخ بسرعة من ألمانيا وإيطاليا إلى روسيا والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية . وكانت معظم هذه الكراهية أصيلة غير مفتعلة على الرغم من أن بعضها كان بالتأكيد مصطنعاً قصد به تحقيق أغراض وقائية وعلى الأخص من جانب المؤرخين ذوي الميول الشيوعية القوية قبل سنة ١٩٤٥ .

وقد أوضح المؤرخ البريطاني البارز أ.ج.ب. تايلور مؤلف كتاب (أصول الحرب العالمية الثانية) تأثير ذلك الاتجاه على استقلال التاريخ ورحابة أفقه . ففي تعليقه على كتاب «بين الحرب والسلام» للكاتب هربرت فيز Feis وهو من أبرز من يعرفون بمؤرخي البلاط في هذا العصر وأكثرهم إنتاجاً . كتب تايلور يقول : «أمامنا مذكرة حكومية ترجمت إلى مصطلحات تاريخية أكاديمية . إن استنتاجات دكتور فيز لا تستند إلى أدلة حيث إنه افترض فيها ذاتية الوضوح قبل أن يبدأ في تأليف الكتاب . وكان هناك حين من الوقت نفى فيه المؤرخون عن أنفسهم التزامهم القومي ، وكتبوا كما لو كانوا يرقبون الأمور من كوكب آخر . والواقع أنه عندما كان المؤرخون الأمريكيون يكتبون عن أصول الحرب العالمية الأولى أخذوا يعودون إلى الوراء وابتعدوا كثيراً إلى حد أنهم انحازوا إلى الجانب الألماني . ولا نعرف اليوم حتى لدى العلماء الباحثين انفصالاً عن الحرب الباردة ، إذ إننا نجد المؤرخين الأكاديميين في الغرب يؤكدون استقلالهم العلمي حتى ولو كانوا يعملون في إدارة حكومية . ولكنهم «مرتبطون» إلى الحد الذي يجعلهم يبدون وكأنهم يرتدون الأزياء الأنيقة التي أعدها دكتور جوبلز خصيصاً للأساتذة الألمان»^(٢) .

(١) في رسالة منه إلى المؤلف في ٢٣ من ديسمبر ١٩٥٢ وارجع كذلك لقالة المؤلف في مجلة Liberation سنة ١٩٥٨ .

(٢) ارجع إلى المانستر جارديان الأسبوعية ١٩ من يناير ١٩٦١ ، وارجع كذلك إلى ملاحظة مؤرخ انجليزي بارز آخر هو هربرت نيرنيلد عن التاريخ الرسمي في كتاب History and Human Relations (McMillan 1952 pp. 182-224)

ويتمثل أكثر الجوانب خطورة هذه السيطرة البيروقراطية على الكتابة التاريخية ، وهذا الربط بين الحقيقة التاريخية والسياسة الحكومية في أن هذين الشيئين يمثلان الخطورة الأولى والهامة نحو الانزلاق إلى حالة سينة للتاريخ ولما سيصبح عليه سنة ١٩٨٤ . فنجد هنا توافقاً كاملاً من جانب الكتابة التاريخية مع الاتجاهات والآراء اليومية التي تخلفها النزوات والرغبات والأمزجة الحربية والتي قد تتطور إلى تزوير الحقائق وحجبها أو حتى تدمير الوثائق من أجل الوصول إلى نتائج معينة . وتوضح الفقرة الآتية من كتاب جورج أورويل George Orwell الروح التي تسيطر على الكتابة التاريخية في ظل مبادئ اينجسوك Ing-soc الذي يمثل الإطار الايدولوجي للنظام القائم في سنة ١٩٨٤ : «تعاد كتابة التاريخ باستمرار ، وهذا التزوير الذي يتم يوماً بعد يوم والذي تقوم به وزارة الصدق والحقيقة» ضروري بالنسبة لاستقرار النظام القائم بالضبط مثل ضرورة أعمال الكبت والتجسس التي تقوم بها «وزارة الحب» . فأحداث الماضي ليس لها وجود موضوعي . وكل ما هنالك أنها تعيش في سجلات مدونة وفي ذاكرة البشر . والماضي هو كل ما تتفق حوله السجلات والذاكرة . وحيث إن الحزب مسئول عن كافة السجلات ومسيطر على عقول أعضائه ، فإنه يترتب على ذلك أن الماضي هو كل ما يختاره الحزب ليكون كذلك . وقد أصبحت عملية التأكد من أن كافة السجلات تتفق مع ما نفترض أنه الصواب في حاضرتنا عملية ميكانيكية . ومن الضروري كذلك أن نتذكر أن الأحداث وقعت فعلاً بالشكل المرغوب فيه . وإن كان من الضروري أن نعيد ترتيب ذاكرتنا أو نقلب في السجلات المدونة ، فإن علينا أن ننسى «أنتا قد فعلنا ذلك» .

ويتضح بعد هذا الإجراء التاريخي عند انجسوك Ing-soc أن المصادر والتدمير المتعمدين لكل الوثائق التي تتعارض مع ما يؤخذ على أنه الحقيقة التاريخية في أي وقت من الأوقات ستكون سمة العصر .

وقد يشعر كثير من القراء أننا مازلنا بعيدين جداً عن مثل هذا الموقف . ولكن الحقيقة هي أننا نعيش فعلاً في جو تاريخي أشبه ما يكون بهذا الموقف . والفرق في الدرجة وليس في النوع . فباستثناء عدد قليل من كتب التاريخ التي صادفت كثيراً من الاحتقار لا توجد كتابة تاريخية منذ سنة ١٩٣٩ حتى في العالم الحر الذي تحدى ونفذ سيطرة الدولة على الكتاب . وإنها حقيقة ثابتة أن أهم الوثائق المتعلقة بدبلوماسية الحرب العالمية الثانية قد صودرت أو دمرت . وهناك حوالى أربعين

مجلداً تحوى وثائق خاصة بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الفترة الأخيرة ، كلها تنتظر الطبع والنشر ولكن لم يتم شىء يذكر من أجل تنفيذ ذلك البرنامج على الرغم من المال الكافى الذى رصد له وعلى الرغم من أن المسئولين وعدوا رسمياً فى مايو ١٩٥٣ بالعمل على سرعة طبعها ونشرها . كذلك تضيف أن الوثائق التى تم نشرها أخيراً عن مؤتمرات القمة فى وقت الحرب مثل مؤتمرى بالتا وطهران جاء مشوهة وبعضها حجب تماماً ، فضلاً عن أن التحقيق فى كارثة بيرل هاربور كشف عن حجب وتشويه وتدمير بعض الوثائق الدامغة التى تتعلق بالمسئولية عن تلك الكارثة التى حلت بالأسطول الأمريكى .

وقد لا يكون الموقف على درجة تنير الفزع فى صفوف المشتغلين بالتاريخ . وهذا هو الواقع فعلاً ، لأنه لا يوجد اتجاه عام لدى المؤرخين للاتجاهات الجارية . ولكن سيكون من المزعج حقاً للمؤرخين الذين يتمسكون بالمثل القديمة الخاصة بالتكامل والصدق أن يستسيغوا الآراء المنطرفة التى ينضمها هذا الكتاب .

نبذة عن تاريخ تأريخ التاريخ

أبدى أحد أصدقاء المؤلف عندما علم بمشروع وضع سطور هذا الكتاب ملاحظة مؤداها أنه لن يمر وقت طويل حتى يظهر من سيكتب تاريخاً لتأريخ التاريخ . والواقع أن مقالة عن هذا الموضوع تظهر فى مجلة تاريخية محترفة ستكون حتماً مفيدة وذات أهمية ثقافية ونأمل أن نراها فى وقت قريب . وليس هناك ختام أفضل وأنسب لهذا العرض المختصر لتكريخ الكتابة التاريخية من أن نلخص ما تم إنجازه فى هذا المجال حتى يومنا هذا .

ظهرت الخطوة الأولى نحو مناقشة الكتبة التكريخية فى عهدها الأول فى كتاب بوليبيوس عندما استعرض ونقد مناهج الكتابة السابقة على عصره ، والتى كتبها الأقدمون عن التاريخ الرومانى وتكسج تلك الكتابات . وكانت الغالبية العظمى من الكتابات التاريخية الإغريقية والرومانية — كما سبق أن أوضحنا — عبارة عن تاريخ معاصر ، ومن ثم لم يكن هناك سوى قليل جدك من الكتاب ممن شغلوا أنفسهم بالكتابة عن العصور السابقة على عصرهم . وبالتالى فإنه لا يمكن مناقشة أعمال المؤرخين الأوائل ونقدها بطريقة منظمة . ثم ظهرت بعد ذلك من المؤرخين المسيحيين ابتداء من بوليوس افريكانوس حتى جيروم من تناولوا أعمال المؤرخين الوثنيين

واليهود . كذلك دأب مؤرخو المدونات التاريخية والحوليات في خلال العصور الوسطى على دراسة الأعمال التاريخية على الأقل بهدف الاستفادة منها في كتابة مخطوطاتهم . وفي عصر حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة لها ظهرت أبحاث على أعلى مستوى من التنظيم حول الكتابة التاريخية عن المؤرخين القدامى . هذا إلى أن مؤلف كتاب (مثنويات ماجدبرج) والكاردينال باروفيسوس وآخرون غيرهم تناولوا بالنقد الكتاب الذين اشتغلوا بالتاريخ الديني منذ أيام رسل المسيحية والحواريين حتى القرن السادس عشر . كذلك قام كتاب المدرسة الإنسانية منذ فلافيوس بلوندوس حتى سيجنوبوس وليفسك دي يويل Leves wue de Pouilly بتحليل مؤلفات الكتّاب الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط ، أما ناقدر الكتاب المقدس ابتداء من عزرا حتى استروك وريما Astruc and Reimarus فقاموا ببحث المصادر التاريخية الكتاب المقدس .

ثم تابع المؤرخون العقلانيون وأصحاب المدرسة الرومانسية هذه الدراسات الناقدة إلى أن أصبحت أمراً منظماً وجهداً موحداً ، في الفترة التي ظهرت وتمت فيها حركة جمع مصادر التاريخ القومي والمدرسة الناقدة والمدرسة الناقدة الحديثة في التاريخ ، ونهض كبار الكتاب أمثال موراتورى Munatori ، ويتز Waitz ، جيزر Guizot ، مولينير Molinier ، جيرارد Guerard ، ستبس Stubbs ومن إليهم بعملية نقد وتقييم الكتاب المسيحيين الأوائل ومؤرخي العصور الوسطى . وقد فعل الشيء نفسه علماء أمثال نيبوهر Neibhur ، وويتز Waitz ، فون رانكه بالنسبة لمؤرخي العصور القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة .

وكان أن ترتب على جهود الناشرين ظهور أول حصيلة مرموقة من الكتب التي تعتبر بحق تأريخاً للكتابة التاريخية . وكانت هذه الكتب المرشد الأساسي في التاريخ القومي حيث أعطت نبذات مختصرة عن أبرز المؤرخين الذين كتبوا عن ماضي الشعوب ، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى العصور الوسطى ومستهل العصر الحديث ، وكان أول هذه الكتب ذلك الذي أصدره فردريك داهلمان Fredrich Dahlaman سنة ١٨٣٠ بعنوان « مصادر التاريخ الألماني » الذي تولى جورج وايتز مراجعته وظهرت منه عدة طبعات . وتعتبر الطبعة الثانية التي أشرف عليها بولس هير Paul Herre في سنة ١٩١٢ مجلداً عظيماً فخماً ، إذ صنف فيه باختصار كل الأعمال المتعلقة بالتاريخ الألماني والتي صدرت باللغة الألمانية قبل سنة ١٩١٢ . وهناك أيضاً كتاب « مصادر التاريخ الألماني في العصور الوسطى » الذي وصفه ويلهلم واتنباخ ، اوتوكار لورنز وهو كتاب أكثر تكاملاً من سابقه فيما يتعلق بالعصور الوسطى .

أما في فرنسا فلقد أسدى كتاب « مصادر التاريخ الفرنسي » خدمة جليلة لا تقل عما أسداه لألمانيا كتاب ويتز عن مصادر تاريخها . كذلك خدم أوغسط مولنيير August Molinire ، هنري هاويز Henri Hauser ، اميل بورجو Emil Bourgeois ، أندريه لويس Andre Louis التاريخ الفرنسي في عملهم العظيم بعنوان (مصادر تاريخ فرنسا) وهو ما يشبه ما فعله واتنباخ ، لورنز للتاريخ الألماني . ويصل هذا الكتاب الفرنسي في قائمته ونقده حتى ١٧١٥ . وأعد العلامة الأمريكي شارل جروس Charles Gross عرضاً لا يرقى إلى صحته شك للمؤرخين الإنجليز في العصور الوسطى وذلك في كتابه « مصادر وكتبة التاريخ الإنجليزي » وهو الكتاب الذي قام جودفري ديفز Godfrey Davis بإكماله . فتناول فترة حكم أسرة استيوارت . كذلك اهتم معظم الدول الأوروبية الأخرى بنشر كتب مماثلة عن تاريخ الكتابة التكريحية فيها . ويمكن أن نجد بياناً بهذه الكتب (المرشد إلى الكتابة التاريخية) . أما في أمريكا فقد قام شاتنج Channing ، هارت Hart ، تيرنر Turner بإعداد كتاب مرشد ممتاز عن الكتابات الخاصة بالتاريخ الأمريكي .

ونجد في سلسلة كتب (أوائل المؤرخين في أوروبا) ، التي يصدرها جيمس جردنر ، جوستاف ماسون ، أوجو بالزاني ، عرضاً رائعاً لتاريخ الكتابة في العصور الوسطى في كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا — كما تعطي هذه السلسلة نبذة عن المؤرخين الألمان في العصور الوسطى وذلك لما كان من علاقات وثيقة بين إيطاليا وألمانيا في تلك العصور . وإذا ما أراد الباحث تفاصيل أكبر عن الكتابة التاريخية الألمانية في العصور الوسطى فعليه بالرجوع إلى كتب واتنباخ ، لورنز . كذلك نجد في كتاب العلامة الفرنسي شارل ف . لانجلو Charles V. Langlois واسمه « بحث في الفهارس التاريخية Manual of Historical Bibliography » عرضاً مختصراً وتقييماً لكافة الكتابات التاريخية منذ نهاية العصور الوسطى .

وهناك كتاب مفيد مثل سابقه ألفه شارلز كندال آدمز Charles Kendall Adams بعنوان (بحث في المؤلفات التاريخية) يضم قائمة بأهم الكتب عن التاريخ الإنجليزي والفرنسي والألماني كما يحوى وصفاً لها ويكمل هذا الكتاب الذي ظهر قبل ١٨٨٩ كتاب هام آخر (المرشد إلى الكتابة التاريخية) الذي وضع خطته وأشرف على تحريره جورج م . دوتشر George M. Dutcher ، وليم هـ. اليسون Allison وآخرون . ويعطي هذا الكتاب اهتماماً خاصاً للأعمال التي ظهرت فيما بين سنتي ١٨٨٩ ، ١٩٣٠ وظهرت طبعة جديدة في سنة ١٩٦١ تحت إشراف ج . ف . هو G.F.Howe .

وإذا كانت هذه المؤلفات التي ذكرها آنفاً تعتبر جهداً خالداً ، فضلاً عن أنها تزودنا بمداخل للكتابة التاريخية ، فإنها مع ذلك ليست إلا تاريخاً عابراً للكتابة التاريخية . ولعل أول عمل هام يمكن أن يقال بحق إن مؤلفه قصد به أن يكون فعلاً تاريخاً للكتابة التاريخية ، هو كتاب (فلسفة التاريخ في أوروبا) . « فرنسا وألمانيا » الذي ألفه روبرت فلتنت سنة ١٨٧٤ . وقد عكف مؤلفه في خلال العشرين سنة التي أجهت ظهوره على توسيع الجزء الخاص بالمؤرخين الفرنسيين وجعل منه مجلداً كاملاً مستقلاً . ولكنه لم ينشر رسالته المطولة عن المؤرخين الألمان . وكان هذا الكتاب أكثر من مجرد تاريخ لفلسفة التاريخ حيث إنه تناول الكتابة التاريخية عند العقلايين والمدرسة الرومانسية والقومية ، فضلاً عن الكتابة التاريخية في مدارس البحث الأولى ، ومدارس فلسفة التاريخ المعترف بها . وكانت هناك في الفترة التي أعقبت صدور كتاب فلتنت مؤلفات عديدة عن تاريخ الكتابة التاريخية . ولما كانت كلها قد ظهرت في السنين الأخيرة فإن الأفضل أن نتناولها من حيث الفترات التاريخية المتعاقبة التي تتعرض لها وليس وفق تاريخ صدورها .

فبالنسبة للعصر القديم بأكمله لا يوجد كتاب أفضل من كتاب جيمس ج . شوتويل « مقدمة لتاريخ التاريخ » الذي تناول الكتابة التاريخية منذ المجتمع البدائي حتى عصر المؤرخين المسيحيين . وكان الأستاذ شوتويل ينوي إصدار كتاب عن تاريخ التاريخ كله كما يدل على ذلك بحثه الرائع عن التاريخ في دائرة المعارف البريطانية ولكن لم يصدر الآن إلا ذلك الجزء الأول الذي لا يدانيه أي عمل مماثل كتب بلغة أخرى . وفيما يتعلق هنا بالشرق الأدنى فإن أقيم كتاب في هذا المجال هو كتاب (الفكر الاجتماعي للحضارات القديمة) الذي وصفه عالم الاجتماع جويس أ . هيرتزler Joyce o. Hertzler وكذلك كتاب (السجلات المصرية القديمة) الذي ألفه جيمس برستيد ، وهو الذي يزودنا بعرض لأهم الكتابات التاريخية عن قدماء المصريين . ويساويه في الأهمية كتاب ادولف إرمان Adolf Erman بعنوان (الكتابة الأوربية عند قدماء المصريين) . أما فيما يختص بالكتابة التاريخية في أرض ما بين النهرين في العصر القديم فتوجد عنها المقدمة الممتازة في كتاب أ . ت ، أولستيد عن كتابه « التاريخ عند الآشوريين » . ولا يوجد كتاب تاريخي مماثل يبحث في الكتب التاريخية والبابلية . وإذا كانت هناك ترجمة لكثير من النصوص التاريخية في كتاب « الكتابة عند الآشوريين والبابليين » مؤلفه روبرت ف . هاربر وكتاب « النقوش الملكية » عند السومريين والأكاديين للمؤلف د : د . لوكنيل . وهناك عدة كتب تعتبر مداخل لتاريخ الكتابة التاريخية العبرية أبرزها كتاب « أدب العهد القديم » لجورج فوت مور George Foote Moore

كذلك لدينا عن تاريخ الكتابة عند الإغريق القدماء ، ذلك الكتاب الرائع الذى ألفه جون . ب . بيورى تحت عنوان « المؤرخون اليونانيون القدماء » وهو أيضا يضم عرضاً مختصراً عن الكتابة التاريخية عند الرومان . ولدينا عمل مماثل عن تاريخ الكتابة التاريخية الرومانية لويلهلم سولتو Wilhelm Soltau . هذا إلى جانب العديد من الأبحاث الفنية لمصادر التاريخ الرومانى مثل تلك التى وردت فى كتاب مقدمة للتاريخ الرومانى ومصادر مادته لأثر روزنبرج وكتاب « الكتابة التاريخية للإمبراطورية الرومانية حتى عهد ثيودوزيوس الأول » لمؤلفه هرمان بطرس Hermann Peter . وقد وضع كتاباً آخر يوضح فيه السيطرة التامة للبلاغة على الكتابة التاريخية فى العصور القديمة وهو كتاب « الحقيقة والفن » ، هذا فضلاً عن كتب كثيرة تتناول المؤرخين اليونانيين والرومان منفردين مثل كتاب جلوفر Glouer عن هيرودوت وكتب كل من جراندى Grundy ، أبوت Abbott ، كورنفورد عن ثيكوديدس وكتاب بوسير Bossier عن تاكينوس .

أما أحسن المداخل فى علم الكتابة التاريخية فى المسيحية فهو كتاب جوستاف كروجر بعنوان (الكتابة المسيحية فى عصرها الأول ، وكتاب بطرس دى لا برويل Pierre de Labriolle (التاريخ والأدب المسيحى) كذلك يحوى كتاب اندريه لاجارد ، « الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى » عرضاً مختصراً لا بأس به للمؤرخين الكنسيين فى العصور الوسطى .

ويعتبر كتاب الكتابة التاريخية فى المسيحية والعصور الوسطى لمؤلفه مورترز ريتار Moritz Ritter أكثر تكاملاً من سابقه . وقد نشرته أول مرة المجلة التاريخية الألمانية . ولقد كان من الضيعى أن تعرض الكتابة التاريخية عن العصور الوسطى للمؤرخين المسيحيين . وقد أصدر بطرس جليداى كتاباً قيماً يحوى نبذات عن المؤرخين الكاثوليك منذ ايزيوس حتى مؤرخى النصف الثانى من القرن التاسع مثل دينفل Denifl . باستور Pastor . أما أحسن المداخل لتاريخ الكتابة التاريخية فى أوائل العصور فهو كتاب س.ج. ه. هايز C. J. H. Mayes بعنوان (المدخل للمصادر المتعلقة بالغزوات الجرمانية) وهناك عدد من الكتب الجيدة تعتبر مقدمات للكتابة التاريخية التى كتبها مؤرخو العصور الوسطى يأتى على رأسها ما كتبه تاوت Tout ، جنكنز Jenkins وستانلى لين بول . هذا فضلاً عن الأبحاث الممتازة عن المنهج التاريخى فى العصور الوسطى التى كتبها هيتزكويرين Heinz Quirin والآنسة شولز Schulz . وقد سبق أن أشرف على سلسلة المؤرخين الأوائل فى أوروبا . وتعتبر هذه السلسلة مع كتب كويرين quirin وواتنباخ Wattenbach أحسن عرض للكتابة التاريخية فى العصور الوسطى فى العالم المسيحى الغربى . أما

المدخل الوحيد المكتوب بالإنجليزية للمؤرخين البيزنطيين فهو كتاب « تاريخ الامبراطورية البيزنطية » الذي ألفه أ. أ. فاسيليف A. A. Vasiliev ويضم هذا الكتاب كذلك عرضاً جيداً لكل الكتابات التاريخية الحديثة عن الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى (في الفصل الأول من ص ١٣ - ٥٤) . والكتاب الوحيد الذي يتناول بالتفصيل موضوع الكتابة التاريخية البيزنطية هو كتاب كارل كرومبشر Karl Krumbecher تحت عنوان History of the Byzantine Literature From Justinian to the End of The Eastern Roman Empire . « تاريخ الكتابة الأدبية في الامبراطورية البيزنطية منذ جستنيان حتى نهاية الامبراطورية الشرقية » أما عن المؤرخين المسلمين فلدينا الكتاب المختصر لمارجوليوث (محاضرات عن المؤرخين العرب) والبحث الرائع عن ابن خلدون الذي كتبه ناثانيل شميدت والمعروف أن ابن خلدون هو أقدر كتاب التاريخ المسلمين .

وليس هناك عمل منفرد شامل عن الكتابة التاريخية في عصر النهضة على الرغم من أن هناك بعض الكتب الجزئية التي عالجت ذلك الموضوع والتي وصفها شيفل ، مورلي ، جيهارت ، جرفينوس عن المؤرخين الفلورنسيين فضلاً عن كتابات جويكامسن عن المؤرخين الألمان في عصر الحركة الإنسانية .

كذلك لا يوجد هناك مختصر شامل عن الكتابة التاريخية في عصر حركة الإصلاح الديني وإن كان هناك عرض فني رائع لمصادر تاريخ ذلك العصر في كتاب جوستاف ولف Gustav Wolf « مصادر تاريخ حركة الإصلاح الديني في ألمانيا » . أما عن العصر الحديث بأكمله فهناك كتاب العلامة السويسري ألفرد المرحوم إدوارد فيوتر وعنوانه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهو كتاب يضم نبذة ممتازة عن الكتابة التاريخية في عصر النهضة والإصلاح الديني . وقدم أدولف رين Adolf Rein خير بحث عن تأثير التوسع فيها وراء البحار على الكتابة التاريخية الأوربية ذلك في كتابه « صدى مشكلة التوسع الأوربي في الكتابة التاريخية » . وعالج جون ب . بلاك John B. Black في كتاب « فن التاريخ » مؤرخي عصر التنقل البارزين مثل فولتير ، هيوم ، روبرتسون ، جيبون . ويعتبر هذا الكتاب على الرغم مما فيه من اقتضاب من أحسن الكتب وأمتعها التي تناولت تاريخ الكتابة التاريخية . ويوجد في مؤلفات روبرت فلنت التي سبقت الإشارة إليها دراسة لتاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة الرومانسية . كذلك قام فيوتر بعمل موجز رائع عن أولئك الكتاب الرومانسيين . ثم إننا نجد وصفاً ممتازاً وتقييماً سليماً لتاريخ الكتابة التاريخية القومية ونشأة المدرسة

الناقدة في الكتابة التاريخية في كتاب جورج بيودي George Peabody الذي عنوانه « التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر » . كذلك عاليج لويس هالفن وآخرون بالتفصيل الفترة الحديثة جداً — وهي الفترة التي مر عليها جوش Gooch مرأً سريعاً — وكان ذلك في كتاب بعنوان « التاريخ والمؤرخون في الخمسين سنة الأخيرة » وصدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٧ كما عولجت الفترة نفسها في الكتاب الذي أشرف على إخراجه ستبرج بعنوان The Historical Science Of 'The Present In Individual Exposition'.

وهناك عدد من المؤلفات التي تناولت تاريخ الكتابة التاريخية في دول الغرب المتقدمة . وقد حظيت ألمانيا بأكمل وأحسن شأن في هذا الشأن ، فنجد عرضاً كاملاً لتاريخ الكتابة التاريخية في ألمانيا في العصور الحديثة في كتاب فرانز فون ويجل Franz Von Wegle كما أن أنطوان جويلاند Antoine Guiland ناقش في كتابه (ألمانيا الحديثة ومؤرخوها) تاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة القومية . كذلك تناول جورج بيلو George Below في إلمام كامل الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر في كتابه الكتابة التاريخية الألمانية من حرب التحرير حتى يومنا هذا) . ويوجد أحسن عرض لتطور التاريخ القومي وتاريخ مدارس البحث في فرنسا . في كتاب (التاريخ في فرنسا في خلال المائة سنة الأخيرة) الذي ألفه لويس هالفن . وكتب بنيتو كروز نبيذة مطولة عن الكتابة التاريخية الإيطالية في القرن التاسع عشر .

أما عن إنجلترا فليس هناك عرض كامل للكتابة التاريخية فيها . ولكن هناك مادة حول المؤرخين الإنجليز في القرن التاسع عشر وذلك في كتاب جوش Gooch أما أهم المؤلفات الخاصة التي تناولت الكتابة التاريخية الإنجليزية فمنها كتاب « المواطن الإنجليزي وتاريخه » لهربرت باترفيلد Herbert Butterfield وكتاب فترة الانتقال في الكتابة التاريخية الإنجليزية (١٧٦٠ - ١٨٣٠ م) . وكتب بطرس بلوك Petrus Block كتاباً هاماً عنوانه ، الكتابة التاريخية في هولندا . وفي روسيا كتب بولس ميليوكوف Paul Miliukov أبحاثاً عدة عن الكتابة التاريخية الروسية منها بحث « التيارات الرئيسية في الكتابة التاريخية الروسية » . وكتب ج . فرانكلين جيمسون J. Franklin Jameson منذ عدة سنوات كتاباً بعنوان (تاريخ الكتابة التاريخية في أمريكا) ووصل بهذا التاريخ حتى تناول المؤرخين الأدباء العظام أمثال جوفلي وباركان وبرلسكوت وبانكروفت ومن إليهم . وقد عاليج هذه المجموعة نفسها من المؤرخين جون س . باسست Johns. Basseth في كتابه المجموعة الوسطى من المؤرخين الأمريكيين كما عاليج داود ليفن

David Levin في كتابه (التاريخ كفن رومانسي) . وأوجز - ثيودور كلارك سميث ردليام أ .
واننج ، والان نيفنز ، أ.م . شلزنجر ومساعدوه تاريخ الفترة الحديثة في أمريكا . واستطاع مايكل
كراوس Micheal Kraus لأول مرة في كتابه « تاريخ التاريخ الأمريكي » . أن يتناول تاريخ
الكتابة التاريخية بأكمله . كذلك عالج هذا التاريخ كله ماركوس و . جيرنجان Marcus W. Jer-
negan في كتابه (أبحاث في الكتابة التاريخية الأمريكية) . ويوجد العرض المطول الوحيد لنشأة
تاريخ الثقافة والنظم وطابعها في كتاب للمؤلف بعنوان ، (التاريخ الجديد والدراسات
الاجتماعية) كذلك هناك بحث رائع لفكرة أن التاريخ علم اجتماعي في مؤلفات
ف . ج . تيجارت F. J. Teggart التي تحمل أسماء (المدخل إلى التاريخ) و (نظريات
التاريخ) . ولم يتم التوصل إلى عرض كامل بدرجة معقولة لتاريخ الكتابة التاريخية إلا بعد صدور
الطبعة المنقحة من هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ وضمه إلى كتاب (تاريخ الكتابة التاريخية) الذي ألفه
وستفول طومبسون Westfall Thompson وهو يقع في جزئين وصدر سنة ١٩٤٢ وكتاب (كتابة
التاريخ الأمريكي) الذي صدر سنة ١٩٥٣ لمايكل كراوس والنيزة التي عنوانها (تطور كتابة
التاريخ) ، الذي أشرف على إخراجه م . أ . فيتزسيمونز A. Fitzsimons M. . ج . بندت
A.G. Pundt ، س . أ . نويل . C.E. Nowell .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

Robinson, *The New History*.

"New Ways of Historians," *Loc. cit.*

H.E. Barnes, ed., *An Introduction to the History of Sociology*, chaps. XXXvii

xlvi. University of Chicago Press, 1948.

The New history and the Social Studies.

History and Social Intelligence.

Barnes and Becker, *Contemporary Social Theory*.

Jacques Barzun, *The House of the Intellect*. Harper, 1959.

Smith, Carl Becker: *On History and the Climate of Opinion*.

B.T. Wilkins, *Carl Becker*. Harvard University Press, 1961.

For an excellent summary survey of the literature on the history of history and historiography, see the bibliography in the *Encyclopedia of the Social* 15 Vols., Macmillan, 1932, Vol. VII, PP. 389-91. See also Fitzsimons et al., *op.cit.*, PP. 44 ff. A considerable number of desirable additions to the list books mentioned in the above brief review of the history of history writing will be found in the *Supplementary Bibliography* at the end of this volume.

Lee Benson, *Turner and Beard*. Glencoe Free Press, 1960.

Dexter Perkins and J. L. Snell, *The Education of Historians in the United States*. McGraw-Hill, 1962.

E. T. Gargan, ed., *The Intent of Toynbee's History*. Loyola Univ. Press, 1961.

R.G. Collingwood, *The Idea of History*. Oxford University Press, 1946.

- Allan Nevins, *The Gateway to History*. Appleton-Century, 1938.
- Louis Gottschalk, *Understanding History*. Knopf, 1950.
- Geoffrey Barraclough, *History in a Changing World*. University of Oklahoma Press, 1956.
- Pieter Geyl, *The Use and Abuse of History*. Yale University Press, 1955.
- , *Debates with Historians*. Philosophical Library, 1957.
- George Orwell, *Nineteen Eighty-four*. Harcourt, Brace, 1949.
- C. L. Becker, *Everyman His Own Historian*. Crofts, 1935.
- Karl Lamprecht, *What Is History?* Macmillan, 1905.
- Odum, *American Masters of Social Science*.
- Schaumkell, *Geschichte der deutschen Kulturgeschichtschreibung*.
- Karl Heussi, *Die Krisis des Historismus*. Tübingen, 1932.
- E. H. Carr, *What Is History?* Knopf, 1962.
- P. L. Snyder, ed., *Detachment and the Writing of History*. Cornell University Press, 1958.
- Charles Samaran, ed., *L'Histoire et ses methodes*. Paris, 1961.
- J. H. Hexter, *Reappraisals in History*. Northwestern University Press, 1961.
- Cushing Strot, *The Pragmatic Revolt in American History*. Yale University Press, 1958.
- Donald Sheehan and H. C. Syrett, eds., *Essays in American Historiography*. Columbia University Press, 1961.

فهرس كتاب تاريخ الكتابة التاريخية

الفصل التاسع : الكتابة القومية تحت تأثير التحرير والقومية

- القومية والكتابة التاريخية ٥
- الكتابة التاريخية القومية في ألمانيا ٧
- التاريخ القومي في فرنسا ١٢
- التاريخ القومي في إنجلترا ١٩
- كتابة التاريخ القومي في بقية الدول الأوروبية ٢٣
- القومية اليهودية ٣٢
- مادة دور المحفوظات ٣٣
- كتابة التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية ٣٥
- التاريخ والقومية ٤٣
- التاريخ الكنسي ٤٤
- المراجع ٤٦

- الفصل العاشر : نشأة المدرسة التاريخية الناقلة ٤٨
- ليوبولد فون رانكه والمدرسة الألمانية ٥٦
- الكتابة التاريخية الناقلة في فرنسا ٦٢

- المدرسة التاريخية الناقدة في إنجلترا ٦٧
- المدرسة التاريخية الناقدة في بقية البلدان الأوروبية ٧٢
- الكتابة التاريخية الناقدة في الولايات المتحدة الأمريكية ٧٥
- الفروض القائمة خلف الموضوعية في كتابة التاريخ ٨٥
- المراجع ٩٦

الفصل الحادى عشر : ٩٨

- ثم أقبل الفجر ١٠٢
- وجهات نظر الباحثين عن مسئولية الحرب ١١٢
- المراجع ١١٦

الفصل الثانى عشر : اتساع أفق المؤرخ وتعدد ميوله

- امتداد جوانب النشاط التاريخى فى الأزمنة المعاصرة ١١٧
- تاريخ الفكر ١٢٢
- تاريخ العلم ١٢٦
- تاريخ التكنولوجيا ١٢٨
- التاريخ الاقتصادى ١٣٠
- التاريخ الاجتماعى ١٣٣
- تاريخ النظم السياسية ١٣٥
- التاريخ العالمى ووجهة النظر العالمية ١٣٧
- التاريخ الثقافى العام ١٣٨
- التاريخ والإدراك الاجتماعى ١٣٨
- المراجع ١٤٠

الفصل الثالث عشر : نشأة تاريخ الحضارة : تاريخ الحضارة والثقافة

- ظهور الاهتمام بتاريخ الحضارة ١٤٢
- التاريخ الثقافى والمراحل الكبرى فى التاريخ البشرى ١٥٨
- المراجع ١٦٨

الفصل الرابع عشر : التاريخ وعلوم الإنسان

١٧٠	- الاتجاه الكون الجديد
١٧٢	- نظرية التطور ومغزاها بالنسبة للتاريخ
١٧٦	- ما أسهمت به الأنثروبولوجيا في خدمة علم التاريخ
١٨٥	- التاريخ وعلم الآثار
١٨٦	- نظرة أحدث عن تطور التاريخ
١٨٨	- عملية تقويم التاريخ وتقسيمه إلى فترات
١٩٣	- العوامل الجغرافية في التطور التاريخي
٢٠٠	- تفسير التاريخ
٢٠٦	- التاريخ والعلوم الاجتماعية
٢١٣	- أحدث المناهج في أسلوب تعليم التاريخ ودراسته
٢١٦	- التكنولوجيا الحديثة والمستحدث في كتابة التاريخ
٢٢٠	- المراجع

الفصل الخامس عشر : التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

٢٢٢	- اعتبارات تمهيدية
٢٢٥	- بعض ملامح انتصار التاريخ الجديد
٢٢٩	- برنامج التاريخ الجديد
٢٣٧	- التدريب المرغوب فيه بالنسبة للتاريخ الجديد
٢٤٣	- خلاصة القول فيما يتعلق بالتاريخ الجديد
٢٤٥	- الاتجاهات الحديثة والأخطار التي تتعرض لها الكتابة التاريخية
٢٥٢	- نبذة عن تاريخ تأريخ التاريخ
٢٦٠	- المراجع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الابداع بدار الكتب ١٥٣٠/١٩٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٢٣٨ - ٠

يتناول الجزء الثاني من هذا الكتاب الذى ألفه العلامة المؤرخ الراحل هارى
المربارنز وهو الكتاب الذى يذكر مؤلفه أنه الوحيد من نوعه بكافة اللغات دراسة
للمدارس التاريخية منذ نشوء الكتابة القومية وما كان لها من رد فعل تمثلت فى
نشأة المدرسة التاريخية النافذة التى تزعمها ليوبولد فون رانكه صاحب الموضوعية
فى الكتابة التاريخية
ويتناول المؤلف التأثير الخطير الذى تعرضت له الكتابة التاريخية من جراء
الحربين العالميتين الأولى والثانية .
ويختتم المؤلف كتابه بدراسة لبرنامج الطموح لما ينبغى أن يدرب عليه المشتغلون
بعلم التاريخ وكتابته والاتجاهات والأخطار التى تتعرض لها الكتابة التاريخية فى
عصرها الراهن .